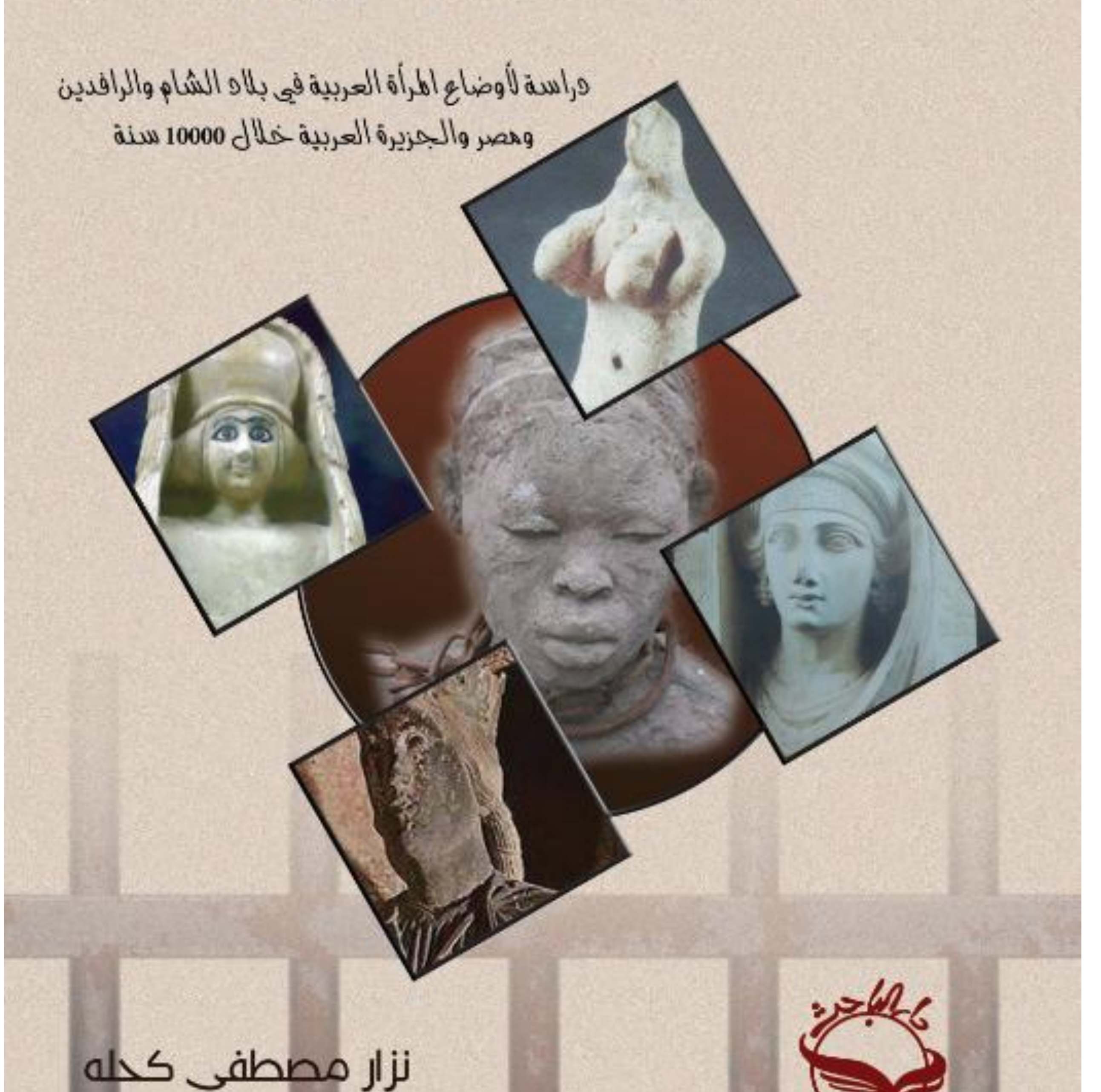
المرأة في التاريخ
ما بين التأليه والتوبيخ

دراسة لأوضاع المرأة العربية في بلاد الشام والرافدين
ومصر والجزيرة العربية خلال 10000 سنة



نزار مصطفى كحله

المرأة في التاريخ ما بين التأليه والتوبيخ

دراسة لأوضاع المرأة العربية في بلاد الشَّام والرافدين
ومصر والجزيرة العربية خلال ١٠٠٠٠ سنة

القسم الأول

٨٠٠٠ ق.م – ٦١٠ م

تأليف
نزار مصطفى كحله

اسم الكتاب: **المرأة في التاريخ ما بين التأليه والتوبيخ – القسم الأول.**

اسم المؤلف. نزار مصطفى كحله.

نوع الكتاب: دراسة تاريخية.

الطبعة: الأولى ٢٠١٩م

عدد النسخ: ٣٠٠ نسخة.

موافقة وزارة الإعلام: رقم ١١٦٨٣٨ تاريخ ٤ / ٢ / ٢٠١٩م

مطبعة دار الباحث للطباعة والنشر، سورية، سلمية.

٠٣٣/ ٨٨١٦٠٨٠ – ٨٨١٤٤٩٨

٠٣٣/ ٨٨١٠٠٧٤ – ٠٩٦٦٨٣٦٩٠٤

الإهداء

إلى من رَعَت بِهدبِ عينيها كُلَّ حرفٍ من حروفِ هذا الكتاب... **زوجتي ريم**

إلى من وهبتني الحياة ... **أمي الغالية**

إلى من شُغِلْتُ عنهم كثيراً في إنجازِ هذا الكتاب... **وَلَدَيَّ رامي وقصي**

إلى كُلِّ أنثى تعتزُّ وتفتخر بأنها أنثى

إلى مهدِ الحضارة ... **بلادي سوريا**

مُقدمة

يُعدُّ البحث في تاريخ المرأة عامةً، والمرأة العربية خاصةً، ودورها في تطوّر الفكر الإنساني، وانعكاس هذا التطور على وضع المرأة في المجتمع بشكل عام، والمجتمع العربي بشكلٍ خاص، بحثاً جديراً بالاهتمام، لِمَا قد يترتب عليه من نتائج، قد تؤدي إلى ثورة فكرية واجتماعية، قد تؤدي – هي الأخرى – إلى تغييرٍ شامل في مسيرة هذا الفكر الإنساني المهم، وتغييرٍ شاملٍ – أيضا – لأسس بناء المجتمع، عبر العصور.

وإنني على علمٍ، بأن هذا البحث، يحتاج إلى جهدٍ مُضنٍ، وإرادةٍ حقيقيةٍ في القبول والتغيير، لأن تغييب الأنثى، بما تُمثِّلهُ من قوةٍ حقيقيةٍ، فيما لو أُحسن تقييم دورها الحقيقي، في بناء الحضارة الإنسانية، وفيما لو استطاع المجتمع الذكوري (البطريركي) أن يتنازل عن عرشه (الوهمي)، وفيما لو أدركت المرأة خصائصها المميزة لها، من الرجل، لاستطاع الإنسان، أن يبني مجتمعاً فاضلاً مُتكاملاً، يستفيد فيه، من كل ما للمرأة، وما للرجل من خصائص، يُكمِّل كلٌّ منهما الآخر، وعلى الرغم من كل تلك الصعوبات، فقد آثرتُ على نفسي المُضي به، لإدراكي لِمَا له من أهميّة قصوى، فيما لو لاقى القبول.

كما أُدرك تماماً، حاجة هذا البحث – لتحقيق المُراد منه – إلى جهود باحثين ومختصين من كِلا الجنسين، وإلى إرادةٍ حقيقيةٍ لدى الطرفين، وإدراكٍ واعٍ لعناصر القوة فيهما، والابتعاد عن ما يُسمى: من الأفضل ؟.

وأنا أعي تماماً، أن الفهم الحقيقي، لموضوع تحرر المرأة، في مجتمعٍ يحتاج فيه الرجل – أكثر – إلى هذا التحرر، فيما لو أدركنا المعنى الحقيقي للتحرر، لِمَا لهذا الموضوع من إشكاليةٍ فكريةٍ وتطبيقيةٍ لدى الجميع، ما بين قائلٍ: إن التحرر، يكون بتكسير القيود، وآخر يقول: بالتحرر من الجهل والفكر الغيبي، وثالثٍ: بالتحرر الاقتصادي، ورابعٍ: بخروج المرأة من البيت إلى العمل الوظيفي ... إلخ.

ورغبةً مني في تسهيل الإجابة عن هذه التساؤلات، فقد آثرت على نفسي ثانيةً، أن أُقدِّم هذه الدراسة المستفيضة لأوضاع المرأة، عبر كل مراحل التاريخ العربي، ورصد مكانتها في كلِّ مرحلةٍ على حدةٍ، وفي الكثير من الدول والممالك، التي مرَّت على أرضنا العربية، وذلك، خلال فترة زمنية طويلة جداً، تبدأ من الألف الثامن قبل الميلاد، وصولاً إلى عصر النهضة (اليقظة العربية) في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للميلاد. مُكتفياً في هذا القسم – الأول – منه بالفترة التاريخية ما بين ٨٠٠٠ **ق.م – ٦١٠ م**، أي حتى ظهور الإسلام، وفي إطارٍ جغرافي، يشملُ كُلّاً من بلاد الشام والرافدين، ووادي النيل، وشبه الجزيرة العربية، باستثناءات طفيفة جداً اقتضتها ظروف البحث، علّنا من خلال هذا العرض التاريخي الواسع لأوضاع المرأة، نجد الإجابة الشّافية للكثير من التساؤلات، حول أوضاع المرأة العربية، في عصرنا، ومدى قدرتها على مجاراة الرجل، إن على الصعيد العقلي الفكري، أو على صعيد العمل والإدارة والإنتاج العلمي، بكلِّ أشكاله، أو على صعيد الحكم، وما هي الظروف التي أدت إلى تراجع دور المرأة عبر أغلب مراحل التاريخ، وأنواع المؤثرات التي ساعدت على حدوث هذه التغيرات، وسَيُرَكَّزُ على أوضاع المرأة في الكثير من الدول والممالك التي قامت في المنطقة الجغرافية – موضع البحث – إن في عصور ما قبل التاريخ، أو بعده، سواء قبل الميلاد، أم بعده.

كما أنَّ هذا البحث، سيكون بمثابة مرجعٍ مهم لِكلِّ طالبِ علمٍ في البحث عن تاريخ المرأة العربية، لأسباب منها:

١ – الامتداد الزمني الكبير لتاريخ المرأة ما بين (٨٠٠٠ ق.م – ٢٠٠٠ م، وفي هذا القسم ما بين ٨٠٠٠ **ق.م – ٦١٠ م**) وإن على صعيد الاختيار الجغرافي لأهم منطقة عربية، قامت عليها أهم الحضارات القديمة والوسيطة، وهي منطقة جغرافية مهمة، تقع بين قارات العالم القديم الثلاث، أو على اعتبارها أرضاً لمهد الحضارات الإنسانية جمعاء.

٢ – بسبب غزارة المعلومات، المُفصَّلةَ، حول حياة المرأة اليومية، إن داخل جدران القصور والعروش العاجيّة، أو خارج هذه الجدران، من خلال رصد حياة المرأة في المنازلِ العاديّة، لمعرفة حياتها اليومية ومكانتها في المجتمع، وما تعانيه من صِعاب؟ وما هي الأعمال الموكلةُ لها؟ وما نظرة المجتمع بكافة شرائحه، لها؟ رغم ندرة هذه المصادر، ولا سيّما التاريخ القديم منها.

٣ – كذلك، من خلال رفد المكتبة العربية، بكتابٍ جديد غني بالمعلومات حول تاريخ المرأة العربية، وأوضاعها على امتداد زمني كبير.

وهنا، أودُّ من خلالِ هذا البحث، إثارة الباحثين لمزيدٍ من العمل والبحث في مجال تاريخ المرأة العربية، علّنا نضع يدنا على أهم أسباب تراجع أوضاع المرأة العربية، ومن ثمَّ، نكون قد وضعنا يدنا على التشخيص الصحيح، الذي يُعتبر نصف العلاج.

كما أن هذا البحث، يُضيف لبنةً أخرى في جدار عظمة التاريخ، لِمَا يقدمه لنا – هذا العلم – من عِبَرٍ وتجارب، تكون بمثابة قانون مضمون النتائج، يُعطينا السبيل الصحيح لرسم خططٍ مستقبلية، تكون بمثابة المنهاج الواجب السَّير عليه، بُغية تطوير مجتمعاتنا، وصولاً إلى مجتمعٍ فاضلٍ متطورٍ، يُشارك في إنجازه، كُلٌّ من جهودِ نسائهِ المُتحررات، ورجاله المنتجين الأكْفاءِ، فالحضارة اليوم، تقوم على جهود، كل أفراد المجتمع، ذكوراً – كانوا – أم إناثاً.

لذلك كان لا بد من المرور عبر بعض المراحل التاريخية المهمة، ومعرفة دور المرأة فيها ومكانتها، وصولاً إلى عصرنا الحاضر، بُغية استشراف هذه الأفكار والعِبر التي ستشكل حتماً للبعض، الإرهاصات الأولى للعمل الجاد في البحث عن دور المرأة الحقيقي، في مجتمعٍ فَشِلَ نصفه الأول، في إيصاله إلى بناء حضارةٍ حقيقيةٍ إنسانيةٍ سمحاء، تُقدّس الإنسان قبل كل شيء.

وقبل الخوض في غِمار هذه التجربة الشّاقة، لا بدَّ لنا من التذكير بأمر مهم، ألا وهو: إن الأعمال البحثية ذات الطابع الاستقصائي، التي تنهج منهج رصد تطور، أو

سلوك حالة – ما – عبر التاريخ، هي أعمال في غاية الصعوبة، وتحمل في طياتها مشاق كثيرة، ذلك لأن الباحث – في هذه الحالة – يجدُ نفسه أمام حقبةٍ زمنية طويلة تمتد عبر آلاف السنين، بِكلِّ متغيراتها، وهذا يعني أنه سيبحث في معطيات كثيرة ومتداخلة حيناً، ومتباعدة حيناً آخر، تتميز كل منها بخصائص ومميزات تختلف عن الأخرى، تِبعاً للمرحلة الزمنية أو الحامل الجغرافي لها.

فالبحث في المصادر والمراجع التي تتناول عصور ما قبل التاريخ ووثائقه، وقراءة ما بين سطوره، تختلف كلياً عن البحث في الحقب والعصور اللاحقة، كالعصر الكلاسيكي (يوناني – روماني) أو العصر الجاهلي، أو الإسلامي بمراحله المختلفة، وصولاً إلى العصر الحديث، ومن ثمَّ، المعاصر.

فأساليب ومنهج البحث مختلفة كلياً بين عصر وآخر، وهذا يكبّد الباحثَ الكثير من المشاق، وربما يظهر عدم الترابط، ما بين فصول البحث، فإن ظهر هذا للقارئ، فلهُ منّي كل الاعتذار المُقدّم سلفاً.

كما، أؤكد أنني بذلت قصارى جهدي، لكي أكون حيادياً، ومُبتعداً عن الذات – وكما يُقال: آفة الرأي الهوى – مُحاولاً الكتابة بشكلٍ موضوعي علمي، يُقدِّم الفائدة للجميع، كلٌّ حسب غايته من قراءة هذا البحث، وتسهيلا مني لغير المختصين، فقد عمدت إلى تقديم مقدمة تاريخية موجزة، في مقدمة كُلِّ فصلٍ، تتعلق بالفترة الزمنية التي يتناولها الفصل نفسه، من أجل معرفة الخلفية السياسية للواقع الذي عاشته المرأة، موضوع الفصل.

كما حوى البحث ترجماتٍ، للكثير من النساء في التاريخ العربي، مِمّن اشتهرن في مجالات كثيرة، سواء في الحكم، أم الحكمة، أم في كل مجالات الحضارة الإنسانية.

وقد اعتمدت في البحث، مبدأ التَّقسيم إلى فصول كثيرة ومتتالية، بحيث تبدو كأنها سلسلة متواصلة من الأحداث، فلم أعمد إلى جمع بعض الفصول في أبواب مستقلة، مُراعياً قدر المستطاع، اتباع المنهج العلمي في البحث والتوثيق، ولا أدعي

بأنني قدمت الأفضل، لكنني بذلت قصارى جهدي، لأقدم أفضل ما استطعت في حينه، وكنت دائماً أُعبِّرُ عن حالة التريُّث – هذه – التي كانت تعتريني أثناء الكتابة بالقول: أنني لو كتبت كذا لكان أفضل، ولو غيَّرت هذا لكان أجدر، فالكمال لله وحده.

تمهيد

تمهيداً للدخولِ في بحث تاريخ المرأة، لا بد من التذكير بما لهذا البحث من أهميةٍ في حياتنا، ولا سيما أننا نعيشُ عصرَ التحديات الكبرى، التي تستهدف الماضي قبل الحاضر، والفكر قبل الثروات، والثقافة قبل الأرض، فقد بتنا نسمع كثيراً عما يُسمى بالغزو الثقافي لأمتنا العربية، وقد تشاطر الكثيرون من مستشرقي الغرب لنهب ذاكرتنا، من خلال بعض الكتب والدراسات، ووُضِعنا أمام حالةٍ من اليأس والقنوط، كادت تصل بنا إلى حدٍّ الاستسلام، لجعلنا نقتنع أننا أمة لا تستطيع النهوض، وأن تاريخنا العظيم هو مجرد وهم، والبحث فيه، مجرد عبث بعبث، فما حصل في العراق عام ٢٠٠٣م من تدمير آثاره، ونهب المتحف العراقي من قبل الهمجية الأمريكية المُنظمة، وما يحصل بشكل متواصل لآثارنا في الجولان وفلسطين، ومحاولة تهويد القدس مؤخراً، خيرُ دليلٍ على رغبة الغرب في إذلالنا واستعبادنا.

وعلى اعتبار أن تاريخ المرأة يُشكل جزءاً لا يتجزأ من تاريخنا الحضاري وباتفاق الجميع، فإن المرأة تشكل نصف المجتمع، فكان لا بد من البحث في تاريخها وذلك لإنصافها وإعطائها حقوقها، فقد حاول الكثيرون جعل المرأة تابعة للرجل في كل شيء، فهي (ناقصة عقل ودين) حسب زعمهم، ولا تصلح للعمل أو التفكير، فهي غير قادرة على القيادة والتخطيط والحكم، حتى إنها تعجز عن قيادة منزلها حسب رأي البعض.

لذلك، يأتي هذا البحث، في **قسمه الأول الممتد ما بين ٨٠٠٠ ق.م – ٦١٠م** ليكشف عن تاريخ المرأة العربية عبر عصور عديدة، ويبين كيف كانت قادرة على مجاراة الرجل، بل التفوق عليه فيما لو أعطيت الفرصة، وهذا الحق من قبل نصفها الآخر، فما تخلفها وتراجعها إلا بسبب ظروف فرضتها قوى الذكورة، والاقتصاد، والسياسة، والدين، وحب السيطرة.

المرأة في اللغة

كتمهيدٍ لمعرفة تاريخ المرأة ومكانتها، وبداية إنصافها، فإنه، لا بدَّ من معرفة مكانة المرأة، من خلال معنى كلمة (المرأة) ولو لغوياً، فهو خير دليل على سمو مكانتها.

فكلمة (المرأة) من مَرَأَ ومَرأ الطعام، ومَرُءَ، ومَراءةً أي سَهُلَ في الحَلقِ، وحُمدت عاقبته، وساغ من غير غصصٍ. فهو مَريءٌ، وقد جاء في مختار الصحاح: مَرُؤ الطعام صار مَرِيئاً مريء الطعام استمرأه [١]، والمرأة: أنثى المِرءِ وتسمّى أيضاً امرأةً، وجمعها على غير لفظها: نساءٌ ونسوةٌ ونسوانٌ. والنسبةُ نِسْويّ [٢]، والتصغير نُسَيَّة، ويقال نُسَيّات.

فالمرأة في اللغة هي الأنثى السهلةُ المعاشرة والمستساغة في المعاملة من غير نكد وغصص، الحميدة العاقبة المغبّة، الطيبة المريئة، تحمل محاسن الأخلاق وجميل العادات الكاملة الأنوثة العفيفة الحسنة المظهر، التي تتمتع بآداب نفسية تحملها على اتباع محاسن الأخلاق وجميل العادات[٣]. هذا ما ورد في اللغة، وهو بكل تأكيد يُعبر عن لطف وجمال وحسن المرأة، وضرورة معاشرتها بكل إنسانية، وهذا ما سنراه من خلال بعض مراحل التاريخ، فيما سيأتي لاحقاً.

---

[١] – الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، المتوفيَّ ٦٦٦ هـ، مختار الصحاح، مكتبة النوري دمشق، ص ٦٢٠.

[٢] – أبو حرب، محمد خير: المعجم المدرسي، تدقيق ندوة النوري، وزارة التربية، سورية ص ٩٧٩.

[٣] – الخطيب، علي محمد: المرأة في اللغة والدين، مجلة بناة الأجيال، مطابع نقابة المعلمين، العددان ٧٠ – ٧١، ٢٠٠٩م، سوريا، ص ١٣٤.

بدايةً

عاش الإنسان على سطح هذه الأرض منذ أكثر من مليوني عام، وسواء آمنا بأن القردة هي أصل الإنسان أم لا، فإن اللقى التي عَثَرَ عليها المنقبون، تُثبت أن هناك أنواعاً من الكائنات الحيّة، تُشبه إلى حدٍّ بعيد إنساننا الحالي، وهذه الأنواع ارتقت عبر مراحل التاريخ في مناطق جغرافية عديدة، وامتلكت صفات ومقاييس ودرجة ذكاء، ونمو وعي وإدراك، عبر إقامتها لعدة مجتمعات، حصل فيها نوع من التواصل الفكري وإن على درجات منخفضة نسبياً، فخير أمثلة نقدمها في هذا المجال، هي: **إنسان الأوسترالوبيتك**، بنوعيه الأول الأوسترالوبيتك الأفريقي، وهو نحيف القامة، والثاني هو الأوسترالوبيتك الغليظ أو الخشن، وقد عاش كل من هذين النوعين في تنزانيا وأثيوبيا وجنوب أفريقيا.

ومنذ نحو ٢,٥ مليون سنة عاش **الإنسان الصانع** homo – habilis، وقد اعتبر النوع الأول والأقدم من البشر، وكان منتصب القامة طوله نحو ١٥٠ سم، وحجم دماغه ما بين ٦٥٠–٧٥٠ سم٣. ثم جاء **إنسان الهومواركتوس**، الذي ظهر منذ نحو ١,٥ مليون سنة، كنوعٍ جديد وأكثر تطوراً من الإنسان الصانع، ومروراً بإنسان **النياندرتال**، الذي ظهرت آثاره في وادي النياندر قرب دوسلدورف في ألمانيا عام ١٨٥٦م وبحجم دماغ ١٠٠٠ – ١٢٠٠ سم٣ وهو الأكثر تطوراً قبل **الإنسان العاقل** الذي يسميه الباحثون homo–sapiens[٤] وهو جد إنساننا الحالي.

أما السؤال الأهم، الذي يواجهنا الآن، هو: ما أصلنا وما هو مصيرنا؟ ذلك لأننا توّاقون لأن نعرف كيف ؟ ومتى ؟ ومن أين أتينا ؟ والى أين نحن ذاهبون ؟، وقد جرت المحاولات الأولى لتفسير الوجود الإنساني من قِبل فلاسفة اليونان منذ القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، من قِبل انكسمندر ثم سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين

---

[٤] – محيسن، سلطان: عصور ما قبل التاريخ، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠١ –٢٠٠٢م – ط ٩، ص ٥٠ وما بعدها.

خرجوا عن إطار التصور الميثولوجي، واعتبروا الإنسان جزءاً من الطبيعة المحيطة، يتأثر بها وتنطبق عليه قوانينها المادية، وكذلك أسهم فلاسفة العرب المسلمون في العصور الأولى، كابن سينا وابن رشد وابن مسكويه وإخوان الصفاء، في تفسير سير الحياة، وحاولوا فهم ذلك ضمن إطاره الطبيعي، وبمعزل عن التعليل الفلسفي والروحي[٥] بغية الوصول إلى الحقيقة.

إن تعريف الإنسان، قضيةٌ معقدةٌ تتداخل فيها معايير فيزيولوجية واجتماعية وفلسفية وحضارية، لكن الباحثين يتفقون على شروط أساسية تميزه من بقية الكائنات الحيّة، أهمها القامة المنتصبة، والسير على قدمين بدلاً من أربع، ثم حجم الدماغ الكبير الذي يتجاوز في حده الأدنى الحد الأعلى لحجم دماغ أي من القرود الشبيهة بالإنسان[٦] .

استطاع الإنسان العاقل أن يبذر البذرة الأولى للحضارة الإنسانية، بأن قام بأول ثورة عرفتها البشرية، ألا وهي اكتشاف النار واستخدامها في حياته، مما أدى إلى ترويض الكثير من الحيوانات المفترسة، وإدخال أنواع جديدة في قائمة طعامه اليومي وصولاً إلى صنع الفخار المُقسّى وصهر المعادن... إلخ. وقد استخدم الإنسان الحجارة في صنع أدواته، فصنع منها أدوات صيده، وأدوات طعامه وحاجاته اليومية من خلال ابتكار طرق متعددة لطرق الحجارة وتشذيبها لتحويلها إلى أدواتٍ تصلح للصيد، أو لتقطيع الطعام، كرؤوس السهام والمقاشط والفؤوس الحجرية والسكاكين، إلى أن استطاع استخدام العظام الحيوانية في تصنيع أدوات أكثر دقة وأكثر جودة، كالأمشاط والإبر وبعض الحلي، وصولاً إلى اكتشاف الزراعة، تلك الثورة التي ستغير حياته، إن على مستوى النشاط الاقتصادي، أو على مستوى النشاط الفكري والعقائدي.

وقد اتفق الباحثون على تقسيم عصور ما قبل التاريخ، إلى فترات محددة تسهيلاً للدراسة، وعلى اعتبار أن لكل فترة ميزاتها وخصائصها، إن على مستوى تطور

---

[٥] – المصدر نفسه: ص ٤١.

[٦] – المصدر نفسه: ص ٤٦.

الإنسان الجسماني والعقلاني، أو على مستوى الحضارة التي أنتجها مُستخدماً عقله الذي ما برح ينمو وتزداد مساحة سطح القشرة الدماغية لديه، مُنتجة المزيد من العطاءات الحضارية المهمة.

ومعلومٌ لدينا، أن هناك عدة تقسيمات تاريخية لتاريخ الإنسان، إلا أن التقسيم الأكثر توافقاً لعصور ما قبل التاريخ، هو التالي:

١ – العصر الحجري القديم الباليوليت PALAEOLITHIC، ويمتد إلى عدة عصور:

أ – باليوليت أدنى، ويؤرخ على ٢,٣٠٠,٠٠٠ – ١٠٠,٠٠٠ سنة.

ب – باليوليت أوسط، ويؤرخ على ١٠٠,٠٠٠ – ٣٥,٠٠٠ سنة.

ج – باليوليت أعلى، ويؤرخ على ٣٥,٠٠٠ – ١٢,٠٠٠ سنة ق. م.

٢ – العصر الحجري الوسيط الميزوليت MEZOLITHIC. ويؤرخ على ١٢,٠٠٠–٨٠٠٠ ق. م.

٣ – العصر الحجري الحديث النيوليت NEOLITHIC. ويؤرخ على ٨٠٠٠ – ٥٠٠٠ ق. م.

٤ – العصر الحجري النحاسي الكالكوليت CHALCOLITHIC. ويؤرخ على ٥٠٠٠ – ٣٥٠٠ ق. م.

ثم يأتي عصر فجر الحضارة، أو ما يُسمّى بعصر الوركاء* وصولاً إلى بداية اكتشاف الكتابة والعصور التاريخية، التي تؤرخ نحو ٣٢٠٠ ق.م وبدء التاريخ الكتابي للإنسان، وقد اعتُبِرَ العصر الحجري الحديث النيوليت، عصر اكتشاف الزراعة. فقد حملت هذه الفترة معها موروثات جديدة، شكَّلت أهمية كبرى في التاريخ الإنساني، وهذا ما حدا بالباحثين، أن يدعوا هذه الحقبة بـ (الثورة النيوليتية)، وذلك لعدة تحولات انحصرت في مجالات رئيسية أولها العمارة، فقد شهدت البشرية لأول مرة عمارة دائرية

* – نسبة إلى مدينة أوروك في جنوب بلاد الرافدين.

من الحجارة أو الطين، نصفها محفور في الأرض والنصف الآخر، فوق سطح الأرض، وأصبحت هذه البيوت مجمع نشاطات الإنسان الاجتماعية وغيرها. ثم تطورت هذه العمارة، وأصبحت فوق الأرض بالكامل، ومن ثم أصبحت مستطيلة الشكل وذات زوايا قائمة وتقسيم داخلي واضح للبيت، أما المجال الثاني، فكان في تطور الأدوات، إذ كانت رؤوس السهام المستخدمة في الصيد من أهمها. ولا شك أنها كانت ذات فاعلية كبيرة في الصيد، نظراً لصغر حجمها وسرعتها عند الانطلاق، والمجال الثالث كان في اختراع الزراعة إذ دُجِّنت الأنواع البرية التي كانت تجمع في الماضي من أجل استهلاكها، وأصبح الإنسان سيد نفسه، وأصبح ينتج قوته في الوقت المناسب ولم يعد الإنسان رهناً لظروف الطبيعة وأحكامها[٧] .

كما كان لاكتشاف الزراعة أهمية اقتصادية كبرى، فالإنسان الذي كان في السابق يجمع طعامه من الحبوب والخضراوات والفواكه الجاهزة من الطبيعة، أخذ يلاحظ أن البذرة التي تسقط في أرض هشة، لا تلبث أن تنمو، وإنّ النبتة الجديدة تعطي حبوباً جديدة. كان ذاك، هو أصل الزراعة، وقصة اكتشافها، وقد كانت نساء المجتمع البدائي هنّ اللواتي اكتشفنَ الزراعة [٨]، مما أثر في فنون ذلك العصر، التي كانت – أي الفنون – الدليل الأبرز والأكثر تعبيراً عن عقائد تلك الفترة، ومن أهمها التماثيل، وما شكَّلته من موضوعات متنوعة، تُعبِّر عن الفكر الجمعي لإنسان ذلك العصر.

مرت المرأة عبر مراحل التاريخ بأدوار وأطوار متقلبة، تبعاً للظروف المحيطة بها ولإرادتها في إثبات وجودها بالقرب من الذكر، فبدأت تتأرجح ما بين ارتقائها أعلى درجات التأليه، لتعود ثانية للوراء، مع زيادة التطور الاقتصادي ونشوء المدن الأولى،

---

[٧] – عبد الرحمن، عمار: تجسيد التماثيل في النيوليت، مجلة مهد الحضارات، المديرية العامة للآثار والمتاحف، العدد الأول، دمشق، ٢٠٠٠م، ص٦.

[٨] – دلو، برهان الدين: حضارة مصر والعراق، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٩م، ص١٧ – ١٨.

وتعقيدات العلاقات الدولية، السياسية والاقتصادية والدينية، وقد ترافق ذلك مع ظهور الكتابة أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، ونشوء الدول الأولى، وزيادة أطماع الإنسان بأخيه الإنسان، مما أدى بها إلى أن تصبح تابعة للرجل وحاملة لاسمه خلف جدران المنزل، تاركةً له قيادة الدولة والمجتمع والأسرة خاصة في فترات التقهقر الحضاري التي مرّ بها الإنسان عبر تاريخه الطويل.

لكن المرأة لم تستسلم للرجل بسهولة، بل قاومت وحافظت في مراحل وأماكن عديدة وكثيرة من التاريخ على مكانتها، وأثبتت وجودها إلى جانب الرجل، فكانت تارة تصل إلى حد المساواة الكاملة معه، وقد تجلّى ذلك من خلال الكثير من الآلهة المؤنثة، كعشتار وننخر ساخ وأوزيس وعناة، مروراً بوصولها مرات عديدة إلى سدة الحكم السياسي، وقيادتها أيضاً للحراك الثقافي، وتأثيرها الكبير فيه من خلال بعض النسوة المثقفات العالمات اللائي عرفن كيف يواكبن مسيرة الرجل فكرياً وربما أحياناً قيادته، لكن من وراء حجاب، وطوراً وصلت المرأة إلى الدرك الأسفل في سلم التعاطي معها كإنسان له قيمته ومكانته، فأصبحت تُعامل كالعبدة، وتحبس في دور الحريم في مخادع السلاطين والحكام للمتعة بعيداً عن ضوء الشمس، فيما بقيت القِلَّةُ منهنّ ممن استطعن الحفاظ على كرامتهن لأسباب سنراها لاحقاً وسط هذا الطغيان الذكوري الكبير، وهذا ما سنراه لاحقاً من خلال قراءتنا لفصول الكتاب.

الفصل الأول

النطوفيون واكتشاف الزراعة

النطوفيون

أكدت المكتشفات والأبحاث الآثارية وجود ترابط حضاري متين لمجتمعات المشرق العائدة للفترة ما بين ١٠٠٠٠ – ٨٣٠٠ ق.م التي سميت بهذا الاسم نسبة لموقع وادي النطوف في جبال القدس والخليل في فلسطين، وقد أشار الباحث الفرنسي جاك كوفان إلى عمق هذا التواصل الحضاري، الذي امتد من وادي النيل في الغرب حتى الفرات في الشرق[٩]، فقد أظهرت المكتشفات أن النطوفيين كانوا جماعات ديناميكية أبدعت في الكثير من المجالات، مما شدّ اهتمام الباحثين إليهم بشكل ملحوظ، ومع ظهورهم تبلور تجانس حضاري هو الأوضح من نوعه حتى الآن، جسدته حضارة نطوفية واحدة شملت جزءاً من وادي النيل، وجزءاً من بلاد الشام، ويعتمد الدارسون على أسسٍ حضارية وبيئيَّة في تقسيم الحضارة النطوفية إلى مرحلتين متتاليتين: المرحلة القديمة: وتؤرخ على الألف العاشر قبل الميلاد، إذ سادها مناخ رطب وأمطار غزيرة ساعدت على نشوء بيئة غنية بالغابات، وقد انتشر النطوفيون في هذه المرحلة من سواحل المتوسط الجنوبية حتى كيليكيا في الشمال مروراً بالبادية السورية وحوضة الكوم والفرات شرقاً، وهبوطاً إلى منطقة الأزرق في الأردن جنوباً، أما المرحلة النطوفية الحديثة في الألف التاسع قبل الميلاد: فقد تميزت بمناخ جاف، بعد أن قلَّت الأمطار وارتفعت درجات الحرارة، وتراجعت الغابات والأشجار، حينئذ هجر النطوفيون مغاورهم ولم يعودوا إليها إلا عند الضرورة القصوى، وبدؤوا ببناء

---

٩ – خليف، بشار: العبرانيون في تاريخ المشرق العربي القديم، دار الرائي للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٤م، ط ١، ص ٢٤.

القرى الأولى (قرى الصيادين) التي أخذت شكلها الكامل على أيدي النطوفيين أنفسهم. فقد كانت القرى النطوفية على نوعين: النوع الأول، وهو عبارة عن محطات سكن صغيرة ومؤقتة، لم يعثر فيها إلا على الأدوات الحجرية والأدوات الخفيفة، ولا وجود فيها لآثار البناء ولا للأدوات الثقيلة، أما النوع الثاني، فقد مثلته المعسكرات الكبيرة الدائمة التي سكنتها أعداد أكبر من الناس ولمدة أطول، وبلغت مساحاتها آلاف الأمتار المربعة، إذ تدل الدراسات المقارنة على أن عدد سكان هذه القرى تراوح ما بين ١٠٠ – ٢٠٠ شخص، ويعدُّ هذا تجمعا بشرياً كبيراً لم نعهده من قبل. أما عن البيوت النطوفية نفسها، فقد كانت صغيرة الحجم ودائرية الشكل قطرها ما بين ٢ – ٣ م وهي منازل مدفونة في الأرض الصلبة أو الطرية، كما الحال في موقع الملاّحة في فلسطين، أو من الطين والخشب، كما في موقع المريبط على الفرات في سوريا. ورغم أن هذه المجتمعات بقيت تمارس الصيد والالتقاط، تمركزت بقرب الخيرات الطبيعية للنباتات والحيوانات، فازداد الاحتكاك اليومي معها مما ساعد على الخطوة اللاحقة[١٠]، ألا وهي اكتشاف الزراعة. هذا المنعطف الحضاري، الذي تجلّى في بواكير الزراعة وتدجين الحيوان، سوف يسهم في تكريس معالم الاستقرار في الفترات اللاحقة، إذ أننا الآن أمام ظهور مبكر للزراعة امتد من سيناء حتى سهول عربستان، ومن جبال طوروس وزغروس وسهول الجزيرة الشامية حتى وادي الأردن.

وهذا ما تبلور مع نهاية الألف التاسع قبل الميلاد[١١]، فقد كان الاستقرار إذن يتم حيث تتوفر الشروط الملائمة لتأمين الحياة الدائمة دونما حاجة إلى تنقل أو ارتحال، وليس من مكان أكثر حظاً لتوفير مثل هذه الشروط من مواقع مجاري الأنهار، حيث تتكفل المياه بتأمين الغذاء وريّ البشر والأراضي المزروعة في بلاد الشام والرافدين، ففي الفترة الممتدة بين الألفين الثامن والسادس قبل الميلاد، ظهرت مجموعة كبيرة من

---

[١٠] – محيسن، سلطان: بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ – المزارعون الأوائل، الأبجدية للنشر، دمشق ١٩٩٤م، ط ١، ص ١٦، ١٧، ١٨.

[١١] – خليف: العبرانيون في تاريخ المشرق العربي القديم، مرجع سابق، ص ٢٥.

القرى في جميع مناطق سوريا نذكر منها ما اكتشف في مواقع تل أسود على نهر البليخ، ومواقع المريبط وأبي هريرة وبقرص على الفرات وشاتال في سهل قونيا، والكوم في جنوب شرق أبي هريرة، ورأس شمرا ووادي فلاح وفارة على الساحل، وأيضاً تل أسود وأريحا والبيضة في سوريا الجنوبية، والرماد في جنوب دمشق[١٢].

[١٢] - داوود، أحمد: تاريخ سوريا القديم - تصحيح وتحرير - دار المستقبل، دمشق ١٩٨٦م، ط ١، ص ١٥٠.

بلاد الشّام مهد اكتشاف الزراعة

في نهاية الألف التاسع قبل الميلاد وصلت التحولات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام قمتها، وذلك بعد أن بلغ النطوفيون درجة عالية من التقدم، وضعت الأساس المادي والفكري المباشر للانعطاف الجذري الأهم في تاريخ البشرية، الذي حصل في هذا العصر، والذي نسميه العصر الحجري الحديث Neolithic، وتمثل في الانتقال من الصيد والالتقاط إلى الزراعة والتدجين. فتحول الإنسان من مستهلك سلبي لخيرات الطبيعة الحرة إلى منتج إيجابي لها، وبذلك انتقل من الاقتصاد الاستهلاكي إلى الاقتصاد الإنتاجي ذي الضمانة الاقتصادية الكبرى.

كانت فرصة اكتشاف الزراعة من نصيب سكان قرية المريبط على الفرات، فقد أثبتت التحاليل النباتية للتربة في الموقع على وجود نسبة عالية لتلك الحبوب في المنطقة، مما يدل على تدخل إنساني واضح، فقد مارس سكان القرية زراعة تلك الحبوب بشكل مقصود وبدافع تنظيم واختيار واعٍ لهم، وهذا ما أكدته الرسوم التي ظهرت على جدران أحد المنازل، وهي تمثل أشكالاً هندسية، ولكنها كانت ولسوء الحظ مشوّهة لدرجة لا تمكّن من إدراك حقيقتها[١٣].

وكان الفضل في كشف هذه الأدلة للعالم الفرنسي الشهير جاك كوفان ما بين ١٩٧١ – ١٩٧٤م الذي أرّخ اكتشاف الزراعة في المريبط إلى نحو ٧٧٠٠ ق.م وإلى الفترة نفسها تقريباً في تل أسود في غوطة دمشق، حيث عثر فيه على بقايا متفحمة من الشعير والقمح والحمص والعدس مما يدل على مزاولة الإنسان للزراعة في هذه المنطقة أيضاً [١٤].

---

[١٣] – محيسن: بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ، مرجع سابق، ص٤١، ٤٧، ٤٩.

[١٤] – أحمد، محمود عبد الحميد، وآخرون: آثار الوطن العربي القديم – العراق – سوريا – مصر، جامعة دمشق ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤، ص ٢ – ٢٥.

كما أنه من المحتمل أن يكون اكتشاف الزراعة الباكر ليس مرهوناً بمنطقة الفرات، ففي جوار حلب المباشر في تل الكرمل وعلى بعد بضعة كيلو مترات شمال حلب، نجد آثاراً للثقافة المريبطية، وأبعد قليلاً إلى الشمال أو الجنوب في منطقتي إعزاز والسفيرة (بحيرة الجبول) توجد شروط بيئية ملائمة لهذه الثورة، وهي مناطق تحتاج إلى تنقيبات معمقة[١٥]، ربما توجد فيها دلائل ممارسة نشاط زراعة أقدم من المريبط نفسها.

[١٥] – كوفان، جاك: الفرات السوري الأوسط وأولى المجتمعات الزراعية الرعوية، الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد الثالث والأربعون، ١٩٩٩م، ص ٢٤٣.

قصة اكتشاف الزراعة

في الغالب تتم هذه الاكتشافات عن طريق المصادفة، ثم يتنبه إليها الإنسان، فيقوم بها قصداً كما ذكرنا سابقاً، حيث يكررها بعد ذلك، وتصبح جزءاً من حياته.

فاكتشاف الزراعة مثلاً لا بدّ أنه وقع مصادفة، فربما سقطت بعض الحبوب على الأرض فغاصت فيها، وبعد أيام بدأ النبات بالظهور، ثم نما وأصبح نباتاً كاملاً، ثم أخرج حبوبا من نفس النوع، وقد حدث ذلك آلاف المرات حتى تنبه إليه الإنسان، فأخذ حبوباً ودسّها في الأرض فأخرجت نباتا، فكررها حتى تأكد من صحة تجربته، فطبّقها بعد ذلك على نطاق أوسع، وانتقل بذلك من طور جمع الغذاء إلى طور زراعته وإنتاجه[١٦]، فأصبح بذلك سيد نفسه وأمّن على حياته، وخاصة بعد معرفة تدجين الحيوانات البرية عند ملاحظته عملية تكاثرها في البراري، إذ أثارت مواليد الحيوانات اللبون (غير الكاسرة) فضوله وانتباهه فنقلها إلى كهفه، ومن ثمّ إلى بيته ليقتات بلحومها، ولا بدّ أنه اكتشف مع مرور الزمن وعن طريق التجربة سر تربيتها والاستفادة منها في المستقبل، فكانت الأغنام والماعز والأبقار والخنازير أولى الحيوانات اللبون التي عرف الإنسان القديم تربيتها[١٧].

ومع مرور الزمن وتحوله إلى حياة الاستقرار والرعي وبناء القرى والمنازل واكتشاف الزراعة يكون قد خطا خطوة كبيرة نحو عقيدة جديدة، ستشكّل له أهم بذور تطور الفكر الديني لديه في المستقبل.

---

[١٦] – مؤنس، حسين: الحضارة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٣٧، ١٩٩٨م، ط ٢، ص ٧٤.

[١٧] – سليمان، توفيق: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة – من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق.م، دار دمشق للطباعة النشر، ١٩٨٥م، ط ٥، ص ٤٣.

دور المرأة في اكتشاف الزراعة

إننا عندما نتحدث عن اكتشاف الزراعة وأهمية هذا الاكتشاف. لدرجة اعتباره أهم الثورات التي حدثت في تاريخ البشرية جمعاء، يجعلنا نتساءل!؟ من كان صاحب الفضل الأول في هذا الاكتشاف؟ وما هي الفضائل التي اكتسبها جرّاء هذا الإنجاز الحضاري المهم؟.

تؤكد معظم الدراسات واللقى الأثرية والرسوم الجدارية دوراً رائداً للمرأة في عملية اكتشاف الزراعة، ومن هنا ندرك هذا الإسهاب الواسع لعملية اكتشاف الزراعة السابق، فبينما كان الرجل منشغلاً في صيده، كانت المرأة تحفر الأرض حول الخيمة أو الكوخ، وربما الكهف، لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول[١٨]، ومن ثم حاولت جمع البذور والحبوب والفواكه والبيض واليرقات والحيوانات الصغيرة والحشرات، فعمل النساء كان مستمراً ومنتظماً، فكانت المرأة أكثر شعوراً بعالم النبات من الرجل، فعرفت الصالح من السام، ومن خلال الممارسات اليومية توصلت المرأة إلى اكتشاف الزراعة، هذا الحدث الذي سوف يجعل من المرأة نموذجاً للعطاء والخصب والحياة.

وقد جرت مقاربة اكتشاف علم الزراعة الجديد، بالدين، ففيما اعتبر أبناء العصر الحجري القديم (الباليوليتي) الصيد فعلاً مقدساً، فإن الزراعة أصبحت الآن مقدسةً، فحين كان المزارعون يحرثون الحقول أو يحصدون المواسم، فرضوا على أنفسهم أن يكونوا في حالةِ طهرٍ طقسية، وحين كانوا يراقبون البذور وهي تهبط في أعماق الأرض، ثم أدركوا بأنها تتفتح في الظلمة، كي تهيئ شكلاً مختلفاً من أشكال الحياة، تأكدوا من وجود قوةٍ خفيةٍ فاعلة، كان الموسم تجلياً، وكشفاً للطاقة الإلهية، وحين كانوا يحرثون الأرض، ويحضرون الغذاء للجماعة، كانوا يشعرون بأنهم يدخلون

---

[١٨] – ديورانت، ول وايريل: قصة الحضارة، ت، زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، م١، ج ١، ص ١٦.

حقلاً مقدساً ويشاركون في تحقيق وفرةٍ إعجازية، وبدا كأن الأرض تغذي جميع الكائنات، النباتات والحيوانات والبشر، كما لو أنها رحم حي[١٩]، كل هذا كان بفضل اكتشاف المرأة للزراعة، ففي حين مارست هي الأعمال الزراعية الأولى، كان الرجل يخرج للصيد، ولأن الزراعة كالصيد كانت لهم عملاً مقدساً، وجب أن يكون مكتشفها مقدّساً.

[١٩] – آرمسترونغ، كارين: موجز تاريخ الأسطورة، ت، أسامة إسبر، دار بدايات للطباعة والنشر، سوريا، جبلة، ٢٠٠٧م، ط ١، ص ٣٩ – ٤٠.

نتائج اكتشاف المرأة للزراعة

لقد خلقت الزراعة أول شكل من اقتصاد الوفرة، فهي أول اقتصاد يتوفر فيه للناس من الطعام ما يفيض عن حاجاتهم، وما كان هذا ليتحقق لولا الادخار والتدبير، ولعله في المراحل الأولى كان على النساء أن يحتفظن ببعض الحبوب والبذور، التي يجمعنها بعيداً عن متناول الرجال، ومن الجدير بالذكر أن ابتكار الفلاحة قد استلزم أول توفير وتخطيط منظم من أجل المستقبل، وقد بلغ من نجاحه أن يضاعف كثافة السكان بمضي الوقت مئات المرات عما كانت عليه أيام جمع الثمار[٢٠]. كل هذا كان بفضل المرأة واكتشافها للزراعة، مما انعكس على مكانتها في المجتمع، وأمام الرجل، لعدة آلاف من السنين.

[٢٠] – القيّم، علي: المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، د. ت، ط١، ص ١٧– ١٨.

إنجازات أخرى للمرأة

إضافة إلى دور المرأة المهم في اكتشاف الزراعة وما نتج عنه من الانتقال إلى اقتصاد الوفرة، وانعكاس هذا الشيء على تحسن وضع الأسرة والعشيرة بشكل واضح وملموس، فقد كان للمرأة دور كبير آخر في قضايا متعددة منها:

إن أهم عطاء لاحظه الإنسان عند المرأة في العصور القديمة، هو دورها في عملية الإنجاب، فقد كانت بالنسبة لإنسان العصر الباليوليتي (العصر الحجري القديم) موضع حبٍّ ورغبة، وموضع خوفٍ ورهبة في آن معاً. فمن جسدها تنشأ حياة جديدة، ومن صدرها ينبع حليب الحياة، ودورتها الشهرية المنتظمة في ثمانية أو تسعة وعشرين يوماً، تتبع دورة القمر، وخصبها وما تفيض به على أطفالها، هو خصب الطبيعة، التي تهب العشب معاشاً لقطعان الصيد، وثمار الشجر غذاء للبشر، ولمَّا تعلم الإنسان الزراعة وجد الأرض صنواً للمرأة، فهي تحبل بالبذور، وتطلق من رحمها الزرع الجديد، لقد كانت المرأة سراً أصغر مرتبطاً بسر أكبر كامن خلف كل التبدّيات في الطبيعة والأكوان، فوراء كل ذلك أنثى كونية عظمى، هي منشأ الأشياء ومردها، عنها تصدر الموجودات، وإلى رحمها يؤول كل شيء، كما صدر[٢١]، فالمرأة رمز الخصب ومنبع العطاء، فهي التي تملك القدرة على الخلق، وقد تراءى للإنسان القديم، أن الأنثى هي الأصل، دون أن يعرف بدقةٍ ووضوح، كيف يجري التلقيح بين عنصري الأحياء في الطبيعة، ودون أن يدرك بعدئذ أيضاً علاقة ذلك بالحمل ثم الولادة أي أن ذلك الإنسان لم يكن في بادئ الأمر يعزو عملية الإنجاب إلى تدخل الذكر، ولهذا

[٢١] – السّواح، فراس: لغز عشتار، سومر للدراسات والنشر، قبرص، ط ٢، الطبعة السورية، دار الغربال، دمشق، ١٩٨٦م، ص ٢٥.

صارت الأنثى لديه هي المعبودة[٢٢]، وقد اعتبرتها الدكتورة نوال السعداوي هي الأصل، إذ أشارت إلى أن الأنثى بالطبيعة هي أصل الحياة، بسبب قدرتها على ولادة الحياة الجديدة، وإنّ إنسان المجتمع البدائي، قد أدرك قدرتها أكثر من قدرة الذكر، ومن ثمَّ فهي أعلى قيمة منه، ومن ثمَّ سادت عنده عقيدة الآلهة الأنثى إلهة الإخصاب والولادة والخضرة والوفرة والخير وكل شيء مفيد[٢٣].

وتشير الدكتورة كارين آرمسترونغ إلى أنه في العصر الحجري، كان ينظر إلى الجنس، بأنه في جوهره جزء من القوة الإلهية التي تجعل الأرض مثمرة، وينظر إلى الحصاد في ميثيولوجيا العصر الحجري الحديث، كثمرةٍ للزواج المقدس، كانت التربة تعتبر فيه أنثى والبذور هي السائل الذكري، والمطر هو الجماع الجنسي بين السماء والأرض، ولم تكن الأرض في أجزاء أخرى من العالم، مجسدة في صور أو تماثيل، ولكنها كانت تعظم كمقدسة في ذاتها، فهي تنتج كل شيء من رحمها مثلما تنجب المرأة طفلاً [٢٤].

وإضافة إلى دور المرأة في الإنجاب، فقد عملت في الحقل وبالفلاحة وجمع النباتات، واستطاعت من خلال الخبرة الطويلة في عملها، أن تتوصل إلى معرفة الأنواع الضّارة من النباتات والأنواع المفيدة منها، وبذلك تحولت الأنثى إلى الطبيبة الأولى، التي استطاعت معالجة ذويها من الأمراض، وعندما كانت تعود إلى المنزل كانت تقوم بعملية طحن الحبوب التي أنتجتها من الحقل، عن طريق حك الحبوب بشدة بقطعةٍ من الحجر على هيئة رغيف مستدير، وعلى هيئة قطعة السجق الطويلة، أو على قطعة من الحجر على شكل فنجان.

---

[٢٢] – الدقاق، عمر: الانتماء إلى الأم عند العرب، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة سوريا، العدد ٥١٥، ٢٠٠٦م، ص ٩٤.

[٢٣] – السعداوي، نوال: الأنثى هي الأصل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المكتبة العالمية، بغداد ص ٢٠.

[٢٤] – آرمسترونغ: موجز تاريخ الأسطورة، مرجع سابق، ص ٤١ –٤٢.

وإذا كان تحويل الدقيق إلى عصيدة أو رقاق أمراً ميسوراً، فإن تحويله إلى خبز يحتاج إلى الإلمام بعلم الكيمياء الحيوية – استخدام الخميرة – كما يتطلب إقامة تنور مشيدٍ على نحو خاص، وفوق ذلك كله، فإن العملية الكيميائية الحيوية نفسها المستخدمة في صناعة الخبز لجعله ينتفخ، قد فتحت للبشرية عالماً جديداً من السحر الرائع، ومصدر السحر هو اختراع المرأة للجعة والنبيذ، الذي صنعته بإضافة الخميرة إلى عصير الحبوب والعنب. ولا بدّ أن المشروبات الروحيّة كانت برهاناً مقنعاً على القوة السحرية لجهود المرأة في مجال الزراعة، فقد كان أقدم الكهنة والكاهنات في أرض الرافدين ومصر القديمة، يشربونها ويقدمونها قرابين إلى أربابهم وربّاتهم، لزيادة تحكمهم في المحصولات. وقد كان اكتشاف المشروبات الروحيّة المتخمرة، يعني اختراع الأواني الدائمة لحفظها، التي كانت تتسم بشيء من التركيب في الغالب[٢٥]. ثم استمرت المرأة في متابعة فنونها المنزلية التي أصبحت فيما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات مهمة، والمرأة على أرجح الظن، تقدمت بفنون الحياكة والنسيج وصناعة السلال والخزف وأشغال الخشب والبناء، بل قامت بالتجارة في حالات كثيرة، كل هذا والرجل غائب عن البيت في صيده. والمرأة هي التي طوّرت الدار، واستطاعت بالتدريج أن تضيف الرجل إلى قائمة ما استأنسته من ((حيوان)) ودرّبته على أوضاع المجتمع وضروراته [٢٦].

ويرى لويس ممفورد في كتابه الموسوم بـ (المدينة في التاريخ) أنه حتى اختراع الأدوات الحجرية المصقولة، وهو السمة المميزة للانقلاب النيوليتي (العصر الحجري الحديث) هو إما اختراع نسائي وإمّا إنجاز ثقافة اصطبغت في ظلِّ سيطرة النساء، بصبغةٍ أنثوية[٢٧].

---

[٢٥] – رايلي، كافين: الغرب والعالم، ت، عبد الوهاب المسيري – هدى عبد السميع حجازي، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٩٠، ١٩٨٥م، القسم الأول، ص ٥١.

[٢٦] – ديورانت: قصة الحضارة، م ١، ج ١، مرجع سابق، ص ٦١.

[٢٧] – القيّم: المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، مرجع سابق، ص ١٩.

وحتى عملية تخزين المواد الغذائية والحليب ومشتقاته، كانت تقتضي وجود أوانٍ كتيمة للماء بإلحاح كبير، ففي تحويل الصلصال إلى أوان خزفية صلبة كتيمة، كانت النساء على الأرجح، تقود تحولاً كيميائياً مذهلاً، وهو تحويل مادةٍ إلى مادةٍ أخرى، تحويلاً حقيقياً [٢٨].

[٢٨] الإنسان والحضارة والمجتمع، عدة مؤلفين، الناشر: هاري ل.شابيرو، ت. عيد الكريم محفوض، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨م، ص ١٩٣.

الآلهة الأنثى

لقد أثبتت اللقى الأثرية الكثيرة وعلى رأسها الدمى النسائية، التي وجدت في مناطق مختلفة، والتي عبرت عن دور المرأة في عملية الخصب واستمرار الحياة، أن للمرأة دوراً كبيراً في العصر الحجري الحديث (النيوليت)، هذه اللقى التي أبرزت معالم أنوثة المرأة، كانت الدليل القاطع على ارتقاء دور المرأة، وتحول المجتمع إلى مجتمع أمومي، كان للمرأة فيه الدّور الرائد في كافة المجالات، فهي منبع الخصب كله، ومنبع الحياة كلها، وهي الطبيبة والصيدلانية والصّانعة والعاملة والمربية الأولى، فهي منبع كل عطاء.

ففي هذا المجتمع الأمومي، أسلم الرجل قيادته للمرأة، لا لتفوقها الجسدي، بل لتقدير أصيل وعميق لخصائصها الإنسانية وقواها الروحية وقدرتها الخالقة وإيقاع جسدها المتوافق مع إيقاع الطبيعة، فإضافة إلى عجائب جسدها الذي بدا للإنسان القديم مرتبطاً بالقدرة الإلهية، كانت بشفافية روحها، أقدر على التوسط بين عالم البشر وعالم الآلهة، فكانت منبع كل عطاء، وبهذا السِّلاح مضى الجنس الأضعف قوة بدنية، فتبوأ عرش الجماعة دينياً وسياسياً واجتماعياً، وأمام هذا كله، أسلمت الجماعة قيادتها للأمهات.

لقد صار الرجال بعد الثورة النيوليتية (اكتشاف الزراعة) ثابتين ويائسين، والإلهة الأنثى، هي التي كانت تتجول في العالم، في رحلةِ بحثٍ، وهي التي تصارع الموت، وتحضّر الطعام للسلالة البشرية. لقد أصبحت الأم – الأرض – رمزاً للبطولة الأنثوية، وهكذا فقد أظهرت الإلهة الأم النيوليتية، مثلها مثل الإلهة الكبرى للصيادين، – إلهة الصيادين الأولى – في عصر الباليوليت، حقيقة أن الرِّجال رغم مظهرهم الأكثر قوة، إلا أنّ الأنثى في الحقيقة، هي الأقوى، وهي المتحكمة في النهاية [٢٩].

---

[٢٩] – آرمسترونغ: موجز تاريخ الأسطورة، مرجع سابق، ص ٤٥–٥٠.

ولقد عزّز اكتشاف الزراعة، الدور الاقتصادي للمرأة ومكانتها، فقد كانت بحق المنتج الأول في الجماعة، حيث استطاعت نقل الإنسان من مجتمع الصيد والالتقاط، إلى مجتمع إنتاج الغذاء، بينما حافظ الرجل، طيلة هذه المرحلة، على دوره التقليدي في الصيد والتنقل، بحثاً عن الطرائد الكبيرة [٣٠].

---

[٣٠] – السّواح: لغز عشتار، مرجع سابق ص ٣٢–٣٣.

الدمى النسائية (الرَّبة الأم)

يطلق مصطلح الدمى على التشكيلات الإنسانية أو الحيوانية المكونة من مختلف المواد الموجودة في البيئة المحيطة من الطين ومن ثم من الحجر، وأخيراً من العظم، وقد تجلّت التجسيدات الإنسانية الأولى في ثلاثة أشكال هي:

- أنثوية، وهي الأشكال الأكثر وروداً.
- الدمى الذكرية، الأقل وروداً.
- الدمى التي لا يشار بصراحة إلى جنسها، وتأتي في المرتبة الوسطى.

وقد أطلق الباحثون على الدمى الأنثوية مصطلح (الرّبة الأم) باعتبار أنها تمثل الأم التي رعت الطبيعة والإنسان، الذي ولدته من رحمها. ويمكن القول أن هذه الإلهة (الأم) هي صلة وصلٍ مع القوة الأعلى، أو ربما ربة الأرباب، التي تحمل وتعطي الأولاد، وتخصب الزرع، وتكاثر الحيوانات[٣١].

لقد ظهرت هذه الدمى النسائية لأول مرة في سوريا في مطلع الألف الثامن قبل الميلاد، وبالتحديد في السوية الثالثة من موقع المريبط ٨٠٠٠ – ٧٦٠٠ ق.م، وقد عالج الصّانع هذه المنحوتات معالجةً متنوعة من الناحية التشكيلية، فالدمى الطينية تجسيد كامل وقريب من جسد المرأة، وما الإشارة إلى العضو الجنسي بالحزوز والذراعين يلتفان حول الثديين وتضخيم الورك والمؤخرة، إلا تعبيراً عن اعتبار المرأة رمزاً للخصوبة والعطاء، ولأهمية المؤخرة، فقد كانت تضاف لاحقاً إلى التمثال بعد صناعته، ففي دمية طينية جرى تشكيل المؤخرة فيها بصورة مستقلة، ثمّ تمّ لصقها بجسم الدمية، وقد تمّ العثور عليها مفصولةً عن الجسم منذئذ [٣٢].

---

[٣١] – عبد الرحمن، عمار: الإلهة الأم في فلسطين والمشرق العربي، مجلة مهد الحضارات، المديرية العامة للآثار والمتاحف، عدد خاص – القدس في التاريخ، ٢٠٠٩م، ص ١٠–١٥.

[٣٢] – كوفان، جاك: الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد، ت، قاسم طوير، دار المجد، دمشق ١٩٨٤م، ص ١٥٤.

وفي مكان آخر، وجدت دمية، كانت تمثل امرأة جالسة ومؤخرتها واسعة ومنفذة بأسلوب فيه كثير من التبسيط، ولم تكن هذه الأمور عبثاً، بل عبّرت عن عقيدة جماعية، احتلت فيها المرأة – الإلهة الأم – مكان الصدارة في الخصب، وتجدد الحياة. كما احتلت مكانة مقدسة، تعود في جذورها إلى العصر الحجري القديم (الباليوليت)، وهذا ما أكدته مكتشفات غرب أوروبا.

ويؤكد الدكتور أحمد داوود أنه: من الأدلة على وحدة التكوين النفسي الجماعي والتصور الديني في المناطق السورية عموماً، في تلك الأزمنة الموغلة في القدم، ظهور تماثيل الرّبة عشتار بمختلف أسمائها، التي تنضوي جميعاً تحت اسم (الأم الكبرى) في تلك المواقع. فيما يقول الدكتور والباحث جاك كوفان بهذا الصدد: «إن تشكل أو نحت تلك الأعمال الفنية، لم يكن ضرباً من اللهو والعبث، ولا ضرباً من ضروب الفنون بالمعنى الحديث للكلمة، فالشكل البشري، وبخاصة شكل المرأة، لم يجرِ تشخيصه فنياً إلا لأنه يحمل مغزى، ونابع عن تصميم مسبق، ومما يؤكد على هذه القيمة الدلالية، أن التماثيل المنفذة بأسلوب تبسيط أو مجرد، لا تحاكي الواقع إلا من بعيد، ومن ناحية ثانية فإن هذه الوصفة برهان على إجماع عام يتخطى الحدود المكانية والحضارية، إنه تعبير مشترك، كأي تعبير آخر، فهو ينطلق من ذلك الإجماع، مستهدفاً ذاته، ولهذا السبب، نستطيع التأكيد بأن الأمر لا يتعلق بـ – تشخيص المرأة – بقدر ما هو يتعلق بالتعبير من خلال شكل المرأة على النفسية الجماعية لعصرٍ بكامله»[٣٣].

وفي الحقيقة، فقد أصبحت دمية المرأة فيما بعد، الشكل الذي يجسِّد (الربة الكبرى) التي تظهر للوجود في بلدان المشرق منذ مطلع الألف الثامن ق.م، ثم تأخذ أشكالها المتبدلة في العصور التاريخية. وقد ظهرت عدة تماثيل للرّبة الأم في سورية، فبالإضافة إلى الدمية المعروفة في المريبط، ظهرت دمى في منطقة دمشق (تل أسود)

---

[٣٣] – داوود: تاريخ سوريا القديم، مرجع سابق ص ١٥- ١٥٣.

وفي بقرص، الذي يبعد حوالي ٤٠ كم إلى الجنوب من مدينة دير الزور على الضفة اليمنى للفرات الأوسط مقابل مصب نهر الخابور، تؤرخ ما بين ٦٤٠٠ – ٥٩٠٠ ق.م، تتخذ المرأة في التماثيل وضعية الركوع، وقد فُقد الرأس والذراع الأيمن والركبة اليمنى، وفي موقع تل الرماد قرب بلدة قطنة على بعد ٢٠ كم جنوب شرق دمشق، صنع سكان الطبقة الأولى من الموقع والتي تؤرخ ما بين ٦٢٥٠ – ٦٠٠٠ ق.م تماثيل بشرية منفذة بإسلوب أكثر واقعية، وكذا الأمر في مواقع أخرى من بلاد الشام، وكان آخرها ما وجد في عام ٢٠٠٤م، حيث تم العثور على أكمل تمثال للربة الأم في موقع سكر الأحيمر في محافظة الحسكة، وهو تل يقع على الضفة اليمنى للخابور الأعلى حوالي ٤٥ كم شمال غرب الحسكة، ويعود التمثال إلى بداية الألف السابع قبل الميلاد، وقد شكّل هذا الاكتشاف مفاجأة كبرى، فهي – أي تمثال الربّة – مثالية ومزخرفة في طريقة واقعية رائعة، ومصنوعة من الطين الناعم المشوي، وارتفاع الدمية في وضعية الوقوف ١٤.٢ سم، وعرضها ٩ – ١٠ سم عند القاعدة التي تأخذ شكل مربع تقريباً، وتعتبر هذه الدمية فريدة لعدة أسباب، منها:

١– حجمها الكبير مقارنة مع التماثيل الطينية المميزة لهذه الفترة.

٢– المهارة الفنية العالية جداً، في طريقة تجسيد الملامح بما فيها الشعر، الحواجب، العيون، الأنف، والشفاه، كما هو الحال في جميع أجزاء الجسم[٣٤].

إن الربة الأم التي انتشرت أشكالها الطينية والحجرية في القديم، كانت تجسيداً جسمانياً للخصب والإخصاب، ولبقاء النوع واستمرار الجماعة المنتجة، صيداً وقنصاً وهجوماً ودفاعاً. كما كانت الربة الأم هي قائدة الجماعة، والمعوَّل عليها في تنميتها. وفي عملية الإنجاب، وزيادة أفراد الجماعة، فيما بقيَ دور الرجل، مجهولاً آلاف

---

[٣٤] – نيشياكي، يوشهيرو: العثور على أكمل تمثال للرّبة الأم في سكر الأحيمر، مجلة الباحثون، العدد 0.15 دار الشرق للطباعة والنشر، دمشق ٢٠٠٨م ص ٦١ – ٦٣.

السنين في مسألة الإنجاب، أي مجرد عابر سبيل، فلم تكن الجماعة البشرية، تعرف دور التزاوج في ذلك كله.

ولما كانت المرأة في اعتقادهم العامل الفاعل الأوحد في هذا المجال، وهي معتبرة بهذه الصفة قبل كل شيء، فلا بد أن تكون القائدة، ولم تكن أيّة أنثى تصلح للقيادة، فلا بد أن تكون قوية تنجب التوأم، وتشبع البطون الجائعة، وبهذه الصفة هي كملكة نحلٍ، يجب أن تؤمن لها الجماعة خير الغذاء وأكثره، ولا بد أن تقدم لها طقوس العبادة، وأن تمثل ربة عظيمة الثديين والبطن والردفين[٣٥]. وربما كان أفضل تمثيل لعظمة المرأة في الألف السابع قبل الميلاد، هو ما عثر عليه على أرضية بيت من الجص في تل حالولة، حيث زينت الأرضية بمشهد لنساء راقصات في مشهد احتفالي رائع، ويعتبر هذا التجسيد، من أقدم المشاهد الاحتفالية في بلاد الشام[٣٦].

[٣٥] – البني، عدنان: بين التّراب والتّراث، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٥م، ص ١١.

[٣٦] – معرض المرأة السورية من خلال المكتشفات الأثرية، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، مهرجان المحبة، اللاذقية، الدورة ١٥، ٢٠٠٧م، ص ٧.

علاقة المرأة بخصوبة الأرض عند بعض المجتمعات

إن ظهور الزراعة كثورة هامة جداً بعد ثورة اكتشاف النار واستعمالها من قبل الإنسان منذ حوالي ٥٠ ألف سنة، ومعرفة الإنسان لعملية استغلال الأرض من أجل الحصول على إنتاج وفير، وتأمين مصدر ثابت للحياة، من خلال عميلة تخزين بعض البذور والثمار، ومن ثم زراعتها في زمن محدد، وربط هذه العملية الدورية للزراعة بالظروف المناخية وبالطقس، وإدراك المرء في ذلك الزمن أن المرأة هي من استطاع ترويض الطبيعة، من خلال اكتشافها للزراعة، وربط هذه القدرات للمرأة بالنعم التي حلّت عليه، ووقوفه عاجزاً عن مجاراتها في مسيرة التقدم.

فالزراعة لم تكن عملاً تأملياً بعيداً عن الأخطار، بل كانت معركة مستمرة وصراعاً يائساً ضد القحط والجفاف والمجاعة، وضد قوى الطبيعة العنيفة، التي كانت أيضاً تجليات لقوى مقدسة[٣٧] ، فإن قيام الأنثى باكتشاف الزراعة أعطاها مكانة جعلت منها في نظر الذكر قوة مقدسة، كما جعلت الرجل بالدرجة الأولى، يقف ساجداً أمام عظمتها، وخاصة مع تزايد اختراعات واكتشافات الأنثى، فكان أن قدّسها، تلك التي كانت الأولى في العطاء والخصب، وخاصة عندما ربط الدورة القمرية بالدورة الشهرية للمرأة، وعندما شبّه المرأة بالأرض، وشبّه عملية ولادة البذور بولادة الأطفال من رحم المرأة، وأمام رقّة جسد المرأة، وما يمثله للرجل من جمال وخصب وفتنة، فكان أن صنع لها تماثيل تعبر عن رؤيته للمرأة، هذه الرؤية التي هي رؤية جماعية لمجتمع بأكمله، وقد جاء الدليل كما ذكرنا سابقاً، من خلال العثور على العديد من الدمى النسائية التي تظهر المرتبة التي وصلت إليها المرأة في تلك العصور، لكن هذا الدور، وإن تراجع فيما بعد، إلا أنه قد ترك في الذاكرة الإنسانية، وخاصة عند بعض الشعوب ذكرى ارتباط المرأة بالأرض، وربط خصوبتها بخصوبة الأرض. فالكثير من المجتمعات الآن تعتقد أنه ينبغي على النساء القيام بزراعة القمح لأن النساء يعرفن

---

[٣٧] – آرمسترونغ: موجز تاريخ الأسطورة، مرجع سابق ص ٤٤.

كيف ينجبن الأطفال، كما يعتقدون أن الزوجة العاقر مؤذية للحديقة [٣٨] على اعتبار أن المرأة العاقر لا تنجب الأطفال، ويمكن أن تؤثر على النباتات في الحديقة، وتجعلها لا تزهر.

وهناك كثير من العادات التي تربط المرأة العروس بالقمح، فهم يذرونها بالقمح أو يكللونها به، وفي نيوزيلندا مثلاً، تطبّق على المرأة الحبلى نفس الشعائر التي تطبّق على من تقوم بزراعة رقعة الأرض بالبطاطا. ويعتقد كثير من الشعوب أن البذور تصيب حظاً أوفر من النمو إذا تولت غرسها امرأة حبلى. وفي مجتمعات أخرى يقتصر جني المحصول على النساء العاريات الصدور، زعماً منهم أن هذا سوف يضمن غلة أوفر، وما زلنا بطبيعة الحال ننثر الأرز على العرائس، جرياً على عادة أجدادنا، الذين كانوا يعتقدون أن هذا يكفل الخصوبة. ثم أن الثورة الزراعية التي قامت بها النساء، أحدثت أخطر التحولات في المجتمع والثقافة مثل ديانات الخصوبة التي تدور حول المرأة وزيادة النظم الاجتماعية القائمة على نسق الانتساب للأم ونزول الزوج على أهل زوجته، واهتمام عام بالولادة والنمو والحضانة والنكاح والتوالد، أي ما كان يرى آنذاك على أنه وظيفة المرأة بشكل عام[٣٩].

وفي ختام هذا الفصل نؤكد على أن دور المرأة، قد استمر مدة طويلة من الزمن في المجتمع الإنساني، وهذا ما يؤكده استمرار ظهور الدمى الأنثوية بكثرة قياساً لعددٍ محدود جداً من الدمى الذكرية، ولقد تعيّن مرور أكثر من ألف سنة قبل ظهور أول إله ذكر، وذلك حوالي ٧٠٠٠ ق. م. ولكن هذه الآلهة الذكورية، لم تبلغ كما يبدو مكانتها، بل بقيت في مرتبة أدنى. غير أنه يجب أن لا يتبادر إلى الذهن أن دور الرجل في الجماعة الأمومية كان دور التابع، إلا أن الرجل قد بوأ المرأة مكانتها احتراماً وتقديراً لا خنوعاً، كما يجب أيضاً أن نؤكد على أن الاكتشافات الأثرية كان

[٣٨] – طحان، محمد جمال: الزراعة للمرأة.. والصيد للرجال، مجلة العاديّات، جمعية العاديّات حلب، العدد الأول، ٢٠٠٤م، ص ١٠.

[٣٩] – رايلي: الغرب والعالم، مرجع سابق، ص ٥٥ – ٥٧.

لها الدور الكبير في تسليط الضوء على تصحيح الاعتقاد الذي كان سائداً، بأن العائلة بشكلها الأبوي القائم اليوم قديمة قدم المجتمع الإنساني، بل أكدت لنا الدراسات الأثرية الأخيرة، ومن خلال كل ما ذكرناه سابقاً، أن العائلة كان قوامها الأم منذ آلاف السنين، وذلك ما جسدته التماثيل الأنثوية الكثيرة المليئة بالأنوثة والجمال والخصوبة والمكانة الاجتماعية العالية، التي كانت تحظى بها.

الفصل الثاني

التَّحول الكبير

لطالما كانت المرأة في العصور القديمة سيدة على الطبيعة وعالمة بأسرارها ومنتجة للغذاء والأطفال وخازنة للحبوب، وصانعة للخزف والفخار والملابس. فقد تربعت على عرش الجماعة، وقدّم لها الرجل فروض الطاعة والاحترام والتقديس. لقد قدس فيها جمالها، وأنوثتها وخصبها وعطاءها، ولكنه لم يصل إلى حد التبعية المطلقة، فوقوفه خلفها لم يكن خنوعاً ولا إذلالاً، بل احتراماً وتبجيلاً لها ولدورها في قيادة المجتمع، هذا المجتمع الذي أصبح مجتمعاً أمومياً بامتياز، وهذا ما مثلته الدمى الطينية والحجرية، التي وجدت بأعداد كبيرة جداً كما ذكرنا في الفصل السابق. لكن ومع مرور الزمن، بدأت تظهر للوجود دمى لرجال مصنوعة إلى جانب الدمى النسائية، وبدأت مزاحمتها، وشيئاً فشيئاً بدأت أعداد هذه الدمى تتزايد بكثرة حتى كادت أن تصبح مساوية للدمى النسائية، وقد فسّر هذا الشيء على أنه ازدياد في دور الرجل إلى جانب المرأة في قيادة المجتمع، وبدء تخلي المرأة عن تفردها عن هذا الدور، لكن هذا التحول لم يحصل في ليلة وضحاها، بل احتاج إلى زمن طويل جداً تجاوز الألف عام تقريباً، فمع دخولنا الألف الخامسة قبل الميلاد، بدأ الدور الريادي للرجل بالظهور أكثر فأكثر، وبدأت تماثيل الآلهة الذكرية تنافس مثيلاتها الأنثوية، وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدل على تقدم ملموس في دور الرجل في منافسة المرأة ودورها في قيادة المجتمع.

لكن ومع دخولنا الألف الرابع قبل الميلاد، زادت الأدلة على تراجع أكبر لدور المرأة، فبدأت تظهر في بعض الأماكن كتابعة للرجل، لكن هذا التحول في وضع المرأة وتراجع مكانتها، لم يكن ليحصل لولا حدوث بعض المتغيرات التي أملتها حتمية التاريخ وتطور العقل البشري، الذي بدأ يتطور شيئاً فشيئاً نحو مجتمع أكثر تعقيداً

وأكثر رغبة في تشكيل تجمعات سكانية ذات صفات أكثر مدينية (من المدينة) كان لها الأثر الواضح في تراجع دور المرأة، وهذا ما سنأتي على شرحه بشيء من التفصيل.

لقد كان اكتشاف الزراعة في المراحل الأولى من الحقبة النيوليتية على يد المرأة من أهم العوامل على علو وسمو مكانة المرأة، والتي وصلت إلى حد التقديس، لكن اكتشاف الزراعة ترافق معه استئناس بعض أنواع الحيوانات، هذا الاستئناس إضافة إلى زيادة الإنتاج الزراعي، كان لهما الدور الكبير في نشوء ما يسمى بحركة تبادل المنتجات الزراعية بين الأفراد، والذي كان يتطلب تدخل الرجل غالباً للقيام به أي قيام الرجل باستخدام هذه الحيوانات كوسائط نقل لهذه المنتوجات في أعماله التجارية، والأرجح أن النساء لم يتراجعن إلى مرتبة ثانوية في المجتمع، إلا بعد أن تمكّن الرجال مستعينين بحيواناتهم من القيام بمعظم الأعمال الزراعية، فكما ساهم اكتشاف الزراعة في سمو مكانة المرأة سابقا، سيساهم في تراجع دورها لاحقاً.

لقد توسع الرجال في القيام بالأعمال الهامة، وفرضوا أنفسهم في المجتمع وهيمنوا على المدن الأولى والمتنامية، وعدلوا ثقافتهم على صورتهم، فعندما قامت المرأة بكافة الأعمال قدّسوا الآلهة الأنثى، أما وإنهم يقومون الآن بجزء كبير من هذه الأعمال، فهذا أمر تطلب تغييراً في الثقافة والمعتقد، فقام الأرباب مقام الرّبات، بل إن الإلهة المقترنة بالزراعة صارت مذكرة، كـ أوزوريس في مصر، وباخوس في اليونان، على سبيل المثال. بل حلّت الآلهة محل ربات الأرض الأم كمصدر للحياة، وأصبح أبو السماء في أهمية الأم الأرض. وغالباً ما أصبح الناس يتصورون المطر في الغالب على أنه المني الخصب لأب السماء، وتنكر أحد الأساطير المصرية دور الأنثى في الحمل تماماً، إذ كانوا يعتقدون أن الإله المصري آتوم خلق الكون من جسمه بالاستمناء، وهذا يعني رفض إعطاء الأنثى أي دور في عملية التوالد، في ما كانت سابقاً هي المسؤولة بشكل كامل عن هذا العطاء، ويشير لويس ممفورد أنه: «لم

يكن في استطاعة الذكر المتباهي استخدام كلمات أكثر وضوحاً كي يدلك على أن النساء لم تعد لهن أهمية في النظام الجديد للحياة»[٤٠].

ومع هذا التطور وهذا التعقيد في العلاقات، نشأت المدن الأولى، التي كانت ناتجاً ذكورياً، كما كانت القرية في العصر الحجري الحديث تعكس الخصائص الأنثوية، وهذا ما سنلاحظه لاحقاً من أن وضع المرأة في المدينة كان يتراجع بسرعة، فيما استطاعت المرأة الريفية المحافظة على علو مكانتها بسبب دورها الكبير في العملية الاقتصادية التي تجري في الريف من خلال قيامها وعملها بكافة الأعمال داخل المنزل وخارجه.

وفي هذا المجال يقول الأستاذ محمد وحيد خياطة في كتابه (المرأة والألوهية) أنه: «عند ظهور المجتمع الطبقي في الشرق العربي القديم، ونشوء السلطة وجهاز الحكم في دول المدن السومرية، وبعد نشوء الكتابة والتدوين، تنحت المرأة عن مركزها القيادي في المجتمع الجديد الذي احتلته، أي عندما كانت تجسد بساطة وعفوية المجتمع الرعوي الخالي من كل عقد المجتمع الطبقي الناهض»[٤١].

ويشير كتاب الإنسان والحضارة (لعدة مؤلفين) عن اختفاء تماثيل المرأة الأنثى في أوروبا، لتحل محلها أحياناً تماثيل ذكورية * وذلك في نهاية العصر النيوليتي الأوربي، وفي نفس المرحلة عادت تربية القطعان إضافة إلى الصيد لتحتل مكان الصدارة في الاقتصاد الأوروبي، وبما أن الحياة الرعوية تتفق وتنظيم المجتمع على أساس أبوي، فإن اختفاء التماثيل الأنثوية في هذه المرحلة يعكس تقليص دور النساء وترتيبهن[٤٢] . فيما يذهب ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) مشيراً إلى دور الزراعة

---

[٤٠] – رايلي: الغرب والعلم، مرجع سابق، ص ٥٩ – ٦٠.

[٤١] – خياطة، محمد وحيد: المرأة والألوهية، دراسة في حضارات الشرق القديم، دار الحوار للنشر، اللاذقية، ١٩٨٤م، ط١، ص ٨١.

* – تماثيل القضيب أي رموز ذكورة أخرى.

[٤٢] – الإنسان والحضارة والمجتمع، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

وتطورها في تراجع دور المرأة فيقول: «عندما تطورت الزراعة وزاد طرحها، أخذ الجنس الأقوى يستولي على زمامها شيئاً فشيئاً، وكذلك وجد الرجل في ازدياد تربية الماشية مصدراً جديداً للقوة والثروة والاستقرار، وبذلك انتزع الرجل من أيدي النساء زعامتهن الاقتصادية التي توفرت لهن حيناً من الدهر بسبب الزراعة، وكانت المرأة قد استأنست بعض الحيوانات، فجاء الرجل واستخدم هذه الحيوانات في الزراعة، وبذلك تمكن من أن يحل محلها (المرأة) في الإشراف على زراعة الأرض، هذا إلى أن استبدال المحراث بالمعزقة، قد تطلب شيئاً من القوة البدنية، وبذلك مكّن للرجل من أن يؤكد سيطرته على المرأة، أضف إلى ذلك، أن ازدياد ما يملكه الإنسان مما مكّن تحويله من مالك إلى مالك، كالماشية ومنتجات الأرض (تجارة) أدى إلى إخضاع المرأة للرجل إخضاعا جنسياً».

لقد اعترف للأبوة في الأسرة وبدأت الملكية تهبط في التوريث عن طريق الرجل، واندحر حق الأمومة أمام حق الأبوة، وأصبحت الأسرة الأبوية أي التي يكون أكبر الرجال سناً على رأسها هي الوحدة الاقتصادية والشرعية والسياسية والخلقية في المجتمع، وانقلاب الآلهة، وقد كانوا من قبل نساء في أغلبهم، انقلبوا رجالاً ذوي لحى هم للناس بمثابة الآباء يحيط بهم من النساء (حريم) كالذي كان يحلم به ذوو الطموح من الرجال في عزلتهم.

كان هذا الانتقال إلى الأسرة الأبوية أي الأسرة التي يملكها الوالد، ضربة قاضية على منزلة المرأة، فقد باتت هي وأبناؤها في أوجه الحياة الهامة جميعاً ملكاً لأبيها أو لأخيها الأكبر، ثم ملكاً لزوجها، إنها اشتريت في الزواج كما كان العبد يشترى في الأسواق سواء بسواء، وهبطت ميراثاً كما يهبط سائر الملك عند وفاة الزوج[٤٣].

وبالعودة للأسباب العامة لتراجع دور المرأة، فإن تغير الأوضاع السياسية والاقتصادية والديموغرافية، وظهور المدن الأولى، كان له الأثر الأكبر في تراجع

---

[٤٣] – ديورانت: قصة الحضارة، مرجع سابق، م١، ج ١، ص٦١ – ٦٢.

الدور السياسي للمرأة في المجتمع، فعلى الصعيد السياسي، بدأت بوادر ظهور دول بدائية تتشكل حول مدن صغيرة ناشئة تحكمها طبقة حاكمة لها مصالحها السياسية، والتي تتجلى في محاولة السيطرة على أكبر مساحة ممكنة، محاولة الاتساع على حساب المناطق المجاورة، مما أدى إلى حتمية الصدام العسكري مع القوى المجاورة، وهذا بالتالي زاد من أهمية العنصر الذكري على حساب العنصر الأنثوي.

أما على الصعيد الاقتصادي، فقد تطورت المفاهيم الاقتصادية حيث زاد الإنتاج الزراعي والصناعي، وبدأت تظهر بوادر تجارة صغيرة، مما جعل هناك حاجة ماسة لزيادة الإنتاج، وقد تطلب ذلك زيادة في الجهد العضلي، مما يتناسب أيضاً مع دور فعّال للرجل في عملية الإنتاج على حساب تراجع دور المرأة فيه، خاصة مع ظهور الورش الصناعية وزيادة مساحة الأرض المزروعة والمروية. إن ظهور الاقتصاد المنتج غيّر مبدئياً تفاعل الإنسان والطبيعة، وزاد كثيراً من إمكانات التكيف البشري، وعوضاً عن جمع الحبوب البرية في المناطق القليلة لنموها الطبيعي، صارت تجري زراعتها وتعهدها ونقلها إلى أراض جديدة، وقد زادت مساحات انتشارها بصورة متزايدة، وتحول الإنسان من صيد الحيوانات البرية إلى تدجينها والاستفادة منها بشكل اقتصادي، حيث نشأت أنماط اقتصادية وثقافية جديدة أكثر مردوداً واستقراراً بكثير، ونال الإنسان لأول مرة إمكانية السيطرة على مصادره الغذائية ومضاعفتها، فقد كانت نتائج الانتقال إلى الاقتصاد المنتج ثورية حقاً[٤٤].

أما على الصعيد الديموغرافي: فقد حصلت زيادة كبيرة في عدد السكان، بسبب تحسن الظروف المناخية، وزيادة الإنتاج الزراعي، وتوفر الغذاء بشكل أكبر، مما أدى إلى ظهور تجمعات سكانية كبيرة، تحولت من قرى صغيرة إلى قرى أكبر، ومن ثم ظهرت المدن الأولى بتعقيداتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وقد ترافق هذا مع

---

[٤٤] – غولايف: المدن الأولى، ت، طارق معصراني، دار التقدم موسكو ١٩٨٩م، ج ١ ص ٢٩.

تراجع نسبي في دور المرأة في قيادة المجتمع، بسبب تسلّم الرجل معظم الأعمال الإنتاجية.

وقد كان لاكتشاف المعادن في العصر الحجري النحاسي أضخم الأثر على الاقتصاد، وخاصة في مجال التصنيع، والذي أدى إلى ابتكارات حضارية مهمة وسريعة اختلفت وتائرها حسب المناطق، لكن مركزها الأهم كان في القسم الشمالي من بلاد الرافدين وبلاد الشام، حيث سكنت المجتمعات التي تنتمي إلى ما يُسمّى بالحضارة الحلفية، التي اشتهرت بتصنيع الفخار الرائع، وتلتها الحضارة العبيدية، التي انطلقت من الجنوب الرافدي ومعها تجديدات كثيرة في مجال العمارة والفنون والاقتصاد[٤٥] وميادين الحياة الأخرى.

فقد تحسن البناء فصنع القرميد (اللبن المشوي) وتنوعت أشكال البيوت، وارتفع مستوى تنظيمها وانتشرت الأبنية الكبيرة ذات النفع العام (المعابد)، وترسخت مفاهيم الأسرة والعشيرة والقبيلة، وتعمق التخصص بالإضافة إلى تقدم الفنون، ويشير الأستاذ (ماكس مالاوان) العالم الأثري الذي نقّب في ثلاثينيات القرن العشرين في تل براك وتل عربجية، بأن وجود دلايات من الحجر على شكل رأس الثور، ووجود الرسومات الكثيرة لرأس الثور على الفخار المستكشف في موقع تل حلف، إلى أن الثور كان في نظر سكان تلك المرحلة الانتقالية، رمزاً للعنصر المذكر في الطبيعة، وإنه اعتبر نظيراً للإلهة الأم.

فيما يرى العالم لويس ممفورد، أن المدن الأولى كانت ثمرة (زواج) بين المجتمع الرعوي الفذ الذي كان يسوده الرجل، ومجتمع القرية من الفلاحين، حيث تمثل المرأة مركز الصدارة، ولا بد أن هذا الزواج كان في بعض الأحيان زواج مصلحة، إلا أنه كان في معظم الأحوال زواج إكراه[٤٦]، ولقد اكتشف ممفورد نفسه أن المدينة نفسها هي

---

[٤٥] – تموم، جمال: نشوء المدن والسلطات (الدولة)، مجلة مهد الحضارات، العددان ٦–٧، المديرية العامة للآثار والمتاحف – دمشق – ص ١٧.

[٤٦] – القّيم: المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، مرجع سابق، ص ٤٠.

النتاج المميز للخصائص الجنسية الذكورية، كما كانت القرية في العصر الحجري الحديث، تعكس الخصائص الجنسية الأنثوية.

مقاومة المرأة

على الرغم من الدور المتقدم الذي أصبح الرجل يتحلى به، من خلال هذا التحول الذي حصل في بناء المجتمع، وتغير ثقافته ومعتقداته، وقيام المدن، وتراجع دور المرأة النسبي، إلا أن المرأة لم تغب بشكل كامل عن دورها المتقدم، فقد بقي تقديس المرأة في شخصيتها المتعددة، ممثلاً في تجسيدها لفكرة الأمومة والخصب، حتى في مجتمع الرجل، ونلحظ ذلك بكثرة من خلال الأساطير والتراتيل الدينية والأمثال الشعبية.

في الحقيقة، لم تفقد المرأة في مجتمع الرجل كل حقوقها التي كانت تتمتع بها في العصر الأمومي، فقد حافظت على شخصيتها الاعتبارية كإنسان حر يتمتع بحق التملك وحرية التصرف في البيع والشراء، كما تقبل شهادتها أمام المحاكم وعلى العقود التجارية[٤٧]، وهذا يعني أن التغير نال فئة معينة من النساء فقط.

كما أن التغيرات التي طرأت على المجتمع خاصة بعد تشكل المدن الأولى واقتلاع الدور الاقتصادي للمرأة في المدينة وتسليمه للرجل، فإن هذه التغيرات بقيت طفيفة نوعاً ما في الريف، حيث حافظت المرأة الريفية على قدرٍ كبيرٍ من مكانتها العليا كقائدة للعمل في البيت والحقل، وما زال هذا الدور الذي تلعبه المرأة في الإنتاج المنزلي والحقلي مستمراً حتى الوقت الحالي في الريف بشكل عام، لذلك سنرى لاحقاً بأن وضع المرأة عموماً في الريف سيبقى متميزاً ومتقدماً عن سواها في المدن.

وخير مثالٍ نقدمه عن التحول من النظام الأمومي إلى النظام الأبوي في التاريخ البشري، هو أن الإله أوزوريس الذي أصبح أول الآلهة الذكور الموحدين، الذي ولد نفسه بنفسه، ولم تلده أمه وهي الإلهة نوت، وقد كانت إلهة السماء وزوجها (جب) إله الأرض.

---

[٤٧] – خياطة: المرأة والألوهية، مرجع سابق، ص ٩٢.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد استمرت صورة الربّة الأم في العصور التاريخية، فكانت تماثيل الرّبة إنانا وعشتار وننخورساج، من الأعمال الفنية الهامة التي جسّدها الفنان للعبادة، فتقدمت الفنون وترسخت المفاهيم الدينية والطقسية، وأهم التماثيل التي جسّدت الرّبة الأم في سوريا، ما وجد في موقع تل حلف وتل براك والسلنكحية ورأس شمرا وتل الحريري (ماري) وفي إيبلا وغيرها كثير، والتي بينت لنا إضافة إلى دور الأم كربّة ومربية، بأنها لعبت دوراً أساسيا على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، حيث بقيت مكانة الأم الكبرى على حالها في ضمير الناس عامة، ممن لم يتوجهوا إلا إليها عند الخوف واليأس وأزمنة الشدّة[٤٨]. وهذا ما سوف نعرفه في الفصول القادمة، وذلك مع دخولنا العصور التاريخية، وبدء التدوين.

[٤٨] – السّواح: لغز عشتار، مرجع سابق، ص ٢٦.

الفصل الثالث

المرأة العربية في بداية العصور التاريخية

لقد حدث ما يُسمى بالثورة المدنيّة ما بين ٣٧٠٠ - ٣١٠٠ ق.م، وقد تجلى هذا في مجال العمارة والتقنية والفن، وتنظيم المجتمع، مما خلق تراكماً اقتصادياً وإدارياً، أدى إلى ظهور الحاجة إلى الكتابة واختراعها، حيث ظهرت هذه المظاهر المبكرة للحضارة في جميع أنحاء المشرق العربي، في العراق وسوريا ومصر، وكذلك في تركيا وإيران، وكان لكل منها مميزاته الخاصة.

ففي العراق كان التحول من العصر الحجري الحديث، للدخول إلى العصور التاريخية، تحولاً بطيئاً، فقد انتقل الإنسان من قرى صغيرة في سفوح زغروس وطوروس إلى مواطن مدنيّة واسعة نسبياً، ومن العائلة والبطون القبلية، إلى مجتمعات زراعية ورعوية أكثر تعقيداً وتنظيماً وتراتباً وثقافة.

ولا يزال صحيحاً القول: إن الحضارة المنسوبة إلى السومريين، ليست بكليتها من ابتداعهم، وإنما هم مدينون بجزء كبير جداً منها إلى جماعات بشرية سبقتهم وشاركتهم إبداعاتهم الحضارية المهمة، فهي لم تُحمل من الخارج إلى بلاد الرافدين كما يُعتقد، كما لم تكن منعزلة عن بقية جيرانها من الحضارات، التي ظهرت في العراق وبلاد الشام.

وقد سمحت لنا التنقيبات الأثرية المعروفة بالعراق من إنشاء سلَّمٍ زمني تقريبي للعصور والمراحل التاريخية التي مرَّ بها الإنسان في تلك المنطقة في عصور ما قبل التاريخ بشكل مباشر، وهي عصور تُنسب إلى مواقع معروفة بالعراق، وتتميز كل منها بمجموعةٍ من العوامل التي تميزها عن الأخرى، مثل الفخار والبناء وطراز العمارة والتماثيل والمشخصات والأختام وأشياء أخرى، ويمكننا تصنيف هذه الأدوار، إلى دور حسونة ٥٨٠٠ -٥٥٠٠ ق. م، ودور السّامراء ٥٦٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م، ودور حلف

٥٥٠٠ – ٤٥٠٠ ق. م، ودور العبيد ٥٠٠٠ – ٣٧٥٠ ق. م، ودور أوروك ٣٧٥٠ – ٣١٥٠ ق. م، ودور جمدة نصر ٣١٥٠ – ٢٩٠٠ ق. م[٤٩].

وفي بلاد الشام أيضاً، أظهرت التنقيبات الأثرية أدواراً تاريخية متميزة، لا تقل عن مثيلتها في العراق أهمية، فأريحا في فلسطين، تُعتبر أقدم مدينة عامرة في العالم، كذلك نجد قيام العديد من الثقافات في تل رأس شمرا، حيث أُقيم مجتمع يعتمد على الزراعة والصيد والرعي، ومنذ أواسط الألف السابع حتى نهاية الألف السادس قبل الميلاد، قامت في جبيل حضارة تمثّلت بأكواخ ومساكن بسيطة ذات أرضية مغطاة بالكلس، وقد ترافقت مع تطور أساليب الدفن وطقوسه، كذلك نجد مراكز حضارية أخرى في تل بقرص في وادي الفرات قرب مصب نهر الخابور، والتي تعتبر حتى الآن من أقدم مراكز الاستقرار في ذلك الجزء من منطقة الفرات، ومع بداية الألف الخامس قبل الميلاد، شهدت المنطقة قيام حضارات متألقة، كما في تل حلف، والتي انتشرت من جبال زغروس في الشرق، حتى البحر المتوسط في الغرب، والتي شهدت استمرار ظهور تماثيل الإلهة الأم، التي يُعتقد أنها تراجعت بفعل تعاظم ثقافة جديدة نشأت في جنوب بلاد الرافدين، في موقع العبيد، وانتشرت إلى الشمال، حيث قضت على الحلفيين هناك، ثم ظهرت ثقافة أوروك، تلك المدنيّة الحديثة، التي نشأت في مدينة أوروك، مؤذنة بانتهاء عصور ما قبل التاريخ، ودخولنا العصور التاريخية، عبر اختراع الكتابة أواخر الألف الرابع قبل الميلاد فيها، وقد تعاصرت مع حضارة أوروك، بعض المراكز الحضارية في بلاد الشام، والتي تميزت بالغنى والأهمية، كحبوبة الكبيرة وقناص وعارودة وبراك، والتي كان لها أيضاً دورٌ كبير في دخولنا عصر المدينة الجديد.

أما في مصر، فقد تمَّ اكتشاف عدد من المراكز الأثرية الحضارية في مناطق الدلتا والوادي والفيوم، تعود مخلّفات الإنسان فيها إلى العصر الحجري الحديث،

---

[٤٩] – مرعي، عيد، وفيصل عبد الله: تاريخ الوطن العربي القديم – بلاد الرافدين، جامعة دمشق، ٢٠٠٢م، ط ٤، ص ٧، ٥٧.

وعصر ما قبل الأسرات، وتُمثِّل المحطتان الحضاريتان في الوجه البحري – حلوان الأولى (العمري) ومرمدة بني سلامة، العصر الحجري الحديث – في حين تمثل المحطتان الحضاريتان الأخريان – في الدلتا حلوان الثانية والمعادي، عصر ما قبل الأسرات.

أما في الوادي، فتمثل فيه المحطتان الحضاريتان – دير تاسا والبداري العصر الحجري الحديث – في حين تمثل حضارة العمرة وجرزة والسمانية، عصر ما قبل الأسرات، وترقى المواد الأثرية المكتشفة في الفيوم إلى العصر الحجري الحديث، وما قبل الأسرات[٥٠].

ومع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، دخلت مصر أيضاً العصور التاريخية وذلك مع اختراع الكتابة الهيروغليفية، لتساوي بذلك بلاد الرافدين وبلاد الشام في هذا الإنجاز الحضاري الهام.

إن هذا السرد التاريخي المُبسّط للمراحل الزمنية التي مرّت بها بلاد الشام والعراق ومصر، يُعدُّ بوابة الدخول في العصور التاريخية، ومن خلاله سنتعرف كيف كان وضع المرأة يتراجع شيئاً فشيئاً أمام سلطة الرجل، وزيادة دوره في قيادة الدولة والمجتمع والدين، فما ظهور الأرباب إلى جانب الربّات، إلا خير دليل على تطور دور الرجل واعتلائه سلطة الزعامة الدينية، فيما أصبحت الربّات يلعبن دور التابع له، لكن يجب أن لا يُفهم من هذا الكلام، أنّ دور المرأة أصبح ثانوياً أو غائباً، وإنما تراجع قياساً إلى ما كانت تتمتع به من سلطة متفردة مُقدّسة في السابق، فما ظهور الربّات إلى جانب الأرباب، إلا دليل على بقاء قبول فكرة تمثيل الأنثى لدور الآلهة وهذا بحدِّ ذاته، يُعتبر مكانة عالية وساميّة لها.

---

[٥٠] – دلو: حضارة مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٣٨.

المرأة العربية في بلاد الرافدين في بداية العصور التاريخية

تُعتبر بلاد الرافدين أحد أهم مناطق ما نسميه بالشرق الأدنى القديم، ففيها ظهرت الأساطير التي ساهمت إلى جانب التدوين بعد اختراع الكتابة في رسم صورة بارزة للإنسان في تلك الآونة، إلى جانب العوامل البيئية، والتي تمثّلت بوجود نهرين عظيمين (الفرات ودجلة) وما كان ينتج عن فيضانهما من نتائج سلبية وإيجابية على الإنسان هناك، بالإضافة إلى حرارة الصيف الحارقة، وبرودة الشتاء القارسة، كل هذه العوامل ساهمت بشكلٍ بارز في تبلور الأفكار الأولى لإنسان هذه المنطقة، فخرجت منه أساطير عبَّرت بشكلٍ قريب جداً من الواقع، مُتأثرة بماضٍ سحيق في العطاء الحضاري، عن قيم وأفكار هذا الإنسان، فذاكرته مليئة بالأحداث والمكتشفات، وكانت إلى جانب ذاكرة شقيقيه في بلاد الشام ومصر، تحمل إرثاً حضارياً في جانب هامٍ منه بذور فكرة تأليه المرأة، ترجع إلى عصر كانت لها السّيادة المطلقة على المجتمع، فما زالت ذاكرته تحمل في ثناياها هذه الصورة المشرقة للأنثى، وإن كانت مكانتها قد تراجعت بعض الشيء، لكن دورها العظيم ما زال ينافس في جلاله أعظم دور للذكر في ذلك العصر، فهي لم تعد الإلهة الأوحد، إلا أنها ما زالت تُمثل جانباً كبيراً من القداسة، وتعتبر من جملة المجمع الإلهي، الذي يجمع أكثر الآلهة قداسة في بلاد الرافدين، وقد تجلّى هذا بشكل واضح في الأساطير، التي تحدثت عن خلق الإنسان وتكوين الحياة، وعن الآلهة والكائنات السّماوية والأبطال والموت والبعث.

وقد أكدت الدراسات الحديثة، أن الأسطورة عبارة عن أحداث، وإن كانت تبدو خيالية، إلا أنها تحمل في ثناياها الكثير من الحقائق والوقائع، التي تحتاج من يقرؤها بشكلٍ جيد لكي تدعمها أحياناً بعض المكتشفات الأثرية، فهي تختلف جذرياً عن ما يسمى بالخرافة، فمنذ أكثر من نصف قرن، بدأ العلماء الغربيون ينظرون نظرة جديدة إلى الأسطورة، فأخرجوا تعبير (ميتوس) من معناه القديم، الذي كان يعني قصة خرافية وأعادوا له اعتباره، وأعطوه معنى يتفق ونظرة المجتمعات القديمة له، ومع فهم تلك

المجتمعات لمثل هذه القصص التي عاشها كقصص (حقيقية) حدثت فعلاً، وكقصص (مُقدَّسة) يحتذى بها، وذات مغذى، وأبطالها آلهة وقوى خلّاقة وبشر متفوقون، وبما أنها نتاج التطور البشري، وانعكاس لظروف طبيعية واجتماعية، يجب أن نتساءل عن مغزى القصة وما المقصود منها، لا عن مدى صحتها أو هل هي حقيقة[٥١] أم لا، وانطلاقاً من هذه الأساطير نستطيع أن نؤكد على دورٍ متقدمٍ للمرأة في بلاد الرافدين، وقد تجلّى هذا في كثير من النقوش والتماثيل والدمى، هذه الدمى التي كانت تمثل صورة الربّة الأم في عصور ما قبل التاريخ، والتي استمرت في العصور التاريخية مُرفقة بنصوصٍ كتابية دوَّنها إنسان بلاد الرافدين، إما تأريخاً لأحداث حدثت، وإما على شكل أسطورة، تُعبِّر عن حالة ذهنية وفكرية، تُمثِّل رؤية لمجتمع بأكمله، هذا المجتمع الذي آمن بالمرأة وبقدراتها، فكان أن قدّسها وبوأها أعلى المناصب والمراتب حيناً، وحيناً آخر حطَّ من قدرها، فجعلها عبدة له تباع وتشرى، من خلال نظرته لها كمصدرٍ للسعادة الجنسية، وكخادمة له في المنزل، فحطَّ من منزلتها وجعلها تقبع خلف جدران القهر، بعيدة عن المشاركة في الحياة اليومية، في مجتمع ساد فيه الحكم الذكوري، من خلال جعل المعبد مركزاً لإدارة الشؤون العامة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

فإذا ما أردنا التعرف على دور المرأة ووضعها في بلاد الرافدين، لا بدَّ لنا من قراءة أساطيره، لمعرفة المركز الهام، الذي لعبته المرأة، كرمز للعطاء والخصب، وكأم تشارك في الخلق، من خلال مشاركتها للذكر في أسطورة الخلق والتكوين، ودورها الكبير في عملية استمرار الحياة، فقد تجلّى دورها في قصة الخلق (أنوما إليش) بألواحها السبعة.

ففي اللوح الأول، كتب إنسان ذلك العصر «في البدء لم يكن هناك أي ذكر للسماوات ولا الأرض، ولم يكن في الوجود سوى المياه الأولى بعنصريها المذكر

---

[٥١] – بشّور، وديع: الميثولوجيا السورية، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ص٧.

(آبسو) والمؤنث (تيامة) ولا شيء غير ذلك، وحين امتزجت مياه العنصرين، وحدث الاتصال بين رمزيهما البدائيين آبسو وتيامة، تجسّدت الآلهة الأوائل في وسط المياه الممتزجة»[٥٢] .

إن جعل الأنثى مشاركة للذكر في عملية الخلق، تُعبِّر عن استمرار في الاعتقاد للدور الكبير الذي تلعبه الأنثى في عملية الخلق، فدورها مساوٍ لدور الذكر في هذه العملية الهامة.

ومع ذلك وفي نفس الأسطورة، جُعلت تيامة تقود جيشاً من الممتلئين بالبغض والكراهية إزاء الآلهة الجدد، من خلال اختيارها لكنجو الشرير قائداً لجيشها وزوجاً لها، وفي اللوح الرابع، تدخل تيامة مع كنجو في حرب مع مردوخ الإله الذكر، الذي استطاع الانتصار عليها وقيامه بالدوس على رجل تيامة وتحطيمه جمجمتها بسلاحه، وتقطيع شرايينها، وإهانته لها، وهذا دليل أيضاً على النظرة الذكورية لإنسان ذلك العصر، الذي جعل من نفسه متفوقاً على المرأة، في حين بقيت المرأة في مقاومتها لهذا الطغيان الذكوري، من خلال استمرارها بمشاركتها له في عملية الخلق والتكوين الهامة، وقد تجلى هذا عند قيام مردوخ بشطر الجثة إلى شطرين، جعل من أحدهما سقفاً للسموات، وأخذ ينظم شؤونها ويرتب ضوابطها وحراستها وهو يدرس مواضعها. ويعود إلى آبسو، موضع مياه العمق ومقام أبيه آيا، فيربّع مساحته المربعة، ويطبق مقاساته نفسها على قبة السماء، التي يجعلها انعكاساً له، ثم أنه يهيئ معابد الآلهة الثلاثة العظام: آنو – إنليل – آيا – ويجعلهم يستقرون فيها (الأسطر ١٢٧– ١٤٦ من اللوح الرابع)[٥٣] .

[٥٢] – حنون، نائل: حينما في العلا – قصة الخليقة البابلية، دار الزمان للنشر، دمشق، ٢٠٠٦م، ط ١، ص ٢١.

[٥٣] – المصدر نفسه: ص ٢٩.

لقد جعل مردوخ من شطر تيامة، سقفاً للسماوات، وهذا إجلال لها، لكنه يبقى دون منزلة الذكر آبسو، فجعلها انعكاساً له، وجاعلاً الآلهة الثلاثة العظام، آلهة مذكرة، وهذا دليل على تدني منزلة المرأة أمام الرجل، من جهة أخرى.

إننا نلاحظ أن هناك ازدواجية في الرؤية اتجاه الأنثى، وهذا يعبر عن وضع مضطرب للمرأة كمرحلة انتقالية، حيث لم يصل المجتمع الرافدي بعد لرؤية ثابتة للمرأة، فهو ما زال يحمل في ثنايا عقله وضميره تلك الذكرى المشرقة للمرأة، فيما يرى أمام ناظريه حالات كثيرة تشي بتراجع مكانتها ودورها.

لقد ظهرت الأنثى في بلاد الرافدين في أشكال عدة، وأخذت شكل آلهة مختلفة وقامت بأدوار متنوعة، ففي ملحمة جلجامش، يرفع أهل أوروك عقيرتهم بالشكوى إلى الآلهة من قمع جلجامش، فاستجابت الآلهة بأن مضوا إلى الإلهة الأم (أرورو) التي ظهرت في نصوص أسطورية أخرى كخالقة للجنس البشري، فطلبوا إليها أن تخلق لجلجامش نداً يعادله قوة وجبروتاً وقلباً صاخباً لا يهدأ، فيدخلان في منافسة دائمة، ويرخي جلجامش قبضته عن أهل المدينة.

استحضرت (أرورو) في خاطرها صورة كبير الأرباب آنو، ليحمل خلقها الجديد بعض سماته، ثم أخذت بكفها قبضة من طين رمتها في الفلاة، فكان منها أنكيدو الرجل الوحش، المُشعِر الجسد، الغزير شعر الرأس.

لا يعرف الناس ولا البلدان

يرعى الكلأ مع الغزلان

يرد الماء مع الحيوان

ومع البهيمة يفرح قلبه عند الماء

في الحقيقة استخدم النص في وصف أنكيدو الكلمة الأكادية (لاللو) التي ترجمت أحياناً بالرجل الوحش أو رجل البداءة، بينما يشير معناها الأصلي إلى الإنسان الأول، ونقرأ في أحد نصوص التكوين البابلية:

أنت الرحم الأم

يا خالقة الجنس البشري

اخلقي الإنسان ليحمل العبء

ويأخذ عن الآلهة عناء العمل

فتحت «ننتو» فمها وقالت:

لن يكون لي أن أنجز ذلك وحدي

ولكن بمعونة «أنكي» سوف يخلق الإنسان

فليعطني «أنكي» طيناً أعجنه

وفي موضع آخر من ملحمة جلجامش، تلعب الأنثى دور المغرية بمفاتنها لأنكيدو، فحرَّكت فيه الرغبة الهاجعة[٥٤]، وهذا يدلُّ على تذبذب النظرة للأنثى ما بين خالقة للبشر بمفردها، ومن ثم خالقة للبشر بمعونة الإله أنكي، ومن ثم تلعب دوراً سلبياً في إغراء أنكيدو، فتبدو وكأنها مصدرٌ للفتنة والمتعة الجسدية فقط. وها هي تصارع الرجلين (جلجامش وأنكيدو) اللذين سارا برعاية إله الشمس شمش، ربّ العقل والقيم الذكرية المُتعلقة بالفتح والإنجاز والسيطرة والتسامي على الطبيعة، في مقابل القيم الأمومية، التي تمثلها عشتار ربّة الطبيعة، التي تدعو إلى كل ما هو غريزي منسجم مع حركة الطبيعة، لا سامٍ عليها، ولا متنكّرٍ لها[٥٥].

فيما يعتبر البعض، أن عبادة الشمس، وبسبب أثرها على الزراعة، قد بدأت على هيئة إلهة بعد عبادة (الأم الأرض) إلهة الزراعة ورمز الخصب، كما تدل على ذلك دمى الطين، التي رأيناها سابقاً[٥٦] والتي يعتبر البعض أن عشتار أو إنانا هما

---

[٥٤] – السّواح، فراس: قراءة في ملحمة جلجامش، سومر للدراسات والنشر، قبرص، الطبعة السورية، دمشق ١٩٨٧م، ط ١، ص ٢٤٢ وما بعدها.

[٥٥] – المصدر نفسه: ص ٢٥٨.

[٥٦] – دلّو: حضارة مصر والعراق، مرجع سابق ص٣٧٧.

الرمز لها، بينما يعتبر الدكتور نائل حنون في كتابه (الحياة والموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة) أن الإلهة الأم هي ننخورساك، مُقدماً ثلاثة أدلة عليها وهي: الألقاب والنعوت التي أطلقت عليها، أو التي وصفت بها، والمكانة المتميزة التي انفردت بها من بين سائر الإلهات في المجمع الإلهي، وأخيراً الدور الكبير الذي نُسِب إليها في عملية خلق الآلهة والبشر وولادتهم، ومن الألقاب التي لقبت بها (ننتو) وهو يتألف من المقطعين السومريين «نن» بمعنى سيدة و «تو» بمعنى (ولود، ولدت) وبذلك يكون المعنى الحرفي لهذا اللقب (السيدة الولود) ولقبها الآخر (ماخ) يعني (العظيمة السّامية) وعرفت بلقب آخر أيضاً هو (أرورو) الذي يعني حرفياً (واهبة النسل) وإن كلمة ننخورساج تعني باللغة السومرية (سيدة الجبل العظيم)، وفي أسطورة سومرية وثيقة الصِّلة بمباركة الجبل من جهة، وباسم ننخورساج من جهة ثانية، يدور موضوع هذه الأسطورة حول نينورتا، إله الحرب والصيد وابن ننخورساك، وقد خاض هذا الإله بحسب ما يرد في النص السومري، معركةً عنيفةً ضد شيطان المرض المسمى آساك، وتمكَّن من قتله، ولكن حدث على إثر مقتل آساك، أن حلَّت سلسة من الكوارث في بلاد سومر، إذ أن (المياه الأولى) التي كانت موجودة في العالم الأسفل عالم الأموات الذي تسميه الأسطورة كور، وكان شيطان آساك مُقيماً فيه، صعدت إلى الأرض وطغت على المياه العذبة، مانعةً إياها من ري المزارع والبساتين، ولم يُنقذ الموقف سوى تدخل نينورتا، الذي بنى سداً عظيماً حامياً بلاد سومر، وكانت ننخورساك في هذه الأسطورة، تُذكر بلقبها ننماخ.

أما المكانة الخاصة التي تميزت بها ننخورساك من دون الإلهات الأخريات، فتتضح من اعتبارها واحدة من الآلهة الرئيسة أو الخالقة الأربعة، التي كانت على رأس مجمع الآلهة في العقائد القديمة، وهم إله السماء آنو، وإله الهواء إنليل، وتأتي بعد إنليل أخته ننخرساك، وهي أخته في أسطورة (أنكي وتنظيم الكون) أما الإله الرابع

فهو أنكي، وهكذا ينفي الدكتور نائل حنون اعتبار عشتار أو إنانا إلهة أمّاً[٥٧]، لكنَّه لا يقلل من الدور الذي لعبته عشتار في أساطير الشرق القديم.

ولكن على الرغم من هذا القدر الكبير للأنثى في عالم الآلهة، إلا أن الآلهة الذكور، كانت لهم السلطة والهيمنة، ويكفي أن نذكر آنو وإنليل وأنكي كأفضل ثلاثي للآلهة في بلاد الرافدين القديمة.

أما عن بقية الآلهة التي ظهرت في بلاد الرافدين، وبعض الأدوار التي قامت بها، فيكفي أن نذكر أريشكيجال إلهة العالم الأسفل، وإنانا إلهة الحب والخصب عند السومريين، وغولا إلهة الشفاء وحامية الأطباء، ونيسابا إلهة المحاصيل عند البابليين ونمو(المياه الأولى)، ولا بد من ذكر، أنه يوجد بين الأدباء المعروفين في بلاد الرافدين ذكر (أنخيدو- أنا) ابنة الملك الشهير سرجون الأكادي ٢٣٤٠- ٢٢٨٤ ق.م وكانت شاعرة تدوِّن مؤلفاتها باللغتين السومرية والأكادية، ومن مؤلفاتها الأدبية في تمجيد الإلهة إنانا[٥٨] تقول فيها:

عندما ترتدين جلابيب الآلهة
الآلهة القديمة جداً
سَيُغنّي ذوو الشعور السوداء
سيمدحونك بأغنية[٥٩]

وتُعتبر أنخيدوانا، أقدم شاعرة في العالم، وكثيراً ما كانت تكتب الشعر كصلوات محبة وشعائر ولاء للإلهة إنانا أو عشتار.

---

[٥٧] - حنون، نائل: الحياة والموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الخريف للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٥م، ط١ ص٧٦ وما بعدها.

[٥٨] - حنون، نائل: حقيقة السومريين، دار الزمان للنشر والطباعة، دمشق ٢٠٠٧م، ط ١، ص ٨٣.

[٥٩] - مظلوم، محمد: صور عشتار في مرايا العراق المشروخة، مجلة فكر، الحزب القومي السوري الاجتماعي، العدد ١٠٧، ٢٠٠٩م، ص ٧.

إضافة إلى ذلك، فقد كان لكل مدينة في بلاد الرافدين آلهتها الخاصة، ومنها نذكر مدينة الوركاء التي كانت تقدس الإلهة إنانا – عشتار، ومدينة سيرارا في دولة لكش السومرية، والتي كانت تقدس الإلهة نانشة، أما الإلهة نناي فقد عُبدت في الوركاء وكيش، والإلهة (نن– سينا) فقد عُبدت في مدينة إيسن... إلخ.

وهكذا نرى كيف كان دور المرأة يتأرجح في بداية العصور التاريخية في بلاد ما بين النهرين، ما بين مساواتها مع الذكر من خلال مساواة الآلهة الأنثوية مع الآلهة الذكرية، وأحياناً كانت تتراجع إلى الوراء لتقف في الصف الثاني أو الثالث في مجمع الآلهة، وهذه هي أبرز سمات عصر الانتقال والتحول في تاريخ المرأة.

المرأة العربية في بلاد الشام في بداية العصور التاريخية

كان وضع المرأة في بلاد الشام مماثلاً لشقيقتها في بلاد الرافدين، وذلك لوجود التواصل الحضاري على ضفتي الفرات، وعدم وجود حواجز أو موانع تمنع وصول التأثيرات الفكرية والأسطورية بين الطرفين، كما أن التطور الذي حدث في بلاد الرافدين على مستوى زيادة التعقيدات الاقتصادية ونشوء المدن وبروز الآلهة الذكرية، رافقه وسايره نفس التطور على الساحة الشامية، وكما شاهدنا دور الأسطورة في بلاد الرافدين وإظهارها لدور المرأة، يمكننا أن نستفيد أيضاً من هذه الأسطورة في بلاد الشام، فلكل منطقة أساطيرها وإن كان التشابه بينها كبيراً.

فالآلهة التي ذكرت في بلاد الرافدين موجودة في بلاد الشام مع تغيير اسمها فقط، ومع احتفاظها بالدور الذي لعبته في كلا المنطقتين، آخذين بعين الاعتبار بعض القضايا التي يمكن أن تؤثر على وضع المرأة في بلاد الشام، خلافاً لبلاد الرافدين، ومنها اختلاف البيئة في بلاد الشام، وعدم وجود نهرين كبيرين كدجلة والفرات، وانعكاس هذا الأمر في الاعتماد أكثر على مياه الأمطار في الري، والتعلق أكثر برضا آلهة السماء، مما أدى إلى ظهور إله الطقس هدد في بلاد الشام.

أما العامل الآخر، فهو عدم نشوء دول ذات طابع عسكري في بلاد الشام بداية الألف الثالث قبل الميلاد، كما حدث في بلاد الرافدين، حيث نشأت عدة دول عسكرية، وعلى رأسها الدولة الأكادية، إضافة إلى قرب جبال زغروس وسكانه المتوحشين القادرين دائماً على الدخول إلى بلاد الرافدين في حال ضعف السلطة المركزية هناك، ما كان يُرخي بظلاله على وضع المرأة الرافدية بشكل سيء آنذاك، أما في بلاد الشّام، وعلى الرغم من وجود إمبراطورية كبرى كـ إيبلا ومملكة ماري، فإن طابعهما العام لم يكن عسكرياً، بل طابعاً مدنياً حضارياً، ما سينعكس إيجابياً على وضع المرأة بشكل جيد، وهذا ما سنراه لاحقاً، إضافة إلى الدور الكبير الذي لعبه

البحر المتوسط على الدول التي جاورته، فللبحر تأثيرات إيجابية أيضاً، وهذا ما سنراه أيضاً عند معرفة أوضاع المرأة عند الكنعانيين لاحقاً.

وإذا عدنا إلى دراسة الأسطورة الشامية وخاصة أسطورة البدء والتكوين الأوغاريتي والكنعاني بصورة عامة، يمكننا أن نستنتج أن إيل هو سيد الجميع خالق الكون والبشر، وهو إله مُسِنٌّ عجوز، ويحيط به بعض الآلهة الفتية الشّابة، أمثال بعل، عناة، موت، يم، داجون[٦٠].

إن وجود عناة في مجمع الآلهة، يُعبر عن سمو الأنثى في نظر الأوغاريتيين وسكان الساحل السوري أجمع، فالعقل البشري الذي يرتضي لنفسه فكرة وجود آلهة أنثى في مجمع آلهته، لا بد له وأن يكون عقلاً يحترم الأنثى، فما الأديان والأساطير في السابق، إلا تعبيراً عن نفسية جماعية، وتوجه عام لإنسان ذلك العصر، وهذا ما أثبتناه سابقاً.

إن نصوص أوغاريت لا تذكر أسماء هذه الآلهة فقط، بل، تقدم لنا أساطير متعددة، تتحدث عن الخلق، وتعاقب فصول السنة وصراع الآلهة مع بعضها وغير ذلك. وأهم هذه الآلهة، الأم أشيرة زوجة الإله إيل كبير الآلهة، ويؤلف أولادها مجموعة الآلهة، وتسمى أيضاً السيدة الأم المُغذية وأطفالها الإلهيون يرضعون حلمات ثدي أشيرة، وبالفعل فقد عُثِر في رأس شمرا على لوحة جميلة من العاج تُمثل إلهة ترضع يافعين، ورغم كل هذا فإنها بالدرجة الأولى إلهة بحرية، وغالباً ما تأتي تسميتها أشيرة اليم، أي أشيرة البحر[٦١].

ولدينا أيضاً في نصوص أوغاريت لَقَبان، الأول (إيلة) أو (إيلات) وهو مؤنث الاسم إيل، الذي يعني الإلهة بامتياز مثلما يعني الاسم (إيل) الإله بامتياز، أما اللقب الآخر فهو (قدش أو قدشو) ويعني القداسة، وإلى جانب كونها مرضعة وأماً للإلهة فقد

---

[٦٠] – الشّواف، قاسم: مع الكلمة الصافية، منشورات دار الأجيال، ط١، ص ٦٥.

[٦١] – سلسلة الأساطير السورية – ديانات الشرق الأوسط، ت. رنية لابات، نقلها للعربية: مفيد عرنوق، دار علاء الدين للنشر، دمشق ٢٠٠٠م، ط ١، ص ٤٣٣ – ٤٣٤.

لعبت عشيرة دور مرضعة أمراء السلالة الحاكمة في أوغاريت، هذا وتشهد نصوص أوغاريت أَيضاً وخصوصاً ملحمة كرت على أن عشيرة كانت الإلهة الرئيسية في مدن الساحل الفينيقي، وخاصة صور وصيدا[٦٢].

وإن دلّ هذا على شيء، فإنه يدلُّ على النظرة السّامية التي نظر بها الشامي والكنعاني إلى الأنثى، فجعلها زوجة الإله الأول إيل وأمّاً للآلهة، وهذا يدل على الاعتقاد الجمعي في بلاد الشام في النظرة إلى الأنثى، والمحافظة على بعضٍ من دورها الكبير، الذي لعبته في السّابق كآلهة أم وحيدة، ولكنها الآن زوج كبير الآلهة وتأتي في الدرجة الثانية بعد إيل، وإن بدا هذا تراجعاً لدورها، لكنه أبقى للأنثى ألقها ودورها الفاعل والمؤثر في عقول الناس، وخير دليل على ذلك كثرة الآلهة الأنثى في بلاد الشام.

أما على صعيد الأسرة فكان النسب للأب، حيث احتلت المرأة المرتبة الثانية بعد الرجل الذي كان مسؤولاً عن زوجته، وعن أولاده، فهو مُلزَمٌ بتقديم كل شيء لهم في الحياة وبعد الممات، وعليه تقديم الهدايا والهبات والنذور للآلهة، وبناء المعابد إرضاء لها وكسباً لودها ومباركتها له أولاً ولأولاده ثانياً، ولأمهم ثالثاً[٦٣].

---

[٦٢] – السّواح، فراس: أطياف عشيرة – إلهة أوغاريت، مجلة المعرفة، سوريا، وزارة الثقافة، العدد ٥٠٥ – ٢٠٠٥م ص ٣٣، ٣٤.

[٦٣] – أحمد، حامدة: من مظاهر الحياة العائلية في المجتمع الكنعاني الفينيقي، سلسلة دراسات تاريخية، العددان ٧٩ – ٨٠، دمشق ٢٠٠٢م ص ٦٩.

المرأة العربية في مصر في بداية العصور التاريخية

لعبت المرأة في التاريخ المصري دوراً بارزاً في عصور ما قبل التاريخ، وذلك مع بروز ظاهرة الإلهة الأم الكبرى، خاصة مع تطور القوى المنتجة المصرية من مرحلة الصيد واللقط إلى مرحلة الزراعة، والتي جاءت متأخرة بعض الشيء عن بلاد الشام والرافدين، ومع تطور الديانة في مصر، أخذ الناس يعبدون الشمس والمياه والأرض وغيرها من الظاهرات الطبيعية، ففي هذه المرحلة تفسخت العشيرة وتداعى نظام الأمومة، ونشأت المشاعة المتجاورة، وبرزت الأسرة الأبوية، وظهرت الفروق الاجتماعية في الثروة بين أعضاء القبيلة الواحدة.

لكن دراسة الميثولوجيا المصرية، تعطينا فكرة واضحة عن نظرة المصري القديم للأنثى، وتجليات الأم الكبرى في عقله الباطن، ومن ثم إدراكه الواعي لدور الأنثى في المجتمع، وقد تجلى ذلك من خلال الأسطورة، عبر الإلهة (نيت)، فهذه الإلهة إن لم تكن بذاتها واسمها الإلهة النيوليتية المصرية، فإنها وريثتها المباشرة، وإلى جانبها نجد الإلهة (نوت) والإلهة (إيزيس) والإلهة هاتور و(سيخمت).

كانت نيت أم الآلهة وبالذات أم كبيرهم (رع) الذي أنجبته قبل أن يكون للولادة وجود، هذا وتختلط هذه الإلهة بالإلهة إيزيس في الطقوس الأوزوريسية، أما الإلهة نوت فلم تلعب دوراً في الدين والطقس، بل بقيت إلهة مرحلة، فهي قبّة السماء المحدَّبة التي يتقوس ظهرها فوق الأرض (جب) المستلقي تحتها، وهي البقرة السّماوية التي أنجبت الشمس التي تشرق من حضنها وإلى حضنها تعود عند المغيب، أما بطنها فسقف الكون، الذي تزينه النجوم والكواكب، وبينما تأخذ نوت ونيت خصائص الأم الكونية البدئية، تأخذ إيزيس وهاتور وسيخمت خصائص الطبيعة الدينامية، وهذه الإلهات الثلاث لسْنّ في حقيقة الأمر إلا واحدة بذاتها[٦٤].

---

[٦٤] – السّواح: لغز عشتار، مرجع سابق، ص ٥٥–٥٦.

لقد بدأت الديانات الانفصالية في التاريخ، بانفصال السّماء عن الأرض، وكانت وحدة واحدة بقيادة واحدة هي الإلهة الأم الكبرى (نوت)، وقد ساعدت هذه الوحدانية على ازدهار الكون ونمو الخير وتوزيعه على الناس بالعدل دون أسياد وعبيد، ولعل أكبر تحول من النظام الأمومي إلى النظام الأبوي في التاريخ البشري، هو أن الإله أوزريس أصبح أول الآلهة الذكور الموحدين، الذي ولد نفسه بنفسه، ولم تلده أمه، وهي الإلهة نوت، وكانت إلهة السماء وزوجها (جب) إله الأرض.

هنا نتوقف قليلاً لندرك كيف تم الاستغناء عن دور المرأة الزوجة والأم في إنجاب الآلهة، كأنما الإله الذكر قادر وحده على الإنجاب، وكما حدث في التاريخ من الانتقال من الإلهة الأم إلى الإله الأب، حدث في عبادة الحيوانات التي كانت ترمز إلى الألوهية، وكانت البقرة ترمز إلى الإلهة إيزيس أو حتحور، إلا أن الملك مينا أو (نارمر) أنشأ عبادة التمساح المذكر (سوبك) في الفيوم وعبادة العجل (آبيس) المذكر أيضاً في منف[٦٥].

هكذا نرى أن مرحلة التغير التي شهدتها بلاد الشام والرافدين، تكررت أيضاً في وادي النيل، فتراجع دور الأنثى وما تمثله من رمز في عقول الناس وضميرهم إلى مرتبة مساوية لمرتبة الذكر، ولربما تراجعت عنه أيضاً لتصبح في الدرجة الثانية بعده، وربما تابعة له، وهذا بكل تأكيد ينعكس سلباً على مكانة المرأة في الحياة العامة المصرية، فتغيرت في مصر كل معالم الإلهة الأنثى، لتحل محلها معالم الإله الذكر بكل قوته وجبروته، ويكفي هنا أن نذكر أن كل رموز القوة المصرية كانت ذكوراً، كالتمساح والصقر والأسد (أبو الهول) وغيرها كثير، وهذا يدل بشكل واضح على سيطرة العقل الذكوري والنسب الأبوي والأسرة الأبوية ، فيما تراجعت المرأة لتمثل دور الأنثى فقط بما لها من فتنٍ جسدية وخدمة منزلية حاملةً لكافة أنواع الحلي والنفائس،

---

[٦٥] – السعداوي، نوال، وهبة رؤوف عزت: المرأة والدين والأخلاق – حوارات لقرن جديد، دار الفكر، سوريا، دمشق ٢٠٠٠م، ط ١، ص ٢٠ – ٢١ – ٢٢.

لا لسمو مكانتها الروحيّة، بل لمكانتها الجسديّة في إسعاد زوجها الذكر، وليشعر هو بذكورته ورجولته كأنه الرب الأوحد.

وبطبيعة الحال فإن المرأة لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا الامتهان لكرامتها، فنراها تنتفض لتغسل عن كاهلها غبار التبعية ولتذكر الذكر بقوتها وعظمتها، ففي أحد النصوص التي تُعبِّر من خلاله عن نفسها، تقول عشتار، وهي بالتأكيد إيزيس مصر:

أنا الأول، وأنا الآخر

أنا البغيّ، وأنا القدّيسة

أنا الزوجة، وأنا العذراء

أنا الأم، وأنا الابنة

أنا العاقر، وكُثرٌ هم أبنائي

أنا في عرسٍ كبير، ولم أتخذ زوجاً

أنا القابلة، ولم أنجب أحداً

وأنا سلوة أتعاب حملي

أنا العروس، وأنا العريس

وزوجي من أنجبني

أنا أم أبي، وأخت زوجي

وهو من نسلي

وُجِدت هذه القصيدة، كنصٍّ كتبه أحد الغنوصيين المصريين في القرن الرابع الميلادي عن لسان عشتار (إيزيس)، وتم اكتشافه في إحدى مخطوطات منطقة (نجع حمادي) في صعيد مصر منتصف الأربعينات من القرن العشرين، ويُجسِّد بوضوح الصورة القلقة لشخصية عشتار (إيزيس) الداخلية، وكسر أيّة صورة نمطية ثابتة

عنها[66]، إن عشتار هنا ما هي إلا إيزيس مصر، فكلاهما آلهة أنثى عاشتا ظروف العزة والمجد، وقاومتا صعود هيمنة الذكر، فهذه القصيدة تعبر عن المرتبة السامية التي كانت تتحلى بها عشتار أو إيزيس، وكيف كانت ترى نفسها قادرة على فعل كل شيء.

أخيراً ومع انهيار الثقافات الأمومية، وصعود الثقافات الذكرية، غلبت الشمس القمر، وتوطدت الديانات الشمسية السماوية، وراح إله الشمس وآلهة السماء السامية يبنون أمجادهم بعد معارك حاسمة مع سيدة العتم وابنها الثور، فقتل مردوخ الأم تيامة في صورة تنين رهيب، وهذا جلجامش البابلي حبيب شمش إله الشمس يسير برعاية إلهه وتوجيهه فيقتل مع صديقه أنكيدو تنين غابة عشتار، وتجعل الأسطورة الذكرية من عشتار امرأة لعوباً تقع في حُبِّ جلجامش، الذي يَعرِضُ عنها ويقوم بتحقيرها وتعداد مثالبها، فترسل ضده ثور السماء، الذي يقتله جلجامش دون عناء.

إن هذه الأساطير إضافة إلى أسطورة تيامة ومردوخ، التي دونت في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وهو عصر صعود الملك الذكر حمورابي وإرساء دعائم الإمبراطورية البابلية، ليست إلا ترديداً لأسطورة شفهية تظهر الصراع بين البطل الشمسي من جهة والأم الكبرى وابنها الثور من جهة أخرى، ولعلها في الأصل ليست إلا صراعاً بين شمش نفسه وعشتار نفسها.

لقد أخذت الميثولوجيا الشمسية (الذكورية) ببناء نفسها على الأسس السابقة للميثولوجيا القمرية، وأخذ الآلهة الشمسيون يتبنون خصائص الأم القمرية وابنها، كما استطاعت الميثولوجيا الشمسية تحويل بعض الآلهة القمرية إلى آلهة شمسية، (فمردوخ – بل)، سيد آلهة بابل، ليس إلا بعل الكنعاني، الإله القمري الأصل، الذي أتت به سلالة حمورابي السورية (الأمورية)، كما أن بعل قد تحول إلى إله شمسي في كثير من مناطق عبادته الأصلية، ذلك كبعلبك وتدمر، حيث أقيمت له هياكل الشمس على

---

[66] – مظلوم: صور عشتار، مرجع سابق، ص ١٠٧.

أنقاض هياكل القمر[٦٧]، فما ربط القمر بالإلـهة الأنثى إلا بسبب تشابه الدورة القمرية بالدورة الشهرية للأنثى، وهذا تقليد قديم يرجع إلى عصر اكتشاف الزراعة وتقديس الأنثى كإلـهة وحيدة، وكان من الطبيعي أن يكون للذكر رمز مقابل، فكانت الشمس ذلك الرمز الذكوري والذي ساد في بداية العصور التاريخية.

---

[٦٧] – السّواح: لغز عشتار، مرجع سابق ص ٨٠ –٨١.

الفصل الرابع

المرأة العربية في بلاد الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد

المرأة العربية في سومر وأكاد

إن طبيعة المناخ في بلاد الرافدين عرضة لتقلبات مفاجئة وغير متوقعة، فقد يكون الطقس بارداً جداً وجافاً جداً في الشتاء، كما يمكن أن تخمد رياح الجنوب الرطبة المناسبة للنبات، وقد تلمّ عاصفة رعدية أو رملية، كما يمكن للطوفان أن يدمر المحاصيل ويجرف جزءاً من القطعان خلال ساعات عدة.

هكذا كان يجد العراقي نفسه أمام مظاهر طبيعية قوية (فوق طبيعية) لأنها تفوق طاقته، ويعجز عن تفادي نتائجها المدمرة فيمتلئ قلبه بالقلق، وقد يشعر بأنه بحاجةٍ ماسةٍ للاتكال على جهة ما تسانده لتفادي هذه المخاطر، فكان أن قدّس المرأة في بداية نشوء الزراعة، وذلك لارتباط الزراعة بالنساء، والقدرات الخلاّقة التي تميزت بها المرأة، ولكنه وما إن بدا له أنه يستطيع القيام ببعض الأعمال (الأنثوية) لوحده كالزراعة، أخذ يبحث له عن إله آخر، فوجد في الشمس مصدراً للدفء والعطاء، ولارتباطها بالزراعة، فقد قدّسها وشعر بالسعادة لأنها تمثلت عنده بالإله شمش المذكر، فبدأ يستعيد بعض هيبته، وشيئاً فشيئاً بدأت تظهر الآلهة المذكرة كإله السماء آنو، وإله الهواء إنليل، وإله الأرض أنكي، وبدأت تظهر الأساطير التي استطاع بواسطتها أن يُفسِّر ما حدث حوله من أحداث، كان يجهل أسبابها، فعزاها إلى غضب هذه الآلهة، لذلك حاول إرضاءها بإقامة المعابد، وهي دور العبادة التي يتواصل فيها مع الإله الذي يقدّسه ويجله، وقد أصبح لكل مدينة إلهها المخصص، كما أصبحت بعض المدن مركزاً دينياً هاماً، كـ نيبور، وأصبح المعبد مركزاً للنشاط السياسي

والاقتصادي والاجتماعي، حيث فرض نفوذه على كافة طبقات المجتمع، ومن بينها بالطبع المرأة، حيث كان وضعها قد بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً كما ذكرنا سابقاً.

فدخلت المرأة في لعبة ما يسمى إرضاء الآلهة، ذلك من خلال الزواج المقدس وقيامها بدور الرّبة عشتار أو ننخرساج، مقابل دموزي أو تموز الذكر، وعملية الخصب والعطاء، وانعكاسها على الطبيعة، وتواتر خروج النبات، ومن ثم موته... إلخ.

ففي سومر والحضارات اللاحقة، نجد الإلهة الأم أو الرّبة الكبرى، قد غدت إحدى آلهة المجمع الكوني بعد أن كانت في العصر الحجري أنثى كونية عظمى، غير أن هذا التحول في مكانتها في سومر، لم يتم إلا على النطاق الرسمي، بينما بقيت مكانتها القديمة على حالها في ضمير الناس عامة، ممن لم يتوجهوا إلا إليها عند الخوف واليأس وفي أزمنة الشدة.

ومن ناحية أخرى فإن الكتابة التي ابتكرها الإنسان في مطلع العصر المديني، وراح يُدوِّن بها أساطيره الموروثة عن أسلافه البسطاء، قد ساهمت في تظليل صورة الأم الأولى، وإلقاء غلالات سميكة أمام وجهها.

وللوقوف على مكانة المرأة في سومر لنقرأ هذا الابتهال لجوديا ملك لاغاش (٢١٤٤ – ٢١٢٤ق.م)، إلى الإلهة نانشي أم لاغاش، يقول فيه:

أي مليكتي، يا ابنة السّماء الصّافية

التي تنصح بكل ما هو خير

أنت التي تحتلين المركز الأول في السماء

والتي تمنحين الحياة للبلاد

أنت الأم التي أسست لاغاش

أنت الرجل التقي الذي توجهين نظرك إليه

تطول حياته

ليست لي أم، أنت أمي

ليس لي أب، أنت أب

فبالنسبة للسومريين، كانت الإلهة (نانشي) هي:

التي تعرف اليتيم، وتعرف الأرملة

التي تعرف ظلم الإنسان للإنسان

وهي أم اليتيم نانشي تعتني بالأرملة

وتحقق العدالة لأفقر الناس

إنها الملكة التي تستجلب الملتجي إلى حجرها

والتي تجد ملاذاً للضعيف[٦٨]

لاشك بأن هذه القصائد والابتهالات، تُمثِّلُ حالة تؤكد على بقاء مكانة عالية للإلهة الأم في ضمير سكان بلاد الرافدين، فهي التي تحتل المركز الأول في السماء، والتي تمنح الحياة للبلاد، والتي تؤسس المدن وتعتني بالإنسان (الأرملة – اليتيم – الضعيف) وهذا لابد وأنه يعبر عن حالة وجدانية تنتاب إنسان ذلك الزمان تجاه الأنثى، فهي ما زالت عند الحاجة رمز الخصب والعطاء.

---

[٦٨] – القيم: المرأة في حضارات بلاد الشام، مرجع سابق – ص ٥٤ وما بعدها.

الزواج المُقدَّس

إلى جانب المجمع الديني الذكري، وُجِدَ مجمعٌ ديني أنثوي يضم الرّبات من كافة الطبقات والمستويات، فبعضهن مجرد زوجات، وأخريات يحملن مهمات خاصة، حيث تأتي في المقدمة ننخرساج صاحبة العرش الأعظم والرّبة الأم، والتي تدعى أيضاً (نينماخ أو نينتا) وهناك الرّبة الشهيرة اشتار الأكادية (عشتار) والتي ستلعب دوراً مهما مع معشوقها المفضل دموزي (تموز في الأساطير السومرية).

كما أن إنانا هي سيدة السماء، فهي المرأة بكل معنى، صبيةٌ، جميلةٌ، رقيقةٌ، شفافةٌ، غانيةٌ ولكنها مُخادعةٌ، ومُتقلِّبة، تميل إلى عنف وغضب، يجعل من إلهة الرّقة والحب تلك، محاربة لا تقهر.

أما دموزي (الابن الشرعي) بالسومرية فيبدو أنه خلق أو ولد من تزاوج واختلاط مجموعة من الآلهة القديمة فيما قبل التاريخ، ويبدو أنه كان حامياً للقطعان، فإنه يبدو في معظم الأحيان راعياً للنبات، وهو الذي يموت ويحيا كل سنة.

وهكذا فإن إرادة هذه العقيدة القديمة تهدف إلى إنتاج الحيوان وتجديد الزرع والثمار كل سنة وذلك من خلال طقوس، حيث يتمثل هذا الإله بالملك الذي يتحد مع إنانا المُتمثلة بإحدى الكاهنات.

ففي شعر غرامي رائع يجمع في صورة بين العري المُنزَّه والمشاعر الأعظم رقة، ألا وهو موضوع حفلة الزواج المقدس الخرافية، بينما تقصُّ علينا الترانيم الملكية الأكثر وضوحاً وهي ترنيمة (أدين – داجان) ثالث ملك في سلالة إيسين، مواسم هذا الزواج كما يدور على الأرض، في غرفة بغطاء فاخر، وكانت الرّبة قد استحمت واستلقت عليه، وفاحت من الأرض رائحة زيت الأرز العطرة، ويتقدم منها الملك، حيث يقول الشاعر:

يقترب الملك، والرأس مرفوع من حجرها المقدس.

ويقترب، مرفوع الرأس من حضن إنانا المقدسة.

وينطرح (أما – أشوم – جال – أنا)[٦٩] إلى جانبها، ويدغدغ أحضانها.

وعندما استلقت الرّبة المعلمة فوق السرير.

وفي أحضان (الملك) المُقدسة

عندما استلقت إنانا الطاهرة فوق السرير

في أحضانه المقدسة

قد جامعته في سريره

وقالت إلى أدين داجان:

أنت حبيبي والحق.

وبعد أن يتم القران، يفتح باب الدخول للجمهور المُحمَّل بالتقدمات، وكذلك الموسيقيين وتقدم مائدة بهذه المناسبة[٧٠] .

فقد كانت الغاية الأساسية من الزواج المقدس، هي أن يلعب الملك دور الإله، وبالتالي يُصبح له مرتبة آلهة سامية عن مرتبة البشر، وقد كانت تجري كثيراُ في مصر، ولكن ثمَّة حالات خاصة في بلاد الرافدين، إذ ادعى بعض الملوك الألوهية، وعدّوا أنفسهم بشراً وآلهة في آن واحد، وقد فعل ذلك الملكان الأكاديان (نارام سين وشار كلي شاري).

وكذلك عند بعض الملوك السومريين أمثال شولجي ملك أور، واستمرت حتى حمورابي، الذي أبطلها، لكنه لم يتمكن من ذلك. لم يكن الباعث على التأليه هو

---

[٦٩] – وهو لقب من ألقاب دموزي.

[٧٠] – عبد الله، مرعي: تاريخ الوطن العربي القديم – مرجع سابق، ص ١١٧– ١١٨.

جبروت المعظمين كملوك إلهيين، وإنما الطقس الديني المعروف بالزواج المقدس، حيث كان الملك بعده يعتبر إلهاً[٧١].

إن من بين التماثيل المكتشفة في حفرة أرضية (معبد الساحة) في أشنونا، وُجد تمثالان لرجل وامرأة يبزان في حجمهما الكبير كل التماثيل الأخرى، ويعتقد أنهما يمثلان زوجاً واحداً، يمثل التمثالان في أيديهما القصيرة، والتي لا تتناسب مع حجم الجسمين كأساً صغيراً.

ونظراً لانفرادهما بكبر الحجم دون بقية التماثيل تتبادر إلى الذهن فكرة الزواج الإلهي المقدس التي يجسدها هنا هذان الشخصان الرئيسان، والتي طالعتنا مراراً على مشاهد الألواح النذورية المقدسة.

ولا يختلف هذان التمثالان بضآلة حجم الأيدي المتميزة عن بقية التماثيل المكتشفة في الحفرة فقط، بل أيضاً بعيونهما الواسعة جداً والتي تبدو غير طبيعية، كذلك بؤبؤ المقل ذات الحجم غير المعتاد ووضع الرأس الشامخ الذي تطل منه العينان بنظرات تأملية نحو السماء، مما يكسب التمثالين نفساً وروحاً خالصاً متجرداً عن عالم المادة، وهذا ما دعا المنقب السيد فرانكفورت إلى التفكير بأن أحد هذين التمثالين يمثل إله المعبد (آبو) وذلك بسبب وجود مشهد مصور على قاعدة التمثالين أمام قدمي الرجل يتألف من عنزتين مضطجعتين بشكل متدابر أمام العشب يحلّق فوقهما نسر كاسر، وهو مشهد يذكرنا بموضوع تموز وعلاقته بالإلهة إنانا في عصر فجر التاريخ السومري[٧٢].

لكن الباحث الدكتور نائل حنون وفي كتابه (الحياة والموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة) يشكك في حدوث ما يسمى بعملية الزواج المقدس ومعترضاً على ما

---

[٧١] – زودن، ف. فون: مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ت فاروق إسماعيل، دار المدى للنشر والثقافة، دمشق ٢٠٠٣م، ط ١، ص ٧٨.

[٧٢] – مورتكات، أنطون: فنون سومر وأكاد، ت محمد وحيد خياطة، دار العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٨،م ط ١، ص ١٠٨– ١٠٩.

قاله الأستاذ فاضل عبد الواحد في كتابه (عشتار ومأساة تموز) الذي اعتمد في تأليفه على كتاب صموئيل نوح كريمر الموسوم بـ (شعائر الزواج المقدس) حيث حاول الأستاذ فاضل عبد الواحد أن يقدم دليلاً على أن تموز كان إله الخصب على وجه الإطلاق، والمسؤول عن النبات والماشية، والدليل الوحيد الذي يريده بهذا الصدد يتمثل في أن تموز قد لقّب بـ (الثور) أو الثور الوحشي في النصوص المسمارية، على افتراض أن الثور اقترن بالنمو والتكاثر في حضارات الشرق الأدنى القديمة، وهذا ما يفصح عن دور تموز في تلك الحضارات على حد رأي فاضل عبد الواحد.

فيما يعتبر الدكتور حنون أن إطلاق لقب الثور أو الثور الوحشي على تموز لا يمكن أن يُعدَّ دليلاً على أنه كان إله الخصب، فهو لم يكن مقتصراً عليه من جهة ولم يكن مقترناً بالخصب من جهة أخرى، ويقدم الدكتور حنون أدلةً أخرى لا مجال لذكرها في بحثنا يتوصل من خلالها إلى أن دموزي (تموز) لم يكن إله الخصب، وإنما كان إلهاً راعياً يمارس عمله في صيانة الحظائر والإشراف عليها ورعي الأغنام، ويخلص أيضاً لنتيجة أخرى، هي أن مسؤولية الخصب كانت للإله أنكي (آيا) الذي وزعها على آلهة أقل شأناً منه، وكلّف أصغر إلهين في المجموعة بمتابعة تنفيذ الشؤون اليومية للحظائر والحقول، وكان دموزي واحداً من هذين الإلهين، وبذلك يكون الدكتور حنون قد نبذ الفكرة السائدة عن كون دموزي إله الخصب القديم[٧٣]، وعلاقته بالزواج المقدس، والذي اعتبره يحطُّ من قدر المرأة بشكل عام، لأن البعض يعتبر هذا الزواج نوعاً من الزنا والبغاء المشروع (المقدس) مُعتمداً على بعض النصوص الأدبية، التي تحذر من هذا الزواج واعتباره أحد أنواع الزواج المقدس، فقد جاء في أحد المصادر الأدبية عن رجل حكيم قدَّم نصائحه محذراً من زواج البغي، حيث جاء في النص:

لا تتزوج المومس (لأن) أزواجها كثيرون

---

[٧٣] – حنون: الحياة والموت في حضارة بلاد الرافدين، مرجع سابق، ص١١٧ وما بعدها.

لا تتزوج البغي (لأن) المعجبين بها كثيرون

لا تتزوج البغي (لأن) أزواجهن ست مرات ستمائة في ضيفك لا تقف معك؟!

في خصوماتك سوف تسخر منك

ليس هناك توفير، أو طاعة معها

هل تستطيع أن تسيطر على بيتك، اطردها خارجاً

حيث أنها وجهت اهتمامها في مكان آخر.

حتى ذهب البعض مثل الدكتور سهيل زكّار، في مقالٍ له بعنوان: (وقفة مع أهميّة تاريخ القدس) إلى اعتبار أن بلاد الرافدين كانت مرتعاً لقيام عمليات كثيرة سماها (الانحراف والشذوذ الجنسي) لدرجة أنه اعتبر أن الكثير مما ذُكِر في بلاد الرافدين، أشبه ما يكون بـ (الوباء) فها هو يورد قصيدة من الأدب السومري، يعتبر أنها تمثل شكوى النساء من عدم العناية الجنسية بهنّ، مع أنه يذكر بعد ذلك أنه: ((ربما كان لمثل هذه القصائد تأويلات ميثولوجيه))!!! لكنها على حدٍّ زعمه لا يمكن فصلها عن الواقع الاجتماعي، أما القصيدة التي استشهد بها، هي:

فرجي... فرجي... التّلة المنتفخة من

سيحرثه لي؟ أنا البنت، من سيحرثه لي؟

فرجي الأرض الرطبة من سيحرثه لي؟

أنا الملكة فرجي... فرجي من

سيضع فيه ثوره... من؟

أنا دموزي سأحرثه

إينين... يا إينين... أنا الملك سأحرثه.

أنا دموزي... سأحرثه

احرثه يا رجل قلبي

احرث ... احرث...

احرثه إذاً... احرث فرجي

يا رجل قلبي[٧٤]

إن موضوع الزواج المقدس وما يمثله، إن كان زنى شرعياً وفقاً لطقوس وديانات تلك الأزمنة أو غير شرعي (البغي) إشكالية تخرج عن نطاق بحثنا، ولنا فيها انعكاسها فقط على وضع المرأة، والذي يبدو أنه كان جيداً، فما كان يحدث في المعابد (لِما كان لها من قدسيّة) سواء آمنا بحدوثها، فهي شرعية، أم لم نؤمن، فهي لم تحدث إذاً، ولا تُعبّر عن انتهاك لشرف المرأة وفق مفهومنا المعاصر.

أما عن علاقة تموز بزوجته عشتار، وقيام عشتار بالنزول إلى العالم السفلي بقصد البحث عن زوجها واستعادته إلى عالم الحياة، فإن الدكتور طه باقر أيضاً يُشكِّك في سبب النزول، ويعتبر أن تموز هو الذي حلّ في العالم السفلي بعد نزول عشتار إليه، ليكون بديلاً عنها في ذلك العالم، لأن من ينزل هو البديل الفادي، وأن البديل الذي كان يتناوب على الحلول محل تموز، في النصف الثاني من كل عام كانت أخت تموز وليست عشتار زوجته، لكن الذي اعتبره الدكتور طه باقر تساؤلا هو سبب نزول عشتار إلى العالم السفلي، سواء للبحث عن تموز الزوج، أو البحث عن تموز رمز الخصب والسلطة والانبعاث في العالم السفلي[٧٥].

وسواء كانت عشتار هي التي نزلت، أم كانت أخت تموز، فهي بالنهاية الأنثى التي كانت تضحي دائماً من أجل استمرار الحياة، وبقاء الخصب، والتي ما انفكت

---

٧٤ – زكّار: وقفة مع أهميّة تاريخ القدس، مقال في مجلة مهد الحضارات، المديرية العامة للآثار والمتاحف، مركز الباسل للبحث والتدريب الأثري، العدد العاشر، عدد خاص بالقدس، ٢٠٠٩م ص ٥٨.

٧٥ – مظلوم، محمد: صور عشتار في مرايا العراق، مجلة فكر، العدد ١٠٧، ٢٠٠٩م، ص١١.

دائماً أن تكون رمزاً له عبر العصور، وهذا ما يعكس العقل الجمعي لإنسان تلك المرحلة، الذي يُعبِّر عن حالة جيدة للمرأة آنذاك، على اعتبارها رمزاً للعطاء.

وبالعودة إلى مكانة المرأة عند السومريين، فقد كان للمرأة ألقها الخاص عند السومري، خاصة عندما كان يراقب التغيرات التي تطرأ على جسدها، فهي تبلغ قبل الرجل، وفعل الحب في حياة المرأة ليس كفعل الحب الأول في حياة الرجل، فهو يجعل من المرأة مخلوقاً جديداً من الناحية الجسدية والنفسية، وشبَّه الجسد الأنثوي بالوعاء السحري، يتحول فيه الدم إلى حليب لينفجر في فوهة الثدي.

وقد ربط السومري (الأكادي) الدورة الشهرية للمرأة بدورة القمر، حيث كانت الإباضة تحدث عادة عند المرأة في اليوم ١٤ من الشهر، وعلى هذا عُدَّ الجسد الأنثوي بالمستودع الذي تختمر في ظلماته الحياة وأسبابها ثم تطلقها نحو الخارج.

وقد تمثلت نظرتهم للحب والمرأة، من خلال نصٍّ هو عبارة عن حوار بين عبد وسيده، يُخاطب فيه السّيد خادمه قائلاً:

أيها الخادم أصغ لي

نعم سيدي، نعم

أريد أن أحب امرأة

افعل ذلك سيدي، فالرجل الذي يحب امرأة ينسى

أحزانه وهمومه

كلا أيها الخادم لن أحب امرأة

لا تفعل ذلك يا سيدي، لا تفعل

المرأة بئرٌ، إنها حفرة وخندق، المرأة خنجر من حديد

صارمٌ يقطع عنق الرجل

وهناك نصٌّ يُبين استعداد امرأة للقاء حبيبها من خلال تزيين نفسها، وإبراز مفاتنها وإغرائها للحبيب، يقول:

لقد غسَّلت، غسلت بالصابون
غسَّلت نفسي في الإناء المقدس
غسَّلت بالحوض الأبيض
ارتديت أرديَة ملوكيّة، ملوكيّة السماء
لهذا السبب قعدت بالبيت
طليت عيني بالكحل
ثبَّتُّ تسريحة شعري...
أرخيت شعري المتشابك
فحصت السلاح الذي سينصر حكمه
عدّلت شفاهي الملتوية
خصلاتي المُفككة جمعتها في العلا
تركتها تنحدر حتى حاشيَة مؤخرة عنقي
وضعت في يدي سواراً من الفضة
ثبت حول عنقي خرزاً صغيرة
ثبت حول أوتار عنقي...

أما عن الزواج، فقد كانت الخطوات المُتبعة نحو الزواج عند سكان بلاد الرافدين، هي أن يتقدم الشاب أو والده، إن لم يكن كبيراً بما فيه الكفاية، أو عند ارتباط الابن مالياً بأبيه إلى والدي الفتاة أو ذويها بطلب يد ابنتهم، وهذا ما يُسمى بالخطوبة، ويلتقي العروسان بعد ذلك فتخاطب العروس خطيبها بعبارة معينة تشير إلى قبولها به زوجاً، كما يؤدي الزوج القسم ويرفع قلنسوة عروسه، ويضعها على رأسه كدليل على احترامه لها. ومن التقاليد الاجتماعية الهامة والمراسيم التي تسبق الزواج

وبالتحديد في يوم الزفاف، وكانت أم العريس تشارك بها، فهي طقوس الاستحمام حيث تغتسل العروس، وتطيب جسدها وتتزين بالملابس الجميلة استعداداً لاستقبال العريس، الذي كان يقوم بمراسيم سكب الزيت على رأس عروسه أمام عدد من الشهود، وبذلك يصبح كل من الشابين مخطوبين رسمياً، وفي يوم الزفاف كانت تُقام وليمة يقدمها العريس، الذي كان يبقى مع عروسه مدة سبعة أيام، يخرج بعدها لتقبّل التهاني، وهي المدة نفسها التي قضاها أنكيدو مع البغي، التي راودته لإغرائه، فيمتثل للأمر وتضطجع معه سبعة أيام، وسبع ليال.

وقد كانت طقوس الزواج المقدس تجري في أيام معينة من السنة، ويعتمد اختيار هذه الأيام على قراءة الطالع والفأل الحسن، وهو ما يُعرف بالتنبؤ اليومي، حيث نجد في رسالة موجَّهة إلى أحد الملوك الآشوريين تتعلق بزواج الإلهة (تشميتوم) من الإله نابو، وكان من طقوس الزواج المقدس، تقديم الطعام للزوجين في اليوم الثاني، وبقاء العروس الإلهية في مخدعها ستة أيام، ومن ثم تجري نزهة للعريس في اليوم السابع، وهذا العرف ما زال جارياً في أيامنا في مراسيم الزواج، ولاسيما فيما يتعلق بالأيام السبعة الأولى[٧٦].

كانت العائلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع السومري، يجمع بين أفرادها الحب والاحترام والالتزامات المتقابلة، وكما ذكرنا سابقاً، فإن الآباء يتولون أمر زواج الأبناء، وكان يُعتَرف بالخطبة قانونياً، حالما يُقدّم العريس هدية الزفاف إلى أب العروس، وكان غالباً ما تتم الخطبة بعقد ينقش على رقيم فخاري تثبيتاً له.

رغم أن الزواج على هذه الطريقة يصبح نوعاً من التدبير العملي، إلا أنه هناك دليلٌ على أن العلاقات الخفية بين الجنسين قبل الزواج لم تكن معروفة بالمرة.

لقد كان للمرأة السومرية حقوقٌ مشروعة مُعينة على درجةٍ من الأهمية، فقد كان باستطاعتها التملك والقيام بأعمال البيع والشراء، وكانت ذات أهلية للشهادة. لكن على

---

٧٦ – الأسود، حكمت بشير: الرقم سبعة في حضارة بلاد الرافدين – الدلالات والرموز، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٧م، ص١١٠ وما بعدها.

مستوى الزواج وحقوقها فيه، كان يمكن للزوج أن يطلق زوجته لأسباب تافهة نسبياً، وكان له أن يتزوج عليها امرأة ثانية إذا لم تنجب أولاداً، أما الأبناء فكانوا تحت سلطة آبائهم المُطلقة، وكان للآباء حق حرمانهم من الإرث أو حتى بيعهم أرقاء، لكن في الأحوال العادية – العامة – كان الأبناء ينعمون بالحب والرعاية، ويرثون كامل ملكية الآباء عندما يموت هؤلاء. هذا، ولم يكن أخذ أبناء بالتبني أمراً مرفوضاً عند السومريين، بل كان الأولاد بالتبني أيضاً يُعاملون معاملة بالغة العناية والاعتبار[٧٧].

إلا أن نظام الحكم في سومر وأكاد، خاصة في بدايته أي مع دخولنا العصور التاريخية، حيث كانت المعابد التي ورثوها عن أجدادهم في مواقع حسونة وسامراء وعبيد، كان لها أهميتها وقدسيتها لِما للمعبد في عقيدة أبناء الشرق من قداسة، حيث تحوَّل هذا المعبد إلى مركز هام لقيادة الدولة والمجتمع والسياسة والاقتصاد، وأصبح رجال الدين هم الحكام المطْلقون يديرون شؤون البلاد ويتحكمون بالعباد ويستملكون الأراضي والعبيد، وكان المعبد يحتل موقعاً متوسطاً على مرتفع اصطناعي، تشرف عليه الزقّورة، التي هي (برج المعبد) وكانت تتبع للمعبد مخازن وأماكن للأعمال الإدارية وأماكن أخرى لمختلف ورشات العمل والإنتاج، ففي أماكن الورشات حيث يعمل أصحاب المهن المتعددة كالخبّاز والغزّال والنسّاج والنجار وغيرهم، يساعدهم العبيد في أعمالهم، والذي ربما وجدت بعض النساء في هذه الطبقة. هنا بدأ الاختصاص بالعمل يأخذ دوره، واعتبرت الأرض الزراعية ملكاً للآلهة، حيث يشتغل الفلاحون وربما الفلاحات من أجل خدمتها وطلباً لمرضاتها.

يمكن القول أن المعبد كان بهذا الشكل نوعاً من الإدارة الإلهية أو كان نموذجاً موسعاً متطور لأسرات العصر الحجري الحديث بإشراف أبوي وطبعاً بتوزيع جديد للأعمال. فالمرأة في البيت لم تعد تقوم بصنع الملابس، بل كانت تجهزها ثلاث

---

٧٧ – كريمر، س: إنانا ودموزي – طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ت نهاد خياطة، الطبعة السورية – دار الغربال ١٩٨٢م، ط ١، ص ٣٠ – ٣١.

عاملات، اختصت كل منهن بقسم من العمل، مما يدل على ظهور الاختصاص[٧٨] ويدل أيضاً على وجود فوارق طبقية لها بكل تأكيد انعكاس سلبي على مكانة المرأة.

لقد كانت إدارة الدولة والمعبد في دولة مدينة المعبد السومرية خلال بواكير الألف الثالث قبل الميلاد ما زالت موحدة على الأرجح، إذ يبدو حتى الآن أنه ليس هناك قصر مماثل لمجموعة المعابد الضخمة في أوروك، التي يتطلَّب بناؤها مساهمة حشد كبير من الناس، بعد ذلك وُجِد عادة في كل مدينة من مدن المقاطعات قصرٌ أيضاً، خاصة مع دخول العصر الأكادي، حيث قامت إمبراطورية كبيرة لم يعد المعبد يصلح لقيادتها، فانتقلت السلطة إلى القصر، الذي أصبح يشكل المركز الإداري والسياسي في قيادة الدولة، إلى جانب المعبد، الذي تميز بغنى ثروته المتجمعة بفضل الأراضي الكبيرة، التي كان يستولي عليها، والتي كان من ضمنها طبقة كبيرة من العبيد وخاصة النساء الأرقاء، الذين كانوا أسرى حرب على الأغلب.

لقد كانت أوضاع المرأة في القصر أفضل بكثير من شقيقاتها الأخريات خارجه، لكن ظاهرة واحدة حيَّرت الباحثين، ألا وهي ظاهرة الأضحية البشرية، وإن كانت بلاد الرافدين لم تشهد مراسم أو شعائر لدفن الأموات مثل تلك التي شهدتها حضارة وادي النيل القديمة من حيث جسامتها وأهميتها، فهذه المراسم والشعائر لم تتعد الإطار التقليدي العام للديانة القديمة في بلاد الرافدين.

إن المدفن المعروف باسم (مدفن الملك) ومدفن شوباد (شبعاد) الذي وضع فيه عند الجدار الغربي للمدفن جثث تسع من النساء كُنَّ يزيّن الشعر بالحلي، ويحملن أقراطاً ذهبية وإكليلاً مصنوعاً من اللازورد واللؤلؤ ووريقات الذهب، وكذلك مشابك شعر فضية ومشبكاً يشبه المشط على الجهة الخلفية من الرأس، وحلي العنق ومشبك

---

[٧٨] – الحلو، عبد الله: صراع الممالك في التاريخ السوري ما بين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية، دار بيسان للنشر والتوزيع بيروت ١٩٩٩م، ط ١، ص ٣٥.

ثياب طويلاً وغيرها من أدوات الزينة[٧٩]، تُظهِرُ أمرين: الأول، هو وجود ظاهرة الأضحية البشرية وخاصة النساء، والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على النظرة الدونية للمرأة، والتي تُمنع من الحق في الحياة، وتمنعها من الحياة بعد موت زوجها، أو الرجل الذي تتبع له، أو الأميرة التي تعمل لديها كوصيفة تحت ذريعة فكرة الحياة وبعثها بعد الموت، حيث تحولت المرأة إلى تابعة لآخر أو لأخرى في الحياة والآخرة. فقد كانوا يقومون بسلب حياة النساء ودفنهنّ أحياء مع أزواجهن.

والأمر الثاني، هو مدى الغنى الذي كانت تتمتع به النساء في تلك الآونة، والذي تبدّى من خلال الأثاث الجنائزي النفيس، الذي وُجِد في تلك المقابر، وهذا ما يذكرنا بتلك المقبرة الملكية الشهيرة في أور، التي كشفت عنها تنقيبات ليونارد وولي في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من القرن العشرين، والتي تعود إلى ما بين ٢٦٠٠ – ٢٤٠٠ ق. م، أي في عصر فجر السلالات الثالث، وقد انتهى استعمال هذه المقبرة قبل قيام سلالة أور الأولى التي أسسها الملك (ميس – آنيبدا) الذي يُحتمل أنه قد عاصر في أواخر أيامه جلجامش ملك أوروك الشهير.

وقد اختلفت الآراء حول تفسير المراسم التي اتبعت في المقبرة الملكية في (أور) وحول تحديد الغاية من التضحية بتلك الأعداد من البشر، الذين دُفِنوا في قبورها بشكل جماعي. لكن الدفن قد لحق الذكور والإناث والذين لحقوا الملك أو الملكة إلى العالم السفلي، ليستمروا في خدمته هناك، مثلما خدموه في حياته، وهذا يعني أنها لم تخص الإناث فقط بل شملت الجنسين، وكانت تُطبّق على نطاقٍ ضيق.

أما الباحث أنطون مورتكات، فيرجح اعتبار التضحية، التي مورست في المقبرة الملكية في أور كجزءٍ من الاحتفالات الخاصة بالزواج المقدس، الذي يُعتقد أنه كان يجري سنوياً، حيث يقوم فيه الملك بدور الإله تموز، في حين تقوم الكاهنة العليا أو الملكة بدور الإلهة إنانا (عشتار) كما ذكرنا سابقاً. ويذهب مورتكات إلى افتراضٍ

---

[٧٩] – مورتكات، أنطون: تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريف توفيق سليمان – علي أبو عساف – قاسم طوير ص ٧٥– ٧٦.

يقول: أن كُلاً من الملك والكاهنة العليا أو الملكة، كانا يُسقيان السم بعد الانتهاء من مراسم الزواج المقدس، وكذلك يُسقى أتباعهما المرافقون لهم بالسم، ويدفن الجميع باحتفال ديني[٨٠].

لكنَّ هذا الرأي غير دقيقٍ، لأن النصوص المسمارية، والتي زادت وضوحاً في السنين الأخيرة، تنفي صحة تفسير أنطون مورتكات، وخاصة النص المسماري الذي يدور موضوعه عن موت جلجامش، الذي أكد فيه أن التضحية البشرية، مورِست بهدف إرسال حاشية الملك وأتباعه المقربين معه إلى العالم السفلي، ليواصلوا خدمتهم له.

أما عن علاقة هذه الأضاحي بالمرأة، فقد لوحظ أنه على الرغم من وجود أضاحٍ بشرية ذكرية، إلا أن الغالبية كانت من النساء، وهذا يدل على أن حياة المرأة ربما كانت لديهم أقل قيمة من حياة الرجل، إلا إذا كان هناك طقس أو فكرة ذات مرجعية دينية، تُكرَمُ بها المرأة بهذا العمل، فلا ننسى بأنها كانت دائماً رمز العطاء، وربما يدل هذا على سمو مكانتها.

لكن فكرة الأضحية البشرية سواء كانت ذكرية أم أنثوية تحت غطاء ديني شرعي، أو تحت غطاء خدمة الملك في الحياة الدنيا والآخرة، أو تحت أي غطاء، تبقى فكرة منبوذة لدينا، لأن أقل حق يمكن أن يُكرَّم به الإنسان، هو حق الحياة، ولربما كان الشرق عبر التاريخ بفضل خصوبة أفكاره وثقافاته، أكثر من سخّر الإنسان لأفكاره، مما انعكس سلباً على حياته ذكراً كان أم أنثى.

لكن هذه الطقوس والعقائد التي آمن بها السومريون من جهة أخرى، كانت على المستوى الشعبي تعطي الأنثى (عجوزاً – شابة – عذراء) مكانةً عاليةً، نجدها في بعض النصوص والمواعظ والأمثال السومرية، إضافة إلى تدوينات يومية، تصف فيها حال السومريين، والتي وصلت إلينا عبر الرقم الكتابية، نذكر منها نصٌّ يصف الحرب

---

[٨٠] – حنون، نائل: المدافن والمعابد في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الخريف للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٦م، ط ١، ج ١، ص ١٤٦ – ١٥٣– ١٥٤ – ١٥٥.

الأهلية السومرية الأكادية، التي اختلط فيها الغوتيون القادمون من جبال زغروس: «يوم إذ صرخت العجوز وا مدينتاه، والشيخ وا شعباه... والعذراء لم تتوقف عن شدّ شعرها، والشاب عن تمزيق نفسه، فقد كان شدُّ الشعر وتركه مُسدلاً على الأكتاف من العذراء علامةً على وقوع مصيبة، تنتحب العذراء لفقدان أخيها أو خطيبها».

فقد كان لنحيبها صدى محزن... وهكذا نسمع صرخات: وا أخاه... وا أبتاه... وا أماه... وا إبناه... إلخ.

كانت العذراء تعيش في الفرح والحب تخرج للرقص واللعب، إنها مدللة العائلة السومرية... من مات ولم يكن له وارث ذكر فإن أخته هي التي ترثه.

أية مكانةٍ أعطاها هذا الملك السومري (جوديا) في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن البنت همّ ومسؤولية أليس كذلك. كما تقول الأمثال السومرية: ((حلوى ما بعد الطعام متعة الرجل، وامرأته ذريته، وابنه حمايته، وابنته همّه، وبنت حميه شيطانه)).

ويصف لنا ملك عهده قائلاً: «الأخ يصدق أخاه، الأب المحترم، البنت الكبرى مُصانة، والأم مرتاحة البال» وهذه نصيحة أم سومرية لابنتها «أخوك الأكبر هو أب حقيقي، وأختك الكبرى كأمك، احن رأسك لأخيك الكبير (مثل أبيك) وأطع أختك الكبرى كما تطيع أمك».

كما تعطي بعض النصوص السومرية الأهمية الكبرى للأم التي تنجب الأطفال، وتحترم علاقتها بالرجل، وغالباً ما توصف بالحب والاحترام، بالرغم أن لها وجهاً آخر هو المقت والغضب والاختلاف، وفي هذه الحال فإن موقفها ضعيف وحمايتها غير كافية، كما أن السومري يعتبر المرأة الحقيقية، هي من تنجب الأطفال، فهي ذريّة الرجل كما جاء سابقاً، وهناك كثير من الأساطير التي تقبع خلف هذا الموقف النفسي من المرأة العاقر.

كما كان السومريون، يعتبرون أن رفض الزوجة مضاجعة زوجها، جريمة تُعاقب عليها الآلهة، فقد غضبت آلهة الحب إنانا من أولئك اللواتي رفضن مضاجعة

أزواجهن، ورفضن الترويح عنهم، ونشاهد أيضاً في أقدم الألواح الطينية، التي تصور مشاهد تعليمية وعلاجية جنسية، وبذلك يكون السومريون أول من ابتدع التعليم الجنسي (العهر الخيالي) في العلاج. كما أن من وصايا جلجامش لصديقه أنكيدو في رحلته المعروفة إلى العالم السفلي: «لا تقبّل المرأة التي تحب، ولا تضرب المرأة التي تكره». وفي مثال سومري عن الزواج، والذي يحض عن الامتناع عن الزواج، والذي ربما جاء من رجل فشل في حياته الزوجية، يقول المثل: «من يتزوج يدخل التنور».

كما أن الشرائع في سومر حرَّمت على الأم أن تضرب أولادها، وطلبت من الابن أيضاً أن يحترم أمه كثيراً، ويعتبر كاتب سومري أن المرأة الجميلة هي «جميلة ورشيقة وأنيقة ومُنتجة ومُتسامحة ومُفرِحة وعطرة»[٨١].

هكذا نرى تقلُّبَ آراء السومريين حول أوضاع المرأة، فالسومريون لم يكونوا بثقافة وعادات ثابتة، فهم شكلوا مجتمعاً كبيراً اختلفت أمزجة وثقافة أبنائه تبعاً لمستواهم التعليمي والثقافي والاقتصادي والمكانة الوظيفية، إضافة إلى أن السومريين كانوا دول مدن كثيرة، ربما اختلفت أيضاً أوضاع المرأة ما بين مدينة وأخرى، تِبعاً لمكانتها العسكرية والاقتصادية والدينية، وعلى كل حال، فعندما نتكلم عن أوضاع المرأة في الألف الثالث قبل الميلاد، نعتبر أن وضعها في سومر كان جيداً، خاصة عند وجود من يحاول القيام بثورات اجتماعية إصلاحية، كان من أبرز أهدافها الدفاع عن المرأة وحقوقها، وهذا ما سنراه عند أوركاجينا.

---

[٨١] – عبد الله، فيصل: ملامح تاريخ المرأة في الشرق العربي القديم، مجلة العاديات حلب – الكتابان ٦ –٧، عام ١٩٩٢م جامعة حلب بالتعاون مع جمعية العاديات – معهد التراث العلمي، ص ١٧٥– ١٧٦–١٧٧.

المرأة العربية من خلال الإصلاحات والتشريعات

إصلاحات أوركاجينا

تأتي هذه الإصلاحات، التي قام بها أول مُصلِحٍ (اجتماعي) في التاريخ، لتؤكد على أنّ الشعور بالظلم قد بدأ يطفو على السطح رافعاً صوته في وجه الطغاة والظالمين، والذي جاء على لسان أوروإنميجينا (أوركاجينا) الذي اعتلى عرش لاغاش بعد خلعه الحاكم السابق لوجالاندا في سنة حكمه السابعة. ولم يكتف بلقب إنزي (أمير المدينة) أو حاكم مستقل، بل سمّى نفسه ملكاً، ورفض الخضوع لسلطة ملك كيش الضعيف، حيث وجد أوركاجينا نفسه أمام وضعٍ اجتماعي مضطرب، بسبب سوء أحوال الطبقات الفقيرة من جرّاء ظلم الحكام، وتعديات الأمراء والموظفين والكهنة، فقام أوركاجينا بإصدار مراسيم إصلاحية تحدُّ من امتيازات العائلات والطبقات المتنفذة التي كانت مستاءةً من وصوله إلى السلطة، وقد عُثِرَ على إصلاحات أوركاجينا مُدوَّنةً على ثلاثة مخاريط طينية ولوح حجري في نهايته كتابات ملكية تتحدث عن أعمال بناء أو ترميم وحفر قنوات وأعمال أخرى قام بها أوركاجينا، وقد شملت إصلاحاته منع استخدام وتسخير ممتلكات المعابد لصالح الإنزي والموظفين، ووقف السرقات وتخفيف الضرائب، كما ألغي زواج المرأة من رجلين، وهذا يدلُّ على أنّ المرأة كانت تعاني أحياناً من سلطة رجلين لا رجل واحد، هذا إذا آمنّا بعدم وجود شرائع تنفي مثل هذا الزواج، لكن أوركاجينا منع هذا الزواج وأعطى المرأة كثيراً من حقوقها ودافع عن النساء الأرامل خاصة.

ففي عصره الذي لم يدم طويلاً (عشر سنوات) أخذت المرأة تعود من جديد لتتساوى في حقوقها بعض الشيء مع الرجل، خاصةً على مستوى طبقة العوام والفقراء، لكن إصلاحات أوركاجينا ما كادت تعطي ثمارها حتى ظهرت شخصية قوية في مدينة أومّا المجاورة، هي شخصية لوجال زاجيزي، الذي استولى على السلطة

هناك نحو ٢٣٥٠ ق. م[٨٢] وقضى على أول رجل في التاريخ، طالب بالحرية للناس وبالعدل والمساواة بين الرجل والمرأة، والذي أطلق عليه أول مصلح أو ثائر في التاريخ فأوركاجينا هو أول من أطلق كلمة (أمارجي) والتي تعني الحريّة.

---

[٨٢] – عبد الله، مرعي: تاريخ الوطن العربي القديم، مرجع سابق، ص١٧٦–١٧٧.

المرأة في التشريعات السومرية والأمورية

لقد بنى السومريون الأكاديون دولاً حضارية كانوا رواداً فيها في كافة المجالات، فمنذ اختراع الكتابة وثورة التدوين، ومرورا ببناء وتنظيم الدول، ووصولاً إلى بذور الديمقراطية الأولى في العالم، التي أثبتتها بعض الوثائق في أوروك (والتي لا مجال لذكرها الآن) والتي ساعدت جلجامش على اتخاذ قرار الحرب ضد دولة مدينة كيش المُحاصِرة له، والتي عرفنا أحداثها من خلال الألواح المسمارية، التي أثبتت أن من أخذ قرار الحرب ضد كيش لم يكن جلجامش مُنفرداً بل البرلمان الذي انعقد في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد في أوروك، والذي كان مؤلفاً من مجلسين هما مجلس الشيوخ ومجلس النواب (العموم) والمؤلف من الذكور القادرين على حمل السلاح[٨٣] دلالة على الرقي الحضاري والفكري لدول المدن السومرية، ومثلما رأينا إصلاحات أوركاجينا، التي وإن لم ترتقِ إلى مستوى التشريعات، فإننا نستطيع اعتبارها نظاماً تشريعياً إصلاحياً بديعاً، وثورة اجتماعية سابقة لكل الثورات، فلنا أن نجلّها ونسجلها مع الشرائع الهامة في التاريخ.

ففي الدول السومرية الأكادية، وجدت أنظمة ودساتير وشرائع تُنظِّمُ حياة الناس وتعطي كل ذي حقٍّ حقّه، وإذا ما قال قائل بوجود فوارق طبقية وحصانة للملوك، فإن هذا موجود في أيامنا المعاصرة!، ووجِد في أكثر المؤلفات التي تحدثت عن الجمهوريات الفاضلة، ولا ننسى أننا نتحدث عن تشريعات مضى على إنجازها أكثر من أربعة آلاف سنة، وهي بحق تُعتبر إنجازاً يرقى فوق كل الإنجازات وهي التي سبقت عطاءات الثورة الفرنسية بأكثر من ٤٢٠٠ سنة تقريباً!.

---

[٨٣] – غازي، حسام: قرار الحرب والسلم في فجر التاريخ – مجلة مهد الحضارات، العدد ٦–٧، ص ٨٩.

المرأة في شريعة أورنامو

تُعدُّ تشريعات أورنامو أقدم ما وصلنا من هذه التشريعات حتى الآن، حيث يُعدُّ أورنامو مؤسس الدولة السومرية الثالثة (أور الثالثة) أو ما يسمى بعصر الإحياء السومري، الذي حكم ما بين ٢١١١ – ٢٠٩٤ ق.م والذي سعى منذ البداية إلى إضفاء الشرعية على حكمه، عبر تأكيد صلته بمدينة أوروك خلال عهد حكامها المشهورين في عصر السلالات الباكرة، فسمّى نفسه ومن بعده بلقب الابن الذي ولدته نينسون، ونينسون هي أم جلجامش.

أما عن قانون أورنامو، الذي وُجِدَ على شكل كسرات هي عبارة عن كتابات مدرسية اكتشفت في نيبور وسيبار وأور، وهي محفوظة حالياً في متحف الآثار في استنبول وفي المتحف البريطاني في لندن وتتألف مواده من قسمين هما: المقدمة والمواد القانونية البالغ عددها ٣٢ مادة، وربما كان العدد أكبر من هذا بكثير ولم يُكتَشَف بعد[٨٤] .

ومن الطبيعي أن تُظهِر لنا دراسة أيّة أنظمة أو قوانين أو تشريعات وضع المرأة في المجتمع الموجودة فيه، هذه التشريعات، التي من خلالها نستطيع تسليط الضوء على أوضاع المرأة العربية السومرية الأكادية في الألف الثالث قبل الميلاد.

فمن خلال إلقاء نظرة على تشريعات أورنامو، نجد أنها أول من نظمت الأسرة في التاريخ، وأول من حددت قوانين للزواج فأعطت المرأة منزلة محترمة، حيث سُمِحَ لها بعقد الصفقات التجارية لحسابها الخاص، ومزاولة الحِرف المحترمة، ودخول سلك الكهنوت، كما أن هذه القوانين قد تشددت في الطلاق، فالزوجة التي تفترق عن زوجها قائلة أنت لست زوجي تُرمى في الماء، والزوج الذي يقول لزوجته أنت لست زوجتي يُلزم بأداء غرامة مالية، إضافة إلى ذلك نظَّمت شريعة أورنامو المواريث وكرَّست

---

[٨٤] – عبد الله، مرعي: تاريخ الوطن العربي القديم، مرجع سابق، ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

احترام المرأة ومساواتها مع الرجل، إذ جاء فيها: «ينتقل لأرملة الميّت نصف الميراث والنصف الآخر لأولاده» ففي حين نرى في عصرنا الحالي أن المرأة ترث ثمن إرث زوجها!. هذا الاحترام للمرأة أكدته ألواح سومر، ففي أول قصيدة غزلية سمعتها الدُّهور عن احترام عاشقة نسمع:

نم في بيتنا يا حبيبي	**حتى ينبلج الفجر**
اغمرني بمداعباتك	**أنت يا من أحبَّني**
نم في بيتنا حتى الفجر	**جسدي جميل لذيذ كالعسل**
مُدَّ يدك إليه	**امسح كفَّك عليه** [٨٥]

لقد أفردت شريعة أورنامو أكثر من تسع مواد بما يخص المرأة، وهذا يدل على اهتمام إنسان ذلك العصر بالمرأة وحفاظه على حقوقها ورقيها ومنزلتها الاجتماعية العالية، وضرورة الحرص على حقوقها وواجباتها، فقد ورد في:

المادة (٤) إذا أغوت زوجة رجل بمفاتنها رجلاً آخر، بحيث أنه ضاجعها، فللزوج الحق في أن يقتل المرأة أي زوجته، لكن يجب إطلاق سراح الرجل الذي أغوته تلك المرأة.

المادة (٥) إذا أزال رجلٌ بكارة أَمَةِ رجل آخر بالإكراه، عليه أن يدفع كغرامة خمسة شيقلات من الفضة.

المادة (٦) إذا طلَّق رجل زوجته الأصلية، عليه أن يدفع لها مينة (٥٠٠ غرام) من الفضة.

المادة (٧) إذا طلَّق رجل زوجته (التي كانت أرملة قبل زواجها منه) عليه أن يدفع لها نصف المينة من الفضة.

المادة (٨) إذا كان الرجل قد عاشر الأرملة بدون أن... عقد زواج فلا يحتاج أن يدفع لها شيئاً على الإطلاق (في حالة طلاقها).

---

[٨٥] – الحموي، خضر: التفاعل القانوني في حوض البحر الأبيض المتوسط – دراسة مقارنة للقوانين منذ خمسة آلاف سنة – دار بيسان للنشر، بيروت ١٩٩٦م، ط ١، ص ٢٧ – ٢٨.

المادة (١١) إذا اتَّهم الرجل زوجة رجل آخر بالزنا، ولكن النهر (الحَكَمُ) أثبت براءتها، فعلى مُتَّهِمها أن يدفع – كغرامةٍ – ثلث المينة من الفضة.

المادة (١٤) إذا أمة... عبرت إلى خارج سور المدينة وأرجعها رجل آخر، فعلى صاحبها أن يدفع للشخص الذي أعادها شيقلين من الفضة.

المادة (٢٢) إذا تكبَّرت أمَة رجل ما وأقسمت لسيدتها على مساواة نفسها بها (أي السّيدة) فعلى (السيدة) أن تدعك فمها (أي فم الأمة) بـ سيلا (وزن مُحددة) من الملح.

المادة (٢٣) إذا تكبَّرت أمة رجل ما وساوت نفسها بسيدتها وضربتها*...[٨٦] .

إن من ينظر إلى هذه المواد يرى أن المرأة كانت لها حقوق وواجبات حددها قانون أورنامو، وإن وجود هذه القوانين بِحدِّ ذاتها هو انتصار للمرأة، رغم وجود أمة وسيدة، وهذه سمات وجدت في أرقى العصور، حتى في عصرنا الحالي. فعلينا أن لا ننسى أن قوانين أورنامو السالفة الذكر، هي من نتاج أفكار رجالٍ وربما نساء، عاشوا قبل ٤ آلاف سنة.

* ملاحظة إن الإشارة السابقة... في القوانين السابقة تدل على أن النص يفتقد للكلمات في هذا الموضع.

[٨٦] – المصدر نفسه: ص ٣٥ وما بعدها.

المرأة في شريعة أشنونا الأمورية (العمورية)

لقد نشأت هذه المملكة في منطقة ديالى أحد روافد نهر دجلة وفي تل أسمر حالياً على بعد ٨٠ كم شمال شرق بغداد، وكانت في البداية تابعةً لمملكة أور الثالثة، وفي السنة الثالثة من حكم إيبيسين حاكم أور استقلت عنها أشنونا وخضعت لحاكم يدعى إتوريا نحو ٢٠٢٠ ق.م والذي خلفه في حكم أشنونا ابنه إلشوإيليا نحو ٢٠٠٠ ق.م، حيث اكتفى الحكّام الذين جاؤوا بعد إلشوإيليا باستعمال لقب إنزي (حاكم المدينة) وفي عهد دادوشا ١٨٠٠ ق.م كُتِبت الشريعة المُسمّاة باسم شريعة أشنونة، التي عُثِرَ عليها مكتوبةً على لوحين طينيين في عامي (١٩٤٥- ١٩٧٤م) واللوحان محفوظان حالياً في المتحف العراقي في بغداد (إن لم يسرقهما الأمريكان) وقد كُتِبت هذه القوانين باللغة (اللهجة) الأكادية خلافاً للقوانين السابقة، التي كتبت باللغة السومرية، وتتألف هذه القوانين من مقدمة صغيرة، ومن ٦١ مادة قانونية فيها تحديد لأسعار المواد المختلفة كالحبوب والزيت والصوف وتحديد للأجور ومعالجة لبعض القضايا الاجتماعية وخاصة حقوق المرأة، إلا أن هذه القوانين لم تسلّط الضوء عليها بشكلٍ كامل، لكنها أوردت بعض المواد المُتعلقة بالمرأة، والتي بلغ عددها تسع مواد فقط، هي:

المادة (١١) إذا قدّم ابن رجل إلى بيت أبي خطيبته مهر الزواج، وبعد ذلك مات أحد الاثنين (الخاطب أو المخطوبة) فإن المال يرجع إلى صاحبه.

المادة (١٨) إذا دخلت بيته وتزوجها، وبعد فترة توفيت المرأة، فلا يحق له (أي الزوج) أن يسترجع ما دفعه إلى بيت زوجته، ولكن يمكنه الاحتفاظ بما تبقى منه (أو ما بقي في ذمته منه).

المادة (٢٧) إذا أعطى رجل لابنة رجل مهراً، ولكن رجلاً آخر خطفها ودخل بها (افتضحها) من دون موافقة أبيها وأمها، فهذه قضية (قتل) نفس ويجب أن يموت.

المادة (٢٨) إذا تزوج رجل من امرأة بدون سؤال أبيها وأمها، ولم يقم وليمة ليلة الزفاف (عرس) ولم يكتب (بذلك) عقداً مختوماً مع أبيها وأمها، فلا تُعتبر هذه المرأة زوجة شرعية حتى لو عاشت في بيته سنة كاملة.

المادة (٢٩) ولكن إذا أقام وليمة ليلة الزفاف، وكتب العقد مع أبيها وأمها ودخل بها، فإنها (في هذه الحالة تكون زوجة شرعية). ويوم يقبض عليها في حضن رجل (آخر) يجب أن تموت، ولا تستمر على قيد الحياة.

المادة (٣٠) إذا خطف رجل أثناء حرب أو غارة أو أخذ أسيراً وبقي في البلد الثاني (الغريب) مُدةً طويلة، وتزوج رجلٌ آخر زوجته وولدت له طفلاً، فعندما يعود يسترجع زوجته.

المادة (٣١) إذا كره رجل مدينته (وطنه) وسيده (ملكه) وهرب، ثم أخذ زوجته رجل آخر، فعندما يعود لا يحق له استرجاع زوجته.

المادة (٣٢) إذا افتضّ رجل بكارة أَمَةِ رجل آخر، فعليه أن يدفع ثلث المينة من الفضة (تعويضاً) أما الأمة فتعود لسيدها.

المادة (٦٠) إذا طلَّق رجل زوجته بعد أن ولدت أولاداً وأخذ زوجة ثانية فسوف يُطرد من بيته وتقطع علاقته بجميع ما يملك وليتبعه من يريد[٨٧].

نلاحظ من هذه المواد القليلة، التي تخصُّ المرأة في شريعة أشنونا، تراجع الاهتمام بقضايا المرأة أسوة بشريعة أورنامو، فقد تبين أن قوانين أورنامو أعطت المرأة حقوقاً في المجتمع، باستثناء المادة ٦٠ من قانون أشنونا، التي تُعدُّ بحق من أفضل ما يمكن أن تُكرَّم به المرأة، إذ من حقها إذا طُلِّقت أن تحتفظ ببيتها وأملاك زوجها

---

[٨٧] – المصدر نفسه: ص ٤٦ وما بعدها.

ومن يرغب بالبقاء معها من أولادها. ولربما اعتُبر هذا القانون – أفضل – من أفضل القوانين المعاصرة التي ساهمت في إعطاء المرأة حقوقها.

وفي الرجوع إلى قوانين أشنونا، التي لاحظنا فيها بعض التقصير بحقوق المرأة باستثناء المادة ٦٠ طبعاً، فلربما كان السبب الذي أعطى المرأة حقوقها خارج نطاق هذه القوانين، هو الاعتماد مُسبقاً على القوانين السابقة (أورنامو مثلاً)، ولربما كان هناك تراجع في دور المرأة في أشنونا لأسباب نجهلها.

وإذا ما أردنا تحليل قوانين أشنونا، فنلاحظ أنها عالجت نوعين من النساء: الأولى، وهي المرأة الحرة، فنجد فيها ارتفاع مكانتها، من خلال المحافظة على حقوقها الزوجية، وضمان حقها مع زوجها (المادة ٦٠) واعتبار شرفها قضية يجب عدم المساس به ووقوف المجتمع إلى جانب هذه المرأة. أما النوع الثاني، وهي الأَمَةُ، التي كانت تعاني من ضياع حقوقها والتعامل معها كسلعة تجارية أو كشاةٍ تُسرَق وتذبح ويُدفع ثمنها أو تُعاد إلى صاحبها، وهذا يدل على اتساع الفوارق الطبقية في أشنونا.

لكن ظاهرة طبقة العبيد، كانت موجودة في أكثر الحضارات رقيّاً، حتى التي اشتهرت بتعظيم مكانة المرأة. والحق أننا لم نكتشف بشكلٍ كامل كل القوانين التي خصَّت ولامست جوانب المرأة، حتى يكون حكمنا عادلاً.

كما لاحظنا أن قوانين أشنونا اهتمت بقضايا الترابط الأسري، من خلال الدعوى إلى الحفاظ على الرابطة الزوجية في حال غياب الزوج لمدة طويلة، ومن ثم عودته إذا كان الغياب قسرياً أي بسبب الدفاع عن الوطن، وعكس ذلك، كان يُسمح للمرأة بالزواج، وهذا يدلُّ على مكانةِ الوطن، ومفهوم الوطنية، لدى سكان أشنونا.

المرأة في قوانين ليبيت عشتار

ليبيت عشتار، هو آخر ملك من سلالة إشبي إرّا، التي حكمت مملكة إيسين (٢٠١٧ – ١٧٩٣ ق. م) فقد اعتلى العرش بعد أبيه اشمي داجان، وقد حكم ليبيت عشتار (صنيع عشتار) ما بين ١٩٣٤– ١٩٢٤ ق. م، إلا أنه اشتهر من خلال القانون الذي وضعه وعُرِف باسمه.

إن ما وُجِد في هذا القانون، هو عبارة عن نسخ مدرسية، عُثِر عليها في مدن كيش ونيبور، وهي محفوظة حالياً في متحف اللوفر ومتحف جامعة بنسلفانيا ومتحف الآثار في استنبول، ومن المؤكد أن القانون كان مكتوباً بالأصل على مسلَّةٍ منصوبةٍ في مكان عام، كي يراها الناس جميعاً، وهذا ما تذكره خاتمة القانون: «في اليوم الذي طُبِّقت العدالة فيه، في سومر وأكاد، أقمت هذه المسلَّة».

لقد دُوِّنَ قانون ليبيت عشتار باللغة السومرية، على الرغم من أن السلالة الحاكمة في إيسين كانت أمورية، وهذا دليل على استمرار اللغة السومرية بعد انتهاء ما يسمى بالسومريين؟.

تتحدث قوانين ليبيت عشتار عن قضايا اقتصادية واجتماعية مختلفة، بلغ عددها ٣٧ مادة، فهي لم تصلنا بالكامل، وإن معظمها كان مهشماً، وقد استطعنا استخلاص بعض القوانين التي تتعلق بالمرأة، منها:

المادة (٢١)... بيت الوالد (ثلاثة أسطر ناقصة)... وقد تزوج ... هدية بيت أبيها، التي قُدِّمت إليها كحصتها من الإرث، سوف يستلمها الزوج.

المادة (٢٢) إذا كان الوالد على قيد الحياة، وكانت ابنته كاهنة من نوع الإينتوم، أو كاهنة من نوع الناديتوم أو القاديشتوم فهي تسكن في بيته كوريث.

المادة (٢٣) إذا البنت في بيت والدها وهو لا يزال على قيد الحياة ...

المادة (٢٤) إذا ولدت له الزوجة الثانية، التي تزوجها، فإن مهرها الذي جلبته من بيت أبيها يكون حصة أطفالها. ولكن أطفال زوجته الأولى وأطفال زوجته الثانية، سوف يقتسمون أموال أبيهم بالتساوي.

المادة (٢٥) إذا تزوج رجل امرأة وأنجبت له أطفالاً، والأطفال لا يزالون على قيد الحياة، وأمَتهُ قد أنجبت لسيدها (كذلك) أطفالاً، والأب (أي سيّد الأمة) قد أعطى الحرية لأمته ولأولادها (ففي هذه الحالة) لا يُقاسم أولاد الأمة أولاد السّيد في العقار.

المادة (٢٦) إذا توفيت الزوجة الأولى، وبعد وفاتها أخذ زوجها أمته كزوجة، فأطفال الزوجة الأولى يكونون ورثتها، والأطفال الذين ولدتهم الأمة لسيدها سوف لا يكونون ك... بيته، منهم سوف...

المادة (٢٧) إذا لم تلد زوجة أطفالاً لزوجها، ولكن زانيةً من الشارع ولدت له أطفالاً. عليه (أي الزوج) أن يُجهِّز الزانية بالحبوب الزيت واللباس (أي يهتم بإعالتها) والأطفال الذين ولدتهم له الزانية، سيكونون ورثته (أي أبناءه الشرعيين) وما دامت زوجته (التي لم تلد على قيد الحياة) فلا يجوز (للزانية) أن تعيش معها في البيت.

المادة (٢٨) إذا فقدت زوجة رجل نظرها أو أصيبت بالشلل، فلا يجوز إخراجها من البيت (أي من بيت زوجها)، وإذا أخذ زوجها امرأة ثانية، فعلى الزوجة الثانية إعانة (مداواة) الزوجة الأولى (المصابة بالعمى أو الشلل).

المادة (٢٩) إذا دخل الخاطب بيت أبي مخطوبته، وأتمَّ مراسيم الخطوبة. وبعد خروجه (من البيت) أُعطِيت مخطوبته إلى صديقه، عليهم (أي بيت المخطوبة) أن يردوا له هدية الخطوبة التي جلبها مضاعفة، ولا تتزوج المرأة صديقه.

المادة (٣٠) إذا عاشر شابٌّ متزوج زانية من الشارع، وأمره القضاة بعدم زيارتها، ثم طلَّق زوجته ودفع لها صداقها، فلا يحقُّ له الزواج من الزانية[٨٨].

نستخلص من هذه القوانين السابقة، وجود مكانة عالية للمرأة، يُعترف بها من قبل الرجال في إيسين، وبغض النظر عن مستوى هذه القوانين، فإن وجودها يجعل المرأة تتحصَّنُ خلفها، وتشعر بأنها في أمانٍ، طالما عملت ضمن نصوص هذه القوانين، فالأشياء المسموحة معروفة، والأشياء الممنوعة معروفة عقوبتها.

فقد حافظت قوانين ليبيت عشتار على حقِّ المرأة في الإرث، كأن ترث أبيها، وأن تورِّثَ أطفالها، وليس أطفال زوجها. كما نشاهد الحرص الكبير على أهمية الخطوبة كعقدٍ اجتماعي هام ومُقدس، يحرص فيه الجميع على التقيّد بأنظمته الخاصة، ولا يحق لأحد التلاعب فيها، وفي ذلك ضمانة مؤكدة لحقوق الرجل والمرأة.

كما أدت هذه القوانين إلى الحفاظ على المرأة، حتى إذا أصابتها الأمراض وأصبحت عاجزة، مما يتطلب من زوجها مراعاتها، حتى ولو تزوَّج ثانيةً، فكان على زوجته الجديدة إعالة زوجته الأولى ومراعاة مشاعرها، وهذا ربما لا نراه في أيامنا المعاصرة. كذلك نرى ارتفاع شأن المرأة من خلال دخولها في سلك الكهنوت، وحصولها على أعلى المراتب فيه، مما يدل على سمو مكانتها ورفعته. فمن المعروف إن دخول المرأة سلك الكهنوت قديم جداً، فقد كانت ابنة شاروكين الأكادي كاهنةً، وأمُّه كاهنة أيضاً، فها هو يذكر ذلك في معرض تدوينه لكيفية انتقال السلطة له في أكاد، يقول:

بعدما نُقلت الملوكية إلى أكد، وفي أكد حكم

سرجون، الذي تبناه الرجل البستاني

الذي صار ساقياً للملك، أور- زبابا

---

[٨٨] - المصدر نفسه: ص٦٦ وما بعدها.

الذي شيّد أكد، وحكم فيها ستاً
وخمسين سنة، وصار ملكاً عظيماً لبلاد
النهرين والمنطقة، كان ملك الجهات
الأربع الملك القوي، أُمُّهُ الكاهنة العليا، أما
أبوه، فغير معروف، أخوه ساكن الجبال...

وبالعودة إلى القوانين السابقة نجد من خلالها وجود فوارق طبقية أيضاً، وذكراً متكرراً للزنا والبغاء، مما يدل على انتشار هذه الظاهرة المقيتة في إيسين، إلا أن قوانين ليبيت عشتار، قد شذَّبت علاقات الارتباط بهن، وهذا يدل على وجود مجتمع متعدد الفئات والطبقات والشرائح الاجتماعية، كمن يعيش في مدينة حديثة، فيها من الجمال ما يسحر القلوب، وفيها من الخبث، ما يجعل المرء يهرب ليتوارى خلف جدران الحرص والأمان.

وهكذا نكون قد مررنا على القوانين التي خصَّت المرأة ببعض قوانينها في الألف الثالث ومطلع الألف الثاني قبل الميلاد، أما عن قوانين حمورابي والقوانين الآشورية فستَدُرس كل في حينه.

لكن، وقبل الدخول في دراسة أوضاع المرأة في الألف الثاني قبل الميلاد، نخلص بنتيجة نرى من خلالها، كيف عاش سكان بلاد الرافدين الأوائل في مرحلة النظام القبلي، وكيف لعبت النساء دوراً هاماً في الإنتاج، فتمتعت باحترام كبير، وشاركت في اجتماعات العشائر والقبائل، حيث حفظت لنا الأساطير حول ذلك أنباء غير مباشرة، تقول الأسطورة: «كانت الآلهة والإلهات تناقش الأمور معاً في المجلس السماوي»، وهذه الأساطير التي تتحدث عن العلاقات ما بين الآلهة والإلهات في السماء، تعكس بشكلٍ غير مباشر ما كان يجري على الأرض بين الناس، ولكن هذه الظواهر الخاصة بمرحلة النظام الأمومي (سيادة الأم) تلاشت مبكراً، لتظهر مكانها علاقات جديدة، أصبحت فيها الأسرة الأبوية هي الخلية الأساسية في المجتمع، واكتسب الأب السلطة على الزوجة والأولاد، وأصبح السيد

المُتصرف بأملاك الأسرة، ففي الألف الثالث قبل الميلاد، أصبح الرجال المحاربون فقط، يشتركون بالمجالس الشعبية [٨٩] .

وابتعدت النساء عن دورهن في المجتمع، كنصفٍ له على الأقل، لكن هذا الأمر لا ينطبق على كافة النساء، ففي كل العصور نجد من النساء من استطاعت أن تحجز لنفسها مكانةً عاليةً بين الرجال، ولربما فاقت عليهم جميعاً، وربما أيضاً وجدنا الكثير من النساء، ممن ارتضين لأنفسهن البقاء خارج دائرة القرار ودائرة المشاركة في قيادة المجتمع فكرياً واقتصادياً وسياسياً، وتوارين خلف الجدران في خدمة الرجال وأولادهن، وهناك البعض ممن جار الزمان عليهن فأصبحن مومسات، وربما عبدات يُؤسرن في الحروب، أو يُختطفن من المنازل ويُبعن في سوق النخاسة. وقد رصدنا خلال الألف الثالث قبل الميلاد بمجمله تراجعاً عاماً في دور المرأة عمّا سبقه مع المحافظة على بعض المميزات الخاصة وفي بعض الحالات لبعض النساء المتميزات فقط، وقد رأينا كيف حافظت بعض الأنظمة والقوانين والإصلاحات على حقوق معقولة للمرأة، كإصلاحات أوركاجينا، وشرائع أورنامو وأشنونا، وقوانين ليبيت عشتار... وربما غيرها.

---

[٨٩] – فرح، نعيم: التاريخ القديم وما قبله، جامعة دمشق، مطبعة دار الكتاب، عام ١٩٨٨ – ١٩٨٩م، ص ١٠٤.

الفصل الخامس

المرأة العربية في بلاد الرافدين
في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد

المرأة العربية في بابل

لقد تمكنت أحد الأسر ذات الأصول الأمورية من الوصول إلى الحكم في بابل وتأسيس مملكة جديدة عُرِفت باسم المملكة البابلية الأولى وذلك في بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

لم تكن بابل قبل هذا التاريخ من المراكز السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية القديمة والهامة في بلاد الرافدين، بل كانت بلدة صغيرة عرفها السومريون باسم (كا– دينجير– را) والأكاديون باسم باب إليم (Bab–ilim) أي بوابة الإله، وقد ذكرت لأول مرة بهذا الاسم في أواخر القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد.

إن تاريخ بابل الحقيقي يبدأ مع تأسيس السلالة البابلية الأولى على يد الأمير الأموري سومو آبوم ما بين ١٨٩٤–١٨٨١ ق.م والذي بنى أسوار مدينة بابل، لكن مجد بابل الحقيقي يبدأ مع المؤسس الفعلي لها وهو حمورابي ١٧٩٢– ١٧٥٠ ق.م وهو ابن سين موباليط. لقد بنى دولة قوية مترامية الأطراف، لكن شهرة حمورابي جاءت من إقامته لتشريعاته المعروفة، عداك عمّا تميز به من الحنكة والذكاء، إلا أن بابل تراجعت بعد موته وفقدت قوتها شيئاً فشيئاً حتى سقطت على يد الحثيين بقيادة ملكهم مورشيلي الأول ١٥٩٥ ق. م، الذين انسحبوا منها مباشرة، وسلموها للكاشيين الذين سيطروا عليها مدة تقارب أربعة قرون، لتعود من جديد إلى الظهور لكن ليس

بقوة الدولة الأولى، ولتدخل في صراع متواصل مع شقيقتها الدولة الآشورية، ولتبقى سيادتها بين مدّ وجزر إلى أن سقطت آشور على يد التحالف الميدي البابلي عام ٦٠٩ ق. م، ولتعود بابل للصعود ثانية على يد المؤسس الجديد نابو بولاصار والد نبوخذ نصر الثاني الشهير، الذي وصلت بابل في عهده إلى ذروة المجد، لتسقط من جديد وبشكل نهائي في عهد آخر ملوكها نابونيد عام ٥٣٩ ق.م على يد الفرس.

لقد شهدت بابل تطوراً عظيماً في ظل حكم حمورابي، الذي أوصلها إلى ذروة المجد، فكانت المثال الذي يُحتذى في العمارة والقوة العسكرية والاقتصادية، حيث تقدمت في مجالات الري والزراعة والتجارة والصناعة وأصابها الغنى، وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا على الوضع الاجتماعي، وخاصة الأسرة وعلى المرأة بشكل خاص.

فالمجتمع الذي تحكمه القوانين والتشريعات، لا بدَّ وأن يكون مجتمعاً متقدماً يأخذ فيه كل ذي حقٍّ حقه. ونحن هنا لا نقصد أن بابل وصلت إلى مجتمع العدالة والمساواة بالكامل، لكننا عندما نتحدث عن مجتمع امتاز بهذه الصفات قبل أكثر من ٣٥٠٠ سنة، فإن مقاييس التقدم تختلف، فمجتمع بابل كان مجتمعاً طبقياً تحكمه أسرة حاكمة، فقد ذكر قانون حمورابي ثلاث طبقات اجتماعية تتميز فيما بينها في الحقوق والواجبات هي:

١- طبقة الأحرار: ويسمى الفرد منها أويلوم، يتمتع أفرادها بامتيازات كبيرة في الدولة والمجتمع.
٢- طبقة الموشكينوم: وهي الطبقة الوسطى في المجتمع، وكلمة موشكينوم بالأكادية تعني حرفياً (الذي ينحني إلى الأرض).
٣- طبقة العبيد: (عبد = واردوم) وهي أحطّ طبقة في المجتمع البابلي.

وعلى الرغم من التمييز بين أفراد هذه الطبقات أمام القانون في العقوبات المفروضة بين الرجل الحر (أويلوم) والموشكينوم، إلا أن هذه القوانين كانت تحفظ للناس الكثير من حقوقهم، خاصة بين أفراد الطبقة الواحدة، كما أن قوانين حمورابي

أعطت العبد بعض الحرية، فَسُمِحَ له بالزواج من حرة، وعُدَّ الأولاد الناتجون عن هذا الزواج أحراراً (المادة – ١٧٥). وهذا يدل على البعد الإنساني لقوانين حمورابي، خاصة فيما يتعلق بالمرأة، التي نعتبر أن مكانتها في بابل، كانت مرتفعة، خاصة داخل الأسرة.

وقد كان الزواج في بابل يتم بعد تنظيم عقد شراء خطي يدفع فيه العريس بموجبه إلى والد العروس المهر، وبالمقابل تصطحب العروس معها إلى بيت العريس الجهاز الذي يستفيد منه العريس أيضاً، دون أن يصبح ملكاً له. وكان هذا الجهاز يعود إلى الزوجة بعد وفاة الزوج، وإلى الأولاد بعد وفاة الزوجة، وإذا لم يكن لهما أولاد، يقوم أب الزوجة باسترجاع الجهاز.

كما أن قوانين حمورابي سمحت للمرأة أن تُطلّق زوجها في بعض الحالات الخاصة، لتعود إلى عائلتها مصطحبة معها جهازها، الذي أتت به معها من والدها، وكان يحقُّ للزوج أن يُطلّق زوجته في أي وقت يشاء، على أن يدفع لمطلقته نصف مينة (المينة = ٥٠٠ غ) من الفضة، أما في عهد حمورابي فقد فقدَ الرجل شيئاً من هذا الامتياز، إذ ليس عليه أن يدفع لزوجته المُطلَّقة – بدون ذنب – جهازها وحسب، والذي هو دوماً أكبر من ثمنها، بل زيادة على ذلك، عليه أن يؤدي لها نفقة معينة.

تتألف الأسرة البابلية من الأب وزوجته وأحياناً زوجة أخرى، على الأخص عندما تكون الأولى عاقراً، وتُعتبر الزوجة الثانية في هذه الحالة شرعيّة وأولادها أيضاً[٩٠] . إلا أن الأسرة البابلية كانت أسرة أبوية حلّت محل الأسرة الأمومية، حيث كانت السيادة فيها مُطلقة للأب، ونادراً ما تنتقل الرئاسة إلى الأم عند وفاته، وكان البيت يُسمى باسم الأب، فهو الزوج ودعامة الحياة العائلية، وعلى الرغم من ذلك فقد كان للمرأة البابلية امتيازات تفوق أقرانها في باقي مدن بلاد الرافدين المعاصرة لها وخاصة آشور، قد منحتها إياها قوانين حمورابي.

---

[٩٠] - مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ١٤٦-١٤٧.

كما أعطى نظام الأسرة البابلية للمرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية وخصوصاً في موضوع إدارة أملاكها، وهذا أمر يسترعي الانتباه، فللمرأة حقٌّ التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من أموال منقولة وغير منقولة، وقد كان العقد شرطاً ضرورياً لكل زواج لكي يحفظ لها حقوقها، وتأتي أهمية عقد الزواج من أنه يمنع إلقاء القبض على شخص الزوجة من قِبل دائن زوجها، ولكن هذا البند لا يسري عادة إلا على الديون التي توجبت على الزوج قبل زواجه، ولكنه يُنفِّذ مبدأ التكافل والتضامن الذي للديون التي تُعقد بعد الزواج، ولا يستأثر إذ ذاك الزوج بإدارة المنافع المشتركة، بل نرى الزوجة تتدخل، أقلَّهُ كشاهدةٍ عند عقود البيع، وإن كان الزوج جندياً، وطلب للخدمة فيعود إذ ذاك للزوجة حتى إدارة أملاكه، إن لم يكن له ابن بلغ أشده، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكةً لثلث الريع.

أما عن الطلاق، وهو الحق الذي كان قد أُعطي للزوج، فإن قوانين حمورابي كانت تحمي المرأة ضد قرار الطلاق التعسفي، إذ عليه أن يلجأ إلى المحاكم ويثبت شكواه بأدلة عادلة وقويمة. وعلاوة على ذلك فإن سوء سلوك الزوج يُعطي الزوجة الحق بإقامة دعوى مماثلة لتعود إلى عند ذويها، وفي كلتا الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها، وغالباً أيضاً تعويضاً تقدره القوانين.

أما جرائم الزنا، فإن جُرم الزوج لم تذكره القوانين كما نعلم، بينما يمكن إلقاء الزوجة الزانية مع غريمها إلى الماء شرط وجود شهود على عملية الزنا، إن لم يصفح الزوج عن زوجته، وهنا نشعر – بموضوعية – وجود تفاوت حقيقي وحيد ضد المرأة.

إن نظام الزوجة الواحدة في بابل هو القانون، لذا فإن عقم الزوجة ومرضها هما من أسباب الطلاق الشرعيّة، إضافة إلى رفض المرأة القيام بواجباتها كزوجة وربّة بيت أو تهاونها في أدائها، ويحقُّ للزوجة العاقر أن تهدي زوجها عبدةً بمثابة خليلة، ولربما هدف هذا التدبير إلى منعها من اتخاذ أي تدبير قبله إن اتخذ له السراري، ويسمح القانون أخيراً للزوج، إن لم ينجب أولاداً من زوجته أو خليلته، وفي مثل هذه الحالة فقط، أن يُدخِل إلى البيت زوجةً من مرتبة ثانية، وعلى هذه الزوجة أن تحترم أفضلية

الزوجة الأولى، وقد ينصُّ صراحةً عقد النكاح الثاني، على أن الزوجة الثانية (تغسل رجلي الأولى)[٩١].

كما تجلت مكانة المرأة العالية في الأسرة البابلية من خلال عملها داخل المنزل وخارجه، ففي الداخل كانت المرأة تقوم بعدة أعمال منها: طهي الطعام والاهتمام بالأولاد، وإدارة شؤون المنزل الاقتصادية، خاصة في الأسرة الفقيرة، إضافة إلى عملية غزل الصوف وخياطة الملابس والاعتناء بالأغنام والماعز والدواجن في البيت إن وجدت. وكانت النساء تساعد الرجال في الأعمال الزراعية خارج المنزل ولا سيما في مواسم الحصاد والبذار، وقد كان عملها هذا في داخل المنزل وخارجه مدعاة فخر لها حيث يجعلها شريكة للرجل في إدارة منزلها اقتصادياً، مما يعطيها مكانةً عاليةً في الأسرة.

أما المرأة في الأسر الغنية، فكانت لا تعمل، لا داخل المنزل ولا خارجه، بل كانت تُخدم من قبل الآخرين، حيث كانت تقضي معظم أوقاتها بالعناية بنظافتها وجمالها، أو الالتفات إلى الأعمال المريحة، وكانت الوصيفة تقوم بـ (غسل أرجل السيدة) وحمل كرسيها إلى المعبد وتمشيط شعرها وتسريحه ومساعدتها دوماً[٩٢]. فقد كانت المرأة البابلية تهتم بجمالها وحليّها ونظافتها وأناقتها بشكلٍ كبير، ففي عصر حمورابي كُنّا نرى النساء يتحلّينَ بأنواع كثيرة من الحلي كالقلائد والأساور، كما نراهنّ يصففن شعورهن، ويعقدن عليها تيجاناً من الخرز، وكانت المرأة تستعمل زيوتاً تُكسبها النعومة والطراوة، وكانت الزيوت الطيّارة غالية الثمن، إذ أنها كانت تُستورد من الخارج، ويُفضّل منها عادة زيت السرو والآس والسدر لرائحته الجيدة، وللغسل يُستعمل الصابون، وكانت النساء يفخرن بتسريحتهن القصيرة المُجعَّدة التي كانت تتموج إلى الأسفل، أو تُشدُّ بشريطٍ واحد فقط، وكانت هذه التّسريحة تلقى استحساناً كبيراً، وكان

[٩١] – تاريخ الحضارات العام – الشرق واليونان القديمة، ص ١٥٢– ١٥٣.

[٩٢] – برا ندت، إيفلين كلينكل: رحلة إلى بابل القديمة، ت: زهدي الداوودي، دار الجليل للطباعة، دمشق ١٩٨٤م، ط ١، ص ٥٤، ٥٦.

التجميل واستعمال العطور اليومية أمراً طبيعياً، وكان للنساء مختلف ألوان التجميل، يحتفظن بها داخل أوعية طينية أو حجرية، أو داخل صدف نُقشت بنقوشٍ فنية جميلة، وكُنَّ يستعملن الصّباغ الأسود للحواجب والأهداب، واللون الأخضر لظلال العين، والأحمر للشفاه والخدود.

وكان من الأمور الاعتيادية أيضاً صبغ باطن اليد والأرجل بالحنّاء، ورسم الوشم على الجلد، وكُنَّ يحملن حقائبهن النحاسية المُعلقة بحلقةٍ صغيرة بشكل دائم، وكانت تحتوي على منقش وسكين وملقط لتنظيف الأذن، وكانت ملابس الرجال والنساء متشابهة ولها نفس الطول عادة، وكان ثمّة رداء فضفاض يصل إلى الركبة عند الرجال، وكانت النساء يرتدين ثوباً لامعاً مخططاً بأكمام قصيرة يصل طول الثوب إلى الأرض تميزاً له عن ثوب الرجال.

وكانت النساء المتزوجات يُخفين شعرهن إذا خرجن إلى الشارع تحت منديل للرأس، ويغطين وجههن بحجابٍ شفاف، وكان لهنَّ الحق قانونياً بارتداء العباءة التي كانت بمثابة العلامة التي تفرقهن عن الرقيق والبغايا اللواتي حُرِّمَ عليهن ذلك، كعقاب صارم.

أما الحلي، فكانت مرغوبة في بابل، في كل عصورها، سواء عند الرجال والنساء[٩٣]، كما ذكرنا سابقاً. أما في بابل الدولة الحديثة ٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م، فقد أحبَّ البابليون الملابس الملونة، بخاصةٍ الحمراء والزرقاء والصفراء والخضراء والبنية والبرتقالية والسوداء والبيضاء، كما استخدموا الأبازيم والإزار والمشابك والبِكل من الذهب والفضة والبرونز والنحاس والحديد والأحجار الكريمة وشبه الكريمة، حيث تمتعت مواد التجميل والعطور والعقاقير بشعبية واسعة، وهكذا بدت ملابس الخروج عند البابليين الميسورين.

---

[٩٣] – القيّم: المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، مرجع سابق، ص٧٥-٧٦-٧٧.

ولعبت الموضة البابلية في القديم تقريباً نفس الدور الذي تلعبه الموضة الباريسية في عصرنا الحاضر، وكان سن الزواج عند الشباب ما بين ١٨ – ٢٠ سنة أما عند الفتيات فهو ١٤– ١٦ سنة[٩٤] .

وهذا يدلُّ على الغنى والترف، الذي تمتعت به بنات بابل وشبابها، خاصة في الدولة الثانية (التي سنعود إليها لاحقاً)، على الرغم من وجود العبيد من الذكور والإناث، اللواتي كُنَّ يرزحن تحت نير العبودية والظلم والاسترقاق.

---

[٩٤] – بليا فيسكي، ف، أ: أسرار بابل، ت: توفيق فائق نصّار، دار علاء الدين للنشر، دمشق ٢٠٠٧م، ط٢، ص١٥٧.

المرأة في تشريعات حمورابي البابلية

تُشكل قوانين حمورابي ملك بابل الذي حكم ما بين ١٧٩٢- ١٧٥٠ ق.م أول مجموعة شاملة من النصوص القانونية التي وصلتنا من الشرق الأدنى القديم، لكنها ليست أقدم قوانين باقية، إذ من المعروف أنه حتى في الفترة التي سبقت أيام حمورابي، استنَّ ملوك عديدون قوانين مماثلة، لكن لم يصلنا إلا أجزاء مبعثرة منها، وكمثال على ذلك، ما تبقى من قوانين أوركاجينا الإصلاحية في مدينة لاغاش ٢٣٦٠ ق.م، وقوانين أورنامو في مدينة أور ٢١٠٠ ق.م، بالإضافة إلى قوانين ليبيت عشتار في إيسين ١٩٣٠ ق.م ومجموعة مدينة أشنونة القانونية التي تحتوي على ٦٠ قانوناً، والتي سبقت في تاريخها عهد حمورابي بعدة عشرات من السنين (وكلها ذكرت سابقاً).

والحقيقة أن قوانين حمورابي ليست شريعة بالمعنى المُعتاد للكلمة، إذ هي لا تحاول أن تغطي جميع الحالات الممكنة، فكثير من الحالات المحذوفة ذات أهمية عظيمة، ومحاولات تنظيمها قليلة جداً[٩٥].

ومن الجدير بالذكر أن حمورابي، لم يبتكر القواعد والأسس القانونية التي وردت في قانونه، وإنما استقى الكثير منها من الشرائع والقوانين التي وجدت سابقاً في بلاد الرافدين، ولكن الميزة الأساسية التي يتميز بها قانون حمورابي عن القوانين السابقة هي، أنها تقوم على مبدأ (العين بالعين والسن بالسن) وبفرض العقوبات الجسدية القاسية بحق مرتكبي الجرائم المختلفة، بينما تستعيض القوانين السابقة بالعقوبات والتعويضات المادية، بدلاً عن ذلك. وقد تناولت قوانين حمورابي مختلف نواحي الحياة، الاقتصادية والاجتماعية، فهو ينظم أمور الزراعة والحرف والتجارة والأسرة والزواج والتبني والإرث والقضاء وغيرها.

---

[٩٥] – شريعة حمورابي – وأصل التشريع في الشرق القديم، مجموعة من المؤلفين، ت: أسامة سراس، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠٥م، ط ٤، ص ٩ – ١٠.

وقد بلغ عدد هذه القوانين ٢٨٢ مادة، وإن المواد ما بين ١٢٧- ١٩٤ تبحث في شؤون الأسرة من زواج وطلاق وإرث وتبني وتربية وما إلى ذلك. فمن خلالها نستطيع معرفة وضع المرأة في بابل، ومن يستطيع أن يحدد وضع المرأة في مجتمعٍ، غير قوانين هذا المجتمع. فقد تضمن قانون حمورابي، الكثير من المواد القانونية الاجتماعية والآداب العامة، وبخاصةٍ فيما يتعلق بتشريع الأسرة. فقد حقق قانون حمورابي للمرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية، عبر منحها الحق في إدارة أملاكها، كما تبقى الزوجة، هي المالكة الوحيدة لأملاكها ما بعد الطلاق، وهدية الزوج لزوجته ليس لها أن تبيعها، ولكن لها حق الانتفاع منها، وللمرأة حق الانتفاع أيضاً من أموالها المنقولة أو الثابتة، ويُعتبر عقد الزواج شرط ضروري للزواج. ولا يُسمح للدائن بإلقاء القبض على الزوجة من قبل دائن زوجها للمدين قبل الزواج، ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج كما ذكرنا سابقاً.

كما كان من حق الزوجة التدخل والمشاركة في إدارة المنافع المشتركة مع زوجها عند عقود البيع، وللزوجة أيضاً حق إدارة الأملاك أثناء غياب زوجها في الجندية، وهي مالكة الربح إذا لم يكن له أولاد[٩٦].

وإذا ما أردنا قراءة بعض هذه القوانين الخاصة بالمرأة، ندرك من خلالها المستوى الذي وصلت إليه المرأة في بابل في عهد حمورابي، فإننا نجد في المادة (١٢٨): إذا تزوج إنسان من امرأة ولم يكتب معها عقد، فتلك المرأة لا تعتبر (شرعية).

وكانت عملية الخطوبة تتم قبل الزواج، بتقديم العريس بعض الهدايا للعروس، فإذا فسخ العريس الخطوبة، يتنازل عن كافة الهدايا، كما في المادة (١٥٩).

أما إذا فسخ أهل العروس الخطوبة، فعليهم أن يردّوا للعريس هديته مضاعفة المادة (١٦٠). وعند الزواج يقدم أهل العروس لابنتهم بائنة تُعتبر مُلكاً لها حتى

[٩٦] – الناطور، شحادة، وآخرون: مدخل إلى تاريخ الحضارة، دار الكندي، إربد، الأردن ١٩٨٩م، ط١، ص ١٢١.

وفاتها، وتصبح إرثاً لأولادها من بعدها. أما إذا توفيت الزوجة دون أن يكون لها أولاد فعلى الزوج أن يُعيد البائنة* إلى أهل زوجته المواد (١٦٢– ١٦٣ – ١٦٤). كما سمحت قوانين حمورابي للزوج والزوجة بالطلاق في بعض الحالات مع تحديد الشروط في كل حالة، فيستطيع الزوج مثلاً أن يُطلق زوجته إذا لم تنجب له أولاداً، على أن يُعيد لها بائنتها ويدفع لها مبلغاً من المال حسب وضعه الاجتماعي، المواد (١٣٨ – ١٣٩ – ١٤٠). وإذا أُصيبت الزوجة بمرض يستطيع الزوج أن يتزوج بأخرى مع بقاء الأولى في بيته إن شاءت، وإذا أرادت العودة إلى بيت أهلها تأخذ بائنتها المواد(١٤٨ – ١٤٩). أما إذا أهملت الزوجة شؤون بيتها وحقوق زوجها فيحقُّ للزوج طلاقها دون تعويض، إذا أثبت ذلك في المحكمة، أو أن يستبقيها كجاريةٍ ثم يتزوج بأخرى، المادة (١٤١)[٩٧] . كما نجد في المادة (١٢٩) أن قوانين حمورابي كانت صارمة ضد الزنا، فقد ذكرت: ((لو ضبطت زوجة رجل تضاجع رجلاً آخر، يربط الاثنان ويلقيان في النهر، أما إذا رغب زوج المرأة مسامحة زوجته والعفو عنها، فللملك الحق في العفو عن مواطنه الآخر)). وفي المادة (١٥٣) التي تحاسب المرأة بقسوة على قتل زوجها بسبب رجل آخر، تقول: ((لو تسببت امرأة في مقتل زوجها بسبب رجل آخر توضع على خازوق)).

وفي المادة (١٥٤) نجد القانون يُعاقب بشدة كل رجل ينام مع ابنته، وفي المادة (١٥٧) ((لو نام رجل مع أمّه بعد وفاة أبيه يحرق كلاهما)).

كذلك، فإن قوانين حمورابي قد نظمت قضية الإرث في الأسرة، فالزوجة والأولاد الذكور ينالون حصصاً متساوية من الميراث، والبنت غير المتزوجة لها حق الانتفاع من حصة تعادل حصة الذكر، وبعد زواجها توزع حصتها بين إخوتها الذكور، على أن تأخذ منها بائنتها، أما البنت المتزوجة فليس لها نصيب من ميراث والدها.

---

* الهدايا والأموال التي قدمها أهل العروس لابنتهم عند الزواج.

[٩٧] – فرح، نعيم: معالم حضارات العالم القديم، دار الفكر، ١٩٧٣م، ص ١٦٧.

أما عن أحوال البنات اللواتي لم يتزوجن، بل وهبن أنفسهن لخدمة الآلهة في المعابد، فقد ذكرت القوانين ثلاثة أنواع منهن (أخت الإله، زوجة الإله، العاهرة) ولهن الحق في وراثة أبيهن كغيرهن من البنات، ويبدو أن القوانين كانت تسمح لهن بممارسة (العُهر) المقدس في المعابد.

هكذا نرى كيف كانت قوانين حمورابي تحدد المسار الصحيح للمرأة كي تحافظ على نفسها. وإن بدت هذه القوانين في بعض موادها تقسو على المرأة، إلا أنها كانت في معظمها تصون حقوقها وتبعدها عن العقوبة والاستعباد، فإذا ما حافظت المرأة على طهارتها وسلوكها القويم وخدمتها لزوجها وأولادها، فإنها تكسب لنفسها المقام الأول في البيت، جاعلة من نفسها السيدة الأولى والحرة، التي يحق لها أن تطالب بحقوقها في حال محاولة زوجها طلاقها أو النيل من حقوقها ورميها في الشارع، في حين أننا نرى قوانين كثيرة معاصرة، لم تُعط المرأة هذه الحقوق.

لقد قدمت لنا بابل قوانين حمت وصانت حقوق المرأة في عصر فقدت فيه معظم نسائه أقل حقوقهن وأصبحن يُعاملن كالعبيد، فيما نرى المرأة في بابل تمتهن الكتابة، ولها الحق في فتح متجر أو حانة أو العمل في ورشات غسل الصوف ونسجه، وإن أفضل دليل نقدمه على عظمة قوانين بابل، هو ما يخص زواج المحارم، فهناك خلاف في نظم الزواج بين المجتمعين المصري والرافدي، حيث أجاز المجتمع المصري زواج المحارم، بينما يُعتبر ذلك مُحرَّماً في بلاد الرافدين وخاصة بابل، فقد جاء في شريعة حمورابي المادة (١٥٤): «إذا جامع رجل ابنته فعليهم أن يطردوا ذلك الرجل من المدينة» كما حرَّم زواج الحمو من زوجة ابنه الحقيقي أو بالتبني، فقد جاء في المادة (١٥٥): «إذا اختار رجل عروسة لابنه، وضاجعها ابنه، وقبضوا بعد ذلك على الأب وهو نائم في حضن زوجة ابنه، فعليهم أن يوثقوا هذا الرجل ويرموه في الماء ليموت». كما حرَّمت شرائع وادي الرافدين (بابل) اتصال الابن جنسياً بوالدته

كما رأينا في المادتين (١٥٧ – ١٥٨)[٩٨]. وهكذا تكون قوانين بابل قد صانت حقوق المرأة وأعطتها مكانةً عاليةً في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، مع اعترافنا بوجود ظاهرة العبيد (نساء ورجال) هذه الظاهرة التي لم تستطع أن تتخلص منها حتى أكثر المجتمعات تطوراً في التاريخ، وهذا ما سنلحظه طيلة بحثنا في تاريخ المرأة.

---

[٩٨] – الحمد، محمد عبد الحميد: حضارة طريق التوابل، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٧م، ص ٩٩ – ١٠٠.

المرأة العربية في بابل الثانية (الكلدانية)

٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م

تختلف بابل الثانية أو ما يسمى بالدولة الكلدانية عن دولة حمورابي (بابل الأولى) فالفارق الزمني بينهما يصل إلى حدود الألف عام، عانت فيها بابل من تغيرات كثيرة، فبعد موت حمورابي بدأت القوة السياسية والحضارية لبابل بالتراجع في ظل حكّام أقل كفاءة وقدرة من حمورابي، وبدأت العناصر الغريبة بالتسلل إلى داخل بابل وعلى رأسها الكاشيون، الذين أخذوا يدخلون إلى بلاد الرافدين بأعداد كبيرة قادمين من جهة الشرق، وبدؤوا يوطدون أنفسهم داخل السلطة البابلية حتى تمكنوا من السيطرة على القرار في بابل في عهد سمسو ديتانا ١٦٢٥– ١٥٩٥ ق.م آخر ملوك الدولة البابلية الأولى، حيث سقطت بابل بأيدي الحثيين المتواطئين مع الكاشيين، ومن ثم غادر الحثيون بابل تاركين السلطة فيها بأيدي الكاشيين، الذين استمر حكمهم لبابل لمدة ٤٠٠ سنة تقريباً، والتي أدت إلى تغيير كبير في التركيبة السكانية العرقية والحضارية لبابل، إلى أن سقطت بابل من جديد على يد العيلاميين عام ١١٥٧ ق.م لتعود بابل من جديد وتتحرر على يد سلالة إيسن الثانية ما بين ١١٥٦– ١٠٢٥ ق.م والتي استطاعت النهوض ببابل من جديد وحققت السيادة والاستقلال، لكنها سقطت من جديد بيد الآراميين، الذين كانوا آخر حكام إيسن الثانية، ثم دخلت بابل في صراع مع الآشوريين استمر ما بين مدٍّ وجزر إلى أن سقطت آشور على يد التحالف البابلي الميدي عام ٦٠٩ ق.م ولتبدأ الدولة البابلية الثانية (الكلدانية – الآرامية) على يد نابو بولاصار وابنه نبوخذ نصر الثاني، اللذين ينتسبان إلى قبيلة كلدة الآرامية، التي استقرت بادئ الأمر في جنوب بلاد الرافدين، واستطاعت أخيراً الوصول إلى السلطة في بابل.

كل هذه التغيرات التي مرت بها بابل، أدت إلى تأثيرات كبيرة على المجتمع البابلي، الذي أصبح أكثر تعقيداً وتوسعاً، فلربما وصلت بابل في حينها لأن تكون

أكبر مدينة في العالم، حيث تنوعت فيها الأعراق، وحلَّت فيها كثير من الجاليات، فمن الأموريين البابليين، إلى أبناء عمومتهم الآراميين، إلى ما تبقى من السلالة الكاشية الغريبة، وصولاً إلى ما كان يأتي من خارج الأسوار، سواء بالهجرة أو ما أتى إليها من خلال السبي، الذي كان يقوم به نبوخذ نصر الثاني لمعظم سكان المناطق الأخرى خاصة في بلاد الشام والرافدين، ومنهم اليهود عام ٥٨٦ ق.م أسوة بغيرهم من القبائل المسبية وليس حصراً بهم، زد على ذلك ما كان يستقر بها من تجار جاؤوا من كافة المناطق المجاورة.

وبذلك تكون بابل مدينة متعددة الثقافات والاتجاهات، فقد قارب عدد سكانها حوالي المليون نسمة. إن هذا التغيّر في البنية السكانية وزيادة الغنى الاقتصادي والانفتاح الذي حصل مع الشعوب الأخرى (كاشي – ميدي – آرامي – أموري – كنعاني... إلخ) أدى إلى تحويل بابل إلى مدينة تشبه اليوم مدن باريس أو نيويورك أو بكين أو القاهرة. ولا بدَّ أن ينعكس هذا الأمر على المجتمع بالدرجة الأولى، ومنه على الأسرة وبالأخص على المرأة، وذلك بسبب تعدد الثقافات والعقائد والأفكار التي تتحكم بأهواء وعقول الناس في بابل، خاصةً في فترة آخر ملوكها نابونيد، وما حدث معه من هجر بابل والسكن في منطقة تيماء شمال الحجاز في السنة السابعة من حكمه تاركاً الحكم في بابل لابنه (بيل شار أوصور) حيث احتفظ نابونيد لنفسه بالسلطة الملكية، التي كان يمارسها ابنه باسمه.

تُعتبر شخصية نابونيد من أكثر الشخصيات غموضاً وإثارة في قوائم ملوك بلاد الرافدين الطويلة، فمن المؤكد أن نابونيد لم يكن من أصل ملكي، وهذا ما اعترف به هو صراحة في كتاباته، لكن ما يهمنا في شخصية نابونيد هو أمه **(أدد جوبي)** التي مارست عليه تأثيراً كبيراً، فقد كانت إحدى عابدات (سين) إله القمر في مدينة حران، وليست كاهنة له، كما كان يُعتقد سابقاً. فقد كانت موجودة بعد احتلال المدينة من قبل الميديين عام ٦١٠ ق.م مع ابنها نابونيد، ووجدت لنفسها ملجأً في بلاط بابل، حيث دخل ابنها في خدمة نبوخذ نصر الثاني ونيرجال شار أوصور، وقد عمرت طويلاً إلى

أن وافتها المنية ٥٤٧ ق.م عن عمر ناهز ١٠٤ سنوات، وقد ورث عنها نابونيد اهتمامها الشديد بعبادة (سين) إله القمر، وهذا يدلُّ على مدى مكانة أمه لديه، وعلى ارتفاع مكانة المرأة وقدرتها على الوصول للسلطة مباشرة من خلال ابنها، فقد كانت أدد جوبي إحدى عابدات (سين) إله القمر في حران، واستطاعت بذكاء وحنكة إيصال ابنها إلى السلطة.

وبسبب اهتمامه الشديد بعبادة الإله سين، فقد قام بتنصيب ابنته (بيل – شانتي – ننار) حسب التقاليد البابلية القديمة كاهنةً كبرى في معبد سين في أور عام ٥٥٤ ق.م واعتبارها عروساً إلهيةً لسين، وقد جعل هذا التصرف من كهنة مردوخ يرون في نابونيد خطراً عليهم وعلى الديانة التي يمثلونها، وتهديداً كبيراً لمصالحهم، فاتهموه بعد هزيمته أمام كورش الملك الفارسي بالكفر وعدم عبادة أي إله، وعدم تأسيس أي معبد على عكس كورش، الذي تمَّ الترحيب به كمنقذ ومحرر[٩٩]، مما يدل على الدور الذي ربما لعبه هؤلاء الكهنة مع ما تبقى من اليهود في إسقاط مدينة بابل بتواطئهم مع الملك الفارسي كورش عام ٥٣٩ ق. م.

في ظل هذه الظروف، ومع تراجع الهيمنة السياسية خارجياً وداخلياً لنابونيد، بدأت بابل بالتراجع، وبدأت تظهر فيها معالم جديدة من الفساد الخلقي والاجتماعي، انعكس هذا وبكل تأكيد على وضع المرأة فيها، فبابل المدينة الكبيرة ذات الإرث الثقافي والحضاري، بدأ يدبُّ في أوصالها الضعف، إن على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الفكري أو الخُلقي.

فكانت أولى مظاهر هذا التراجع على صعيد وضع المرأة، أن أصبحت بابل مدينة البغايا والمومسات، نتيجة السبي من كافة الأجناس، وكثرة الاختلاط، ووجود جاليات تجارية من كل مدن العالم القديم، فقد أصبح البغاء ظاهرة اجتماعية، وأصبح مهنة للكثير من النساء، وصارت البغي تدعى kar –kid تملك داراً خاصة (Gagu)

---

[٩٩] – مرعي ،عيد: بابل في عهد نابونيد آخر ملوكها، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٦٣ – ٦٤، ١٩٩٨م، دمشق، ص ٣٠–٣١.

بيتاً تمارس فيه الدعارة تحت رعاية الدولة، وقد كان لهنَّ رجلٌ خاصٌ يجبي منهن الضرائب.

وقد جاء في رقيم طيني يعود إلى زمن الملك الكلداني نابونيد ٥٥٥ – ٥٣٩ ق.م يذكر فيه الدافع من أجل تقديم ابنته (نانا) إلى معبد الإله لتكون كاهنة (آنتو) من أجل طقوس العرافة، يقول الملك نابونيد: «إني نصّبتها عرّافة وجلبتها إلى الإجبار في محل إقامتها في معبد الإله في أور» إذ كانت الراهبة (الآنتو) لا يحق لها الزواج، فإن الراهبة (ناديتو) يحق لها الزواج، دون أن تنجب أطفالاً، كي لا يختلط نسل البشر وتعيش في الدير تمارس البغاء المقدس، مُقدمة النذور والعطايا[١٠٠].

ولكننا يجب أن لا نصدّق كل ما كُتب عن بابل، لأن بعض ما كُتِبَ، كان بسبب غايات سيئة، تجول في نفوس كاتبيها، لِما عُرِفَ عنهم من نظرة سيئة للشرق، ويأتي في مقدمتهم المؤرخ اليوناني هيرودوت، الذي كتب يقول: «ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس في هيكل الزهرة مرة في حياتها، وأن تضاجع رجلاً غريباً، ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء، لكبريائهن الناشئ من ثرائهن، وهؤلاء يأتين في عربات مُقفلة ويجلسن في الهيكل، ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم، أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية: تجلس الكثيرات منهن في هيكل الزهرة وعلى رؤوسهن تيجان من الحبال، بين الغاديات والرائحات اللاتي لا ينقطع دخولهن وخروجهن، وتخترق جميع النساء ممرات مستقيمة مُتجهة في كل الجهات، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون، فإذا جلست امرأة هذه في حجرها ويضاجعها في خارج المعبد»[١٠١].

لا شكَّ في أن هذا الأمر مُبالغٌ فيه، والغاية واضحة، وهي تشويه سمعة المرأة البابلية، ورغم اعترافنا بوجود ظاهرة البغي والعهر بسبب ورودها في بعض الوثائق،

---

[١٠٠] – الحمد: حضارة طريق التوابل، مرجع سابق، ص١٠١ – ١٠٢– ١٠٤.

[١٠١] – ديورانت، وال وايريل: قصة الحضارة، ت: زكي نجيب محمود، بيروت – تونس، المجلد الأول، ج ٢، ص٢٢٩ – ٢٣٠.

إلا أن الغالبية العظمى من النساء البابليات الحرائر وبكل تأكيد، كُنَّ شريفات يمارسن حياتهن الطبيعية في منازلهن، وهذا أمر طبيعي، ففي التاريخ العشرات من الأمثلة حول المدن التي سقطت بسبب تراجع وضعف حكامها، فعادة يكتب المؤرخون عن أسباب هذا التراجع مع بعض التضخيم، مُحملين الملوك كل أسبابه، علماً أن الشريفات والحرائر، عادةً ما يبقين دائماً في منازلهن إبان فترات الضعف.

ويتابع البعض مسلسل المبالغة في وصف بنات بابل، يقول ماتفيف – أ. سازنوف في كتابه الموسوم بـ (حضارة ما بين النهرين العريقة): «إن أكثر العادات عقلانية لديهم، وعلى حد علمي وجدت لدى شعوب أخرى هي العادة التالية: في يوم محدد من أيام السنة كانوا يقومون في كل قرية بما يلي: يدعون كل الفتيات اللواتي بلغن سن الزواج يجمعونهن في ساحة واحدة ثم يحطن بهنّ الشبان، ويأخذ المنادي يعرض كل فتاة، أولاً أجمل الفتيات على الإطلاق يبدأ بأجملهن، إذ كانت تُعرض أولاً أجمل الفتيات على الإطلاق، وعندما يتم بيعها بنقود كثيرة يأتي دور من تليها بالجمال – الفتيات تزف للزواج بيعاً – فكان الشبّان البابليون الأغنياء يرفعون بالمزاد ثمن الفتيات كثيراً ليحصلوا على أجملهن، أما الشبّان المنحدرون من عامة الشعب، الذين لم يتمنوا الجمال بشيء فكانوا يحصلون على الفتيات غير الجميلات، بالإضافة لدفع النقود، وبعد أن يتم بيع الجميلات بأمر المنادي، تُعرض الفتيات عديمات الجمال بأقل ثمن للزواج.

وهكذا لم يكن للمرء أن يتزوج كيفما شاء، كما لم يُسمح بأخذ الفتاة إلى بيت الزوجية دون وجود كفيل، وفقط عندما كان الكفيل يقرر أن الشاب شاري الفتاة يرغب بالعيش معها فعلاً، حين ذاك كان يُسمح له باصطحابها إلى بيت الزوجية.

وعندما كان لا يتم الاتفاق بين الشاب والفتاة كانت النقود تُردُّ إلى أصحابها قانوناً. خلاصة القول: كان الشبّان يفدون من القرى المجاورة لشراء زوجات لهم، ويضيف قائلاً: أما أقبح العادات لدى البابليين، فكانت أنه لكل امرأة بابلية الحق بأن تجلس مرة واحدة في حياتها في معبد أفروديت وتقدم جسدها مقابل النقود لكل غريب

عابر، وكثير من النساء اللواتي يفتخرن بغناهن، كُنَّ يعتبرن من غير المناسب لهن الاختلاط بجموع النساء الأخريات، فكن يأتين في عربات مغلقة يرافقهن جمعٌ من الخدم وتنزلن بمحاذاة المعبد»[١٠٢].

ويتابع سازنوف توصيفه لبنات بابل، وكأن بابل أصبحت مأوى فقط للعاهرات والبغايا، وكأن نساء بابل بلا شرف ولا كرامة، وكأن هذه المقاييس الأخلاقية لم يتعرف عليها سكان بابل. وهنا لا بدَّ من التذكير بأن بابل كانت آخر قلعة عربية صمدت في وجه أطماع المستعمرين من الشرق ومن الغرب، وكان من الطبيعي أن تحاول أقلام مؤرخيهم تشويه سمعة بابل والنيل منها ومن حضارتها، فبعد بابل سقطت المنطقة العربية بأكملها بيد الفرس، ومن ثم بيد اليونان، وبعدهم جاء الرومان، ولم تسلم منهم سوى شبه الجزيرة العربية، وهنا لا بدَّ من طرح التساؤل التالي: هل لمجتمع بلا قيم كما سوَّق له الغرب أن ينتج حضارة فكرية وعلمية كحضارة بابل؟؟؟، ولا أدلّ على بُغض الغرب لحضارة بابل، إلا ما فعلته دبابات الأمريكان في أرض بابل ومتحف العراق المعاصر أثناء غزو العراق من قبل أمريكا وقوى التحالف عام ٢٠٠٣ م.

إن النظر بموضوعية إلى الزواج في بابل، والقيم والمواثيق التي كانت تحدد في فترة طلب العروس وإقامة طقوس العرس، لخيرُ دليلٍ على ما ذهبنا إليه من تحليل، وإن هذه القضايا (المُشينة) وإن حدثت !!؟، فإنما كانت على نطاقٍ ضيقٍ وفترة زمنية محدودة، ربما كانت في الأشهر الأخيرة من حكم نابونيد لبابل، أو في أوائل الحكم الفارسي لها، وذلك بسبب تراجع القيم الأخلاقية في مثل هذه الظروف، ذلك لانعدام المراقبة من السلطات المحلية، والتي كانت تتبع غالباً للسلطات الفارسية.

وكمثال على بعض علاقات الزواج التي كانت تتم باتفاق العريس ووالديه مع والدي العروس، ولا يسألون البنت الموافقة على الزواج، فهذا السؤال يُجيب عنه والد العروس أو الأخوة، وموافقة الوالدين من ناحية العريس على الزواج غير مطلوبة

---

[١٠٢] – سازونوف، ما تفييف: حضارة ما بين بلاد النهرين العريقة، ت: حنا آدم، موسكو ١٩٨٦م، مطبعة دار المجد دمشق ١٩٩١م، ص ١٠٦ – ١٠٧.

شكلياً، ولكن في الواقع، الحالة على العكس تماماً من ذلك، إذ كان الابن في التبعية المادية للأب أو الأم، مثال ذلك: (نابو آخي – إدين سولي) نجل إكيبي زوّج ابنه (إتي – مردوك بالات) بـ (نوبتا) ابنة (إدين – مردوك) نجل (نور– سين) برأيه الشخصي فهو ليس الابن الذي اتفق مع (أدين – مردوك) والد (نوبتا) على المهر.

وتزوج (بعل – كاتسير) ابن (ناد نبو) نجل (ساجيللي) بالأرملة (زوني) التي كان لها من زوجها الأول ولد اسمه (بعل – أوسات) واتضح أن الزواج مُنقطع الذرية وأراد (بعل – كاتسير) أن يتبنى الربيب، ولكن والده (ناد نبو) منعه مُهدداً بحرمانه من الإرث، وأجبر الابن على الخضوع لإرادة الوالد.

وعادةً ما يتحول تدخل الأهل أحياناً إلى مأساة بالنسبة للأبناء، كما يلي: (إدين – نابو) ابن (شولي) نجل (ماغناتا) والجارية (نانا – بعل – أوتسري) أحبا بعضهما بعضاً، ولكن (نوبتا) ابنة (إدين– مردوك) نجل (بابا تو) والدة (إدين – نابو) أحسّت أنها لا تريد زواجها، وسعت بدعم من الأخ الأصغر للتفريق بينهما وفي ٩ شباط من عام ٥٣٧ ق.م باعت (نوبتا) الجارية (نانا – بعل – أوتسري) مع طفلها المولود حديثاً – أي حفيدها – إلى عائلة الحدادين، التي تُدير داراً للدعارة فنقض (إدين – نابو) بيع حبيبته، وبما أنه كان الابن الأكبر الوارث للأم، رفض القاضي في ٩ تموز من عام ٥٣٧ ق.م[١٠٣] الاعتراف بسند شراء الجارية دون موافقته الفعلية فبذلت الأم والعم والأخ كل قواهم لكي يحطموا مقاومة (إدين – نابو) وأخيراً، فقد استطاعوا فعل ذلك في ١٣ كانون الأول من عام ٥٣٣ ق.م فصادق (إدين – نابو) بحضور الشيوخ على سند الشراء[١٠٤].

وقد وردت حالات أخرى كثيرة للزواج في بابل، وبعضها يحمل في طياته السخرية والهزار، وبعضها يدعو للحزن، ولكنها جميعاً تُثبت بما لا يدع مجالاً للشك، على بقاء القيم عند سكان بابل، رغم سقوط دولتهم، وإن كانت قد تراجعت في

---

١٠٣ – أي في فترة الحكم الفارسي لبابل.

١٠٤ – بليا فسكي: أسرار بابل، مرجع سابق، ص ١٧٥– ١٧٦.

السنوات الأخيرة، وهذا أمر طبيعي، فإن المرأة البابلية تبقى على مستوى من الرفعة والمكانة، وإن لم تصل إلى مستوى المرأة الأوغاريتية أو المرأة المصرية، كما سنرى لاحقاً، وذلك لأسباب ذكرناها سابقاً.

وأخيراً نقول: أن المرأة البابلية بشكل عام، سواءً في الدور الأول، عندما صانت حقوقها قوة الدولة وقوانين حمورابي، أو في الدور الثاني، مع تراجع حقوقها نوعاً ما، تبقى نموذجاً للمرأة المتحررة، التي استطاعت أن تحظى بمنزلة رفيعة المستوى في بيتها، وذلك من خلال احترام زوجها وأولادها لها، وللدور القيادي الذي لعبته، وإن تحت سلطة الزوج، وذلك من خلال المحافظة على حقوقها وإرثها، وكذلك من خلال عملها خارج المنزل وقيادتها في بعض الأحيان العمليات التجارية، وفتح الحوانيت والقيام ببعض الصناعات التي أمَّنت لها مصدراً للعيش، صانت من خلاله مكانتها وقيمَها الأخلاقية، وهذا ربما ما افتقدته معظم نساء عصرنا. وخير مثال نسوقه على ذلك: ففي بابل الثانية (الكلدانية) ذكرت الوثيقة 760 – NBP عن عائلة ثرية، هي عائلة (بيت إيغيبي) التي عاصرت عصر ازدهار الدولة البابلية الثانية ونهايتها على يد الفرس، وهي عائلة عريقة، وتذكر الوثيقة أنه في أواخر أيام هذه العائلة، إن النساء لم يُشركنَ في اقتسام التركة، وغالباً ما كان الآباء وقبل موتهم يقدمون لهن المهور، التي تبقى تحت تصرفهن، وذلك حسب القانون البابلي الجديد*، وهنَّ لم يملكن الحق ليكنَّ شاهدات على العقود التي تُبرم، ولكن، كان من الممكن أن يكنَّ ضامنات لتسديد القروض أو تأجير لأراضي، لامتلاكهن مهراً كبيراً، إضافةً إلى ذلك، فقد كان بإمكانهن عقد اتفاقات عمل بصورة مستقلة، لكن وبالمقابل، فقد وصلتنا وثائق عن فترة غياب أبناء هذه العائلة، مع بداية الاحتلال الفارسي، تؤكد أن ممتلكات العائلة لم تتأثر نتيجة هذا الغياب، ونتيجة التغيرات السياسية التي حدثت في بابل. إن زوجة

* – القانون البابلي الجديد: أنه بعد وفاة الأب فإن الابن الأكبر هو الذي يقوم بتزويج شقيقاته وفي حال عدم وجود الأشقاء فإن الأم هي من تقوم بهذه المهمة، لذلك قام – إبني – مردوك – بلاتو – بتزويج شقيقته وقدَّم لها المهر الذي كان أبوه قد وعدها به

إبني – مردوك بلاتو ووالدته بقيتا تستمران بشراء البيوت، وفيما بعد، قامت زوجته بتقديم العبيد التابعين لها لأحد الحرفيين من أجل تعليمهم مهنة الخياطة، وذلك لمدة خمس سنوات، وكذلك فإنها تعهدت بتسديد ديون زوجها، عندما قدَّم المُقرِض قائمة القروض، والموضوعة في مدينة أخرى. وهناك العديد من وثائق بيوت (إبني – مردوك – بلاتو) التي يشترط فيها أن تكون زوجته هي من يقبض بدل الإيجار، إضافة إلى العديد من الأعمال الأخرى، مما يدلُّ على استمرار مكانة المرأة البابلية حتى بعد سقوط بابل.

ولا ننسى بأن نساء بابل هنَّ الوحيدات اللواتي ذكرهنَّ التاريخ القديم، حيث عملت بعضهن كـَ قاضيات وحاكمات، وكان يحق لهنَّ الشهادة، وحق الوصاية على القاصرين أحياناً. كما أنه يجب أن لا يُفهم من هذا الكلام، أن الأنثى البابلية بشكل عام، كانت تحظى بهذه المكانة العالية أسوة بماضٍ عريق، وصلت فيه المرأة إلى ذروة المجد، فالمجتمع البابلي كان ذكورياً بامتياز، أسوةً بكل مجتمعات بلاد الرافدين وغيرها، فقد انتشرت فيه طبقة كبيرة من العبيد، عانت فيها النساء (العبدات) وبعض النساء اللائي ينتسبن إلى الفئات الاجتماعية الفقيرة، من ظروفٍ قاسيةٍ في الحياة، فكانت المرأة فيها، ترزح تحت سلطة الفقر والرجل والعبودية، وتُباع وتُشترى حيناً، كما تُباع السلعة في الأسواق، وأحياناً كانت تُدفَع كدينٍ للرجل (زوجها) عندما لا يملك المال الكافي، فقد قام بعض الرجال الفقراء – أحياناً – بتسليم زوجاتهم إلى آخرين، كسداد لدين عليهم، مُحولين بذلك المرأة إلى عبدةٍ يُتاح لشاريها أن يعمل بها ما يشاء، وبذلك تفقد حقوقها، وتُعامل معاملة العبيد بلا حقوق ولا رحمة.

المرأة العربية في مملكة آشور

حكم بلاد آشور ١١٧ ملكاً أولهم طوديّا (في الآلف الثالث قبل الميلاد) وآخرهم آشور- أوباليط الثاني ٦١١ - ٦٠٩ ق. م، وتستثني القوائم الآشورية أربعة حكّام كان ثلاثة منهم تابعين إلى سلالة سرجون الأكادي في الجنوب، والرابع إلى سلالة أور الثالثة السومرية في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد.

ويُقسِّم المختصون التاريخ الآشوري - عادة - إلى ثلاثة عصور رئيسية بحسب المعطيات الحضارية وتغير الأحوال السياسية، إلى:

١- العصر الآشوري القديم: الذي استمر حتى نهاية عهد الملك الثاني والسبعين، وهو أيريبا - أدد الأول ١٣٩٠- ١٣٦٤ ق. م. ويُعتبر الملك شمشي أدد الأول ابن (إلا كبكابو) ١٨١٥ - ١٧٨٢ ق.م من قبيلة بني يمين الرافدية السورية والمعاصر لحمورابي، من الملوك العظام في هذه الفترة، ويعتبره البعض مؤسساً للدولة الآشورية الأولى، وكان قد استولى على آشور التي كانت تحكمها منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد، سلالة حمل حكامها أسماء أكادية (بوزور آشور - شاليم آخوم...) وأسس فيها معبداً لآشور الإله الرئيس فيها، وسمّى مدينة في أعالي بلاد الرافدين باسم شوباط إنليل أي (مسكن إنليل) التي أصبحت بمثابة العاصمة الثانية له بعد آشور، ثم وسّع دولته واستطاع السيطرة على ماري ١٨١٠ ق.م، وولى ابنه يسمخ أدد عليها، كما أوكل إلى ابنه وولي عهده إشمي داجان أمرَ المقاطعات الشرقية والجنوبية الشرقية، ولكن وفاة شمشي أدد، أضعفت الدولة، فخضع الآشوريون للحكم البابلي، طِوال عصر الدولة البابلية الأولى، أي حتى عام ١٥٩٥ ق.م حين سقطت بابل على يد الحثيين، الذين سلموا حكمها للكاشيين.

٢- العصر الآشوري الثاني: أي العصر الوسيط، الذي شمل المُدة الممتدة من عهد الملك الثالث والسبعين آشور – أوبالّط الأول ١٣٣٦ – ١٣٣٠ ق.م إلى نهاية عهد الملك الثامن والتسعين آشور دان الثاني ٩٣٤ – ٩١٢ ق. م

٣- العصر الآشوري الثالث، أو ما يسمى بالدولة الحديثة، التي بدأت في عهد الملك التاسع والتسعين أدد – نراري ٩١١ – ٨٩١ ق.م وانتهت بسقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م وانتهاء الحكم الآشوري نهائياً في حرّان ٦٠٩ ق.م على يد التحالف الميدي البابلي (الكلداني) وقد بقيت آشور عاصمة للدولة الآشورية منذ قيامها حتى عهد الملك الأول بعد المئة، آشور – ناصر بال الثاني ٨٥٩ – ٨٣٣ ق. م، الذي جدد مدينة كلخ (نمرود حالياً) واتخذها عاصمة له.

استمرت كلخ عاصمة للدولة الآشورية حتى عهد الملك العاشر بعد المئة سرجون الثاني ٧٢١- ٧٠٥ ق.م الذي شيّد مدينة (دور شاروكين) وهي خرسباد حالياً ونقل إليها مقر العاصمة، وبعد موته نقل ابنه وخليفته سنحريب ٧٠٤ -٦٨١ ق.م العاصمة إلى نينوى، والتي استمرت عاصمة طوال مدة حكم الملوك الخمسة الذين أعقبوا سنحريب حتى سقوطها في عام ٦١٢ ق.م في عهد الملك السادس عشر بعد المئة (سين – شار – أشكن).

وبعد سقوط نينوى انتقلت مؤسسات الدولة الآشورية إلى العاصمة الأخيرة حرّان، بقيادة الملك آشور – أوبا لط الثاني ٦١١ – ٦٠٩ ق.م آخر ملك آشوري في تلك السلسلة الطويلة من الملوك[١٠٥].

لقد قامت الدولة الآشورية بشكل عام والدولة الآشورية الحديثة بشكل خاص، على القوة العسكرية والنظام العسكري القاسي، فكان الجيش بمشاته وعرباته الحربية

---

[١٠٥] – حنون: حقيقة السومريين، مرجع سابق، ص١٢١.

عِمادَ الدولة، ولعب قادته دوراً كبيراً في بناء الأمجاد، وكان لبعضهم أحياناً دورٌ في تسيير شؤون الدولة.

لقد اتصف الآشوريون بالعنف والقسوة في حروبهم وحملاتهم المختلفة، التي قاموا بها، فمعظم التماثيل والمنحوتات والرسوم الجدارية العائدة إلى تلك الفترة، تُمثل مشاهد عسكرية مُستقاة من معارك حربية، وقد تجلَّت الصبغة العسكرية لهذه الدولة أيضاً من خلال عمارتها، فمعظم المدن الآشورية، كانت قد بُنيت، لتكون قلاعاً وحصوناً عسكرية.

وقد انعكس هذا بشكل واضح على الحياة العامة في آشور، وعلى الأسرة الآشورية، وخاصة على المرأة، التي بدت على مكانتها سمات التراجع أسوة بشقيقتها في بابل وبلاد الشام ومصر، فالمجتمع الآشوري، مجتمعٌ ذكوري بالمطلق، والرجل فيه يعلو على المرأة بكل شيء، وحتى التماثيل التي أتتنا من آشور، كانت في جلّها تماثيل ذكرية، فقد قام الآشوريون بتصوير الإله آشور يحمل قوساً في وسطه سهم، وزوجته عشتار، تحمل قوساً بيد وسيفاً بيد أخرى، وعلى كتفها جعابٌ فيها سهام، هذا ما يدل على الفكر العسكري لدى الآشوريين، فقد جعلوا من عشتار – آلهة الحب والجمال – تحمل قوساً وسيفاً، وتظهر بالزي العسكري، ومن جهة أخرى، نجد أن الآشوريين نظّموا بعض الملاحم البطولية والمؤلفات الشعرية، التي تُمجِّدُ قوة الإله آشور، وتجد تجسيداً لها في انتصارات الملوك والقواد الآشوريين.

أمام هذا الزحف الذكوري للقيادة، تراجعت المرأة إلى الصف الثاني، وتراجع دورها، وأصبحت إما تابعة، وإما خادمة له، فالشعب الآشوري شعبٌ محاربٌ، والرجال هم المحاربون، فهم بالتالي في مستوى أرفع من المرأة، الأقل كفاءة في الحرب.

وقد تجلى وضع المرأة هذا في القوانين الآشورية، رغم قلتها، والتي تعكس وضع المجتمع الآشوري عامةً والمرأة خاصة، فقد عُثِرَ على رقيمين طينيين في العاصمة الآشورية (آشور) نُقِشَ عليهما نص لقانون آشوري يعود بتأريخه إلى النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، وقد كُتِبَ باللغة الأكادية (اللهجة الآشورية الوسطى).

لم تشكل القوانين الآشورية تشريعاً تشريعاً كاملاً كشريعة حمورابي، بدليل عدم وجود مقدمة وخاتمة لها، كما أن القوانين الآشورية تختلف بمجموعها عن شريعة حمورابي بقسوة العقوبات التي نصّت عليها.

لقد كان وضع النساء في آشور متدنياً بعض الشيء، خاصة بعد الزواج، حيث كان مصيرهن في قبضة الرجل، دون أن يقدم لها القانون أيّة ضمانة أو حماية تجاه تعسفه، ففي كتاب الدكتور توفيق سليمان الموسوم بـ (حضارات غرب أسيا القديمة)[١٠٦] نجد ما كُتِبَ على الرقيمين السابقين، حيث يذكرهما لنا كلوحتين، اللوحة (آ) واللوحة (ب).

- اللوحة (آ): يذكر فيها ٢٨ فقرة خاصة بالنساء.
- اللوحة (ب): لا يذكر فيها أي فقرات خاصة بالنساء.

وسنورد هنا بعض الفقرات نقلاً ليس حرفياً بالضرورة، لتبيان مكانة المرأة في هذه القوانين.

الفقرة (٢): إذا تهكّمت امرأة على الإله، هكذا تتحمل هذه المرأة عقوبتها.

الفقرة (٣): إذا سرقت امرأة من بيت زوجها المريض شيئاً وأعطته لرجل أو امرأة أو لأي إنسان آخر، هكذا تُقتل امرأة الرجل وأولئك الذين تسلّموا الشيء من يدها.

الفقرة (٢٤): إذا تركت امرأة رجلها ولجأت إلى بيت رجل آشوري، وليكن بنفس المنطقة أو في جواره، وسكنت مع سيدة هذا البيت وباتت ثلاث أو أربع ليال هناك، ولم يعرف بذلك صاحب البيت، بأن امرأة رجل تسكن في بيته، ثم ألقي القبض على هذه المرأة، هكذا على صاحب هذا البيت الذي تركته امرأته أن يقطع أذني زوجته ويستعيدها، كذلك يجب أن تُقطع أذنا المرأة التي سكنت

[١٠٦] – سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة، مرجع سابق، ص ٤٢٣ وما بعدها.

عندها امرأته، وإذا أرادها رجلها فيمكنه أن يفتديها بـ (٣ تالنت) و (٣٠ مينة) من الرصاص، أو يستطيع المرء أن يأخذ امرأته منه إذا أراد.

الفقرة (٢٥): إذا عاشت امرأة في بيت والدها وتوفي رجلها، ولم يقبل أن يقتسم أخوة رجلها التَّركة فيما بينهم، ولم يكن لها ابن، هكذا على أخوة رجلها، الذين لم يقتسموا، أن يستعيدوا جميع المجوهرات التي أعطاها إياها رجلها، وكل ما زال موجوداً منها، أما الباقي فعليهم إحضاره أمام الإله فيتعرفون عليه ويستعيدونه، ويجب أن يؤخذوا إلى النهر أو إلى أداء اليمين.

الفقرة (٢٧): إذا عاشت امرأة في بيت والدها، ولكن زوجها يتردد إليها باستمرار، هكذا يستطيع أن يأخذ كل شيء أعطاها إياه كهدايا زواج، ولكن ليس له حق الادعاء بملكية أملاك بيت والدها.

الفقرة (٣٥): إذا ذهبت أرملة إلى بيت رجل (أخذها زوجة) هكذا تتبع ملكية جميع ما أتت به إلى الرجل.

الفقرة (٣٧): إذا أراد رجل أن يترك امرأته هكذا، يمكنه إذا أراد أن يعطيها شيئاً ما، أما إذا لم يشأ، فإن بإمكانه ألا يعطيها شيئاً، عليها أن تغادره صفر اليدين.

الفقرة (٣٨): إذا عاشت امرأة في بيت والدها، وأراد رجلها أن يتركها هكذا، فإنه يستطيع استعادة المجوهرات التي أعطاها لها، ولكن لا يحق له استعادة هدايا الزواج، إنه ملك للمرأة لا نزاع حوله.

الفقرة (٣٩): إذا أعطى رجل (امرأة) ليست ابنته إلى رجل آخر، وكان والدها مديناً بشيء، ووضعت كرهينة وأتى الدائن الأول، هكذا يجب أن يرضيه بالنسبة لسعر المرأة، الرجل الذي زوّج المرأة، وإذا لم يكن لديه ما يُعطيه، هكذا يستطيع الرجل أي الدائن، أن يأخذه (يستعبده مقابل ذلك).

الفقرة (٤٤): إذا سكن آشوري وآشورية في بيت رجل كرهينة بالاستناد إلى سعرها الفعلي، فإذا أخذت هذه الرهينة بسعرها الكامل، هكذا يحق للراهن أن يضرب الرهينة ويشدها بشعرها ويجرح أذنيها ويثقبهما.

الفقرة (٤٦): إذا لم ترغب امرأة توفي زوجها مغادرة بيتها بعد وفاة زوجها، هكذا يحق لها، إذا لم يكن زوجها قد كتب لها وثيقة بشيء، أن تعيش في بيت أحد أبنائها، الذي تختاره وعلى أبناء زوجها أن يتعهدوها، عليهم أن يُبرموا عقداً معها، ينصُّ على أن يسلموها طعامها وشرابها كالعروس التي يحبونها.

الفقرة (٤٧): إذا قام رجل وامرأة بأعمال السحر، وعثر على ذلك في يديهما، وثبت ذلك ضدهما، هكذا يقتل الذي قام بأعمال السحر.

إن نظرة مليّة في هذه الفقرات، التي وإن بدت في بعضها مُنصِفة للمرأة ومساوية لها مع الرجل، إلا أنها وبنظرةٍ موضوعية، تُظهر المدى الذي وصلت إليه المرأة في الدرك الأسفل، من حيث معاملتها كإنسان، كما أنه يمكننا أن نستخلص مما سبق أمرين هامين، الأول بقاء المرأة كثيراً في بيت والدها فيما يغادرها زوجها كثيراً وغالباً ما يكون في مناطق الأعمال الحربية، مما يدل على النزعة العسكرية للآشوريين وانعكاسها عل وضع المرأة، أما الأمر الثاني، فهو اعتبار المرأة كسلعةٍ أو كنقدٍ تُدفَعُ كبديل دين، أو تودع كرهينة مقابل مادة أخرى، ومدى العنف والقسوة التي كانت تُمارس ضد المرأة في هذا المجتمع الذكوري العسكري المحارب.

كما يذكر الأستاذ برهان الدين دلو في كتابه الموسوم بـ (حضارة مصر والعراق)[١٠٧] بعضاً من المواد القانونية الخاصة بالشرائع الآشورية، ففي (اللوحة الأولى) تمَّ التركيز على جرائم الزنا والاغتصاب، والتي بيّنت مدى العقوبات التي ينصها القانون على مثل هذه الجرائم الكريهة في المجتمع الآشوري، نذكر منها:

---

[١٠٧] – دلو: حضارة مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٨٦.

المادة (١٢): المرأة التي تُغتصب كرهاً لا عقوبة عليها، أما المُغتصِب فيعدم.

المادة (١٣): إذا ترددت زوجة على بيت رجل آخر وضاجعها، مع علمه بأنها زوجة رجل آخر، يُقتلان كلاهما.

المادة (١٤): إذا ضاجع إنسان زوجة رجل دون أن يعلم أنها زوجة رجل آخر، فلا عقوبة على الزاني، وللرجل أن يوقع بزوجته العقوبة التي يراها مناسبةً.

المادة (١٦): وإذا ضاجع رجل آخر امرأةً برضاها، فلا عقوبة عليه، وللزوج أن يوقع بزوجته العقوبة التي يراها مناسبةً.

المادة (٢٣): والزنا في منزل امرأة أخرى يُعرِّضُ المرأة والزانية وشريكهما لنفس العقوبة. وإذا لم يوقع الزوج عقوبة بزوجته الزانية، فلا عقوبة على الزانية أو صاحبة البيت. أما إذا كان اغتصاباً فيقتل وصاحبة البيت، ولا عقوبة على الزانية.

نرى من خلال هذه المواد السابقة كيف نظر المجتمع الآشوري إلى جرائم الزنا، وعدّها جرائم كبرى يُعاقب عليها القانون أشد العقوبات، كما نرى تحيز هذه القوانين بشكل عام لصالح الرجل، وتحميل المرأة غالباً نتائج هذا الانحراف الخُلقي، وعدم معاقبة الرجل (المادة ١٤) على ذلك، وعلى الرغم من كل ذلك، فإننا نعتبر هذه القوانين جيدة نوعاً ما، إذا ما قيست بالفترة الزمنية التي كُتبت بها، ونوعية العقلية التي أنتجتها. كما أن كثرة القوانين التي تمسُّ الشرف والقيم، تُشير – عادة – بوضوح إلى مدى تمسك هذا المجتمع الذكوري برجولته وخوفه من المرأة، وما قد تجلبه عليه من عار يجعله منبوذاً بين الرجال الآخرين، مما حدا بالمرأة أن تقلل من ظهورها في الشارع وبقائها في البيت، مخافة تشويه سمعتها.

وعلى اعتبار أن هذا المجتمع، مجتمعٌ حربي بامتياز، فقد حضَّ على الإنجاب كثيراً بُغية إكثار عدد الجنود المقاتلين، لذلك كانت عقوبة الإجهاض قاسيةً جداً مخافة

خسارة أي مقاتل (ذكر) مُحتمل، والمرأة التي تجهض حتى إن ماتت أثناء الإجهاض فإنها تخوزق بعد موتها.

ففي هذا المجتمع، طلب الرجل الآشوري من امرأته أن تكون حريصةً جداً على شرفها، لدرجة أفقدتها جزءاً كبيراً من حريتها، فلم يعد لها حق الخروج من بيت زوجها حاسرة الرأس، أو تخرج من بيتها دون إذنه، وقد جاء ذلك في المادة (٤٠) من الشريعة الآشورية.

ومما زاد في انحطاط منزلة المرأة الاجتماعية، هو الاختلاط الكبير مع الأقوام الغريبة، نتيجة سياسة السبي والتهجير التي انتهجتها الدولة الآشورية لسكان المناطق الأخرى، إضافة إلى عمل الآشوريين المستمر في التجارة إلى جانب الأعمال الحربية، والذي ساهم أيضاً في ابتعاد ما تبقى من الرجال خارج منزلهم في تجارة ما، مما جعل المرأة في آشور في معظم أيامها، إما تسكن في بيتها مع أولادها، وغالباً ما كانت تعود إلى بيت والدها أو والد زوجها أو أخيه، ومن هنا صار للزوج المُغترِب حق الزواج الثاني (زواج المتعة) وحقّ له أيضاً تطليق زوجته والعودة إلى بلده.

فقد عثر في كبادوكيا (تركيا حالياً) على رقيّم طيني يحلل زواج المتعة، مُراعياً الحاجات الإنسانية للرجل، كي لا يقع في الزنا، الذي تُحرِّمه القوانين الآشورية، أما عن المرأة، فما عليها إلا أن تنتظر زوجها مهما طال الزمن (حتى خمس سنوات). وإن أكثر ما يدل على تدني منزلة المرأة الآشورية، والذي يدعو للطرافة أحياناً، هو ما جاء في أحد أمثالهم: «ليت الآلهة مسختكَ امرأة»!!.

الزواج عند الآشوريين

جرت العادة بين الأحرار من الآشوريين أن يقتصر الزواج على واحدة فقط. والأب هو سيد الأسرة، وهو الذي يُزوج بناته ويدفع بائنتهن (المهر). وكان الزواج عند الآشوريين، عادةً ما يبدأ بالخطوبة، التي تتم باحتفالٍ يُقدم فيه الخاطب الهدايا من الحلي والمواد الغذائية وما شابه ذلك إلى المخطوبة، كما يقوم بدهن رأسها بالعطور والطيب، ومتى انتهت مراسم الخطبة، تُصبح الفتاة مرتبطة بخطابها وأسرته، وقد كانت المرأة المتزوجة تسكن في بيت زوجها أو بيت أبيها في بعض الأحيان، ففي هذه الحالة، كان على الزوج أن يُساهم في نفقات منزل حميه مقابل سكن زوجته عند أهلها.

وتتلقى المرأة بعد زواجها هدايا من أهلها ومن زوجها ومن حميها، وتصبح هذه الهدايا مُلكاً لها تورثها لأولادها من بعدها، وقد جرت العادة بين النساء الحرائر زمن الدولة الآشورية، ألا يخرجن إلى الشارع وهُنَّ حاسرات الرؤوس (كما ذكرنا سابقاً) بل كُنَّ يضعن على رؤوسهن غطاءً تمييزاً لهن عن الإماء وعاهرات المعبد والمومسات، فقد كان غطاء الرأس هذا ميزة من ميزات الزوجة الحرة وبناتها.

أما إذا كان للرجل محظية، فعليها أن تخرج سافرةً، وإذا سمح لها سيدها بوضع غطاء على رأسها، فمعنى ذلك، أنه رفعها إلى مرتبة الزوجة الحرة، وعليه في سبيل ذلك أن يحضر خمسة شهود وأن يشهد أمامهم بأنه رفع عنها صفة المحظية واتخذها زوجة.

وكانت الزوجة الآشورية تابعةً لزوجها في كل تصرفاتها، فلا يحق لها أن تعمل شيئاً إلا بموافقة الزوج، كما أنه لا يجوز لأحد أن يتقابل معها دون إذنه، وكل من يتعامل معها يُعتبر مجرماً حتى ولو أقسم أنه لم يكن يعرف أنها متزوجة، وقد أدت هذه القيود إلى تناقص نشاط المرأة في الحقل العام وانزوائها في بيتها أكثر بكثير من أختها في بابل.

ولقد توجب على الزوجة في آشور أن تخضع لسيطرة زوجها ما دام حياً وموجوداً إلى جانبها، فإذا مات أو غاب عنها لمدة خمس سنوات أو أكثر، فإنها تصبح حرةً في تركه والزواج من غيره، أو حضانة أولادها الصغار، أو العودة إلى بيت أهلها. وللزوج الحق في طلاق زوجته دون أن يترتب عليه من جرّاء هذا الطلاق أي نفقة لمطلقته، وفي هذه الحالة، ليس من حق الزوجة أن تستعيد ما أحضرته من بيت أبيها من متاع، وعليها أن تتركه لأولادها[١٠٨].

أما فيما يخص التركة، فيقول الأستاذ برهان الدين دلو في كتابه الموسوم بـ (حضارة مصر والعراق ص ٨٥): «أنها تقسم أحياناً، بينما كانت تترك على المشاع أحياناً أخرى، وليس لأبناء المحظية شيء من الميراث، إلا إذا لم يكن هناك غيرهم، أما الممتلكات التي تأتي بها الزوجة التي تنتقل إلى بيت زوجها، وكذا كل ما أعطاه إياها حموها، فإنه يؤول إلى أبنائها، وتنتقل أملاك الأرملة، وكل ما أعطاه إياها حموها إلى أبنائها إذا ذهبت إلى زوج آخر».

لكن أوضاع المرأة الآشورية عموماً، لم تكن على سوية واحدة، فما ذكرناه سابقاً قد لا يشمل كل نساء آشور، فقد وصلت بعض النسوة إلى مناصب كبرى، كحاكم مقاطعة أو منصب الإشراف على السوق أو القرى أو وظيفة مُحتسب، ومن النساء من كُنَّ وصائف في القصر، إضافة إلى دور المرأة الهام في الحرب، فقد كانت النساء الآشوريات يعزفن الموسيقا أثناء المعارك ضد العيلاميين، وذلك لتشجيع المقاتلين الآشوريين على القتال، وفي هذا المقام لا بد لنا من ذكر بعض الأمثلة عن نساء آشوريات وصلن إلى ذروة المجد وقيادة الدولة، نذكر منهن:

---

[١٠٨] – حاطوم، نور الدين، وآخرون: موجز تاريخ الحضارة – حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال ١٩٦٥م، ج١، ص ٢١٦ – ٢١٧ – ٢١٨.

الملكة العربية سامورامات (سميراميس)

وهي شخصية بارزة في تاريخ الشرق القديم، تداخلت المعلومات حولها ما بين الواقع والأسطورة، فقد جعلها البعض مؤسسة للدولة الآشورية، والبعض الآخر جعلها زوجة (نبوخذ نصر الثاني) وأنه بنى حدائق بابل لأجلها، لكن المعروف بأن نبوخذ نصر الثاني، بنى هذه الحدائق لزوجته الأميرة الميدية أميتيس (أمينا) حفيدة كياخسار كناية عن التحالف الميدي – البابلي الذي كان موجهاً ضد آشور.

وجاءت التنقيبات الأثرية لتصحح هذه المعلومات، فأظهرت أن سميراميس ما هي إلا (شامورامات) الآشورية، التي عاشت قبل نبوخذ نصر الثاني بقرنين تقريباً. حيث تمَّ الكشف عن مسلةٍ معروفةٍ في متحف (البرغامون) في برلين، تحمل صورة هذه الملكة مقرونةً بكتابات تُشير إلى أنها حكمت آشور مدة خمس سنوات ٨٠٩ – ٨٠٥ ق.م نيابة عن ابنها القاصر أدد نراري الثالث، وأنها زوجة شمشي أدد الخامس، وحكمت، ويرد ذكرها أيضاً في كتابة مؤلفة من سبعة أسطر على النُصب الملكية المُكتشفة في آشور (نُصب شمورامات سيدة قصر شمشي أدد الخامس، ملك الجميع، ملك بلاد آشور، أم أدد نراري، ملك الجميع، ملك بلاد آشور... شلمناصر... ملك الجهات الأربع). كانت سميراميس أميرة ذات شخصية تاريخية قوية حافظت على وحدة المملكة ونفوذها وأدت دوراً مُهمّاً في السياسة الداخلية والخارجية، كما كانت ذات ثقافة عالية، فأدخلت عبادة الإله البابلي (نابو) إله العلم والآدب كإله أوحد في الطقوس الآشورية، واستطاعت فرض سيطرتها في مجتمع لا يتقبَّل حكم المرأة بسهوله، وغدت أهم الشخصيات النسائية في التاريخ.

الملكة العربية الآرامية زاكوتو (نقية)

تذكر المصادر التاريخية المختلفة أنه كان للملك الآشوري سنحريب ٧٠٤– ٦٨١ ق.م سَرية آرامية لم يتجاوز عمرها الثالثة عشر، تدعى (نقية) وكانت من جملة السبايا الآراميات اللواتي عاد بهنَّ إثر حملته الشهيرة على القدس، وقد كانت (نقية) على جانب كبير من الجمال والرِّقة، فتزوجها الملك الآشوري سنحريب، فأنجبت منه ابنه أسرحدون ٦٨٠ – ٦٦٩ ق. م، ثم احتلت (نقية) مكان الصدارة بين نساء القصر في الحرم الملكي، وقد لعبت دوراً كبيراً في وصول ابنها إلى سُدَّة الحكم، على الرغم أنه ليس الابن البكر، وأمه ليست من السّادة.

وقد أصبحت (نقية) التي ذكرتها المصادر الآشورية باسم (زاكوتو) ذات نفوذ واسع النطاق في الإمبراطورية الآشورية الحديثة، فقد تسلّمت وبشكلٍ كامل تصريف أمور المناطق الشرقية والجنوبية من الإمبراطورية الآشورية، خاصة منطقة الأهواز في جنوب العراق، كملكة مستقلة، ففرضت السيطرة على هذه الأقاليم ومن ضمنها بابل، وتصدت لهجمات العيلاميين من الشرق، وسكان القطر البحري في الجنوب، وقد اتخذت زاكوتو من مدينة (لاخيرو) مركزاً إدارياً لتصريف أمور الأجزاء الجنوبية من الإمبراطورية الآشورية بشكل مستقل، كذلك عمدت على إعادة بناء مدينة بابل التي كان زوجها سنحريب قد خرَّبها قبل وفاته، وعندما مات ابنها أسرحدون ٦٦٩ ق.م قامت بقمع الثورات التي حدثت في أنحاء البلاد، وأجبرت أحفادها وعلى رأسهم (شمش – شم – أوكن) على مبايعة أخيه آشور بانيبال ٦٦٨ – ٦٢٧ ق.م وبذلك تكون قد أعادت الهدوء إلى دولة آشور بعدما بلغت من العمر عتيّا، لكنها ماتت قبل أن تستطيع حلَّ النزاع بين حفيديها السابقين[١٠٩].

[١٠٩] – كحلة، نزار: ملكات عربيات عبر التاريخ، مجلة عاديات سلمية، نشرة غير دورية، العدد الثالث، ٢٠٠٩م، ص ٥٨ – ٦٠ –٦١.

ولا بدَّ أن يكون هناك الكثير من النساء الآشوريات اللواتي استطعن بفضل حنكتهن من إدارة بعض الوظائف، وربما إدارة الإمبراطورية كلها، لكن من وراء حجاب، فالمكتشفات الأثرية لم تُظهِر لنا بعد أسماء هؤلاء النسوة، لكن وجود سميراميس وزاكوتو يدلُّ على وجود الأخريات من النساء اللائي كنَّ في مناصب عليا، وربما وُجِدت بعض العالمات والأديبات، لكن بأعداد قليلة جداً، وهذا أمر طبيعي في مجتمع يحترم الرجل المُحارب لدرجة تشبيهه بالإله آشور القوي، وربما لم يذكر الآشوريون أسماء هؤلاء النسوة في حولياتهم وكتاباتهم، لأن هذا في نظرهم، ربما يقلل من أهمية الرجال؟.

إضافة إلى هذا الإجحاف بحق النساء الحرائر الغنيات وبنسبة أكبر الفقيرات فقد كثر في آشور العبيد (العبدات) والأسيرات بسبب السبي وسياسة التهجير للشعوب المغلوبة التي اتبعها الآشوريون، مما أدى إلى تنوع المجتمع الآشوري، وانتشار ظاهرة الرّق والنخاسة، فعانت النساء الأسيرات في آشور كثيراً من الذل والإهانة، لدرجة أنهن لم يعدن يذكرن شيئاً عن ماضٍ أنثوي جليل ومجيد، حينما كانت الأنثى سيدة الجميع وسيدة الآلهة.

الزواج السّياسي في بلاد الرافدين

إن الزواج السّياسي (أي زواج المصلحة) في بلاد الرافدين هو من أحد المظاهر، التي ربما تكون دليلاً على دورين متناقضين للمرأة، الدور الأول: هو دور إيجابي، لما تُمثله المرأة من أهمية في تغيير مسرى السياسة العامة للدولة، فلربما خلقت بزواجها نوعاً جديداً من التحالفات السّياسية التي ربما غيَّرت خارطة المنطقة بشكل جذري، سابقاً، فكثير من الزيجات السّياسية، كان لها الأثر الأكبر في غياب بعض الدول وثبات الأخرى.

أما الدور الثاني: فهو دور سلبي، يتمثل في جعل المرأة أداةً للوصول لبعض المآرب السّياسية، وربما الشخصية، دون الأخذ بعين الاعتبار مشاعر وأحاسيس المرأة ورغباتها، وربما دون مشورتها في هذا الزواج بالأصل، بل اعتبارها وسيلة لإرضاء عدو أو لكسب صديق، جاعلين منها رمزاً للسياسة ((النفعية)) بكل رموزها السلبية. إن تاريخ بلاد الرافدين حافل بهذه الحالات، وللدلالة عليها يكفي أن نذكر بعضها.

إن أقدم زواج سياسي وصلتنا أخباره، هو زواج نارام سين ٢٢٦٠ – ٢٢٣٠ ق.م الملك الأكادي من ابنة أو شقيقة الملك العيلامي، الذي ربما كان اسمه (خيتا)، فمن المعلوم أن بلاد عيلام كانت مؤلفة من عدد من دول المدن، وتميزت العلاقات بين هذه البلاد والدولة الأكادية بالعداء، فكل الملوك الأكاديين الذين سبقوا نارام سين على العرش، خاضوا حروباً ضد بلاد عيلام.

والمثال الآخر على الزواج السياسي، هو قيام الملك شولجي ٢٠٩٣– ٢٠٤٦ ق.م – الملك الثاني من سلالة أور الثالثة – بتقديم ابنته في عام حكمه الثامن كزوجةٍ إلى حاكم (مارخاشي) وفي العام الحادي والثلاثين، أعطى ابنةً أخرى إلى حاكم مدينة أنشان، كما قدَّم الملك الرابع في هذه السلالة، وهو شوسين ٢٠٣٦ – ٢٠٢٨ ق.م ابنته كزوجةٍ إلى حاكم هذه المدينة وأرسلها إلى هناك مع هدايا قيّمة، وأخيراً وفي نفس

السلالة، قام الحاكم الأخير ايبي سين ٢٠٢٧ – ٢٠٠٣ ق.م بإعطاء إحدى بناته إلى حاكم مدينة زابشالي.

ويُعدُّ الألف الثاني قبل الميلاد، عصر الزيجات السّياسية الكبرى، وذلك لاعتبارات عدة، أهمها أن هذه الزيجات انتقلت الآن من مجال الدول الصغيرة نسبياً إلى الدول الكبرى، فقد حفظ لنا أرشيف مملكة ماري معلومات وافية عن زواجين سياسيين، أحدهما كان ناجحاً (من الناحية العائلية) في حين لم يلقَ الزواج الآخر نفس النجاح[١١٠].

الزواج الأول: هو زواج يسمخ أدد بن شمشي أدد الأول حاكم ماري من ابنة ملك مملكة قطنة* إشخي أدو، الأميرة (دام جوراسي) والمدعوة (بلتوم)، يقول شمشي أدد الأول في إحدى الرسائل لابنه «أريد أن آخذ لك ابنة إشخي أدو، السلالة الحاكمة في قطنة لها اسم كبير، والسلالة الحاكمة في ماري لها اسم كبير أيضاً»[١١١] ولكن هذا الزواج، الذي كان موجّهاً ضد مملكة يمحاض (حلب) لم يكن موفقاً، بسب الخلاف العائلي مع ملك قطنة، مما سيؤدي حتماً إلى سوء العلاقات والتحالفات القائمة بينهما لاحقاً، وهناك آراء أخرى حول نهاية هذا الزواج، سنبحث فيها لاحقاً.

أما الزواج الثاني، فهو زواج زمري ليم ملك ماري من شيبتو ابنة ياريم ليم ملك مملكة يمحاض (حلب) والذي سنأتي على ذكره أيضاً بشيء من التفصيل عند الحديث عن مملكة ماري لاحقاً.

وآخر مثال نورده عن الزواج السياسي، ما قام به آشور أوباليط ١٣٦٥ – ١٣٣٠ ق.م مؤسس المملكة الآشورية الوسطى، عندما حاول تقوية علاقته مع بابل القوية تحت الحكم الكاشي حينذاك إبان حكم بورنا بورياش الثاني ملك بابل، ومن أجل

---

[١١٠] – قابلو، جباغ سيف الدين: العلاقات السّياسية الدبلوماسية في المشرق العربي القديم «الزواج السياسي»، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٧٩ – ٨٠، دمشق ٢٠٠٢م، ص ٤ – ٥.

* – تل المشرفة، حالياً على بعد ١٨ كم شمال شرق مدينة حمص.

[١١١] – مرعي: تاريخ الوطن العربي القديم، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

خدمة مصالحه أرسل ابنته (موباليطات شيروا) إلى بلاط بابل لتكون زوجة للملك أو أحد أبنائه، لكن جهوده باءت بالفشل، حيث لم يستطع مد نفوذه إلى بابل من خلال حفيده ابن (موباليطات شيروا) الذي ما إن اعتلى العرش في بابل بعد وفاة ابن بورنا بورياش الثاني، حتى قتله النبلاء الكاشيون، ونصّبوا نازي بوجاش مكانه.

من هنا ندرك كيف كان وضع المرأة في آشور، فرغم الصّفة العامة لتراجع دورها بسبب الحالة العسكرية الدائمة التي عاشتها البلاد، إلا أنها كانت في بعض الحالات – كما رأينا – تُجاري شقيقاتها البابليات والشّاميات وحتى المصريات لكن بنسبة أقل.

ومع تدني نظرة الرجل للمرأة، فإنها كانت يوماً بعد يوم تغيب عن شاشة التاريخ، مختبئةً خلف جدران الخوف والرهبة من الرجل، تاركةً له حرية قيادة الدولة والمجتمع، نائيةً بنفسها عن الخروج من المنزل خاصةً في نساء الطبقات الدنيا من المجتمع، الذي كان الرجال فيه أصلاً يعيشون حالةً أقرب إلى العبودية، فما بالك بالنساء؟!!، فإن وضعهن أكثر سوءاً من الرجال، وربما كانت تنتشر في هكذا مجتمع الرذيلة وممارسة البغي والزنا في ظل غياب الحماية القانونية للمرأة، هذه الحماية التي كانت غير عادلة للنساء الحرائر والزوجات الصالحات أزواج الرجال الأغنياء في آشور، فما بالك بالنساء في الطبقات الدنيا، فكم منهن قُتِلَ زوجها في حروب آشور المستمرة أو أُسِرَ، وكم سُبيت أو تمَّ نسيانها في ساحات المعركة تجمع ما تبقى من أعضاء جسد زوجها وذكرياته.

الفصل السادس

المرأة العربية في مصر
منذ اختراع الكتابة وحتى دخول الاسكندر ٣٣٢ ق. م

مقدمة تاريخية

تُمثل مصر رُكناً رئيساً من أركان الحضارة الإنسانية، وتحوز مكانة أساسية في تاريخ الشرق القديم وحضارته، لموقعها الجغرافي واتصالها الوثيق بآسيا الغربية، ولمنزلتها السامية بين الأمم السابقة في تقديم الإنجازات الحضارية.

لقد عاشت مصر في عصورها التاريخية بعد اختراع الكتابة المصرية القديمة، ثلاث دورات تاريخية رئيسية، سبقتها مرحلة تسمى مصر العصر العتيق ٣٢٠٠ – ٢٧٨٠ ق.م وهي تشمل حكم الأسرتين الأولى والثانية، وأهم ما حدث في بداية هذا العصر، هو توحيد مصر الشمال مع مصر الجنوب.

أما الدورات الثلاث، فهي: عصر الدولة القديمة، وعصر الدولة الوسطى، وعصر الدولة الحديثة، كانت مصر فيها موحَّدةً وقوية، وكان الاستقرار السياسي والازدهار الحضاري سمة بارزة من سمات العصر، فكانت مركزية الحكم تُضفي على الملك هالةً من الهيبة والاحترام، وتخلل هذه العصور عصران من الضعف، هما: عصر الانتقال الأول، ويقع بين عصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطى، ثم عصر الانتقال الثاني، ويقع بين عصر الدولة الوسطى وعصر الدولة الحديثة، ويُطلق عليهما كذلك اسم عصري اللامركزية الأول والثاني، لأنهما اتسما باضطراب سياسي وأمني وانتقال الحكم من القوة إلى الضعف السياسي والإداري وغياب مركزية السلطة وانقسام البلاد وتفكك وحدتها.

كما أعقب عصر الدولة الحديثة عصور تُسمى (العصور المتأخرة)، بدأت مظاهرها منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وانتهت بانتهاء الحكم (الفرعوني) القوي ودخول الاسكندر المقدوني إلى مصر خريف عام ٣٣٢ ق. م. كانت أحوال مصر في أثنائها تتغير ما بين القوة والضعف، وما بين المركزية واللامركزية، واختلطت فيها بعض العناصر الدخيلة بالمصريين اختلاطاً واضحاً، وتعرضت أرضها لأكثر من غزو أجنبي.

ويُقسِّم المؤرخون الأسر الفرعونية الحاكمة الثلاثين على العصور المختلفة السابقة، وهي أسرٌ اختلفت أصولها ومواطنها، وتعددت العواصم التي اتخذوها لحكمهم الذي قارب حوالي ٣٠٠٠ سنة، ويمكن توزيع هذه الأسرات عبر تاريخ مصر على الشكل التالي:

١- عصر بداية الأسرات، ويسمى العصر العتيق أو العصر الثني ٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ ق.م وتمت في بدايته وحدة مصر التاريخية الأولى على يد ملك مينا الذي وحَّد مملكتي الوجه القبلي والوجه البحري، وكان أول ملك على مصر بكاملها وهو مؤسس الأسرة الأولى، وقد شمل هذا العصر الأسرتين ١ - ٢.

٢- عصر الدولة القديمة (عصر بناة الأهرام) ٢٧٨٠ - ٢٢٣٠ ق.م وشمل الأسرات ٣ - ٤ - ٥ - ٦ وكانت عاصمته ممفيس.

٣- عصر الانتقال الأول ٢٢٣٠ - ٢٠٥٠ ق.م وشمل الأسرات ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ وشاع فيه القلق والخلل السياسي والإداري، غير أنه شهد تحولاً اجتماعياً بانتعاش أحوال الناس من الطبقة الوسطى والبسيطة.

٤- عصر الدولة الوسطى ٢٠٥٠ - ١٧٨٦ ق.م وشمل الأسرات ١١ -١٢ وتميز باستعادة المركزية والسلطة الملكية ووحدة البلاد واتساع العلاقات التجارية مع شعوب البلاد المجاورة، وكان العصر الذهبي للغة المصرية وآدابها، وكانت عاصمته طيبة في عهد الأسرة ١١ ثم انتقلت إلى تاوي (قرب الفيوم) زمن الأسرة ١٢.

٥- عصر الانتقال الثاني ١٧٨٦ – ١٥٧٥ ق.م وشمل الأسرات ١٣ -١٤ – ١٥ – ١٦ – ١٧ عاد – خلالها – الضعف إلى مصر، وسادت الفُرقة وتعدد شخصيات الحكام، حيث حدث تراجع اقتصادي وتوقف النشاط التجاري، وفي هذا العصر دخل الهكسوس* مصر من بلاد الشام وحكموها.

٦- عصر الدولة الحديثة ١٥٧٥ – ١٠٨٧ ق.م وشمل الأسرات ١٨ – ١٩ – ٢٠ وتميز بالتوسع الخارجي بعد أن عادت الوحدة إلى البلاد وطرد الهكسوس، فازداد التبادل التجاري، وعادت مصر إلى عصر القوة والرخاء في كافة المجالات، وفي هذا العصر حدثت الثورة الدينية التي دعا إليها الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) ١٣٦٥ – ١٣٥٠ ق.م الذي دعا إلى دين التوحيد.

٧- العصور المتأخرة، وشملت الأسرات ٢٠ حتى ٣٠ وكانت متأخرة فعلاً من حيث الزمن ومن حيث الإنجازات الحضارية، وقد بدأت ظواهر الضعف السياسي تلوح في الأفق منذ نهاية الأسرة ٢٠، وقد تميز هذا العصر أيضاً بانتقال السلطة إلى الأغراب والمُهجَّنين من ليبيين ونوبيين، ثم خضعت مصر لحكم الآشوريين، وبعد طرد الآشوريين عاشت مصر فترة يقظة جديدة لم تمتد طويلاً وكانت في عصر الأسرة ٢٦، حيث سُمِّيت بالعصر الصاوي، نسبةً إلى عاصمتها (صا الحجر) ثم ما لبث الفرس أن وضعوا نهاية لهذا العصر في زمن ملكهم قمبيز، لكن مصر تحررت ثانيةً من الفرس على يد مؤسس الأسرة ٢٨، وقد استمر الحكم الوطني في مصر في عصر الأسرتين ٢٩ – ٣٠ وهي الأخيرة برد محاولات الفرس لاسترجاع مصر، لكن الفرس نجحوا بذلك فعلاً حوالي ٣٤١ ق. م، إلا أن الاسكندر المقدوني وضع حداً لأطماع الفرس في مصر ولحكم (الفراعنة) المصريين معاً ٣٣٢ ق.م حيث أُلحقت

* – ويدعون بالملوك الرعاة، وغالبيتهم من الأموريين.

مصر بالإمبراطورية اليونانية المقدونية، مُمثلةً بدولة البطالمة، التي أسسها بطليموس أحد أبرز قوّاد الاسكندر[١١٢].

نساء مصر

لمعرفة وضع النساء في المجتمع المصري، لا بدَّ من إلقاء نظرة ولو سريعة على طبقات الشعب المصري وتركيبته السكانية، ذلك بسبب التنوع العرقي الكبير، الذي نتج عن الهجرات التي دخلت وخرجت من وإلى مصر عبر التاريخ، فمع وجود سكان مصر الأصليين بكل تأكيد، لا بد من وجود بعض الفئات التي دخلت مصر من شبه جزيرة العرب عبر البحر الأحمر، ومن بلاد الشام عبر سيناء والبحر المتوسط، خاصةً بعد دخول الهكسوس من بلاد الشام، وذلك في بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد، إضافة إلى الليبيين والنوبيين وباقي الفئات القليلة التي دخلت مصر سواء من أعراق حوض النيل الأدنى، إضافة أيضاً إلى ما استقر في مصر بعد ما سُميَّ بغزوات شعوب البحر في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ناهيك عن من سكن مصر أيضاً من سكّان البحر البيض المتوسط، خاصةً من أرخبيل بحر إيجة من اليونانيين وغيرهم، وذلك في الألف الأول قبل الميلاد.

إن هذا التنوع السكاني، وما نتج عنه من تراكم للثقافات المتنوعة، لا بدَّ وأن ينعكس على الحضارة المصرية سلباً في مكان ما وإيجاباً في مكان آخر، تاركاً أثره على طبقات المجتمع المصري، الذي تنوّعت أشكاله عبر تاريخ مصر الطويل، لكنه بمعظمه كان ينضوي – عادة – على طبقات محددة نوجزها بـ:

١– طبقة الأحرار، التي شملت فئات مختلفة من الحرفيين والعساكر والكتّاب ورجال الدين.

---

[١١٢] – هبو، أحمد أرحيم: تاريخ وادي النيل – من عصور ما قبل التاريخ إلى عام ٣٣٢ ق.م، حلب ٢٠٠٣م، ص٦٧ وما بعدها.

٢- طبقة العبيد (ليبيين – آسيويين – نوبيين) وجلُّهم من أسرى الحرب.

٣- طبقة الحكام.

ويُعدُّ الفلاحون الطبقة التي مثلت الوجه الحقيقي للمجتمع المصري، لأنها دوماً كانت تُمثل غالبية الشعب المصري من الناحية العددية، إضافة لكونها الحامل الأساسي لحضارة الشعب المصري عبر التاريخ مع وجود الحرفيين والعسكريين، أما طبقة العبيد، فلا شكَّ أن الرق كان منتشراً في مصر، ويبدو أن الأرقاء كانوا أجانب في الأصل، إما أسرى حرب أو أسرى قرصنة أو لصوصية أو قدمتهم سلطات بلادهم بمثابة جزية أو هدية أو تم شراؤهم من الخارج، وعلى أيّة حال، فقد كان عدد العبيد في مصر قليلاً قياساً بعدد السكان، وكان امتلاك العبد دليلاً على الغنى، لذا لا نجدهم إلا عند الطبقات المترفة[١١٣] والأسرة الحاكمة، التي تمتلك أفضل الامتيازات ولها معظم الحقوق التي تصل أحياناً إلى درجة تأليه الملك.

لقد كان للحضارة المصرية المتواصلة عبر أسرها الثلاثين، انعكاس كبير على المجتمع، خاصةً مع وجود الاستقرار السياسي لفترة زمنية طويلة والتي استمرت حوالي ٢٥٠٠ سنة من القوة والازدهار والمجد، باستثناء بعض الأدوار الانتقالية القصيرة نوعاً ما قياساً بتاريخ مصر الطويل، والتي لم تؤثر كثيراً على الدور الريادي الذي لعبته نساء مصر خاصة في فترة الدولة الحديثة، حيث وصلت مصر إلى أوج القوة والعزة، فكان لنساء مصر الشهيرات (نفرتيتي وتاج وحتشبسوت و... إلخ) أثر كبير على توجهات مصر السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية أيضاً، فالغنى الاقتصادي إضافة للانفتاح على الآخر من خلال التجارة الخارجية والاستقرار السياسي بسبب عدم وجود أدوار عسكرية وتواتر لدول كثيرة على أرض الكنانة (مصر)، انعكس إيجابياً على الوضع الاجتماعي فيها، خاصةً الأسرة المصرية، وبالأخص على المرأة.

---

[١١٣] – الخطيب، محمد: مصر أيام الفراعنة، دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠١م ط ١، ص ١٤٦.

فإذا ما تكلمنا عن نساء مصر في القصور والترف الذي كنّ يعشن فيه والذي سنذكره فيما بعد عند الحديث عن نساء مصر الشهيرات، فإن الأسرة المصرية في القاعدة الشعبية وهي التي تهمنا أكثر لمعرفة وضع المرأة المصرية هي محور اهتمامنا، فقد اهتم المصري بأسرته وزوجته كثيراً، وكان يحترم امرأته احتراما فاق كل الشعوب المجاورة، وهذا ما سنتعرف عليه من خلال دراستنا للأسرة المصرية.

الأسرة المصرية

الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى، يتعلّم فيها الفرد الولاء لها، كما يجب أن يقوم نموه الأخلاقي على تعلم الولاء لكل وحدة أكبر إلى أن يبلغ قلبه أخيراً أقصى حدود بلاده.

كانت المرأة التي تُعدُّ زوجة شرعية واحدة، هي سيدة المنزل وكانت العلاقة بين الزوج وزوجته تُصوَّر في جميع العصور مُخلصةً ووفية، فهما يقفان الواحد منهما إلى جانب الآخر، أو يجلسان معاً على مقعدٍ عريض وتلف المرأة ذراعها في رفق حول عنق زوجها أو تضع يدها على إحدى كتفيه أو تتشابك أيديهما معاً، ويقف الأولاد في الغالب إلى جانب مقعد الأم دلالة كبرى على أهمية مركزها.

وتساعد الزوجة زوجها في الإشراف على شؤون المنزل، كما ترافقه في رحلاته بقوارب الصيد الخفيفة خلال المستنقعات، فقد كانت نقوش الدولة القديمة تمتدح الزوجة التي يبجلها زوجها، يقول كتاب الحِكم الذي ألفه الوزير (بتاح حوتب): «إن الرجل يكون حكيماً عندما يؤسس لنفسه منزلاً ويحب زوجته»[١١٤].

ولا شك أن الأسرة تبدأ عندما يتم الزواج بين الرجل والمرأة بعد الخطوبة، ومن ثم الزواج وفتح بيت الزوجية، ففي مصر القديمة كانت الخطوبة تبدأ عندما تطلب المرأة تحديد مواعيد اللقاء، أي أن المرأة هي التي تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرةً، وهي التي تعرض عليه الزواج صراحةً، والشّاهد على ذلك ما وصل إلينا من قصائد الغزل ورسائل الحب، جُلُّهُ موجَّه من المرأة إلى الرجل، فقد جاء في إحدى هذه الرسائل: «أي صديقي، إني أرغب أن أكون، بوصفي زوجتك، صاحبة كل أملاكك». نرى من خلال هذه الرسالة أن المرأة المصرية لها الحرية ليس في اختيار الزوج

---

[١١٤] – المصدر نفسه: ص ١٥٤.

المناسب، إذا هو تقدم لها، بل هي تختار من الرجال من تريد أن تبني معه بيت الزوجية.

كما كان قدماء المصريين هم أول من سنَّ للزواج نظاماً على أساس الحرية ومنح المرأة الاستقلال التام، ففي قصيدة مصرية قديمة، نجد إحدى البنات تقول لمحبوبها: «أتمنى يا حبيبي أن أكون زوجتك وربة بيتك وأمينة أموالك ويلتف ساعدي بساعدك ونتنزه معاً فرحين سعيدين، ويخالج قلبي وهو يخفق في صدري كلمات الحب». ولا شك أن هذه الأماني الشريفة، كان يتحقق جُلُّها بين العروسين – خاصةً – بعد الزواج.

في الواقع، فقد رأينا في التماثيل المعروضة في المتحف المصري، المرأة المصرية بجانب زوجها مُطوّقة عنقه أو ظهره بذراعيها دليلاً على الحب والثقة، وإذا ما تأملنا شروط الإيجاب والقبول في عقد الزواج عندهم، اتضح لنا مساواة المرأة للرجل، حيث يقول الزوج لزوجته: «أعطيتك مهراً كذا فإذا أبغضتك وتزوجت غيرك في حياتك أعطيتك مبلغ كذا خلاف مهرك، وصارت جميع أموالي الحاضرة والمستقبلة تأميناً لك وضماناً لك للوفاء بهذا العهد». فتجيبه المرأة قائلة: «قد قبلت زواجك ومهرك وصرت زوجةً لك، فإذا أبغضتك أو أحببت غيرك، أردُّ لك مهرك وأتنازل لك عن جميع أموالي»[١١٥].

لكن الزواج عند المصريين، كانت تشوبه أحياناً عدة شوائب، تجعل منه أمراً مرفوضاً، وذلك بسبب حدوث ما يُسمى بزواج الأخوة، وإن كان حدوثه على نطاقٍ ضيق، ربما فقط في الأسر الحاكمة للبلاد، فكثيراً ما كان الملك يتزوج أخته، بل كان يحدث أحياناً أن يتزوج ابنته ليحتفظ بالدم الملكي نقيّاً خالصاً من الشوائب، وإن كنّا نمقت بشدةٍ هكذا نوع من الزواج، فلربما كان للمصريين عذرٌ في ذلك، بسبب اعتبارهم

---

[١١٥] – زكرى، انطون: الأدب والدين عند قدماء المصريين، المتحف المصري، ١٩٩٢م، ص٤٠ – ٤١.

المُلك تشريفاً من الإله، وليس من اليسير أن نحكم، هل أضعفت هذه العادة قوة نسل الملوك أم لم تضعفه؟؟.

لكننا لا نشك في أن مصر لم تكن تعتقد هذا، بعد أن ظلت تسير عليه عدة آلاف من السنين، وهناك من يقول، وخاصة وول ديورانت في كتابه الموسوم بـ (قصة الحضارة): «أن هذه العادة، انتقلت مع الأيام من الملوك إلى عامة الشعب، حتى لقد وُجِدَ في القرن الثاني بعد الميلاد أن ثلثي سكان أرسينوئي يسيرون على هذه السُّنَّة. فقد كان معنى لفظي أخ وأخت في الشعر المصري القديم، كمعنى حبيب وحبيبة في أيامنا هذه، وكان للملك فضلاً عن أخوانه عدد كبير من النساء من أسيرات الحروب وبعضهن من بنات الأعيان أو ممن أهداهن إليه الملوك الأجانب»، لكنني أعتقد أن الأمر بقي محدوداً بالأسر المالكة، والسبب هو أن المرأة المصرية هي التي تحمل النسب، وخاصة شرعية الحكم، وهذا ما سنراه عندما تزوج تحوتمس الثاني من حتشبسوت صاحبة النسب الشرعي وهي أخته، ذلك كي يكتسب حكمه الشرعية وهذا أمر وارد، لكنني لا أعتقد أن الشعب المصري قد مارس هذا الزواج – وإن حصل – بنسبٍ كبيرةٍ جداً، فالشعب المصري لم يكن يهمه نقاء الدم فيما يخص شرعية الزواج أو المحافظة عليه كتشريف إلهي.

أمّا عن ما أورده وول ديورانت في كتابه السالف الذكر، فلربما انحصر في القرن الثاني بعد الميلاد، أي في عصر حكم الروم لمصر، فهذه ثقافة جديدة على المصريين، بعد ثقافة أخرى مثّلها الحكم الإغريقي الطويل إبان حكمهم لمصر، وخلال هذه الفترة حدث الكثير من التغيرات على مستوى الثقافة والدين والأخلاق، ولربما كان هذا أمراً مستورداً.

أما الأمر الآخر الخاص بالزواج عند المصريين، فهو تعدد الزوجات، فقد كان تعدد الزوجات جائزاً عند قدماء المصريين، ولكنه بقي محدوداً، وإن حدث – عادة – فعند الأسر الغنية، حيث أيدت القوانين المصرية المرأة وساعدتها على زوجها في حالة خيانته لها، أو مخالفته شروط عقد الزواج.

أما الحالة الثالثة التي عانى منها الزواج في مصر، فهي عادة الزواج المُبكِّر الذي كان يحصل بكثرة، وقد يبدأ في سن العاشرة، وربما كان السبب في ذلك هو البلوغ المُبكِّر عند النساء والذكور في مصر، وذلك بسبب الحرارة الزائدة وهذا ما نراه حتى الآن في ريف مصر حالياً، لكنّه بدأ ينحسر شيئاً فشيئاً.

إن الزواج في مصر رغم هذه المُنغصات كان كناية عن عقد مدني، وكانت المرأة المصرية على الأقل بين الطبقات الميسورة باستطاعتها اختيار من تريده زوجاً لها، كما رأينا سابقاً، طبعاً باستثناء زيجات العائلة المالكة.

وتُثبت الوثائق بأن الفتيات كُنَّ يُعرضن على العازبين برعاية أناس من الطبقة العليا، الذين كانوا يقومون بدور العرّاب لهن، وكانت الصلوات تُرفع إلى الإلهة حتحور كي (تمنح الأيّم بعلاً والعذراء مسكناً) والأزواج المصريون كانوا يعطفون على نسائهم كما رأينا، وهذا مقطع من (أدب الحكمة) يُثبت ذلك: «أحبب زوجتك بوفاءٍ كحبكَ لبيتك، وكأن هذا واجبٌ عليك، قدّمْ لها الغذاء، قدّمْ لها الكِساء، فتش عن مسرتها باستمرار وطالما أنت حيّ».

إن مثل هذه المحبة وهذه الألفة امتدت عبر العصور إلى ملوك وملكات، كما نرى في هذا النص الذي يُظهر (الفرعون) أحموس الأول جالساً مع زوجته الملكة **(أحموس- نفرتاري)** وهما يُفكران بما يمكن عمله لزيادة التكريمات المأتمية لجدات الملك، تكلمت زوجته فأجابته هكذا: «لماذا تتذكر هذه الأشياء؟ ماذا حدث في قلبك؟» فقال لها الملك: «لقد تذكرت والدة أمي، والدة أبي، زوجة الملك الكبيرة وأمّ الملك – تيتيشيري – المتوفاة، إن لها الآن على أرض طيبة، عبدين وغرفة مأتميه وقبراً، ولكن قلت لك هذا لأن جلالتي ترغب في أن نقيم لها هرماً صغيراً في أرض المملكة المقدسة قرب ضريح جلالتي، هكذا قالت جلالته ونفّذت الأشغال فوراً»[١١٦].

---

[١١٦] – كوتريل، ليونارد: زوجات الفراعنة، ت فيليب عطا الله، دار الروائع الجديدة، بيروت ١٩٧٢م، ص ٢٤٨ – ٢٤٩.

فليس بالأمر الغريب أن يُقام للمرأة الملكة هرمٌ أو تُحنَّط إكراماً لها، فقد عُثِرَ في جرار الكانوب*على أحشاء الملكة **(حتب حرس)** أم (الفرعون) خوفو باني الهرم الكبير، وهذا يدلُّ على تحنيطها، إضافة إلى وجود كمية كبيرة من المصاغ عثر عليها في مقبرتها.

وتدل أيضاً معظم اللقى الأثرية على مكانة عالية للمرأة المصرية، خاصة نساء الأسر الملكية، كالقلادة المنقوشة على رقبة الأميرة **(نوفرت)** وتاج الأميرة **(خنومت)**[١١٧] وهُنَّ أميرات معروفات في تاريخ مصر.

---

* وهي الجرار التي كان يحتفظ بها المصريون بأحشاء المحنطين.

[١١٧] – الخطيب، محمد: الخلود في حضارة مصر القديمة، دار طلاس للنشر، دمشق ١٩٩١م، ط ١، ص ١٤٧ – ١٤٨.

الطّلاق عند المصريين

كان الطلاق عند قدماء المصريين مشروعاً، إلا أنه كان مبغوضاً لديهم، وكانت فيه مصاعب شتّى، حتى قال (فتاح حتب) أقدم الحكماء المصريين: «أنت أيها الشاب الذي أحببت هذه الفتاة وأحبتك وهي عذراء، اعلم أنك إذا تركتها بعد زواجها ارتكبت أكبر الجرائم أمام الله والناس» وكان يجوز عندهم أن تطلق المرأة زوجها بشرط أن يكون مشروطاً لها في عقد الزواج أن عصمتها بيدها تطلق نفسها متى شاءت، وهذا الشرط نفسه مُتَّبعٌ في الشريعة الإسلامية[١١٨].

أما في المراحل المتقدمة من تاريخ مصر، فقد أصبح الانفصال والطلاق ميسوراً وسهلاً، إذ يكفي أن يُعرِبَ الزوجان عن رغبتهما أمام شهود فيتم الطلاق، ولكن حقوق المرأة كانت مُقدَّسة، فالزوج مُلزَمٌ بأن يدفع تعويضاً للزوجة التي يتركها، وإن كانت الموجبات الشرعية بهذا الخصوص ليست صريحة تمام الصراحة، ويبدو أيضاً أنه حتى السراري اللواتي لديهن أولاد، يحقُّ لهن شرعاً المطالبة بالتعويض.

أما أسباب الطلاق فقد كانت عديدة، منها: الخيانة الزوجية، التي كانت بالنسبة للمرأة تستحق عليها عقوبة الموت، كذلك التباين في الطباع يمكنه أن يشكل سبباً في الانفصال، ولكن المُرجَّح أن حوادث الطلاق لهذا السبب، كانت نادرة لأن المصريين القدماء كانوا كما يظهر يحبون عائلاتهم[١١٩].

أما في فترة الضعف واضمحلال الدولة، فقد بات بمقدور الزوج أن يخرج زوجته من داره دون أن يعوضها بشيء، إذا زنت، أما إذا طلقها لغير هذا السبب، فكان عليه أن يُخصص لها جزءاً كبيراً من أملاك الأسرة.

---

[١١٨] – زكرى: الأدب والدين، مرجع سابق، ص ٤١ – ٤٢.

[١١٩] – كوتريل: زوجات الفراعنة، مرجع سابق، ص ٢٤٩ – ٢٥٠.

ومن مظاهر مكانة المرأة المرموقة في مصر أيضاً، هو انتساب الأبناء إلى أمهاتهم انتسابهم إلى آبائهم، فإذا ما توفي الزوج انتقلت سلطته إلى زوجته حتى في علاقات الأسرة بالدولة، وقد عرفت مصر القديمة نظام الإرث بالتساوي بين الذكر والأنثى، وفي بعض الحالات، كان المصري يلجأ للزواج من أخته، خشية أن تنتقل أملاك الأسرة إلى الأغراب، وحفاظاً على دم الأسرة، كما كان للمرأة المصرية السّيادة الكاملة في منزلها وخارجه حتى أن الأملاك الزراعية كانت غالباً ما تنتقل إلى الإناث، وفي ذلك يقول بتري: «لقد كان الزوج حتى في العهود المتأخرة، يتنازل لزوجته في عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلية»[١٢٠].

---

[١٢٠] – ديورانت: قصة الحضارة، مجلد ١، ج ٢، مرجع سابق، ص ٩٧.

عمل المرأة المصرية في البيت

كان للمرأة المصرية دورٌ كبيرٌ في القيام بأعباء المنزل من إعداد للطعام وتنظيف البيت، وربما في طحن الحبوب وصنع الخبز وحياكة الثياب، إلى ما هنالك من الأعمال المنزلية، التي كانت تعطيها مكانة إلى جانب زوجها، لكن ما يلفت النظر، أن تلك الواجبات الضرورية والهامة في البيت، كان يقوم بها خدمٌ من الرجال والنساء، خاصةً في القصور والبيوت الثرية، فكان هؤلاء الخدم من العبيد الذين يقومون بأعمال متنوعة، ومنها إعداد الطعام والخدمة المنزلية وتحرير الرسائل وتسجيل الحسابات وعزف الموسيقا في أوقات الراحة، فيما انحسرت واجبات نساء المنزل ببعض الأعمال مثل غسيل الملابس وتربية الدواجن والعمل في الحقل، وكانت المرأة هي التي تتولى شراء الحاجيات الضرورية للمنزل من السوق، وتقوم بأعمال الغزل والحياكة والنسيج والغناء والعزف على الآلات الموسيقية.

ومن الأعمال الطريفة التي قامت بها إحدى النساء، قيادة مركب للبضائع، على أن أحوال المجتمع المصري، لم تسر دائماً على وتيرة واحدة، فقد تعرضت للتغيير الذي نلمسه فيما بعد، في الدولة الوسطى والدولة الحديثة[١٢١]، حيث وصلت المرأة إلى أعلى درجات العزة والرفاه.

---

[١٢١] – فرزات، محمد حرب: محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم – مصر القديمة وحضارتها، مطبعة ابن خلدون، دمشق ١٩٨١– ١٩٨٢م، ص ١١٥.

المرأة المصرية في التشريعات وعلاقتها بالدين

رغم ما وصلنا من آثار مصرية على غاية الأهمية تكشف عن الرقي الحضاري في جميع أنحاء الحياة، إلا أنه لم تصلنا شريعة مكتوبة واضحة المعالم كشريعة حمورابي في بلاد الرافدين مثلاً، وحتى إلى أواخر الدولة الحديثة، غير أن التنظيمات الإدارية والسياسية والاجتماعية، تؤكد وجود مثل هذه الشريعة، التي لا بد وأنها قد تناولت المرأة بالكثير من موادها، لأن وضع المرأة الجيد، يؤكد على أن هذه التشريعات – إن وجدت – كانت في جُلِّها لصالح المرأة.

أما عن علاقة المرأة المصرية بالدين، فقد تولت هذه المرأة أهم الوظائف الدينية، فلم تكتف بعزف الناي وتلحين الأناشيد المقدسة للمعبودات، بل كانت كاهنة للإلهة هاتور (حتحور) بمدينة ممفيس، وقد أخبرنا ديودور الصقلي أن العجل آبيس كان يُسلَّم للسيدات مدة أربعين يوماً قبل وضعه في الهيكل، وفي عصر الرعامسة، بلغ نفوذ النساء الديني غايةً عظيمة، حتى كانت المرأة فيه، تتولى رئاسة الكهنة للمعبود آمون، وفي عصر البطالمة، كانت الكاهنات تشاطرن الكهنة خدمة المعابد ورئاستها، وبلغ أيضاً مقام المرأة غاية قصوى، حتى أن إيزيس وهي الإلهة الأم والإلهة السرمدية كانت عندهم أسمى من زوجها أوزوريس مقاماً، بسبب أنه من عنصر بشري وإن كان إلهاً، أما هي فمن عنصر اللاهوت المحض، حتى أن ابنها حورس كان يُنسب إليها لا إلى أبيه، وكانت نوت إلهة السماء أرقى مقاماً من الإلهة إيزيس لأنها أصل النسل البشري وشاغلة أفق السماء، فقد ذُكِرَ في نشيدها: «أنا أصل ما كان وما هو كائن»، كما سُميت ملكة المعبودات[١٢٢] دلالة على رفعة مكانتها.

---

[١٢٢] – زكرى: الأدب والدين، مرجع سابق، ص ٣٨ – ٤٠.

المرأة المصرية في عصر القوة

بينما كانت المرأة عند قدماء الشعوب مُعتزلةً في خدرها، خاضعة ذليلة، يستعبدها أبوها في صغرها، وزوجها في شبابِها، وابنها في شيبها، وأقارب زوجها في حالة عدم وجود ابن لها، كانت المرأة المصرية وحدها مُحترمة مُتمتعة بحقوقها الاجتماعية، فلم يكن في قوانين المصريين تنصيب وصيّ ولا إقامة قيّمٍ على القصر، بل كان أكبر الأخوة والأخوات يقوم مقام الأب عند فقده في ولايته على القاصرين وغير الراشدين، فقد ميزت القوانين المرأة المصرية، حتى جعلتها مساوية للرجل في جميع الحقوق الدينية والمدنية.

كانت المرأة المصرية تسير في المدن والحقول سافرةً مُختلطةً مع الرجال في المجامع العامة والخاصة، شعارها الحشمة والكمال، ذات هيبة، لا يجسر أحد أن يتعرض لها بسوء أو يمسَّ كرامتها، وقد ورد عنها، أنها قامت برحلات طويلة مجاراة لزوجها في أعماله التجارية وغيرها.

وإذا ما عُدنا إلى مصر القديمة، نجد أن الفراعنة وإن كان هم الذين سادوا، فقد كانت زوجاتهم مُحاطات بكل مراسم التكريم والتمجيد، وهُنَّ كمثل كل النبيلات الممثلات في القبور «لقد أجمع الرأي على أن الوراثة في مصر القديمة كانت تتسلسل من المرأة وليس من الرجل!! بمعنى أن (الفرعون) لم يكن باستطاعته إثبات حقوقه في السيادة، إلا إذا تزوج وريثة الفرعون السابق» وفي مؤلفه (الحياة الاجتماعية في مصر) يقول بتري: «إن الأجداد كانوا دائماً ينتسبون إلى أرومة النساء أكثر من انتسابهم إلى أرومة الرجال؟!! فالأب لم يكن إلا واجهة البيت، أما الرابطة العائلية فالمرأة كانت مصدرها!! والشيء ذاته بالنسبة للملكية، التي كانت تنتقل من ربّة البيت إذا لم يكن هناك إطلاقاً ربُّ بيت!»[١٢٣].

---

[١٢٣] – كوتريل: زوجات الفراعنة، مرجع سابق، ص ٦.

وحتى عندما كان يلحق المرأة ظلم اجتماعي أو غير ذلك، فإنها هي من كانت تدافع عن حقوقها، وحتى حقوق غيرها من الرجال والشيوخ والأطفال، ولا غرابة عندما نسمع أنها قد نزلت إلى الشارع لتقود الثورات والمظاهرات ضد الظلم والطغيان والاستبداد، فقد حرق المصريون والمصريات القصر الملكي عام ٢٤٢٠ ق.م ونادوا بتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء، وبين النساء والرجال، إلا أن المؤرخين، وعلى حدِّ زعم الدكتورة نوال السعداوي، أن المؤرخين الرجال المتحيزين للسلطة الحاكمة، قد تجاهلوا جهود النساء في هذه الثورة، التي عرفت باسم ثورة (منف)، وقد أُجهضت هذه الثورة بعد فترة، وعاد الحكم الفرعوني بسطوته مرة أخرى، ثم قامت الثورة الشعبية الثانية، التي قادها النساء والرجال عام ١٢٦٠ ق. م، وثورة ثالثة عام ٦٦٣ ق.م، حيث استرد الفقراء والنساء فيها بعضاً من حقوقهم المسلوبة[١٢٤].

هذه الثورات – بمجملها – تدلُّ على أن المجتمع المصري، ومع أنه أعطى المرأة حقوقها ورفع من مكانتها، إلا أن بعض النساء اللواتي كُنَّ يعشن في الدرك الأسفل من السلم الاجتماعي، وخاصة الفقراء جداً، قد عانين من قسوة الحكم وربما من قسوة رجالهن. فإن الظروف الاقتصادية السيئة التي كن يعشن فيها، قد أثرت على معاملة الرجال لهن، فأصبحن يُعاملن بقسوة ويعملن بظروف صعبة، مما جعل البعض منهن يُصبن بالأمراض، مع أن الوضع الصحي في مصر القديمة كان جيداً، إلا أن الفقراء كُنَّ أكثر عرضةً للإصابة بالأمراض، وخاصةً الفلاحين الفقراء فكانوا يُصابون بأمراضٍ كالبلهارسيا، ولا ننسى فئة العبيد، التي كانت تعاني الأمرَّين في مصر، فلا حقوق لهم، وإنما عليهم واجبات فقط.

إلا أن ما ذكرناه سابقاً، لا يعدو كونه جزءاً يسيراً من وضع عام كانت فيه المرأة – وكما ذكرنا سابقاً – تعيش حياة كريمة، وهنا نستشهد بما فعله رعمسيس الثالث أحد ملوك مصر العِظام، حيث ورد في بعض النقوش، ما حققه للمرأة من

---

[١٢٤] – السعداوي: المرأة والدين، مرجع سابق، ص ٢٥.

مكاسب، على حسب زعمه، قال: «لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين، فلا يتعرض لها أجنبي أو غيره»[١٢٥] .

وقد روى مانيتون – المؤرخ المصري– أن الملك الثالث من الأسرة الثانية، سنّ قانوناً بجواز تولية النساء المُلك، وقد استمر العمل بهذا القانون حتى عصر البطالمة، فكانت الملكة تشارك زوجها في تدبير شؤون المملكة في حياته، وقد نبغ في سياسة الملك جماعة من النساء ممن اشتهرن بالحزم والعزم وبُعد الصيت وحُسن السمعة والفتوحات العظيمة والغزوات الشهيرة، ومنهن نذكر: نيتوكريس ونوفرتاري وحتشبسوت وغيرهن كُثر، حتى قال أحد المؤرخين عنهن: «قد أنكرت تلك النساء جنسهن وتزيين بزي الرجال، وحملن اللحى في الاحتفالات الرسمية»[١٢٦] قاصداً بذلك الملكة حتشبسوت.

لقد عاشت نساء مصر، خاصةً في فترة الازدهار، أي فترة الدولة الحديثة وبالتحديد ما بين ١٥٥٠ – ١٢٠٠ ق.م وبالتحديد أكثر الأسرتين ١٨ – ١٩ حياةً وصلت فيها المرأة إلى قمة المجد والزهو، لعبت المرأة فيها دوراً بارزاً في سياسة البلد، حتى كان لهن دور كبير في صناعة القرار، سواء كُنّ أمهات أو زوجات أو شقيقات أو بنات الملوك، حتى أن البعض ذهب إلى اعتبار هذا العصر عصر طغيان النساء في مصر، ليس على صعيد نساء القصور وحسب، وإنما انعكس هذا على وضع المرأة بشكل عام، إن على مستوى الأسرة الحاكمة، أو على مستوى الشعب العادي خارج أسوار القصور، وذلك بسبب الرخاء الاقتصادي الذي عاشته مصر في هذه الفترة، بسبب سياسة التوسع التي انتهجها ملوك مصر، مما زاد في رقعة الإمبراطورية المصرية، وزاد معه نتاجها الاقتصادي، خاصة مع ملوك عِظام من أمثال: أمنحوتب الأول، وتحوتمس الأول، وتحوتمس الثاني، وتحوتمس الثالث، الذي اشتهر بحملاته

---

[١٢٥] – الرايس، حياة: جسد المرأة – من سلطة الإنس إلى سلطة الجان، دار سينا للنشر، ط١، ١٩٩٥م، ص ١٧.

[١٢٦] – زكرى: الأدب والدين، مرجع سابق، ص ٤٤ – ٤٥.

الشهيرة على سوريا، وصولاً إلى أمنحوتب الثالث وكذلك الرابع (أخناتون) صاحب الإصلاح الديني الشهير، ودور النساء العظام في هذه الأسرة، من أمثال: حتشبسوت زوجة وأخت تحوتمس الثاني، ونفرتيتي زوجة أخناتون وربما مُلهِمته في إصلاحه الديني، كذلك ملوك الأسرة التاسعة عشرة، خاصةً الملك رعمسيس الثاني وزوجته نفرتاري، وما كانت تتبوأ به من مركز الصدارة في قصر الملك ومدى تأثيرها عليه وعلى سياسته رغم وجود العشرات من النساء المقربات من الملك، أمثال زوجاته الأخريات، وبناته الكثيرات.

لقد عاشت المرأة المصرية في هذا العصر في بحبوحة مادية، فكانت تعتني عناية فائقة بزينتها وعطورها وملابسها وحليّها، إذ كانت تُمشِّطُ أهدابها، وتضع عليها نوعاً من الكحل الأخضر، كما كانت تزجج حاجبيها بدقة، وتستعمل لصبغ شفتيها فرشاة خاصة عوضاً عن إصبع الحمرة، أما عقودها وأساورها وأقراط أذنيها، فقد كانت من الذهب واللازورد والعقيق وبأشكال جميلة وأنيقة، ربما تتمناها نساء اليوم، وألوف الصاغة في القاهرة اليوم مدينون فيما يقدمونه للمرأة من جواهر وحلي، إلى الذين سبقوهم في الصَّنعة منذ ثلاثة آلاف سنة.

فالأزياء وأشكال المجوهرات التي عرفتها نساء السلالة الثامنة عشرة في مصر القديمة، تُمكِّنُ نفرتيتي لو كانت تعيش اليوم، من أن ترتدي ثوباً من تصميم (ديور) وتدخل إلى أفخم الفنادق، دون أن تثير أي تعليق، إلا على جمالها، فحتى زينتها ستكون مُتَّفقة مع حياتنا العصرية. وبالإضافة إلى الأناقة في الملبس، فقد اهتمت نساء مصر، وخاصة فترة الازدهار، بالرقص، وقد تبدى ذلك من خلال الرسوم الكثيرة التي وجدت، وتُعبر عن حالات الرقص عند نساء مصر، فقد دلّت الآثار المصرية على أن المصريين هم من أكثر الشعوب القديمة إتقاناً للرقص وإحكاماً لقواعده، ومما نلفت إليه الانتباه أنهم لم يتخذوا الرقص للخلاعة والملاهي كما نراه الآن، بل كان عندهم خدمة للشعائر الدينية، ونموذجاً للحركات الفلكية، وتمثيلاً للأنغام الموسيقية، إذ كانوا يقصدون من الرقص جملة فوائد دينية ودنيوية، فكانوا يتقربون بها حول الهياكل

والمعابد، بُغية تمجيد الخالق مرفقة بالأناشيد الدينية المقدسة، ومن العجيب أن قدماء المصريين بلغ احترامهم للرقص درجةً اعتقدوا أنه من ضمن التعاليم المنزلة.

وبالإضافة للرقص، فقد مارست نساء مصر عزف الموسيقى والغناء، فنحن نعرف أن الموسيقى لعبت دوراً ذا شأن في الحياة المصرية، فقد استعمل المصريون آلات موسيقية مختلفة قابلة للإبداع، كالمزمار والناي والقيثارة وغيرها، وقد أيدت هذه الآراء الكثير من الرسومات، فقد وُجِدَ في مقابر طيبة منظر جميل يُمثل حفلة مأتم الأمير حورمحب، وفيها امرأتان تقدمان للميت أواني معدنية مملوءة زهوراً وعطراً وثلاثة نسوة أُخر ترقصن وتضربن آلات موسيقية، ووجدوا أيضاً رسماً يُمثل النساء راقصات ضاربات على الطبول حِداداً على الميت، وهناك صورة رسمٍ جنائزي مأخوذ من مقابر طيبة يُمثل مجموعة من الراقصات والضاربات على الطبل والعازفات على الآلات الوترية، ورسمٌ آخر للمرأة ترقص وتضرب ربابة مأخوذة من مقبرة في طيبة أيضاً[١٢٧]. كما عُثر في مقبرة (توت عنخ آمون) الشهيرة على آلات سليمة تماماً مُبهرة للدّقة في الصناعة والزخرفة، كذلك عُثر على أبواق، وقد أمكن العزف عليها بالفعل، ويمكن الاستماع إلى تسجيل صوتي لها في البرنامج الغنائي المشهور (خوفو) حيث تمكَّن أحد الجنود الإنكليز في أواخر الأربعينات من القرن العشرين عزف المقدمة الاحتفالية لمقدم الأمير (خوفو) وهو خماسي التركيب[١٢٨]، وقد كانت النسوة المصريات هُنَّ على الغالب اللواتي يقمن بالعزف على هذه الآلات، مما يدل على السوية العالية التي بلغتها نساء مصر عامة ونساء الدولة الحديثة خاصة، ولكن مع انتهاء عصر القوة المصرية وتراجع قوة مصر خاصةً في عصر الانحطاط، كان من الطبيعي أن ينعكس هذا على وضع المرأة، وهذا ما سنراه لاحقاً.

---

[١٢٧] – المصدر نفسه: ص٥٥ – ٥٦ – ٥٧.

[١٢٨] – الخطيب: مصر أيام الفراعنة، مرجع سابق، ص ١٦١.

المرأة المصرية من خلال النصائح والقصائد والأمثال الشعبية

نظراً لمكانة المرأة في مصر وما وصلت إليه من مرتبة سامية، سواء في القصر الملكي أو في أحياء المدينة، ونظراً لإمكانات المرأة في أعين الرجل المصري القديم، فقد أولى لها المصريون، وخاصةً الحكماء منهم، لِما تمتاز به من حنكة وذكاء وتأثيرها على الرجال، مجموعةً من الأمثال الخاصة بها، ومنها نقرأ ما يلي:

- «فلتتبع الابنة أمها كمتابعة ظلها لها» يدلُّ هذا المثل على مدى تأثير المرأة في تربية ابنتها، ووجوب أن تسلك الفتاة مسلك أمها، مما يدل على تقدير دور الأم في التربية.
- «الابنة ثروة مُقلقة من الصعب صيانتها أو إيداعها» مما يدل على الحرص الشديد على شرف الفتاة، وضرورة المحافظة عليه، ولكن هذا قد يبدو صعباً جداً.
- «تتحلى المرأة لزوجها بأعمال يدها وحكمة فمها» ويُعبِّرُ عن مكانة المرأة، ومدى تأثيرها على زوجها.
- «منح الله النساء الحلم والحياء والطهارة لخير العائلة وتربية الأطفال ووهب الرجال قوة الجسد وقوة الإرادة للحكم والتدبير» دليلٌ على الدور الكبير للمرأة في قيادة الأسرة، والذي لا يقل عن دور الرجل في إدارة الدولة.
- «إذا تزوجْتَ فلا تكن بخيلاً، واجعل دائماً امرأتك مسرورة أكثر من كل امرأة».
- «لا تزوج ابنك بمن لا يحبها ولا بالثيب»... (الثيب تعني المتزوجة سابقاً وغير العذراء).

- «إذا كنت عاقلاً فالزم بيتك، وحب زوجتك بإخلاص ولاطفها وأعطها ما تشتهيه من الطيبات ما دمت حياً، ولا تكن شرساً واجذبها إليك باللين، فإن الشدة لا تُجدي نفعاً».

أما الحكيم المصري القديم (آني) فقد أعطى تلميذه (خونسو حتب) حكماً حول المرأة، تعبيراً عن مدى تقدير الشعب المصري للمرأة، يقول له: «إذا كانت زوجتك كاملة مُدبّرة، فلا تعاملها بالخشونة والغلظة وراقب أطوارها لتكشف أحوالها، ولا تتسرع معها في الغضب لئلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع في بيتك فتكون ثمرتها التنغيص، فإن كثيراً من الناس يضعون أساس الخراب في بيوتهم لجهلهم حقوق المرأة». ويقول له أيضاً: «إذا كنت قوي الإرادة، فلا تدع المرأة تتسلط على قلبك». وأيضاً: «إذا وقعت عينك على جارتك، فإياك أن تتمادى أو تتعمد رؤيتها ثانية، واحذر أن تخبر بذلك غيرك فتستوجب الهلاك» وهذا دليل جديد على الحرص على شرف المرأة وعفتها، ويضيف أيضاً: «إياك أن تميل امرأة فتلعب بدينك وشرفك، ولا تحدث ضميرك بشأنها، فإنها كالماء العميق الذي لا يُعرف له قرار، وإذا كاتبتكَ امرأة تعرف أن زوجها غائب عنها لتوقِعكَ في شباكِها، فإياك أن تصبو إليها، لئلا توقِع نفسكَ في حبائل الهلاك، فالشهوات طريق للموبقات».

وفي بردية عثر عليها مكتوبة بالخط الديموطيقي، نجد بعض الوصايا، منها ما يخص النساء، نذكر منها: «لا تعلق قلبك بامرأة تذهب بحياتك» وفي وصية أخرى «المرأة الجميلة توصف بالعقل إذا لم تمل إلى المنكر» وفي وصية أخرى أيضاً «المرأة العاقلة تُسعد زوجها، والمرأة الشريرة تجعله دائماً فقيراً»[١٢٩].

وفي نصيحة لـ بتاح حوتب لابنه، يقول فيها: «إذا كنت ناجحاً وأسست بيتك وكنت تحب زوجة قلبك فاملأ بطنها واكسِ ظهرها... وأدخل السرور على قلبها طوال

---

[١٢٩] – زكرى: الأدب والدين، مرجع سابق، ص٢٧، ٣٧، ٤٥.

الوقت الذي تكون فيه لك، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه... وإن عارضتها كان في ذلك خرابك»[١٣٠]، وهذا دليل آخر على سمو مكانة المرأة عند المصريين القدماء.

كما أن من تعليمات (تاحوتب) من الأسرة الخامسة القديمة، وفيما يخص النصائح الموجّهة إلى رب العائلة، نكتفي بذكر ما يلي: «إذا كنت حكيماً فيجب أن تعتني ببيتك، ويجب أن تعزَّ زوجتك فتغذيها وتلبسها وتمرضها إذا مرضت، ولا تكن قاسياً، كن رؤوفاً مع الخدم قدر استطاعتك، فإن السلام والسعادة لا يحلان في بيتٍ خَدَمَهُ تُعساء»[١٣١].

فيما يذكر د. نعيم فرح قصيدةً عاطفيةً على شكلِ (أغنية الحب) مأخوذة من التاريخ المصري القديم، هي:

يا حبيبتي تعالي إليّ في الحديقة
إن حبيبتي مثل كل زهرة تنفح عطرها
فارعة العود ممشوقة القوام كنخلة بشبابها
وفي كل خدٍ من خديها وردة حمراء[١٣٢].

وفي قصيدة أخرى نقرأ:

هذه النسمات المُقبلة إليّ من أولئك الصبايا!
إنها نسيم الشمال الذي يُحيق بجزر إيجة،
ويمد ذراعيه حتى أطراف البلدين
والليل بانتظام يُعيره فائق عنايته!
هذه النسمات المُقبلة إليّ من أولئك الصبايا!
إنها نسيم الشرق الذي يفتح نوافذ السماء
ويخطُّ الطريق الجميل لـ (رع) وعليه ينتصب

---

[١٣٠] – ديورانت: قصة الحضارة، مجلد١، ج ٢، مرجع سابق، ص ٩٧.

[١٣١] – الخطيب: الخلود في حضارة، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

[١٣٢] – فرح: معالم حضارات العلم القديم، مرجع سابق، ص ٥٠.

فيأخذني (رع) بيدي ويُجلسني بين الخيزران

حيث أرعى كالثور (آبيس) وأشبع مثل (سات)

مُنعِشٌ هو نسيم الشرق وبهِ أعيش![١٣٣]

إن هذا الشعر العذب والمُعبّر عن حالة عاطفية وجدانية، تُعبِّرُ عن فكر جمعي عند المصريين القدماء، يدلُّ أكبر دلالة على سمو المرأة، خاصةً في منظور الحكماء والشعراء، فقد كانت المُلهمة الأولى لهم في شعرهم وحكمتهم وأمثالهم، فالمرأة المصرية معبودة من قبل الرجال لسمو منزلتها ورفعة مكانتها، مُذكِّرةٌ إياهم بعصر مضى، كانت المرأة فيه إلهة تُعبد، ولكنها تركت لهم بذرة العطاء والحب والخير، عبر عددٍ كبيرٍ من الآلهة الأنثى، فهن خير دليل على استمرار قداسة المرأة عند المصريين القدماء، فيكفي أن ننظر إلى مجمع الآلهة عند المصريين، لنرى كم من الآلهة المؤنثة عبدوا، ودور كل واحدة منهن، لنعرف مدى المكانة التي حافظت عليها الإلهة الأم المصرية عبر بناتها الإلهات في عصرٍ حلَّ فيه الذكر مكان المرأة في كل شيء، لكن المرأة المصرية وباعتبارها انعكاساً للإلهة الأنثى، استطاعت أن تستمر بقوة عبر هؤلاء الإلهات، فنرى الرّبة حاتور ربة اللذائذ والحب، والربة إيزيس حامية أوزوريس ورفيقته والرّبة معات ابنة رع هي رمز العدالة والحق، والربة نيت، والربة نخبت إلهة مصر العليا وحامية الأسرة الحاكمة، والرّبة أوتو إلهة الأسرة الحاكمة في مصر السفلى، والربة سخمت إلهة الحرب وشافية الأمراض، والربة سيشار كاتبة السجلات، والربة نوت ربة السماء وكانت تُمَثَّلُ بامرأةٍ عظيمةٍ، وغيرها كثير[١٣٤]، فهل لعصر له هذا الكم الكبير من الإلهات الأنثى أن تُضام فيه المرأة، فإن وجود هذا العدد الكبير منهن، ما هو إلا دلالة على فكر جمعي يُعطي المرأة حقها، ومن ضمنه جعلها إلى جانب الأرباب الذكرية في مصر.

---

[١٣٣] – كوتريل: زوجات الفراعنة، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

[١٣٤] – فرزات: محاضرات في تاريخ الشرق، مرجع سابق، ص١٨٥– ١٨٦.

الزواج السّياسي في مصر القديمة

لقد شاع الزواج السياسي في مصر القديمة، فكثير من ملوك مصر وأمرائها تزوجوا من نساء بابليات وحثيّات وميتانيات وسوريات وغيرهن، بُغية مآرب سياسية، تخدم مصلحة الدولة، ولكن مصر، وحرصاً على نسائها وعلى وضع المرأة العالي فيها، فقد حرص ملوك مصر على عدم إعطاء نساء مصريات إلى ملوك أجانب مع الأخذ بعين الاعتبار وضع المرأة الأجنبية في القصر الملكي تحت المراقبة والخوف منها ريثما يتم التأكد من ولائها الجديد إلى ملوك مصر، فمن المؤكد أن تحوتمس الرابع قد تزوج من أميرة آسيوية هي ابنة ملك ميتاني، ولقد كان زواجه منها زواجاً دبلوماسياً سياسياً، لأن هذا الملك القوي السائد على أعلى الفرات، كان قد تحارب مع تحوتمس الثالث، وقد سمى تحوتمس الرابع زوجته هذه بـ (الزوجة الكبيرة) موتامويا، وهي أمُّ أمنحوتب الثالث، الذي كان أيضاً قد تزوج من (تاج) المرأة التي لا يجري في عروقها الدم الملكي وملامحها تُبعدها عن الأصل المصري وتقربها من الأصل الآسيوي.

وكان الحرم الملكي أيضاً يضمُّ بنات الملوك الأجانب، مثل الأميرة (تاديكهيبا) التي كان والدها الملك الميتاني توشراتا، ولا ننسى أيضاً زوجات رعمسيس الثاني الكُثر، والذي نفترض أن بعضهن كُنَّ قَدِمنَ إلى مصر بمثابة زواج سياسي (مصلحة) هذا الزواج الذي فتح باب مصر أمام معظم أميرات الشرق، كي يتعرفن على مصر ونساء مصر وتَرَفِ نساء مصر.

لقد لعبت نساء مصر، خاصةً في دور الأسرة ١٨ – ١٩ دوراً بارزاً في قيادة البلاد، وفي حبك المؤامرات أيضاً، فنساء قصر الملك رعمسيس الثاني الكُثر غالباً ما كُنَّ يحبكن بعض المؤامرات بُغية الوصول إلى قلب الملك، لكن نفرتاري كانت السيدة الأولى بلا منازع، وللدلالة على عظمة نساء مصر سَنُفرِدُ ترجمةً لبعضهن.

نساء عظيمات في مصر

الملكة حتشبسوت (١٤٩٠- ١٤٦٨ق. م)

كانت الملكة حتشبسوت من أعظم الملكات في تاريخ مصر القديم، فقد حققت إنجازات كبيرة أثناء تسلمها عرش مصر. ولدت حتشبسوت لوالدين ملكيين هما – الأب وهو الملك تحوتمس الأول ١٥٢٨ – ١٥١٠ ق.م وهو ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة العِظام ومؤسسها، أما الأم فهي **الملكة أحمس**، الزوجة الشرعية الملكية، التي لم تُنجب ذكوراً، وإنما أنجبت حتشبسوت، لذلك تزوج تحوتمس من زوجة ثانوية هي (موت نفرة) التي أنجبت له تحوتمس الثاني ١٥١٠ – ١٤٩٠ ق.م ملك المستقبل، الذي تزوج أخته غير الشقيقة حتشبسوت كي يكتسب الشرعية منها، لأن الشرعية في مصر كانت تأتي من الأنثى التي أخذتها من الإله، فقد حفظ معبد الدير البحري الذي بنته حتشبسوت إبداعاً لفنان في وصفها من خلال تصوير قصة ولادة الملكة من الإله (آمون رع).

وبعد موت تحوتمس الثاني عام ١٤٩٠ ق.م تولّت حتشبسوت الحكم لمدة ٢٢ سنة من عام ١٤٩٠ – ١٤٦٨ ق. م، وكانت قد أنجبت ابنة اسمها (نفرو – رع) ولم تنجب ذكراً، فيما أنجب تحوتمس الثاني من زوجة أخرى اسمها إيزا ابنه تحوتمس الثالث الوريث الشرعي لوالده تحوتمس الثاني، فحكمت حتشبسوت نيابة عنه ولكن باسمها هي، فكانت ترتدي زي الملوك، وتتخذ لنفسها كل الألقاب الملكية، وتستخدم ضمير المذكر في كل النصوص التي تتعلق بها[١٣٥].

هذا ما زاد الصراع بين حتشبسوت وأتباعها من جهة، وبين تحوتمس الثالث ومناصريه من جهة أخرى، فقد كان لكلٍّ من الحزبين مناصروه وفلسفته الخاصة

---

[١٣٥] – الموسوعة العربية، المجلد الثامن، ص ٣٩.

بالنهوض بمصر وهدفه من الوصول إلى السلطة، فقد رأت حتشبسوت وحزبها أن سيادة مصر على ما سواها، تكون بالسمو الثقافي والازدهار الاقتصادي، وليس عن طريق الجيوش وتحقيق السيطرة العسكرية، أما فلسفة تحوتمس الثالث في السلطة فتتلخص بأن سيادة مصر على سواها، تكون بالقوة العسكرية والتوسع على حساب أراضي الشعوب المجاورة.

قامت حتشبسوت بإنجازات هامة منها: ترميم المعابد المصرية وإقامة معابد جديدة للإله آمون في الكرنك وفي مناطق أخرى من مصر، لكن أجمل ما أنجزته هو معبدها معبد الدير البحري الرائع. وفي عام ١٤٦٨ ق.م استطاع كهنة آمون ومن ورائهم ضباط الجيش تنصيب تحوتمس الثالث ملكاً على مصر ١٤٦٨ - ١٤٣٦ ق.م بعد صراع على السلطة دام ٢٢ سنة، فقام تحوتمس الثالث بإزالة اسم حتشبسوت من معبد الدير البحري الجميل، وكذلك عن كثير من آثار مصر، لذلك لم يُذكر اسم حتشبسوت في قائمة الملوك في العصور التالية[١٣٦]، وقد ضمَّ تحوتمس الثالث فترة حُكمِها إلى فترةِ حُكمهِ.

الملكة تاج

وهي زوجة أمنحوتب الثالث، كما أنها غير (تي) زوجته المصرية، لأن تاج لا يجري في عروقها الدم الملكي، وملامحها تُبعدها عن الأصل المصري وتقربها من الأصل الآسيوي، والمُرجَّح أنها من دم نوبي، لم تكن هذه الملكة ذات جمال كلاسيكي، لكنها كانت ذات جاذبية كبيرة وذكاء حاد، مما دفع زوجها إلى وضع اسمها إلى جانب اسمه على كل الكتابات والوثائق الهامة ضارباً عرض الحائط بعرف الذين سبقوه هازئاً منهم، ولم يخجل من أصلها غير الملكي، بل كان يُعلنه ويتباهى به

---

[١٣٦] – جاردنر، سير ألن: مصر الفراعنة، مطبعة كلارندون، ١٩٦٠م، ص ١٤٢، ١٤٣، ٢٠٥.

دلالةً على مكانتها لديه وسيطرتها على الحكم، ففي كتابة على (جعران مقدس) وزَّعه في أول عهده على سائر مناطق الريف كرسالةٍ إعلاميةٍ كتب عليه عدا اسمها، اسم والديها أيويا وتحويا، مُجردين من أي لقب مضيفاً: «إنها الآن زوجة الملك الجبار» الذي تمتد مملكته من (كاري) في شمال السودان، حتى (نهارين) في آسيا الغربية[١٣٧].

الملكة نفرتيتي

عندما نتكلم عن نفرتيتي*، فإننا نتكلم عن الشّعرِ والخيال والموسيقى والحكمة العالية والفلسفة العميقة والمغامرة والحب والتضحية والسخرية من القديم، تلك هي الأسس التي قامت عليها حياة نفرتيتي وزوجها أخناتون (أمنحوتب الرابع). لقد اختلف المؤرخون في أصل هذه الملكة، فمنهم من يذكر أنها أخت الفرعون أخناتون وابنة الملكة (تي) وآخرون يرون أنها من أصل سوري، فهي أميرة سورية اختارتها الملكة (تي) لابنها، ويبتعدون أكثر من ذلك عندما يقررون أن الملكة (تي) نفسها هي من أصل سوري. لقد استطاعت نفرتيتي أن تستحوذ على قلب أخناتون، الذي وجد في حبيبته الأنوثة الكاملة، ووجدت فيه الرجل المثالي، فعقد الحب بينهما برباطه المقدس وتكللت حياتهما بالسعادة والفرح. لقد سجل الفرعون الشاب أول وحدانية امتازت بطوابع لم نعرفها إلا عنده وحده وبإيحاء من الفاتنة الحبيبة زوجته (نفرتيتي) التي كانت تُشجعه على الخطوات التي يقوم بها[١٣٨].

وقد اشتد الصراع بين الإله الملك أخناتون وبين الإله آمون رع، فانهزم رع وجلس أخناتون على عرش مصر، وقال أن الإلهة الوحيدة المعبودة هي الشمس،

---

[١٣٧] – كوتريل: زوجات الفراعنة، مرجع سابق، ص ٩٠.

* – كلمة نفرتيتي تعني جاءت المرأة الجميلة.

[١٣٨] – ديوان، عبد الحميد: موسوعة أشهر النساء في التاريخ القديم – منذ فجر التاريخ حتى العصر الجاهلي، دار كتابنا للنشر، لبنان ٢٠٠٩م ط١، ص ٦٠، ٦٤، ٦٥.

وكانت محاولة لاستعادة وحدانية الإلهة الأم الكبرى، وربما كانت نفرتيتي هي التي تحكم، وربما أم اخناتون الملكة (تي)، لكن، وفي نهاية المطاف، فقد انهزم أخناتون ومعه نفرتيتي هزيمةً كُبرى على يد الآلهة الذكور[١٣٩]. وهناك كثير ممن يعتقدون أن فكرة التوحيد، قد جاءت بها نفرتيتي وتبناها أخناتون، ففي عصر الأسرة الحديثة في مصر (عصر القوة) كانت نساء القصور هُنَّ من يدير دفَّةَ الحكم من وراء ستار، أي أن عصر قوة مصر ارتبط بحكم النساء.

لقد كانت نفرتيتي الجميلة دائماً إلى جانب زوجها لا تفارقه لحظة، وكان هو مُتمسكاً بها يذكرها في كل مناسبة، لقد كانت صاحبة الأثر في دعوته وصاحبة التأثير عليه، فكانت تصبغ على حياته جواً من الهدوء والحب والحنان، جعله يحبها ويستكين إليها، فكانا الصورة الرائعة للزوج البار والزوجة الوفية الطّيبة، هذه هي الصورة التي تجلّت في ذلك العصر، وهذه هي نفرتيتي الملكة العظيمة التي غيرت بفطنتها وذكائها وجه التاريخ في مصر فترة من الزمن.

الملكة أنخسنامون (عنخس- آن - با- آتن)

هي ابنة أخناتون وزوجة توت عنخ آمون، الذي حكم مصر بعد سمنخ كارع، لكنه لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره حين وفاته، ومع ذلك فقد حكم مصر مدة ثماني سنوات، وهذا يعني أنه كان مُجرَّد طفل حين اعتلى عرش مصر، وقد نسب البعض توت عنخ آمون إلى أخناتون، أي هو ابن أخناتون، لكن من زوجة أخرى غير نفرتيتي، وربما كانت والدته هي **الملكة كايا** وهي الزوجة الثانية لأخناتون[*]، وتشير

---

[١٣٩] - السعداوي: المرأة والدين، مرجع سابق، ص ٢٢ - ٢٣.

[*] - ربما كانت محظية أو زوجة من الدرجة الثانية.

أحد النقوش على أن أمه كايا ربما ماتت أثناء ولادته، وقد قامت المرأة (مايا) بإرضاعه وتربيته.

لقد أخذ الملك الشاب منذ بداية حكمه بالتقرب من كهنة آمون فغير اسمه من (توت عنخ أتن) إلى (توت عنخ آمون) وكذلك فعلت زوجته الشابة الصغيرة، ثم أخذ بالتشهير بأخناتون وديانته إرضاءً لكهنة آمون، وبعد وفاة توت عنخ آمون بعثت أرملته أنخسنامون برسالةٍ إلى الملك الحثي شوبيلوليوما – حسب المصادر الحثية – تطلب منه أن يبعث أحد أولاده ليكون زوج الملكة*. وبعد ترددٍ بعث الملك الحثي بأحد أولاده طامعاً بعرش مصر لولده، ولكن كُمِنَ له في الطريق وقتل[١٤٠].

لقد كانت أنخسنامون امرأة جميلة فاتنة، وإذا أجزنا لأنفسنا أن نحكم عليها من خلال الرسوم التي تظهر بها في قبر زوجها توت عنخ آمون، فهذه الرسوم توحي بأنها كانت امرأة مُخلصة لهذا الزوج الذي كانت تكبره بقليل، إلا أنهما كانا شابين وقد تزوجا قبل أن يبلغا العشرين من عمريهما، كما أن رسوم هذين الزوجين على بعض الأدوات تدلُّ على أن عيشتهما كانت رغيدة وزاهية ومفعمة بالعاطفة الجنسية تماماً كما هو منتظر أن تكون حياتهما فيما لو عاشا في بلاط العمارنة حيث ترعرعا.

الملكة نفرتاري

كُنّا دائماً نجد إلى جانب تماثيل الملك رعمسيس الثاني تماثيل زوجته نفرتاري◆ بثوبها المُلتصق بجسدها وبشرتها الناعمة، ونهديها المشرئبين، وذقنها الصغيرة المرتفعة بعنجهية ووجهها ذي القسمات الدقيقة.

---

* – وهذا دليل آخر على أن الشرعية تأتي من الأنثى.

١٤٠ – أحمد، محمود عبد الحميد: دراسات في تاريخ مصر الفرعونية، دمشق ٢٠٠٢– ٢٠٠٣م، ص ٢٠٠ – ٢٠١.

◆ – (نفرتاري – ميري – أنموت)، وهو اسمها الكامل، ويعني: الرفيقة الجميلة.

ورغم أن رعمسيس كان له العديد من الزوجات ما يعادل فرقة من السراري، لكن نفرتاري بقيت دائماً حاضرة في آثاره، رغم وجود تصريح على لسان زوجها بأن له أولاداً من **الملكة (إيزينوفر)** ومجموعة من الزوجات الكبيرات، ومن الممكن أن تكون المكانة الرفيعة التي أُعطيت لنفرتاري سببها أن رعمسيس عن طريقها حصل على حقوق الشرعية لاعتلائه العرش، لكن لا يوجد دليل على ذلك[١٤١].

ومن المؤكد أن مكانة نفرتاري الكبيرة، جاءت في مشاركتها لزوجها في الحكم، فبعد معركة قادش مع الحثيين ١٢٨٥ ق. م، وتوقيع المعاهدة بين الطرفين المصري والحثي، حيث سادت علاقات طيبة بين مصر وخيتا (عاصمة الحثيين) وتبادلت الأسرتان الملكيتان الرسائل لتدعيم الصداقة بين الطرفين، فقد عُثر في (بوغازكوي) الاسم الحديث لـ (خيتا) على جزازات تتضمن التهاني بمناسبة قيام معاهدة السلام موجهة إلى خاتوشيل (الملك الحثي) من زوجة رعمسيس الرئيسة ومن أمه تويا ومن ابنه (ستخي خوبش إف)، وقد عُثر على ما يُقارب من ثماني عشرة رسالة مُرسلة من رعمسيس الثاني إلى الملك الحثي، كما عُثر على ما يماثلها مُرسلة إلى الملكة الحثية بودوخيبا. ولتقوية الصلات وتدعيم السلام بين البلدين، فقد تزوج الملك رعمسيس الثاني في العام الرابع والثلاثين من حكمه، ابنة الملك الحثي التي مُنحت لقب (ما حور نفرو رع) أو (مانفرورع) وقد سُجلت أحداث هذا الزواج في الكرنك[١٤٢]، ومما لا شك فيه أن نفرتاري كانت امرأة تستحق الاحترام وإلا لما تمكنت من أن تحتفظ بحبها لزوجها المُحاط بالمُنافِسات المتنوعات، فرعمسيس الثاني كان زير نساء وقصره مليئاً بالمؤامرات الأنثوية، لكن نفرتاري ورغم أهميتها، فإنها لم تحظَ بمنصب الملكة الأم!!.

ولا ننسى أيضاً أن قصور مصر كانت تعجُّ بالنساء الأجنبيات، فمن الأميرة الميتانية (موتم ويا)، ابنة أرتاتاما وزوجة تحوتمس الرابع وأم أمنحوتب الثالث الذي تزوج ابنة الملك الميتاني شوتارنا المُسماة جيلوخيبا والتي أحضرت معها إلى مصر

---

[١٤١] – كوتريل: زوجات الفراعنة، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

[١٤٢] – أحمد: دراسات في تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ٢١٢ – ٢١٣.

حاشية مؤلفة من ٣١٧ امرأة بين وصيفة وخادمة، وكذلك تزوج أمنحوتب الثالث أيضاً من ابنة ملك ميتاني الأخرى المُسماة تادوخيبا وغيرها كُثر ممن كُنَّ نساء حاكمات في قصور الملوك، خاصةً في عصر الأسرة الثامنة عشرة، الذي سُمِّيَ عصر طغيان النساء إضافةً إلى عصر الزواج السياسي بامتياز، والذي انتهى مع انتهاء هذه الأسرة الشهيرة في تاريخ مصر.

وهكذا نرى كيف كانت نساء مصر يتفوقن على نساء عصرهن، فهن جميلات ولهن حقوق عند أزواجهن ويرثن من آبائهن ولهن دور كبير في قيادة المنزل ويحق لهن العمل خارجه، وهذا ما أكده هيرودوت الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد أبدى دهشةً بالغةً عندما رأى الرجال ينسجون الكتان في المنازل، بينما تقوم النساء بشراء الحاجيات من الأسواق والبيع والشراء والعمل في الحقول، وكأن الدنيا في رأيه انقلبت رأساً على عقب، فيقول: «مصر تحوي العجائب... لذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم، فالنساء عندهم يرتدن الأسواق ويُمارسن التجارة، أما الرجال فيبقون في البيوت وينسجون»[١٤٣].

لقد استطاعت نساء مصر المحافظة بكل تأكيد على دور بارز ومتقدم للنساء في عصرٍ تراجعت فيه معظم نساء العالم ليقفن خلف الرجال، فيما نرى نساء مصر قد تصدَّرن الرسوم الجدارية، وهن يرقصن ويغنين وينشدن الأناشيد ويعزفن على الأوتار ويضربن على الطبل وتُقام لهن التماثيل أسوة بالرجال والملوك، وتُقام لهن أيضاً القبور، ففي وادي الملكات وُجِدَ حوالي ٩٨ قبراً نسائياً مما يدل على المكانة الرفيعة التي وصلت إليها نساء مصر، مع اعترافنا بوجود نسبة كبيرة من النساء المصريات اللائي كن يعشن بظروف صعبة وغير مناسبة، ولكن هذا أمر طبيعي، ففي كافة العصور السابقة واللاحقة لم ولن نرى النساء بسوية واحدة، لكن ميزة نساء مصر هي الوضع العام الجيد للأنثى، قياساً بعدد محدود للنساء اللواتي كن يعشن

---

[١٤٣] – سارة، خليل: تاريخ الإغريق، دمشق ٢٠٠٦ – ٢٠٠٧م، ص ٥١٢.

بظروف أقرب ما تكون للعبودية، فقد كان في مصر طبقة من العبيد لكنها محدودة قياساً بالمجتمعات الأخرى، فهذه ظاهرة لم ولن تخلو منها كافة العصور حتى أكثرها رقيّاً.

كما إننا نقول بأن وضع نساء مصر لا بد وأنه قد تراجع في السنوات التي رزحت فيها تحت الاحتلال الأجنبي، الآشوري ومروراً بالفارسي وانتهاءً باليوناني (المقدوني) ومن ثم الروماني، وهذا أمر طبيعي لـ نساء يرزحن تحت نير الاحتلال.

المرأة في السّودان

في سياق الحديث عن نساء مصر، اللواتي شكلّن ذروة نساء وادي النيل من حيث المكانة والرفعة، لا بدَّ وأن نتذكر أن نساء السودان أيضاً اللواتي كن يعشن إلى الجنوب من نساء مصر، استطعن أن يصِلْن إلى سُدّة الحكم، مما يدل على مكانة رفيعة للمرأة في السودان، خاصة في عصر مملكة ميروي التي اكتشفت عام ١٨٢٤م حيث بنى سكان هذه المملكة العديد من الأهرامات للملكات السوداوات، من أجل دفنهن كما كان يجري لملوك مصر، فقد كانت للملكات السوداوات سلطة تساوي سلطة الرجال أو سلطات الملوك، وقد تمَّ التعرف – حتى الآن – على حوالي ثماني ملكات على الأقل، وهذا أمر ملفت للنظر، وقد اشتهرت منهن الملكة **(أماني شاكيتو)** التي حاربت جيوش الرومان ما بين ٢٥ – ٢٦ ق. م، وقد وجد في هرم أماني شاكيتو كنز عظيم مؤلف من ٦٧ خاتم ذهبي وكمية كبيرة من الأحجار الكريمة المرصعة. ونذكر من الملكات السوداوات أيضاً الملكة **(أمانا كارتارام)** والملكة **(أماني توري)** التي حكمت في بداية القرن الأول الميلادي وكان زوجها يدعى (ناتا كاماني).

لقد حاربت الملكات السوداوات كالرجال في ساحة القتال، حيث بينت النقوش ذلك، فقد كنّ يقمنَ بحركات تشبه حركات الرجال، وهذا يدل أيضاً على أن المرأة في مملكة ميروي تمتعت بمكانة عالية، وإلا فما دليل وصول ثماني ملكات إلى سدة الحكم في هذه المملكة[١٤٤] إلا وجود مكانة عالية للمرأة في وادي النيل عامة، ومنذ القدم.

وللتأكيد على ذلك فقد ذُكِرَ أنه عندما وصلت الحملة الشهيرة التي أرسلتها الملكة حتشبسوت المصرية إلى ساحل البونت* أنها أكدت على أن ملكة البونت كانت

---

[١٤٤] – الجزيرة الوثائقية: برنامج تلفزيوني، أسرار ملكات النيل، بتاريخ ١٢-٣- ٢٠٠٩ م.

* – وهي مناطق الصومال الحالية وجنوب شبه الجزيرة العربية.

امرأة ضخمة وسمينة[١٤٥] تدعى (**الملكة آني**) حيث قابلتهم مع زوجها الأمير باريهو ومعهما ابنتهما وولداهما مقابلةً وديةً للغاية[١٤٦]، وليس بخافٍ على أحد أن وجود ملكة تحكم البونت – ومن خلال ما مرَّ معنا – لخير دليل على مكانةٍ جيدة للمرأة هناك.

[١٤٥] – المصدر نفسه: مصر الذهبية.

[١٤٦] – عاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، سلسة تاريخ العرب والإسلام (١)، ص ٨٢.

الفصل السّابع

المرأة العربية في شبه جزيرة العرب

منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد وحتى ظهور الإسلام

مقدمة تاريخية وجغرافية

تُعدُّ شبه الجزيرة العربية بمضمونها الجغرافي القديم، مهداً لأهم الديانات السّماوية التوحيدية، ومصدر أصل، انبثقت عنه الحضارات بتراثها السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي، الأمر الذي جعلها موضوع عددٍ كبيرٍ من الدراسات التي قام بها علماء الآثار والتاريخ منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى الآن، لكن هذه الدراسات لم ترق إلى حجم الدراسات التي حصلت في مصر وبلاد الرافدين، مما أدى إلى حصول فجوة في حجم المعلومات المعروفة ما بين بلاد الرافدين والنيل من جهة ومن شبه جزيرة العرب من جهة أخرى، وقد انعكس هذا الشيء على نقص المعلومات بشكل عام خاصة على المستوى الاجتماعي لسكان شبه جزيرة العرب وبالتحديد في العصور التاريخية ما قبل الميلاد وحتى ما قبل الإسلام، مع التأكيد على أن المعطيات الوثائقية التي تبحث في وضع المرأة فيما سُمِّيَ بالعصر الجاهلي ضئيلة شأنها في ذلك شأن المعطيات الوثائقية عن التاريخ العربي القديم بمجموعه.

كما أن التحريات والكشوف الأثرية في ميدان هذا التاريخ لا زالت بطيئة ومحدودة وبالتالي غير قادرة على ربط المتناثر من المعلومات المتوفرة ربطاً يكوِّن به معالم الهيكل العام للتاريخ، فما بالك بتحرك المرأة وتطورها ضمنه وخلال عشرين قرناً تقريباً؟. ولأن دراسة تاريخ أي منطقة تقتضي منّا معرفة جغرافية وبيئة هذه المنطقة، لذا سنورد وصفاً مُبسطاً عن بيئة شبه جزيرة العرب، ومن ثم تاريخها.

يحدُّ شبه جزيرة العرب من الشرق الخليج العربي وبحر عمان، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب المحيط الهندي (بحر العرب) ومن الشمال وادي الفرات،

وتختلف طبيعتها باختلاف أجزائها، فبعضها تُغطيه كثبان رملية وبعضها تكسوه الصخور، وبعضها الآخر منخفض أو مرتفع، وتمتد على طول ساحل البحر الأحمر سلسلة جبال السراة، وفي وسط الجزيرة جبال أجّا وسلمى، وفيها الصحاري المتعددة والمتنوعة، وقد قسَّم الأولون الجزيرة انطلاقاً من الوضع السياسي في القرن الأول للميلاد إلى ثلاثة أقسام هي: بلاد العرب السعيدة (اليمن) والقسم الصخري في الشمال والقسم الصحراوي حيث القبائل الغالب عليها حياة البدو، أما جغرافيو العرب فقد قسَّموها إلى خمسة أقسام كبرى، هي: الحجاز وتهامة واليمن وعروض ونجد. ويختلف مُناخ شبه الجزيرة باختلاف الأقسام الجغرافية فيها، وبما أن معظم أراضيها بادية كان الغالب عليها الجفاف وعدم انتظام مواسم الأمطار مع عدم الاحتفاظ بهذه المياه في مجاري منظمة ودائمة. والحرارة مرتفعة بوجهٍ عام وهي عُرضة للتقلبات، ليس بين الصيف والشتاء بل وفي اليوم الواحد بين الليل والنهار. وتُعدُّ شبه جزيرة العرب من البلاد الفقيرة بالمياه عموماً، حيث لا يوجد فيها نهر واحد دائم الجريان، وتختلف النباتات باختلاف التضاريس والتربة وكمية الأمطار، لذا فهي تتركز في الغابات والأحراج وسفوح جبال السراة وحضرموت وظفار ووديان الجبل الأخضر في عُمان، وتتقلص كلما اتجهنا باتجاه الصحاري.

هذه الظروف جعلت لشبه جزيرة العرب خصوصية تختلف بها عن باقي المناطق، مما أثّر على حضاراتها المتعاقبة من خلال البنيان المعماري والسلوك البشري وتركيبة السكان الداخلية وتعامله مع جيرانه، كذلك أثرت على عقلية الرجل والمرأة والفكر والمعرفة المعمول بها، ونمط الحياة والهجرة والتجارة والتّوجه الديني والعقائدي، وكذلك كان لها أثرٌ كبير على المرأة موضوع بحثنا.

أما عن تاريخ شبه جزيرة العرب، فقد قامت في هذه الجزيرة عدة دول وممالك، معظمها نشأ في جنوبها، بسبب توافر الظروف المُناخية المناسبة لقيام الدول ونشوء الحضارات. فقامت مملكة معين ما بين ١٣٠٠ – ٦٣٠ ق.م وكانت عاصمتها قرناو، وهي من أقدم الممالك العربية التي قامت في اليمن، وبعدها قامت مملكة حضرموت

ما بين ١٠٢٠ – ٢٩٠ ق.م وعاصمتها القديمة ميفعة ومن ثم العاصمة الجديدة شبوة، ثم قامت مملكة قتبان ما بين ١٠٠٠ – ٥٤٠ ق.م وعاصمتها تمنع، ثم قامت المملكة السبئية ما بين ٨٠٠ – ١١٥ ق.م التي تُعدُّ من أقوى وأهم ممالك عرب الجنوب وأشهرها، فقد ورد ذكرهم عند الآشوريين، كما أنهم مارسوا الزراعة والتجارة، فقد وصلت قوافلهم إلى بلاد الشام ومناطق أخرى كثيرة، وكانت عاصمتهم مأرب، وقد جعلوا من قصر سلحين مقاماً ومستقراً لهم، ثم جاءت المملكة الحِميَرية الأولى ١١٥ ق.م – ٣٠٠م والتي تُضاف إلى تاريخ المملكة السبئية، وفيها تم ضم ريدان (ظفار) إلى تاج سبأ، وأصبح ملك سبأ يلقب بـ (ملك سبأ وذي ريدان)، ثم المملكة الحِميَرية الثانية بين ٣٠٠– ٥٢٥م، وهي العصر الرابع من مملكة سبأ، وفيها أصبح الملك يلقب بـ (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) دلالة على توسع المملكة، والتي كانت العاصمة خلالها (ذمار) وقد سُمِّيت صنعاء فيما بعد. في هذا الدور غزا الأحباش اليمن كردِّ فعلٍ للغزو الذي قام به ملوك حِمير للسواحل الشرقية للحبشة، وقد تمكن الأحباش من حكم اليمن ما بين ٣٤٠ – ٣٧٨م وقد ذكر المؤرخون أنه في عهد شرحبيل يعفر تم ترميم سد مأرب الذي بناه من قبل (ذمر علي وتر) في أثناء حكم المملكة السبئية، وكان قد تصدع، إلا أن هذا العمل لم يجد نفعاً، فقد تخلخل السد بعد ترميمه بعام واحد سنة ٤٥٠م مما أدى إلى فرار الكثير من سكان المنطقة إلى الجبال، وكان السد قد تهدم فيما بعد في القرن السادس الميلادي.

لقد كان ذو نواس هو آخر ملوك حمير، ويسجل نهاية حكمه سقوط المملكة الحِميرية على أيدي الأحباش ثانية عام ٥٢٥م الذين استمر حكمهم حتى عام ٥٧٥م، ليبدأ بعدهم حكم الفرس ما بين ٥٧٥م وحتى قيام الإسلام وانتشاره.

أما في الشمال، فقد قامت عدة ممالك، سُمِّيت بممالك كندة ما بين القرن الأول للميلاد والقرن الخامس الميلادي وكانت عاصمتهم الفاو، التي ارتبطت بتاريخ أشهر ملوكها حجر بن عمرو (آكل المرار) والحارث بن عمرو أقوى ملوك كندة ومن بعده حجر بن الحارث والد امرئ القيس الشهير.

كذلك قامت مملكة الأنباط في الشمال، إضافة إلى حكم قبيلة قيدار والتي سنأتي على ذكرها فيما بعد.

أما الحجاز فقد اكتسب أهمية دينية واقتصادية خاصة بين أقاليم الجزيرة العربية، فالأهمية الدينية لوجود الكعبة فيها، والاقتصادية بسبب مرور التجارة العالمية في أراضيه، كان له الأثر الفعّال في الحياة الاجتماعية والسياسية، فازدادت القبائل العربية في الحجاز تقارباً وتآلفاً، وارتبط الكثيرون من سكان الحواضر والبادية بالعملية التجارية، وانقسمت قبائل الحجاز آنذاك حسب نوع العمل إلى قبائل بدوية متجولة وقبائل فلاحيّه مستقرة مارست الزراعة (المدينة المنورة) وقبائل اعتمدت التجارة أساساً لحياتها المعيشية كقبيلة قريش في مكة المُكرمة[١٤٧].

[١٤٧] – زكار، سهيل، وشكران خربوطلي: تاريخ الوطن العربي القديم – الجزيرة العربية، دمشق ٢٠٠٢، ٢٠٠٣ م.

المرأة العربية في اليمن

لقد سُمِّيتْ بلاد اليمن ببلاد اليمن السّعيدة، دلالة على مدى التقدم الحضاري الذي شهدته هذه البلاد، خاصةً في ظل حكم مملكة سبأ القوية، التي استطاعت أن تمدَّ نفوذها إلى مناطق أبعد بكثير من سابقاتها وخاصة في الحجاز، حيث وصل نفوذها إلى شمال الحجاز ما يسمى اليوم بالأردن. وقد حاول ملوك سبأ السيطرة على البحر الأحمر مما أدى إلى دخولهم في صراع مع الأحباش، وقد انعكس هذا الوضع، وخاصة السيطرة على الطرق التجارية على الوضع الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، إضافة إلى البيئة الجبلية لليمن وإشرافها على البحر الأحمر والمحيط الهندي، مما أدى إلى ارتفاع الوضع المعاشي فيها وتجلى هذا في العمارة والقصور الشاهقة التي بنيت في اليمن، وانعكس أيضاً على المرأة اليمنية، التي كانت تحظى بمكانة عالية فاقت معظم شقيقاتها بالرغم من المجتمع الطبقي في اليمن والأسر الحاكمة فيه، كما أن المرأة اليمنية – خاصة الحرة – كانت تحظى بمكانة رفيعة المستوى، أكَّد على ذلك الكثير من النقوش التي عُثر عليها في اليمن، وكذلك بعض الرسومات التي تدل على أن المرأة اليمنية كانت تعيش بحالة جيدة، وذلك من خلال قيامها ومشاركتها بالغناء وعزف الموسيقا والرقص أسوة بنساء مصر اللواتي وصلن إلى أعلى المراتب كما رأينا سابقاً، وهذا يدل على أن المرأة اليمنية كانت تعيش بوضع جيد، إضافة إلى وجود الجواري والعبدات كظاهرة عامة في كافة المجتمعات وفي معظم مراحل التاريخ كما رأينا سابقاً.

إن وجود الفوارق الطبقية في اليمن جعل من المرأة التي تعيش في أسفل السلم الاجتماعي تُعاني من الفقر وربما انعكس ذلك في معاملة الرجل السيئة لها فأصبحت تُعاني القهر الاجتماعي والقهر المنزلي، ولربما جعلها البعض مصدراً للسعادة الجنسية أو كسلعة تُباع عند الضرورة، إلا أن خير دليل على وضع المرأة الجيد بشكل عام في اليمن هو قبول هذا المجتمع فكرة حكمه من قبل امرأة، وقد تجلى هذا بالملكة بلقيس

التي ذاع صيتها بجمالها الساحر وحكمتها وعقلها الراجح، فقد كانت سيدة المملكة السبئية، ولأهميتها التاريخية سنفرد لها أسطراً خاصة بها لتميزها:

الملكة بلقيس

على الرغم من الدراسات التي تحدثت عنها والتي ذهب البعض فيها إلى اعتبار هذه الشخصية شخصية أسطورية، إلا أن شخصية بلقيس تبقى من الشخصيات الإشكالية في التاريخ لِما لها من ذكرٍ في الكتب المقدسة وخاصة (التوراة) وعلاقتها مع الملك سليمان ومحاولة النيل من مكانتها وتقليل هيبتها – التي لنا وجهةُ نظرٍ خاصةٍ فيها – وصولاً إلى اختلاف زمن حكمها بالتحديد، وعدم ذكر اسمها في قوائم ملوك اليمن، ووصولاً أيضاً إلى الآراء التي تُثبت وجودها بشكل أكيد. ويبقى السؤال الأهم، هل بلقيس حقيقة أم أسطورة ؟؟ فهذا ما لم تؤكده الأبحاث والدراسات بشكل موثَّق وأكيد، فليس هناك دراسات أثرية أثبتت وجود هذه الشخصية ولا تاريخ حكمها ومع ذلك فإن الكثير من الكلام قد قيل عنها، وهناك الكثير من الأخبار الواردة عنها على صفحات الكتب وخاصة المقدسة، مما يؤكد وجود هذه الملكة ورمزيتها.

إن اسم بلقيس ليس اسماً عربياً، ويمكن أن يكون بلقاء، والبلقاء صفة مؤنثة لبلق، وهي اسم ممنوع من الصرف، والبلق هو سواد وبياض، ولا توجد في معاجم اللغة العربية مادة بلقس، وبلق، وقد ذكرها الطبري باسم بلمقة وابن الأثير باسم بلقمة وهي تسمية مُحرَّفة عن البلقاء العربية الأصل، كما ذكرها يوسيفوس باسم (نوفاليس) وهي تسمية مُحرَّفة عن اسم نوفلة أو نوفل، أما الأحباش فقد سموها (ماقدة)، وقد أورد ذكرها القرآن الكريم بأنها ملكة تحكم سبأ، لكنه لم يذكر الاسم ولم يحدد مكانها[١٤٨].

[١٤٨] – همّو، عبد المجيد: بلقيس بين الأسطورة والخيال، دمشق ١٩٩٢م، ط١، ص ١٢، ١٣، ٢٨.

لقد اشتهرت دولة سبأ في التاريخ بعاصمتها مأرب وسدِّها الشهير، لكن كلمة سبأ ارتبطت باسم ملكتها بلقيس التي عاصرت النبي سليمان الحكيم، وهذه الأسطورة تقول أنها دخلت في دينه فأصبحت زوجته؟. ولا مجال لذكر هذه الأسطورة في بحثنا لعدم ثبوتها.

كانت بلقيس على درجةٍ عاليةٍ من الجمال وذات تدبير وحكمة وتَبصُّر، وقد قامت على إدارة دولتها كما يقوم الملوك العِظام، فرممت سدَّ مأرب، وبنت الصرح الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، كما بنت قصر بلقيس في مدينة مأرب والذي وصل إلى حوالي ١٠ طبقات، وأقامت فوقه مجلساً من الرخام المُلوَّن، يعلوه سقف من رخامة واحدة شفافة، وفي كل من أركانه كان هناك أسد منحوت من الحجر[١٤٩].

وهناك بعض الدراسات الحديثة التي أجمعت بدون تأكيد مادي على أن بلقيس ملكة اليمن، كانت من ملوك سبأ الشمال، وليست من ملوك سبأ الجنوب، أي أن موطنها هو نجد أو الحجاز، والذي يؤكد ذلك – بالنسبة لهم – هو أن تسمية بلقيس بإرجاعها إلى أصلها العربي، هي تسمية حجازية شمالية، وسواء كانت التَّسمية بلقاء أو (بعل قيس) فإنها لا تمتُّ إلى عرب الجنوب بتاتاً، إلا أن الحكم النهائي على بلقيس يبقى جائراً، ريثما يُكتشف ما يُنير الحقيقة عنها، لكن لا بدَّ من القول: أن بلقيس كانت على الأغلب ملكة عربية حقيقية حكمت في القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد على الأغلب.

---

[١٤٩] – البوّاب، سليمان بن سليم: مئة أوائل من النساء، دار الحكمة، دمشق ١٩٩٢م، ط ٣، ص ٣٩ – ٤٠.

المرأة العربية في ((العصر الجاهلي)) وما قبله

بالاتجاه شمالاً فإننا نصل لمعرفة أوضاع المرأة بشكل عام في شبه الجزيرة العربية، خاصةً في الفترة ما بين القرن التاسع قبل الميلاد وحتى دخول الإسلام في القرن السابع الميلادي، مع عدم التركيز على وضع تاريخ مُحدد، وذلك لصعوبة تحديد هكذا تواريخ في منطقة كشبه الجزيرة العربية، مُكتفين بذكر أوضاع المرأة مع العودة بين الحين والآخر لليمن للاستشهاد بوضع المرأة فيها، كما أننا نؤكد على عدم وجود أي دراسات أو أبحاث تُعطينا فكرةً واضحة المعالم عن أوضاع المرأة في الألف الثاني قبل الميلاد، لكننا نؤكد على أن أوضاعها كانت تشبه إلى حدٍّ ما أوضاع شقيقاتها في بلاد الشام والرافدين، وذلك بسبب التواصل الفكري والحضاري بشكل عام ما بين الشمال والجنوب، وكذلك بسبب تقدم أوضاع المرأة في منطقة الحجاز، التي تُعتبر بوابة شبه الجزيرة العربية باتجاه بلاد الشام عامة.

وفيما يخص الفترة بعد الميلاد، فإن أوضاع المرأة العربية فيها ستدرس من خلال أوضاعها في القبائل العربية التي تواجدت على كافة أطراف شبه الجزيرة العربية، والتي يستطيع الإنسان الحياة فيها سواء داخل المدن والقرى الكبيرة أو خارجها، خاصة المرأة البدوية، التي كانت ذات شأنٍ كبير، مروراً بما يسمى بالفترة الجاهلية، التي يُجمِع معظم الباحثين على اعتبارها تمتد إلى حوالي ١٥٠ سنة فقط قبل مجيء الإسلام، والتي نالت فيها المرأة سُمعةً سيئةً سَبَبُها التشويه المُتعمد حيناً وغير المُتعمد أحياناً أخرى، فقد ذهب البعض إلى أن المرأة في ذلك العصر كانت تُعامل معاملة الحيوان، وذلك ضمن السِّياق العام للآراء التي تذهب إلى جعل الفترة الجاهلية فترة تخلف وتأخر على كافة الأصعدة حتى الإنسانية منها، وإذا كنّا نعترف بوجود حالات كثيرة وصلت فيها المرأة إلى الدرك الأسفل، فقد أثبتت الأبحاث الجديدة أن ذلك لا يعدُّ إلا كونه حالات فردية جداً إذا ما قيست مع الوضع العام للمرأة، فبالرغم من اعترافنا بوجود حالات من تعدد الزوجات وانتشارها أحياناً وتعدد أنواع

الزواج الذي يُسيء إلى سمعة المرأة بشكل عام إضافة إلى ظاهرة وأد البنات والتعامل مع المرأة على أنها فقط مصدر لسدِّ الرغبات الجنسية واعتبارها سلعة تباع وتشرى (الإماء)، إلا أن الغالبية العظمى من النساء، كانت تقع خارج هذه الدائرة السيئة الصيت. فقد كانت للمرأة مكانة مرموقة في بلاد العرب منذ القدم، فظهرت خلال العصور المختلفة طبقات من النساء ذوات الشأن العظيم ومن بينهن الكاهنة والعرّافة والمُتنبئة والشاعرة والفارسة المُحاربة والطبيبة والسياسية البارعة. والمرأة العربية على العموم شديدة الحرص على شرفها، كثيرة الاعتداد بكرامتها[١٥٠].

لقد كانت المرأة في العصر الجاهلي بوجه الإجمال، حسنة المنزلة، عفيفة النفس، وقد نشأت على استقلال الفكر وإباء الضيم، فكانت عفتها نتيجة الأنفة وحب الاستقلال. وقد كان الرجل يتعاون مع المرأة ويأخذ رأيها، فيما كانت المرأة الرومانية المُعاصرة لها تُعامل كعبدةٍ للرجل، وقد بلغ من منزلة المرأة، أنها كانت تُغيث الملهوف وتلجئ الهارب، فإذا عقد طرف ثوبه بخبائها أصبح في أمان.

وقد حمَلت هذه المكانة السّامية للمرأة بعض الباحثين وخاصة روبرتسن سميث على القول: ((أن العرب كانت تتبع في الأزمنة القديمة نظام الأمومة)) وهو النظام الذي تكون فيه المرأة هي صاحبة السّيادة في المجتمع، ويكون – عادة – سائداً في المجتمعات التي يمتهن رجالها الرعي والصيد، ويقضون معظم أوقاتهم خارج بيوتهم. وقد استدلوا على ذلك من أن المجتمع البدوي العربي يمتهن أهله الرعي والصيد، وإنه يمكن أن نرى في اللغة العربية آثاراً لنظام الأمومة، فالرحم تدل على القرابة، فهم يقولون: «وصل وقطع رحمه» والبطن تُطلق على إحدى الوحدات الاجتماعية في القبيلة، وإن كثيراً من القبائل تُسمى بأسماء مؤنثة كـ (خندف، مزينة، عاملة، عائدة، وربيعة... إلخ). كما أن كثيراً من الناس كانوا يسمون باسم أُمهم. وجدير بالذكر أن أغلب الأشياء المهمة في الحياة كـ (الشمس والأرض) هي مؤنثة عندهم. هذا إلى أن

---

[١٥٠] – السّاتر، لبيب عبد: كتاب الحضارات، دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٨٦م، ط ٣، ص ٢٣٦.

شخصيات نسوية بارزة ظهرت في المجتمع الجاهلي في الدين والسياسة[١٥١] (سوف نأتي على ذكرهن لاحقاً) وحتى العديد من الآلهة التي عُبدت عند العرب، وردت بأسماء أنثوية دلالة على مكانة المرأة فيها، وخير مثال على ذلك (اللات) وهي اسم إلهة من آلهة البابليين، وكانت هذه الإلهة من بنات رب الأرباب وأخواتها وهي: مامناتو وعشتار، وحينما دخلت اللات سوريا أصبحت قرينة هدد إله المطر، وسُميت بـ (أتارجاتيس) ثم أخذها النبطيون وسموها ربة البيت، فيما سموا (ذا شرى) رب البيت وهذا يؤكد ما رواه ولهوسن من أن اللات إلهة الشمس. أما الآلهة الأخرى فهي (العزى) ولها أسماء كثيرة تختلف باختلاف الألسن، فطيء دعتها عوزى، واليونان دعوها أفروديت، والكلدان بلتى، والآراميون استيرا، والعرب ناتى، ونستطيع أن نقول أن العزى هي بيلتي أو عشتار عند البابليين. أما الآلهة الثالثة، فهي (مناة) وهي مامناتو البابلية، وهي بنت الإله عند العرب، وقد مَثّلت الموت عندهم، كما كانت تمثل الموت والقدر أيضاً عند البابليين، وقد قالوا في خطابهم إلى مامناتو: «يا مناة يا إلهة القدر والموت»، «ويا أيها الروح المُخيف وملك الموت» فـ مناة عند العرب تمثل الموت لا الدهر، لأن الدهر في تصورهم ذكر ومناة أنثى[١٥٢]. وهذا خير دليلٍ على مكانة الأنثى في العقلية العربية، ذلك من خلال قبول هذه العقلية (الجمعيّة) لفكرة تمثيل الأنثى للآلهة المعبودة، ووضعها ضمن مجمع الآلهة العربي، وما سينعكس على وضع المرأة في الحياة العامة من مكانة عالية، إضافة إلى ذلك، فقد ورد في تاريخ العرب بعض الأساطير التي تؤكد على التواصل الحضاري بين عرب شبه الجزيرة وعرب الشمال في بلاد الرافدين والشام أشقاؤهم، كأسطورة الزواج المُقدس والتي نذكر منها أسطورة الإله أساف والإلهة نائلة.

---

[١٥١] – العلي، صالح أحمد: محاضرات في تاريخ العرب، ١٩٦٠م، ط١، ج١، ص ٣٩ – ٤٠.

[١٥٢] – خان، محمد عبد المعيد: الأساطير والخرافات عند العرب، وزارة الثقافة، دمشق، الكتاب الشهري – آفاق ثقافية، آذار ٢٠٠٧م، ط ٤، ص ١٢٦ وما بعدها.

تقول الأسطورة: «أن العرب في الجاهلية تعبَّدوا إلهين كبيرين هما: الإله أساف والإلهة نائلة، وأنهما كانا يمثلان رمز الزواج المقدس، حيث تقول هذه الأسطورة: إن جُرهماً، لما طغت في الحرم دخل رجل منهم وامرأة يُقال لهما أساف ونايلة (نائلة) البيت ففجرا فيه، فمسخهما الله تعالى حجرين، فأُخرجا من الكعبة، فَنُصِّبا على الصفا والمروة، ليعتبر بهما من رآهما، وليزدجر الناس عن مثل ما ارتكبا، فلم يزل أمرهما يُدرس ويتقادم، حتى صارا صنمين يُعبدان، وإن هذه العبادة ظلت مستمرة ومتواصلة حتى فجر الإسلام».

لكن هذه الأسطورة في جانب موازٍ تَعرِضُ على متلقيها فكرة منسية عن معارف العرب القديمة الخاصة بالزواج المقدس، الذي كان يجري في المعبد في سياق التَّقَرب والحصول على البركة الإلهية للنسل، وقد كان هذا النمط من الزواج يرتبط بالمعبد كلياً وبصورة عضوية، ولذلك اعتبر البعض أن الحجرين هما في الأصل تمثال واحد يمثل رجلاً وامرأة ملتصقين ومندمجين، وقد وصفه ابن الكلبي بدقة، ويبدو أن الكعبة في وقتٍ ما من تطور مكانتها الروحية، عَرِفت هذا النمط من الزواج، لكن العرب والمسلمين تالياً، لم يعودوا يتذكرون بدقةٍ كافيةٍ تاريخ نصب هذا التمثال (الصنم) في فناء الكعبة قبل أن يوضع في جوفها، ثم عند فوهة بئر زمزم، وربما لهذا السبب رووا قصة قيام أساف بمواقعه نائلة أثناء الطَّواف حول الكعبة في موسم الحج، وإن الله مسخهما حجرين عقاباً لهما، لكنهما عُبِدا وأصبحا جزءاً من البيئة الروحية في الجزيرة العربية قبل الإسلام. ويبدو أن الانتساب إلى الأم عند العرب، له أيضاً صلة عضوية بعبادة الإلهة الأم في العصر الأمومي، الذي ساد المنطقة عامة بعد اكتشاف الزراعة ودور المرأة فيها[١٥٣].

من خلال ما سبق، نستنتج أن المرأة في الفترة الجاهلية وما قبلها كانت وريثة عقلية جمعيّة أعطت للمرأة مكانتها سواء في مجمع الآلهة أو على أرض الواقع، وهذا

---

[١٥٣] – الربيعي، فاضل: أساطير الزواج المقدس عند العرب في الجاهلية – السرديّات المبتورة، مجلة فكر، العدد ١٠٧.

يدلُّ على مكانة جيدة للمرأة في العصر الجاهلي، لا كما يتكلم عنها البعض وخاصة كتب المستشرقين، ونحن عندما نقول (جيدة) فإننا ننصف القول قياساً للصورة القاتمة التي رُسمت لنا حول أوضاع المرأة في ذلك العصر. فقد حاول البعض كثيراً المساس بهذه المرأة والحط من قدرها من خلال تشويه معالم الحضارة والثقافة التي كانت تنتشر بين تلك الأقوام وإلصاق صفة الجهل فيها من خلال تسميتها بالجاهلية، وحتى عندما نتكلم عن ما يسمى بـ (حرب البسوس) والتي يُنسب سببها إلى امرأة، فإن النظر بهذه الرواية بشكل عميق ربما يدلنا على قيمة أفضل للمرأة لدى رجال ذلك العصر، وإن اتفقنا على حماقة الحرب الناتجة عن هذه الأسطورة، إن صحَّ وقوعها!!!، ولكنها تعبير حقيقي عن مدى أهمية المرأة في المجتمع العربي عموماً وحتى المجتمع البدوي خارج المدينة خصوصاً، والذي كان يتَّبع نظام الأبوة، فللرجل السّيادة والسلطة على البيت وعلى المرأة والأولاد قبل البلوغ، ولكن، مع كل هذا، كان للمرأة مكانة جيدة تتناسب مع الخدمات التي كانت تقوم بها، إذ أنها كانت تقوم بقسطٍ كبيرٍ من العمل في البيت وخاصة في ذلك المجتمع القاسي، الذي كان الرجال فيه يمتهنون الحرب والرعي، ثم إن المرأة هي الوسيلة الوحيدة لإنتاج الرجال الذين يزيدون قوة القبيلة في السلم والحرب، خاصة إذا كان أولادها نُجباء قادرين على أن يكوّنوا لأنفسهم مكانة مرموقة في المجتمع. ولا ريب أن المرأة كانت تقوم بنفسها بدور ما في الحرب أيضاً، كتضميد الجرحى ورعايتهم وتزويد المقاتلين بالزاد والماء، هذا إلى أن المرأة قد تكون مصدر ربحٍ لوليها الذي يأخذ عند زواجها صِداقاً كبيراً، والمرأة أيضاً توحي للشعراء بالخيال وللرجال بالطموح، وقد تُدخِلُ في البيت بهجةً وحياة روحية جميلة"[١٥٤].

وانطلاقا من ذلك سنقوم بدراسة أوضاع المرأة داخل الأسرة وخارجها ضمن الأعراف والتقاليد المرعية آنذاك، بغية الوقوف على أوضاعها بشكل أوضح، لكي نكون قادرين على كشف الحقيقة التي حاول البعض تشويهها.

---

[١٥٤] – العلي: محاضرات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ص ١٣٦-١٣٧.

الأسرة والزواج

إن الوحدة الاجتماعية في البادية والحضر معاً هي القبيلة، وركن القبيلة هو الأسرة، والرجل هو عماد الأسرة وربها وصاحب نَسبِها، والعلاقة الاجتماعية بين أفراد الأسرة كانت قائمة على أساس التضامن الوثيق بين أفرادها، كتضامن أسرة القبيلة ضد القبائل الأخرى[١٥٥]. وكما ذكرنا سابقاً فقد سبقت (أسرة الأمومة) – يوم كانت المرأة محور الحياة الاجتماعية ولها الدور القيادي في الاقتصاد وفي الهيئة الاجتماعية حيث كان الأولاد ينسبون إلى أمهم – أسرة الأبوة التي كانت سادت في مجتمع الجاهلية عند ظهور الإسلام، لكن الأوضاع تغيرت، وأصبحت كل عشيرة، تتألف من عددٍ يقل أو يكثر من الأسر، تسكن الواحدة منها في خيمة واحدة، وكانت الأسرة تضم الزوج والزوجة أو الزوجات والأولاد والإماء إن وجدوا، وربُّ الأسرة هو الرجل، وعندما يكبر الابن ويتزوج يُغادر خيمة أبيه ويضرب له خيمةً إلى جانب خيمةِ والده، ويصبح ربَّ عائلة.

لكن، وبعد توزيع العمل بين الرجل والمرأة إثر التقسيم الاجتماعي الجديد وانفصال الحرفة عن الزراعة وتربية المواشي، نالت المرأة والفتاة النَّصيب الأكبر من الأعمال البيتية (تربية الأطفال، وأعمال الطهي والحياكة وغيرها من الشؤون المنزلية) ولا سيما إذا لم تكن العائلة تملك الإماء، وعلى الرغم من أن نصيبها من العمل اليدوي كان وافراً، فإن المرأة البدوية تتمتع بقسط وافر من الحرية والاستقلال، وما كانت يوماً تُعتَبر مَتاعاً.

وقد تطور الزواج كمؤسسة اجتماعية في الجاهلية العربية، ذلك ما يمكن استنتاجه من نصوص القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والتفسير ومعاجم اللغة، حيث تُشير هذه الكتب إلى أن العرب عرفوا قبل الإسلام علاقات جنسية أو أشكال

---

[١٥٥] – برو، توفيق: تاريخ العرب القديم، دار القلم العربي، حلب، ١٩٧٣م، ط ١، ص ٣٤٦.

زواج عديدة، وقد جرى الانتقال من حكم النساء إلى أحادية الزوج، ومن حق الأم إلى حق الأب إثر تطور الظروف الفعلية لحياة الناس، التي أدت إلى التغيرات التاريخية في وضع الرجل والمرأة الاجتماعي المتبادل، وفي هذا الصدد، يذكر الدكتور جواد علي: أنه كان ((للجاهليين)) أشكال زواج تختلف باختلاف الأماكن وباختلاف أوضاعها الاجتماعية واتصالها بالخارج[١٥٦] ' فقد تعددت أنواع الزواج في هذه الفترة، فلم يكن العرب يسيرون في الحقيقة على أعراف واحدة في قضية الزواج، بل كانت السنن مختلفة بحسب المناطق واختلاف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ومعلوماتنا في هذا المضمار مُتفاوتة من حيث الكم والكيف عن شتى التجمعات البدوية والحضرية، فما تقدمه لنا النصوص الجنوبية عن هذا الموضوع ضئيل وإن كان فيه بعض الإشارات عن كيفية تنظيم الزواج، مثلاً بين المعينيين وأهل (ريدان)، كما أن المصادر لا تفيدنا كثيراً عمّا كان يتمُّ عند القبائل العربية المختلفة، حيث أن أكثر المعلومات المتوافرة بين الأيدي، هي عن مجتمع الحجاز بخاصة، لكن لا بد وأن الاحتكاك بالآخرين وحضاراتهم ودياناتهم كالفرس واليونان والرومان، ترك أثراً على الزواج عند العرب، وعلى العادات الاجتماعية والأعراف، وهكذا عندما يشبُّ الفتى والفتاة في المجتمع العربي الجاهلي، فإن العلاقة بينهما – إذا كان الشاب من غير محارم الفتاة – لا بد وأن تأخذ طريقها الطبيعي، حيث أن سن البلوغ في المجتمع العربي القديم مُبكِّر بسبب الظروف المناخية، وقد كانت الضغوط على الفتاة وقيود الأسرة والمجتمع أشد وأقوى مما هي عليه على الفتى، ولما كانت هذه الفتاة قد حملت منذ الطفولة أن فكرة تلاقيها مع الرجل من غير محارمها عيب وعار، فإنها لم تكن لتبحث عن رجلها علناً، بل يمكن القول: إنها وقفت سلبية في هذا المجال وألقت مهمة البحث تلك عن التلاقي على عاتق الرجل، وبقيت في بيتها تنتظر أن يأتي إليها ليقيم تلك العلاقة الحميمة ويوثقها في مضمون شرعي هو (الزواج)، فالزواج هو المؤسسة

---

[١٥٦] – دلو، برهان الدين: جزيرة العرب قبل الإسلام – التاريخ الاقتصادي – الاجتماعي – الثقافي – والسياسي، دار الفارابي، بيروت، لبنان ١٩٨٩م، ط ١، ج ١، ص١٧٥، ١٧٦.

التمهيدية المولدة لمؤسسة الأسرة، وهي اللبنة الأولى في بناء المجتمع العربي الجاهلي، هذا المجتمع الذي لم يكن ليُجيز للمرأة أن تبوحَ بحبها لرجلٍ ما، لا تربطها به رابطة الدم القريبة جداً أو رابطة الزواج، فهذا الأمر يُعتبر خروجاً عن الأعراف والآداب العامة[١٥٧]، لكن هناك دراسات لمؤرخين يعتقدون أن ما ذكر سابقاً مُجانِبٌ للحقيقة، وكانوا يؤكدون على أن الرجل في العصر الجاهلي كان يفتش عن الحسب والذِّكْرُ الحسن في زوجته، كما أنه كان يبحث عن سِعَةِ الحيلة ومضاء الذكاء، ويُرجِعون الأمر في الزواج إلى الفتاة، فبإمكانها أن تجلس إلى خطيبها وتحادثه. وقد اشتهرت الزوجة في العصر الجاهلي بإخلاصها لزوجها وحدبها عليه لِما طُبِعت عليه من سماحة الخلق وصفاء الفطرة وكرم التأديب، فكانت تموت إيثاراً لشرف زوجها على حياتها فتقول: ((المنية ولا الدنية)) وقد بلغ من إخلاصِها أنها كانت تفي لرجلها حتى بعد طلاقها، فلا تذكر له إلا خير ما عرفت عنه.

أما فيما يخص الزواج، فإنه كان يُعقد بمهرٍ معين يدفعه الزوج بعد رضاء أولياء الفتاة ورضائها في بعض الأحيان، وهو ما يسمى بزواج المهر أو زواج البعولة أو الزواج الأحادي، وقد يُغالي بعض الآباء في قيمة المهر مغالاةً شديدة، ويعتبر هذا الزواج من أكثر أنواع الزواج انتشاراً، ومن دون ذلك يُعدُّ الزواج سفاحاً أو بغياً، فهو – أي المهر – فريضة لازمة عند عقد الزواج، يدفعه الشاب أو أهله إلى أهل الفتاة. وكانت قريش وكثير من قبائل العرب، يؤثرون هذا النوع من الزواج السائد، الذي عادة ما كان يتم في مكة، فيما يُسمى بدار الندوة، التي أنشأها قصي بن كلاب قرب الكعبة، حيث يتم الاحتفال ببلوغ البنات سن الحلم (سن البلوغ).

أما الأنواع الأخرى من الزواج، التي كانت مُستنكرة بِجلِّها فهي:

١ – نكاح المتعة: وهو زواج إلى أجل، أي إلى وقت معين، يتفق عليه الطرفان، وإذا انتهى الوقت، انتهت العلاقة بينهما وتمت الفرقة.

---

١٥٧ – صبّاغ، ليلى: المرأة في التاريخ العربي – في تاريخ العرب قبل الإسلام، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٥م، ص ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.

٢ – نكاح الاستبضاع: رغبة في نجابة الولد، حيث تُرسل الزوجة إلى أحد الزعماء أو الأشراف، أو يأتي هو إليها لكي تستبضع منه، ويُنسب الولد للرجل الشريف، ويرث أمواله في المستقبل.

٣ – نكاح الخدن: وهي علاقات بغير عقد ولا نكاح شرعي، يكون فيه الرجل خدناً للمرأة أي صديقاً لها، وهو شكلٌ من أشكال الزنا.

٤ – نكاح المضامدة: شبيه بنكاح الخدن، إذ تلجأ إليه نساء القبائل الفقيرة أيام القحط، حين يضطرها الجوع إلى دفع نسائها في المواسم التي تُعقد فيها الأسواق لمضامدة رجل غني تحبس نفسها عليه، فإذا أُغنيت بالمال والطعام عادت إلى زوجها الأول.

٥ – نكاح البدل: وهو أن يتبادل رجلان كل منهما بزوجته زوجة الآخر دون مهر، وقد يكون التبادل لفترة محددة من الزمن، كمبادلة الزوجة لقاء دَين أو مقايضتها تجاه جناية تقع منه ولا يملك ديَّةً لها.

٦ – نكاح المقت: وهو أن يتزوج الابن الأكبر زوجة أبيه إذا لم يكن لها أولاد منه فيرثها كما يرث المتاع إلا إذا افتدت نفسها من الورثة، وسُمّي هذا النوع من الزواج بزواج المقت، لأنه كان ممقوتاً، والولد الذي يكون ثمرة له مقيت، وهذا يدل على أنه كان نادر الوقوع.

٧ – نكاح السبي: وهو الزواج من أسيرات، ليس فيه مهر، ولا يُشترط فيه رضا الفتاة، ولا رضا أهلها.

٨ – نكاح الإماء: هو زواج العربي من أمته التي يَعدها من متاعه وملكه، فإذا أنجب منها أولادا لا يُلحقهم بنسبهِ، بل يظلوا عبيداً له وإماءً، وقد يعتقها أو يعتقهم إذا رغب بذلك.

وقد عرف العرب أنواعاً أخرى من الزواج، كنكاح صواحب، ونكاح تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة، وتعدد الزوجات بالنسبة للرجل[١٥٨]. إن هذه الأنواع البغيضة من الزواج، إنما تدل على أن النظرة للمرأة في هذه الحالات، كانت نظرةً دونية، فما هي إلا وسيلة لإرضاء الرغبات الجنسية، أو أداةً لإكثار القبيلة أو لتحسين نسلها بغية زيادة النفوذ والقوة أو زيادة الأموال والحسب والنسب بغض النظر عن رأي المرأة وموقفها من هذا الزواج، لأنها في هذه الحالات، كانت تُستخدم كسلعةٍ قابلة للتجريب ومن ثم الاحتفاظ بها أو إعادتها إذا فَسدت أو لم تكن حسب المواصفات.

وقد كانت العرب تعتقد أن الزواج بالأباعد أدعى إلى إنجاب النُّجباء من الأولاد، إلا أنهم قلما يميلون إلى الزواج خارج العشيرة، فالزواج الشائع عند العرب هو الزواج داخل العشيرة، فهو أدعى برأيهم على أن تحافظ العشيرة على انسجامها ووحدتها[١٥٩]. كما حرّمَ المجتمع الجاهلي، زواج الأب بابنته، والزواج بالأمهات والأخوات والخالات وبنات الأخت وزوجات الأبناء، لكن زواج الرجل بأختين تكونان معاً في عصمته كان مُباحاً، ولم يكن عدد الزوجات محدداً، بل كان للجاهلي أن يعدد من الزوجات ما يشاء، مدفوعاً إلى ذلك بعوامل شتى قد تكون شخصية بحتة أو إنسانية، كأن يدخل في عصمته نساء لا معيل لهن، أو سياسية بأن يصهر إلى عدد كبير من القبائل تُناصره وتؤيده عند الحاجة[١٦٠]، وهو نوع من أنواع الزواج السياسي الذي رأيناه سابقاً بكثرة.

لكن أسوأ أنواع الزواج، هو نكاح تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة، فهو شكلٌ من زواجٍ جماعي، وذلك بأن يَجمع مجموعة من الرجال – ما دون العشرة – فيدخلون على المرأة كلهم أي يطؤوها عن رضا منها وتواطؤ بينهم وبينها، فإذا حملت ووضعت ومرَّت ليالٍ بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى

---

[١٥٨] – زكّار: تاريخ الوطن العربي، مرجع سابق ص ٢٧٣ وما بعدها.

[١٥٩] – العلي: محاضرات في تاريخ العرب، مرجع سابق ص١٢٦– ١٢٧.

[١٦٠] – برو: تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ص ٣٤٨ – ٣٤٩.

يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تُسمي من أحبَّت باسمه، فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع الرجل، وفي هذا الشكل من الزواج تتمتع المرأة بحرية ممارسة علاقات جنسية مع نفر من الناس، لكن عُرى هذا الزواج غير متينة، وفي الغالب يُنسب الولد إلى أمه، بسبب صعوبة تحديد والده، وهذا ما يُعرف بالأمومة[١٦١]، وهو أيضاً من أسوأ أنواع انتهاك حقوق المرأة واستعبادها!!.

الطَّلاق

لقد كان الطلاق معروفاً بالجاهلية، وهو يعني: ((تنازل الرجل عن حقوقه التي كانت له على زوجته ومفارقته لها)) وكان من حق الرجل وحده يستعمله، لا في حالة الكره فحسب، وإنما متى شاء، ودون قيد أو ضابط، وقد كان يُنظر إليه كعقوبةٍ يوقعها الزوج بزوجه الناشز، لذا فإنه لم يكن يُنظر إلى المُطلَّقة نظرة تقدير، وقليلاً ما كانت تعاود فتتزوج، فالطلاق إذاً، كان سهلاً على الرجل، ولأسباب قد تكون هامة، وقد تكون تافهة، فمن الأسباب لهذا الإجراء من طرف واحد: عدم الانسجام في الطبائع أو بتعبير آخر رفض المرأة النفسي التكيف مع طباع رجلها والرضوخ لنزواته، مما يجعل الحياة جحيماً يضطر الرجل أمامه أن يطبق آخر عقوبة تجاه زوجته وهي طلاقها، وقد يكون السبب تنافراً عاطفياً أو عُقم الزوجة أو إنجابها بنات دون البنين أو لضيق ذات اليد والفقر أو لعسر بعد يسر أو لسوء قول أو عمل وجده الرجل مهيناً له وسيئاً، أو لعدم قبول المرأة بالضُّرة، أو لخصومةٍ تقع بين الزوج وأهل زوجه... إلخ. وكان الطلاق يتم عادة بالطلاق ثلاثاً، وإذا طلق الرجل واحدة أو اثنتين فامرأته تظل له إلا إذا طلقها ثلاثاً فلا سبيل له عليها.

---

[١٦١] – دلو: جزيرة العرب، ج١، مرجع سابق، ص ١٧٦ – ١٧٧.

إن معظم الشرائع القديمة كانت تُقرُّ الطلاق، طالما أنها مُستندة إلى سلطة الرجل، فقد عرفه اليونان والرومان، أما الديانة المسيحية فقد استنكرته لقسوته على المرأة[١٦٢]، وقد كان للطلاق عند العرب أنواع متعددة، منها:

١ – الطلاق ثلاثاً على التفرقة: كان العرف يقضي بأن الرجل إذا طلق زوجته واحدة، كان أحق الناس بها، أما إذا استوفى الثلاث، فهذا يعني التفرقة التامة.

٢ – الظهار: وهو التحريم المؤبد للزوجة، فلا تحلُّ لزوجها.

٣ – الإيلاء: وهو ترك الرجل لزوجته لسنة أو لسنتين أو أكثر على سبيل الطلاق المؤجل.

٤ – الخلع: فقد أُعطي بعض النساء حق خلع أنفسهم، وذلك لشرفهن وقدرهن وحكمتهن[١٦٣].

وكانت المرأة إذا أرادت أن تطلق زوجها غيرت باب قِبائها، فإذا كان قبال المشرق جعلته قبال المغرب، فإذا رأى الزوج ذلك عرف أنها قد طلقته فلم يأتها، لكن ذلك لم يكن ليحصنهن من تطليق أزواجهن لهن إذا ما أرادوا. وإذا طُلقت الزوجة أو مات عنها زوجها أُلزمت بقضاء العِدَّة حتى يتبين ما إذا كانت حاملاً أم غير حامل، خوفاً من أن تُختلط الأنساب فيما لو تزوجت قبل انقضاء العدة. فقد كانت سلمى بنت عمرو من بني عدي بن النجار وهي من أهل يثرب وزوجة هاشم وأم عبد المطلب جد الرسول ﷺ، كانت لشرفها لا تنكح الرجال في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، وإذا كرهت رجلاً فارقته.

إن وجود ظاهرة العِصمة بيد المرأة في الإسلام – ولو بشكل محدود – يؤكد على أن النساء العربيات كُنَّ على درجة من الرفعة والعزة وحفظ الحقوق، فما وصلنا عن حالات تشير إلى وضع المرأة السيئ، لا يعدو كونه نسبة قليلة، حاول البعض

---

١٦٢ – صبّاغ: المرأة في التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

١٦٣ – زكّار: تاريخ الوطن العربي، مرجع سابق، ص ٢٧٦ – ٢٧٧.

ولغايات سيئة تشويه سمعة النساء العربيات، وفي هذا الصدد، يمكن أن نذكر بعض الأمثلة عن النسوة اللواتي أخذن العصمة: (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش الخزاعية) وهي أم عبد المطلب بن هاشم جَدَّيْ الرسول ﷺ و(فاطمة بنت الخرشب الأغارية) و(عاتكة بنت مرة بن هلال) وهي أم هاشم بن عبد مناف الجد الأسبق للرسول ﷺ و(ماريا بنت الجعيد العبدية) و(السّواء بنت الأعبس العنزية) و(ماوية بنت عفرز) زوجة حاتم الطائي، و(أم خارجة) وهي عمرة بنت سعيد بن عبد الله بن بجيلة، وغيرهن كُثر، وقد عرفت معظم النساء اللائي أخذن حق الطلاق بأنهن تزوجن بعدة رجال وأنجبن الكثير من الذريّة[١٦٤]، وهذا دليل على المكانة الرفيعة لبعض النِّساء العربيات في شبه جزيرة العرب.

الإرث

أما عن موضوع الإرث، فقد كان من حق الرجل فقط، وقد حُرِمت منه المرأة والأولاد الصغار والجواري والبنات، ويظهر أن هذا الحق قد خُصَّ به الذين يركبون ويحملون السلاح، وقاعدتهم في ذلك: ((لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال)) وللرجال أن يرثوا من النساء، وأن يرثوهن أنفسهن كما يرثون المتاع (يرث الابن الأكبر زوجات أبيه) ومن مات عن بنات ولم يكن له أبناء ذكور يرثه إخوته وتُحرَم بناته من ميراثه.

ولكن يظهر أن حرمان المرأة من الميراث لم يكن عاماً في جميع القبائل، بل إن بعضها كانت تعطي النساء الحق في الإرث. فقد ورد في بعض الوثائق القديمة

---

[١٦٤] – صبّاغ: المرأة في التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢١٠ – ٢١١.

(المجاسد عامر بن جشم بن غنم) من بني يشكر، قد ورَّث ماله لأولاده إناثاً وذكوراً فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، فشاع حكمه في بعض الجاهليين، ثم أقره الإسلام[١٦٥].

الإماء

الأمة، هي المرأة الرقيق أي المُستعبَدة، أو بتعبير أصح: التي لا تملك حريتها ولا نفسها ولا يمكنها التصرف من ذاتها، فهي كالرجل العبد تماماً. وقد كثرت الإماء عند العرب، فمصادرهن، هي الحرب والغزو وما يحصل الرجل فيها من سبايا، وسوق النخاسة أي تجارة العبيد والإماء. وقد كان النَّخاسون يستوردون إماءهم من إفريقيا ومن أسواق العراق والشام ومن الروم والفرس، وهناك مصدر آخر وهو ثانوي، كبيع الآباء لأولادهم من إناث وذكور لضيق ذات يدهم وحاجتهم للمال، إلا أن وجود إماء عربيات كان نادراً جداً لأن أسرة المُسباة كانت تسعى بكل طاقتها لتفتدي ابنتها وتخليصها من العار، مما يدل ويدحض ما كان يُشاع عن انتشار ظاهرة الزنا وتعامل العرب مع نسائهم كالسلع، التي تُباع وتُشرى، وعلى إنه ليس للمرأة مكانة لديهم.

أما الأمة الأعجمية، فكانت تدخل البيوت العربية لتقوم بكافة الأعمال المنزلية، وهي ملكٌ للسيد أو ملكٌ للسيدة، تُباع وتُشرى وتُهدى، شأنها شأن أي سلعة أخرى، بل ويتصرف بها مالكها تصرفه بملكه الخاص، أي أن له – كذلك – عليها حق الحياة والموت أو العقاب حتى الموت، وفي الواقع قد يتسرّى العربي الحر بأمته، ولكن نادراً ما يتزوجها (شرعاً) ولذا فالأمة كانت تتزوج عبداً، أو حراً فقيراً من المستضعفين.

لقد عاشت المرأة الأمة في المجتمع العربي الجاهلي حياة تعيسة في الواقع مثلها في ذلك مثل حياة الأمة في أي مجتمع آخر، فقد كان عليها أن تنسى إنسانيتها وتتحول إلى أداةٍ صمّاء إذا ما أرادت أن تعيش، وكثيراً ما كانت تنحرف نحو البغاء

---

[١٦٥] – برو: تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ص ٣٥٥ – ٣٥٦.

بعد تعرضها للضرب والمهانة في بيت سيدها وأمام أولادها. ويبدو أن ما كان يُشاع عن الوضع السيئ للمرأة العربية إبان العصر الجاهلي، هو وضع الأمة فيه، لكن التشويه الذي حصل، هو جعل هذه الأوضاع تنطبق على وضع المرأة العربية الحرة فيه.

الحِجاب

فيما يخص ظاهرة الحجاب، يذكر العفيفي في كتابه الموسوم بـ (المرأة في جاهليتها وإسلامها): «إن الحجاب يُطلق على واحد من اثنين: قرار المرأة في دارها والاحتجاب دون الرجال فلا تكون بمرأى ولا مسمع منهم، والثاني إرخاء لقناع على وجهها إذا غادرت دارها لبعض شأنها» ويسترسل ليؤكد أن الحجاب بمعناه الأول، كان غير وارد في العصر الجاهلي، إذ كانت المرأة ترتاد مجالس الرجال وتخطب في محافلهم، فقد ذُكرت نساء دخلن مجالس الرجال وتحدثن فيها عن مناقب أزواجهن دون تحرّج أو كلفة، بل عرف أن النساء كن يرتدن سوق عكاظ على اختلاف مقاماتهن، ويبعن ويشترين، ويدخلن في منافسات أدبية مع الرجال ومساجلات شعر مع الشعراء منهم، وممن اشتهرن بارتياد هذه الأسواق، الخنساء، وهند بنت عتبة، وبنات الخس، وغيرهن كُثر، وبالإضافة إلى هذا فإن المرأة في المجتمع العربي الجاهلي كانت تشترك مع الرجل أثناء القتال، فتضمد الجراح وغيرها من أعمال الحرب كما رأينا سابقاً.

لكن وإلى جانب المرأة الحرة ذات الشخصية الناضجة والفكر الواعي والكلمة البليغة وهنّ كثر، كان هناك نساء يقضين وقتهن في بيوتهن، ولا يستحسن الرجل وهو سيد الموقف أباً كان أو أخاً أو زوجاً، مخالطتهن لمجتمع الرجال ولا سيما في الحواضر وعلى عكس البادية، وقد لا يكون انغلاقهن في منازلهن بسبب منع الرجال لهن فحسب، وإنما لانشغالهن بشؤون البيت والعمل في نطاق الأسرة.

ويمكن القول: أن المرأة في المجتمع العربي الجاهلي لم تكن منعزلة عزلة كاملة عن مجتمع الرجال، كما أنها لم تكن لها الحرية الكاملة في مخالطته وهذا أمر موجود في أكثر المجتمعات رقيّاً.

أما الحجاب (حجاب الانتقاب) أي النِّقاب، فلا يُستطاع القول فيه بأن نظاماً واحداً كان سائداً في جميع الأوساط العربية، ففي القبيلة الواحدة قد ترى المرأة تختلط بالرجال كالرجال وتتحدث معهم سافرة غير محجبة. وهناك الخجلة والمحتشمة التي ترخي قناعها إذا خرجت من البيت فلا تطرحه حتى تعود، ولا فرق في ذلك بين الفتيات والشّابات والمتقدمات في السن، ويمكن القول: أن الحجابَ غطاءٌ للرأس وقناعٌ للوجه، كان لباساً من ألبسة المرأة يخضع للتبديل أو التحوير في الزمان والمكان بحسب الظروف الطبيعية والذوق الجمالي والقيم والعادات الاجتماعية والدينية، شأن كل الأنماط (الموضات) التي نراها اليوم في حياة مجتمع النساء والرجال على السواء. ونحن نعلم أن الحجاب كان معروفاً عند كثيرٍ من الشعوب القديمة، فقد عرفته المرأة عند البابليين والآشوريين وغيرهم من الشعوب، ويمكن ملاحظته كغطاءٍ للرأس عند المرأة التدمرية كما سنرى لاحقاً.

ومن المؤكد أن المرأة الجاهلية كانت تضع في معظم الحالات الخِمار على رأسها، وقد تضع تحته منديلاً خاصاً (العمر) تميز فيه الحرة عن الأمة، وقد يكون وضع المرأة له لظروفٍ مُناخية، أو للتجميل، أو لكليهما معاً، ولكن من المؤكد أنها لم تضعه حصانةً وصيانةً للنفس من الرجل وعينه[١٦٦] كما هو معروف عنه.

---

١٦٦ – صبّاغ: المرأة في التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٥٤ وما بعدها.

ظاهرة الوأد

كان العرب في ظل سيادة نظام الأبوة يؤثرون البنين على البنات، وذلك للدور الرئيس الذي بات يلعبه الرجل في الاقتصاد وفي الصيد والغزو والحرب، في حين تقلص دور المرأة في القطاع الاقتصادي وتركَّز على تربية الأطفال وأعمال الطهي وتدبير الشؤون البيتية الأخرى، فكان مولد الطفل عند العرب والبدو – بخاصة – مبعثَ السرور والفرح، في حين كان مولد البنت مبعثَ الهم والغم، لا سيما إذا كان الأب فقيراً، وفي الشعر الجاهلي ما يعكس كدر الوالد الذي تولد له طفلة، كما أنه يصف كذلك حظ البنت العاثر وسوء طالعها، من ذلك مثلاً: أن رجلاً يدعى أبو حمزة الضبي، وضعت له زوجته أنثى فهجرها وأخذ يبيت عند جيرانه، فمرَّ بخبائها يوماً، وإذا هي تراقص ابنتها وتتغنى لها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلدَ البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
تثبت ما قد زرعوه فينا

فأسف الرجل وتاب إلى رشده عند سماع ذلك، وولج الخِباء وأقبل إلى زوجته وصالحها، بأن قبَّل رأس امرأته وابنته وقال: «ظلمتكما ورب الكعبة»[١٦٧].

تحمل هذه القصة في طياتها معاني كبرى منها: رفض ظاهرة الوأد، فالرجل في هذه الحالة لم يئد ابنته، كما أنها توحي بأن نساء ورجال ذلك العصر على درايةٍ أن المسؤول عن تحديد نوع الجنين هو الذكر وليس الأنثى، وهذا ما أثبته العلم الحديث، ويثبت أيضاً أن ظاهرة الوأد مُبالغٌ فيها ولم تكن شائعةً كما يُشاع عنها، أو يُراد ذلك.

[١٦٧] – دلو: جزيرة العرب، ج١، مرجع سابق، ص ١٩٣.

والوأد بالتعريف: هو دفن الأب لابنته وهي حيّة، عن طريق دسها في التراب، وهذا يعني قتلها بأشد أنواع القتل وحشية، إذا كان يصحُّ لنا أن نعطي لأنواع القتل درجات، فكان الوالد إذا ما ولدت له بنت حفر حفرة ودسَّها فيها، ثم أهال عليها التراب، وقد ذكر بعضهم أن الأب كان يُغرِقها أحياناً أو يذبحها، وقد لا يجري القتل مباشرة بعد الولادة، بل يُبقي الأب عليها حتى تغدو في السادسة من عمرها، فيطلب من والدتها تطييبها وتزيينها ومن ثم يأخذها معه فيدفعها في حفرة لها في الصحراء ويُهيل عليها التراب، وقد تبلغ به القسوة مبلغاً فيطلب من الأم أن تفعل ذلك، وقد يتم الوأد عند البلوغ، وقد تكون البنت عارفة ما يُريده أبوها عندما يقوم بمرافقتها إلى البئر الذي يُطلب إليها أن تنظر فيها فيرميها، ولقد كان في مكة جبل يُقال له (أبو دلامة) كانت قريش تئد البنات فيه[١٦٨].

لكن هذا المسلسل الدرامي الحزين للفتاة كان مُبالغاً فيه جداً، وإن كنّا لا ننكر حدوثه وإنما ننكر شيوعه، فقد ذكر القرآن الكريم الوأد في كثير من آياته كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ (سورة النحل) وكذلك في قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ (سورة التكوير) وفي قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٣١) ففي هذه الآية يتبين لنا سبب الوأد (الإملاق). وقوله أيضاً: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (سورة الأنعام، الآية ١٥١) وفي هذا إثبات آخر على أن الوأد كان لعامل اقتصادي، أما الآية الأولى (النحل) فتدلُّ على أن الدافع إلى الوأد هو اجتماعي[١٦٩].

---

[١٦٨] – صبّاغ: المرأة في، مرجع سابق، ص ٢٣٠ – ٢٣١.

[١٦٩] – العلي: محاضرات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ص ١٣٨– ١٣٩.

وهذا يؤكد أن الوأد لم يكن ظاهرة سائدة تحدث دائماً، وإنما في حالات الفقر ولا سيما خلال سنوات المَحل والمجاعة وهي كثيرة، فالبنت لا يمكنها أن تساعد والدها اقتصادياً بحسب المفهومات السائدة آنذاك عن العمل والارتزاق، وفي الوقت ذاته فإن الأب يربيها وينفق عليها ليأتي (حسب اعتقاده) رجل آخر فيأخذها منه. كما أن هناك سبباً آخر للوأد وهو خوف الوالد من وقوع ابنته سبيَّة، أو إكراهه على تزويجها لمن لا يكافئه – ربما – نسباً أو قدراً، فيلحقه العار.

وكذلك ولادة الفتاة مشوهةً، كأن تكون كسحاء أو شيماء أو زرقاء، وكلها من صفات التشاؤم عند العرب. وقد يلعب العامل الديني دوره أيضاً في وأد البنات، وهو أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون أن الملائكة هُنَّ بنات الله، فالبنات إذاً هن بنات الله أو وصيفاته فلا بد من إلحاق البنات بالبنات وبه.

وقد أكد القرآن الكريم دور العامل الديني من خلال قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية ١٣٧) وفي قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (سورة الأنعام، الآية ١٤٠) وقد يُعطى في الواقع لهذا التفسير الديني معنى أوسع وأعمق. فمن المعروف من دراسة الديانات القديمة أن تقديم الضحايا البشرية إلى الآلهة كان سُنَّة ضرورية لخير المجتمع وسلامته، ومن ثمّ فقد يكون تقديم عرب الجاهلية أولادهم إلى الآلهة ضحايا جزءاً من هذا التقليد الديني كمحاولة إبراهيم نحر ابنه إسماعيل، أو محاولة عبد المطلب نحر ابنه عبد الله والد سيدنا محمد ﷺ وغير مُستبعدٍ أبداً أن يكون قتل البنت هو ما تبقى من ذلك التقليد الديني.

وقد أثارت هذه العادة المُستهجنة المروءة والنخوة لدى بعض أشراف العرب وساداتهم فسعوا لإبطالها والقضاء عليها، فقد كان بعض الموسرين منهم يفتدي البنات

من القتل بدفع تعويض مادي إلى أهلهن وأخذهن إليهم لتربيتهن، وهذا ما يؤكد أن العامل الاقتصادي كان من أهم العوامل في ظاهرة الوأد. ومن الجدير بالذكر أن جدّ الفرزدق الشاعر المشهور في العصر الأموي وهو صعصعة بن ناجية وهو من أشراف تميم كان يشتري البنات ويفدي كل واحدة بناقتين عشراويين وجمل، وقد جاء الإسلام وعنده ثلاثون موءودة. وقد روي أنه افتدى أربعمائة بنت[١٧٠].

ويُرجع بعض الإخباريين تاريخ الوأد إلى أيام ملك الحيرة النعمان بن المنذر ٥٨٣ – ٦٠٥ م فيقولون: أن بني تميم منعوا الملك ضريبة الإتاوة التي كانت عليهم، فجرَّد المنذر عليهم حملةً كان أكثر رجالها من بني بكر بن وائل أوقعت بهم وسبت نساءهم، فلما أرضوا الملك وكلموه في الذراري، حكم النعمان أن يجعل الخيار في ذلك للنساء، فأية امرأة اختارت زوجها رُدَّت عليه، فاختلفن في الخيار، وكان فيهنّ بنت لقيس بن عاصم فآثرت سابيها على زوجها فنذر قيس أن يدسَّ كل بنت تولد له في التراب، فوأد بضع عشرة بنات، فاقتدت به العرب، فكان كل سيد تولد له بنت يئدُها خوفاً من الفضيحة ولحوق العار به. ومن الإخباريين من أرجع الوأد إلى قبيلة ربيعة. والواقع أن الوأد لم يكن عُرفاً في قبائل العرب قاطبةً على نحو ما صوَّره لنا بعض الإخباريين وبعض المستشرقين بُغية التشويه، وإنما كانت تمارسه بعض القبائل فقط، أمثال: قبيلة تميم وكندة وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل، وحتى هذه القبائل نفسها لم يفشِ الوأد في أفرادها جميعاً، وإلا فكيف يستمتعن بالحياة وينجبن الأبناء؟ وكيف نجا من الوأد آلاف من النسوة اللاتي أدركن الإسلام وغدون صحابيات؟؟[١٧١]. وحتى أن الوأد في هذه القبائل – إن كان يحصل – فإنه ترافق مع سنين القحط والمحل والإملاق، وهذا يدل على مدى رغبة البعض في تشويه سمعة العرب في (الجاهلية) وفي جعل تاريخنا العربي من أسوأ تواريخ العالم خاصةً فيما يخص الإنسان وقيمته وخاصة المرأة، ذلك بُغية مآرب ليس هناك مجال للبحث فيها لأنها خارج نطاق بحثنا.

---

[١٧٠] – صبّاغ: المرأة في، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

[١٧١] – دلو: جزيرة العرب، ج ١، مرجع سابق، ص ١٩٧.

ولكنني أريد أن أؤكد على أن وضع المرأة في شبه الجزيرة العربية لم يكن على سوية واحدة بل تفاوتت فيه سويات المرأة تِبعاً للحالة الاقتصادية والاجتماعية وحالة النسب والقبيلة وأهميتها ومركزها بين القبائل الأخرى، بالإضافة إلى نسب الأسرة التي تنتمي لها هذه المرأة، وهذا ما سنراه في الأسطر القادمة من خلال معرفة بعض الممارسات التي كانت بعض النساء يقمن بها وهي فعاليات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وعلمية وهن لسن بالقلائل.

المرأة في الحياة الاقتصادية

لقد كان لسحب الفاعلية الاقتصادية للمرأة بشكل عام عبر التاريخ انعكاسٌ كبير على دور المرأة في الوسط الذي تعيش فيه، وقد ترافق هذا مع تحول المجتمع من مجتمع أمومي – للمرأة فيه مكانة عالية – إلى مجتمع ذكوري، يرغب في أن يصبح السيد لا منازع له.

ومع اختلاف الأوساط الجغرافية والبيئية والاجتماعية والدينية، اختلف وضع المرأة نتيجة لهذا الانقلاب الكبير، ففي شبه جزيرة العرب كان انعكاس هذا التحول واضحاً، أدى إلى سقوط المرأة وتراجع مكانتها إلى أسفل السلم الإنساني، لكنه لم يكن للدرجة التي حاول البعض تصويرها من أن المرأة بشكل عام أصبحت عبدة تُباع وتُشترى، سواء كان هذا التشويه عن قصد أم عن غير قصد، لكن البحث الجاد والموضوعي (العلمي) أثبت أن المرأة في شبه جزيرة العرب حافظت لنفسها على كيان جيد ومكانة رفيعة تجلَّت من خلال قيامها ببعض الأعمال الاقتصادية، سواء في مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة، مُثبتةً للآخرين أنها قادرة على القيام بالمهام الموكلة لها، كما أنها لم تعد عِبئاً على الرجل، مما يؤدي به إلى وأدها أو بيعها.

ففي مجال الزراعة شاركت المرأة في الحراثة وبذر البذور وسقاية الأرض وتعشيبها وتسميدها وفي جني المحصول، خاصة في المجتمع الريفي الذي يعتمد على

الزراعة بالدرجة الأولى إضافة إلى بعض الحواضر التي اعتمدت في اقتصادها على الزراعة كما في بلاد الرافدين أو في مدينتي يثرب والطائف.

كما أن دراسة النصوص المختلفة التي عُثِرَ عليها في جنوب شبه الجزيرة، سواء كانت معينية أو قتبانية أو سبئية توحي إلى اهتمام عرب الجنوب ولا سيما السبئيين والقتبانيين بالعمل بشكل واسع في المجال الزراعي وبمشاركة جادة للمرأة، لكنها – أي النصوص – لم تُشر إلى إمكانية تملُّك المرأة للأرض أو إمكانية وراثتها أو نوعية عملها الفلاحي فيها، إلا أن سكوت هذه المصادر عن ذكر دور المرأة في العمل الزراعي بشكل واضح، لا ينفي مشاركتها في الحياة الزراعية المزدهرة آنذاك.

ويمكن أن يدخل في نطاق الفعالية الزراعية للمرأة العربية في العصر الجاهلي أعمال أخرى عديدة، قد تبدو صغيرة، إلا أنها كانت تلعب دوراً هاماً في اقتصاد المجتمع العربي، وذلك من خلال قيام المرأة بجمع النباتات الطبيعية كالكمأة مثلاً والبحث عن النباتات الطبية واستخدامها كأدوية سواء في البيت أو بيعها، إضافة إلى جمع الثمار البرية الصالحة للطعام، ومساهمتها الفعالة في مجال تربية الماشية، سواء داخل البيت أو خارجه، مما يعود بالفائدة الاقتصادية على المنزل، وتحول المرأة إلى منتج لا مستهلك فقط، وبالتالي ارتفاع مكانتها فيه.

أما عن عمل المرأة في المجال الصناعي، فيتبدى من المصادر المتوافرة أن المرأة في المجتمع الجاهلي العربي الحضري منه والبدوي، كانت تقوم بالعديد من الصناعات التي يحتاجها المجتمع ومتقنة لها، ولا سيما أن الاقتصاد المنزلي كان آنذاك اكتفائياً أي يعتمد على ذاته في تأمين حاجاته الضرورية، وقد عُدَّ الحذق والمهارة بعمل اليدين من الصفات النموذجية التي يجب توافرها في المرأة عند العرب في الجاهلية. فمن جملة الصفات النموذجية للمرأة التي بعث بها ملك الحيرة (المنذر الأكبر) إلى كسرى أنوشروان، ملك الفرس، أن تكون (صناع الكفيف) وأن يكون عملها بإتقانه وكأنه (عمل أهل الحاجة) وقد أشار دوغويا أنه كان يقع على عاتق المرأة العربية في المجتمع البدوي، العديد من الأعمال التي تتطلب الحذق بعمل اليدين

كصنع الطعام ونسج الخيام والملابس والأغطية ودبغ الجلود وتنميق الحصر والطواف بالتمر والعسل واللبن وصنع السمن والنداء في الأحياء بين النساء بالخرز والودع والحلي وغيرها من الأعمال والصناعات المختلفة.

وقد تفهمت المرأة العربية قيمة عملها في المنزل (الاقتصاد المنزلي) وفي حياة أفراد أسرتها ونموهم، فمن جملة النصائح التي زَوَّدت بها أمامة بنت الحارث ابنتها عندما زُفت إلى الحارث بن عمرو ملك كندة: «ضرورة التفقد لوقت طعامه فإن تواتر الجوع ملهبة»[١٧٢]، كما أن صناعة الخبز في المنزل تقتضي من المرأة فقط معرفة طحن الدقيق وعجنه وخبزه ومعرفة إعداد النار ولوازم إيقادها وجمع الحطب والأعشاب الأخرى، وكذلك صنع الفحم من شجر الغضا، وكل هذا كان من عمل المرأة. بالإضافة إلى عملها في ميدان صناعة الأسلحة ومنها الرماح، وقد أتقنت هذه الصناعة حتى سُميّت بعض الرِّماح باسمها (الرِماح الردينية) وهي أكرم الرماح وأسرعها نفاذاً وتنسب إلى (ردينة) التي كانت تصنعها في منطقة البحرين. وكما نسبت الرماح إلى ردينه، فقد نُسبت القسي إلى (رازة) وهي امرأة ماسخة، كما عملت المرأة بالصباغة، وخاصة في المجتمعات الحضرية. فالمرأة إذاً دون مغالاة، كانت سيدة الإنتاج الصناعي في ذلك المجتمع، بينما كان الرجل، إما راعياً للماشية أو تاجراً أو مزارعاً، ولكن سيادتها على هذا الإنتاج، كانت في الواقع سيادة عمل فحسب لا تتقاضى مقابلها من الوجهة الاقتصادية مكسباً مادياً سوى إعالة رب الأسرة لها في نطاق البيت وسوى أجر ضئيل في إطار الارتزاق الخارجي[١٧٣].

أما في مجال التجارة، فالمرأة التي عملت في الصناعة لا بد وأنها عملت في التجارة، ذلك من خلال بيعها لما أنتجته من الغزل والنسج مثلاً، أو ما صنعته من زبدة وسمن أو جلد مدبوغ، وما التقطت من عشب وكمأة، أي لا بد لها من دخول سوق التجارة. وقد كانت تجارة المرأة في الجاهلية على نوعين:

---

[١٧٢] – صبّاغ: المرأة في، مرجع سابق، ص ٥٨، ٦٢.

[١٧٣] – المصدر نفسه: ص ١١٧– ١١٨.

- أولاً: تجارة داخلية محدودة تبيع فيها المرأة ما أنتجت في السوق المحلية أو العامة كسوق عكاظ مثلاً ودون وسيط، وقد يكون لها مقر للبيع والشراء.
- ثانياً: تجارة خارجية، من خلال قيام المرأة بتوظيف أموالها في التجارة الخارجية، حيث كانت تستأجر لهذا الغرض من يبيع لها ويشتري لصالحها من الرجال، وخير مثال على ذلك، السيدة خديجة بنت خويلد مع سيدنا محمد ﷺ كي يكون أميناً على تجارتها وعاملاً لها فيها، وأتبعته بغلامها ميسرة[١٧٤]، وبالطبع لم تكن خديجة هي الوحيدة التي عملت بهذا المجال بل هناك الكثيرات وخاصة أصحاب الأموال الكثيرة من الأسر الغنية.

---

[١٧٤] – المصدر نفسه: ص ١٣٢.

المرأة في الحياة السياسية

لطالما تعودنا عند دراسة الواقع السياسي لأي منطقة ما، أن ندرس نظام الحكم الذي تقوم عليه هذه الدولة والمناطق التي توسعت فيها، إضافة إلى قائمة الملوك أو الأمراء الذين حكموا هذه الدولة أو المملكة، واعتدنا أن نقرأ سيرة رجال في الحكم دون توقع وجود ملكات يحكمن، وكأن المرأة خُلِقت لتكون عبدةً لا معبودة، مملوكةً لا مالكة، لكن الواقع غير ذلك، فقد استطاعت بعض النساء الوصول إلى سُدَّة الحكم أو ربما إلى مناصب حكومية هامة، لكننا لم نحصل على أسمائهن، وذلك بسبب إهمال المؤرخين الذكور – عادةً – لفترات حكم النساء، إضافة إلى قيام بعض الملوك أنفسهم بحذف أسماء النساء الحاكمات وفترة حُكمهن من التاريخ، ولنا بما قام به تحوتمس الثالث في مصر مع الملكة حتشبسوت أسوة في هذا المجال. ولا بد هنا من تذكر الملكة بلقيس، التي مرت معنا سابقاً، فقد كانت تُشرف على جلسات دار الندوة، وتقدم أنضج الآراء وأسمى الأفكار في شتى الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية غير مُبرمة أمراً إلا بعد الدّرس والنظر وإجماع الملأ من رجال الشورى عليه، حتى أثنى الله على تقيدها بنظام الشورى وبارك قولها في كتابه العزيز: «يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون»[١٧٥]، وهذا خير دليلٍ على إمكانية قيام المرأة بإدارة شؤون الحكم والسياسة، وهذا ما أثبتته أيضاً الأبحاث الأثرية والتاريخية المُنصفة، التي استطاعت أن تُثبت وجود العديد من الملكات العربيات اللواتي حكمن في أحلك الظروف السياسية، وفي أماكن هامة جداً من بلادنا العربية.

---

[١٧٥] – الدفتر دار، هاشم، ومحمد علي الزغبي: المرأة في السياسة والاجتماع، دار الإنصاف، ١٩٤٩م، ط ١، ص ٢٤.

ملكات عربيات في الألف الأول قبل الميلاد

لقد شهد تاريخ شبه الجزيرة قيام عدد من الملكات اللواتي حكمن في منطقة شمال الحجاز، في ظاهرة تستحق البحث والدراسة، وذلك بسبب وصول أكثر من سبع ملكات إلى سدة الحكم في فترة زمنية قصيرة، مما يدل على مكانة رفيعة للمرأة في تلك القبيلة العربية والتي تدعى (قيدار) وهي قبيلة كبيرة وصفها الآشوريون بأنها عربية كانت منازلها في بلاد الشام الجنوبية (البادية الشامية) وتُعدُّ من عرب الشمال، وهي في المصادر العربية (القديرات) ويعود تاريخها إلى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، ويُجمع الباحثون على أن قبائل القديرات قد لعبت الدور البارز مع آرام دمشق في ثقافات بلاد الشام الجنوبية إبان الألف الأول قبل الميلاد. وذلك قبل انتقال السّيادة إلى الأنباط، وما من دراسة تناولت المناطق الشمالية من الحجاز ونجد، والجنوبية من بلاد الشام إبان الألف قبل الميلاد، إلا وأشادت بما قاموا به من نشاط ثقافي متميز بهذه المناطق. وقد جمعت قيدار من التجارة، الأموال الكثيرة، ولكنها لم تكن ثرية كمدن الشام بسبب صراعها المرير مع الآشوريين[١٧٦] الذين أفادتنا نقوشهم في معرفة أخبار عدد من الملكات العربيات اللواتي كُنَّ على رأس الممالك والمشيخات الصغيرة القائمة في شمال شبه الجزيرة العربية، وهي منطقة حكم قبيلة قيدار التي كان مركزها في دومة الجندل أو (آدومو) كما قال موسل، فكانت هذه الدولة مقراً للعديد من الملكات العربيات، وقد أطلق البعض على هذه المنطقة اسم (أريبي) أو (عريبي) حيث وجدت العديد من القبائل العربية وأهمها قيدار كما تحدثنا سابقاً.

وكانت **زبيبي** أهم ملكاتها، وهو تحريف لاسم زبيبة، وهو أقدم اسم لملكة عربية شمالية وصل إلينا اسمها حتى الآن، إلا إذا اعتبرنا بلقيس من ملكات الشمال كما ذكرنا.

---

١٧٦ – أبو عسّاف، علي: قيدار تخفي أصنامها، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥٤٠، ٢٠٠٨م، ص ٢٠ وما بعدها.

وقد ورد اسم زبيبة في النقوش الآشورية التي تتحدث عن أعمال الملك الآشوري تجلات بلاصر الثالث ٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م الذي قام بحملات عديدة على سوريا لتأمين الطرق التجارية المُتوجِّهة إلى البحر المتوسط، فقد ذكرت تلك الأخبار أنه اصطدم بالملكة زبيبي، التي اضطرت إلى أن تدفع له الجزية، وذلك حوالي ٧٣٨ ق.م، ويبدو أنها كانت كاهنة ذات رأي وحكمة على قبيلة قيدار العربية[١٧٧] إلى جانب اعتبارها ملكة عليها.

أما الملكة الأخرى فهي **شمسي** ويذكرنا اسم شمس (سمسي) باسم عربي هو شمس أو شمسة، ويذكر الملك الآشوري تجلات بلاصر الثالث أنه في السنة التاسعة من حكمه قهر ملكة عربية أخرى هي شمسي واضطرها إلى دفع الجزية له بعد أن تغلب عليها، وأنها قد حنثت بيمينها وكفرت بالعهد الذي قطعته للإله العظيم شماش بألا تتعرض للآشوريين بسوء وأن تُخلصَ لهم، فانتصر عليها واستولى على مدينتين من مدنها، فخضعت له مجدداً ودفعت الجزية، ثم عادت وانضمت إلى ملك دمشق في معارضتها للآشوريين، كما تعرضت لقوافل آشور، فانتصر عليها مرة أخرى وكانت خسائرها هذه المرة كبيرة جداً[١٧٨]، ليأتي بعدها دور **الملكة ياتيعة** التي عاصرت الملك الآشوري سنحريب بن شاروكين ٧٠٥ – ٦٨١ ق.م ففي عصره، أرسلت الملكة ياتيعة بجيش لنصرة ملك بابل في كفاحه ضد الآشوريين تحت قيادة أخيها بسقانو وذلك في عام ٧٠٣ ق.م إلا أن الحملة لم تكن موفقة، حيث وقع بسقانو في الأسر وقتل معظم أفراد جيشه[١٧٩] وانتهى بذلك حكم الملكة ياتيعة. ثم تحدثت المصادر أيضاً عن ملكة أخرى اسمها **أسكالاتو** التي عاصرت الملك الآشوري أسرحدون ٦٨١ – ٦٦٩ ق.م والتي دخلت معه في صراع كبير، لكنها لاقت نفس مصير سابقاتها، فقد

---

[١٧٧] – صبّاغ: المرأة في، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

[١٧٨] – علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٧٦م، ط ٢، ج ١، ص ٥٧٧ – ٥٧٨.

[١٧٩] – صبّاغ: المرأة في، مرجع سابق، ص ٣٠٢.

أسرها أسرحدون وأخذها معه إلى عاصمته آشور[١٨٠]، ليأتي بعدها دور **الملكة تعلخنو** (تلخونو) التي حكمت منطقة دومة الجندل، والتي وصل حدود نفوذها إلى بابل، وكانت قد دخلت مع البابليين في حلفٍ ضد الآشوريين، لكنها لاقت نفس مصير سابقاتها، عندما انتصر الملك الآشوري سنحريب على بابل سنة ٦٨٩ ق.م وتفرغ لمحاربتها، وقد كان يتبعها الملك خزائيل ملك أريبي، إلا أن خلافاً وقع بين خزائيل والملكة تعلخنو (تلخونو) وعلى أثره فرّ خزائيل إلى الصحراء الداخلية واستعان بالملك الآشوري أسرحدون خليفة سنحريب فنصره وعينه رئيساً على قبائل قيدار[١٨١]. فيما أُخذت تلخونو أسيرة أيضاً إلى آشور، وأُخذت معها أصنام عريبي أسرى إلى نينوى. أما آخر ملكة تحدثت عنها النقوش الآشورية فهي **الملكة تابوا** أو (تبوّة) التي كانت أسيرة في آشور مع أسكالاتو، ولكنها أُعيدت إلى مملكتها لتكون تابعة لآشور وملكها أسرحدون، وقد كانت قد تربّت في بلاطه وتعلمت طاعته، لذلك فقد خسرت مكانتها كملكة أمام شعبها، لأنها كانت تابعة لحكم آشور العدو اللدود، فثار شعبها عليها، مما قد أدى ذلك إلى زوال حكمها عن مملكة عريبي التي أبت دائماً أن ترضخ لحكم الآشوريين، وهذه هي صفات العرب الأحرار، الذين تعودوا على حياة الرجولة ومقارعة الأعداء وعدم الرضوخ لهم[١٨٢] حتى ولو كانوا أولاد عمومتهم.

كذلك هناك أسماء ملكات أخريات وردت في النصوص الآشورية أثناء الحديث عن حملات أسر حدون على القبائل العربية وقتله ثمانية من ملوكها **كالملكة (يافأ – أويابا)** وكذلك ملكة دخراني؟؟، و**الملكة (با إيلو)** ملكة آخيلو؟؟، وهذه المناطق غير معروفة تماماً لنا، ولكن معظم الأبحاث تؤكد أنها مناطق في شمال شبه الجزيرة العربية.

---

[١٨٠] – علي: المفصل في تاريخ العرب، ج ١، مرجع سابق، ص ٥٩١.

[١٨١] – عاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ص ٥٧.

[١٨٢] – صبّاغ: المرأة في، مرجع سابق، ص٣٠٣ – ٣٠٤.

إن هذا العدد الكبير من النساء في سُدة الحكم، لا يدع مجالاً للشك، على مدى إمكانية النساء العربيات على قيادة دفّة الحكم، ومدى السوية التي وصلت إليها المرأة في عصرٍ قلَّ وصول نساء أخريات إلى مناصب أقل من ذلك بكثير في مناطق أخرى من العالم، كما أن هؤلاء النساء الحاكمات – كملكات – كان لهن مركز ديني ككاهنات بدرجة عالية خوَّلت لهن مناصب القيادة، وهذا أمرٌ فريد في التاريخ ويستحق البحث أيضاً.

وإضافة إلى مشاركة المرأة في الحياة السياسة، فقد كان لها مشاركتها أيضاً في الحياة العسكرية، من خلال قيامها بالتحريض على القتال، وإيجاد الحوافز للرجال كي يستميتوا فيه، إضافة إلى تمريض الجرحى وتأمين الغذاء للمحاربين، ومن ثم فقد كانت المرأة تُربى على عدم الخوف من الحرب، وهذا دليل على شعور المرأة العربية بالانتماء إلى قبيلتها ومجتمعها والتصاقها بأهدافها السياسية. فقد كانت رُقاش الطّائية تغزو مع قبيلة طيء حتى ملكت رقاب إياد.

وفي مجال التحريض على القتال، نذكر ما قامت به نساء بكر يوم (تحلاق اللمم) وما أنشدنه من أشعار حماسية لاهبة حوَّلت شباب بكر إلى كتلة متراصة وجذور ملتهبة، فقد برزت في الميدان من خلف شباب بكر (كرمة بنت ضلع) وهي أم مالك بن زيد فارس بكر تغني وتنشد في إثارة الشباب على القتال، وكثيراً ما أنشدت النساء في وصف ما رأته في المعارك من شجاعة الرجال، فالفارس العربي كان يخشى رأي المرأة فيه، أي يخشى أن تصفه بالجبن والتخاذل.

المرأة في النتاج الفكري والعلمي

أما على مستوى النِتاج الفكري، فالمصادر قليلة في هذا المجال، ولكن يمكن القول على قياس منطقي، بأن المرأة كانت من ضمن من يعرف القراءة والكتابة في العصر الجاهلي، أو بتعبير أدق، أنه من غير المنطقي أن تكون حضارة الجنوب اليانعة من معينية وسبئية وحِميرية وحضارة عرب الشمال، مُزدهرةً والمرأة لا تعرف القراءة والكتابة.

فقد حاول بعض القرّاء والدارسين أن يستدلوا عن وجود العديد من الشعراء والشاعرات والناثرين والناثرات، أو من خلال النهضة الشعرية العربية الكبيرة التي تألقت قبل البعثة النبوية، على انتشار القراءة والكتابة في المجتمع الجاهلي. فالمرأة كانت تستقي منذ الطفولة، اللغةَ من أسرتها وممن حولها. كما كانت تغشى مجالس الرجال وتشاركهم الحديث بلا حرج، حتى أنها كانت تزاحم الرجل في سوق عكاظ فتعتلي المنصة وتنشد الشعر، وكأمثلة عن بعض النساء الشاعرات، نذكر الشاعرة **الخنساء** الشهيرة، خاصةً في رثاء أخويها وأبيها. والشاعرة الخرنق بنت بدر وهي أخت الشاعر الكبير طرفة بن العبد لأمه، وقد كان أكثر شعرها في رثاء أخيها طرفة. وكذلك الشاعرة دختنوس بنت لقيط بن زرارة، والشاعرة وريطة بنت عاصم وكذلك عاتكة بنت عبد المطلب عمّة الرسول ﷺ وهند بنت عتبة وهي من ربات الحسن والجمال والفصاحة والفروسية والشعر، وكانت زوجة أبي سفيان، وكذلك الشاعرة فاطمة بنت الأحجم وهي شاعرة من شواعر العرب في أواخر القرن السادس الميلادي، التي رثت زوجها وإخوتها، وكانت من أكمل قومها أدباً وأفصحهم لساناً، وكذلك الشاعرة جليلة بنت مرة زوجة كليب وأخت جساس، والشاعرة الهيفاء بنت صبح القضاعية التي ورثت عن زوجها نوفل بن سمير بن عمر التغلبي الشعر، وكذلك الشاعرة فارعة بنت شداد، والشاعرة حبيبة بنت مالك بن بدر، والشاعرة أروى بنت

الحباب[183]. وكذلك الشاعرة خويلة الرئامية القضاعية، وهي شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية كانت في عشيرتها موفورة الكرامة عزيزة الجانب يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محارم بنو أخوة وبنو أخوات وهي عقيم، وطرقت بني داهن وبني ناعب وبني رئام فقتلوهن أجمعين وأقبلت خويلة من الصباح فوقفت على مصارعهم ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها وانتظمت منها قلادة وألقتها في عنقها، وخرجت حتى لحقت بمرخاوي بن سعوة المهري وهو ابن أختها فأناخت بفنائه وأنشأت تقول:

يا خير مُعتمد وأمنع ملجإ وأعز مُنتقم وأدرك طـالب
جاءتك وافدة الثكالى تغتلي بسوادها فوق الفضاء الناضب
عيراته سُرحُ اليدين شملةٌ عبر الهواجر كالهزف الخاضب
هذي خناصر أسرتي مسرودة في الجيد مني مثل سمط الكاعب[184]

وكذلك الشاعرة غفيرة بنت عبّاد[185]، التي كان يُقال لها الشموس، ويُقال أنها من العرب البائدة وتعود لعصر مدينة جديس، وكانت تقول الشعر، ومن شعرها بعد أن دخل عليها عمليق قبل زواجها:

أيُجمل ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجالٌ فيكم عددُ النّملِ
وتصبح تمشي في الدِّماء غُفيرة جهاراً وزفَّت في النساء إلى بعلِ
ولو أننا كُنّا رجالاً وكنتم نساءً لكنّا لا نُقرُّ بذا الفعلِ
فموتوا كـراماً أو أميتوا عدوَّكم ودبوا لنارِ الحرب بالحَطبِ الجزلِ

---

[183] – المصدر نفسه: ص ٣٦٤ وما بعدها.

[184] – كحالة، عمر رضا: أعلام النساء – في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٨٢م، ط ٤، ج١، ص٣٨٧ – ٣٨٨.

[185] – الأصفهاني، أبي الفرج: أغاني الأغاني، مختصر أغاني الأصفهاني، جمعها الخوري يوسف عون – في ثلاث مجلدات، ٢٣ جزء، دار طلاس للنشر، دمشق، ط ٣، ١٩٩٣ م، المجلد ٢، ج ١١، ص٨٦٣.

ونذكر أيضاً المُغنية عزة الميلاء، التي كانت مولاة للأنصار مسكَنُها المدينة، وهي أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز، وقد أخذ عنها معبد ومالك وابن محرز، فقد كانت عزة من أجمل النساء وجهاً وأحسنهن جسماً وضرباً بالعود، وقد سُميت بالميلاء لتمايلها في مشيتها، كما كانت مغرمة بالشراب، وفيه تقول: «خذ ملاءً واردد فارغاً» وربما قالت الشعر[١٨٦].

وقد كانت بعض النساء الشاعرات يرتدن سوق عكاظ ويدخلن في المباريات الشعرية مع الشعراء، فقد دخلت الخنساء في منافسةٍ شعريةٍ مع حسان بن ثابت، وكان النابغة الذبياني هو الحكم بينهما، وقد تفوقت الخنساء. كما أن أم جندب زوجة امرؤ القيس، كانت قد حكَّمت في الشعر بين زوجها وعلقمة الفحلي، فحكمت لصالح علقمة، فطلَّقها زوجها فتزوجت علقمة. وقد كانت الشاعرة زينب أم حسان من روّاد هذا السوق أيضاً.

ومثلما كانت المرأة الجاهلية إيجابيةً في مجال الشعر، ومعطاء، كانت أيضاً معطاء في مجال النثر، فنجد أن (جمعة) و(هند) ابنتي الخس الإيادي، حكيمتان، يُضرب بهما المثل في جلال الحكمة وحُسن البيان والجواب العجيب والكلام الفصيح الصحيح والأمثال السائرة[١٨٧].

ويرتبط الإنتاج الأدبي للمرأة أيضاً بما قدمته في ميدان الكهانة من منطوق أدبي بليغ، ولا يُقصد من الكهانة في العصر الجاهلي السابق للإسلام وظيفة دينية معينة يقوم بها الرجال أو النساء لخدمة الآلهة في المعبد، وإنما بالتنبؤ وقول المغيبات، فالكاهن هو الشخصية الذكية والمثقفة والثاقبة البصيرة والنافذة الفكر، وقد اعتقد العرب بالكواهن من النساء، كما اعتقدوا بالرجال، بل أن جمهور العرب، كان يرى أن النساء في الكهانة والعرافة أعمق، وأن أخبارهن أصدق، والخلافات التي

---

١٨٦ – الأصفهاني: أغاني الأغاني، مرجع سابق، المجلد ٣، ج ١٧، ص ١٢٢٧.

١٨٧ – الحلبوني، خالد: المرأة في الجاهلية ودورها في النهضة الأدبية، مجلة بناة الأجيال، العددان ٧٠– ٧١، ٢٠٠٩م، مجلة فصلية لنقابة المعلين، سوريا، دمشق، ص ٨١.

تنشب بين أعضاء القبيلة الواحدة على ملكية أفراد ينتسبون إلى قبائل مختلفة فيلجأ المختصمون إلى رجل مشهود له بالتعقل والحكمة، أو إلى امرأة تمَّت لها هاتان الميزتان، وكثيراً ما يكون الحكم في هذه الحال كاهناً أو عرافاً[١٨٨].

ولقد حفظ لنا الإخباريون أسماء عدد من الكاهنات، منهن (طريفة الكاهنة) التي نُسب إليها تنبؤٌ لـ (عمرو بن عامر) أحد ملوك اليمن بزوال ملكه وخراب سد مأرب، ومنهن أيضاً (عفيراء الحميرية) التي تنبأت بظهور النبي محمد ﷺ وكذلك الكاهنة (سلمى الهمدانية) التي كانت بنت سيد من أسياد همدان، وتتصدر عشيرتها عن رأيها لحصافة قولها ودقة نظرتها[١٨٩]. وكما أسهمت المرأة العربية في معارف التنبؤ (الفراسة والقيافة)، كذلك تفوّقت في المعارف الطبية، فالكاهنة أو العرافة إذاً (طبيبة نفسية) تلجأ إلى ما يُسمى بـ (السحر) لتُخضِعَ الأرواح إلى سلطانها، فالمرأة الجاهلية طرقت إذاً باب الفكر بكافة مجالاته.

وقد اشتهرت من حكيمات العرب، هند بنت الخس الإيادي وأختها جمعة، اللتين عملتا في النثر كما ذكرنا سابقاً، وكن من حكيمات العرب أيضاً، وكذلك اشتهرت (صحر بنت لقمان) وقيل أنها أخت لقمان الحكيم، وكانت من نساء العرب المشهورات بالعقل والحكمة والكمال والفصاحة، وكذلك عُرفت حصيلة بنت عامر بن الظرب العدواني ابنة حكيم قيس، وكذلك حذام بنت الريان، وزرقاء اليمامة والبعض يطلق عليها لقب ملكة اليمامة وغيرهن كثر... إلخ.

فالمرأة في الجاهلية إذاً وبصفة عامة، كانت مُتمثلة لثقافة عصرها المحدودة من معرفة بالأنواء والنجوم وأسمائها، ولعلها كانت تتداول مع الآخرين الأساطير عنها، كما فعلت شعوب أخرى من قبل.

---

[١٨٨] – بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية – العرب والإمبراطورية العربية، ت منير بعلبكي ونبيه أمين فارس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٣م، ط ٢، ص ١٧.

[١٨٩] – الحلبوني: مرجع سابق، مجلة بناة الأجيال، ص ٨١.

ولا أدلّ على معرفة المرأة العلمية في العصر الجاهلي سوى عملها بالطب، فقد برزت في هذا العصر العديد من الطبيبات اللواتي كُنَّ يعالجن المرضى إلى جانب الأطباء ونذكر منهن: صحر بنت لقمان، التي عملت إلى جانب حكمتها بالطب، فكان لها بعض المعالجات الطبية البدائية، وكذلك هند بنت الحسن التي مارست الطب القديم بالوسائل القديمة والبدائية، وكذلك خمعة بنت حابس بن مليل، التي عاشت قبل الإسلام بعدة قرون، وقد جاء ذكرها في بعض المخطوطات القديمة، ونذكر أيضاً حصيلة بنت عامر الظرب العدواني، التي ظهرت قبل الإسلام بعدة قرون أيضاً ومارست الطب وبعض الجراحات البسيطة، وكذلك نذكر الشفاء بنت عبد الله، التي كانت من الطبيبات النشيطات والتي عاصرت بداية الإسلام واشتهرت في علاج الأمراض الجلدية ونالت شهرةً كبيرة عند المسلمين وتوفيت في عصر عمر بن الخطاب سنة ٦٤٠ م[١٩٠]، وكذلك نذكر الطبيبة زينب التي برعت في الكحالة ومداواة العين وجراحتها[١٩١].

---

[١٩٠] – شحاتة، مصطفى أحمد: الطب في العصر الجاهلي، مجلة العاديّات حلب، العدد الثاني ٢٠٠٩م، ص ٧١.

[١٩١] – حميدان، زهير: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥م، في ٦ مجلدات، م١، ص ٣٤.

المرأة في الموسيقا والغناء والرقص

إننا في الحقيقة لا نملك معلومات عن الفن الموسيقي والغناء في حضارة عرب الجنوب، ولكن من المتوقع أن يكونا قد ارتقيا، ولا سيما أن هذه الحضارات قد احتكت بالحضارات الشرقية القديمة واليونانية والرومانية، وإن المعلومات الواردة لنا حول هذا الموضوع، جاءت من خلال التماثيل التي عُثر عليها في عواصم دول معين وسبأ وكندة، حيث نُحتت عليها صورٌ لبعض الآلات الموسيقية، منها مثلاً: تمثال صغير من البرونز لامرأة جالسة على مقعد تضرب على دفٍ مستند على ساقيها. وفي اليمن المتقدمة اقتصادياً واجتماعياً، فقد ازدهرت الموسيقا وكان الملوك الارستقراطيون وأثرياء التجار يرعون الموسيقا ويشجعون الموسيقيين والموسيقيات، وكان الموسيقيون في الحجاز ينالون الحظوة في قصور الأمراء الآخرين"[١٩٢]. حيث انتشر الغناء، الذي يظهر على ما يبدو في أمهات القرى في بلاد شبه الجزيرة في القرن السادس الميلادي، كمكة ويثرب والطائف وخيبر ودومة الجندل، إضافة إلى اليمامة.

هذا وقد عُرِفَ عن أهل يثرب أنهم كانوا يحبون الغناء واللهو، وقد مارست النساء الغناء والموسيقا في بيوتهن، فكانت النسوة يُغنين ويرقصن ويراقصن أطفالهن ويهللن لنومهن، بل أن النساء في مآتمهن وأحزانهن كُنَّ يرجعن كذلك إلى النغم الموزون، وقد غنت بعض النساء في الجاهلية بغية الارتزاق، وهذا يعني تخصص النساء بالغناء واتخاذه حرفة لهن. وقد كان الغناء المرتزق في الجاهلية وقفاً على القيَان من الروم والفرس، أما الغناء غير المرتزق فقام به الجميع، فكانت نساء القبائل تساهم في موسيقى أعياد العشيرة أو القبيلة بملاهيهن وفي الحفلات والأعراس، وكانت

---

[١٩٢] – دلو، برهان الدين: جزيرة العرب قبل الإسلام – التاريخ الاقتصادي – الاجتماعي – الثقافي – والسياسي، دار الفارابي بيروت لبنان، ١٩٨٩م، ط ١، ج ٢، ص ١٠٦.

بعض نساء الجاهلية يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين فيها لاعبات على المزاهر، فيما كانت عذارى الجاهلية يرقصن حول أصنام آلهتهن رقصة الدّوار على إيقاع الموسيقا.

أما عن الرقص: فقد عُثر في (قرية) عاصمة كندة على تمثال من البرونز لامرأة وهي ترقص، فقد عرف عن عرب هذه المناطق حبهم للغناء والرقص.

وفي اليمن أيضاً، كشفت الحفريات الأثرية عن تمثال من البرونز لامرأة وهي ترقص مرتدية فستاناً طويلاً يمتد على سروال، وقد أبدع صانع التمثال في عمله فجعله حيّاً ينبض بالحياة، وقد ضيق خصر الفتاة وجعل الساقين بعضهما فوق بعض ليأخذ جسمها وضع حالة الراقص، وكانت عذارى الجاهلية يرقصن حول أصنام آلهتهم رقصة الدّوار كما ذكرنا سابقاً، وتعد رقصة (بني دوس) التي كانت تُرقص حول صنم ذي الخلصة من أشهر رقصات الجاهليين، فكانوا وهم يرقصون يرددون أنشودة (أشرق بثير كما نفير) وكان سيرهم حول نصبهم تارةً مشياً، وطوراً تمايلاً[١٩٣].

وفي الحقيقة فإن معلوماتنا عن الرقص الجاهلي ضئيلة، لكن كان من الممكن أن تقوم به النساء خاصةً في المنزل عندما تقوم المرأة الحرة ببعض الحركات ضمن جو الأسرة وخلال الأفراح. وقد حاول البعض التهجم على هذه الحالة الفنية عند المرأة الجاهلية، فجعل من الرقص والغناء مدعاة لانهيار المجتمع الأخلاقي، خالطاً ما بين الأمة والقينة والمرأة الحرة، وما بين الفن الرفيع الذي يُمارس في أوقات وأماكن مناسبة، وبين الفن البغيض، الذي يساهم في انحطاط ثقافة المجتمع، كما يحدث في عصرنا الحالي.

لقد كان مجتمع الجاهلية وأسوة بكل المجتمعات مليئاً بكافة الظواهر السيئة والحسنة، فكنت تجد المرأة ذات الصفات الحسنة والمفكرة والشاعرة والأديبة، بالإضافة إلى المرأة التي تمارس البغي، الذي أكد القرآن الكريم على وجوده، فقد ورد ذكره في القرآن: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (سورة النور، آية ٣٣)

[١٩٣] – المصدر نفسه: ص ١٣٤ – ١٣٥.

وكذلك في قوله: ﴿فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (سورة النساء، آية ٢٥).

وقد أشار القرآن أيضاً إلى وجود السِفاح في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (سورة النساء، آية ٢٤)، وفي قوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (سورة المائدة، آية ٥).

وقد انتشر الزنا في شبه جزيرة العرب، لكننا لا ندرك حجم انتشاره، على الرغم من محاولة البعض تضخيم هذا الانتشار، مُستندين على ذكره في القرآن الكريم، الذي شدد في تحريمه بعدة آيات نذكر منها: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء، آية ٣٢)، وهنا نشير إلى إن وروده في القرآن الكريم لا يعني شيوعه، فالراجح أن بيوت البغاء كانت موجودة في المدن كمكة والطائف، وكان لبيوت البغايا عادة رايات يُعرفن بها، ولذا كان يُطلق عليهن صاحبات الرايات[١٩٤]، مما يدل على نفور أهل شبه الجزيرة من هذه العادة السيئة، فأرادوا بذلك تمييز المرأة السيئة عن المرأة العربية الأصيلة، التي كانت تتحلى بصفات معنوية وخلقية جميلة.

أماعن نظرة الشعراء العرب للمرأة، فإن أكثر الشعراء صبّوا جلَّ اهتمامهم على وصف المرأة العربية من حيث الشكل والمظهر الخارجي، أي أن اهتمامهم كان مُنصباً على أوصافها الخلقية، أي على جسدها وأعضائها وصورتها الجسمية من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.

وأما الأوصاف الخُلقية أي المعنوية وغير المادية، فلم تنل من اهتمام الشعراء والكتّاب والمؤلفين، وأولى هذه الأوصاف الحياء والخجل، فالحياء صفة حميدة للمرأة لذلك كان الشنفرى الأزدي صاحب لامية العرب مُعجباً بحياء المرأة وحشمتها.

---

[١٩٤] – العلي: محاضرات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ص ١٥٠– ١٥١.

أما الصفة الثانية التي اتصفت بها المرأة العربية، فهي المشية الهادئة، فقد أحبَّ العرب المرأة الحيية (من الحياء) المصونة المخدرة* في بيت أهلها، قال الأعشى قيس:

غرّاء فرعاء مصقولٌ عوارِضها   تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

أما الصفة الثالثة، فهي العيش في ظل الترف والنعيم، فكثيراً ما وصف شعراؤنا القدماء محبوباتهم بأنهن يقضين أعمارهن في ظل حياة عزيزة كريمة منعمة يترعرعن في واقع مترفٍ رغيد، ويعشن في ظل خصب ورفاهية وفّرها لهن ذووهن في جو دافئ وثير مغمور، فهن يعشن كما تعيش ملكة النحل أو كما يحيا القطف (قطف العنب) في قلب الدالية[١٩٥]، وهكذا كانت نساء العرب الأحرار ذوات الشرف والنسب والعلم والثقافة لا ذوات البغي والزنا والسفاح والسرقة والانحطاط، كما حاول البعض تصويرهن.

وفي الختام نقول: لقد عاشت المرأة العربية في بيئة هيأت لها الكثير من مجالات الاعتقاد والتفكير، فهي بيئة صحراوية مخيفة كثرت فيها العقائد وأفكار السحر والشعوذة، إضافة إلى إرثٍ عميقٍ من الفكر الديني سواء منه ما يقدس الكواكب والقوى الطبيعية أو ما يقدس قوى خفية، وصولاً إلى الأديان السماوية. وهذا ما ترك لدى بعض النساء عقائد مختلفة ومتخلِّفة، فمن هذه العقائد والمعتقدات، دخولها عالم الهواجس كالخرزات والتمائم والرقى لاتقاء الأذى والعين وشرور الجن، ولاجتلاب قلوب الرجال ورضاهم، كذلك كانت المرأة تعتقد بالطائر وأصواته، فالغراب طائر النحس، والهدهد طائر النجاح والتوفيق.

ومن عادات المرأة فيما يتعلق بالرجل وسفره، إنه إذا ركب الرجل راحلته وبدأ ارتحاله وكان بغيضاً للمرأة أوقدت النار، أما إذا كانت حبيباً إليها قبضت قبضة من

---

* – المرأة المخدرة، هي التي لا تكثر الخروج والولوج والإقبال والإدبار.

١٩٥ – النميري، حسن موسى: المرأة العربية أخلاقها صفاتها المعنوية، مجلة المعرفة السورية، العدد ٥٢٠، ٢٠٠٧م، ص ٤٣١ وما بعدها.

مواطئ قدمه واحتفظت بها فيسرع في عودته، وإذا طالت غيبته وخفيَ عليها خبره جاءت إلى بئرٍ مظلمةٍ بعيدة الغور ونادت باسمه، فإن سمعت صوتاً علمت أنه حي[١٩٦]، وما إلى ذلك من العقائد والعادات المختلفة وفي كافة مجالات الحياة، والتي لا مجال لذكرها كافة، ولكنها بكل الأحوال تدل على تفكير بعض نساء العصر الجاهلي وليس كلهن.

أما وأننا نتحدث عن المرأة بشكل عام، فقد كانت المرأة في شبه جزيرة العرب كما في كل عصر، فمنهن الفاضلات والعالمات والشريفات والشاعرات والعاقلات ومنهن الرخيصات الزانيات والعبدات. لا كما حاول بعض المستشرقين تعميم الصِّفات السلبية ومنع إظهار الصفات الإيجابية. وأنا هنا لست بِمعرض الدفاع عنهن، وإنما أحاول قراءة التاريخ والحضارة العربية قراءةً موضوعية بعيدة عن الحقد والكره واليأس وجلد الذات، مُحاولاً أن أُذكِّرَ البعض بمآرب الآخرين من تشويه تاريخنا، خاصة على المستوى الإنساني الثقافي الحضاري، وهذا لا يعني بياض صفحة تاريخنا فيما يخص النساء، فبكل موضوعية أقول: لقد وُجِدت الكثيرات ممن عانين من قسوة الرجل والمجتمع والبيئة الجغرافية، فمن ظاهرة الوأد – رغم محدوديتها – إلى ظاهرة الإماء والسراري، وصولاً إلى ظاهرة العبيد (العبدات)، فكلهن نساء عانين الكثير وكن يُبعن ويُشترين كما تُباع السلعة وتُشترى في سوقٍ كان البعض يستمع فيه إلى شعر الشاعرات وحكمة الحكيمات، مما يدل على تنوع ذلك المجتمع، وعلى أن غالبية النساء كن يعشن بشرفٍ وعزة ويعملن جنباً إلى جنب مع الرجل في الحقل وفي المجال الصناعي والتجاري، وتربية الرجال قبل الأطفال، وإدارة شؤون المنزل قبل إدارة الدولة، وهما المهمتان الأهم للأنثى كما رأينا، وكما أعتقد.

---

[١٩٦] – حداد، جورج، وراتب الحسامي: مختصر تاريخ الحضارة العربية، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٤٤م، ص ٢١٤.

الفصل الثامن

المرأة العربية في بلاد الشام
في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد

مقدمة

لقد شهدت بلاد الشام قيام حضارات قديمة بتأريخها عريقة بتاريخها، كريمة بعطائها، جمعت بين جنباتها صفات واحدة، وبكل تأكيد كانت نابعة من عدة ظروف، منها طبيعة بلاد الشام ومُناخها وبيئتها، وماله من تأثير على نمو الملكات العقلية لدى سكان هذه المنطقة وعلى طِباعهم، فكانت معظم حضارات هذه البلاد ذات طابع سلمي حضاري، بعيدةً عن النزعة العسكرية، خلافاً لما شاهدناه في بلاد الرافدين ومصر.

هذا وبالإضافة إلى موقع بلاد الشام المتوسط ما بين بلاد الرافدين من جهة ومصر وشبه الجزيرة العربية من جهة أخرى، وكذلك مجاورتها لبلاد الأناضول بعراقتها، وانفتاحها أيضاً على عالم البحر المتوسط في الغرب.

إن هذا الموقع المتميز لبلاد الشام، جعل منها قِبلة لكل الجيوش الغازية وأرضاً للحضارات والدول المجاورة، من آشورية وأكادية، مروراً بالحثية والميتانية الحورية ووصولاً إلى غزوات شعوب البحر وجحافل ملوك مصر الأقوياء. مما انعكس على الطابع الدفاعي لسكان هذه المنطقة وممالكهم، حتى أن أعظم الدول والممالك التي قامت فيها كـ إيبلا وماري ويمحاض (حلب) وما وصلت إليه تلك الدول من قوة، إلا أنها كانت عرضةً دائماً للقوى الناشئة في بلاد الرافدين ومصر والأناضول، مما جعلها تسقط تارة وتقاوم طوراً. هذا المصير الذي كان السِّمة الأساسية لممالك بلاد الشام، كان بسبب اعتمادها نموذج قوة الحضارة، لا نموذج حضارة القوة، فمن هجمات

الآشوريين والأكاديين والبابليين من جهة والحثيين والحوريين وشعوب البحر من جهة أخرى، وصولاً إلى أطماع جيوش وقادة مصر، كانت ممالك هذه المنطقة تنهار تحت سنابك الخيول وقذائف منجنيقات الجيوش الآشورية وغيرها من قوى أخرى، لكن سكان هذه المنطقة تعوّدوا دائماً على النهوض ثانيةً في كل مرة رافضين الخنوع والاستسلام حتى ولو كان الغازي من أبناء عمومتهم أو أشقائهم من بلاد الرافدين، وربما مصر، مؤكدين على عبقرية هذا الشعب من خلال قيامه بالنهضات المُتعاقبة عبر الزمن، رغم اعترافنا بعظمة ممالك سومر وبابل وآشور في بلاد الرافدين، وكذلك وادي النيل.

لقد كانت بلاد الشام دائماً نقطة عبور الجيوش ومُلتقى الحضارات، فأصبحت مهداً لها ومنبعاً غنياً للفكر والثقافة على مرِّ العصور.

وسكان بلاد الشام، وإنني عندما أتحدث عن بلاد الشام، فإنما أتحدث عن سوريا اليوم ولبنان وفلسطين والأردن بحدودها السياسية الحالية.

لقد قامت على أرض بلاد الشام ممالك عدة، كان أشهرها إيبلا في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، وكذلك مملكة ماري على الفرات، ومملكة قطنة في المنطقة الوسطى (تل المشرفة) قرب حمص حالياً، ومملكة يمحاض (حلب) في الألف الثاني قبل الميلاد، إضافة إلى دول الممالك الكنعانية على الساحل السوري، كنعانيو الشمال (الفينيقيون) وكنعانيي الجنوب على أرض فلسطين، رغم اعتراضنا على هذا التقسيم المشبوه .

لقد كان لهذه الظروف السياسية والحضارية انعكاساً كبيراً على نساء بلاد الشام، فقد قدمت نساؤنا أمثولة عظيمة في العطاء والشموخ تارةً، ووقفت إلى جانب الرجل – تضع اللبنة تلو الأخرى في مداميك بناء الحضارة الإنسانية جمعاء – تارةً أخرى، كما أنها شاركت الرجل ووقفت معه على قدم المساواة في قيادة الدولة، حاكمةً، عالمةً، مالكة، كاتبة، تاجرة ومساوية له أيضاً في تحمُّل ظروف الدفاع عن الأرض أمام الغزو، وظروف القهر والحرمان والعبودية أحياناً.

فالرجل لم يميّز عنها بشيء إلا في حالات قليلة، فارتفعت مكانة المرأة بارتفاع مكانته وانهارت بانهياره، ذلك مع اعترافنا بتفاوت وضع المرأة ما بين مملكة وأخرى، تِبعاً للظروف، وما بين المرأة في القصر عنها في الشارع والمنزل، وعنها أكثر في العبودية والقهر. فوصلت المرأة تارةً إلى حد التأليه، وطوراً كانت تنهار إلى الدرك الأسفل في سلم الإنسانية، وهذا ما سنتعرف عليه بالتفصيل مع دراستنا لأوضاع المرأة في هذه الممالك العربية القديمة.

المرأة العربية في إيبلا

مقدمة تاريخية

إيبلا، اسمٌ تاريخي لمملكةٍ قديمةٍ ورد ذكرها في ألواح نفر (نيبور) وعلى تمثال جوديا، وفي لوح اكتشف في مدينة أور يحكي قصة استيلاء نارام سين ملك أكاد على إيبلا وأرمانوم التي يُعتقد أنها حلب، بينما لم يرد ذكرها في سجلات مملكة ماري.

ففي عام ١٩٥٥م وبينما كان أحد الفلاحين السوريين يحرث أرضه الواقعة بموقع (تل مرديخ) الواقعة جنوب حلب قرب بلدة سراقب، عثر بطريق الصدفة على حوض حجري قديم لعله كما تدل الدلائل يعود إلى الفترة السورية القديمة ١٩٠٠- ١٨٥٠ ق. م، ويؤكد هذا الحوض الأهمية الكبيرة للمراحل الأولى من تاريخ سوريا سيما وإن التنقيبات السابقة التي قامت بها البعثة الأثرية البريطانية في تل العطشانة (آلالاخ) كانت قد كشفت في ذلك الموقع نواحي مهمة من الحضارة السورية في مراحلها المختلفة. إلا أن العمل الحقيقي في تل مرديخ جاء مع الموسم التنقيبي الأول للبعثة الأثرية الإيطالية عام ١٩٦٤م بقيادة باولو ماتييه (العالم الأثري الإيطالي والأستاذ في جامعة روما) وإلى جانبه العالم اللغوي جيوفاني بيتيناتو المختص باللغة (اللهجة) الكنعانية، وفريق عمل آثاري كامل.

وقد أظهرت تنقيبات عام ١٩٦٤م أن الدور المزدهر من حياة تل مرديخ، يتمثل في الطبقات الأثرية الأعمق، والتي قُسِمت إلى ثلاث فترات زمنية:

- مرديخ – ١ – ٢٤٠٠ – ٢٢٥٠ ق. م.
- مرديخ – ٢ – ٢٠٠٠ – ١٨٠٠ ق. م.
- مرديخ – ٣ – ١٨٠٠ – ١٦٠٠ ق. م.

والذي يقع في عصر البرونز الأوسط (١- ٣) حيث تحول التل إلى خراب مهجور بعد أعمال عدائية تُنسب إلى الحثيين الغزاة الجدد، وقد أقيم فوق أطلال مركز المدينة قرية حديثة من العصور الفارسية والهلنستية.

وفي عام ١٩٦٨م تم العثور على أول شاهد لوجود هذه الحاضرة، كان ذلك عندما اكْتشِفْ في موقع التل تمثال بازلتي نصفي مقطوع الرأس، عليه الكتابة المسمارية التالية: «هذا الحوض تقدمة لمعبد الرّبة عشتار من أبيت ليم ابن أجريش حيبا ملك من سلالة إيبلا». وفي السنة الثامنة لعشتار ومنذ أن تألق نجم إيبلا أدخل أبيت ليم هذا التمثال إلى المعبد من أجل حياته وحياة بنيه وسُرَّت عشتار بهذه التقدمة سروراً كبيراً.

أما عن اسم إيبلا، فيقول العلامة اللغوي (فرونزار وللي): من المحتمل جداً أن هذا الاسم الذي أصبح موثقاً في الشواهد الكتابية منذ حوالي ٢٤٠٠ ق.م هو الاسم الأصلي لموقع تل مرديخ منذ أصوله. بالفعل يتيح لنا الاسم (إيبلا) إعادة إنشاء شكل مُستمد من اسم (عبل) بناء على ذلك نستطيع الاستنتاج بأن معنى هذه التسمية يحمل نفس المعنى الأساسي الذي أوصله إلينا المعجميون العرب الذي يعني (عبلة) أي الصخرة البيضاء أو الحجر الأبيض، ومن الناحية التحليلية شرح المعجميون كلمة عبلة بأنها ذلك الشريط الضيق في أرض سواد والمكون من حجارةٍ بيضاء[١٩٧].

وفي عام ١٩٧٤م قادت التنقيبات إلى اكتشاف أحدث انعطاف كبير في معلوماتنا عن حضارات بلاد الشام القديمة، كان ذلك هو اكتشاف القصر الملكي الذي يعود إلى العصر البرونز القديم ٢٤٠٠ – ٢٢٥٠ ق.م والذي يمتد على مساحات كبيرة، وقد أعطى معلومات كوّنت ما يُعرف بثقافة سوريا في الألف الثالث قبل الميلاد، وهو المركز الإداري والاقتصادي والسّياسي للمدينة، التي كانت مُعاصرة للأدوار الحديثة من السلالات الباكرة السومرية، وللأدوار الأولى للعصر الأكادي

---

[١٩٧] – بهنسي، عفيف: وثائق إيبلا، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٤م، ص٧ – ٨.

الرافدي، مما يدل على أن إيبلا في هذا العصر، كانت مركزاً لقوة سياسية تمتد إلى حدود طوروس شمالاً وحتى قطنة (حمص) جنوباً وإلى الأمانوس غرباً وحوض البليخ شرقاً.

ففي هذا الموسم، اكتشفت قاعة العرش الكبرى، التي عُثر إلى جانبها محفوظات الدولة الكتابية بأعداد ما بين ١٥- ١٦ ألف رقيّم ومواد أثرية نفيسة، كانت قد قُدمت إلى القصر كهدايا أو ضريبة.

لقد قدمت لنا هذه الرّقم معلومات إدارية وسجلات دخول وخروج المواد الأولية وبعض الوثائق الرسمية والمعاهدات العامة التي تتعلق بالحياة السياسية لذلك العصر، إضافة لنصوص تذكارية وحوليات للملوك، وكذلك نصوص تعليمية ومعاجم صغيرة تُفيد بدراسة لغة إيبلا التي وجدت من خلال الرّقم، وعثر أيضاً على بعض النصوص الأدبية والدينية والأساطير والملاحم والأدعية والصلوات والطقوس التي تدل على سمو ثقافة وحضارة إيبلا. لقد كانت لإيبلا علاقات كبيرة مع أوغاريت ومصر وجبيل وكركميش (جرابلس حالياً) وحران وماري ونجر (ناغار) وآلالاخ وسومر وأكاد، وقد عاشت إيبلا بغنى اقتصادي سببه التجارة النشطة والزراعة المتطورة بفضل قنوات الري الحديثة آنذاك، إضافة إلى صناعة الحرير والبروكار الموشّى بالذهب، وكذلك الصناعات الخشبية والنسيجية، مما انعكس على المستوى المعاشي لسكان إيبلا وخاصة النساء وباقي فئات المجتمع، الذين عاشوا في غنى وترف، وتجلى ذلك من خلال اللقى الذهبية ذات الحرفة العالية والتي تمثّل حالة رقي اقتصادي واجتماعي لسكان إيبلا ولنسائها اللائي ارتدين هذه الملابس النسيجية والحريرية ولبسن هذه الحلي الذهبية، والتي إن دلت على شيء، فإنها تدل على مكانة سامية للمرأة في إيبلا.

إن أهمية اكتشاف إيبلا تأتي من خلال إثبات وجود نظام دولة في سوريا في الألف الثالث قبل الميلاد، ونفي ما أُشيع على أن سوريا في ذلك العصر ما هي إلا طريق عبور ما بين النفوذين الرافدي والمصري فقط.

نساء إيبلا

قدمت لنا النقوش والرقم والآثار أدلةً دامغةً على المكانة العالية لنساء إيبلا، اللواتي كن يعشن في مجتمع وصل إلى ذروة المجد في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

إيبلا هذه الحاضرة في شمال بلاد الشام، كانت تنظر للمرأة نظرة تقدير واحترام، محافظةً على الكثير من قداسة المرأة، ومُعطية إياها مرتبةً تكاد تكون قريبة من التأليه، فقد استمرت إيبلا تعتبر أن المرأة رمز العطاء والخصب، وكأنها بقيت تحافظ على النظرة السابقة للمرأة، التي سادت في المنطقة في الألفين الثامن والسابع وحتى السادس قبل الميلاد.

هذه النظرة أوصلت المرأة إلى أعلى درجات التقديس، فقد كانت المرأة هي الإلهة الأم ومصدر كل عطاء ومنبع كل خير، فهي الأرض التي تعطي الإنسان أسباب الحياة*. والدليل على هذه القداسة للمرأة في إيبلا، وإن كانت أصبحت في المرتبة الثانية بعد الآلهة المذكرة أي بعد الرجل، إلا أنها كانت ما تزال بقدسية عالية، أعطت لها أهميتها ودورها إلى جانب الرجل، وقد تجلّى هذا بوجود العدد الكبير من الآلهة الأنثى إلى جانب الآلهة المذكرة، فإلى جانب الإله سيبيش الذي يعادل شمش، والإله أدّا (حدد) إله العواصف، والإله ماكيش، ورسب (رشف) والإله ليم المعروف في ماري، والإله دجن، والإله دمو، والإله كورا، والإله إداكول، وُجدت الآلهة المؤنثة أمثال: الربة خيبات، وإشارا، والربة اشخارا، والربة نيداكول، والربة (آدم – توم) الاسم المؤنث للرب (أداما) وكذلك وُجدت الربة (أي – سا – تو) حسب التعبير السومري وهي ربة النار، والربة نيدكاردو وهي ربة سومرية أيضاً. هذا إضافة إلى أعظم الربات وهن الربّة عناة، والربة عشتار.

---

* – الأرض هي الأم في عقيدة الشرق الأدنى القديم كما رأينا سابقاً.

إن هذا العدد الكبير من الآلهة المؤنثة، وإن كان بعضها ذا أصول غير إيبلائية، إلا أن وجودها بهذا الكم الكبير والمساوي تقريباً لعدد الآلهة المذكرة، لهو خير دليلٍ على المكانة التي كانت تحظى بها المرأة في إيبلا. وذلك بمعنى، أن العقل الذي يتقبل فكرة وجود الآلهة المؤنثة إلى جانب الآلهة المذكرة، وإن آمن بتعدد الآلهة، هو عقلٌ منفتحٌ على نصفه الثاني، ويقبل منه مشاركته في تمثيل الآلهة على الأرض. ولأهمية هذه الفكرة، يكفي منّا محاولة تطبيقها في عصرنا الحالي؟ ورؤية مدى عظمة رفضها، لندرك مدى أهميتها سابقاً.

أما عن الرّبة عشتار، التي تأتي مرتبتها في رأس قائمة مجمع الآلهة الإيبلائية، فهي الربة التي بواسطتها استطعنا معرفة مدينة إيبلا، وكان ذلك عندما تم اكتشاف تمثال بازلتي نصفي مقطوع الرأس عليه الكتابة المسمارية السابقة، التي بواسطتها تعرفنا على مدينة إيبلا، حيث كان الملك إبيت ليم ابن اجريش حيبا – ملك إيبلا – قد قدَّم لها الحوض في السنة الثامنة من حكمه، ووضع الحوض في معبد الربة عشتار، وهو من أهم المعابد في إيبلا، لِما تمثله عشتار من أهمية كبرى، كأحد أهم ممثلي آلهة الخصوبة والعطاء والأنوثة، فقد كان معبد الربة عشتار أحد أهم المعابد في إيبلا إلى جانب معبد الإله داجان، وهو رب الآلهة في شمال سوريا، إضافة إلى معبد الإله حدد إله الطقس والصواعق، وكذلك معبد الإله زابيش (سيبيش) إله الشمس ومعه الإله رشف إله الحرب والعالم السفلي، كذلك معبد الإله دامو (دموزي) والذي يُعتبر زوج الإلهة عشتار.

لقد كانت للمرأة في إيبلا مكانةٌ عالية في القصر الملكي وخارجه، فقد كانت المرأة عند الإيبلائيين تُسمى (دام) ويسبقها – إن سيد – سيدة – والتي تعني (السيدة دام) هذه الكلمة مُشتقة من اسم الإله دامو = دم BLOOD مما يؤكد على صلة المرأة بالآلهة وقدسية مكانتها، وفي عصر الرومان استخدمت هذه الكلمة لاسم المرأة (دومنا) وأُطلق على (جوليا دومنا) الحمصية الأصل في العصر الروماني... وإلى

اليوم ما زلنا نطلق على السيدة اسم (دومنا) وعلى السيد اسم (دومنول) وفي الفرنسية لقب السيدة هو (دام)، إذن فالاسم الإيبلائي للمرأة، ما زال سائداً إلى اليوم[١٩٨].

مكانة المرأة في القصر

بدأت الوثائق المكتوبة بالظهور في موسم التنقيب عام ١٩٧٤ م، وفي العام ١٩٧٥م عُثر على مكتبة القصر الملكي وتمَّ استخراج آلاف الرقم المسمارية، التي أعطتنا فكرة واضحة عن نظام الحكم في إيبلا، وكذلك قائمة ملوك إيبلا، ووضع المرأة داخل القصر الملكي. ففي بعض النصوص المسمارية السالفة الذكر، ورد بالإضافة إلى أسماء سلسلة من ملوك إيبلا العشرة، أسماء ثلاثة أرباب مع بعلاتهن، الأول هو كبير آلهة إيبلا المدعو نيداكول وقرينته بعلة، والثاني هو الإله رشف وقرينته آدما، والثالث هو الإله آجو وقرينته جولاتو.

هذا، بالإضافة إلى سلسلة من ملوك إيبلا العشرة المُقَدمين بالأقدم عهداً وتنتهي بالأحدث وهم، إركب دامو، إجريش حلم، آدوب دامو، كوم دامو، إيسار ملك، إن – آ– دامو، با– دامو ،إبي – دامو، آجورليم، آبورليم[١٩٩]، وبالإضافة لهؤلاء الملوك، فقد تعرفنا على بعض الملكات والأميرات في القصر الملكي، وكذلك على نظام الحكم ومكانة المرأة العالية فيه. فقد كان يسود هذه المملكة نظامُ حكمٍ قوامه هيمنة الأسرة الحاكمة على شؤون الدولة، وكان على رأس هذا النظام كما هو معهود في تلك العصور حاكمٌ أو سيدٌ أي مالك، وهو بالإيبلائية (ماليكوم) أو (مليكوم) وهي نفس كلمة ملك أو مالك أو مليك بالعربية، وشقيقه أو ولي العهد هو الذي يتولى تصريف

---

[١٩٨] – قوصرة، فايز: المرأة في إيبلا، مجلة المعرفة، سوريا، العدد ٥٣٩ عام ٢٠٠٨م، ص ٣٢٩ – ٣٣٠.

[١٩٩] – أركي، ألفونسو: ملوك إيبلا العشرة، مجلة دراسات تاريخية، العدادان ٢٧ – ٢٨، ١٩٨٧م، ص ١٢٠ – ١٢١.

الشؤون الداخلية، على حين يُعهد إلى شقيقه الأصغر منه بالشؤون الخارجية. ويأتي مقام الملكة مباشرة بعد الملك، ثم يلي ذلك اسم الأمير وولي العهد وباقي أولاد الملك بالتسلسل، وقد ورد ذكرٌ لواحدٍ من ملوكِ إيبلا أنجب ٣٨ ولداً [٢٠٠].

كما تفيد ترجمات الرقم المسمارية المكتشفة في إيبلا، أن الملكة (ملكتوم)، ووالدة الملك (آماجال – إن) كان لها الدور الهام في مختلف الشؤون الإدارية في الإمبراطورية، وقد استطاع علماء اللغات القديمة أن يتعرفوا على اسم الأم لملكتين من ملكات إيبلا، الأولى وهي (زاربا – بيش دو) والثانية (نيتي – بودو) كذلك هناك إشارات إلى وجود وصيفات لأم الملكة.

أما فيما يتعلق بأم الملك، الوارد اسمها في بعض الرّقم، فهي (دوسي – جو) التي يأتي ذكرها دائماً باسم (آماجال – ميلكو) غير أنه لم يُعثر على اسم ابنها الملك، ومن المحتمل أن (دوسي – جو) كانت ملكة في وقت مضى، وعُثر أيضاً على والد ووالدة وشقيقات وأشقاء (دوسي – جو) فاسم أمها (أدادا) واسم أبيها (آمو) واسم أخيها (با – آب – مالك) واسم أختها (أش – روت) واسم أختها الثانية (اش – لودو).

كما تحفل نصوص إيبلا بأعداد كبيرة من النسوة اللاتي يحملن لقب (دام – إن) أي (حريم الملك) وذلك في نصوص الحصص من المواد الغذائية، وهن يعملن في مجالات النسيج والطبخ والطحن، وهناك قرابة المئة منهن، من بينهن قرابة الثلاثين يرد ذكرهن في نصوص توزيع الألبسة والحلي، ولا شك بأنهن من أهم الشخصيات النسائية في إيبلا، فقد كان لبعضهن مكانة في توزيع الحصص الغذائية.

ويحصل حريم الملك الثلاثون في جميع النصوص المسمارية التي يرد ذكرهن فيها على ألبسة من نوع (زارا) وعلى مشابك من الفضة أو على الأصواف، ومن النادر أن يحصلن على أنواع أخرى من الألبسة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الألبسة من نوع زارا لا توزع إلا على نساء البلاط أو نساء الوجهاء، وهذا النوع أيضاً

---

[٢٠٠] – الدقاق، عمر: إيبلا منعطف التاريخ، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٩م، ص ٦٨ – ٦٩.

مخصصٌ للنساء ولا يُعطى للرجال بتاتاً، ولعل هذه الهبات يجري توزيعها على حريم الملك، وعلى بنات الملك أو على حريم وبنات الملك (إيبريوم) و(أبي زكير)، ويبدو واضحاً أن المقصود هو نساء الأسرة المالكة ونساء البلاط، وإن كلمة (دام) أي امرأة السالفة الذكر تشمل الزوجات الثانويات للملك ونساء البلاط أو نساء (دار الحريم) وهؤلاء النسوة كُنَّ من أبرز شخصيات بلاط إيبلا[٢٠١]، ودار الحريم هنا تختلف تماماً عن ما سيسمى لاحقاً بـ (الحرملك في العصر الإسلامي).

فكانت الملكة وشقيقات الملوك وبقية نساء الملك (دام – إن) اللواتي يُقدَّر عددهن ما بين ٢٦ – ٥٠ امرأة، يُضاف إلى هؤلاء، امرأة موظفة للخدمة وتحضير الطعام وغيره، وكلهن كن يعشن في بيت الملك السابق، ولكن في جناحٍ مُخصص لهن وهو بالتأكيد جناح الحريم المعروف في جميع قصور الشرق، وهو – هنا – الأول من نوعه في التاريخ* ، وقد كان هذا القسم معزولاً بشكل قاطع عن قسم الرجال وكذلك الحال بالنسبة لتوزيع مخصصات الطعام والمؤونة[٢٠٢].

وكان الكثير من الرجال الذين يُشكلون الدرجة الثانية أو الثالثة بعد الملك والوزير، الذين كان لقبهم (شروم) وهو لقب الملك في بلاد الرافدين، وكانت سلطاتهم تقع خارج القصر، حيث يملكون المزارع والقرى الصغيرة، وكانت أهميتهم تأتي من كونهم يستطيعون التقدم للزواج من إحدى بنات الملك، كي يحظوا بمكانةٍ عالية في القصر، ولكي تزداد سلطتهم في المدينة، فكانوا يشكلون طائفة أو قِلَّة مدنيّة حاكمة، من خلال تقربهم من القصر الملكي عبر زواجهم من بنات الملك.

لقد كان دور الملكة الأم أو أم الملك، التي كانت تدعى (آماجال إن) أو (السيدة الأم جال) هذه الملكة الأم، قد تنفذت لعدة سنوات في الحكم.

---

[٢٠١] – القيّم، علي: امبراطورية إيبلا، دار الأبجدية للنشر، دمشق ١٩٨٩م، ط ١، ص ٦٨ – ٦٩.

* – وهو يختلف من حيث التوظيف عن الحرملك كما ذكرنا سابقاً.

[٢٠٢] – عبد الله، فيصل: تاريخ الوطن العربي القديم – بلاد الشام – سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، دمشق ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤م، ص ٢٩٠.

كما ورد في بعض النصوص، أسماء أميرات في إيبلا، منهن من تزوجن بحكام آخرين، كما ذكرنا سابقاً، كالأميرة زائشة (عائشة) ابنة الملك – إبي سيبش – والأميرة (تركبو)، والأميرة (تيشمار – دامو) والأميرة (إن – اوتو) والأميرة (ماشيجبياعوت) والأميرة (تخاديتو) زوجة الملك (إركب – دامو) التي ماتت قبل زوجها بخمس سنوات، لذلك بحث (إركب – دامو) عن محبوبة له حتى وجدها وكانت تُدعى (ديو سيكو) لكنها لم تحصل على لقب ملكة، ومع ذلك تمكنت من تنصيب ابنها (إشار – دامو) ملكاً رغم صغر سنه، وبعد عشر سنوات تزوج من الملكة (طابو – دامو)، وقد استمرت سلطة ونفوذ أم هذا الملك خمس سنوات بعد زواج ابنها.

وهناك وثيقتان ورد فيهما ذكرٌ للمرأة، تقول الأولى: «/١١/ امرأة عاملة في خدمة الملك و/١٤١/ امرأة يقمن بأدوار أخرى» وهذا دليل واضح على دور المرأة في القصر وخارجه، بينهن /١٢/ مُرضعة تُسمى عندهم GADU أو كادو، وهي كلمة استخدمها الرومان بمعنى هدية، وهناك /١٩ – ٢٠/ مُغنية تُسمى عندهم (نارمن) وهو اسم شائع اليوم، بالإضافة إلى ذكر /١٦/ عاملة إسطبل تُسمى عندهم (إرججير) و/٨/ حاجبات يُدعين (كدساك) و/٤/ عاملات للحديقة و/٢٢/ مُشرفة على مجموعات النساء، تُسمى عندهم (إب – إب) و /٢٠/ (آم – آ – آم)، و/٣٠ – ٣٣/ نساء مُسنات يُدعين (دام آبا) ثم /٩/ نساء أخريات.

لقد كان الإيبلائيون ينظرون إلى الملكة وإلى أم الملك ولسيدات أخريات كأنهن المقربات من الآلهة، لذلك حظينَ بخادمات (إناث) مُعيَّنات خصيصاً لخدمتهن... برز منهن (دوسيكو) أم الملك وأخوات الملك اللواتي عشن في البلاط الملكي لـ ازادو = (آر) وتعني خصب، عطاء جنسي، و(وزادو) وتعني العطاء والطعام، أي اسمها العطاء الجديد (دينيب – دولوم) أو (زينب دلال – دلو)، أو بناته المدعوات بلهجتهم (دو مو – مي – إن) أي سيدة من دمي؟ وهذا الاسم ما زال شائعاً (دُمية) وتعني الفتاة الصغيرة – ومنهن (زوجالوم) التي كادت أن تُصبح ملكة حران في الشمال الشرقي من الرقة، واسم (زوجالوم) اليوم نستعمله بلفظ زوجة.

ويبدو أن أخوات الملك لا يعشن مع نسائه، وكأنهن يعشن فيما يُسمى بـ «الحرملك» مُحجَّبات عن البقية من النساء، وتحركاتهن محدودة، يتقيدن بآداب الملك والعرف الملكي المتشدد[٢٠٣].

أما عن دور الأميرات في القصر الملكي، فقد أثبتت الرقم المسمارية أن للأميرات دوراً كبيراً فيه، وذلك من خلال دورهن الهام في تقديم الأضاحي للآلهة، بحيث كان للأميرات مرتبة مُتقدمة في سُلَّم تقديم الأضاحي، فقد تضمنت بعض الرقم المسمارية صورة متكاملة للعبادة الرسمية في إيبلا، وتزودنا باسم صاحب التقدمة ونوع مادة التقدمة، كما تذكر اسم الرب، وتحدد مكان التقديم، والفترة الزمنية ومناسبة الحدث، ولما كانت أسماء صاحب التقدمة تشمل الملك والملكة وأمراء العائلة المالكة وكبار الموظفين، فإن الرقم الأربعة التي ذكرت هذه التقدمات، تُعتبر مصدراً هاماً لرسم شجرة العائلة لملك مُعيَّن اسمه (ابي زبيش) وهو آخر ملوك سلالة إيبلا، فكان (ابي زبيش) الذي يحتل المركز الأول في قائمة المُتقدمين بالأضاحي، ويأتي بعده (ار – أك – دامو) في المرتبة الثانية بين قائمة المتقدمين بالأضاحي وهو ابن (ابي زبيش) حسب الوثيقة ذات الرقم ١٨٢٨ \ ج \ ٧٥ \ ت. م، ثم يأتي دور الملكة، التي تحتل المرتبة الثالثة بين المُتقدمين بالأضاحي، وبعدها أبناء الملك الأربعة، ثم يأتي دور الأميرات خِلافاً للأمراء، وهذا دليلٌ كبير على دور المرأة المُتقدم في إيبلا. فقد ذكرت النصوص الأربعة الأميرات بأسمائهن، وهن يحتلِلْنَ المركز التالي لمركز الملكة في الرقيم الثاني والثالث والرابع. أما أسمائهن فهي حسب التسلسل كالآتي:

أ – الأميرة زائشة، وهي ابنة الملك أبي زبيش، التي يُفترض أن يكون اسمها عائشة.

ب – الأميرة كيشدودو.

ج – الأميرة أن – اوتو.

---

[٢٠٣] – قوصرة: المرأة في إيبلا، مرجع سابق، ص ٣٣٠ – ٣٣٢.

د – الأميرة تيشمار – دامو.

هـ – الأميرة ما شيجيباعوت.

و – الأميرة تخاديتو.

ز – الأميرة تركبو.

إذن، فالملكة تقدم الأضاحي للرب (بردو – مادو) ويعني القوي البارد والمقصود به نهر الفرات نفسه، وهو نهر مؤلَّهٌ في إيبلا.

فالأميرة زائشة (عائشة) تُقدم الذبائح لسيد البلاد في شهر عشتار، والأميرة (كيشدودو) تقدم الذبائح للرب (رينجر – امو) في الشهر السادس والحادي عشر، وأحياناً تقدم الملكة الذبائح للرب (جو بي) في الشهر السادس أيضاً، والأميرة (كيشدودو) تقدم الذبائح أيضاً لربة النار أو (أي – سا – تو) وذلك في الشهر الحادي عشر وهو شهر عشتار، كما قدَّمت الأميرة زائشة الذبائح للربة (خيبات) (كا – با – تو) في الشهر الحادي عشر أيضاً[٢٠٤].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه الرقم المسمارية، وُرود أسماء أميرات يحملن صفة القدسية، مثل صفة (مسائل – توم) أو (أنسي) أي مفسرة الأحلام، التي يقترن اسمها مع اسم الأميرة (زائشة – عائشة) والأميرة (تركبو)، ثم صفة (با – ستيش) السومرية، التي تعني (الكاهنة المُعمَّدة بالدهون). إن كل ما سبق – لا بد وأنه – يدلُّ على دورٍ كبيرٍ للأميرات في القصر الملكي، وعلى مكانة المرأة في هذا القصر وفي إيبلا عموماً.

كما كان للبيت الملكي في إيبلا أهمية كبيرة وشهرة واسعة وصلت كل جهة على امتداد مناطق الشرق العربي القديم، لذلك ليس مُستغرباً أن يتسابق الملوك والأمراء من هذه المناطق إلى تزويج بناتهم للأسرة المالكة في إيبلا، ودليلنا على ذلك ورود أسماء حريم الملك مع أسماء نسوة أتين من عدة مدن، مثل: فلانة من مدينة

---

[٢٠٤] – ماتييه، باولو – ألفونسو أركي وآخرون: إيبلا – عبلاء – الصخرة البيضاء – دراسات أثرية ولغوية وتاريخية، ت. قاسم طوير، مطبعة سوريا، دمشق ١٩٨٤م، ط ١، ص ٩٥ وما بعدها.

(أرجاردو) وفلانة من مدينة (آزان) وفلانة من مدينة (الؤوب). وقد كان لهذا الزواج دوره في إقامة علاقات حسن الجوار بين إيبلا ومناطق إمبراطوريتها المترامية الأطراف. وثمَّة نصوص برزت من خلال لويحات تل مرديخ، تتضمن ذكراً لمدن قُدمت بمثابة مهر لزواج أميرات إبلويات، كتلك التي تتضمن مرسوماً ملكياً يُشير إلى أن مدينة إيمار على الفرات* قد أُهديت إلى إحدى أميرات إيبلا واعتُبِرت مهراً لزواجها[٢٠٥].

ونشير في هذا المجال إلى النص (ت م75 – رقم 2283) الذي يتضمن معلومات طريفة عن أخبار العرس الكبير، عرس (كيشدودو) أخت ملك إيبلا المعروف (ايبريوم) التي زُفَّت إلى ملك كيش في بلاد الرافدين، فيذكر قائمة المهر المُقدم للعروس 972 جاموساً و 935 عجلاً و 768 ثوراً مُسَمَّناً للذبح و 388 ثور لجر المحاريث و241 بقرة ولوداً و 1860 رأساً من الغنم و 159 دابة من البغال مُحملة بالهدايا وفرس واحد وخمسة خنازير وتسعة عشر أيلاً وأربعة عشر دباً... إلخ.

مما يدلُّ على أهمية الحدث، وغنى المنطقة بالثروة الحيوانية في ذلك الزمن الموغل في القدم، بدليل أن المهر سُلِّمَ في الشهر الأول، من تلك السنة التي سُميت بسنة زواج كيشدودو، وتؤكد نصوص مسمارية أخرى، أنه دُعي إلى هذا العرس وجهاء وولاة المناطق، ومخاتير القرى وبعض رجالات القصر، وراح كل منهم يتسابق لتقديم الهدايا (نقوط العرس – الشاباش) الكل يريد أن يثبت بأنه من عليّة القوم.

وتخبرنا ترجمة رقيم آخر، أن الملكة قدمت الأضاحي للآلهة احتفالاً بولادة ابنتها، وقد قدمت بهذه المناسبة (قرط أذن) لأحد موظفي ابنتها المدعو (إنا بعل)، وثمة نصوص تُخبرنا عن زواج إحدى بنات ملك إيبلا المدعوة (دامور – داسينو) التي تزوجت من ملك مدينة (دولو) وزواج أميرة اسمها (داجريش – دامو) من ملك مدينة نجران، وقد حصلت العروس على هدايا نفيسة من المنسوجات، وثمّة سيدة من

* – على مقربة من مسكنة قبل أن تغمرها بحيرة سد الفرات.

[٢٠٥] – الدقاق: إيبلا منعطف التاريخ، مرجع سابق، ص٧٠.

سيدات بلاط إيبلا – لعلها ابنة الملك – واسمها (زيميني – بركو) تزوجت من ملك مدينة (بورمان) وبمناسبة ولادتها، يبعث لها بلاط إيبلا ألبسةً ومشبكين من الفضة، وثوباً لطفلتها[٢٠٦]، ولا شك أنه كان لهذه الزيجات أهميةٌ سياسية كبيرة.

وقبل أن نخرج من قصر إيبلا وما يدور في داخله، نعود ونؤكد أن المرأة الإيبلائية داخل القصر، قد لعبت دوراً كبيراً في حياة المجتمع الإيبلاوي، خاصةً في الحكم، إذ يكفي أن نقول: أن الملكة (ماليكتوم) على سبيل المثال، كانت تشارك الملك في الحكم وترافقه حين جلوسه على العرش، ومثل هذه الأمور، لم تكن أي من نساء الحضارات الشرقية القديمة تقوم به في ذلك الحين[٢٠٧]، وهذا دليل واضح على رقي إمبراطورية إيبلا وحضارتها.

المرأة وسلك الكهنوت (الدّين)

لقد سُميت إيبلا بمدينة المعابد لكثرتها، ولوجود عدة آلهة فيها، فمجمعها الديني يضم عشتار، التي لها معبدٌ خاص باسمها وتعتبر رمز الجنس والعواطف، كما أن لها شهراً خاصاً باسمها هو (ايتو – أما – راما) تشاركها الربة عناة (عناية) وهي ربة الحب والخصب في مجمع الآلهة الكنعاني.

ولم تكن المرأة الإيبلائية بعيدة عن الخدمات الكهنوتية أسوة بما رأيناه في بابل وأكاد، حيث يرى البعض أنه كان ثمَّة نساء من إيبلا في سلك الكهنوت، وإن الربات والكاهنات وسائر النسوة مُساويات للرجال على صعيد السلطة، وفي مجال المجتمع والمناصب الدينية[٢٠٨]. فكانت المرأة التي تعمل في سلك الكهنوت تُسمى المرأة الخادمة

---

[٢٠٦] – القيّم: امبراطورية إيبلا، مرجع سابق، ص ٦٩ – ٧٠ – ٧١.

[٢٠٧] – ماتفييف، وسازونوف: إيبلا يعد قرون من النسيان، ت. يوسف الجهماني، دار حوران للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠١م، ص٥١.

[٢٠٨] – الدقاق: إيبلا منعطف التاريخ، مرجع سابق، ص ٧٠ – ٧١.

في المعبد (باشيش – مي) وكانت إحداهن تدعى (إنا – دوتو)، ومن الربات (آدم – توم) تُقدَّم لها ذبيحة الضأن في الشهر السابع من السنة، وهناك أيضاً ربة النار (إي – سا – تو) كما ذكرنا سابقاً.

وكانت المرأة الخادمة للآلهة تُسمى dam=ding = امرأة الإله، أي هي كاهنة (أدابال) من حرمين رئيسين خصصتا له، تقدم الخدمات امرأتان كاهنتان من ضمن أخوات أو بنات الملك. وهناك نصٌّ يذكر كاهنة اسمها (سارين – دامو) أي (سارة الدم) تملك ٦٢٤٠ هكتاراً بعضها بعلي وبعضها مسقي، مزروعة بأشجار الزيتون وكروم العنب والحبوب، وقد ورد في مرسوم ملكي حول مستوطنات لها حراسة أحدها كانت في عهدة (زاكير – ليم) ابنة (يعريك – دامو) الكاهنة إشارة واضحة لإشراف الكاهنات على الأرض الزراعية[٢٠٩]. وهذا دليلٌ آخر على مكانة المرأة في إيبلا، لأنها كانت كاهنة ولها أملاك تديرها وتسيطر عليها، كما يفعل رجال إيبلا من المزارعين الكبار، ورجال الدولة والكهنة من ذوات الرتب العُليا.

المرأة في التشريعات

أما عن تشريعات إيبلا الخاصة بالمرأة، فهي وإن كانت نادرة، فلدينا ما يدلُّ على أنها كانت تُراعي المرأة وتحافظ لها على حقوقها، وقد تجلّى ذلك من خلال العقوبات الكبيرة التي كانت تُفرض على من يرتكب أي خطيئة بحق المرأة.

فهناك قانون مُعتمد في إيبلا، يُعالج الحالات المُتصلة بالعلاقات الجنسية غير الشرعية، والجزاء مختلف حسب الجرم، منها:

- عقوبة من يضاجع امرأة غير متزوجة غرامة مقدارها ٣ ثيران تدفع لولي أمر الفتاة.

[٢٠٩] – قوصرة: المرأة في إيبلا، مرجع سابق، ص ٣٣٣ – ٣٣٤.

- أما إذا كانت الفتاة عذراء والجريمة اغتصاباً فتكون العقوبة عندئذ الرجم حتى الموت[٢١٠].

مما يدل على حرص الإيبلائيين على شرف المرأة وصيانة عرضها، وهذا يعني أن الأسرة في إيبلا كانت أسرة لها أعراف وأخلاق تحافظ عليها، وتحميها قوانين صارمة، خاصة في مجتمع إيبلا المنفتح على الآخرين، والدليل على ذلك وجود عدد كبير من الآلهة ذوات الأصول المختلفة، فقد قُدِّرَ عدد سكان إيبلا في إطار الأسوار ٥٠ ألف نسمة، وقُدِرت المدينة مع الضواحي بـ ٢٦٠ ألف نسمة، وكان السكان خليطاً من المدن السورية والرافدية ومن جاليات مصرية، وكان نظام الحكم فيها ملكياً مُنتخباً كل سبع سنوات ويمكن أن تتجدد، ذلك لوجود النزعة الديمقراطية فيها، مما أدى إلى وجود جهاز إداري من الموظفين الأكفاء، الذي كان للمرأة فيه وضع متميز، حيث عملت بعض النسوة كمشرفات على التجارة، فكن يقمن بالتجارة لحسابهن الشخصي ويرسلن الوكلاء عنهن، وأحياناً يصل نفوذ بعض النسوة لدرجة تدخلهن في سياسة الدولة، فوالدة الملك إيبريوم كانت قد تدخلت وعينت ولدها آبي زبيش ولياً للعهد.

وفي إيبلا فئة قليلة من العبيد، ذلك لأن ثمن العبد كان باهظاً، حوالي كيلو غرام من الفضة، ولم تكن للعبيد أية حقوق مدنية سوى الزواج والإنجاب، وبالتالي كان وضع النساء العبدات سيئاً أسوة بكل ممالك الشرق، فقد كانت العبدة تُعامل كما تعامل السلعة تُباع وتُشترى وليس لها أية حقوق، بل عليها واجبات، لكن أعدادهن كانت قليلة في إيبلا[٢١١].

[٢١٠] - الدقاق: إيبلا منعطف التاريخ، مرجع سابق، ص ٧٠.

[٢١١] - الحمد، محمد عبد الحميد: حضارة طريق التوابل، مرجع سابق، ص ١٦٠ - ١٦٢.

المرأة خارج القصر

أما إذا أردنا معرفة وضع المرأة في إيبلا خارج القصر، فعلينا دخول منازل إيبلا والتجول في أسواقها وأماكن عمل الرجال والنساء فيها، لكن، وعلى اعتبار أن الرّقم المسمارية التي تتحدث عن هذا الموضوع قليلة جداً، فلا يبقى أمامنا لمعرفة وضع المرأة، سوى النقوش والتماثيل والأحواض النذرية والحلي والمنسوجات والأختام الأسطوانية كمصدرٍ أثري مساعد لنا، نستنتج من قراءته أن المرأة في الحياة العامة، كانت بوضع جيد نوعاً ما.

فمن خلال التماثيل التي وُجدت في إيبلا، نرى أن المرأة كانت ترتدي أزياء فاخرة تعبر عن مدى الحالة الاقتصادية الجيدة التي كانت تعيش فيها، وذلك من خلال الملابس التي كانت ترتديها، وكذلك من خلال تصفيفات شعر المرأة التي وُجدت في بعض التماثيل الأخرى، التي تدل على اهتمام المرأة بأناقتها وجمالها.

لقد عُثر في إيبلا على عدد كبير من التماثيل المصنوعة من الحجر والخشب والصدف والذهب وبعض المواد المركبة، كما عُثر على تمثال من الخشب مغطى بأوراق ذهبية ورأسه من الحجر وعيناه وحاجباه منزلة. ومن هذه التماثيل أيضاً نرى شعر رأس تمثال مركب كبير (بيروكة) مصنوعة من حجر داكن رمادي يميل إلى الخضرة، وتنساب غدائر الشعر متموجة تموجاً خفيفاً ناعماً.

أما بالنسبة للحلي فقد وُجِد في إيبلا مجموعة كبيرة من الحلي، وهي عبارة عن أساور وأقراط ومصنوعات ذهبية مختلفة توحي بالغنى واليُسر والترف لنساء إيبلا، خاصة نساء الطبقة العليا.

وفيما يخص الأحواض النذرية، فقد عُثر في إيبلا على جرن طقوس العبادة المتعلقة بالخصب، يُظهر وليمة احتفالية طقسية، وعلى جانبي مائدة القرابين يجلس رجل وامرأة من إيبلا، ويعود هذا الجرن إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، ويدل دلالة واضحة على مشاركة المرأة في الطقوس الدينية والاحتفالية، كما مرَّ معنا سابقاً،

كما عُثِر على حوض – موجود حالياً في متحف حلب – عليه مشهد يُصور مجلس شراب، إذ يجلس الملك والملكة على جانبي المائدة، فيما يقف الخدم خلف الملك، إضافة لوجود بعض الجنود الإيبلائيين، وهذا دليل آخر على مشاركة الملك والملكة في الاحتفالات الدينية والطقسية. كما أن هناك حوضاً آخر يعود إلى عام ١٨٥٠ ق.م ويشاهد على جوانبه صور لثلاث ربات يرتدين ملابس تشبه كثيراً ملابس نساء ماري، ويعلو رؤوسهن قرون تُذكِّر أيضاً بقرون إلهات مدينة ماري (ربة الينبوع) كما سنرى لاحقاً. ويشاهد على جوانب الحوض أيضاً شخوص يتعاركون وهيئات ورايات وأضاحٍ[٢١٢]، لكن الأهم من بين هذه الموجودات الأثرية، التي عرفتنا على مكانة المرأة في إيبلا، كانت الأختام الأسطوانية الإيبلائية، والتي سجلت تسجيلاً مُشخصاً لأحداث تاريخية أو أساطير قديمة تساعدنا على تفهم مستوى التفكير والحياة وصورة الحدث ورموز الآلهة والملوك والأشخاص. ففي أحد الأختام نقف أمام مشهد تعبد، حيث يتقدم رجل رفيع المقام أمام ربّين (الإله بعل والإلهة عناة) ويعتقد باولو ماتييه أن هذه الربة، هي ربة الحب والحرب السورية عناة (عناية) والتي تشير إلى أهميتها النجمة الثمانية أمام رأسها، وهي رمز الربة عشتار ربة بلاد الرافدين.

لقد جرى أيضاً تشخيص المرأة في وضع أمامي في شكل (سيدة الحيوانات) فهي إما أن تروض أسدين، أو أنها تحمي ثورين، ويساعدها في ذلك رجلان أو امرأتان أو ثور في هيئة إنسان، كما أن هناك العديد من الأختام التي تصور ربات مختلفة، ربما كانت محلية أو مستوردة، وفي معظمها تؤكد على التشابه ما بين الميثولوجيا في بلاد الشام وبلاد الرافدين[٢١٣]، وذلك من حيث الموضوعات المتعلقة بالخصب والعطاء والإلهة الأم.

---

[٢١٢] – الشمّاط، علي: تاريخ الفن، وزارة الثقافة سوريا – المعهد العالي للموسيقى، دمشق ١٩٩٧م، ص ١٠١.

[٢١٣] – القيّم: المرأة في حضارات، مرجع سابق، ص ١٢٦ ،١٢٧.

بذلك نرى كيف كانت نساء إيبلا تشاركن الرجال في كافة مجالات الحياة، فقد عملت بالزراعة والتجارة وصناعة النسيج وصناعة اللباد، وفي المشاغل الحرفية، فيما ينصرف الرجال إلى أعمالٍ أخرى.

ويكفي أن نعلم أن إيبلا، كانت تُصدّر المنسوجات إلى المناطق المجاورة، فقد كانت إيبلا رائدة في صناعة النسيج، حيث وُجد على أحد الرقم المسمارية وهو الرقيم (ت.م – ٧٥ ج – ٢٣١٦)، الذي يزودنا بفكرة عامة عن حجم الصناعة النسيجية في إيبلا عصرئذ، فقد كُتِب على هذا الرقيم:

- ٤٠٠ ثوب نسائي للسيد أنا – دجن.
- ٢٠٠ ثوب نسائي ثمنها عشرة مينا فضة – أمانة لمندوبي مدينة (إيرتي)[٢١٤] عند المدعو إيريك – دامو الذي دفع ثمنها ١٧ مينا من الفضة.
- ٢٠٠ ثوب نسائي دفع ثمنها ١٠٠ مينا من الفضة السيد عبو[*].

مما يؤكد على ريادة صناعة النسيج، خاصة المتعلق بلباس المرأة، فهذا العدد الكبير من الألبسة النسائية، وعلى رقيم واحد، ما هو إلا دليل واضح على حجم صناعة النسيج في إيبلا، ودور المرأة فيها، كصانعةٍ أو مصممة وفق أحدث الموديلات، أو كمستهلكة لها.

كذلك كان للمرأة الإيبلاوية، حق الملكية وممارسة التجارة، فقد ورد في أحد النصوص المكتشفة في إيبلا، نص يتحدث عن مجموعة من المواد المختلفة تم توزيعها على بعض الأشخاص، فكانت حصة السيدة كيكن وحصة امرأة من مدينة بوزوكا مقداراً معيناً، ونلاحظ من جهة أخرى، أن الكميات الموزعة بين المستحقين كانت تتفاوت تِبعاً لمراكزهم أو لجنسهم، وكان الرجل يأخذ أحياناً ضعف ما تأخذه المرأة أو ثلاثة أضعاف[٢١٥]. ويُستدل من أحد النصوص التي تحوي إشارات إلى

---

[٢١٤] – ماتييه: إيبلا – عبلاء، مرجع سابق، ص ٢٥.

[*] – وهذا ما ذكره أيضاً محمد عبد الحميد الحمد في كتابه حضارة طريق التوابل ص ١٦٤.

[٢١٥] – عبد الله: تاريخ الوطن العربي القديم، مرجع سابق، ص ٣٤٧ – ٣٤٨.

الحقول الزراعية، أن الأسرة المالكة، كانت تأتي على رأس مُلّاك الأراضي، ونعني بالأسرة المالكة الملك وزوجته وأولاده الذكور منهم والإناث[٢١٦]، وهذا يدل أن للمرأة في القصر الملكي أيضاً حق التملك.

أما فيما يتعلق بطقوس الوفاة عند الإيبلائيين، فلم تكن المرأة الإيبلاوية بعيدة عن أي نشاط إداري أو اجتماعي، فهي عنصر فعال في حالات الوفاة، فبعد موت الوزير إيبريوم قدمت الإدارة الحكومية عطايا لإجراء طقوس التطهير:

- أولاً: لإبي – زكير ابنه ووريثه.
- ثانياً: لأم الملك وتينيب دولوم (زينب) أخت الملك والأميرة (دام – دنجر).

كما وجدنا أن هناك تضامناً بين النساء، فحين ماتت (دوسيكو) سُجلت لها حسابات تلك السنة، في البدء اللباس الجنائزي والحاجات الجنائزية، ثم العطايا الشخصية المقدمة لها من الملكة، وما قد تقدمه السيدة الأولى في البلاط بعد موت حماتها المزعجة.

وكذلك تقديم القرابين من قبل ثلاث نساء، الملكة مثلاً، ثم الأميرة كيشدوت وزائشة (عائشة) ابنة الوزير (إبي – زكير)، ولم يكن لهاتين الشابتين أية مرتبة كهنوتية، ولكن مكانة كيشدوت كانت تعادل أخيها الوريث للعرش (آراك – دامو) وهي التي تزوجت فيما بعد من ملك كيش في العراق[٢١٧]، لكن خير دليل على مكانة الأميرات في إيبلا هو ما كان يُسمى بـ (مدفن الأميرات) وهو أحد المدافن الملكية الثلاثة الواقعة في وسط القصر، وهي مؤلفة من مجموعة معقدة من الكهوف المتصلة مع بعضها البعض بحيث جعلها أصحابها في ذلك الزمان ملائمة للأغراض الجنائزية، وتشير الدلائل الأولية أن مدفن الأميرات الواقع في الجنوب، هو أقدم المدافن الثلاثة عهداً ويليه مدفن سيد الماعز ثم مدفن الخزانات.

---

[٢١٦] – أبو عسّاف، علي: الزراعة في إيبلا، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٤٣ – ٤٤، ١٩٩٢م، ص ١٠.

[٢١٧] – قوصرة: المرأة في إيبلا، مرجع سابق، ص ٣٣٧.

ويعود تاريخ هذا مدفن الأميرات إلى حوالي ١٨٠٠ ق.م، ويتألف من ممر قصير يهبط إلى باطن الصخر بواسطة بضع درجات، كما يحوي على أثاث جنائزي كبير، خاصة الجرار الفخارية، مما يدل على أهمية إقامة مدافن خاصة بالأميرات أسوة بالأمراء والملوك.

لقد كانت قصور إيبلا، خاصة المبنية في الأرياف، تعجُّ بالحياة والفرح، ففيها نجد الأطفال والحريم والمرضعات والراقصات... إلخ. وكانت النسوة في هذه القصور يعشن حياة ملؤها البهجة، يمارسن الغناء والرقص، وربما مارسن بعض الألعاب الرياضية والفكرية.

وعلى الرغم من محاولة البعض تشويه سمعة نساء إيبلا من خلال افتراض وجود مجتمع نسائي منعزل عن الرجال والمجتمع عموماً، إلا أن النقوش والتماثيل والنصوص أثبتت عكس ذلك، فيكفي أن نتعرف على طقوس الزواج في إيبلا، الذي يُعتبر ظاهرة اجتماعية تضم الرجال والنساء في مجتمع واحد، فنلاحظ وجود المهر والعقد والاحتفالات، وخير مثال على ذلك زواج كيشدوت (كما رأينا سابقاً). وكذلك زواج (زا – ني – هي – ماري) الإيبلائية من ابن ملك (أبارا) ملك آشو، حيث تم تقديم منسوجات للعروس ووصيفاتها، ويذكر النص الإيبلائي حصول السيد المدعو (عبدو جاميش) على بعض هذه المنسوجات، وهو الذي صبَّ الزيت فوق رأس العروس، وهو طقس قديم في تراثنا يرمز جنسياً إلى مني الذكر[٢١٨]. وهناك نصوص أخرى كثيرة لا مجال لذكرها الآن، تتحدث عن عدة حالات للزواج، ولكنها خاصة بزواج إحدى أميرات إيبلا من أحد الأمراء والملوك المجاورين، وهي تأتي تحت ما يُسمى بالزواج السياسي، الذي كان شائعاً في بلاد الشرق القديم*.

أما عن تعدد الزوجات، فقد كان موجوداً في إيبلا، لكنه لم يكن منتشراً كثيراً كما في أوغاريت مثلاً، بسبب موقعها البحري وغياب رجالها. بينما في إيبلا، فقد

---

[٢١٨] – المصدر نفسه: ص ٣٣٤.

* – وهذا ما سنراه كثيراً في هذا الكتاب في البحوث القادمة.

كانت الحياة الاقتصادية مزدهرة، والاجتماعية يسودها المحبة، وكان رجال إيبلا يفضلون الزواج بواحدة، ففي أحد النصوص، حاولت الملكة عرقلة زواج الملك مرة ثانية من غيرها، وهذا دليل على حرصها على زوجها.

ونظراً لعلو مكانة المرأة في إيبلا وجمالها، فقد كانت مُلهِمة للشعراء والأدباء، وكانت قصص الحب عامرة بين جدران إيبلا وشوارعها، وتُعدُّ قصيدة (أنشودة النجوم) التي اكتشفت في القصر الملكي (G) في إيبلا، من أكمل وأجمل المقطوعات الأدبية التي وصلتنا من الأدب الإيبلائي حتى الآن، كما تُعدُّ برأي العلماء والباحثين، من أقدم القصائد التي عرفتها الآداب في العصور التاريخية، وقد نظمها شاعر إيبلائي منذ ما يزيد عن أربعة وأربعين قرناً، فقد دُوِّنت في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد حوالي ٢٤٠٠ ق. م، وفيما يلي مطلعها:

«اصمد، خبخبي

اصمد لسانم،

اصمد دخر سينم

أصمدك على أبنيم صلميم،

علْ زيدان أمان،

أصمدك علْ زنبات شمش

لابنم يلّبن، لبتّم

علْ بابي إنليل آبي إيلي

وكبْكبْ»[٢١٩]

ويقدم الدكتور علي القيم في كتابه الموسوم بـ (المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة) الصفحة ١٢٩ القصيدة مع شرحها، فيقول بهذه العبارات: ابتدأ الشاعر أنشودته، وفيها نجده قد نذر على نفسه أن يضع أمام محبوبته كل خوافي نفسه

---

[٢١٩] – الذنون، عبد الحكيم: الذاكرة الأولى – التاريخ القديم لبلاد الشام، منشورات عبد الحكيم الذنون، دمشق ١٩٩٨م، ط ١، ج ٢، ص ١٥٨ – ١٥٩.

ومشاعره، وكل تعابيره الشعرية، وكل ما ادخره من قوت لأيام شدته. أنه سينحت تمثالاً من الصخر الأسود، وسيضعه في مكانٍ مرتفع، وسينقش إسعادها والحوز على رضاها، وكسب ودّها. تبدأ الأنشودة – القصيدة – بالعبارات التالية:

الترجمة: اسمها على فؤوس المحاربين، وسيكتب على باب الإله إنليل عبارات التمجيد، وعلى أذيال الشمس، سيذكر هذا المحبوب... سيقدم الأضاحي والقرابين، سبعة رجال وسبع إماء في أول كل شهر... وسيطلي بالبياض أبواب المدينة ولبنات الأسوار ولن ينغص محبوبته...

وهكذا نكون قد جِلْنا في رحلة استكشافية، عبر شوارع ومنازل وحانات إيبلا وقصورها، وتعرفنا على نسائها، وعرفنا أسرارهن وقصص الحب والمودة، وحضرنا أعراسهن فوجدناهن في الحقول يعملن إلى جانب الرجال، وفي مصانع النسيج الحريرية، إنهن جميلات مثقفات. ولكن هل كل نساء إيبلا كُنَّ هكذا حقاً ؟؟ هذا ما لا نعرفه بالدّقة، فنصوص إيبلا لا تتحدث عن نساء إيبلا الفقيرات اللواتي ربما كن يعملن لدى الآخرين، وربما يعشن في ظروف سيئة، لكن المنطق يقول: قياساً لِما سبق، أن غالبية سكان إيبلا كانوا على درجة عالية من الغنى والترف، فموقع إيبلا وعلى اعتبارها عاصمة إمبراطورية مترامية الأطراف، تعتمد مبدأ قوة الحضارة لا حضارة القوة، يجعلنا نثبّت المكانة والرفعة لنساء إيبلا، وهذا ما أيدته بعض النقوش والتماثيل والحلي والأختام الكثيرة، خاصةً أننا نتحدث عن حضارة اندثرت منذ أكثر من ٣٦٠٠ سنة على الأقل، فهل تحظى نساء هذا العصر بتلك الأهمية والاحترام؟؟؟.

إن وجود بعض الظواهر السلبية، كظاهرة الحريم في القصر، التي لم يثبت أنها تشبه «حريم» السلاطين فيما بعد، كحريم السلاطين العثمانيين مثلاً، ليس دليلاً كافياً على وضع سيء للمرأة في إيبلا، فإيبلا بلدٌ منفتح على الجميع، وتسوده عدة عقائد وعدة ديانات وعدة آلهة، منها المذكر ومنها المؤنث، فهل كانت الآلهة المؤنثة بما لها من عظمة وقوة وسطوة، وعلى رأسها الإلهة عشتار، أن تقبل بوجود ظاهرة الحريم

بمفهومها السيئ، وهي سيدة الحب والجمال، وهؤلاء النساء في الحريم يمثّلْنها على الأرض؟؟.

مما يؤكد أن هذه الظاهرة ليست سلبية تماماً، في عصرٍ كان فيه الإنسان الذي يقرأ ويكتب، يُعتبر عملة نادرة، وفي عصر كان إيصال الرسائل فيه، يحتاج إلى أيام وأشهر، فيكفي أن نذكر أن المرأة في إيبلا، كانت تعمل في الحقل والتجارة وترث وتمتلك ملكية خاصة، حتى نؤكد مكانتها العالية، وارثةً ومحافظةً بشكلٍ كبير على تراثها الأنثوي المُقدس، فنساء إيبلا خير ممثل لاستمرار عظمة المرأة (الإلهة الأم)، ولو بنسبة معينة، في عصر قلَّ فيه احترام الإنسان لإنسانيته، فنحن نتحدث عن أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد، أي منذ أكثر من أربعة آلاف سنة على أقل تقدير...؟.

المرأة العربية في ماري

مقدمة تاريخية

تقع مدينة ماري القديمة، تل الحريري اليوم، على الضفة اليمنى لحوض الفرات السوري الأوسط، وعلى مسافة ١٠ كم تقريباً، إلى الشمال من بلدة البوكمال، وذلك في نقطة التقاء استراتيجي وجغرافي بين بلاد الرافدين في الشرق وبلاد الشام في الغرب، وبلاد الأناضول في الشمال، والخليج العربي في الجنوب، ويشكل الجسم الرئيسي للموقع تلاً دائري الشكل قطره ١٩٠٠م وارتفاعه ١٥ م.

وقد ورد اسم ماري في النصوص الرافدية القديمة، في قائمة الملوك السومريين، كمقرٍ للسلالة العاشرة بعد الطوفان، وقد اعتقد الباحثون وجودها في مكان ما بين ضفتي الفرات السوري والعراقي، حتى اكتشفت المدينة بالمصادفة عام ١٩٣٣م عندما كانت مجموعة من البدو تدفن أحد موتاها في التل، فعثرت على تمثال يحمل كتابة مسمارية، مما دفع إلى بدء التنقيب في الموقع[٢٢٠] وبشكل منظم منذ ذلك الوقت على يد عالم الآثار الفرنسي أندريه بارو، ثم على يد جان كلود مارغرون، وبمعدل حملة تنقيب، كل سنتين.

وبدت ماري كموقع يسمح بفهم المظاهر الجوهرية لحضارة الألف الثالث السورية الرافدية في البرونز القديم، وفي البرونز الأوسط، وبعد ٣٧ حملة تنقيب (حتى خريف ٢٠٠١ م) كانت قد أصبحت إحدى أكثر المدن القديمة في الشرق العربي القديم، شهرةً ومعرفةً، وهي غنية بالقصور الفخمة والمعابد الضخمة، وبالمدارس الفنيّة التي أعطت أجمل الأعمال المشرقية، في مجالات النحت والتصوير الجداري. كما قدمت لنا كمية استثنائية من الأرشيف الإداري المؤرَّخ من نهاية تاريخ المدينة في عصر حمورابي (بابل).

---

[٢٢٠] – الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، سوريا، المجلد العاشر، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٤٦٠.

هكذا، ظهرت ماري كموقع للاستكشاف، خصب بشكل خاص من أجل معرفة أوائل الحضارات المدنيّة الكبرى[٢٢١]، ومع متابعة التنقيب في الموقع بين أعوام ١٩٧٩ – ٢٠٠٤م وعلى يد جان كلود مارغرون كما ذكرنا، فقد تتالت في عهده مكتشفات جديدة، منها القصر الشمالي الصغير، ومشاغل المدينة، والسويات الأقدم فيها، ومنذ عام ٢٠٠٥م أدار التنقيب فيها باسكال بترلان، ويمكن تقسيم تاريخ ماري إلى ثلاث مراحل:

- **المرحلة الأولى** المُسماة المدينة الأولى: حيث أُنشئت المدينة أول مرة، وذلك في عصر السلالات الباكرة في الألف الثالث قبل الميلاد ما بين ٢٩٠٠ – ٢٦٥٠ ق. م.
- **المرحلة الثانية:** وهي عصر المدينة الثانية، العائدة إلى عصر السلالات الباكر الثالث والعصر الأكادي ما بين ٢٥٥٠ – ٢٢٠٠ ق. م.
- **المرحلة الثالثة والأخيرة:** وهي عصر المدينة الثالثة العائدة إلى عصر الشاكّا ناكو وإلى العصر الأموري بين أعوام ٢٢٠٠ – ١٧٦٠ ق.م وفي هذه المرحلة وصلت إلى الحكم أسرة محلية أطلق عليها السومريون تسمية الشاكاناكو وتعني (الحاكم العسكري) وكانوا خاضعين لسلطة أور الثالثة ٢١١٢ – ٢٠٠٤ ق.م الذين قاموا بتعيينهم وتصاهروا معهم ومنهم (ابيل – كن) الذي أشارت نصوص ماري إلى أن ابنته قد تزوجت من ابن أورنامو ملك أور[٢٢٢].

وفي عام ٢٠٠٤ ق.م انتهت فاعلية مملكة أور، مما أدى إلى نشوء فراغ سياسي لم تملأه أي فاعلية تاريخية لمدينة من مدنه، وكان ذلك بسبب زيادة الفاعلية الديموغرافية الأمورية، والتي شكلت مدينة ماري بوابتها، وكذلك الهجوم العيلامي،

---

[٢٢١] – مارغورون، جان كلود: ماري أو بدايات الحضارة المدنية في سوريا، الحوليات الأثرية العربية السورية المجلدان ٤٥ – ٤٦، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣ م.

[٢٢٢] – الموسوعة العربية: مرجع سابق، المجلد العاشر، ص ٤٦٢، ٤٦٥.

حيث سنشهد مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد نشوء ممالك أمورية كنعانية على مدى مدن المشرق العربي من بابل إلى آشور وماري وقطنة ويمحاض وآلالاخ ... إلخ.

وتشير المعطيات التاريخية إلى احتمال وجود سبعة حكام في ماري، حكموا في الفترة ما بين ٢٠١٥ – ١٩٢٠ ق. م، وربما انتقل الحكم من أسرة حكام الشاكاناكو في ماري إلى أسرةِ حاكمة أخرى، عُرِفَ منها يجيد ليم أول حاكم عموري لمدينة ماري ثم ابنه يخدون ليم الذي حكم ما بين ١٨٢٥ – ١٨١٠ ق.م الذي خلد أعماله التي قام بها في تقرير على شكل (وثيقة تأسيس) أودعها في أساسات معبد شماش إله الشمس الذي بناه في ماري. وفي أواخر عهده مرت ماري باضطرابات أدت إلى اغتيال ملكها يخدون ليم وسقوط ماري تحت السيطرة الآشورية بقيادة شمشي أدد الذي ولّى ابنه يسمخ أدد عليها حتى عام ١٧٨٢ ق.م عندما عاد ولي العهد زمري ليم من لجوئه في مملكة يمحاض (حلب) إلى حكمه في ماري، ويُعتبر آخر ملوك ماري والذي وسّع القصر الملكي، كما تُعتبر فترة حكمه هي الفترة الذهبية في تاريخ ماري، ولكنها ولوقوعها – أي ماري – في موقع تجاري هام ومع تعاظم قوة حمورابي البابلي صديق الأمس، والذي نسيَ صداقته وفضّلَ مصلحة مملكته، فقام في سنة حكمه ٣٢ باحتلال ماري وتدميرها، وبذا تمَّ إلحاق ماري وضمَّها إلى مملكة بابل التاريخية.

وقد حكم ماري ما بين ٢٩٠٠ – ٢٦٠٠ ق.م ستة ملوك كان أولهم أنسود، والآخرون غير معروفين بسبب تشويه النص.

أما ما بين ٢٦٠٠ – ٢٣٥٠ ق.م حكم ماري الملوك:

١ – إيكو شمش، ٢ – سوم، ٣ – إيشتوب شار، ٤ – إيبلول إيل، ٥ – ينزي، ٦ – إنا دجن، ٧ – لمجي ماري، ٨ – إيكو شماجان، ٩ – حيدار.

وفي الفترة ما بين ٢٢٦٦ – ٢٠٠٨ ق.م حكم ماري:

١ – يوديش، ٢ – شودجن، ٣ – يشمع دجن، ٤ – نورمير، ٥ – ترام دجن، ٦ – يشكن أدد، ٧ – ابيل آخل كين، ٨ – يدين آيل، ٩ – يلي يشا، ١٠ – ترام دجن، ١١ – بوزو عشتار، ١٢ – هتلال ارزا، ١٣ – هانون دجن.

وفي الفترة العمورية ٢٠١٥ – ١٩٢٠ ق.م ربما كان هناك سبعة حكام في ماري. وإن آخر حكام لماري هم:

١ – يجيد ليم، ٢ – يخدون ليم، ٣ – سومويبم (يمام)، ٤ – يسمخ أدد، ٥ – زمري ليم.

إن أهم مكتشفات ماري هي محفوظاتها في السجلات والرسائل، التي بلغ عددها ٢٠٠٠٠ نص، وهي عبارة عن الأعمال الإدارية والاقتصادية والسياسية للملك زمري ليم، كذلك وُجِدت رسائل الحكام التابعين للقصر الملكي وأجوبة الملك زمري ليم عليها، وهناك سجل حسابات للموظفين التابعين للقصر بالإضافة لوجود نصوص دينية وأدبية بنسبة ضئيلة، وغيرها من النصوص الهامة الأخرى.

نساء ماري

إن أهم ما يميز ماري هو موقعها الهام ما بين حاضرتين كبيرتين هما بلاد الشام وبلاد الرافدين، وإن كنا نعتبرهما حاضرة واحدة، إلا أن هذا الموقع الهام قد انعكس وبكل تأكيد على تميز نساء ماري، وذلك من خلال تلقيهن المؤثرات الثقافية من كلا الطرفين، فكانت ماري ونساؤها رمز التواصل الثقافي والحضاري ما بين هاتين الحاضرتين.

إن موقع ماري الهام أدى إلى تحول هذه المدينة إلى مركز تجاري هام وكأنه أصبح الرابط الأكبر لثقافات وحضارات ذلك العصر، وهذا ما انعكس على نمو الوضع الاقتصادي لسكان ماري، فعاشت في غنى وترف وأصبحت ماري قِبلةَ كل إنسان يرغب في العمل ومشاهدة عظمة هذه الحاضرة، خاصةً مقر قصرها الشهير،

حتى أن أمير أوغاريت رغب في زيارتها ومشاهدة قصرها عبر وساطة مملكة حلب وملكها حمورابي، الذي تربطه علاقة قرابة مع البيت المالك في ماري، فقد اتخذ الملك زمري ليم من أخت حمورابي زوجة له، وقد تمَّ التعرف على أخبار هذه الزيارة من خلال نص رسالةٍ بعث بها حمورابي إلى زمري ليم، عَثر عليها المنقبون في ماري.

إن هذا التطور الذي عاشته ماري، وخاصة على الصعيد الاقتصادي، كان له أكبر الأثر على تراجع دور المرأة في ماري، مقارنةً مع دورها السابق في عصور ما قبل التاريخ، وكما رأينا سابقاً كيف كانت زيادة الفعالية الاقتصادية في المدينة، وخاصة زيادة أعمال الرجل، وما لها من دور كبير في تراجع دور المرأة، خاصةً بعد قيام الرجل بالسيطرة على كافة الأعمال التي كانت تقوم بها المرأة سابقاً، والتي كانت في الأساس سبَبَ رفعة المكانة التي حظيت بها المرأة في تلك العصور، وكيف أوصلتها إلى مرتبة الألوهية.

إلا أن هذا لا يعني أن المرأة في ماري، كانت تعاني من تأخرٍ في دورها الحضاري مقارنة بنساء ذلك العصر، بل على العكس، إنما مقارنة بالعصور السابقة، ودليلٌ على تأثير زيادة الفعالية الاقتصادية الذكورية على المرأة، وما ينعكس من خلاله على وضعها العام في المجتمع.

إلا أن نساء ماري وبشكل عام، كُنَّ يمثلن مع نساء إيبلا وأوغاريت ويمحاض كما سنرى لاحقاً، المرأة السورية في ذلك العصر وما كانت تتميز به من مكانة رفيعة مقارنة بنساء العصر الأخريات، فقد كانت نساء ماري نموذجاً للمرأة التي يمكن أن تعمل وتوجد في كل مكان وبكل مهارة وإتقان، فقد أتقنت كل الأدوار، من قيامها بدور الملكة والأميرة والحاكمة والعالمة والمُغنية والراقصة والعازفة والأم المربية العاملة والتاجرة والمالكة، بالإضافة إلى وضعها كخادمة وعبدة ومُستخدَمة في كافة الأعمال ذات السوية المنخفضة، وهذه – بطبيعة الحال – ضريبة الغنى الاقتصادي والانفتاح على كافة ثقافات وحضارات تلك الآونة، وهذا أمر طبيعي.

لقد حافظت ماري على قدرٍ كبيرٍ من مكانة المرأة السابق، وقد تجلى هذا وبكل تأكيد من خلال حرص سكان ماري على دور متقدم لها، فكانت عندهم تمثل الرّبة، كما يمثل الرجل الرب. فإلى جانب معابد الأرباب قامت معابد الربات، وهل هناك أسمى من أن يرفع الإنسان من مكانة المرأة لجعلها أحياناً مساوية للرجل، حتى في حالة التأليه، ودورها الكبير أيضاً في الحياة الروحية والأساطير والتقديس.

ففي فترة سيطرة أور الثالثة ٢١١٢ – ٢٠٠٤ ق.م على ماري، حدث توسع أساسي في عالم الآلهة، فثمَّة ذكر لأمهات عديدات، وبشكل كبير مثل – بيليت – إيكاليم، نين إيفالا، وتُسمى هذه سيدة القصر التي كانت ذات أهمية قصوى في منطقة الفرات الأوسط. وثمة إلهة تدعى نينغال (السيدة الكبيرة زوجة إله القمر) وقد ذكرت هذه الآلهة إلى جانب آلهة ذكور مثل لامار، إتور مير، نوغال، وهناك إلهان توأمان هما مشتابة وإشار وميشار[٢٢٣].

وفيما بعد استمرت ماري في تقديس آلهة أخرى، وخاصة عشتار، التي كان لها معبد كبير في ماري، وبصفتها إلهة الحب والخصب والحرب في فترة ما قبل شاروكين، ويدل على أهميتها ومكانتها الكبيرة لدى سكان ماري، أن أسماءً كثيرة من قدماء الأموريين كانت تتضمن اسم الربة الكبرى، مثل: بونو عشتار، بوزور عشتار، إيلوم عشتار، عيشار ليم، وكذلك وجد إلى جانب معبد عشتار معبد الإلهة ننخورساج، وقد شيده الحاكم (نور مير) في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد كرّس معبدها في ماري للآلهة التي تمثل الربة الأم، الحامية للأطفال، وهناك أيضاً معبد نيني زازا، وهو بالقرب من معبد شمش، وقد خصص أيضاً للآلهة عشتار المحبوبة، وهنا لا بد من ذكر ربة الينبوع الهامة، التي سنأتي على ذكرها لاحقاً وبشيء من التفصيل.

إلا أن خير دليل على عظمة الآلهة عشتار، أن الملك زمري ليم أشهر ملوك ماري، نراه في نصب تذكاري مُصوَّر، يتسلم شارات الحكم منها، كما كشفت التنقيبات

---

٢٢٣ – خليف، بشار: مملكة ماري – وفق أحدث الكشوفات الأثرية ما بين ٢٩٠٠ – ١٧٦٠ ق.م، دار الرائي للنشر، دمشق، ٢٠٠٥م، ط ١، ص ٢٥٠.

الأثرية في قصر ماري العظيم عن رسوم جدارية ملونة، يصور إحداها مراسيم تتويج الملك، حيث نرى عشتار بشكل فتاة شابة وبزي إلهة الحرب وهي تقدم بيدها اليمنى شارات الحكم، السيف المقدس، وتضع إحدى قدميها على أسد، ويظهر الملك واقفاً أمامها وهو يتسلم الشارات بيده اليسرى، بينما يرفع يده اليمنى في حركة تحية إجلالاً للإلهة[٢٢٤] مما يدل على مكانة المرأة العالية في العقل الجمعي لسكان ماري، حيث قَبِلَ الملك العظيم زمري ليم أن تكون الإلهة عشتار هي من تسلمه شارات الحكم وليس أحد الآلهة المذكرة.

وخير دليل على علاقة المرأة بالحياة الروحية والقدسية في ماري، هو عمل النساء في سلك الكهنوت، ولكن نصوص ماري لم توضّح لنا بشكل واضح عن طبيعة الآلهة النساء وطرق العبادة في المباني الدينية الرئيسية التي كانت تتواجد بشكل رئيسي دائماً إلى الشرق من القصر الملكي، حيث وجدت هناك أكثر من مئتي رسالة كتبت بالأكادية على ألواح طينية تتعلق بموضوع نسوي يفصح عن دور المرأة في المجتمع والدين والسياسة، ولكنها لا تعطينا فكرة واضحة عن دور المرأة بشكل مُفصَّل، إلا أنه يمكننا معرفة بعض المعلومات من خلال مقاربة فئات الكهنة التي كشفت عنها وثائق المدن الرافدية التي نعتقد أنها انسحبت على الحياة الاعتقادية بعامة على كامل المشرق العربي ومنه مدينة ماري، ومن هذه الفئات نجد:

الكالو KALU: وهي فئة من الكهنة كانت مختصة بموسيقا المعبد، وهي المسؤولة عن تأليف الترانيم والليتورجيات وتعتني بالآلات الموسيقية، ويبدو أن وظيفتهم الأساسية، كانت تهدئة قلب كبار الآلهة!!.

الأشيفو ASHIPU أو مشماشو: وهي وظيفة تنحصر في درء الأرواح الشريرة والشياطين عن الناس عند إقامة الطقوس وتلاوة التعاويذ.

[٢٢٤] – القيّم: المرأة في حضارات بلاد الشام، مرجع سابق، ص ٩٦.

البارو BARU: وتعني الرائي، وهي فئة تختص باستطلاع الفأل وتفسير الأحلام ورصد الفلك والنجوم، وهذه الفئة انتشرت في ماري وخاصة بين النساء كما سنرى لاحقاً.

قدشتو: وهذه الفئة من الكهنة تختص بالنساء وتخبرنا أن بنات الملوك كنّ يلتحقن بهذا السلك، فهو مدعاة للفخر والإيمان حيث تصبح النسوة كاهنات المعبد.

ويشير جان ماري ديوران إلى أن غانيات المعبد بالأكادية تُدعى حارمتو في ذلك العصر، وكُنَّ يضعن الغطاء على رؤوسهن[٢٢٥].

وتذكر النصوص أن سرغون الأكادي أنه عندما غزا ماري وهو في طريقه باتجاه الغرب، وربما كان هو أو أحد خلفائه قد أعاد بناء معبد داجان، حيث عرف من القطع البرونزية المكتشفة بين الأنقاض التي كانت فوق أنقاض المعبد، أن اثنتين من بنات نارام سين* قدَّمتا بعض النذور والهدايا لهذا المعبد، كما أنه تم العثور تحت أنقاض بيت قريب من معبد عشتار على بعض الآنية المصنوعة من البرونز وعليها كتابات عرفنا منها أن الملك نارام سين، كان قد عهد إلى اثنتين من بناته للخدمة في معبد عشتار لتكونا ممثلتين لأبيهما بصفتهما كاهنتين من فئة الراهبات المنقطعة للخدمة والعبادة[٢٢٦]. فيما يذكر الدكتور بشار خليف في كتابه الموسوم بـ (ماري) في الصفحة /٧١/ أن شوماشاني وأختها مكيباركانتا كاهنتين (قدشتو) في معبد شمش.

---

[٢٢٥] – خليف: مملكة ماري، مرجع سابق، ص ٤٣، ١٧٩.

* – حفيد شاروكين مؤسس الدولة الأكادية والتي دامت بين ٢٣٥٠ – ٢١٥٠ ق .م في وادي الفرات.

[٢٢٦] – عنتابي، فؤاد: حلب وماري في فجر التاريخ الحضاري، مجلة عاديات حلب، الكتاب الأول، ١٩٧٥م جمعية عاديّات حلب بالتعاون مع جامعة حلب ومعهد التراث العلمي العربي، ص ٣٠٦ – ٣٠٨.

أما عن لباس كهنة المعابد فكان لهم ميزات في لباس الرأس، فهو يأخذ شكل قبعة مرتفعة متطاولة بنهاية محدبة تُسمى (بولوس).

وقد مارست نساء ماري – وكما نوهنا سابقاً – الكثير من أعمال التنجيم والعرافة والسحر، وهذا دليل على تنامي وضع المرأة على مستوى الحياة الروحية والمعرفية القدسية، فقد كانت هناك مجموعة من النساء والرجال الذين يعملون في تفسير الأحلام وقراءة البخت مقابل أجر معقول وقد كان معظم عملهم في المعابد، وكانت النساء تشكل غالبيتهم[٢٢٧].

ويذكر صموئيل هوك أنه كان ثمَّة هيئة للعرافين (البّاروتو)، ربما يكونون ظواهر نبوة أو ما يسمى آنذاك (محّو) وهذا يشابه حالة الوجد أو التوحد مع الإله أو حالة صوفية حميمية، ويبدو أن مؤلفي هذه النبوءات كانوا من النساء، ثمَّة نص من أيام أسرحدون الآشوري في الألف الأول قبل الميلاد يقول على لسان الآلهة: «لا تخف، (أسرحدون) فأنا الإله (بل) أخاطبك نياط قلبك أنا أشدها، كأمك التي كانت سبب وجودك، ستون إلهاً عظيماً يقفون جميعاً معي ويولونك حمايتهم، الإله سن إلى يمينك والإله شمش إلى يسارك، ستون إلهاً عظيماً يحفون بك من كل جانب وقد تأهبوا للقتال، لا تأمن الناس! أدر عينيك صوبي انظر إليّ! فأنا عشتار الأربيلية*، لقد حولت عطف آشور إليك، عندما كنت صغيراً آزرتك، لا تخف أثنِ عليّ، أين ذلك العدو الذي مر بك ولم ألاحظه؟ المستقبل كالماضي! فأنا الإله نابو، رب قلم اللوح، أثنِ عليّ، وحي نطقت به شفتا المرأة بايا الأربيلية».

ولعل هذا يضيء بشكل كبير على المعطى العام لذهنية الألوهة والاعتقادات السابقة لظهور الأديان السماوية والمستمرة إلى العصور اللاحقة وصولاً إلى العصر الحديث، ونحن نعلم أن الزقورات التي بُنيت في مدن المشرق العربي، ومنها ماري

---

[٢٢٧] – الحلو: صراع الممالك في التاريخ السوري، مرجع سابق، ص ١٧٣ – ١٧٤.

* – كانت مدينة أربيل أحد أهم مراكز عبادة الإلهة عشتار.

كانت غايتها رصد النجوم كما أنها أبراج مراقبة، وثمَّة معابد كانت تحتوي على حجرة خاصة للمنجمين تعرف باسم (بت تمرتي) أي بيت الرصد[٢٢٨].

هذا، وقد أشارت النصوص إلى وجود كاهنات في القصر الملكي في ماري، أغلبهن من الأميرات، كُنَّ يقدمن النذور، ومنهن: الكاهنة إينبشينا، زوجة الإله أدو، وهي من النساء اللائي تمتعن بمكانة عالية في ماري، حيث تكرر اسمها بشكل كبير في محفوظات القصر، وقد لُقِّبت بالكاهنة أو قَببتوم (نين – دينجر – را) ويذكرها النص (ARMXXiv 18;3) بأنها نُذِرت للإله أدو، كما ذكرتها بعض الأختام الأسطوانية على أنها ابنة ملك ماري (يخدن – ليم). وكذلك الكاهنة (كونشيم – ماتوم) والكاهنة (بخلا – توم) والكاهنة (باري – كتوم) ابنة (إيبال – أدو) ملك أشلكا، وقد كانت كاهنة في كولميش قبل إبعادها إلى ماري [٢٢٩].

وبالعودة إلى دور المرأة في ماري، فلا بدَّ لنا من معرفة بعض الفترات التاريخية التي مرَّت بها ماري، والتي أظهرت لنا محفوظاتها بعض المعلومات عن المرأة في ماري أثناء حكم يسمخ أدو ابن شمشي أدد لماري، وذلك في فترة غياب ولي العرش الشرعي زمري ليم في حلب (يمحاض)، ففي هذه الفترة لا بدَّ لنا من ذكر الاهتمام الكبير لشمشي أدد والذي يُعلِّم ابنه يسمخ أدد بأن بنات يخدون ليم ملك ماري السابق اللواتي تركهن في عهدته أصبحن نساءه، وأنه يجب تعليمهن الموسيقا[٢٣٠]. وجعلهن مغنيات وعازفات على الآلات الموسيقية في بلاطه، فمن الرسائل الموجهة من شمشي أدد إلى ابنه يسمخ أدو في ماري يطلب فيها من ابنه «أن يتم تعليم بنات ملك ماري المقتول يخدون ليم، الموسيقا، حيث أنه تمت التوصية على خمس قيثارات».

---

[٢٢٨] – خليف: مملكة ماري، مرجع سابق، ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

[٢٢٩] – الرفاعي، محمد عبد القادر: المرأة في ماري، وزارة الثقافة، الهيئة العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ط ١، ٢٠١١م، ص ١١٧ – ١١٨.

[٢٣٠] – بارو، أندريه: ماري، ت. د. رباح نفاخ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٩م، ص ١٧٩.

لكن ومنذ ذلك الحين لم يسمع أحد شيئاً عن مصيرهن، من يعلم لعلهن مِتْنَ غماً قبل الأوان، وربما تكون نجت واحدة منهن وهي تعيش في إحدى مدن الولايات. وفي هذه الفترة أيضاً نعلم أن عدداً من الزيجات حصلت بين موظفين كبار ونساء من العائلة المالكة، ونعلم أيضاً بوجود نساء يحملن أسماء أجنبية مثل شيوارم، أتوك، مينازي... إلخ.

وهذا طبيعي لأن شمال سوريا كان ما يزال موضع التقاء واحتكاك بسكان الأناضول قديماً وحديثاً، ونعلم أنه حتى بعد عودة زمري ليم إلى القصر أنه قد حافظ على نساء خصمه يسمخ أدو بعد طرده، بالإضافة إلى أخريات كن يعشن في كنفه في قسم الحريم من القصر الكبير[٢٣١].

وفي أثناء خضوع ماري إلى الحكم الآشوري، فقد قام يسمخ أدو حاكم ماري الآشوري بالزواج من ابنة ملك قطنة (اشخي أدو) الأميرة دام جوراسي والمدعوة (بيلتوم)*، حيث جاء في إحدى الوثائق، وهي عبارة عن رسالة من شمشي أدد إلى ابنه يسمخ أدو «أريد أن آخذ لك ابنة اشخي أدو، السلالة الحاكمة في قطنة لها اسم كبير والسلالة الحاكمة في ماري لها اسم كبير أيضاً». ولا شك بأن هذا الزواج خير مثال لما يسمى بالزواج السياسي (المصلحة).

وثمَّة وثائق تتحدث عن وصول العروس (بيلتوم) إلى الفرات بسلام، حيث أقامت في قصر يسمخ أدو، ولقد كان هذا الزواج بمثابة تحالف ما بين آشور وقطنة ضد مملكة يمحاض (حلب)، ففي رسالة أخرى من شمشي أدد إلى ابنه يسمخ أدو نقرأ: «ألم يسمح الملوك السابقون لنسائهم بالعيش في القصور؟ أما أنت فترغب في أن تُسكن ابنة (اشخي أدو) في البادية وسيسمع والدها بالأمر وسوف لن يرتاح قلبه لذلك، وهذا لا يجوز أبداً، وهناك غرف كثيرة في قصر النخيل، ويجب أن تختار لها

---

[٢٣١] – عبد الله، فيصل: قراءة في خمسة مجلدات عن ماري، المجلد الرابع، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٣٧ – ٣٨، دمشق، ١٩٩٠م، ص ١٨٥.

* – كلمة بيلتوم تعني السيدة أو الملكة.

غرفة من بينها وأن يُسمح لها بالسكن فيها... أما في البادية فلا تدعها تسكن مطلقاً» وذلك خوفاً من انفصام التحالف السياسي بين آشور وقطنة.

وفي رسالة أخرى من شمشي أدد لابنه نقرأ: «حقق أخوك انتصاراً على أحد القادة، وتجلس أنت بين النساء، ولكن إن ذهبت الآن مع فرق من الجيش إلى قطنة، كن رجلاً واصنع لنفسك اسماً كبيراً كما صنع أخوك لنفسه اسماً كبيراً» وفي هذا دلالة على عدم رضا الأب على سلوك ابنه، الذي كان ذا شخصية ضعيفة، فقد انهمك في حياة الترف بين النساء، على عكس أخيه اشمي داجان، الذي كان قائداً عسكرياً محنكاً كوالده.

والجدير بالذكر، أن شمشي أدد في رسالته إلى يسمخ أدو بشأن زواجه من ابنة ملك قطنة، أبدى سخاء في تقديم مهر الزواج، حيث تذكر الوثيقة (الرسالة) أنه خصص مهراً قدره (٥ تالنتات) أي حوالي ١٤٥ كغ من الفضة ومئة ثوب[٢٣٢]، ولكن يبدو أن هذا الزواج لم يستمر، وذلك بسبب قيام بيلتوم بالرقص ظُهراً في إحدى باحات القصر الملكي، وقد اعتبر تصرفها هذا فضيحة كبرى، مما أثار غضب العديد من الكهنة ورجالات القصر، وكما اعتبر هذا التصرف خرقاً للتقاليد المحافظة في مدينة ماري ووجِّه اللوم الشديد إلى مربية الأميرة التي أتت معها من قطنة، مما اضطر الملك يسمخ أدو في نهاية الأمر إلى إعادة الأميرة بيلتوم إلى قطنة[٢٣٣]. لكن بعض المصادر الأخرى، التي وصفتها **بالملكة (دمخورازي)** تؤكد عدم إعادتها إلى قطنة، بل كانت في القصر، عندما مات زوجها يسمخ أدو، وعند عودة زمري ليم إلى حكم ماري قام بالزواج منها كنوع من الزواج السياسي، حِفاظاً على علاقة جيدة مع مملكة قطنة، أثناء حكم أموت بيئيل شقيق دمخورازي، أو لربما كان غير قادرٍ على إعادة جهازها معها إلى قطنة، فقام بالزواج منها، وبعد عامين من هذا الزواج ولدت

[٢٣٢] – خليف: مملكة ماري، مرجع سابق، ص ١٤٦ وما بعدها.

[٢٣٣] – المقدسي، ميشيل: المرأة في سوريا خلال الألف الثاني قبل الميلاد – بعض الأفكار الأولية، مجلة معرض المرأة السورية، مرجع سابق، ص ١٧.

له الملكة ولياً للعهد، وظلت الزوجة الأولى والمرأة الرئيسة الرسمية لحاكم ماري، حتى بعد زواجه من أميرة حلب (شبيتو) الشهيرة [٢٣٤].

المرأة داخل القصر الملكي

لا شك وإننا عندما ندرس وضع المرأة ونبدأ دائماً بالقصر، قد يتساءل البعض لماذا نبدأ بالقصر الملكي، وللإجابة على هذا السؤال نقول: إننا عندما نتحدث عن حضارة قامت في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، ونورد بعض الأمثلة عن نساء حكمن إلى جانب الرجل، وربما حكمن بمفردهن، وذلك في ظل غياب الزوج لأسباب متعددة أو لتفويض منه، إنما نتحدث عن أنموذج للمرأة التي توصلت إلى الحكم منذ أربعة آلاف سنة أو أكثر، في حين نشاهد وضع المرأة الحالي في معظم الدول العربية وما آلت إليه من تراجع، فقد اعتبر البعض أن وصول المرأة إلى حق الانتخاب حالياً يُعتبر ثورة في تحررها، فما بالك بقيام المرأة بالحكم المباشر!! لكن هذا ما حدث منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، فهل نحن نشهد تراجعاً لدور المرأة أم لا ؟! وعندما نرى أن المرأة في القصر كانت تمارس نشاطاً دبلوماسياً وتفاوضياً إلى جانب الرجل، فهل هذا أمر يستحق الوقوف عنده أم لا ؟؟.

أما السبب الآخر: فهو أن المصادر التي بين أيدينا، والتي تساعدنا على معرفة وضع المرأة في تلك العصور، فإن غالبيتها تتحدث عن نساء القصر، وذلك لدورهن الكبير ومكانتهن الاجتماعية العالية، في حين نرى أن ذكر المرأة خارج القصر يقتصر على بعض الشذرات التي يصعب جمعها، فهي كمن يبحث عن إبرة في كومة قش. وهنا لا بد من استنباط المعلومات واستنتاجها من بين السطور القليلة التي تتحدث عن المرأة خارج القصر إن وجدت، وفي هذه الأحوال عادة نعتمد أيضاً على النقوش

---

[٢٣٤] – كنوز سوريا القديمة – اكتشاف مملكة قطنة، الناشر متحف الولاية – فورتمبرغ – بالتعاون مع المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، ما بين ٢٠٠٩ – ٢٠١٠م، ص ٦٧.

والتماثيل والأختام والأدوات المنزلية وتصاميم البيوت ونظام السكن وكل أثرٍ يمكن أن يعطينا ولو فكرة صغيرة عن المرأة، فمن واجبنا أن نستخلصها ونصوغها كمعلومة تاريخية هامة.

أما وبالعودة إلى نساء قصر ماري، فلا بد لنا قبل ذلك من معرفة بعض التفاصيل عن هذا القصر العظيم والذي يعتبر من أكبر القصور عبر التاريخ القديم، إن لم يكن الأكبر على الإطلاق، ويحق لنا أن نصنفه من عجائب الدنيا السبع، فقد كان قِبلةَ كل من يرغب في معرفة فن البناء وجمالية التصميم وعبقرية المهندسين العرب منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة، حتى أن الملوك الآخرين رغبوا في زيارته للتعرف عليه كما رأينا سابقاً عندما زاره أمير أوغاريت رغبةً منه في مشاهدته ومقارنته بعظمة البناء في مدينته الأم. فقد كان قصر ماري واحداً من أكبر الاكتشافات التي أتحفنا بها تل الحريري، حيث عثر على أنقاض مدينة ماري، وقد كتب عنه الآب فنسان: «إنه درة العمارة المشرقية» وبذا نفهم بسهولة مغزى تصرف ملك أوغاريت الذي أرسل ابنه إلى ماري عندما سمع عن قصرها.

تبلغ مساحة قصر ماري هكتارين ونصف وأكبر طول فيه ٢٠٠م والعرض ١٢٠م ويصعب تقدير مساحته لأن شكله ليس مستطيلاً تماماً، وهو يضم نحو ٣٠٠ غرفة وباحة، فكان يؤلف مدينة داخل مدينة، محاطاً بسور مدهش، يبدو منيعاً ولكنه لم يكن كذلك كما برهنت الحوادث، إذ أن حمورابي نجح في الاستيلاء عليه مرتين، ولم يكن يوجد في السور زيادة في التحصين سوى باب واحد في الشمال يرتفع على جانبيه برجان، ويتقدمه مدرج مبلط بالحجر، وهذا ترف في بلد كان استخدام هذه المادة فيه يُحسب بدقةٍ متناهية.

إن قصر ماري مُقسَّم إلى أجزاء عديدة يتجمع كل قسم منها حول باحة واسعة تحيطها الغرف من جميع الجهات، وأحياناً نجد رواقاً بأعمدة يمتد حول الباحة، بحيث تؤلف داراً مفصولة عن غيرها تقريباً لا يصلها بالدارات الأخرى سوى شارع أو ممر أو بوابة وقد عينت كل دار لسكن خاص، فهناك جناح الملك ودارات العائلة المالكة

وسكن الحاشية ومستشاري الملك والوزراء، وكبار موظفي الدولة، وهناك سكن رجال الدين قرب معابدهم التي كان بعضها داخل القصر. أما مصارف المياه فهي على غاية من الانتظام بحيث تسير المياه المستعملة في أقنية إلى خارج المدينة، كذلك يشاهد تأمين المياه النقية وإيصالها بواسطة أقنية فخارية توزع على دارات القصر وحدائقه، وهناك قاعات للمراسيم والتشريفات، تزينها لوحات جدارية مصورة تمثل مشاهد ميثولوجيه ودينية وطقوسية، كما يحتوي القصر على جناح المدارس التعليمية بكافة أنواعها، وحي الموظفين، وحي الأفران، وحي المعامل والمخازن، وحي الخدم والمطابخ، وفيه أيضاً بعض الحمامات[٢٣٥] والكثير من القطاعات الأخرى.

في هذا القصر الكبير كان جناح النساء يقع في الطابق العلوي من غرف السكن الملكية الفاخرة التجهيز، ويشير كاي كولماير إلى أنه من المرجح أن أقساماً كبيرة من القصر كانت مؤلفة من طابقين مع الإشارة إلى عدم استخدام القرميد أو اللبن المشوي في البناء إلا في أماكن قليلة[٢٣٦]. وكان جناح النساء يمثل (الحرملك) الذي تقطنه العناصر النسائية من العائلة المالكة والذي يضم الملكة الأم والكاهنات وزوجات الملك والأميرات والأمراء الصغار، وكانت تعمل في خدمة هذا الجناح العديد من المجموعات النسائية، التي نذكر منها: الموسيقيات والمعلمات والنسوة الكتبة وخادمات الأميرة الحلبية شيبتو، وخادمات الأميرات الأخريات، وكذلك الأقسام المختلفة من جناح النساء، بالإضافة إلى الطبّاخات وحارسات المداخل والأبواب والنسوة المسؤولة عن إحضار المياه، إنه عالم نسائي بامتياز[♣]، فقد أظهرت بعض الوثائق وجود مغنيات في قصر ماري في عهد يسمخ أدو، وقيل أن إحداهن كانت تدعى المغنية نارو، لكن الاكتشافات الحديثة، أثبتت وجود عدد كبير من الموسيقيات في القصر، منهن فرق شهيرة ومدارس تعليم للموسيقا، منها:

---

[٢٣٥] – الذنون: الذاكرة الأولى، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢١٥، ٢١٦.

[٢٣٦] – خليف: مملكة ماري، مرجع سابق، ص ١٨٧.

[♣] – قدّرت بعض الدراسات والأبحاث عدد نساء قصر ماري بـ ٣٨٤ امرأة.

- فرقة (تخصين – آدمو) Tahsin – Admu الموسيقية، لتعليم التلميذات الصِغار الموسيقا.
- فرقة إيزامو Izamu الموسيقية، وهي أيضاً لتعليم الموسيقا للنساء.
- فرقة (بيت تيجيتم) Bit Tegetim وهنَّ نساء عازفات (عبارة عن معهد فني لتعليم العزف على القيثارة).

وهنا يمكن ذكر أسماء بعض النساء الموسيقيات في قصر ماري:

- إيزامو: وهي موسيقية كبيرة في عهد يسمخ أدو، وكانت مسؤولة عن فرقة إيزامو الموسيقية، ويبدو أن وضعها قد تراجع في عهد زمري ليم.
- تاريس – ماتوم: وقد عاصرت يسمخ أدو وزمري ليم.
- كيخيلا: وقد عاصرت يسمخ أدو وزمري ليم [٢٣٧] وغيرهن كثير.

أما غرفة الملكة*، فقد كانت مُبلّطة بالآجر ومزخرفة بشكل جميل ومرفقة بغرفة حمّام ملساء، ولا يمكن إظهار رعاية أكبر من ذلك.

والحرملك هنا، هو مفهوم يُطرح بشكل منعزل عن واقعه الثقافي والحضاري الخاص به، لقد كان بإمكان نساء الحرملك في ماري وفي كافة المجتمعات السورية والرافدية أن يتدخلن في الحكم، وخاصة في فترة غياب الملك، أي ممارسة السلطة الملكية كاستقبال السفراء واتخاذ القرارات الإدارية، وامتلاك الأراضي والإشراف على مشاريع النسيج وغيرها من الأعمال الأخرى.

---

[٢٣٧] – الرفاعي، المرأة في ماري: مرجع سابق، ص ٩٧ – ١٠٥.

* – يُشير مصطلح الملكة الأم إلى المرأة (أدو – دوري) بحسب القائمة الأقدم التي توثق الحرم الملكي، وقد أشارت وثائق لاحقة أن الملكة الأم قد سكنت في جناح خاص بالنساء في القصر، وذلك لعدة أشهر، ولربما سكنت فيما بعد في مسكن خاص بها خارج القصر، وتذكر بعض المصادر أن اسم والدة زمري ليم هو (خدني – أدو) الذي وُجد هذا على ختمٍ للملك زمري ليم، انظر: المرأة في ماري، محمد عبد القادر الرفاعي، ص ٤٦.

وكانت الباحة مركز الحياة في هذا الجناح الخاص بنساء القصر الملكي، فكانت حفلات الغناء والرقص عامرة في قصر ماري يومياً، حيث كان ملوك ماري ينعمون برخاء وترف، ويُقدِّرْن النساء، بحيث كانت بعض النسوة المغنيات موضوع رسائل تفصح عن رغبة الملك بمغنية مرموقة أو امرأة جميلة تُضاف إلى محظيات القصر، إلى جانب الزوجة الأولى، التي كانت تُشرف على نساء القصر وعلى أعمالهن ونشاطهن، فكانت تأمر الوصيفات بالغناء وبالعزف على القيثارة والضرب على العود والدق على الدفوف. وكذلك كانت تشرف على عمل النساء في القصر اللواتي يعملن بغزل الصوف ونسج الخيوط بواسطة النُّول المثبت على الأرض، فقد كانت الملكة تحب صنع الأقمشة الناعمة والثمينة في رحاب دارها. فقد جاء في أحد الوثائق أنه كان في قصر ماري شخص يدعى موكانيشوم كان مسؤولاً عن شؤون النسيج والأعمال المعدنية والزينة الاصطناعية والجلود والزيوت، وكان مسؤولاً عن ((سجن النساء))!.

وهناك ثمة رسالة من زمري ليم – آخر ملوك ماري – إلى زوجته شيبتو تتحدث عن إرساله لثلاثين فتاة كي تختار الملكة منهن اللائقات من أجل تشكيل فرقة رقص[٢٣٨] خاصة بالقصر الحاكم.

وفي قصر ماري كنا نشاهد الأدلة على عظمة المرأة في هذه المملكة، فقد أورد (ديوران) من خلال ثلاث دراسات عن ماري تتعلق الأولى بإعطاء الاسم للأطفال في قصر ماري، والملاحظ أن الطفل في ماري لا يُعرف باسمه، بل باسم أمه حتى يكبر ويدبّ على قدميه[٢٣٩]، وهذا دلالة واضحة على مكانة المرأة أيضاً.

وقد كانت الولادة لتوأم تُعتبر ظاهرة جديرة بالملاحظة، وهذا محقق في وثائق ماري برسالة لـ شيبتو بعثتها لزوجها الملك تخبره مسرورة بأنها أنجبت توأمين، ومن طرائف الاعتقادات المشرقية عامة، إذا ولدت المرأة ولداً له رأس أسد، فمعنى ذلك أن

---

[٢٣٨] – المصدر نفسه: ص ١٢٨.

[٢٣٩] – عبد الله: قراءة في خمسة مجلدات، المجلد الثالث، مرجع سابق، ص ١٧٦.

ملكاً شديد البأس سوف يحكم البلاد، وإذا ولدت المرأة ولداً أصلم الأذن اليمنى، فهذا يعني أن أيام الملك قد اقتربت من نهايتها[٢٤٠]، مما يدل على ربط مصير البلاد بما تلده المرأة من أطفال، ويؤكد على وجود إرث عقائدي قديم، يعود ببذوره الأولى إلى عصر تأليه الأنثى، حينما جُعلت مهد كل عطاء.

كما أكدت الدراسات، أن قصر ماري، كان من الضخامة بحيث أنه ساعد على عملية فصل الجنسين، كفصل النساء عن الرجال أحياناً. أما إذا أردنا أن نتحدث عن قصر ماري في فترة زهوه، فإننا نتحدث عن آخر ملوكه زمري ليم الشهير.

الملك زمري ليم، هو أشهر ملوك ماري، الذي حكم فترة ازدهارها ١٧٨٢ – ١٧٥٩ ق.م، فهل كان متزوجاً بواحدة فقط، هي زوجته الحلبية الشهيرة شيبتو، أم أكثر من واحدة ؟؟ وقد جاء الجواب على ذلك من خلال الدراسات الحديثة، التي أثبتت أنه ربما كان متزوجاً أكثر من (١٢) امرأة، إذ تُظهر أسماء كثير من النساء، قد يكن محظيات رسميات (زوجات) أمثال: اينيبشينا، بالاسونو، دام جوراسي، والأخيرة ربما كانت ابنة ملك قطنة وزوجة يشمخ أدو السابق الذكر، ولا يستحيل أن يكون للملك مغامرات عاطفية فهنالك من تدعى اينيبشينا التي كانت منفية إلى ناحور في أعالي البلاد، وهي لم تخفِ رغبتها في رؤية وجه الملك مرة أخرى، ومع ذلك، فمن المؤكد أن ملك ماري كان يحب زوجته الحلبية شيبتو، وهي تقابله بالمثل، فهي تستطلع الفأل وتنقله إلى زوجها طالبةً منه أن يحمي نفسه من كل ما يهدده. وعندما تكون وحيدة في القصر فإن هذه الملكة (الزوجة) كانت تقوم بأعمال الملك، كما لو كانت السلطة بيدها شرعياً، أي أنها بوجه الإجمال، وصية على العرش، ولهذا نرى البعض يوجهون الرسائل إلى ملكتهم (زوجتهم)، فهم يعتبرونها بكل تأكيد مندوبة عنهم، فكانت الملكة شيبتو تضع ختمها الأسطواني الذي يحمل الكتابة التالية: «شيبتو، بنت يا ريم ليم زوجة زمري ليم» على بعض الأبواب وسلاسل اللوحات

---

[٢٤٠] – خليف: مملكة ماري، مرجع سابق، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

والمستودعات، حتى موكانيشوم السابق الذكر، لم يكن له الحق في الدخول إلى بعض الغرف والمستودعات دون إذنٍ مسبق من الملكة رغم مكانته العالية، فهي تتمتع بسلطة لا مراء فيها ولا جدل حولها.

ويبدو أن تقليد حيازة المرأة في ماري على ختم، قديم جداً ويعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، فقد عُثر في ماري على أختام لنساء تعود إلى تلك الفترة، مع قلة لهذه الظاهرة في الألف الثاني قبل الميلاد، مما يؤكد على أن دور المرأة في ماري كان أفضل في الألف الثالث عنه في الألف الثاني قبل الميلاد، وقد كانت الأختام تنتقل من الأب إلى الابن وإلى الأحفاد أيضاً.

وبالعودة إلى شيبتو فكنّا نراها تملأ جيداً مركزها (كسيدة بيت) كما تشغل بجدارة العرش خلال غياب زوجها في السفر أغلب الأحيان وفي كثير من الأحوال في الحرب. إنها امرأة بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، فقد كانت تساعد زوجها في قيادة الدولة وفي تسيير أمور الرعية.

وكنا نعرف اسم فتاتين من أسرة زمري ليم هما: كيروم ونارام توم. أولاهما تدعو أباها بـ (نجمتها) وفي نفس الوقت بـ (أبيها ومولاها).

وهنالك أختان، هما نيغانوم وآحايتا وأقل بهرجة في عباراتهما ولكنهما أكثر واقعية، فالبطاقة التي أرسلتها أولاهما لا تفتقر إلى الفكاهة ولا إلى الصواب، كان الأخ قد رفض إعطاء أخته الخراف التي تطالب بها ((لأن الفصل كان شتاء ولا يوجد عشب، وعندما نبت العشب حان وقت إعطاء الخراف ولم تتوان نيغانوم عن المطالبة بها))[٢٤١].

وقد قامت كيروم مرة وهي ابنة شبيتو الحلبية على ما يبدو بتقديم النصائح لوالدها، لكن الملك لم يأخذ بها فكتبت له معاتبة: «لو لم أكن امرأة، لأخذ والدي ومولاي بنصائحي». أما الابنة الصغرى فكانت تشتكي في رسائلها من قلة الاهتمام

---

[٢٤١] – بارو: ماري، مرجع سابق، ص ١٧٦، ١٧٧.

بها ومن قلة الرسائل إليها، وهناك رسالة من نيقشاتوم أخت الملك زمري ليم، تقول فيها بالحرف الواحد: أقول لزمري ليم ما يلي: «أختك نيقشاتوم كانت طلبت منك أن تبعث لها ببعض الخرفان، فكتبت لي وقتئذ أن الجو بارد الآن ويستحيل إرسال الغنم، وستبعث بها عندما يأتي الربيع، ها هو الربيع قد حل وأرجو من أخي أن يبعث الخرفان» هذا ما أكدته الباحثة إيفاشترو مينغر في كتابها الموسوم بـ (مملكة ماري).

وكذلك تؤكد الوثائق وجود أخت لزمري ليم كانت تعيش في قطنة واسمها (ني غاتوم) وقد كان وضعها سيئاً، فكانت ترعى الغنم، ربما لأنها كانت أسيرة هناك، وهذا ما أورده الدكتور بشار خليف في كتابه الموسوم بـ (مملكة ماري) ص /١٨١/. كما أنه كان لزمري ليم ١١ بنتاً قبل زواجه من شيبتو*.

كما حوى قصر ماري في عهد زمري ليم ومن قبله أيضاً، العديد من (النساء الكاتبات = طوب شَرَّتوم) ومن أشهرهن: (شَتَّم كَيزي) كاتبة ماري الملكية منذ عهد يسمخ أدو حسب النص (ARMX 87 – 89).

ولما كانت المرأة في ماري على درجةٍ كبيرة من المكانة، فقد جارت الرجل حتى في مهنة الطب، وهذا ما أيدته الوثائق، التي أكدت وجود طبيبات (آسوتوم)* في القصر الملكي، هُنَّ في خدمة سيدات المملكة الكبار، وخاصة الملكة الأم (آدو – دوري) ومنهن الطبيبة (ماميتوم – أومي mammi – tum – ummi) التي كانت في خدمة الكاهنة الكبرى أنيبشينا ومن بعدها خدمت الملكة شيبتو، وهنَّ مسؤولات أيضاً عن علاج النساء الأميرات في القصر الملكي[٢٤٢] .

---

* – حسب ما ورد في بعض المصادر.

* – كان الطبيب يدعى بالأكادية آسو ASU كما في السومرية A.ZU ويعني حرفياً خبير السوائل، أي العارف بواسطة الماء، وفي العربية يدعى الآسي من كلمة آسى أو واسى. انظر الرفاعي، المرأة في ماري، ص ٨٣.

[٢٤٢] – الرفاعي، المرأة في ماري: مرجع سابق، ص ٥٦، ٨٣، ٨٤، ١٦٥.

الملكة شيبتو

وهي ابنة ملك مملكة يمحاض (حلب) يا ريم ليم من زوجته الملكة جاشيرا ذات الشخصية الهامة في القصر الملكي الحلبي، لذا تكون شيبتو قد ورثت القيادة عن أبيها، الذي يُعتبر نفسه من أقوى ملوك المنطقة، إذ كان يتبع له على حد قوله أكثر من عشرين ملكاً. كما كانت أمها جاشيرا ذات نفوذ واسع في القصر الملكي الحلبي، والتي كانت تساعد زوجها على الحكم، فلا بد أن هذا الإرث الكبير قد انتقل مع ابنتها شيبتو أثناء انتقالها وزواجها من أقوى ملوك ماري زمري ليم.

فقد تزوج زمري ليم من شيبتو وفق مراسم الزواج الحلبي والسوري عامة، فلدينا مجموعة وثائق مسمارية تعطي فكرة هامة عن مراسم الزواج في سوريا خلال مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، خاصةً في عصر قوة ماري، أي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، والمثال الأول الذي تقدمه الوثائق، هو زواج يسمخ أدو بن شمشي أدد ملك آشور من ابنة ملك قطنة دام جوراسي (بيلتوم)، وكذلك فإن معظم بنات زمري ليم اللواتي تزوجن فيما بعد قدَّمن مثلاً على طرائق الزواج هذه.

وقد أصبح واضحاً أن الكلمة الأكادية (نديتوم) التي تعني مجموعة الهدايا التي يقدمها الأهل لابنتهم، وقد ترجمها (ديوران) بـ (البائنة) أو (المهر بالمفهوم الحديث في مجتمع سوريا اليوم)، ومما يلاحظ أن النديتوم ذاتها تُعطى للبنت التي تترهب وتصبح قدّيسة، وفي هذه النصوص لا نجد ما يدل على النديتوم المُعطاة لـ شيبتو، بل معلومات عن الـ (ترخاتوم) كما هو وارد في النص الذي يبدأ بتسجيل المواد، وفي الختام يذكر: «ترخاتوم إلى بنت ياريم ليم، الذي أخذها معه إلى حلب، أصقدوم بتاريخ شهر min–biri (d) سنة استيلاء زمري ليم على مدينة كاخات»، ويفهم من هذا، أن الـ ترخاتوم أي (التقدمة) هي الهدايا التي يقدمها العريس إلى العروس، وقد تضم الأساور والحلي، ولا يُذكر فيها الأثاث المنزلي، بعكس الثياب الكثيرة المذكورة كثيراً، والترخاتوم هو نفسه البيبلوم الذي هو أيضاً هدية العريس، وإذا قبلها والد العروس

يعني موافقته على العريس وإلا فلا. وقد كان (أصقدوم) وهو مندوب زمري ليم للزواج من شيبتو، لذلك يُعتبر زواج زمري ليم من شيبتو حتى الآن، أقدم مثل على الزواج بالوكالة في التاريخ إطلاقاً[٢٤٣].

أما عن تفاصيل زواج شيبتو، فقد توجهت بعثة رسمية من ماري إلى حلب، حيث كانت تزود ملك ماري زمري ليم بأخبار المسير والوصول إلى حلب، ويصف لنا مندوب البعثة الأول أصقدوم برسائله، كيف طلب من وزير القصر الحلبي السَّماح له بالدخول وطلب يد الأميرة شيبتو من أبيها، ولكنه لم يجرؤ على الدخول بنفسه لتنفيذ هذه المهمة الدقيقة، فكلَّف بها الوزير الذي اشترط شروطه أيضاً، وعندما دخل وخرج، قال له: ((إن أم الملك مريضة، وطلب إليكم أن تؤجلوا الموضوع وتذهبوا برحلة ترفيهية في بلاد يمحاض)). وبعد أن قام الوفد بالرحلة السياحية عاد إلى طلب ما جاء من أجله، فخرج لهم الوزير من بلاط الملك الحلبي قائلاً: ((امرأة بامرأة))، ويقصد أنه يريد إحدى المغنيات في قصر ماري أو محظية للملك اسمها (كرناتوم) مقابل موافقته على تزويج الأميرة، ويبدو أن هذه المقايضة، كانت سريَّة خشية من الزوجة الملكة جاشيرا والدة شيبتو.

وكان من شروط ذهاب شيبتو إلى ماري، أن تقيم مع الملك تحت سقف واحد طوال الشهر، وفي ذلك إشارة إلى عادة بعض الملوك المعاصرين، وهي إقامة الزوجة خارج القصر الملكي، خاصةً في أسبوع الدورة الشهرية[٢٤٤]. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن المرأة أثناء الدورة الشهرية تُعدُّ غير طاهرة من وجهة النظر الدينية، إذا لا يحق لها ممارسة الطقوس حينها، وكذلك الامتناع عن الزواج، فإننا نستطيع أن نفهم أن العادة الحلبية أو السورية عامةً، تقضي بأن تسكن المرأة مع زوجها تحت سقف واحد، ولكن

---

[٢٤٣] – عبد الله، فيصل: رسائل جديدة عن تاريخ حلب وشمال سوريا في القرن ١٨ ق.م، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٤٥. ٤٦، دمشق ١٩٩٣م، ص ١١٣ وما بعدها.

[٢٤٤] – عبد الله، فيصل: ملامح تاريخ المرأة في الشرق العربي القديم، مجلة عاديات حلب، الكتابان ٦ – ٧ عام ١٩٩٢م، ص ١٧٥ – ١٧٦.

في طور العادة الشهرية، يمكن أن تتركه لبضعة أيام، كما جاء على لسان ياريم ليم، على اعتبار أن القصر (حُكمهُ حكمُ المعبد) فعلى الزوجة مغادرته في طور عدم الطهارة.

وهذا ما أكدته الرسالة A.2679:13 عن إمكانية ترك الزوجة لبيتها كتقليد اجتماعي بالابتعاد عن الزوج أثناء الدورة الشهرية، وذلك لأسباب صحية ودينية، فهي – أي المرأة – لا تستطيع ممارسة طقوسها الدينية، وهي غير طاهرة. وقد حصلت الباحثة (نيلي زيغلر) على نتيجة مفادها: إجبار النساء على ترك القصر أثناء الدورة الشهرية: «فالنساء في هذه الحالة، لسن مؤهلات أن يعشن تحت سقف واحد تسكن تحته آلهة القصر».

أما عن شخصية شيبتو، فقد كانت تتميز بشخصية واثقة شديدة الاعتزاز بنفسها وبأهلها، وبإمكانيتها على القيام بالقيادة والحكم لأنها كانت ذات بصيرة سياسية قلَّ مثلها، والدليل على ذلك، هو الدور السياسي الذي لعبته شيبتو أثناء الصراع مع بابل، إذ أنها كانت ترصد تحركات الملك البابلي حمورابي، فقد أرسلت إلى زوجها زمري ليم مِراراً تحذره من دسائس هذا الملك ضد مملكة ماري، ومن حينها أصبح زمري ليم على علم مُسبَق بنوايا حمورابي العدوانية[٢٤٥].

كما كانت شيبتو زوجة مُحبَّةً لزوجها ووفية ومطيعة له، فكانت تدير شؤون الحكم في غيابه وتبلغه عن كل شيء يجري معها من خلال رسائلها له عندما يكون خارج القصر في غزواته وجولاته الأخرى.

لقد قدَّم لنا العالم الأثري جورج دوسان من خلال المراسلات النسائية التي ترجمها، والتي تضم ١٧٩ رسالة، وقد استطاع علماء الآثار واللغات المسمارية القديمة التعرف على ١٧ رسالة من رسائل شيبتو لزوجها أثناء غيابه، وتحتوي هذه

---

[٢٤٥] – الراوي، هالة عبد الكريم: دور ملكات وأميرات مملكتي ماري وكرانا من خلال رسائل العصر البابلي القديم، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١٠٥– ١٠٦، دمشق ٢٠٠٩ م.

الرسائل على خصوصيات نسائية عذبة رشيقة، كما أن الملكة تلقت من زوجها ٢٠ رسالة بقضايا مختلفة.

ونقرأ في إحدى الرسائل القصيرة من شيبتو إلى زوجها: «كل شيء على ما يرام في ماري، المعابد والقصور» وفي رسالة أخرى تتمنى شيبتو لزوجها النجاح الباهر في الحرب ولا سيما أن يعود لها ((سالما معافى مسرور القلب)). وبانتظار ذلك تُرسل له معطفاً وثوباً، وتؤكد أنهما من صنع يديها، وتضيف رجاءً أخيراً «أن يضعهما على كتفيه»، وفي رسالة أخرى تقول: «إلى مولاي هكذا تقول شبيتو خادمتك، لقد وضعت للعالم توأمين، صبياً وبنتاً فلتفرح نفس مولاي» وكان سرور الأب السعيد عظيماً جداً بلا ريب، ويا لها من خسارة ألا نجد دليلاً كتابياً على ذلك[٢٤٦]، وفي رسالة أخرى تخبره فيها عن تجارة الخمور التي كانت تشرف عليها، وتقول له أن الملك حمورابي البابلي أرسل مندوباً يطلب بعض الخمور الجيدة.

وفي الرسائل النسائية أيضاً، نجد رسالة من إحدى بنات زمري ليم إلى والدها والتي كانت تقيم في مدينة سيبار، وكانت تصف فيها (ارشتي – إبا) زوجة ملك سيبار، وتصف وضعها البائس، وإن شقيقة حمورابي البابلي كانت تعيش في القصر!.

ومن الرسائل الهامة، التي تدل على طابع شيبتو الإنساني واهتمامها برعاية شؤون رعيتها، الرسالتان اللتان أرسلتهما إلى حاكم ترقا (العشارة) وزوجته، الرسالة الأولى: تطلب من الحاكم الاهتمام بامرأة فقيرة، وهي مريضة قلب، تعيش الآن في مدينة ترقا (تل العشارة) وتطلب منه مساعدتها وإرسال أخبارها. أما الرسالة الثانية: فهي مُرسلة إلى زوجة حاكم ترقا (كبري – داجان) تطلب منها الاهتمام بامرأة فقيرة اسمها نمّانة، وهي مريضة بمرضٍ مُعدٍ لعله الجدري أو السل، وتطلب الحجر عليها وعدم مخالطتها لبقية النساء[٢٤٧]، وهذا دليل هام جداً على مدى الوعي الصحي لنساء ذلك العصر ورجاله، وهذا ما أكدته رسالة أخرى، فبعدما كان زمري ليم قد سمع

---

[٢٤٦] – بارو: ماري، مرجع سابق، ص ١٧٥ – ١٧٦.

[٢٤٧] – الحمد: حضارة طريق التوابل، مرجع سابق، ص ١٤١ – ١٤٢.

بمرض زوجته الثانية، أرسل إلى شبيتو يقول لها: «سمعت بنبأ مرض ناتامة، لكنها ظلت تتنقل في أرجاء القصر وتختلط مع بقية الحريم، أرجو منك يا شيبتو الغالية أن تصدري الأوامر الفورية بأن لا يشرب أحداً من كأسها، ولا أن يجلس أحدٌ على مقعدها، وأن لا ينام أحد في فراشها، وألا تختلط ببقية النسوة، كي لا تنتقل عدوى مرضها إلى البقية»[٢٤٨]، وفي رسالة أخرى ARMTX-14 تُعلِمُ شيبتو سيدها زمري ليم بمرض امرأة أخرى تدعى اشتكا، وهي توضح اجراءات العزل الصحي للوقاية من العدوى، ((ويظهر من السطر (٢) أن المرأة لن تعيش حتى وإن عولجت، وفي السطر (٥) اسكنتها في البيوت الجديدة، وفي السطر (٦) شرابها وطعامها منفصلان، ولا أحد يسمح أن يدنو من سريرها، وفي السطر (٧) أو كرسيها، وفي السطر (٨) عسى سيدي يتصرف وفق ما يراه مناسباً)) وهذا دليل آخر على الوعي الصحي في ماري قبل أربعة آلاف سنة، وأنه لأمر عظيم إذا ما عرفنا أنه وُجِد في ماري إضافة إلى ذلك طبيبات وأطباء أخصائيون (أطباء عيون، وأطباء لأمراض القلب والجلد ... إلخ)، ومن الطبيعي أن يترافق هذا الوعي مع وعي اجتماعي ستستفيد منه المرأة حتماً.

ومما يعطي دلالة أخرى على أهمية موقع شبيتو كزوجة لملك ماري، هو قيامها بحل بعض المشاكل، خاصةً على المستوى الاجتماعي، فقد أشارت بعض الوثائق إلى قيام شبيتو بتلقي بعض الشكاوي، التي كانت تصلها لإحقاق الحق، فثمَّة وثيقة (رسالة) من امرأة تدعى (طريش – حتو) تتضمن ما يلي: «إلى شيبتو أقول ما يلي: هذا ما تفيدك به طريش حتو ... أشاعت الفتاة بلتاني في ماري وقالت أيضاً ... لوالدها كيبري – دجن ... بأن طريش – حتو كتبت إلى شخص هنا ... تطلب منه أن يسرق أقراطها وأساورها الفضية ... وعندما سمعت تلك الإشاعة اضطربت دقات قلبي وأخذ مني الغضب ... أرجو إرسال ما يلزم ليتثبَّت من صحة الختم على رسالتي

---

[٢٤٨] – القيّم: المرأة في حضارات، مرجع سابق، ص ٩٢.

المزعومة ... وإذا كنت فعلاً قد أمرت بسرقة مجوهرات تلك الفتاة ... باسم صداقتنا يا مولاتي أرجو منك أن تُحيطي الملك، مولاي بأمر هذا الافتراء، وبانتظار جوابك العاجل» والذي يبدو أن هذه السيدة الشاكية هي ابنة حاكم ترقا [٢٤٩].

وكما ذكرنا سابقاً فقد احتوت هذه الرسائل النسائية على أسماء كثير من النساء اللواتي كُنَّ محظيات رسميات، وقد ذكرنا بعضهن أمثال اينيبشينا وبالاسو ودام جوراسي، ولا ننسى أن شبيتو ربما كانت على علم بتحركات زوجها، ولكنها ولحكمة منها، ربما كانت تسكت، فهي السيدة الأولى والحاكمة إلى جانب زوجها، التي سُمِحَ لها أن تضع ختمها الأسطواني الخاص على الرسائل وبعض القضايا الهامة في الدولة، وقد كان ختمها يؤكد على شخصيتها ومدى اعتزازها بنفسها ونسبها، فقد كتبت على ختمها (شبيتو، بنت ياريم ليم)، وكما رأينا في الرسالة السابقة، بأن (طريش – حتو) نفسها كان لها ختمها الخاص؟!! وقد كانت شبيتو قد استخدمت بعض الأساليب لكي تُظهِر لزوجها مدى حبها وحرصها على سلامته، ففي بعض النصوص التي وُجدت كوثائق مسمارية، والتي كتبها كُهّان المعابد، وكان أكبرهم على ما يبدو يحمل اسم (نبو) أي نبي (الإله نبو إله الكتابة) وهذا النبو أو النبي، هو الذي يرى ويكتب رؤياه للملوك أو للشخصيات، والنص هو رؤيا (النبو) التي نقلتها شبيتو إلى زوجها الغائب في المعارك، كي تطمئنه أن الإله وملائكته مصممون على حماية مدينة ماري، وأن لا أحداً يستطيع المساس بها[٢٥٠].

هذه الشخصية القوية لشيبتو هي رمز لعظمة الأنثى في ذلك العصر، فهي ابنة ملك وزوجة ملك، إضافة إلى ذلك فقد كانت ذوّاقة للخمر والنبيذ، الذي كان يأتي إلى ماري وقصرها هدية من ملك حلب ياريم ليم أو من كركميش وملكها إيبلاخاندا. ويبدو أن شبيتو كانت تتذوق الخمر لتحديد جودته، فقد أشارت وثيقة ماريّة إلى طلب زمري

---

[٢٤٩] – خليف: مملكة ماري مرجع سابق، ص ١٨٢ – ١٨٣.

[٢٥٠] – عبد الله: قراءة في خمس مجلدات، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ١٧٤.

ليم أن تتذوق له النبيذ الذي اختاره هدية لملك بابل[٢٥١]، مما له دلالة على مدى ثقته بها وبذوقها وإقرارها، فالهدية ليست عادية هذه المرة، فهي لحمورابي ملك بابل العظيم ولا مجال للخطأ هنا.

ويبدو أن هذه الرسائل النسائية الكثيرة، التي انتشرت في عصر ماري، ما هي إلا دليل واضح مكانة المرأة، فهي قادرة غالباً على الكتابة والقراءة ومخاطبة الملوك بكل راحة، فلا خوف ولا وجل من توجيه رسالة محبة أو لوم وعتاب. ولمزيد من إلقاء الضوء على هذه الرسائل، نذكر منها رسالة من الأميرة كيروم ابنة زمري ليم إلى أبيها الملك، تؤكد فيها على أهمية الرسائل المرسلة منها – كامرأة – تقول: «إذ أنا امرأة، ليهتم أبي وسيدي إلى كلماتي؟ أكتب باستمرار كلمات الآلهة إلى حضرة أبي...».

وفي رسالة موجهة من **الملكة كابيئاتم** لزوجها الملك يسمخ أدو ملك ماري حول إقامتها الصلوات ابتغاء مرضاة الآلهة، لتحافظ على حياة سيدها الملك وحكمه، فضلاً عن كونها نوعاً من التودد الدائم للملك، تقول: «أصلي لك إلى الإله شمش والإله داجان... ليعطوك حكماً وعرشاً وليحفظوك، بخصوصي إلى الأبد...».

وإذا ما ابتعدنا إلى مملكة كرانا القديمة Karana ♣، فقد كان ملكها يُشير دائماً إلى تقديم الشراب إلى إله المدينة إلى جانب **الملكة (التاني)** وأختها (بيلا – سونو) فضلاً عن حضور الملك للاحتفالات الدينية والرسمية والإشراف عليها، يؤكد ذلك رسالة (أقبا – خامو) إلى (التاني) التي تنص على: «في اليوم الخامس عشر من شهر نابرم، تعمل الاحتفال وإبداء ضبط الألواح» وقد شاركت الأميرة (أمات – شمش) أخت الملكة التاني، التي تعمل كاهنة في معبد سيبار، حيث أقامت الصلوات من أجل الملك زوج أختها الملكة التاني، وذلك مقابل بعض الاحتياجات، فقد أرسلت رسالة إلى أختها تُذكِّرها بوعود زوجها الملك.

---

[٢٥١] – خليف: مملكة ماري، مرجع سابق، ص ١٨١.

♣ – تقع مملكة كرانا في تل الرماح، على بعد حوالي ٣ كم إلى الجنوب من تلعفر في العراق، والتي كانت تسبح في فلك الهيمنة الماريّة.

وهكذا نلحظ أن المرأة، سواء كانت ملكة أم أميرة، كان لها دور بارز في تقوية الأواصر الاجتماعية، الأمر الذي ينعكس بدوره على العلاقات السياسية من خلال المصاهرات السياسية بين الممالك.

ففي رسالة كتبها الملك (أقبا – خامو) ملك مملكة كرانا السالف الذكر إلى زوجته الملكة التاني عن حضور احتفال سيقام في شهر نابرم بدلاً عنه – أي تحضر الملكة نيابة عنه – في الاحتفال قائلاً لها: «قل إلى التاني، يقول أقبا – خامو الآتي: لتعمل الاحتفال في اليوم الخامس من شهر نابري...» أي أن تمثل التاني مكان زوجها في هذا الاحتفال الشعبي[٢٥٢] مما يؤكد على قيام الملكات سابقاً ببعض مهام أزواجهن، وهذا دليل واضح على دور الملكات في قيادة الدولة.

وبالعودة إلى قصر ماري، ذلك المملكة النسائية بامتياز، والذي حازت المرأة فيه على مكانة عالية لقيامها بكل الأدوار، ابتداءً من الحكم كملكة، وليس انتهاءً بدخولها سجن النساء، فقد أشارت بعض الرسائل أيضا، إلى أن النساء في قصر ماري كان لهن أعمال كثيرة، فكانت واحدة منهن وتدعى (أدر – دوري) وكانت مسؤولة عن الخدم، فيما تؤكد رسائل أخرى تمتع النساء في ماري بالمسؤولية الإدارية في أجهزتها المختلفة.

وهكذا كانت نساء قصر ماري يمثلن نساء ماري أجمعين، فمن امرأة عبدة أو سجينة إلى امرأة ملكة، مروراً بكافة المستويات الأخرى، ولربما كان هذا حال نساء بلاد الشام أجمعين في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، ولا خير من تمثيل الأنثى الإلهة في نظر سكان ماري سوى ما تركوه لنا من آثار عنها، فقد وُجِد على إحدى قوالب الحلوى المصنوعة في ماري، نقشٌ لامرأة عارية تسند ثدييها في حين زَينت رقبتها بأطواق غليظة ولفَّت شعرها بقماشة على شكل عمامة، وقد اعتُقد أنها تمثل إلهة الخصب، فأطلق عليها اسم الإلهة العارية[٢٥٣].

---

[٢٥٢] – الراوي: دور ملكات وأميرات مملكتي ماري وكرانا، مرجع سابق، ص٥ وما بعدها.

[٢٥٣] – خليف: مملكة ماري، مرجع سابق، ص ١٩٩.

نساء ماري خارج القصر

عندما نتحدث عن نساء ماري خارج القصر، فلا يخطر على بالنا أننا سوف نرى النساء فقط مُستعبَدات وجاهلات، لكن الأمر الطبيعي، أنه عندما نخرج من القصر إلى الشارع والمنازل والمعامل، فإننا سوف نرى تعدداً واضحاً في مراتب النساء ومكانتهن، ونماذج مختلفة تتبع في سويتها إلى الوضع الاجتماعي والطبقي الذي عانت منه كل حضارات الشرق القديم، وما زالت، وهذا أمر طبيعي في مدينة منفتحة على الآخرين، فماري – كما هي أوغاريت – تمثلان بوابتي سوريا، على عالم البحر الأبيض المتوسط في الغرب، وعلى عالم الشرق بدءاً ببلاد الرافدين.

هذا الموقع، الذي أكسب ماري تنوعاً ثقافياً وحضارياً، انعكس بشكل جيد على الوضع العام لنساء ماري، في حين دفعت بعضهن ثمن هذا الانفتاح وهذا الموقع الهام. فكان لا بد من وجود النبيلات والسيدات والعاملات الحرائر، إضافة إلى وجود العبدات والغواني وغيرهن كثيرات، ففي ماري نرى النساء في كل مكان وفي كل الحالات، فقد برعن داخل المنزل وأعماله وخارجه في كافة المجالات.

أما عن الزواج في ماري، فكان يُقام أسوة بغيرها من المدن والممالك، حيث نجد ظاهرة المهر الذي يدفعه الرجل لأهل زوجته، وقد غالى أهل ماري كثيراً في ظاهرة المهر، وذلك بسبب الغنى والترف العام للسكان، باستثناء نساء الطبقات الفقيرة والعبيد الذين كانوا يعيشون في أسفل السلم الاجتماعي، فلا وجود للمهر الكبير عندهم بكل تأكيد، وكان يجب على الرجل أن يؤمن المسكن الشرعي لزوجته، حيث تجري مراسيم الزواج على شكل حفل زفاف يحضره الجميع. ومما يدل على دور المرأة الكبير في ماري، هو وجود بعض القوانين الخاصة بالزواج، تُتيح للمرأة أن تأخذ العصمة بيدها في بعض الحالات، فقد كان للزوجة الحق بالمبادرة بقطع العلاقة الزوجية متى تشاء، بمعنى أن العصمة بيدها. كما أن أمر امتلاك أكثر من زوجتين لم يكن شائعاً إلا في العائلات الملكية، فلم يتم تأكيد تعدد الزوجات في الطبقات الدنيا.

أما عن الطلاق فكان يتم عندما يقوم الزوج بخلع معطف زوجته أو تمزيقه بحضور شهود[٢٥٤]، ففي الرسالة ARMTX.33 وهي مٌرسلة من كيروم بنت زمري ليم والتي تزوجت من (خايا سومو) حاكم مدينة (إيلا نصورا)*، وقد طُلِّقت منه بعد معاناة شديدة، نقرأ في الأسطر ٢٦ – ٢٧: «لقد مزَّق طرف ثوبي أمام الملوك قائلاً: اذهبي إلى بيت أبيك (اشهدوا) لقد حولت أنظاري بعيداً عن وجه زوجتي» أي أن تمزيق طرف (شريط) الثوب أمام الملوك أو الشهود، إضافة إلى تحويل النظر عن وجه الزوجة، يُعتبر علامةً على الطلاق،. ولكن قوانين الزواج، كانت تسمح للمرأة برفع دعوى ضد زوجها، فإذا أقدم رجل على الطلاق من زوجته بسبب عدم إنجاب أطفال، يكون على الزوج أن يُعيد للزوجة مهرها، ويُعوِّضَ جهازها الذي كانت جلبته من بيت أبيها ثم يتم الطلاق، ولا ندري إن كان رجال ماري يرغبون بالزواج كثيراً، لكن الوضع العام في ماري، كان يؤكد على ظاهرة تعدد الزوجات، خاصة في الطبقات الغنية، ذلك بسبب الانفتاح على الآخرين، وبسبب الغنى المادي، ولوجود ظاهرة الإماء والسبايا والأسيرات، ولوجود الأجنبيات الكثيرات في ماري ومن كافة الأجناس.

---

[٢٥٤] – المصدر نفسه: ص ٢٧٥.

* – تقع في الجزيرة السورية العليا، وقد كانت تابعة لماري.

الزواج السّياسي في ماري

لقد كان الزواج المتبادل بين العواهل والحكام دليلَ تحالفات سياسية واقتصادية، وقد شاع كثيراً في عصر ماري، فقد تزوج ملك أور (أورنامو) من ابنة حاكم ماري (ابيل كين) في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، وتزوج يخدون ليم والد زمري ليم من أخت ملك يمحاض (حلب) ياريم ليم، حيث أنجبت له زمري ليم*، فيما تزوج زمري ليم ثانية من شيبتو الحلبية ابنة خاله، كما دفع ببناته كزوجات لنوابه في الأقاليم، بأمل توطيد العلاقات معهم، هذه العلاقات التي ربما تسوء بين الحمو وصهره، مما ينعكس سلباً على سياسة البلدين، لقد قام زمري ليم بتزويج بناته الإحدى عشرة، زيجاتٍ دبلوماسية مع حكام مملكته، وكبار ضباطه ونوابه في المناطق والمقاطعات، ففد زوَّج اثنتين من بناته إلى الأمير (إلا – نصورا) السالف الذكر، وزوَّج أخرى إلى (إيسبال – أدد) ملك أشلاكا وربما إلى خمديا ملك انداريق، وواحدة إلى شاريا من الإخوث، وواحدة إلى إيلي – عشتار ملك مملكة أشنونا، وربما إلى أشكور أدد ملك مملكة كرانا، وبكل تأكيد زوَّج ولديه عيشارليم وإيلي دجن من نساء أميرات لبعض الممالك المجاورة، ولا ننسى زواج يسمخ أدو من الأميرة دام جوراسي (بيلتوم) ابنة ملك قطنة إشخي أدو وهو زواج سياسي بامتياز، وكان موجهاً ضد مملكة يمحاض (حلب).

وقد لعبت المرأة في بعض الأحيان دوراً كبيراً في المساهمات السياسية، وإقامة التحالفات والمعاهدات، فنجد أن زوجة الشيخ (أدال – شيني) شيخ قبيلة التروكي، قد ساهمت في توقيع معاهدة السلام مع الملك زمري ليم، وذلك بسبب انحدارها من أصول ملكية، مما جعلها تتمتع بمكانة عالية لدى ملوك الممالك الأخرى، وقد انتهت هذه المعاهدة بزواج سياسي بين أخت زمري ليم من (أدال – شيني)، وبهذا الزواج

* – أي أن ياريم ليم هو خال زمري ليم.

أصبح من المُتوقع أن تتمتع بمركزٍ مرموق على غرار بقية ملكات العصر البابلي القديم[٢٥٥].

اللباس في ماري

كانت المرأة ترتدي ثوباً يُظهِرُ المرأة عارية الكتف، وكان الرداء المُغطي للكتف ظهر لأول مرة في عصر السلالات الملكية الأولى، فكانت النساء ترتدينه في بعض الطقوس الدينية.

وكان اللباس، يحملُ دلالةً واضحةً على الوضع الاجتماعي، فلباس المرأة في ماري أكثر احتشاماً من لباس المرأة في بابل وأور، فكانت المرأة – أحياناً – تلبس جلباباً وغطاءً للرأس يخفي مفاتنها، وفي هذا الصدد يقول أندريه بارو: «يجب أن لا يغرب عن البال لباس ثياب مُبللة في الصيف، مما يثير الفتنة لدى الرجال، وهذا من دهاء النساء الأنيقات اللائي يردن المحافظة على الحشمة وإثارة الفتنة في اللباس الجريء». وكان القماش الأزرق والأرجواني (التاكلتو) من القماش المرغوب به في ماري، وكان يستورد من أوغاريت وجبيل[٢٥٦].

لكن لباس المرأة بشكل عام، كان خالياً من التزيينات، وهو يصل حتى القدمين، وإما أن يُترك الكتف الأيمن عارياً كما ذكرنا، أو تُترك فتحة صغيرة عند الرقبة، ويبدو أنه وُجِد نوعٌ من العباءات بِقصَّةٍ أمامية مُستديرة ورقبة قصيرة وفتحتي أكمام، وكما هو مُعتاد، فقد تزينت نساء ماري بالأقراط والأساور والعقود من المعادن والحجارة الكريمة والأصداف، ويبدو أن المرأة في ماري، كانت تقضي وقتاً طويلاً للعناية بشعرها، ويُستنتج من خلال التماثيل المكتشفة، وجود نماذج لعدة تسريحات للشعر، فقد وُجِد

---

[٢٥٥] – الراوي: المقالة السابقة، ص ٢٠.

[٢٥٦] – الحمد: حضارة طريق، مرجع سابق، ص ١٤٠. ١٤١.

نموذجٌ للجديلة الطويلة الملفوفة على الجبين والصدغين، ووجد شكل العقدة الكبيرة في مؤخرة الرأس، كما وُجِدت طريقة جمعه ضمن شبكة إلى الخلف وغير ذلك.

ويبدو أنه قد استُخدمت الأربطة في المحافظة على قصّات الشعر أو تجعيده أو تصفيفه وغير ذلك من أشكال الأناقة.

أما عن غطاء الرأس فكان على الأغلب عبارةٍ عن قلنسوة مستديرة مُدببة قليلاً إلى الأعلى، تُربط تحت الذقن لتثبيتها، وبهذا اللباس فقط كان يُسمح للرجال والنساء الاقتراب من الآلهة في المعبد[٢٥٧].

ومن وجهةٍ أخرى، فإن العاهرات المقدسات لا يحق لهن وضع غطاء على الرأس، وكذلك العبدات، يقول جان ماري ديوران: أن غانيات المعبد (بالأكادية حارمتوم) في ذلك العصر كُنَّ يضعن الغطاء على رؤوسهن على عكس ما هو شائع، بينما لا يُسمح لهن وضع الغطاء الخاص بلباس النساء والرجال في حالة الاقتراب من الآلهة في المعبد، كما تستطيع أمة المعبد أن تضع غطاء الرأس إذا كانت متزوجة، وأما فيما يتعلق بحجاب العروس، فإننا نلاحظ أن سكان ماري كانوا يضعون الحجاب على رأس العروس بعد حدوث الزواج مباشرة، فقد كان غطاء الرأس علامة المرأة المتزوجة، ولا يوجد دليل على أن عدم وضعه يدل على الطلاق، وخير مثال على ذلك هو أن مندوبي زمري ليم وضعوا الحجاب على رأس شيبتو بعد دخول البيبلوم وقبول الأب له، وما أن يوضع غطاء الرأس والذي يسمى Kittmum من (كتم) حتى تُصبح العروس مُلكاً لعريسها تخضع لطاعته[٢٥٨]. وقد كان زمري ليم فيما بعد يحذر ابنته من موقف قد يُبطل الزّواج، وهذا ما أشارت إليه محفوظات ماري الملكية في ARMXI6:5 – 9: حين يقول: «هيا بنا يجب عليكِ أن تتخذي قراراً ! إذا كنت تقرين بأن الحالة غير ملائمة بالنسبة لكِ، اخرجي ولكن على أن يكون رأسك مغطى» ويبدو من النص أن ابنته كانت متزوجة لا انعزالها عن المجتمع، وفي رسالة

---

٢٥٧ – الحلو: صراع الممالك، مرجع سابق، ص ١٧٤ – ١٧٥.

٢٥٨ – عبد الله: رسائل جديدة، مرجع سابق، ص ١١٥.

ARMTX.76 إلى أنيب شرّي من أبيها زمري ليم، يقول فيها: «غطّي نفسك بحجابك وانطلقي»، كما كان إيعاز ولي أمر الفتاة بوضع غطاء الرأس على رأس ابنته دليل الموافقة على الزوج، وهذا ما عكسته الرسالة 13 –A.2679 عندما طلب ملك حلب ياريم ليم وضع غطاء الرأس على رأس ابنته شيبتو. مما يؤكد أن المرأة المتزوجة في ماري، هي التي تضع غطاء الرأس فقط، وذلك لتفريقها عن غير المتزوجة، وقد توجب عليها ذلك رغم مشاركتها في الحياة السياسية، ويبدو أن غطاء رأس المرأة كان أحد مقومات حادثة الزواج نفسها على الأقل في سوريا في القرن ١٨ ق.م، مما يؤكد على أن غطاء الرأس قديم جداً، لكنه يختلف بمدلوله عن الحِجاب في العصر الإسلامي!!.

أما فيما يخص ملكية المرأة الخاصة في ماري، ففي وثيقة حقوقية المضمون تعود إلى فترة مُبكرة من تاريخ ماري، حيث يُشير الباحث جان ماري ديوران إلى احتواء هذه الوثيقة على أسماء سومرية وأكادية تختصُّ بأشخاص، مما يعطي دليلاً على طبيعة التفاعل والتمازج الاجتماعي في ماري، وقد قُدِّمت هذه الوثيقة على أن المرأة في ماري، كانت تحوز على ملكية خاصة منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، إن لم يكن قبل ذلك.

وإضافة إلى ملكية المرأة الخاصة في ماري، فقد كان التعليم مسموحاً به للمرأة المارية، حيث أكدت نصوص إيبلا على وجود (مدرسة الكتبة) في ماري، فقد تعلم كتبة إيبلا إلى جانب كتبة ماري من النساء والرجال.

هكذا نجد أن نساء ماري كُنَّ يعشن منذ أربعة آلاف سنة، كما تعيش معظم النساء الغربيات حالياً مع فارق الزمن الكبير، فهن جميلات، متعلمات، مالكات للأراضي، إضافة لحضورهن المسرح، الذي أكَّد الدكتور بشار خليف في كتابه الموسوم بـ (مملكة ماري) على وجوده في ماري، وتعرض عليه مسرحيات غنائية تحت إشراف موكانيشوم، فيما تذكر لوائح التعيينات وجود موسيقيين وموسيقيات يتلقون الطعام والنبيذ من القصر كما مرَّ معنا سابقاً.

وقد أفصحت إحدى الرسائل عن وجود موسيقيين مسافرين مع قوافل، وهذا ما أشار الأستاذ علم الدين أبو عاصي في كتابه الموسوم بـ (اقتصاد مملكة ماري)، إلى وجود مُغنين ضمن مهن الخدمات الكثيرة، كما ذكر على أن شمشي أدد كتب لابنه في ماري يقول: «بالنسبة إلى نارو – المُغنية التي طلبها منك إيبلاخاندا – أعطه واحدة من مُغنياتك، كل مغنياتك مجيدات، ولكن واحدة من المغنيات إشتالو لا يُستغنى عنها، أما بالنسبة للمغنية نارو التي طلبها منك، ابحث وأعطه واحدة ممن يمكن الاستغناء عنها» ويؤكد أبو عاصي أيضاً، ما أكده الدكتور بشار خليف على وجود المسرح في ماري[٢٥٩] وهو أمرٌ هامٌ جداً.

إن هذه الأجواء الراقصة في ماري، لا بد وأن تتطلب نوعاً من المشروبات، فبالإضافة لوجود النبيذ المستورد من حلب، كان هناك تسعة أنواع من البيرة في ماري، كما عثر على مستودعات للثلج في القصر، وذلك لتخزين النبيذ، هذا ما أكدته وثيقة تأسيسية تعود إلى عام ١٧٧٥ ق.م يفتخر فيها زمري ليم بأنه شيَّدَ في مدينة ترقا[*] مصنعاً للثلج (بيت الثلج) وقد كان بوسع عطّاري قصر ماري أن يصنعوا حوالي ٦٠٠ لتر في الشهر على الأقل من العطور فيما يسمى بـ (معطرة قصر ماري)، ولعل هذه المنتجات المكررة تُستخدم لعدد من الاستعمالات الممكنة، الطبية، الدينية، التبرج، نفقات الزوجة وآداب المعاشرة، مما يتوافق مع الكميات الكبيرة من المجوهرات المكتشفة في ماري، التي تظهر من خلال الرسوم والأختام والنقوش والتماثيل، التي تؤكد على اهتمام المرأة كثيراً في ماري بمظهرها الخارجي.

---

[٢٥٩] – أبو عاصي، علم الدين: اقتصاد مملكة ماري – القرن الثامن عشر قبل الميلاد، سلسلة الدراسات التاريخية، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٢م، ص ١٢٣ – ١٢٤.

[*] تل العشارة.

عمل المرأة في ماري

فيما يتعلق بعمل المرأة داخل البيت، فهي أسوة بكل نساء الشرق، كانت تربي الأطفال وتعمل في الطبخ والغزل والنسيج، إضافة إلى عملها مع زوجها في الحقل، فحققت بذلك مكانةً جيدة، خاصةً في الطبقات المتوسطة.

وكانت صناعة النسيج في ماري من اختصاص النساء حصراً، حيث يذكر أندريه بارو (مكتشف ماري) أنه في جوار معبد داجان، يوجد جناح خاص بالنساء، حيث كنّ يغزلن بالمغزل. فيما يذكر علم الدين أبو عاصي: أن السجلات في ماري أبرزت رجلين عملا كمدراء مشاغل في ماري، منهما موكانيشوم، الذي كانت صلاته كبيرة بالنسيج والأعمال المعدنية بشكل خاص، إلى جانب الزينة المُصنَّعة والزيوت والجلود، وكذلك بأعمال السجينات من النساء وأمور أخرى، ويؤكد علم الدين أنه يتضح من رسائل ماري، أن مجموع الأسرى الجدد، الذين كان يتم إلحاقهم بمشاغل القصر، حيث اختصت النساء بتحضير المنتوجات النسيجية والغذائية، وتشكل النساء أيضاً غنيمةَ غزوٍ ثمينة، إذ يلتحق بعضهم بمشاغل النسيج، ويُقدَّم بعضهن إلى آلهة ماري، ففي إحدى الرسائل، نجد زمري ليم يطلب من زوجته شيبتو أن تحتفظ ببعض الأسيرات كعاملات للنسيج، وأن تستثني منهن الأكثر جمالاً، ويبدو – كما قال أ . علم الدين – أن القطاع الحِرَفي كان من أهم القطاعات في مملكة ماري، ويعمل فيه عدد كبير من الأشخاص، ويذكر في إحدى القوائم ما يقرب ألف شخص عملوا في صناعة النسيج، ويمكن أن نقدر الحجم النسبي لمشاغل النسيج من قوائم التعيينات، فقد ضمَّ واحداً من خمسة أقسام ٥٨ رجلاً و٥٩ امرأة من عمال وعاملات النسيج، ونجد في الألواح قوائم عديدة لعاملات النسيج اللائي كُنَّ على الغالب من أسرى الحرب[٢٦٠].

---

[٢٦٠] – المصدر نفسه: ص ٩٢ وما بعدها.

لذلك نستطيع أن نقدر، أن مهنة النسيج، كانت حِكراً – تقريباً – على النساء، خاصةً السجينات والأسيرات، وتحت إشراف القصر الملكي، مما يدل على أن المرأة في ماري، كانت تعاني من ظروف العمل القاسية، خاصةً الأسيرات والسجينات، إضافة إلى النسوة الفقيرات، ممن اضطررن للعمل من أجل العيش، فقد تضطر النسوة في ماري أحياناً للعمل في ظروف قاسية، خاصةً في الأعمال التي تتطلب مجهوداً عضلياً كبيراً، كجر السفن، فقد قدمت لنا بعض الوثائق، أن العديد من العمال خلال أيام كثيرة يقومون بسحب السفن الملآى بالحبوب من نقطة إلى نقطة أخرى، ثم يفرغونها ويعيدون تعبئتها وسحبها من تلك النقطة إلى أخرى، وهكذا كانت النساء يكلفن بجر السفن وتعبئتها وتفريغها، كما جاء في نصٍّ مسماري، أن: «أربعين امرأة من الأرقاء، قُمن خلال ستة أيام بجر سفينة مُحملة بالتمور» وأن: «أربعاً وثمانين امرأة أخرى قُمن خلال عشرة أيام بتعبئة محصول حقل وجر وتفريغ سفينة». وقد حددت نصوص ماري موقع ترسانة هامة في مدينة توتول* لبناء السفن ذات الحمولات المختلفة[٢٦١].

بهذه الظروف الصعبة والقاهرة، عملت نساء ماري الفقيرات منهن، وخاصة العبدات، فقد كانت طبقة العبيد في ماري في أسفل السلَّم الاجتماعي، وخاصة النساء منهن، فلا حقوق مدنية لهن، ولم يكن يُسمح لهنَّ السكن في المدينة، فقد كانت النساء العبدات في ماري يُبعن كما تباع السلع، ويُقدمن كما تُقدم الهدايا، على الرغم من اعتبارهن الشكلي أحراراً، وقد ذكر الأستاذ علم الدين أبو عاصي، أن رسالة وُجهت من إحدى النساء توسلاً إلى زمري ليم، تقول فيها: «ألا تُعطى أمها المُسِنّة كهدية»[٢٦٢]، ومن المُفترض أن الأم كانت عبدة.

---

* – تل البيعة حالياً بالقرب من الرقة.

[٢٦١] – القيّم: المرأة في، مرجع سابق، ص ٩٤ – ٩٥.

[٢٦٢] – أبو عاصي، علم الدين: عمال الحرف في مملكة ماري، مجلة المعرفة السورية، العدد ٤٥٣، ٢٠٠١م، ص ١٧١.

لقد شكلت النساء العبدات الغالبية العظمى من النساء اللواتي يعملن في صناعة النسيج، إلى جانب السجينات والأسرى تحت إشراف القصر الملكي، الذي كان يحتكر هذه الصناعة، وكان الطلب يتزايد على النسيج في ماري، بسبب زيادة رفاهية السكان واستهلاكهم الكبير، وبسبب التصريف الجيد للإنتاج في البلدان الأخرى، وقد أُدرجت في الألواح الفخارية قوائم طويلة من أسماء نسّاجات كنّ في البداية بين أسرى الحرب واحتفظ بهن في الورشات الملكية، ومن المحتمل أن الواحدة منهن، لم تكن تغادر مكان عملها، إلا إلى مكان النوم، لتعود مع أول الصباح ثانية إلى العمل ليس إلا.

أما عن عمل النساء والرجال في مجال السحر والتنجيم كما ذكرنا سابقاً، خاصةً تفسير الأحلام وقراءة البخت، فكانت تقوم مقابل أجرٍ معقول، وقد كان معظم عملها في المعابد. وكانت النساء تشكل غالبية من يقوم بهذه المهنة، وهي من المهن السهلة والرابحة في ماري، ومن النساء من عملت بالكهانة وتأتي على رأسهن الكاهنة (حادو – دوري) والتي حذَّرت الملك زمري ليم من أن العرافين المختصين بكشف الطالع والمستقبل، ينصحون الملك بأن لا يغادر المدينة *.

هذه هي ماري، التي تعرفنا عليها من خلال النصوص والكتابات المسمارية، التي وجدت في أرشيفها الهام، والذي من خلاله تعرفنا على ماري ونساء ماري، وما كنّ يمثلنه في السياسة والاقتصاد، في هذه المدينة العامرة بقصورها، الساهرة، من خلال حفلات الرقص والغناء على مسرح ماري الغنائي. وكأنني أُشاهد الراقصات والمغنيات والعازفات، يدخلن ويخرجن من على خشبة المسرح، وهن يرتدين أجمل الملابس وأثمن الحلي الذهبية والفضية المصنوعة من الحجارة النفيسة، وكأنني أرى قوائم النساء المغنيات، حيث رُتِّبت أسماؤهن، وقد عَرفنا منهنّ، المغنية سين أيغيشام، والمغنية نانا، ومانسي، وحسري أميم، إضافة إلى أشهر المغنيات، ونجمة ماري،

* – وقد ثبت فيما بعد عكس ذلك.

المغنية أورنينا، تلك المغنية التي اختلف الباحثون في تحديد هويتها، ذلك لوجود كتابة قرأها بعضهم (أور نانشي) فاعتبر هذا التمثال تمثال مغنٍ ذكري، فيما يقول أندريه بارو عالم الآثار الذي اكتشف ماري: «من ذا الذي يجرؤ على القول أن أورنينا ليست سوى ابتكار من ابتكارات الخيال»، إننا نعرف المشكلة التي يطرحها هذا التمثال الصغير، فالمختصون بالآثار السومرية يرفضون قبول امرأة في هيئة خاصة بالجنس المذكر في رأيهم.

ومنذ اليوم الذي اكتُشف فيه تمثال أورنينا، لم يعرف أيٌّ من أفراد البعثة أدنى تردد، وبالتالي أدنى شك، فهي حقاً موسيقية ومُغنية كبيرة، وراقصة كبيرة أيضاً، بدليل الكتابة المحفورة على ظهرها، بل لقد اعتقدنا ذات يوم أننا وجدنا صورة لهذه الشخصية التي لعبت دوراً كبيراً في بلاط ماري، حيث نذرت تمثالها (مدى الحياة) لملكها إيبلول إيل، وقد ترك التقدم في العمر طابعه عليها، والارتباك الحاصل، فقط في لفظ الاسم هل هو أورنينا أم (أور – نانشة) [٢٦٣].

وقد اكتشف تمثال أورنينا في معبد نيني زازا، مما يدل على الدور الكبير، الذي لعبته في ماري، بسبب وجود معبد نيني زازا داخل القصر الملكي.

---

[٢٦٣] – بارو: ماري، مرجع سابق، ص ٣٠.

المرأة في ماري من خلال المنحوتات والفنون الأخرى

لقد عُثِرَ في ماري على العديد من التماثيل. التي تمثل النساء بوضعيات مختلفة، تمثل حالات اجتماعية وتشخيصية وقدسية للمرأة، مما يعطينا فكرة عن بعض الأدوار التي لعبتها المرأة في ماري وعلى مدى أهميتها، خاصة عند ربطها بما يسمى الإلهة الأم، كعشتار ونيني زازا ونينخورساج وغيرهن من الآلهة المؤنثة، فإن خير ما يمثل المرأة الإلهة في ماري هو تمثال ربة الينبوع.

وقد تم العثور على تمثال ربة الينبوع، إلهة الخير والعطاء في ماري، وكانت مقاسات التمثال تقارب المقاسات البشرية، إذ بلغ طوله ١٤٢ سم وكان منحوتاً من الجير الأبيض، وقد وصفته الباحثة أ. دروجينيا قائلة: «إن الإلهة تحمل بين يديها مزهريةً مائلة إلى الأمام قليلاً، كانت نتيجة آنية حاذقة مغروسة في التمثال تذرف ماءً يتمُّ التحكم به بواسطة صنبور»، وعلى التمثال فستان ملتصق بالجسم وأقدام عارية، وعلى السواعد العارية أساور، أما العنق فكان بستة أطواق من اللؤلؤ والرأس مُزيناً بقرن، مما يؤكد على ألوهيتها. تظهر الإلهة مبتسمةً، ومن المحتمل أنها كانت مطلية بطلاءٍ زاهٍ، ونعتقد أن مغزى ذلك إثارة الجاذبية، أن هذا التمثال وغيره مما عثر عليه في ماري، يختلف عن التماثيل السومرية، التي كانت – كما نعلم – قاسية، لها شكل مميز وجمالها غير جذاب[٢٦٤].

يقول د. بشار خليف في كتابه الموسوم بـ (مملكة ماري): أن تمثال ربة الينبوع الذي صنع من الحجر الأبيض، والذي يدل على ربة الخصب التي تجلب الماء، سر الحياة، هو تمثالٌ ينطوي على خدعةٍ، حيث أن الماء المسكوب في الخزان يرتفع شاقولياً حسب نظام الأواني المستطرقة في قناة محفورة في قلب التمثال، وحتى في

---

[٢٦٤] – ماتفييف وأ. سازونوف: ماري – حضارة مطمورة في الرمال، ت. يوسف الجهماني، دار حوران للطباعة والنشر، دمشق ٢٠٠١م، ط ١، ص ٣٣.

الجرة التي تمسك بها الإلهة بيدها، حيث يبدو للناظر أن هذه الإلهة تُريق الماء، مع ملاحظة أنه يوجد على ثنيات ردائها أسماك صاعدة وهابطة.

لقد عثر في ماري أيضا على تمثال في الغرفة ١٧ وغرفة الكهنة ١٣ – ١٤، من معبد عشتار، على تمثال من حجر رخامي أبيض ذي ارتفاع ٢٢.٥ سم والعرض ٦.٥ سم ترتدي المرأة فيه الزي النسائي الشائع في ماري، وهو القبعة بولوس والرداء الطويل المُغطي للكتف.

وكذلك عثر في معبد عشتار – أيضاً – على تمثال يعود إلى عصر السلالات الأولى وهو من الحجر الجصي. نرى في هذا التمثال بالإضافة إلى الرداء وغطاء الرأس، أن المرأة الجالسة وضعت فوق القبعة البولوس خِماراً طويلاً من القماش المُهدَّل[٢٦٥]. كما عثر أيضاً على بقايا لوحة، وهي عبارة عن الزاوية اليمنى العليا من لوحة نذرية من الحجر الكلسي صوِّر عليها مجلس الشراب؟ الذي لم يبق منه سوى المرأة الجالسة وبيدها اليمنى الكأس وباليسرى غصن نبات وأمامها الخادم، وتحتها في الحقل الثاني رأسا خادمين، وقد وُجدت هذه الكسرة في معبد عشتار.

أما في المعبد العتيق للرب داجان، فقد عثر على لوحة نشاهد فيها موضوعاً دينياً، وهو عبارة عن موكب من الكهنة يتقدمون من صحيفة ذات كعب عالٍ، وهناك آخرون يقف بينهم متعبد، وفي الحقل الثاني رتلان متقابلان من النساء في زي العصر، واحدة منهن تمسك بكعب قصعة، ومن المرجح أن النساء الأخريات كنّ يحملن أواني متنوعة، وبين الرتلين سرير أو كرسي تغطيه امرأتان بجلدٍ مُعذَّق بأعذاق شبيهة بأعذاق ملابس الأشخاص التي هي من الجلد أيضاً، ليست المرأتان خادمتين لأنهما ترتديان ثياباً شبيهة بثياب النساء الأخريات، كما نتعرف من اللوحة على بضعة أزواج من النساء، واحدة واقفة وأخرى جالسة، يشتركن في غزل الصوف، كما عثر

[٢٦٥] – بهنسي، عفيف، وآخرون: الآثار السورية – مجموعة أبحاث أثرية تاريخية – لعدد من الاختصاصين بالآثار السورية، ت. د. نايف بللوز – دار فورفرتس للطباعة والنشر، ص ٧٣– ٧٤.

على تماثيل زوجية تُمثل رجلاً وامرأة كزوجين أو عاشقين، حيث نرى الزوجين جالسين متعانقين بشوق وحرارة[٢٦٦].

أما عن أكثر الفنون أصالة في ماري، فكانت اللوحة المستطيلة التي قُسِّمت إلى حقول ثلاثة، ونفذت من الصدف والعاج واللازورد والذهب، وأظهرت مشاهد المتعبدين والمتعبدات والآلهة في مراسم الزواج المقدس، التي كانت من أهم التقاليد الدينية في ماري.

ومن اللقى الفريدة أيضاً في القصر الملكي، والذي أصبح يُعرف بكنز أور، الذي وُجد في جرّة وضمّ خرزة عليها كتابة قُرئت من بعض الباحثين على أنها هدية من ملك أور إلى ملك ماري، فقد ضمَّ الكنز صورة نسر برأس أسد، وتمثالاً برونزياً لآلهة عارية وآخر من العاج لآلهة عارية أيضاً، ومشابك وأساور وغير ذلك من المواد المُنفذة من البرونز والفضة والذهب[٢٦٧]. كما عُثر على تمثالِ امرأةٍ عاريةٍ تجلس على المقعد ويداها تسندان ثدييها، وتزين رقبتها أطواق غليظة، أما شعرها فقد لُفَّ بقماشة على شكل عمامة، وتظهر هذه المرأة بوصفها إلهة على الأختام الاسطوانية، وكثيراً ما صُوِّرت على النقوش النافرة للفخار[٢٦٨]، بالإضافة إلى العديد من قوالب الحلوى التي كانت تُستخدم من قبل نساء ماري، والتي حوى بعضها صوراً لنساء أو لآلهة مؤنثة، كما رأينا سابقاً، مما يدل على عظمة المرأة في مُخيلة سكان ماري.

إن نظرة مليَّة على التماثيل الكثيرة التي اكتشفت في ماري، تكشف لنا بجلاء ووضوح، الاتجاه الواقعي المُعبِّر في النحت، إذ يلاحظ اقتراب أوضاع التمثال من الحقيقة بالنسبة للشخص المُراد، وبالنسبة لمرونة خطوطه ونوعية اللباس ووضوح

---

[٢٦٦] – أبو عسّاف، علي: آثار الممالك القديمة في سوريا ٨٥٠٠ – ٥٣٥ ق.م دراسات ونصوص قديمة (١)، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨م، ص ٢١٠ ،٢١٤، ٢٢٩.

[٢٦٧] – الموسوعة العربية: المجلد العاشر، مرجع سابق، ص ٤٦٤.

[٢٦٨] – الآثار السورية: مرجع سابق، ص ١١١.

أعضاء الجسم، زد على ذلك، مظهر الوداعة والخشوع والابتسامة والنظرة البعيدة عن التأملات والابتهالات الدينية.

هكذا نكون قد جلْنا ثانية برحلة عبر الزمن إلى مملكة، أبت إلا أن تظهر من جديد على أيدي معاول الأثريين، ولتعاود النشاط ثانية، إلى جانب شقيقتها إيبلا عبر أقلام المؤرخين، ما بين بحثٍ وتفكير وتسجيل للأحداث، وافتراض ويقين، لتقول: أنا ما زلت بوابة سوريا عبر إطلالتي على الشرق الساحر، وعبر جعلي قِبلةً للسائحين ومحبي التاريخ، كما كنت سابقاً بوابة كل من يرغب في العيش بترف وبهاء، وكل قافلة تجارية تُبحر عبر الفرات أو عبر الصحراء، ذهاباً وإياباً، فإما أن تستقر في ربوعي، وإما أن تجدد زادها وتكمل سفرها نحو الشرق أو نحو الغرب، بعد أن تكون قد استراحت في محطةٍ من محطاتي التجارية، وربما أراد أحد أفراد هذه القافلة أو تلك أن يتزوج من بناتي، فإنه سيجد في نسائها: العالمات، التاجرات، الراقصات، المغنيات، الساحرات، الأميرات، والمربيات الفاضلات، وربّات الجمال، وحتى العبدات، فنحن لا نتكلّم عن مدينة فاضلةٍ، إنما نتكلم عن مدينةٍ جلُّ نسائها يتمتعن بمكانة عالية، داخل القصر أو خارجه، داخل المنزل أم خارجه، ففي ماري صُنفٌ من كل أصناف النساء، اللواتي تعلّمْن على حب الحياة والرغبة في العطاء، واحترام الأزواج، مقدمات للعالم أجمع، صورةً بهيةً عن نساء عصرٍ فاق كل العصور بما قدمّنه من لوحة تشكيلية فسيفسائية، لنساءٍ عرفن كيف يجعلن من ماري مملكة الحب والسلام، التي ترغب في العيش والاستمرار، لكن ماري دفعت ثمن موقعها وثرائها، فكانت قِبلة الفاتحين وعلى رأسهم صديق الأمس حمورابي البابلي، الذي جعل من ماري تلاً من الرُّكام، غاب عن صفحات التاريخ أكثر من ٣٨٠٠ سنة تقريباً.

المرأة العربية في مملكة يمحاض (حلب) ومملكة آلالاخ

إن دراسة هاتين الحاضرتين من حواضر شمال سوريا، مرتبطةٌ ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً، لِما كان بين هاتين الحاضرتين من تداخل في التاريخ والجغرافيا والعطاء الإنساني والحضاري، والصمود المشترك أمام الأعداء والغزاة، فكثيراً ما كانت آلالاخ تتبع لحلب، كما تتبع أيّة مدينة في أيامنا لمركز المحافظة أو للعاصمة.

كما أن وضع المرأة في حلب وآلالاخ لا بد وأنه مشترك، بسبب هذا التداخل أولاً، ولأنهما يمثلان مركزين هامين من مراكز الحضارة في سوريا في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، ثانياً.

كما أن إيبلا كمملكة اشتركت معهما أيضاً في إعطاء صورة واضحة عن دور المرأة في الشمال السوري، الذي كان مُشتركاً بخصائصه، خاصةً فيما يخصُّ العلاقات الزوجية ومسائل الزواج والطلاق والإرث والملكية، كما أنها لا بد وأن تتشابه مع أوضاع المرأة في ماري أيضاً.

لمحة تاريخية

أما عن تاريخ حلب، فقد ذُكِرَت من قبل النصوص الخاصة بالملك الأكادي شاروكين وحفيده نارام سين تحت اسم أرمان أو أرمانوم، وذلك في القرنين ٢٤ – ٢٣ ق.م.

كما ذُكِرت حلب في محفوظات إيبلا عام ٢٢٥٠ ق.م تحت اسم خلم، وذُكِرت باسمها الحالي حلب، عندما كانت عاصمة مملكة يمحاض القوية في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، وذلك في محفوظات ماري، وفي آلالاخ (تل العطشانة) وفي حاتوشا (العاصمة الحثيّة). إلا أن حلب لم تتكلم عن نفسها بوثائقها الكتابية المُنبثقة من تربتها بالذات، بسبب عدم وجود تنقيبات أثرية في مدينة حلب لإشغالها

المستمر بالسكن، ولعل الصدفة تسمح يوماً بكشف محفوظات مملكة يمحاض، بالقلعة أو في تل العقبة أو في التلة السوداء أو في منطقة الأنصاري أو في سواها...

وتُعتبر مملكة يمحاض، إحدى الممالك الأمورية الهّامة، التي تشكلت في بلاد الشام والرافدين مع بدايات الألف الثاني قبل الميلاد، وقد ازدهرت طيلة القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، أي في زمن ملوكها العِظام أمثال ياريم ليم ١٧٨٥ – ١٧٦٥ ق.م وسواه، وتُعلِّمنا وثائق ماري أن الحرب التي كانت بين أكبر حاكمين شمال بلاد الرافدين، وهم ياريم ليم ملك حلب وشمشي أدد الآشوري، قد أصابت ممالك أخرى، فكانت أشنونة وملكها إيبا بيئيل الثاني وبابل وملكها حمورابي، تدعمان مملكة يمحاض، بينما كانت مملكة قطنة* تدعم شمشي أدد وابنه يسمخ أدو، وإثر موت شمشي أدد اعتلى زمري ليم عرش ماري حوالي ١٧٨٢ ق.م وقام ياريم ليم بالتحالف معه وزوَّجه ابنته شيبتو، التي لعبت دوراً هاماً في ماري[٢٦٩]. ولا بد وأن ظهور مملكة يمحاض وتطورها كان بسبب موقعها الجغرافي الذي أهّلها للسيطرة على الطريق التجاري الكبير (الممر السوري العظيم) الذي يربط بلاد الرافدين بسوريا والأناضول وبلاد اليونان والساحل السوري ومصر، وإننا لا نعرف بالتحديد متى تأسست هذه السلالة العمورية في حلب، فما زال تاريخ بدايتها غامضاَ لعدم توفر الأدلة الأثرية والشواهد التاريخية، لكن الرقم الطينية التي اكتشفت في آلالاخ خاصةً في الطبقة السابعة، أمدتنا ببعض الأسماء عن ملوك حلب (الأسرة اليمحاضية) وقد أمكن على ضوء ذلك بناء شجرة سلالية اعتباراً من ياريم ليم الأول ١٧٨٥ – ١٧٦٥ ق.م وبعده ابنه حمورابي وحتى ياريم ليم الثالث، حيث دُمِّرت حلب وآلالاخ على يد الحثيين[٢٧٠].

---

* – تل المشرفة شمال شرق حمص حالياً.

[٢٦٩] – حجّار، عبد الله: إضاءات حلبية – تاريخ ومعالم وتراث، المطبعة الرقمية، جامعة حلب، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٩ – ١٠.

[٢٧٠] – شعث، شوقي: مملكة يمحاض (حلب)، مجلة دراسات تاريخية العددان ٢٥ – ٢٦، ١٩٨٧م ص١١٣.

أما عن تاريخ آلالاخ، فلا بد وأنه مرتبط بتاريخ حلب، وذلك لقربهما جغرافياً، ولأن مملكة آلالاخ كانت تابعة في معظم تاريخها للنفوذ الحلبي، حيث حكمت فيها أسرة حلبية، وقد تم العثور على أنقاضها في تل العطشانة، الواقع عند المجرى السفلي لنهر العاصي، بالقرب من إنطاكية (في لواء اسكندرون) حيث تم التنقيب من قبل بعثة بريطانية برئاسة ليونارد وولي ما بين ١٩٣٧ – ١٩٤٩م، والذي استنتج أن منطقة العمق بكاملها، ومن ضمنها آلالاخ – بالطبع – كانت تتبع مملكة يمحاض (حلب) خلال القرنين ١٨ و ١٧ ق.م حيث بينت ألواح السوية السابعة أن آلالاخ أقامت علاقات تجارية مع مدن ومناطق سورية مختلفة[٢٧١]، وذلك لموقعها التجاري الهام ما بين حلب والساحل السوري، وهذا ما جعلها أيضاً هدفاً للغزاة، وخاصة الحثيين الذين سيطروا عليها مدة طويلة من تاريخها، حيث كان لهم الدور الكبير في القضاء على هذه الحاضرة السورية القديمة بتاريخها والعريقة بحضارتها ومنجزاتها، والتي تجاوزت الساحل السوري إلى أعماق البحر، هذا البحر الذي أتى بشعوبه الغزاة الذين قضوا نهائياً على مملكة آلالاخ عام ١١٩٠ ق. م.

أما عن المرأة في حلب، فهي وكما قلنا سابقاً تشبه نظيراتها في الشمال السوري، من حيث دورها المتقدم في المجتمع وقيادة الدولة مع زوجها الملك، وخير مثال نقدمه في هذا المجال، الأميرة شيبتو، التي تحدثنا عنها في مملكة ماري، والتي تزوجت من زمري ليم، وهي ابنة ملك حلب ياريم ليم من زوجته الملكة جاشيرا.

إن تربية هذه الأميرة وثقتها واعتزازها بأهلها ونفسها، يوحي بأنها تربت في قصرٍ كان للمرأة فيه دورٌ كبيرٌ في قيادة الدولة، والتي لها مزايا قلما توجد عند باقي النساء، وإننا نستطيع أن نتعرَّف على ذلك من خلال وثائق ماري، التي تحدثت عن زواج زمري ليم، وعن المراسلات الخاصة بهذا الصدد، والتي تُظهر دور الأم جاشيرا زوجة ياريم ليم ومكانتها، وكيف كان ياريم ليم يرغب في مبادلة ابنته ((امرأة مقابل

---

[٢٧١] – مرعي، عيد: مملكة آلالاخ – مجلة دراسات تاريخية، العددان ٧١ – ٧٢، ٢٠٠٠م ص٣٣ – ٣٦.

امرأة)) لأنه كان يرغب بالحصول على مُغنية من ماري تدعى كرناتوم، وكيف حاول الاتفاق مع مندوبي زمري ليم (أصقدوم وريشيبا) بأن تكون هذه الصّفقة سريّة أي بلا علم زوجته جاشيرا، وذلك لدورها الكبير ولمكانتها العليا، حيث كان يرغب بالحصول على المغنية بدون علمها، كي لا يجرح مشاعرها، مما يدل على مكانة المرأة في القصر الملكي، على الرغم من وجود ما يُسمى بالحرملك في القصر الحلبي، ويوحي أيضاً، بأن للملك يا ريم ليم قد تكون له علاقات خارجية وبشكل سري، إذ أنه على ما يبدو، كان يحب الأوساط النسائية، التي كثيراً ما كانت ترافقه بعضهن في رحلاته الخاصة، فقد ذكرت إحدى النصوص زيارة لـ ياريم ليم ملك يمحاض إلى أوغاريت رافقته فيها الأميرة (يتار – آيا) وأعضاء من بلاط ماري.

وإننا نستطيع، واستناد على نصٍّ غير منشور، أن نتعرف على والدة ياريم ليم وهي السيدة سومو نابي زوجة أول ملك لحلب وهو سومو إيبوخ، التي كانت تحظى أيضاً بمكانة لدى زوجها وابنها، ويُشار هنا، إلى أن هناك امرأة حلبية من نسب ملكي تحمل نفس الاسم، لكنها غير سومونابي والدة ياريم ليم، وهي مذكورة في نصوص مدينة آلالاخ التابعة لحلب.

أما عن جاشيرا زوجة ياريم ليم، فقد دلَّت النصوص، على أنها ارتحلت مع زوجها في أرجاء البلاد، وفق ما يدلُّ عليه نصّان بهذا الخصوص، مما يدل على مكانتها لديه.

إضافة إلى ذلك كانت جاشيرا، تُدير القصر الملكي في حال غياب زوجها، مُفوَّضة منه بكل شيء، وتُظهِر لنا رسالة من زمري ليم ملك ماري إلى حماته جاشيرا، أن عادة اتخاذ أكثر من زوجة أو عشيقة، هي من العادات المعروفة في مجتمعنا منذ ذلك الوقت، مع تبيان بأن مكانة الزوجة الأولى تبقى محفوظة، خاصةَ إذا كانت ابنة ملك!!.

أما عن طقوس الزواج، فقد علمنا: أن الزوج كان – عادةً – يقدم هدية (ترخاتوم) لزوجته، وبالمقابل فقد كانت الزوجة تأخذ معها هدايا (النديتوم) من بيت أهلها إلى بيت زوجها، وهي عادةٌ ما تزال مستمرة في بلادنا حتى الآن.

أما عن الطلاق، فإنه يحدث عند قيام الزوج بخلع معطف زوجته، أو تمزيقه بحضور شهود، إلا أنه كان للزوجة أيضاً – على ما يبدو – حق المبادرة بقطع علائق الزوجية، أي أن العصمة قد تكون بيدها أحياناً، وهذا يماثل وضع المرأة في ماري، ويؤكد على أن عقود الزواج وقتئذ، كانت تحوي شروطاً تُبين وضع الزوجة بعد الزواج لتحافظ لها على حقوقها. كما كانت العادات، تقضي أن تعيش الزوجة التي تتحدر من أصل ملكي تحت سقف واحد مع زوجها.

أما عن غطاء الرأس، فقد كانت المرأة المتزوجة فقط، هي من تضعه على رأسها، أي أنه كان حِكراً على النساء المتزوجات، وكان غطاء الرأس لديهم يدعى كتموم*، لذلك نرى أن موفدي زمري ليم، هما اللذان وضعا الغطاء على رأس العروس شيبتو، وهذا يدل على أن الزوج أو وكلاءه، هم الذين يضعون غطاء الرأس للمرأة.

ويشير جان ماري ديوران إلى أن العاهرات المقدسات وحريم (حارمتوم) المعابد في سورية في ذلك العصر، كنّ يضعن الغطاء على رؤوسهن على عكس ما هو شائع!!!.

أما عن عمل المرأة في حلب، فلا بد وإنها كانت تعمل داخل المنزل وخارجه، فهي تعتني بالأطفال والمرضى، بالإضافة إلى عملها في النسيج والأعمال الأخرى.

ولدينا من جهة أخرى، الكثير من النصوص المكتشفة في آلالاخ، تُبرز دوراً هاماً للمرأة، بخاصةٍ ذات النسب الملكي، فهي تستطيع ممارسة التجارة لحسابها الخاص، وتستطيع أن تكون ندّاً للرجل ولها آراؤها كما للرجل.

* – وهي كلمة أكادية كانت تستخدم أيضاً في ماري كما رأينا سابقاً.

فهناك نصٌّ إداري يشهد بحضور الملك نقمي ايبوخ (الملك الثالث لحلب في نصوص آلالاخ) الذي يأمر بتوزيع الميراث بين أفراد العائلة، حيث يوزع إرثاً خاصاً بزوجةِ رجلٍ مُسمَّى أمورابي، وقد تمَّ توزيعه بين ابنها أبايل وابنتها بيتاني. وهناك نصٌّ آخر يذكر أسماء أعضاء في العائلة الملكية، بينهم امرأة تدعى (تاكي أشخارا) يُعتقد أنها زوجة الملك نقمي إيبوخ، وقد أنجبت له عدداً من الأولاد.

أما الوثيقة المؤرَّخة أثناء حكم (اركبتوم) فتذكر اسم امرأة تُسمّى سومو – نبي (اسم النبي) وهي تقرض الفضة وفق أوزان مدينة حلب إلى أفراد قرية إيريش، كما تقوم هذه المرأة، بأعمال مُماثلة في نصوص أخرى، وتُذكر في النهاية كشاهدٍ، ويَعتقد وايزمان مترجم نصوص آلالاخ، أن هذه المرأة هي شقيقة حاكم آلالاخ اميتكوم.

كما إننا نرى استمرار ظاهرة الزواج السياسي في حلب وآلالاخ، فكما تزوجت شيبتو من زمري ليم ملك ماري، نرى في أحد النصوص أن اميتكوم الذي كان ملكاً على حلب، اتخذ من ابنة حاكم مدينة إيبلا زوجة لابنه، وهناك نصان يتحدثان عن رحلة ملكية حلبية إلى إيبلا، بمناسبة ذلك الزواج.

لقد كانت المرأة الحلبية تشارك بجديَّة في الحياة الاجتماعية والسياسية، وتعمل في التجارة، ولكن – على ما يبدو – من وراء حجاب، وكذلك كان للنساء في حلب دورٌ في المعابد السورية، كما في بلاد الرافدين وفي ماري، وقد كان لهن هيئة كهنوتية نسائية خاصة في معبد الإله حدد[٢٧٢].

أما عن مملكة آلالاخ، التي كانت تشهد غِنىً اقتصادياً أمّنَ لها ولأبنائها حياة رغيدة تجلّت في العمران والازدهار على كافة المستويات، خاصة تلك الفترة التي كانت فيها آلالاخ تابعةً لحلب، وأيضاً فترة حكم الملك الشهير إيدريمي لها، حيث شهدت الحياة الاجتماعية رقياً كبيراً، بالرغم من وجود فئات اجتماعية متعددة، ومنها الخبشو، وهم مجموعة سكانية، ربما تكون قد قَدِمت من أماكن نائية بعيدة، وقد

[٢٧٢] – عبد الله، فيصل: المرأة في مملكة حلب (يمحاض) في القرن الثامن عشر ق.م، مجلة دراسات تاريخية العددان ٢٧ – ٢٨، ١٩٨٧ م.

استوطنت في الأرياف، وشكلت النسبة الأكبر منهم، وقد عملوا في الزراعة، حيث ارتبط الفلاحون فيها بالأرض، وقليلاً جداً منهم، من عمل في الحرف، ولم يوجد أي دليل على انتشار العبيد بينهم، إلا بنسبٍ ضئيلةٍ جداً.

أما الفئة الثانية فهي فئة الخانياخو نسبة إلى خانة (عانة)، وقد عمل أفرادها بالرعي والاهتمام بالماشية، وكانوا يتنقلون ما بين البادية من أجل الرعي وما بين الأرياف، وقد مارسوا أيضاً حِرفاً خاصة، منها الغناء والفلاحة وحرف أخرى، وهم أكثر من الخبشو، ولهم بيوت خاصة، وربما كان الخانياخو من أتباع عشيرة خانة التابعة لمملكة ماري.

أما الفئة الثالثة، فهي فئة آخيل، وهي الطبقة الحرة الطليقة، الخاضعة للسلطة المركزية، وهي تدير واجبات إقطاعية، لها علاقة بالأراضي الزراعية.

وهناك فئة الماريانو (الفرسان) أصحاب العربات، وكلمة ماريانو أي امرؤ، ولها معانٍ أخرى مثل (مالك)، وكان لهذه الفئة علاقات مع القصر الملكي، ولم تكن فئة الماريانو مُقتصرة على طبقة النبلاء في آلالاخ، بل شملت غيرهم، فمثلاً كان يمكن للنساء أن يُمنحن هذا اللقب، وذلك عن طريق الزواج والولادة، فقد ذُكِر أنه في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، استحقت بعض النساء لقب فئة الماريانو.

كما وردت في اللوائح الإحصائية أسماء فئات أخرى مثل ساغاز، وهم جماعة من النهابين، والخابيرو، وهم أيضاً من البدو الخباطين، وربما كانت هناك فئات اجتماعية أخرى لم تذكر.

أن هذا التنوع في فئات الشعب في آلالاخ، يُشير إلى الانفتاح الذي كانت تعيشه آلالاخ، وذلك بسبب موقعها التجاري الهام وغناها الاقتصادي، وهذا ما سيؤثر وبكل تأكيد على وضع المرأة، فقد كان من الضروري أن نشاهد المرأة النبيلة والمرأة العاملة والعالمة والعبدة والمرأة الفاضلة التي تربي أطفالها في المنزل، بالإضافة إلى

نساء المعبد وغيرهن كثير، وهذا أمر عادي في مجتمعٍ غني ومنفتح كمجتمع آلالاخ يشبه إلى حد كبير مجتمع ماري[٢٧٣].

ففي الحياة اليومية في آلالاخ، نجد الأعمال التجارية والزراعية والحرفية، وكانت معظم المهن الحرفية التي تبرز في آلالاخ ونصوصها ذات طابع خدماتي منها (كونات)، وربما هو المسؤول عن تربية الحيوانات، مثل الدواجن والغنم، ومهنٍ أخرى، خاصةً صناعة النسيج، التي ازدهرت في آلالاخ، وبكل تأكيد كان للمرأة دورٌ بارزٌ في صناعتها، لِما لها من ذوق رفيع في هذا المجال. وربما تكون المرأة في آلالاخ، قد عملت في التجارة أحياناً، فقد قامت بتحرير بعض عقود البيع والشراء، حيث ورد اسم بعض النساء في بعض هذه العقود، كما تمكنّا من معرفة بعض الأسماء، سواءً كانت ذكوراً أم إناثاً في هذه النصوص القليلة، وهذا ما أورده د. عمار عبد الرحمن في كتابه الموسوم بـ (مملكة آلالاخ) في الصفحة ٢٢١، عندما ذكر أسماء ذكور مثل (أمار أدو) و(أرامو) و(إيلو مابي) كما ذكر أسماء بعض النساء واللواتي – أحياناً – ذُكِرن مع أولادهن، كما في النص (AT52) الذي ذكر اسم خيبات موخيري مع ابنها (أبي أدو)، وكذلك أورد الدكتور عمار في النص (AT61) ذكر أولاد إربا مع أمهم، وقد كانت هذه الحالات تُسجل عند وفاة الأزواج فترثهم زوجاتهم وأولادهم، وهذا يعني أن ينتقل لهم الحق في البيع والشراء بعد موت رب الأسرة.

لكن عمل المرأة في مجال (البيع والشراء) كان من الممكن – أحياناً – أن يكلّفها حريتها ثمناً له، فقد ذُكِر أنه: في حال عدم دفع الدين المترتب على أحد ما، فربما تصل العقوبة القضائية إلى دفع الشخص حريته ثمناً، وهذا ما حصل مع السيدة (أوكايا)، يذكر الدكتور عمار عبد الرحمن في كتابه السالف الذكر، وفي الصفحة ٢٢٣ منه النص AT65 الذي يذكر إحدى النساء وتدعى أوكايا النشيطة في عمليات

---

[٢٧٣] – عبد الرحمن، عمار: مملكة آلالاخ – ألق التاريخ على العاصي، المديرية العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٨م، ص ١٨١. ١٨٤.

البيع والشراء، والتي اضطرت لاستدانة المال بعد أن تعرضت للإفلاس، ونتيجة عدم تمكنها من دفع المال (الدّين) أصبحت عبدة.

وعلى العموم فقد عملت النساء في آلالاخ كما ذكرنا سابقاً في حِرفٍ متعددة، منها خارج القصر ومنها داخله، فهناك إشارات متعددة من حيث قوائم المخصصات، تذكر في البداية الحرفة لمتسلم المخصصات، والملاحظ أن بعض هذه القوائم لم تذكر الحرفة في البداية، وهذا يعود إلى أن المعنيين هم أنفسهم القائمون بالخدمة في القصر، وكانت كميات المخصصات للخدم تتراوح ما بين ٦٠ و ٧٥ باريزا شهرياً، وربما كان أغلب المُستخدمين من النساء، ولا يمكننا الافتراض أنهم كانوا عبيداً، وهناك متسلِّمون للأجور وذلك في لوائح المخصصات، وهم الذين أتوا إلى آلالاخ من مناطق مختلفة وعملوا مقابل أجر[٢٧٤]. مما يدل على مدى الغنى في آلالاخ، وقيام الناس المجاورين لها بالقدوم للعمل فيها بُغية كسب المال، وهذا أمر طبيعي في مدينة هامة كآلالاخ، لكن المهم في الأمر، أنه ربما كان معظم هؤلاء من النسوة العاملات، مما يدل على وضعٍ سيءٍ لبعضهن، على هذا المستوى، قياساً بالنساء اللواتي يعشن في المدينة من طبقة الأغنياء. وهذا ما أكدته النصوص الواردة من آلالاخ رغم قلتها، فقد أعطتنا صورةً مقبولةً عن أوضاع بعض النساء فيها.

ومن هذه النصوص ما يُفيدنا حول عمل النساء في صناعة النسيج، فقد ذكر النص AT360 أن نساجاً أعطى كمية ٢٦٠ تالانت من الصوف لإحدى النسوة، وأسمها إيلو نابي، وهي كميةٌ كبيرة جداً، مما يعني أن مجموعةً من النساء كُنَّ يقمن بنسج الصوف عندها، فربما كان لديها معملاً لغزل الصوف، ويعمل لديها الكثير من النسوة.

وفي نصوص أخرى، نجد أن المرأة في آلالاخ، خاصةً المرأة الحرة ومن الطبقات العليا، كان لها حق التملك. فقد ذكر النص AT7 مُلكيةً لزوجة أمورابي (وهو

---

[٢٧٤] – المصدر نفسه: ص ٢١٠.

أحد الأشخاص المهمين، وربما كان من أقرباء العائلة المالكة في حلب) الذي تم توزيع إرثه بين ابنها وابنتها، وهما (أبّال إل) و(بيتاني). فيما يذكر النص AT52 قيام ياريم ليم ملك آلالاخ وشقيق (إبال إل) ملك يمحاض، بامتلاك قرية إيبوريا وتوابعها من امرأة وابنها بسعر ١٠٠٠ مثقال فضي، وهذا دليل هام على سعة ملكية هذه المرأة، التي وصلت هنا، إلى حد امتلاك قرية بكاملها، وهذا أمر هام جداً.

وقد يصل الحال عند المرأة أحياناً، إلى حد قيامها بقرض الناس بعض الأموال، فقد ذكر النص AT33 أنه في فترة حكم اركابتوم على حلب، قامت امرأة من آلالاخ وتدعى شمونابي بإقراض الناس مالاً (ناس من قرية إراشي) وفي نصوص أخرى من آلالاخ، ذُكرت نفس المرأة كمرابيةٍ أيضاً.

أما على صعيد الزواج، فقد كان للزوجة مكانةٌ عالية عند الزوج، خاصةً على مستوى الأسرة الحاكمة، وقد كانت لطقوس الزواج أهمية كبرى، وتعود بالفائدة على الناس لِمَ تمثله من حدثٍ هام، فقد أشارت بعض النصوص في آلالاخ أن أعطيات الملك اميتاكو (ملك آلالاخ) عندما طلب ابنة (ابيشال) زوجةً له، ويبدو أن هذه الأعطيات كانت سخيّة للغاية، فقد ذكر النص AT409 أنه بمناسبة زواج اميتاكو ملك آلالاخ من ابنة حاكم أبيشال، قدَّم لها مجموعةً كبيرة من الذهب، وقد نال الناس بعض من هذه الاعطيات.

كما كان الزواج السياسي في آلالاخ، موجوداً أيضاً أسوة بباقي الممالك الأخرى، فقد ذكر النص AT35 قيام أميتاكو ملك آلالاخ بتزويج ابنه، الذي ربما كان اركابتوم من ابنة ملك إيبلا كزواج مصلحة، على الرغم من العلاقات الكبيرة ما بين يمحاض (حلب) وآلالاخ؟.

لقد قدمت نصوص آلالاخ أيضا، ما يوحي بإعطاء المرأة حقوقها، فقد ذكر النص ALT17 والمؤرخ في عهد ملك آلالاخ نيقميبا بن إدريمي، يُخبرنا عن قضية تعويض المهر لزوجة الأب، وذلك بعد مقتل زوجها، وقضية تعويض المهر هذه، كانت موجودةً في حلب وآلالاخ معاً، ولتأكيد مكانة المرأة وأهميتها، فقد ذكرت

المعاهدة الموقعة بين إدريمي ملك آلالاخ وبين حاكم حلب الحوري، وكان الموضوع الرئيس فيها تسليم الفارين من الطرفين، أنه: «إذا كان الفار المُسلَّم رجلاً فإنه يعطي ٥٠٠ مثقال من النحاس مكافأة له، وأما إذا كان امرأة، فإنه يعطي ١٠٠٠ مثقال من النحاس مكافأة له»!!.

وهكذا تنوعت أوضاع النساء في آلالاخ من موقع إلى آخر. ويمكننا أن نشبِّه نساء آلالاخ بنساء مدينة حديثة كحلب مثلاً، فكما نشاهد النساء المُترفات والغنيات، يمكننا أن نشاهد العاملات اللواتي يأتين من البلاد المجاورة لها طلباً للرزق.

وبسبب قلّة النصوص التي تعطينا معلومات جيدة عن نساء آلالاخ، فإننا كالعادة نلجأ إلى الآثار المادية، وعلى رأسها الأختام الأسطوانية، ورغم قلتها، إلا أنها أمدتنا ببعض المعلومات القليلة عن نساء آلالاخ. ففي أحد الأختام، يمكننا أن نشاهد ربةً بحالة الوقوف وهي ترفع يديها الاثنتين، وكانت تعتمر على رأسها قبعةً على شكل قرن، وترتدي ثوباً طويلاً تلفّه ضفائر طويلة، وكان يقف أمامها رجل يرتدي رداءً طويلاً يصل حتى الأرض، ويبدو رافعاً يده اليمنى التي يحمل بها كأساً ما، كما يحمل هذا الختم كتابةً مسمارية، كُتب عليه ياريم ليم الأول وحمورابي الأول (أي أسماء أول حكام يمحاض).

وفي ختمٍ آخر، نجده يصور ربةً ترفع يديها الاثنتين، وتضع قبعة على الرأس بشكل دائري، وتبدو وهي مرتديةً ثوباً فضفاضاً والكثير من الأطواق، وفي الجهة المقابلة يوجد رجل يرتدي قبعة بيضوية الشكل، ويصور هذا الختم مشهد استلامه هذه العلامة من الربة، ويحمل هذا الختم كتابة تقول: «أنا ياريم ليم الثاني ابن أبان ملك يمحاض» وإن ياريم ليم الثاني كان ابن الملك أبان ومعاصراً أيضاً لياريم ليم في آلالاخ.

والختم الآخر الذي بين أيدينا، يُمثل أيضاً ربةً تقف على جهة اليمين، حيث كانت تحمل في يدها اليسرى فأساً وترتدي ثوباً طويلاً، وقد نُقِش مقابلها رجل واقف

على الجهة اليمنى، وهو رافع يده، ويحمل هذا الختم كتابة تقول: «اميتاكو ابن ياريم ليم الثاني ملك آلالاخ»[٢٧٥].

إن هذه الأختام تُشير ولو بشكل رمزي على مدى اهتمام الرجل في آلالاخ بالأنثى، ومدى النظرة القدسيّة التي حافظ عليها تجاه هذه الأنثى، فقد استمرت لديه النظرة التأليهية للإلهة الأنثى، جاعلاً منها إلهةً إلى جانب الآلهة الذكور، كالإله حدد وغيره، وذلك بفضلِ ذاكرةٍ جمعية قديمة. مما يدل على وضع جيد للمرأة بشكل عام، أي من حيث المبدأ القائل: ((إن تقبل الذكور فكرة تسلّم مقاليد الحكم من قِبل الإناث وإن كُنَّ آلهة أنثى، فهو خير دليل على استمرار شيء من المرتبة العليا التي كانت تحظى بها الأنثى منذ أقدم العصور)) في آلالاخ.

فقد كان بإمكان الملوك في آلالاخ ويمحاض تسلم مقاليد الحكم وغيرها من آلهةٍ ذكور، كما حصل عند بعض الحضارات الأخرى، لكن استمرار ظهور الإلهة الأنثى على الأختام الأسطوانية، يجعلنا نشعر باستمرارية قوة الهيمنة الأنثوية على عالم بداية الألف الثاني قبل الميلاد، وإمكانية تسلّم الأنثى لمقاليد الحكم إلى جانب الرجل، ومع اعترافنا بالتراجع الكبير، الذي شهده هذا العصر لدور المرأة، خاصةً في المناطق المُنفتحة على الثقافات الأخرى، التي شهدت تطوراً سياسياً واقتصادياً ومدنيّاً بشكلٍ كبير، أدى إلى زيادة تراجع دور الأنثى في قيادة المجتمع، مع حفاظها على بعض الأهمية، خاصةً في الأرياف، والذي ترافق مع استمرار دورها في الإنتاج الزراعي من خلال عملها في الزراعة والرعي وصناعة النسيج والألبان وبعض المواد الغذائية الأخرى، مما يعطي لها مزيداً من الأهمية إلى جانب الرجل.

فيما تراجع دور الأنثى في المدينة وأرباضها، حيث نرى الوفود الفقيرة القادمة من كافة الأصقاع طلباً للعمل والرزق، في ظروف سيئة تكاد تصل إلى حدِّ العبودية، وخاصةً النساء اللواتي عملن في منازل الأغنياء، كخدمٍ وإماء من أجل العيش والبقاء،

---

[٢٧٥] – المصدر نفسه: ص ٥٨ وما بعدها.

فتحوّلن إلى سلعٍ تباع وتُشترى وتُهدى إلى الآخرين، كمن يهدي تُحفةً أو حصاناً أو عربة لنقل البضائع، وذلك إلى جانب النساء النبيلات، اللواتي يعشن في ظروف جيدة ويتمتعن بكافة الحقوق، سواءً الزوجية منها، أو حق التملك والإرث والعمل بالتجارة، وحق دخول سلك الكهنوت وغيرها من الأعمال ذات الأهمية والمرتبة الاجتماعية العالية.

المرأة العربية في أوغاريت (رأس الشمرة)

عندما نتحدث عن المرأة في أوغاريت، فإننا نتحدث عن المرأة في الساحل الكنعاني بشكل عام، وذلك لأن أوغاريت، كانت قِبلة كل الكنعانيين، خاصةً في الألف الثاني قبل الميلاد، فكانت نموذجاً لكل العادات والتقاليد والقيم الكنعانية، خاصةً فيما يتعلق بالمرأة ودورها في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، لذلك سنقتصر في هذا البحث على دراسة أوضاع المرأة في أوغاريت، مع إطلالة سريعة ما بين الحين والآخر على بعض المناطق الأخرى من أرض كنعان.

أوغاريت تاريخياً

تُعدُّ مدينة أوغاريت إحدى أهم مدن الساحل الكنعاني، والكنعانيون هم فرع من الدَّوحة العربية القديمة من حيث الأرض واللغة المشتركة، فهم والأموريون شعبٌ واحد، إلا أن سكان بلاد الرافدين – أولاد العمومة – أطلقوا على الأموريين هذه التسمية، لأنهم يتقاطرون من جهة الغرب، الذي يُسمى أمورو في اللهجة الأكادية، أما الكنعانيين، فقد سكنوا بلاد الشام، خاصةً الساحل السوري. ولم يُتفق حتى الآن على معنى هذا الاسم – كنعان – فالبعض يرى أن اسمهم أتى من كناخي، ومعناها العاملون في الأرجوان أو تجار الأرجوان، والبعض يفسره على أنه يدل على المجتمع القائم على الزراعة، وهو الأقرب إلى المنطق، وهناك من فسَّره بتفاسير ما أنزل الله بها من سلطان.

يقوم الإجماع على أن الكنعانيين سكنوا – كما ذكرنا سابقاً – منذ نهايات الألف الرابع قبل الميلاد في بلاد الشام[٢٧٦]، والبعض يعتبرهم من سكان المنطقة الأصليين، ولن نخوض في هذا النقاش لأنه خارج بحثنا.

أما عن أوغاريت، فقد وُجِدت آثارها في منطقة رأس الشمرة، الذي تحول إلى أهم موقع أثري في سوريا منذ بداية القرن العشرين، وسبب تسمية هذا الموقع بهذا التسمية، هو كثرة انتشار نبات الشمرة فوق الهضبة التي تضم في باطنها آثار الموقع القديم (أوغاريت) أما الاسم القديم أوغاريت، فيعود في الغالب إلى حوالي أربعة آلاف عام خلت، وقد وجد ذلك الاسم في الرقم المكتشفة في عاصمة مملكة ماري القديمة على الفرات، وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان اسم أوغاريت معروفاً لدى حضارات الشرق القديم، ويُعتقد أن اسمها اشتق من كلمة أوغار التي تعني الحقل في اللهجة الأكادية البابلية، كما ذكرت أوغاريت في مراسلات تل العمارنة في مصر بصفتها مركزاً تجارياً ومرفأً هاماً على شاطئ البحر المتوسط، وكذلك تحدثت عنها النصوص المكتشفة في حاتوشا (بوغازكوي الحالية في تركيا) عاصمة المملكة الحثية[٢٧٧].

وتجثم مدينة أوغاريت (تل رأس الشمرة) قرب شاطئ البحر المتوسط، وعلى بعد ١٢ كم إلى الشمال من مدينة اللاذقية، وكانت إحدى كُبريات مدن الشرق العربي في العصور القديمة. ومنذ عام ١٩٢٩م كشفت بعثة فرنسية عن آثارها الهامة، والتي نعتمد عليها في كتابة تاريخ أوغاريت الطويل، والمادة المتوفرة للكتابة منها قسمان: ١ – الآثار العمرانية، والمصنوعات بمختلف أنواعها. ٢ – والآثار الكتابية.

---

[٢٧٦] – البني، عدنان: رحلة مع الكنعانيين، مجلة المعرفة، العدد ٥٠٤، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ١٩.

[٢٧٧] – حيدر، جمال حسن: أوغاريت التاريخ والآثار، دار المرساة للطباعة والنشر، سوريا اللاذقية، ٢٠٠٣م، ط ١، ص ٩.

أما الأولى، فتستخدم للتعريف بالتاريخ الحضاري للمدينة، فيما تستخدم الثانية – الكتابية – للتاريخ السياسي للمملكة. وبما أن غالبية النصوص الكتابية تعود إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، فهي تلقي الضوء على تاريخ المدينة خلال هذين القرنيين فقط.

ويقسم تاريخ أوغاريت إلى عصرين:

أولاً – العصر الذي يسبق القرنيين ١٤ – ١٣ ق.م وكانت فيه أوغاريت على صلات وثيقة مع جيرانها فيما وراء البحار، وفي الداخل، فقد اكتشفت فيها آثار مصرية من عصر الإمبراطورية الوسطى ٢٠٥٠ – ١٦١٠ ق.م وكانت لها صلات تجارية مع ممالك ماري ويمحاض (حلب) في القرن ١٨ ق. م. فمن خلال ختم السلالة المالكة الذي استعمله ملوك أوغاريت جميعهم، ومنهم الملكان يقارو وابنه نقم هدد اللذين حكما بصورةٍ تقريبية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر قبل الميلاد. والثابت من استعمال الختم الملكي من قبل ملوك أوغاريت الذين حكموا بعد هذين الملكين، أنَّ يقارو هو مؤسس السلالة الحاكمة المعروفة في أوغاريت.

ففي هذا العصر وصلت صلات أوغاريت بالعالم الإيجي وقبرص، وكانت الطرق التجارية خالية من المعوقات والمخاطر، إذ لم تكن هناك دول قوية على الشواطئ بين أوغاريت والعالم الإيجي تُهدد أو تُعيق حركة التبادل التجاري بينهم.

ثانياً – أوغاريت في عصرها الذهبي، الذي يمتد من ١٤٠٠ – ١٢٠٠ ق.م تقريباً، فقد شهدت بلاد الشام في هذين القرنين صراعات داخلية سببتها أطماع الحثيين والميتانيين ومحاولاتهم بسط نفوذهم عليها أو على جزءٍ من أراضيها، وخلال هذا العصر أيضاً حكم أوغاريت عدة ملوك، كان أولهم أميشتمرو*، والواقع أن أخبار هذا الملك لم تصل إلينا من وثائقه، بل من وثائق خلفه، فقد أقام علاقات وديّة مع

* – عم ثتمر أو عم استمرى، واستمرى تعني الشعب.

المصريين والحثيين، وكان على خلاف مع الأموريين في الجنوب، الذين استقروا في السهول الممتدة بين طرطوس شمالاً وطرابلس جنوباً، وقد كانت عاصمتهم (سميرا – تل الكزل حالياً) على نهر الأبرش.

خلف أميشتمرو ابنه نقم أدد (نقمادو الثاني)*، الذي عاصر الملك الحثي شوبيلو ليوما ١٣٨٠ – ١٣٤٦ ق.م والملك المصري أمنحوتب الرابع (أخناتون) وتوت عنخ آمون والملك الأموري القوي أزيرو. وقد اهتم نقمادو بالثقافة والأدب كاهتمامه بالسياسة، حيث أن أعظم تراث فكري وروحي في أوغاريت، قد دوِّنَ في عصره[٢٧٨].

واستمر ملوك أوغاريت بعد نقمادو، فجاء ابنه ارخلبو ١٣٤٠ – ١٣٣٠ ق.م وبعده نقميباع ١٣٣٠ – ١٢٦٠ ق. م، وبعده أمشتمرو الثاني – الشهير – ١٢٦٠ – ١٢٣٠ ق.م وبعده إيبرانو ١٢٣٠ – ١٢١٠ ق. م، ثم نقمادو الثالث ١٢١٠ – ١٢٠٠ ق. م، وكان آخر ملوك أوغاريت هو عمورابي ١٢٠٠ – ١١٩٠ ق.م الذي شهد نهاية أوغاريت على يد شعوب البحر الهمجية، القادمة من شبه جزيرة البلقان وجزر بحر إيجة، حيث دُمِّرت الحضارة وعمَّ الخراب، وهذا ما أظهرته آثارها الناطقة وأحياؤها المُكتشفة، مثل القصر الملكي، غرف الحرّاس، القصر الصغير، الحي الشمالي، والحي الجنوبي، الأكروبول، الوثائق الكتابية، الأقنية، معبد بعل، الأبجدية العظيمة[٢٧٩]، فقد زالت أوغاريت والشعب الأوغاريتي من الوجود نهائياً.

أما عن اللهجة، فلهجة سكان أوغاريت هي إحدى لهجات الشعبة الكنعانية، التي تشمل إضافة إلى لهجة أوغاريت اللهجة الفينيقية والمؤابية، وتعتبر الشعبة الكنعانية بالإضافة إلى الآرامية، إحدى الفروع الثلاثة الرئيسة من مجموعة اللهجات

---

* - نقم هدد: أي قام هدد أو قائم هدد أو قايم هدد، ويقابله في العربية قايم الزمان.

[٢٧٨] – أبو عسّاف، علي: نصوص أوغاريت – دراسات ونصوص قديمة (٣)، وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ص ٩ وما بعدها.

[٢٧٩] – دليل مدينة أوغاريت، آثار رأس الشمرة، ص ٨.

العربية، والتي تُقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة وهي: الشرقي (أكادي – بابلي – آشوري)، والغربي (كنعاني – آرامي)، والجنوبي (عربي – حبشي)[٢٨٠].

أي هي إحدى اللهجات العربية القديمة، التي تشبه لهجات شقيقاتها العربيات الأخريات في إيبلا وماري وبابل وأكاد وغيرها من اللهجات العربية ذات الأصل الواحد.

أما الكتابة الأوغاريتية (الأبجدية)، فقد مرَّت بمراحل متعددة، وهي: التصويرية، ثم الرمزية، ثم المقطعية، ثم الأبجدية أو الألف بائية، التي تعرفها اليوم معظم كتابات العالم، والتي عثر عليها علماء الآثار عام ١٩٢٩م وكانت على شكل رقيم فخاري يحتوي على أشكال الحروف الأبجدية جميعها (أبجد هوز...) وهي أقدم أبجدية عرفها تاريخ البشرية[٢٨١].

كما أن مجموع الوثائق التي عُثِرَ عليها في أطلال رأس شمرة، وإن قدمت لنا معلومات غزيرة عن أوغاريت في مجالات الاقتصاد والعلاقات السياسية مع الدول المجاورة، إلا أنها لم تقدم لنا بصورة مباشرة وجليّة المعلومات التي نبتغيها عن الثقافة العامة في أوغاريت، أعني بذلك مجمل معارفهم في مختلف الميادين، خاصة في مجال الحياة الاجتماعية والعلاقات الأسرية، التي كنّا نرغب بالحصول عليها، فعلى الرغم من توفر عشرات الوثائق، التي تناولت هذه القضايا، إلا إنها لا تغني، فحضارة أوغاريت غنيّة وعريقة، ولا يمكننا سبر أغوارها بشيء من التفصيل من خلال هذه الوثائق القليلة [٢٨٢] المُكتشفة حتى الآن، وهنا سنكتفي بذكر أهم المواضيع التي ذُكرت في وثائق أوغاريت، والتي تناولت مُجمل القضايا: الإحصائية والحسابية، ومواضيع

---

[٢٨٠] – كمال، ربحي: دروس اللغة العبرية، دمشق، ٢٠٠٠ – ٢٠٠١م، ط ٦، ص١١ وما بعدها.

[٢٨١] – هبّو، أحمد أرحيم: الحضارة الكنعانية، مجلة عاديات حلب، الكتاب العاشر، ٢٠٠٣م، ص ٦٢.

[٢٨٢] – سعادة، جبرائيل: أبحاث تاريخية وأثرية، ترجمه عن الفرنسية سلمان حرفوش، دار طلاس للنشر، دمشق، ط ١، ص ١٠١ – ١٠٢.

تتعلق بالفكر والفلسفة والدين والإدارة، والبعض الآخر حمل معلومات طبيّة عن أساليب تربية الخيول والعناية بها، وبعضها انفرد للحديث عن السحر والفلك والحساب والمعاجم، ومنها ما تضمَّن قوائم كبيرة عن أنواع الطيور والأسماك والنباتات ثم المنسوجات والمعادن والملابس وجداول المهن وأسماء أشخاص ومزارعين وطلبة، وكذلك رُقم حول صكوك ومعاهدات واتفاقيات لعقود بيع وشراء وتبنٍّ وجداول الهبات وإحصاء غلال ومواسم وأجور وغير ذلك كثير. وذلك للتذكير بأن وثائق أوغاريت كانت من الأهمية بمكان، أن كشفت الكثير عن تاريخ الساحل السوري، والكنعاني بشكل عام، ومنه ما ذُكِرَ عن المرأة وأوضاعها الاجتماعية وغير ذلك.

المرأة في أوغاريت والساحل الكنعاني

لقد دلَّت السويات الأثرية المكتشفة في أوغاريت على يد العالم الفرنسي كلود شيفر عن وجود عدة سويات أقدمها السوية الخامسة التي تعود إلى العصر الحجري الحديث ٧٥٠٠ – ٥٠٠٠ ق. م، وهذا يدل على قدم السكن في هذه المدينة. فقد شهدت أوغاريت عصوراً قديمة كانت المرأة فيها سيدة المجتمع وسيدة الآلهة (الآلهة الأم) رمز العطاء والخصب، بما تمثله من أهمية للمرأة ودورها في قيادة المجتمع والفكر الإنساني بمراحله المتطورة أسوة بنساء العصر، كما شهدت أوغاريت أيضاً قيام المدينة الأولى، والتي ترافقت مع تراجع نسبي في دور المرأة ومكانتها متخليّة للرجل عن دورها في قيادة المجتمع ومجمع الآلهة، وهذا ما أكده اعتبار الإله إيل المذكر سيد الآلهة في أوغاريت، الذي مثَّل بذرة الفكر التوحيدي في هذه المدينة، والذي امتد – لربما – إلى مدن أخرى مع مسميات جديدة. لكننا نعترف بأن أوغاريت أسوة بشقيقاتها السوريات في ماري وإيبلا، حافظت لها على دورٍ كبير وفعّال، فلم تشهد انهياراً كاملاً لسيادتها الأنثوية مع ظهور المجتمع البطريركي (الذكوري) كما حدث في أماكن أخرى، خاصة مع تطور الفعالية الاقتصادية للرجل وتراجع هذه الفعالية عند الأنثى، إلا أنها في أوغاريت بقيت بمستوى جيد، وربما ممتاز قياساً لنساء ذلك العصر.

فأوغاريت في الألف الثاني قبل الميلاد، خاصة في القرون (١٥– ١٤– ١٣ منه) كانت رمزاً للتقدم والتطور العمراني والفكري، الذي تجلى في نهضة أوغاريت، إن على مستوى الفكر، أو على مستوى المجتمع بعنصره الهام المرأة.

فنساء أوغاريت تميزن بالرقي الفكري والحضاري، فقد عوملن من قبل الذكر معاملةً حسنة، تنمُّ عن حسٍ إنساني نام، في بلدٍ يُطل على بحر عظيم شواطئه تلامس أعظم حضارات العالم في ذلك الزمان، فكانت أوغاريت قِبلةَ كل باحثٍ وراغب في الاستزادة من العلم والمعرفة، وعاشقٍ للجمال، فأوغاريت مدينة مفتوحة على

الجميع وللجميع، فقد زاد عدد سكانها عن ٦٠ ألف نسمة، كما تحدث أهلها بأكثر من سبع لغات.

إننا نتحدث في أوغاريت، عن مدينةٍ عاصمةٍ لمملكةٍ مزدهرةٍ عاشت في رخاءٍ اقتصادي، سببه موقعها الاستراتيجي الهام على ساحل المتوسط، فهي الرابطة الأهم بين حضارات الشرق بما تمثله من فكر وقيم حضارية وإنتاجات إنسانية – ماديّة ومعنوية – وبين حضارات الغرب، التي ما انفكت ترنو بنظرها نحو هذا الشرق الساحر، فكانت أوغاريت بوابة الشرق على الغرب وبوابة الغرب على الشرق، وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا على الفكر الأوغاريتي المتنوع، وعلى الوضع الاقتصادي المزدهر، خاصةً في القرون السابقة الذكر، حيث عاشت هذه المدينة قمة عظمتها، فقدمت لنا تراثاً حضارياً متميزاً تجلّى بالعشرات من الملاحم والقصائد والأساطير، التي نستقي معلوماتنا منها عن أوغاريت ونسائها وديانتها، هذه الديانة التي أظهرت لنا عظمة الأنثى وأهميتها في عقل الأوغاريتي، حيث نجد في مجمع الآلهة الأوغاريتية عدداً كبيراً من الإلهات المؤنثات، وعلى رأسهن عناة وعشتروت اللواتي حافظن على عظمة المرأة وسحرها وجمالها ورقيّها ورقّتها وعنفوانها وأمومتها وقيادتها لمسيرة الحضارة الإنسانية. فلو نظرنا إلى مجمع الآلهة في أوغاريت، لوجدنا أن الأنثى تأتي في المرتبة الثانية بعد الذكر، وقد تساويه في بعض الحالات.

فمجمع الأرباب الأوغاريتي الذي يترأسه كبير الأرباب إيل، يضمُّ عدداً كبيراً من الأرباب والآلهة ذوي الاختصاصات المتنوعة، نذكر منهم:

الإله إيل: وهو كبير الأرباب ورب الآلهة، الحي القيوم، ذو الحكمة الكليّة، الآمر الناهي، أطلق عليه الأوغاريتيون أيضاً ألقاباً منها، أبو البشر وخالق الكون والملك الحكيم والحاكم المطلق الذي يُدير شؤون كل الأرباب، وقد عُثِر على الكثير من التماثيل والأنصاب التي تجسِّد هذا الرب بكل جلال ووقار.

الإله بعل: ويعني السيد الزوج، وتدور معظم الأساطير الأوغاريتية حوله، فهو رب الطقس، وله تماثيل كثيرة أيضاً، كما شُيدت له العديد من المعابد، منها معبد بعل في أوغاريت.

الإله دجن: عُرِف هذا الرب في سوريا وبلاد الرافدين، وقد ورد اسمه في رسائل تل العمارنة في مصر، وكذلك في نصوص أوغاريت، وهو الرب الحامي وواهب الأرزاق والحبوب، وقد عثر على تماثيل وأنصاب له.

الإلهة عشتار: وهي الرّبة السورية القديمة، واهبة الخير والخصب، وقد استمرت عبادتها في العصور اللاحقة، وكانت في نصوص أوغاريت تحظى بمكانة عالية إلى جانب الرب إيل، وقد عثر لها على تماثيل كثيرة على شكل أنثى عارية.

الإلهان سحر وسالم: وكان لهما أهمية خاصة، فاسم سحر يعني السحر قبل انبلاج الفجر، وسالم يعني الشفق قبل غروب الشمس، أي كانا بمثابة نجمتي الصباح والمساء.

الإله كوثار: ربّ الحِرف والفنون، وقد ورد اسمه مراراً في النصوص المصرية والأوغاريتية[٢٨٣].

الإله موت: الذي يمثّل الجفاف، والذي يحارب بعل عليان.

الإلهة عناة: العذراء، والعذراء المحاربة وسيدة المعارك وسيدة المملكة، إنها ربة الحياة، وربة الخصب، وقد قضت على موت في فصل الحصاد وسحقته، وذلك في إشارةٍ إلى سحق السنابل المقطوعة، إنها سيدة السّماء العالية، وهي أخت الإله بعل، وتتمتع بلقب العذراء البتول.

الإلهة عشيرة: الأم الكبرى، وزوجة الإله إيل، وكانت تدعى أيضاً إيلات نسبة إلى إيل، ومن ألقابها سيدة البحر، وما زال أسمها حتى الآن يطلق على الخليج المعروف في البحر الأحمر باسم خليج إيلات.

---

[٢٨٣] – حيدر: أوغاريت التاريخ، مرجع سابق، ص ١٦.

الإلهة عناة

تُعتبر عناة ممثلة الأنوثة في أوغاريت، ورمز رفعة ومكانة المرأة الأوغاريتية، لِما حظيت به من مكانة عالية، فهي من أهم آلهة الخصب في مجمع الآلهة الكنعاني عامة، وقد انتشرت عبادتها وتقديسها ليس فقط على الأرض السورية، بل عمّت منطقة الشرق العربي كافة، لكن بأسماء وأشكال مختلفة، وقد وصلت عبادتها إلى الأرض المصرية عن طريق الهكسوس، وتصدرت أحياناً مجمع الآلهة المصرية في القرنين ٢٠ – ١٩ ق. م، فنراها على إحدى المسلات الموجودة حالياً في المتحف البريطاني مرتديةً ثوباً طويلاً يصل حتى قدميها، ومُعتمرة خوذة، وتلوّح بالفأس والرمح. أما النص المنقوش بجانبها فيصفها بسيدة السماء وعشيقة الآلهة[٢٨٤]، وقد استمرت عبادة عناة ربة الخصب الكنعانية في مصر حتى العصر الهلنستي.

كما تتمتع عناة في الأدب الأوغاريتي بجمالٍ أخّاذ، يأخذ بمجامع القلوب ويأسر الأفئدة ويتغنى بجمالها العاشقون، فقد جاء على لسان كيرت ملك أوغاريت في الملحمة الشهيرة باسمه وهو يصف حبيبته بأنها أخذت من عناة سحرها وجمالها الرائع. وفي رسالة للإله بعل يدعو فيها للسلام على الأرض ويأمر بالابتعاد عن السلاح وتعميم المحبة والسلام على الأرض، وقد كُتبت هذه الرسالة على شكل قصيدة يبدأ النص فيها مُتحدثاً عن الإلهة عناة بقوله:

على صدرها تضعُ المرجان
إشارةً لتقوى المنتصر بعل
ولمودة (فدريا) ابنة الرطوبة
وإشارة لحب (طليا) ابنة النّدى

---

[٢٨٤] – خياطة، محمد وحيد: المرأة والألوهية – دراسة في حضارات الشرق القديم، دار الحوار للنشر، اللاذقية ط ١، ١٩٨٤م، ص٥٦.

ولتقوى (أرصينا)، ابنة العالم الرحب

كما الغلمان أدخلْ

تحتَ أرجلِ عناة، قدّم الاحترام

وانحنِ تمجيداً لها

وثنِّ القول لعديلة الأمم

رسالة المنتصر الشهم[٢٨٥].

وفي أسطورة موت بعل نرى أن مبعث بعل لا يحدث فقط بصورة آلية كما يُقال، ولن يكون قط فورياً ولا يكفي سفح الدموع عليه ولا تقديم القرابين على ضريحه، فمن المُحتَّم مطاردة القاتل أو مطاردة الذي هيأ الشرك ونصبه ليقع فيه.

فقد ذهبت عناة لتبحث عن موت، ولما عثرت عليه أوقفته وصرخت في وجهه: «أعد إليَّ أخي» وبدا موت مُندهشاً متظاهراً بالاستغراب فأجاب بغباء: «ماذا تسأليني» فكأنه يقول لها: «هل أنا حارس أخيك»، هكذا حاول موت أن يُبرئ نفسه ليلقي بالتهمة على غيره، وأن يجعل السامع يعتقد أنه لا ناقة له ولا جمل، ولكن عناة تعرف من هو غريمها فأعادت الطلب، لكنها لم تُلقِ أسئلة هذه المرة، فالوقت ليس وقت كلام، إن الإله موت هو المجرم، ويجب أن ينال العقاب دون تأخير، فأمسكت به وشطرته إلى شطرين بضربة منجل، ثم أحرقت جثته وغربلتها، ثم جعلته بين حجري رحى وطحنته وألقت ببقاياه كطعامٍ للطيور، وهكذا فإن موت لم يكن خالداً، فهو إذاً مثل بعل، وسيُحرم من الدفن[٢٨٦]، فيما نرى الإلهة الأنثى عناة خالدةً أبد الدهر. كما رأينا أن لها وجهاً آخر، وجه مُدمِّرٌ للآلهة، فهي ككل إلهات الخصب القديمة تمتلك نوعين من الخصائص المتناقضة، فمن جهة، هي ربة الحب والجنس والخصب، وربة الحياة، ومن جهة أخرى، هي ربة الحرب والدمار والكوارث وربة

---

[٢٨٥] – الشواف، قاسم: مع الكلمة الصافية، مرجع سابق، ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

[٢٨٦] – فيروللو، شارل: أساطير بابل وكنعان، ت. ماجد خير بك، مطبعة الكاتب العربي، دمشق ١٩٩٠م، ص ١٠٠ – ١٠١.

الظلام، هي مُحبة رقيقة رؤوم، وقوية جبّارة مُتسلطة، وقد رأيناها سابقا، خاضت معركةً دمويةً قتلت فيها الأعداء، وغاصت في دمائهم:

هي ذي عناة تقاتل بضراوة

إنها تذبح أبناء المدينتين

إنها تصارع أبناء شاطئ البحر

وتبيد أبناء مشرق الشمس

تحتها الرؤوس تتطاير كالنسور

وفوقها تتناثر الأذرع كالجراد

وهنا يقوم بعل بإرسال مبعوثه إلى الآلهة الغاضبة، طالباً أن تضع السلاح وترفع راية السلام، واعداً إياها بكشف أسرار الطبيعة، إن هي أتت لزيارته في مسكنه الجبلي:

عند قدمي عناة انحنيا واركعا

اسجدا أمامها بجلالها

وقولا للعذراء عناة

أعلنا لسيدة الأبطال

رسالة بعل العلي

فأنا عليم بالبرق الذي لا تدرك كنهه السماوات

وعندي من الأسرار ما لا يعرفه البشر

ولا جموع الأرض به تعرف

هلمي إلي فأريك كل ما لدي

هلمي إلى مقري، أنا رب صفون هلمي إلى حرمي[٢٨٧]

---

[٢٨٧] – السّواح، فراس: مغامرة العقل الأولى – دراسة في الأسطورة، دار الكلمة للنشر، بيروت لبنان، ط ٢، ١٩٨١م، ص ٩٦ وما بعدها.

لقد اختفى اسم عناة كاسم علم من لوائح أسماء الآلهة خلال مسيرة المد الحضاري في المنطقة العربية، إلا أن وظيفتها كإلهة خصب لم تختف، فاشتركت مع غيرها من إلهات الخصب اللواتي طغت عليهن بشخصيتها، زمناً ما، فاندمجت الأسماء بصيغ مختلفة وأصبح أسمها مركباً من عشتارات وعناة، وقد عُرفت في العصر الهلنستي باسم أتارجاتيس، واعتبرت آنئذ من أهم الآلهة السورية في شمال سوريا وآسيا الصغرى.

الربة أشيرة

لقد ظهر اسم أشيرة (عشيرة) خلال حكم السلالة الأمورية السورية في بلاد الرافدين كزوجة لإله الرعاة (عمورو) و (أشات عموري أي أنثى عموري)، ويصفها حمورابي بكنّة إله السماء (آن) وبسيدة العظمة، كما تُذكر عشيرة في المصادر العربية في جنوب الجزيرة العربية باسم أثيرة كإلهة النخيل[٢٨٨].

إن الإلهة أشيرة هي الإلهة الأم وربة الخصب عند الطبيعة والإنسان، وقد ظهرت بصيغة أشراتو التي كانت زوجة الإله أمورو (عمورو) المعادل لإله السماء إيل في مجمع الآلهة الكنعاني، وقد رحلت هذه الإلهة مع الشرائح الأمورية التي غزت بلاد الرافدين قادمة من سوريا وأسست الإمبراطورية البابلية القديمة.

على أن نصوص مدينة أوغاريت التي ترجع إلى أواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هي التي قدمت لنا أوضح وأكمل صورة عن مجمع الآلهة الكنعاني الذي تربع على قمته كلٌّ من إيل كبير الآلهة وزوجته عشيرة التي تلقبها النصوص بخالقة الآلهة أو أم الآلهة، وتجعلها أماً لسبعين إلهاً يشكلون المجمع الإلهي.

[٢٨٨] – خياطة: المرأة والألوهية، مرجع سابق، ص ٧٢ – ٧٣.

هذه الأمومة أصبغت على عشيرة قوىً تتصل بخصب الإنسان والطبيعة تتشاطرها مع كل من أثترة وعناة، اللتين تبدوان في النصوص الميثولوجية والطقسية الأوغاريتية، وكأنهما اسمان لإلهة واحدة.

إن من أهم ألقاب عشيرة (أم الآلهة) و (عشيرة البحر) و (أيلة) أو (إيلات) وهو مؤنث اسم إيل، أما اللقب الآخر فهو قُدش أو قدشو ويعني القداسة. وإلى جانب كونها مُرضعةً وأماً للآلهة، فقد لعبت عشيرة دور مرضعة أمراء السلالة الحاكمة في أوغاريت، وبهذه الصفة يُظهرها نحتٌ بارز واقفةً بكل جلالها وأمامها أميران يشربان ويمصان الحليب من ثدييها، هذا وتشهد نصوص أوغاريت، وخصوصاً ملحمة كرت، على أن عشيرة كانت الإلهة الرئيسية في مدن الساحل الفينيقي، خصوصاً حاضرتيه صور وصيدا، وقد ذُكرت في جبيل تحت اسم (بعلة) الذي يعني السيدة أو الربة.

كما ارتحلت أن عشيرة نحو الغرب – بحراً – من الموانئ السورية حتى وصلت إلى قرطاج، حيث تربّع على عرش مجمع الآلهة الفينيقي هناك الزوجان الإلهيان بعل حمون الذي يعني رب مذبح البخور والذي يُقرن عادة بالإله إيل، والإلهة الثانية هي تانيت زوجته، التي تقترن بالإلهة عشيرة كإلهة أم[٢٨٩].

وبالعودة إلى أوغاريت فإن العلاقة التي كانت تربط عشيرة بزوجها، كانت علاقة يسودها الاستقلال لكلا الزوجين، وهي أبعد ما تكون عن علاقات اجتماعية يسود الرجل فيها ويتحكم بتصرفات زوجته، فنرى العلاقات الإنسانية ضمن العلاقات الزوجية وما يتخللها من عنف وحماس وفتور، وهذا بكل تأكيد يُعطينا صورة واضحة عن وضع المرأة في الأسرة الأوغاريتية، فهي خير ممثل للإلهة الأم عشيرة، فيما يمثل الإله إيل الرجل، وذلك في تجليات الفكر الأوغاريتي، حيث – عادةً – ما يكون الدين انعكاساً واضحاً لِما يجول في عقل الإنسان الأوغاريتي من أفكار وقيم ومبادئ.

---

[٢٨٩] – السواح، فراس: أطياف عشيرة إلهة أوغاريت، مجلة المعرفة، العدد ٥٠٥، وزارة الثقافة دمشق، ٢٠٠٥م، ص ٣٢ وما بعدها.

فعشيرة التي أنجبت كل الآلهة وولدت البشر، تقادم بها العهد ووصلت حد الشيخوخة، فنفذت بذلك جاذبية الصبية الفاتنة التي كانت لها يوماً في مقتبل العمر، ولم تعد تُرضي ذوق الرجل التوّاق أبداً إلى الجديد، مُتناسياً أنه هو نفسه – أيضاً – فقد عود الشباب الناضر وقوة الثور الفتي، فيتطلع الإله الشيخ الأب الوقور والحكيم إلى إلهة صبية تتفتح كبراعم الربيع في الحقول ليثبت للآخرين المتطلعين إلى عرشه بأنه مازال يملك نِصاب الأمور بيديه، وبمقدوره السيطرة على قلوب العذارى، غير أن السيدة العجوز لا تستسلم بسهولة وتقاوم بضراوة لتحافظ على مكانتها كامرأة أنثى لها جاذبيتها ونفسها الفتية التواقة إلى الحب والحياة، فترمي زوجها الشيخ، بعد أن شعرت ببرودةٍ تجاهه، فتثير بفعلتها هذه كرامة الرجل المطعون بأغلى شيء يمتلكه، ألا وهو رجولته فيقرر الانتقام منها[٢٩٠]، مما يؤدي في النهاية إلى خروج إيل من حياة عشيرة وحلول بعل مكانه، ليخلق جيل جديد من الآلهة. وإن كان هذا ما يحدث عند الآلهة، فهو بكل تأكيد ما يحدث عند البشر، وهو خير دليل على قوة شخصية المرأة الأوغاريتية، التي كانت تأبى الظلم، وتحافظ على نفسها صبيةً كانت أم عجوزاً، فالإلهة عشيرة، ما هي إلا انعكاسٌ واضحٌ لِما ينتاب إنسان تلك المرحلة من مشاعر كل منهما تجاه الآخر. فعشيرة ما هي إلا امرأة من أوغاريت، وممثلة لمعظم نسائه ونساء الساحل السوري، أما إيل وبعل، فهما الوجه الآخر لذكور تلك الفترة وانعكاسٌ واضح لسلوك الرجل في المجتمع الأوغاريتي، وهذا ما سنراه لاحقاً في معظم المراحل القادمة، خاصة مع تزايد الذكورة في حياة الشعوب والأمم، وما سينعكس من خلاله على وضع الرجل وغطرسته، وعلى وضع المرأة وانحدارها نحو الدرك الأسفل، وذلك مع انحدار صورة الإلهة الأنثى – فيما بعد – في مُخيلة الرجل.

[٢٩٠] – القيّم: المرأة في، مرجع سابق، ص ١٥٤ – ١٥٥.

المرأة في أوغاريت من خلال الأسطورة

إن الأساطير والملاحم الأوغاريتية كثيرة، وقد صوَّرت لنا المرأة بكثيرٍ من الإعجاب والتقدير والأهمية، فالإلهة عشتار – نراها – تهبط إلى العالم السفلي لتعيد الحياة إلى الإله تموز وتصعد به، إلى أن يعود إلى الأرض رونقها وجمالها ولكي يعود الحب إلى قلوب الناس، والشمس هي إلهة العدل، لأنها تعرف كل شيء وتراقب كل حركة وتعرف كل ما يحدث على وجه الأرض، وهناك الإلهة عناة والإلهة شحر (الفجر) نجمة الصباح، وغير ذلك من أسماء الآلهة النسائية[٢٩١] والمجموعة التي يشملها الأدب الأوغاريتي هي:

١ – قصيدة اللآلئ وعلى خمس لوحات.

٢ – أسطورة أقهات على ثلاث لوحات في ٤٥٠ سطراً.

٣ – أسطورة كرت على ثلاث لوحات.

٤ – مجموعة بعل على سبع لوحات.

٥ – قصيدة سحر وسالم على لوحة واحدة.

٦ – قصيدة نيكال والكتيرات على لوحة واحدة.

٧ – لوحات الرفائيم أو عليونيم وهي أربع لوحات.

ففي أسطورة أقهات بن دانيل الملك الحكيم نرى عناة تشعر بالحسد وتقوم بتدبير المكائد والقتل رغم حبها، لأنه جرح كبرياءها، ونراها تشعر بالندم...

أما في ملحمة كرت، فنرى أهمية المرأة من خلال الحزن الكبير الذي يشعر به الملك عندما فقد زوجته وأولاده، ونرى قصص الحب والزواج والإنجاب، حيث أنجبت حورية سبعة بنين وثماني بنات، مما يدل على كثرة الإنجاب ومحبة الأولاد في العقل الجمعي في أوغاريت.

---

[٢٩١] – القيّم، علي: إضاءات من الذاكرة القديمة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦م، ط١، ص ١٢٠.

أما في مجموعة بعل وأخته عناة البتول، فنرى عناة القوية والقاتلة، وقد ذكرنا هذا سابقاً، ولاحقاً سوف نرى كيف انتشر في أوغاريت وعلى طول الساحل الفينيقي، شكلٌ من أشكال الديانات، قائمٌ على فكرة الخصوبة والتعلق الروحي بالشمس وعبادة الظواهر الطبيعية الخارجة عن سيطرة الإنسان، فقد عُثِر في ألواح أوغاريت التي تعود إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، على مجمع الآلهة في هذه المدينة، الذي انتقل حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى بقية المدن الساحلية الفينيقية، وقد طرأ عليه بعض التغيير، فقد حلَّ وبشكل تدريجي محل تلك الآلهة الكثيرة، ثالوث أعظم يضم كل من إيل وبعل (السيد) وبعلة أي عشتروت، بالإضافة إلى إله شاب، هو مبدأ الحياة والعمل يدعى في أوغاريت (عليان) وكانت له مُسميات أخرى، إذ دعيَ (ملقارت) في صور، وإشمون في صيدا، وأدونيس في جبيل، ولاحقاً سوف نرى تأثير الديانة الأوغاريتية على الساحل السوري عندما تحلُّ فيه عبادة أفروديت محل عبادة عشتروت، وربما كانت أفروديت في الواقع ترجمة يونانية لاسم (أشتوري أو أفتوري) الذي يعني أيضاً عشتروت[٢٩٢]، وهذا دليل آخر على مدى تأثير الأسطورة وعمل الآلهة في حياة الإنسان عبر مراحل التاريخ، وخاصة امتداد وجود الآلهة المؤنثة التي إن دلّ وجودها واستمرارها، فإنما يدل على استمرار مكانة المرأة لدى الناس، الذين ما زالوا ينظرون إليها على أنها ممثلة الآلهة في الأرض، فطالما نشاهد آلهة مؤنثة، سنشاهد أنثى بمكانة عالية، فالآلهة المؤنثة، ما هي إلا انعكاس لفكر جمعي يؤمن به الناس كما ذكرنا هذا سابقاً ومراراً، لكن مع تفاوتٍ في مستوى وضع الآلهة المؤنثة في مجمع الآلهة بشكل عام، ما بين حقبةٍ وأخرى، فأفروديت ليست عشيرة، وفينوس ليست عناة بكل تأكيد.

---

[٢٩٢] – مازيل، جان: تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ت. ربا الخش، دار الحوار للطباعة والنشر، اللاذقية سوريا، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٣٣ – ٣٤.

المرأة الأوغاريتية في الفنون المختلفة

كان من الطبيعي في مدينة كأوغاريت شهدت هذا التطور وهذا الانفتاح وتحولت إلى مدينةٍ للفن والجمال أن تنتج عظماء في الفن بكافة أشكاله، فكما شخَّص إنسان أوغاريت المرأة الأوغاريتية من خلال القصائد والأساطير، التي كما قلنا سابقاً، ما هي إلا تشخيص واقعي حقيقي لحقيقة المرأة في تلك المدينة، مع اعترافنا بوجود طبقات اجتماعية دنيا ربما عانت فيها المرأة كثيراً، وهذا أمر طبيعي سنأتي على ذكره لاحقاً، لكن الأمر الهام إن غالبية نساء أوغاريت كنَّ يعشن بأحسن حال، وهذا ما انعكس – وبكل تأكيد – على الفنون بكافة أشكالها واتجاهاتها، التي اتجهت إلى تمثيل ما تراه في الواقع – من خلال معاشرتها للناس – على الحجارة والفخار والعاج والبرونز وكافة المواد القابلة لأن يطورها الإنسان ويجعل منها صورة تشبه الواقع، على الرغم من وجود بعض الفنانين أحياناً، الذين ينحون في فنهم نحو الخيال في التمثيل، لكنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا من حيز الواقع، خاصةً في مجال اللباس وتعابير الوجه والزينة، هذه الزينة التي ستكون مفتاح معرفتنا بكل تأكيد، لما كانت تعمله – المرأة – وتشعر به، وما يجول في أعماق المرأة الأوغاريتية اليومية.

فكان الفنان الأوغاريتي أول ما يعمل، فإنه ينحت التماثيل، التي تعبر عن مكنوناته تجاه المرأة، فلا يجد أمامه سوى الممثلة الأولى لهذه المرأة، ألا وهي الرّبّة عناة والربة عشتاروت، اللتان كانتا خير ممثلٍ للمرأة في أوغاريت، وخير ملهمتين للفنان الأوغاريتي، لذلك نجد أنه من الضرورة أن نتعرف على ما قدَّمه الفنان الأوغاريتي حول الربة عناة.

لقد احتلت الإلهة عناة حيزاً كبيراً في موضوعات أوغاريت الفنية، سواء في النقش أو النحت أو الأختام الأسطوانية، أو غير ذلك من الفنون التشكيلية الأخرى، فقد صورها الإنسان على شكل امرأة مجنَّحة، كما نرى ذلك على أحد الألواح العاجية التي كانت تزين السرير الملكي في أوغاريت، والأجنحة مزدوجة، اثنان مُشرَّعان نحو

السماء، واثنان متجهان نحو الأرض «عندئذ شرعت عناة جناحيها وحلقت مسرعة، وينسدل شعرها الكثيف على كتفيها بعد أن يأخذ شكل قصة شعر الإلهة المصرية هاتور، فيبرز وجه الإلهة من خلاله على شكل وجه البقرة، وينطلق من جبينها قرنا الألوهية ليعانقا قرص الشمس وعلى شفتيها ترتسم شبه ابتسامة رقيقة، في حين ينمُّ منخراها الواسعان عن طيبةٍ ممزوجةٍ بطبع ناري حاد، ويقف أمامها شابان يرتديان تنورة قصيرة، وقد تناول كل منهما أحد ثدييها من تحت ردائها الطويل، فقد كانت عناة أماً للآلهة، كما هي أمٌّ للبشر، تقوم على رعايتهم».

ومن اللوحات الجميلة أيضاً، سلَّةٌ مصرية تحمل صورة عناة في مشهدٍ تجمع فيه شخصيتيها المتناقضتين، الشخصية المُحبة، والشخصية المقاتلة، اللتين تعرفنا عليهما، من خلال نصوص أوغاريت[٢٩٣]، وكذلك فقد صوِّرت عناة على شكل (عجلة) كعشيقة لبعل، وهي تارةً أخرى امرأة جميلة[٢٩٤]، وهناك أيضاً أكثر من تمثال لربة الحب، تحمل بيدها زهرة اللوتس وباليد الثانية تمسك شارة الحياة، وتمثال آخر لامرأة لفَّت عباءتها ذات الأهداب حول جسمها بحيث تغطي الذراع الأيسر كلياً وتحت العباءة ترتدي – المرأة – ثوباً طويلاً يصل إلى العنق ويشده زنّار من الأعلى. ويرى علماء البعثة الأثرية التي اكتشفت التمثال أنه يعود إلى الإلهة عشيرات (زوجة الإله بعل)، وكذلك فقد مثلت المرأة أهم موضوعات النحت الأوغاريتي على العاج، ففي أوغاريت، وجدنا ناب فيل من العاج منحوتاً بشكل فني في غاية الدقة والإبداع نُقش عليه رسم امرأة عارية بطولها الكامل (ربة الخصب والتوالد) تحمل بيديها ثدييها، وشعرها الطويل مسترسل على ظهرها، ويبدو في انسياب الجدايل الدقة والإتقان[٢٩٥]. وهناك نقش نافر على قطعة عاجية يُمثل إلهة جالسة تحمل بيدها حزمتين من السنابل ويتقدم نحوها تيسان يقفان على قوائمهما الخلفية ويحاولان الوصول إلى السنابل،

---

[٢٩٣] – خياطة: المرأة والألوهية، مرجع سابق، ص ٦٩ – ٧٠.

[٢٩٤] – الشّماط: تاريخ الفن، مرجع سابق، ص ٦٦.

[٢٩٥] – القيّم: إضاءات من، مرجع سابق، ص ١٢٠.

وتعصب الإلهة شعرها برباط تبرز من تحته حلي تزين جبهتها ومنطقة الصدرين وهي ترتدي تنورةً طويلةً، بينما الصدر والبطن بحالة عري، وتضع في عنقها حلياً وعقوداً.

لقد أكثر الأوغاريتيون من تمثيل الإلهة عارية ويداها على جانبيها أو تمسكان بثدييها كما لو كانت تعطي الغذاء، وهذا يذكرنا بالإلهة الأم الأولى رمز العطاء والخصب، وخير دليل على ذلك، تمثيل الإلهة السورية أتارغاتس في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد بشكل امرأة عارية – أيضاً – وترفع إحدى يديها مُمسكة بساق نبات الزنبق أو بالحيات، وهنالك إلهة سورية أخرى أيضاً – وهي قادش – تتخذ أيضاً شكل امرأة عارية واقفة على أسد، والأسد أو الثور – كما هو معروف – رمزٌ للحيوية والقوة والعطاء والخصب[٢٩٦].

إلا أن أشهر التماثيل في أوغاريت، التي صنعت من العاج، وتدل على ذوقٍ فني بديع وحسٍ مرهف رفيع، هو: (الرأس العاجي لأميرة أوغاريت) وهنا يكفي أن نتأمل في ملامح وجهها وتعابيره الإنسانية الناطقة بكل معاني الرِّقة والعاطفة والمشاعر الإنسانية والانفعالات النفسية، لندرك مدى تحسس فنان أوغاريت للجّمال، ونجاحه في التعبير عن الجمال الإنساني في عمله الفني الخالد هذا.

إن من يقرأ وصف موائد الآلهة، حينما يجلس الإله إيل إلى جانب زوجته عشيرات بحضور الإله كوثار ذو الصوت الرخيم الملائكي، والراعي (هادو) الذي يغني ويعزف ويداعب أوتار قيثارته وينفخ في مزماره ويضرب على طبلة ويستخدم الصنجات والصفاقات، يستنتج مدى استخدام فنون الموسيقا في إضفاء الجمال على الموائد، وإثارة أجواء الفرح والغبطة في نفوس الجميع[٢٩٧]، وما كانت تقوم به المرأة في هذه الجلسات الفَرِحة، إنما يدلُّ على اهتمام سكان أوغاريت بالأغاني والسهر

---

[٢٩٦] – حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ت. د. جورج حداد – عبد الكريم رافق، وزارة الثقافة، بيروت، ط ٢، ج ١، ص ١٣٠، ١٣٢.

[٢٩٧] – زهدي، بشير: أوغاريت والفكر، الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ٢٩ – ٣٠ عام ١٩٧٩. ١٩٨٠م، ص ٢٢ – ٢٣.

والموسيقى، وخير ما يمثل هذه الحالة أيضاً، تمثال المرأة التي تدقُّ على الدف، فنحن أمام تُحفةٍ فنية رائعة، لامرأةٍ تُمسك بكلتا يديها دفاً مستديراً أو طبلة، ويرى العالم كلود شيفر أن هذا التمثال، يُمثل الإلهة عناة، ويعزز رأيه هذا بالإشارة إلى نصٍّ أسطوري وُجِد في أوغاريت، يأتي على ذكر الإلهة عناة بوصفها عازفةً على الدف.

وكذلك تم العثور على قطعٍ من وعاء عُثر عليه في القصر، وهو من حجر الكالسيت، تحت مظلة مُزينة بزخارف جميلة وشديدة الكلفة، تقف أمام رجل، امرأةٌ تمسك قارورة صغيرة في يدها اليمنى، وهي تسكب شراباً لرجل يجلس جلسة مريحة، وعلى يمينها مائدة عليها كوب للشراب على هيئة الثور، ويظهر على المرأة زينة للرأس، هي عبارة عن أزهار تبسيطية تجريدية على قاعدة، كانت معروفة منذ أواخر فترة السلالة الثامنة عشرة، كزينةٍ للرأس عند المصريات النبيلات والأميرات، ويبدو من خلال الكتابة الهيروغليفية، أن اسم الشخص الذي طلب صنع هذه القطعة، هو نيقمادو كبير أوغاريت، ويعتقد البعض أن هذه الأميرة، هي أميرةٌ مصرية، يُعتقد أنها تزوجت من الملك نيقمادو. وهناك من يعتبر، أن هذه الأميرة، ما هي إلا امرأة سورية، وذلك بسبب العباءة السورية التي ترتديها، وهي العباءة السورية التقليدية، ذات الكنار المُزين، لكن السيدة كانت ترتدي الزي المصري، حسب طلب زوجها[٢٩٨].

وفي ختمٍ عليه مشهد من قسمين، نجد رسماً كبيراً لامرأةٍ جالسة، ومجموعة رسوم تتناقص في حجمها، الصورة الرئيسة لإلهة مُجنَّحة بخوذة تجلس فوق ثور نهم، يمسك أسدين، يقعان أمامها، وفوقهما شخص فتي عارٍ، يقف بجانبيه شخصان يضعان يديهما على كتفيه، وهناك رسم للآلهة المُجنَّحة، يشبه الإلهة عناة الجالسة على ثورٍ مضطجع، وهو رمزها المعروف[٢٩٩].

---

[٢٩٨] – بهنسي: الآثار السورية، مرجع سابق، ص ١٥٥ – ١٥٦.

[٢٩٩] – آمييه، بيير: ربات أوغاريت في القرن الرابع عشر ق.م، ترجمة وتلخيص عدنان الجندي، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلدان ٢٩ – ٣٠، ص ٨٧.

وفي مشهدٍ، نُقش على ختمٍ أسطواني أوغاريتي، يتقدم رجلٌ نحو امرأةٍ وهو يمسك بيده اليمنى على الساقين الخلفيتين لظبي، ويبرز غصن فوق كتفه الأيمن، ونرى المرأة تلف على جسمها ثوباً طويلاً يشدُّه نطاق عريض، وتردُّ ردن ثوبها المشرشب فوق كتفها الأيمن، فيستر ذراعها الأيمن أيضاً، وتضع على رأسها عمامة يبرز من وسطها رأسٌ أسطواني مُحاط بقرنين، وتتدلى خلف عنقها ضفيرة، يُعتقد أنها تمثل ربة النبات. وفي المشهد الثاني من الختم تقف امرأةٌ، وكائن خليط من إنسان وحيوان قبالة بعضهما، وبينهما أسد ينتصب على القائمتين الخلفيتين، ويتبع المرأة إنسان صغير، يرتدي مئزراً رُسِمت فوقه زهرة، وترتدي المرأة عمامة شبيهة بعمامة المرأة في المشهد الأول، تتوجها خطوطٌ قصيرة كالرزمة، وتتدلى من تحتها ضفيرة، وهذه أيضاً تُمثل ربة النبات، ولكن في مظهرٍ آخر[٣٠٠].

هكذا نرى كيف قدَّمت لنا الأختام والنقوش والتماثيل صورةً حيةً عن المرأة الأوغاريتية في الميثولوجيا الكنعانية، والواقع أنها خير رسالةٍ نستطلع من خلالها حضارةً غابت عنّا تحت التراب، لكنها ما تزال ماثلة أمامنا، من خلال آثارها الشاهدة على سحر الشرق، وسحر نسائه.

وبعد هذه الرحلة الطويلة في عالم الأسطورة والفن لِمَ لها من أهمية، سنخرج الآن من هذه الدائرة، ونحطُّ على أرض الواقع، من خلال معرفة أوضاع المرأة الأوغاريتية في القصر الحاكم وخارجه (الحياة العامة).

---

٣٠٠ – القيّم: المرأة في حضارات، مرجع سابق، ص ١٦٣.

المرأة في الحياة العامة (داخل القصر وخارجه)

لا شكَّ بأن أوغاريت مدينة فيها طبقات اجتماعية مختلفة أسوة بباقي مجتمعات الأرض، التي لم تخلُ يوماً من هذا التفاوت الطبقي، وقد شكل أرشيف أوغاريت الذي كشفته أعمال التنقيب في المدينة مصدراً هاماً لمعرفة مجتمع أوغاريت، فقد أشارت النصوص إلى الملكيات الخاصة وعمليات التبني والطبقات الاجتماعية المتفاوتة، فقد كان على رأس الهرم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، الملك والأسرة المالكة، ثم تليها طبقة النبلاء، ومن بعدها طبقة رجال الدين والكهنة، ثم الجيش والموظفون وطبقة التجار والصنّاع وطبقة الأحرار، ثم طبقة العاملين في الزراعة والفقراء، وأخيراً طبقة العبيد في أسفل السلَّم الاجتماعي.

وكان ملك أوغاريت هو الحاكم السياسي والكاهن الأكبر والسيد المطلق والقاضي وقائد الجيش، يعيش هو وأسرته حياة العظمة والرفاه، وقد أثبتت مخلفات القصور الملكية، التي عُثر عليها في أوغاريت، ما يؤكد ذلك، حيث وُجِد الذهب والعاج واللازورد. أما الملكة !! فكان لها أهمية ومكانة خاصة، تعيش حياة بذخ كاملة، لها الدور الهام في البلاط الملكي والحياة السياسية[٣٠١].

يُعدُّ القصر الملكي في أوغاريت، مركز حياة المدينة والمملكة، من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية والحربية والتجارية، ومبعث نشاطها وعنوان رُقيّها وإبداعها، ففيه الحركة دائمة لا تنقطع، وهو مثالٌ رائعٌ في التنظيم، ودليل واضح على مدى تقدم الشعب العربي الكنعاني الأوغاريتي في ركب الحضارة الإنسانية. وهو – أي القصر – يتألف من باحةٍ سماوية، يُحيط بها مجموعة من الغرف لسكنى الملك وحاشيته وأعوانه وموظفيه وحراسه وخدمه ومركباته وخيوله، وهناك قسمٌ خاص بالوثائق الملكية، كما أنه يتألف من طابقين، وحول الباحة يوجد رواق مرفوع على أعمدة، والبناء من الحجر المنحوت، والأرض المرصوفة بالبلاط وجميع مجاري المياه

---

[٣٠١] – حيدر: أوغاريت التاريخ والآثار، مرجع سابق، ص ٢٢.

في القصر وملحقاته تجري تحت الأرض[٣٠٢]، وكانت سماكة الجدران ١,٧م من الصخر المنحوت، ومساحة القصر حوالي هكتار واحد، ونستطيع التعرف على داخل القصر من خلال النصوص التي دوَّنها كاهن إيل الأكبر المدعو إيلي ميلكو، التي يعود تاريخها إلى عهد الملك نقمد (نقمادو)، والتي تتحدث عن أحداث وقعت قبل ثمانين عاماً من تدوينها خلال عهد الملك السابق نقمد، الذي تدعوه النصوص الأوغاريتية بلقب الملك الأكبر، دون أن تذكر اسمه الحقيقي، ويتركز الموضوع الرئيسي لهذه النصوص حول سيرة ذلك الملك وتقلبه بين عبادة الإله إيل وعبادة بعل وعشيرة، ثم نهايته الفاجعة على يد أتباع إيل. ويبدو أن بلاده تعرضت – لا بل منيت – بكارثة كبيرة، وقد كان هذا الملك منشغلاً بتضميد جراحه بنتيجة الحروب، ويبد أن الإله بعل، كان قد لعن مسكنه، فتعرضت البلاد إلى المجاعة والبرد والخراب، وقد كان الملك الكبير يعيش مع سرية (عبدة) من أتباع بعل، وهي امرأة أجنبية بالنسبة لمعتقداته، وبتحريض منها رفض إيمانه بأشيرا (عشيرة) تنفيذاً لوعده السابق، فدمر الأوقاف المقدسة لهذه الإلهة، كما استولى على المجوهرات والثروات، التي كانت موضوعة فيها ليقدمها لسريته، مما يدل على دور المرأة الكبير في القصر الملكي، حيث استطاعت هذه السرية التأثير على الملك الكبير، فجعلته يُلحد ويتمرد على الآلهة، وقد كان ارتباط الملك بهذه السرية الأجنبية مستمراً.

كما كان للمرأة في الحياة العائلية للملك دورٌ بارزٌ، حيث كان لها تأثيرٌ كبير على زوجها، فتحمله على اتخاذ القرارات، ولما كان الملك الكبير يُعتبر رئيس العائلة، فإنه كان يسكن مع أخوته الصغار، كما كان له عليهم حق الرعاية[٣٠٣]، فمن خلال

---

[٣٠٢] – الجندي، عدنان: رأس شمرا – أوغاريت – المدينة السورية الخالدة، مجلة الحوليات الأثرية، المجلد العاشر، ١٩٦٠م، ص ٢١١.

[٣٠٣] – اللآلئ – من النصوص الكنعانية – بقلم كبير كهنة أوغاريت، إيلي ميلكو – عن التوراة الكنعانية، ت. ودراسة العالم هـ. ي ديل ميديكو، ترجمه عنه وعلق عليه مفيد عرنوق، منشورات مجلة الفكر، ط ١، ١٩٨٠م، ص ٢٤، ٤٩.

دراسة النصوص الواردة في الأرشيف الملكي، نستدلُّ على دورٍ متقدم وكبير للملكة في أوغاريت في القصر بشكل عام، ويدل على ذلك – أيضاً – الكتب الموجَّهه إليها من بعض الشخصيات المرموقة راجين منها وساطتها لدى جلالة الملك لحلِّ بعض القضايا الدبلوماسية وغيرها.

كما أن المعلومات الأثرية عن ثيابها وحليها، تدلُّ على حياة البذخ التي كانت تعيشها، فجهاز **الملكة أخت ملكو*** في القرن الثالث عشر، المُدوَّنة مفرداته على لوحةٍ مكتشفة في أوغاريت، خيرُ دليل على ذلك، فقد ذكرت فيه عقود ذهبية مُرصَّعة بأحجار كريمة، وخلاخيل وأساور وكأس من الذهب وكؤوس من الفضة وزنانير من الذهب وعشرون علبة تبرج وست قناني ملآى بالعطور ومملحات مصنوعة من العاج وبعض الألبسة والقماشات الأخرى، وقد عملت أخت ملكو إلى جانب زوجها الملك في سياسة الدولة وفي تجارة المدينة، دلَّ على ذلك رقيمٌ مُكتشفٌ في أوغاريت عام ١٩٥٢م، يؤكد أن الملكة أخت ملكو كانت لها ثروتها الخاصة، وقد دوِّنت على الرقيم، عقود ذهبية وأساور وخلاخيل وأحجار كريمة وكؤوس من الذهب والفضة و ٢٠ علبة زينة و ٦ قناني كانت ملآى بالعطور وأدوات زينة من العاج وبعض الألبسة والقماش الملون الأرجواني[٣٠٤]، كما ذكرت الوثيقة (PRU.III.16.277): «أن **الملكة بيزتيكي** أعطت نوربانو حقل بازيرانو وأخذت ملكيته التي في منطقة ساعو»[٣٠٥]، كما كانت **الملكة ساريلي** واحدةً من أثرياء أوغاريت، تقول الوثيقة «Ugaritica\ca.y – 161 أنها: اشترت من يامو بن بازوتو مجمعاً زراعياً يضمُّ ثماني أقات أرض وديمتو

* – الملكة أخت ملكو أو ملكي، التي تعني بالكنعانية الأمورية أخت الملك، وهي اسم ملكة من ملكات أوغاريت ومن أهل القرن الثالث عشر قبل الميلاد، التي ربما لم تكن من أصل أوغاريتي، بل كانت أموريّة المنشأ.

[٣٠٤] – الحمد: حضارة طريق التوابل، مرجع سابق، ص ١٨٦ – ١٨٧.

[٣٠٥] – سيفمان: مجتمع أوغاريت، ت. د. حسان ميخائيل إسحق، دار الأبجدية للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٨م، ص ١٤١.

وكرماً من العنب ومزرعة زيتون». فيما تذكر الوثيقة «pru.III.15.85 أن: دالابتوم أخت نقمد الثاني قد تلقت من أخيها بيت شادويانو وحقول يابنيلو بن ناوزخانو ومن حميها أرسوانو مجمعاً زراعياً هدية لها في يوم زفافها»[٣٠٦] ، وهذا ما يُثبت على أن الملكة كان لها حق التملك الشخصي وحق البيع والشراء وتوزيع الهبات، فقد ذكرت الوثيقة «pru.y1.66 التي تسجل لنا توزيع دفعات نقدية إلى المقربين، فقد حمل لنا القسم السليم منها – أي الوثيقة – أسماء ٢٢ شخصاً و١٨ امرأة. أما عملية التوزيع، فكانت تقودها امرأة من المُرجّح أنها الملكة نفسها، التي قامت بتوزيع مِنَحَها على العاملين في قصرها، ومن الطبيعي أن تكون الجمهرة الأساسية منهم مؤلفة من النساء»[٣٠٧] .

كما كان من حق الملكة أيضاً، الاحتفاظ لنفسها بختمٍ خاص بها تستخدمه لمشاريعها الخاصة، أو في حال غياب زوجها، فقد ذكرت لنا ترجمات الوثائق الملكية المكتشفة في أوغاريت عن عددٍ من النصوص الموقعة من **ملكةٍ تدعى (شار – إل – لي)** كان لهذه الملكة ختمٌ خاصٌ محفورٌ عليه خطان من الهيروغليفية المصرية، ومن الممكن أن تكون هذه الملكة زوجة الملك نقمد الثاني، وقد كانت تتلقى الرسائل من ملك كركميش (جرابلس الحالية) القوي، والخاصة بأهم القضايا السياسية، وتجيب عليها، وكان يُعتقد أنها مصرية الأصل، وربما غيَّرت اسمها من المصرية إلى الأوغاريتية، مما يؤكد على ما يسمى بالزواج السياسي، الذي سبق أن رأيناه كثيراً في الممالك السابقة، فقد تزوج عمشتمرو الثاني بن نقميبا من ابنة بينيشينا ملك مملكة أمورو القوي، والقادر على التوسط بين ملك أوغاريت وجماعات (أومّان – ماندا)

---

[٣٠٦] – المصدر نفسه: ص ١٤٢.

[٣٠٧] – المصدر نفسه: ص ٢٠١.

المُعادية، وكما يبدو كانت العلاقات بين أوغاريت وأمورو طبيعية على الأقل خلال الفترة الثانية من عهد بينيشينا[٣٠٨].

وبالعودة إلى الملكة أخت ملكو ابنة الملك الأموري دوتيشوب، التي يبدو أنها قد اقترنت بملك أوغاريت نقميبا ابن الملك نقمد الثاني، وكان ذلك في نهايات القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وعند وفاة زوجها حوالي ١٢٧٤ ق.م غدت وصيةً على عرش أوغاريت، كما يُثبت ذلك أحد الصكوك الموقّعة بختمها، والسبب في ذلك أن ابنها عمشتمرو الثاني كان حدثاً عند موت أبيه، ولم يستلم العرش إلا في حدود عام ١٢٦٠ ق. م، وكان هذا الابن الحدث أثيراً لدى الأم، فهيأت له الظروف المواتية، ووطدت له حكمه، الذي دام ٣٠ سنة ما بين ١٢٦٠ – ١٢٣٠ ق. م[٣٠٩]، وهذا يعني أن هذه الملكة قد حكمت أوغاريت طيلة فترة وصايتها على ابنها، الذي بدوره أيضاً تزوج كوالده من ابنة الملك الأموري بينيشينا، كما ذكرنا سابقاً، لكنه ما لبث أن طلّقها، ربما لأنها ارتكبت خطيئة لا نعرف نوعها، وقد أدى هذا الطلاق إلى تعكير صفو العلاقات بين أوغاريت وعمورو، مما أدى إلى تدخل الملك الحثي تودخليا الرابع ١٢٥٠ – ١٢٢٠ ق.م في حلِّ النزاع بين الدولتين، وكذلك النزاع الأساسي الذي حل داخل الأسرة الحاكمة، حيث نشب نزاع بين عمشتمرو من جهة، وأخويه (خشم شروم وأراد شروم) ولدي الملكة أخت ملكو الأمورية من جهة أخرى، وإن كنّا لا نعرف فيما إذا كانت هذه هي أم عمشتمرو بالضبط أم لا، ولكن على الأرجح من وصف (خشم شروم وأراد شروم) بأنهما ولدا أخت ملكو إنها، لم تكن أمه، وإلا فلا حاجة لتعريفهما بأنهما ولدا فلانة.

لقد حاول الأخوان إزعاج عمشتمرو وعزله عن العرش لسبب نجهله، ولكن ربما كان له علاقة بطلاق زوجة عمشتمرو العمورية، وهي من بنات أخوالهم، وفي هذا

---

[٣٠٨] – كلينغل، هورست: تاريخ سوريا السياسي 3000 – 300 ق.م، ترجمة سيف الدين دياب، تدقيق عيد مرعي، دار المتنبي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٨م، ص١٥٢.

[٣٠٩] – البني: بين التراث والتراب، مرجع سابق، ص ٦٧ – ٦٨.

النزاع، قضى الملك الحثي في هذه القضية العائلية البحتة، بأن أمر الأخوين أن يرحلا عن أوغاريت إلى قبرص، ويأخذا حصتهما من الميراث نقداً، ولا يعودا البتة إلى أوغاريت، ويتعهدا بذلك[٣١٠] ، فيما يقول د. عدنان البني في كتابه الموسوم بـ (بين التراب والتراث، ص ٦٨) بأن الملكة أخت ملكو نفت ولديها لتوطيد حكم ابنها الأثير، ثم طلقته من زوجته (بدّاي) ابنة الملك الأموري بينيشينا بتهمة سعيها بالشر، كما أجبرته على طلاق زوجة أمورية أخرى بتهمة فاحشة لعلها الزنا، وقد هربت هذه الزوجة ثم استُعيدت، فأغرقها زوجها عمشتمرو في البحر، ودفع للبلاط الأموري المهر الذي جلبته له عندما تزوجها، وبفضل دهاء الملكة الأم أخت ملكو فشلت كل المؤامرات التي دُبِّرت ضد عمشتمرو، الذي ظلّ محتفظاً بالتاج ثلاثين عاماً، وانتقل بعده إلى ابنه ابريانو. ثم يضيف د. البني في كتابه السالف الذكر، على أن الملك عمشتمرو ابتعد عن مدينة أوغاريت، بسبب الصراعات السياسية والمؤامرات، واكتظاظ المدينة بالسكان من كل جنس، وتراكب بيوتها وتهدم أجزاء منها في الزلازل، فعمل على إنشاء مدينة جديدة تكون في أقل الأحوال مُنتجعاً قريباً أو مكاناً للخلود إلى الذات والتخلص من إرباكات العاصمة، فاختار لمدينته الجديدة مكاناً في رأس ابن هانئ، وهنا تبدأ قصة أوغاريت الجديدة أو (بيروت الأوغاريتية) وقصة قصرها الشمالي المُكرَّس للملكة أخت ملكو، وقد أُطلق على هذه المدينة الجديدة اسم (بيروتي) أي مدينة الآبار.

وبالعودة إلى سبب طلاق زوجة عمشتمرو الأمورية، فقد ذكر سيفمان في كتابه الموسوم بـ (مجتمع أوغاريت في الصفحة ١٣٨) وثيقة تُبين سبب طلاق هذه الزوجة، تقول الوثيقة: «أن سبب الطلاق هو أن – بت رابيتي – قد خانت زوجها» كما ذكر في الوثيقة «pru.1y.17.39p: حقوق بنت بينيشينا ملك عمورو الأمورية، والتي رفعت دعوى إلى ملك كركميش للبتِّ فيها، ويبدو أن هذا الأخير قد قرر أن كل ما

---

[٣١٠] – أبو عساف، علي: ملوك أوغاريت من خلال الوثائق – لمحة عن تاريخ أوغاريت، مجلة دراسات تاريخية، العدد الأول، ١٩٨٠م، ص ١٣٩.

ملكته (بت رابيتي) في أوغاريت من فضة وذهب ونحاس وبرونز وأدوات وموجودات برونزية وهدايا وعبيد وإماء، كله يعود إلى عمشتمرو، ولا يحق لـ بت رابيتي أن تطالب به عمشتمرو وأولاده لاحقاً» ولا يمكن فهم هذا القرار إلا عقاباً لـ بت رابيتي على الإثم الذي اقترفته.

من خلال هذه الجولة الكبيرة في القصر الملكي، وما يحدث فيه من علاقات حميمة – حيناً – وعدائية أحياناً، ما بين وفاء ومودة تارةً، وكره وخيانة طوراً، كان للمرأة في هذا القصر مكانة عالية، فهي حاكمةٌ، إذا تطلَّب الأمر ذلك، وأمٌّ رؤوم تحنو على ولدها مخافة غدر زوجته، وهذا ما رأيناه عند الملكة أخت ملكو ذات النفوذ الواسع في الحكم، التي نستطيع أن نسمي فترة وجودها في القصر الملكي، بفترة الطغيان الأنثوي وحكم النساء، وقد استمرت تلك الفترة من خلال قيام **بودهيبا** زوجة عمشتمرو الثانية بالحكم كوصية على ابنها القاصر، وقد عُثِر على رسالة فخارية تحمل ختم بودهيبا موجَّهة إلى عمشتمرو الثاني لتسوية مسألة إحدى السفن التجارية داخل مياه أوغاريت!!![٣١١].

ليس المهم فيما ذكر سابقاً من أحداث، سواء كانت دقيقة أم فيها بعض الشك وبعض التضارب، وذلك لنقص المصادر، لكن المهم هو تأكيد وجود مكانة وسلطة كبيرة للمرأة في القصر الملكي، ويبدو أن مكانة المرأة (الملكة) وصلاحياتها قد وصلت إلى حدود تسيير جزء من أمور الدولة الاقتصادية، فقد عُثِر في أوغاريت على رقيم مسماري يتضمن رسالة من ملك كركميش الحثي إلى ملكة أوغاريت، مكتوبة باللغة الأكادية، وتعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وتتحدث عن الملاحة، مما يُشير إلى أن الملكة الأوغاريتية كانت تشرف على الاقتصاد، وهذا ما أثبتته الحفريات في رأس ابن هانئ، ذلك من خلال النصوص التي عُثر عليها هناك، بأن ملكة أوغاريت كانت

---

[٣١١] – القيم: المرأة في، مرجع سابق، ص ١٥٦.

تُشرف على صناعة البرونز وتصديره إلى الأقاصي البعيدة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وهكذا تكون ملكات وأميرات أوغاريت داخل القصر الملكي، قدَّمن نموذجاً للمرأة القادرة على قيادة الدولة وشؤون القصر، وذلك عندما تسنح لهن الفرصة بذلك، خاصة مع وجود ملك ضعيف الشخصية أو صغير السن أو في حال غيابه، ولربما في حال وجوده.

كما يجب أن لا ننسى أن القصر الأوغاريتي، قد حوى الكثير من نساء من الحاشية والخدم والوصيفات، اللواتي كن بكل تأكيد في منزلة متأخرة عن الملكات والأميرات وخاصة العبدات، اللواتي يعملن في خدمة القصر، فهؤلاء ليس لهن حقوق ولكن عليهن واجبات، وربما تنال إحداهن حريتها من قِبل سيدها، فتنال حريتها ويصبح لها حقوق شرعية في الملك والإرث، وهذا ما سنعالجه لاحقاً عند الحديث عن طبقة العبيد.

وحتى الملكات، سواء كن زوجات أو أمهات، فلربما عانى البعض منهن، من قسوة الزوج لسبب أو لآخر، وهذا ما لم نجد له دليلاً في النصوص، لكن، يمكن أن نستنتج من بعض النصوص، حرمان بعض النساء الملكات من أقل حقوقهن، فقد ذكر سيفمان في كتابه الموسوم بـ (مجتمع أوغاريت ص ١٣٩) وثيقة برقم pru.lll.16.144 تقول: «يمنع فيها الزوج – ملك أوغاريت أرخلبو زوجته **كوبابة بنت تاكانوا** أن تتزوج أحداً بعد موته سوى أخيه» وفي هذا إجحاف كبير بحق المرأة بشكل عام، فما بالك إذا كانت ملكة، ولا يمكن تفسير مثل هذا النوع من التصرف إلا باحتمالين:

- الأول: أنانية من الملك تحرِمُ الملكة من حقها الطبيعي بالزواج، ولربما حباً من الملك لأخيه، وهذا غير مقنع.
- والثاني: حفاظاً على الشرعية، إذا اعتبرنا أن شرعية الحكم، تنتقل عبر الأنثى كما هو في مصر، أي حفاظاً على الدم الملكي بأسرة الزوج،

وعدم السماح لأسرة أخرى استلام العرش، وهذا ما لم يُثبت في أوغاريت، مُطلقاً.

المرأة في القصر خارج أوغاريت

بعد هذا العرض المُسهَب لوضع المرأة في القصر الأوغاريتي، حريٌّ بنا أن نتساءل عن وضع المرأة في القصر خارج أوغاريت، أي في بقية الساحل الكنعاني. وهنا سنجد صعوبة بالغة في الإجابة عن هذا التساؤل، وذلك لقلة المصادر التي تذكر ذلك، وعلى الرغم من ذلك، فإن ما نعرفه – رغم قلته – يُعطينا فكرة حسنة حيناً وسيئة أحياناً، عن وضع المرأة في القصر الملكي، خاصة في الألف الأول قبل الميلاد وفي النصف الثاني منه، وتحديداً أثناء حكم الساحل الكنعاني من قِبل الحكم الفارسي، ومن ثم اليوناني (المقدوني).

فقد ذُكر، أنه في فترة حكم تجلات فلاصر الثالث ٧٥٤ – ٧٢٧ ق.م كان في جبيل ملكةٌ ذات شأن، اسمها (**سيبيتي بعلي**)، وذكر أيضاً أنه في أثناء حصار صور من قِبل آشور بانيبال ٦٦٨ – ٦٢٦ ق.م وعندما اشتد الحصار وأصبحت حياتهم بائسة، قام ملك صور بتقديم ابنته وبنات أخوته للملك الآشوري لتكنَّ محظيات عند الملك الآشوري، علّه يفك الحصار عن صور، وهنا نجد كيف قدّم الملك بناته، ولم يقدم أبناءه، دليل على نظرة دونية للمرأة عامة، أو عند هذا الملك خاصة.

وعندما قام الاسكندر المقدوني بحصار صور، قَدِمت إحدى الأميرات الصوريات اللائي كنَّ يمثلن الملك (أزي ملكوس) الذي كان موالياً للفرس، لكي تقابل الاسكندر على البر الصوري، وتقدم إليه آيات الطاعة والولاء بنفسها، لكن الاسكندر كان يريد أن يمضي إلى الجزيرة (صور) ويقدم القربان في معبد هرقل (ملكارت)، فردّت الأميرة مقترحة، أن يقدم قربانه في معبد أقدم على البر الصوري، مما يدل على قيام المرأة كسفيرة مفاوضة عن الملك أمام هذا الغازي الجديد، دلالة على رفعة مكانتها، وثقة الملك بمواهبها التفاوضية، رُغم فشلها في النهاية.

وفي جبيل، كانت والدة (أوز بعل) ملك المدينة، تعتبر نفسها تنحدر من أرومة ملكية، فقد ذُكر ذلك على قبرها: «في هذا التابوت أرقد أنا – بات نوعام – والدة الملك أوز بعل ملك جبيل ابن بلطي بعل كاهن بعلات، بثيابي وملابسي الزاهية وأسناني الذهبية، سمة النساء اللاتي ينحدرن من الأرومة الملكية التي جاءت قبلي...»، وفي جبيل أيضاً، يحكي لنا نقش بتنوآم أن (أوز بعل) كان ابناً للكاهنة بعلات.

وفي صيدا أثناء الحكم الفارسي لها، كانت الملكة تحتل مركزاً هاماً، وهذا ما يتضح من نقش أشمو نصر الذي كانت أمه **(أميّا شتارت)**، «كاهنة استارت ربتنا، الملكة ابنة الملك اشمو نصر ملك الصيدونيين» فقد كانت أميّا شتارت قد حكمت بصفة وصيّة على العرش سنوات عديدة، واستخدمت صيغة الجمع، إشارة إلى نفسها وإلى ابنها، عندما كانت تكتب عن الأحداث التي كانت تجري في أيام حكمها، تقول: «إننا نحن من شيَّد معبود إشمون، الأمير المقدس ... ملك الملوك أعطانا دورا ويافا...»، وفي صيدا أيضاً، يُسمي تبنيت نفسه (كاهن استارت، ملك الصيدونيين)، بينما يُشير اشمو نصر إلى أمه، وكان اسمها أميا اشتارت بوصفها (كاهنة ربتنا استارت)[٣١٢]. وهذا توظيف آخر لملكات القصور الكنعانية إضافة إلى أعمالهن الأخريات، لكن تبقى اليسّا ملكة قرطاجة وابنة الساحل السوري، سيدة أميرات الكنعانيين بلا منازع، والتي سنأتي على ذكرها في مكان آخر.

---

[٣١٢] – موسكاتي، سباتينو: الحضارة الفينيقية، ت. نهاد خياطة، دار العربي للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٨م، ص ٤٥ وما بعدها.

المرأة الكنعانية الأوغاريتية خارج القصر

على اعتبار أن المجتمع الأوغاريتي مجتمعاً طبقياً، كان من الطبيعي أن تخضع النسوة لهذا التفاوت الطبقي، فكانت نبيلةً وسيدةً وحرةً وعالمةً وعاملة، إضافة إلى عملها خارج المنزل، ربما في الخدمة، وربما كانت عبدة في البيوت والقصور، لكن الصفة العامة لنساء أوغاريت، خاصة الأحرار، كانت، تمتعهنَّ بقسطٍ وافرٍ من الحرية والمكانة والرفعة.

وعلى اعتبار أن أوغاريت مدينة بحرية، ومن أهم موانئ البحر الابيض المتوسط في الألف الثاني قبل الميلاد، إن لم تكن الأهم على الإطلاق، فقد شهدت توافداً سكانياً من مختلف الجنسيات والأعراق، وتحدث أهلها بأكثر من سبع لغات، فهي مركزٌ تجاريٌ هام، وفَّر لسكانها سوية معاشيه جيدة، فقد عمل سكانها في قطّاع الخدمات والتجارة، التي لم تكن حصراً على الرجال، بل شارك فيها النساء، فلدينا العديد من الوثائق التي تثبت عمل المرأة في التجارة وحقِّها في حيازة ملكية خاصة بها، إضافة إلى حقها في الإرث والشهادة على الصكوك والعقود، واعتبارها طرفاً فيها، فهي لا تقل عن الرجل بشيء.

كما كانت أوغاريت مدينةً عامرة بالفنادق، وكان أهلها يعملون بكافة المهن، فمن الزراعة إلى الصناعة، وخاصة صناعة السفن والحلي والصناعات الحربية والنسيجية وغيرها، التي لم تكن النساء بعيدة عنها. ففي هذه الأجواء عاشت نساء أوغاريت، فكان منهن المتعلمات والعاملات والخادمات والأميرات والعبدات، وقد لعبت نساء أوغاريت – كما نساء سوريا – في كافة الأدوار، وكن نموذجاً للأم الفاضلة المربية الوفية، والمرأة القوية المقاتلة المنتقمة والحنون في آنٍ معاً، وهذا ما شاهدناه في رسوم وتماثيل ونقوش وأختام أوغاريت، وكانت الأسرة الأوغاريتية الوحدة الاجتماعية الأولى، وتشكل اللبنة الأساسية في بناء مجتمع أوغاريت الواسع، الذي يُعتبر خير ممثل للمجتمع السوري عامة في الألف الثاني قبل الميلاد.

لقد اشتهرت الحياة العائلية الكنعانية باحترام الأب، فالإله إيل هو الإله الأب إله الأجداد، ونصيحته المُثلى تتركز على إنجاب الأولاد، حتى يحتفظ الميراث بطابعه المقدس، والأرض هي الميراث الأمثل، وفي حال غياب الأب، كانت السلطة تتحول إلى الابن الأكبر، ويصبح أخوته تحت وصايته وحمايته، ويلقَّب هؤلاء الأخوة بالفتية الصغار أو النباتات الخضراء[٣١٣]، بينما لم تكن المرأة بنفس الدرجة من الأهمية، صحيحٌ أنها احتلت مكانة مرموقة وهامة، إلا أنها جاءت في المرتبة الثانية بعد الرجل، وكان الأب – عادةً – مسؤولاً عن زوجته وأولاده، فهو مُلزم بتقديم كل شيء لهم في الحياة وبعد الممات، وعليه تقديم الهدايا والهبات والنذور للآلهة وبناء المعابد، إرضاءً لها وكسباً لودها ومباركتها له ولأولاده ثانياً ولأمهم ثالثاً، وطلب الرحمة والحنان لهم، والنص التالي يوضح لنا ذلك: «هذا النذر نذرته أنا فعل عشترت بن عبد ملكة بن بنبعل، بن عبد ملكة بن بنبعل بن عبد ملكة ... لأجل أن تحرس طريقي، لإلهتي، للآلهة الأقوياء إيزيس، والآلهة عشتروت والآلهة الذين ... ليباركوني أنا وأبنائي عبد إسار، وبنبعل، وعبد شمس، وفعل عشتروت وأمهم حن عشترت، ويعطوا لهم الحنان – الرحمة – والحياة أمام الآلهة وبني البشر» يُفيدنا هذا النص، بما قام به هذا الرجل تجاه زوجته وأولاده، كما يفيدنا في معرفة عدد أفراد أسرته، فهو ربّ الأسرة، التي تتألف منه ومن الأم وأربعة أولاد ذكور، وقد كانت هذه الأسرة نموذجية في أوغاريت.

وقد ذكرت بعض النصوص الأخرى عدداً أكبر من الأولاد، لكن في حالات قليلة، فقد وصل عدد الأولاد أحياناً إلى سبعة أو ثمانية أولاد، وكان دلال الأولاد ذكوراً أم إناثاً مقبولاً من قِبل الأهل، كما يلاحظ قيام بعض الأُسر بتفضيلهم لولدٍ أو لبنت على باقي الأولاد[٣١٤].

---

[٣١٣] – اللآلئ: مرجع سابق، ص ٨٠.

[٣١٤] – حامدة، أحمد: من مظاهر الحياة العائلية في المجتمع الكنعاني الفينيقي، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٧٩ – ٨٠، دمشق، ٢٠٠٢م، ص ٦٩ وما بعدها.

أما عن حالة المنزل الأوغاريتي فتختلف، تِبعاً للحالة المادية، والمرتبة الاجتماعية لصاحبه، لكننا نستطيع أن نُعرِّف المنزل الأوغاريتي بشكل عام، بأنه يتألف من طابقين، مبني بالحجارة والأخشاب، له مدخلٌ مبلّط بالحجارة، يؤدي إلى صالون وغرفة أو غرفتين، ويُخصص الطابق الأرضي – عادةً – للأشغال اليومية، كممارسة حرفة معينة، كما يضم المستودعات المُخصصة لحفظ المؤونة والمواد، إضافةً إلى المطبخ والحمّام والبئر والأجران، التي توفر المياه، كما يضم المدفن العائلي، ثم الدرج (من الحجر أو الخشب) المؤدي إلى الطابق العلوي، الذي يتألف من غرف النوم والمكتبات، التي احتوت على الرقم الكتابية، ولا يدخله إلا أهل المنزل، فيما خُصص جانبٌ من الطابق الأرضي للخدم والحراس والعمال، وكمثال على هذا البيت، تمَّ الكشف عن منزل شخص أوغاريتي أسمه أورتينو، كانت تربطه علاقة مميزة مع الأسرة الحاكمة الملكية في أوغاريت، وقد دلَّ على ذلك، اكتشاف مجموعة كبيرة من الرقم الفخارية، التي تحمل كتابات مُحررة باللهجة الأوغاريتية والأكادية، وقد أكدت هذه الكتابات ذلك[٣١٥]، ففي مثل هذه البيوت، عاش الأوغاريتيون حياةً هانئة، وكان للحب دوراً هاماً في حياتهم، فقد شهدت هذه الجدران الكثير من حالات العشق بين فتيات أوغاريت الجميلات وشبّانها، لكن العلاقات السريّة بين النساء والرجال، تُعتبر سلوكاً غير مُشرِّف في نظر الأوغاريتيين.

كما اهتمت نساء أوغاريت بجمالهن كثيراً، فكانت النسوة يضعن في المناسبات وعلى صدورهن بعض العقود والحلي الجميلة، وللمرأة في الحياة العائلية الأوغاريتية تأثيرٌ كبيرٌ على زوجها، فتحمله على اتخاذ القرارات الهامة، وكان لها من أولادها احتراماً كبيراً، وكان الأوغاريتي يعتبر الولادة حدثاً سعيداً وهاماً يمكن أن يمحو اللعنات الإلهية «لدرجة أن جداول المياه في خريرها، كان عليها أن تنقل هذا الخبر»[٣١٦].

---

[٣١٥] – حيدر: أوغاريت التاريخ، مرجع سابق، ص ١٣.

[٣١٦] – القيّم: إضاءات من الذاكرة، مرجع سابق، ص ١١٨.

لقد كانت الأسرة الأوغاريتية تهتم بالسلوك الأخلاقي، وكانت تؤمن ببعض القيم والمثل، على سبيل المثال: «لا تسخر من إلهٍ لم تبتهل له، وأطعم اليتيم، وأنقذ المظلوم، والدعوة إلى الرحمة والعطف، واحترام الأم والأسرة والزواج والحرية وغيرها» هذا ما كان الأب والأم يعلمانه لأولادهما في أوغاريت.

أما عن قيمة الأم في أوغاريت، هذه المدينة التي عظّمت من شأن المرأة، فكانت مكانة الأم فيها عاليةً، ترقى أحياناً إلى حد التأليه، فقد عامل الأوغاريتي أمه باحترام ومحبة، فكانت الأم بالنسبة لولدها منبع الحب والعطاء، ومصدر القوة والأمل، وهي المستقبل وإرضاءها ضرورة من ضرورات الحياة.

ومن أفضل من الشعراء والأدباء، لينقلَ لنا هذه المكانة للأم عَبْرَ قصيدةٍ كُتبت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، تُعبِّرُ عن عاطفةِ شاعرٍ نحو أمه، بقوله:

أمي كنوزُ الأفق
غزالُ الجبل
ونجمُ الصباحِ المتألق
وحلي ابنة الملك السّائحة بفتنتها
وتمثالُ الرخام على اللازورد
وروح العاج الكامل المملوء بالفتنة
أمي هي المطرُ في الوقت الجيد
وأول ماء الزرع، والمحصول الوفير، والقمح الرفيع
وثمار الربيع، ومنتوج نيسان
والجدولُ الناقل للمياه العذبة إلى السهل[٣١٧]

---

٣١٧ – موسوعة دمشق: مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، جريدة الثورة، بالتعاون مع دار التواصل العربي، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

ومن النصوص التي وُجِدت في أوغاريت، وتُنسب إلى الأدب السومري الأكادي، وهو عبارة عن رسالةٍ (ربما كانت خيالية)، كتبها شخص عُرِفَ عنه من مصادر أخرى بأنه شاعر، يوصي فيها ناقلها المتوجه إلى مدينة نيبور – البلد المقدس – بأن ينقل سلامه إلى أمهِ، بقوله: «إذا كنت لا تعرف أمي، فإني سأعطيك علامة فارقة لها» ويعطيه هذه العلامة الفارقة في القسم الأول من هذه المقطوعة، ثم يتابع النص، بقوله: «وسأعطيك علامةً فارقةً ثانية لأمي» وهنا القسم الثاني من النص، المُكتشف في رأس شمرا:

أمي هي ومضةُ السَّماء، وبهاءُ الخيال،

هي نجمةُ الزهرة، والضياءُ المُشع

هي اللازورد من بلاد بابل، والبلور من (مرحشي)

هي حليَّةُ ابنة ملكٍ تفيضُ سحراً

هي قطعةُ فيروزٍ، ووعاءٌ فاخر

هي سوارٌ من معدنٍ أبيض، وخاتمٌ من حديدٍ ثمين

هي قطعةٌ من ذهبٍ، وفضةٌ خالصةَ

هي حليَّةٌ نفيسةٌ مُدلاةٌ على العنق

هي تمثالٌ من الرخامِ على قاعدةٍ من اللازورد

هي لوحةٌ عاجيةٌ كاملةٌ ملأى بالسحر

ثم يتابع النص بقوله:

وسأعطيك علامةً ثالثةً لأمي

أمي هي الغيثُ يأتي في أوانه،

وهي القطرةُ الأولى للمزروعات

هي الغِلالُ الوافرةُ، والقمحُ المحصود

هي حديقةٌ غنّاء مُفعمةٌ بالبهجةِ والحبور

هي صنوبرةٌ مرويةٌ تُزينها جوزاتها

هي أولُ ثمارِ العام، ونِتاجُ نيسان

هي جدولُ ماءٍ، يجلبُ الخيرَ إلى البساتين

هي البلحُ العسليُّ من بلاد دلمون، أطيب أنواعِ البلح

ثم يتابع النص بالعلامات الرابعة والخامسة بأسلوب شعري بعيد عن التحديد[٣١٨].

لكننا إذا قارنا ما بين النصين السابقين، نرى ونلمس أنهما لشاعر واحد، وعلى الأقل لشاعرين ينتميان لنفس المدرسة الشعرية، ألا وهي مدرسة أوغاريت للشعر، هذه المدرسة التي تتصف بالرقة والرومانسية والشعر الوجداني المُفعم بالحب والأحاسيس والمليء بالانفعالات، التي تظهر دائماً بشكلٍ واضح من خلال الكلمات الشعرية الرقيقة تارةً والهائجة طوراً، لكي تُعبِّر عن مكنونات الشاعر.

وهنا نراها مُعبرةَ بشكل صادق عن مشاعر الحب والاحترام للأم، مُعطيةً المثل الأعلى في الوفاء للأم والأنثى بشكل عام، مؤكدةَ على دور الأنثى في أوغاريت كواحدةٍ من أعظم المخلوقات وأعلاها مرتبة. وعندما نتكلم عن الأم، فإننا نتكلم أيضاً عن الأخت والابنة لأن كليهما في مرحلة ما ستصبح أماً، وتُعامل معاملةً خاصة، كرمز للعطاء والخصب والأمل.

وقد تم العثور على نصٍّ يُعبر عن الوصايا والفرائض، التي تخص الأم، وذلك في عام ١٩٥٣م، يقول النص: «في هذا اليوم، تكلم بريمانو بحضور الكاتب بالعدل وقال ما يلي: إن كل ما أملك أو حصلت عليه زوجتي بيداوي من قصري وخرافي وحميري وعبيدي من رجال ونساء، وأواني المائدة المصنوعة من البرونز، وحقل حرسينا الواقع في منطقة النهر رحباني جميعها أعطيها لزوجتي، وأن ولدي البكر المدعو باتلينو وأخاه بانخامو، إن هما عاملا والدتهما باحتقار يدفعا للملك ٥٠٠ شيقل فضة، ويخلعا قميصهما على قفل الباب ويخرجا للشارع عرايا، أما من يعامل والدته

---

[٣١٨] – نوغايرول، جان: نصوص جديدة من أوغاريت – بالمسمارية البابلية – ت. فيصل الصيرفي، الحوليات الأثرية السورية، المجلد ١٤، ١٩٦٤م، ص ٣٣٥ – ٣٣٧.

باحترام واعتبار، فإنهما لسبب ذلك سيعطيه الأملاك»[٣١٩]، مما يؤكد على مدى اهتمام الرجل بمستقبل زوجته بعد مماته، كما يؤكد على أهمية المرأة الزوجة والأم، لكن النص – وبنفس الوقت – يُعطينا صورةً أخرى عن النساء، واعتبارهن من الأملاك الشخصية كنساء عبدات وكسلع تُباع وتُشترى، أما الأولاد فعلى الرغم من انتسابهم إلى أبيهم إلا أن الانتساب إلى الأم كان قائماً، فقد وجدنا عدة أولاد ينتسبون إلى أم واحدة، ويكون رباطهم هذا أقوى، مما لو كانوا من أب واحد.

كما شاع في أوغاريت ما يسمى بنظام التبني، فقد ذكرت الوثيقة «Ugaritica.v» وهي بلا تاريخ، وقد وجدت في أرشيف راشابانو، وهي عبارة عن سجل يحفظ حق بيدا زوجة راشابانو وأولادها، يقول أحد بنود هذا النص: ((أن راشابانو تبنّى بينيلي))، كما نعرف من سياق النص أن الوثيقة التي بين أيدينا تضمن لـ بينيلي وهو صبي، والأولاد الذين ستلدهم بيدا لـ راشابانو حق امتلاك بعض أملاكه، وهي البيت والحقل، اللذان يشكلان جزءاً من هذه الأملاك، وإن بينيلي الذي كانت قد ولدته بيدا من زواج سابق، قد أصبح ولداً بالتبني لـ راشابانو، كي يكتسب الحق في وراثته سويةً مع أخوته، الذين ستلدهم بيدا لـ راشابانو وفي هذا تكريم كبير لأمه.

وفي وثيقة أخرى «pru.III.16.200» التي تعود إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يجري الحديث عن تبني شبعام بن عبدي خمان من قبل امرأة تدعى إنانايا بنت داد. يقول النص: «اعتباراً من هذا اليوم تتبنى إنانايا بن داد شبعام بن عبدي خمان، أولاً تبنته إنانايا، وثانياً أعطاه لها للتبني نقمد بن عمشتمرو ملك أوغاريت، وجلب شبعام معه ٥٠٠ وزنة من الفضة إلى بيت إنانايا. غداً وبعد غد لن يسلب أحد شبعام وأولاده من بعده، ما حصل عليه مُلكاً له إلى الأبد، ثانياً إذا أكره شبعام إنانايا (أمه)، فإنها تأخذ ما أهداه لها زوجها وتذهب. أما بيتها وحقلها فيبقيان مُلكاً لشبعام، هدية زوجها أعطاها لها زوجها، وثانياً الملك أعطاها هذه الهدية»[٣٢٠]

---

[٣١٩] – الحمد: حضارة طريق التوابل، مرجع سابق، ص١٨٨.

[٣٢٠] – سيفمان: مجتمع أوغاريت، مرجع سابق، ص ١٩ – ٢٠ – ٢١.

تثبت هذه الوثيقة حق إنانايا في الهدية التي كان قد أهداها لها زوجها، ولكن المغزى الحقيقي لعملية التبني هذه، هي ليست سوى عملية تجارية اكتسب المتبني بموجبها حق ملكية بيت المرأة التي تبنته وحقلها.

كما نستنتج أيضاً من الوثائق السابقة أن عملية التبني كانت تتم وفق عقود محددة ومشروطة تضمن للمتبني والمتبنى حقوقهما، مما يدل على وجود نوعٍ من التضامن الاجتماعي في أوغاريت، ساهمت فيه المرأة بقدرٍ كبير.

الزواج

أما عن الزواج، فقد كانت الإلهة عناة هي التي تعقد الخطوبة بين الجنسين، والخطوبة بالنسبة للرجل أو المرأة ذات تعبير واحد، فكانوا يقولون: «الذين عَقدت خطوبتهم عناة» والذين لم يتزوجوا على الأرض، فإنهم يتزوجون بعد الموت في مملكة الجحيم، حين يجدون الشريك من بين الظلال، والشاب الأوغاريتي بطبيعته خجول، فكانت المرأة في الغالب، هي أول من يتقدم بالبوح عن عاطفتها، وقد كانت طقوس الإله بعل تسمح ببعض الإباحيات، بينما طقوس الإلهة عناة تُكرِّس الاتحادات الثابتة بين الجنسين (طقوس الزواج) كما كانوا يضفون على الحب قوة الخصب السحرية، فزيادة الزيجات تُزيد من نمو النبات والحبُّ كشعورٍ مخالفٍ يلعنُ الحَبَّ.

لقد شجع الأوغاريتيون على العلاقات الزوجية الشرعية ونبذوا عادة البغاء والتّسري رغم وجودهما في أوغاريت، فكانوا ينظرون إلى السرية على أنها من أصل وضيع، لا يمكنها إلا أن تصبح سيدة الخادمات، فكانت غير مرغوب بها في بيت

السيد، وإنما يجب عليها السكن في الخيمة[٣٢١]، وهذا دليل على رفض مجتمع أوغاريت للسرايا والبغاء والزنا.

وبالعودة إلى موضوع الزواج، فقد توجَّب على العريس أن يدفع المهر لوالد عروسه، فقد كان المهر يمثل عربون الحياة الزوجية، كما كان يجب عليه أن يقدم لمخطوبته هدية وأثاثاً للبيت حيث الزواج. وفي يوم الزفاف كان شرب الخمرة عادة مألوفة عند الأوغاريتيين، مما يضفي على الفرح بهجةً وسروراً.

وقد كان تعدد الزوجات موجوداً لدى سكان أوغاريت، وهذا ما أكدته الوثائق الكثيرة.

الطّلاق

لقد كان الطلاق عند الأوغاريتيين في يد الرجل[٣٢٢] ، فقد تم العثور في مكتبة راباتو الكاهن على نصوصٍ تُبين كيفية الطلاق والهجر للزوجة، كما كان زواج المتعة شائعاً في أوغاريت، وذلك لكثرة الغرباء الذين كانوا يتوافدون إلى أوغاريت، حيث كانوا يتزوجون بسهولة ويطلقون بسهولة.

وقد كان الزواج في أوغاريت يُنظَّم على شكل عقودٍ تكفل للطرفين حقوقهما، وحتى عمليات الطلاق، فقد كانت أيضاً تُدوَّن على شكل نصوص توضح حقوق كل من الطرفين المتناحرين، وهنا نستذكر قرار الطلاق الذي أصدره الملك الحثي تودخاليا الرابع بشأن طلاق الملك الأوغاريتي عمشتمرو الثاني من ابنة بينيشينا ملك عمورو وإعادة المهر، وتدبير خلافة العرش في أوغاريت. فقد جاء في ترجمة نص قرار الطلاق ما يلي: «من شمسي تودخليا، الملك الأكبر، ملك حاثي، إن أمشتمرو ملك

---

[٣٢١] – اللآلئ: مرجع سابق، ص ١٢٢ – ١٢٣.

[٣٢٢] – حامدة: من مظاهر الحياة العائلية، مرجع سابق، ص ٧١.

أوغاريت اتخذ من ابنة بينيشينا ملك عمورو زوجة له، وهي لم تُضمِر له إلا السّوء والشر، ولهذا فإن عمشتمرو ملك أوغاريت يطرد ابنة بينيشينا وإلى الأبد»[٣٢٣].

وهكذا نرى أن كل شيء في أوغاريت، يمكن أن يُسجَّل بواسطة عقدٍ، لكي يتم الالتزام به، وهذا وجه حضاري جديد من أوجه الحضارة في هذه المدينة، فالزواج والطلاق والتبني والبيع والشراء، كلها أشياء يجب تدوينها على صكوك خاصة بها.

ولكي نطّلع أكثر على أوضاع نساء أوغاريت بشكل مباشر، فلا بأس بنا من زيارة مكتبة رئيس كهنة أوغاريت (إيلي ميلكو) فهو شاهد عصرٍ، شاهد نساء أوغاريت ووصفهن بشكل مباشر، ويمكننا اعتبار وصفه هذا ينطبق على نساء الساحل الكنعاني بشكل عام. ففي كتاب اللآلئ، استخلص لنا الأستاذ مفيد عرنوق ذلك، فتحت عنوان (الفكر الحضاري في نصوص أخبار الملك الكبير) يذكر ما يلي: «فنساء أوغاريت أشبه ما تكون بآلهة، لأنهن جميلات وعالمات، ولأنهن يعرفن كيف يُحيين من سيموت، ويجب عدم الاقتراب منهن بأفكار سيئة، ومن المناسب كبت جماح العواطف ورفع اليد عن زوجة الغير، إن الزوجة في أوغاريت أشبه ما تكون بزوجة الإله، وهي الشاهدة على أسراره المقدسة، وبيتها مقدسٌ كالمعبد، إنه مكان الأسرار المقدسة، فهو شبيه ببيت الإله، والحكمة تكون عادة على أفواه النساء، فيجب أن نبتهلَ إلى الله ليجعل شفاههن الحلوة كالرمان، الينبوع الذي تتدفق منه التعابير الحكيمة المؤدية إلى الرخاء، وعندما نعانق المرأة، يجب أن نضمها بشدة، فتحت وطأة – حرارة الحرارات – نجعلها حاملاً، وعندئذ يجب أن نبتهل إلى الله كيما يمنح الزوجة الحكمة المطلوبة فتضع للعالم – أمل الأزهار – الذي تحمله».

ويُذكر أيضاً أن الأوغاريتي، أكد على الإنسان والولادة وحماية الحامل، لأن ذلك يؤذيها، فيجب الامتناع عن مشاجرة الحامل، ويجب الانتظار وبصبر ساعة الخلاص والولادة، فالآلهة تخلق كما تشاء، وهي وحدها تحدد جنس المولود، كما تحدد

---

[٣٢٣] – بهنسي: الآثار السورية، مرجع سابق، ص ١٥٩.

يوم ولادته. فكان للولادة وقعها الجميل في نفس الأوغاريتي، ويُعبر عن ذلك الشاعر الأوغاريتي بكل رقةٍ عند ولادة ساهر وسالم (سحر وسالم) الإلهين الظريفين والجميلين من والدين يظهر أنهما مجهولان:

ينحني على شفاههم

ويرفع صوته قائلاً

أن شفاههم عذبة

عذبة كعنقود عنب

وقد ولدت ساهراً وسالم

من قبلات الحبل

ويقوم والدهما بإخبار الإله إيل بهذه الولادة، فيبعث إلى إيل بهذه الرسالة:

إن امرأتي قد ولدت

فمن ولدت؟

لقد ولدت إلهين ظريفين

ساهر وسالم فرزقت بهما

فقدم إذن القرابين لشاباس الإلهة العظيمة

وإلى النجوم.

وقد ربط الأوغاريتي الولادة بالقمر، فالرواية الطقسية عن القمر، وقدسيته وتجدد ولادته الشهرية، غايتها تأمين الإخصاب والإنجاب للعروسين الشابين الإنسانين، فكان على الأوغاريتي أن يتهيب ساعة الولادة، وعلى الذين أرعبوا المرأة أن يهربوا، إن المرأة التي تُعذَّبُ أثناء الحمل يمكن أن تلد قبل الأوان في الشهر السابع أو تتأخر ساعات الخلاص.

لقد أحب الأوغاريتي الأولاد كثيراً، فنساء أوغاريت نساءٌ ولودات أحببن الإنجاب، فالحكمة عند الشعب الأوغاريتي ((أن الشعب الذي لا يتكاثر هو شعب فارغ أشبه ما يكون بالرجل المطرود خارج البيت، وعلى العكس من ذلك يجب فتح الأبواب

أمام من ينجب)) ورغم ذلك فقد كان الأوغاريتي يعطف على المرأة العاقر لأنها دون إرادتها، لم تنجب أولاداً، ويجب علينا كل مساء أن نقدم إلى الفقراء البؤساء الذين لم ينجبوا أولادا كيلاً من الخمر والخبز، حتى يقتاتوا به ويشربوا منه، ولكن حذارِ من الإكثار من الخمر، لأنه يُسكِرُ ويُضعف الإنسان[٣٢٤]. وكان على المرأة الأوغاريتية أن تتزين – خاصةً – في المناسبات، لذلك، فقد وضعت نساء أوغاريت على صدورهن بعض العقود كعقود اللولو والمرجان، وقد جاء في أحد النصوص أن الملك قدَّم إلى سريته الزّينات الموضوعة في المعبد، فقد كان الأوغاريتيون يرون في الحلي بعض الفضائل السحرية باعتبارها عنوان جذوة الحب الخطرة، ففي أوغاريت لبست النساء الأقراط الذهبية والفضية والأساور وغيرها من أدوات الزينة، التي كانت رائجة، فقد ساد، أن للحب تأثيراً عميقاً على قوة الإخصاب في الطبيعة، علماً بأن مداعبة العديد من الفتيات بموجب طقوس بعل وعشتار، تُعتبر ضارةً جداً.

كما أحب سكان أوغاريت الموسيقا والعزف والرقص، ولا ننسى أن أقدم مقطوعة موسيقية موجودة في العالم حتى الآن، هي من أوغاريت وتعود إلى حوالي ١٤٠٠ سنة قبل الميلاد، ولهذا دلالة على مدى رقي هذا الشعب ومحبته للعيش بيسر وسهولة وفرح، وكان من الطبيعي أن ترقص نساء أوغاريت ويعزفن، فهنَّ يعشن في بلدٍ أشبه ما يكون الآن كباريس ونيويورك قياساً على ذلك العصر، وقد اتضح ذلك من خلال بعض الرسومات، حيث يصطف الذكور الراقصون أمام النساء الراقصات والعازفات اللواتي ينقرن على الدفوف، فعلى غطاء صندوق عاجي من /تل فرعة/ نرى في واحدةٍ من لوحاته الأربع فتاةً عاريةً يرافقها شاب على مزمار ثنائي ترقص لحاكم، فنرى هذه اللوحة، تشابك الأيدي ووضعها على الخصر وثني الأرجل وإرجاعها إلى الوراء والحركات المنسجمة وجهاً إلى وجه، وبروحٍ حميميةٍ، فهي رقصة فينيقية (تشبه الدبكة

---

[٣٢٤] – اللآلئ: مرجع سابق، ص ١٨٦ – ١٨٧.

الآن) تشهد عليها بعض اللقى الأثرية[٣٢٥]، دلالة على حفلات السهر والسمر التي كانت تجري في أوغاريت، ويبدو أنه كان في أوغاريت راقصات معروفات ومشهورات، كراقصات هذا العصر، فكُنَّ يقمن الحفلات الجميلة في ليالي أوغاريت الساحرة، فقد ورد، أنه في أثناء إقامة الملك إدريمي ملك آلالاخ في أوغاريت – أثناء غيابه عن مملكته، أثناء قيام ثورة ضده، وكان إدريمي هذا مُحباً للفن والغناء، ويبدو أنه وفي أثناء حضوره لإحدى الحفلات، التي ربما قامت على شرفه – أنه قام بتقديم هدية ثمينة، هي عبارة عن خاتم ثمين جداً إلى المغنية الشهيرة السيدة نقمي لانسي، التي كانت مُقيمة في أوغاريت[٣٢٦].

ولا يقف العطاء الذي مُنحت إياه المرأة في أوغاريت عند هذا الحد، فقد كان لها حقوق كثيرة، خاصةً على مستوى الأسرة والملكية والإرث والعمل بكافة المجالات. فعلى صعيد الأسرة، كانت المرأة محطَّ اهتمام الزوج، وتنال الكثير من عطاءاته، فقد جاء في الوثيقة التي تحمل الرقم PRU.III.16.263 أن: «اقتطع – أواشور بن أبانتو – بيتاً وأهداه إلى زوجته بيزيبلي، وقد باعت هذه الزوجة البيت إلى نور بانو لقاء كامل قيمته». وفي وصية ياريمانو الذي أعلن في حضور شهود كُتبت أسماؤهم في نهاية النص، يقول: «أن كل ما لدي وما حصلت عليه بيداوا سوية معي... أعطيه إلى بيداوا زوجتي»[٣٢٧].

كما كان للمرأة حق أن ترث أبيها وزوجها، فقد وصلتنا وثائق جرى الحديث فيها عن اقتسام أملاك، مثلاً، يتحدث النص في الوثيقة PRU.III.1.252 عن مساواة امرأة تدعى ألانزو وولدها إيليميلكو وابنتها ملكايا، تقول: «كما الشمس نقية، نقية هي أيضاً مع ولديها إيليميلكو وملكايا».

---

[٣٢٥] – توب، جوناثان: الرقص الفينيقي، ت. هالة مصطفى، مجلة مهد الحضارات، العدد ١، ٢٠٠٦م، المديرية العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة، ص ٤٨ – ٥٠.

[٣٢٦] – الحمد: حضارة طريق التوابل، مرجع سابق، ص ١٧٩.

[٣٢٧] – سيفمان: مجتمع أوغاريت، مرجع سابق، ص ١٢٦ – ١٢٨.

وفي الوثيقة ذات الرقم PRU.III.16.158 التي تعود إلى عهد نقمد الثاني ملك أوغاريت، نجد الصفقة التالية: «من هذا اليوم، وفي حضرة نقمد ملك أوغاريت استملكت – أنا نيخيبي ابنة إيليتارو – بيت إيليتارو أبيها، من عبدي خاغاب بن... بدلاً من تيرا خاتو (ها) وبريئة أنا نيخيبي من كل ما يخص عبدي خاغاب وبريء عبدي خاغاب من كل ما يخص أنا نيخيبي، خاتم كبير للملك»[٣٢٨]، مما يدل على حق المرأة في الإرث، إضافةً إلى حقها بتملُّك الأراضي والبيوت والعقارات بكافة أشكالها.

كما ذكرت الوثيقة PRU.III.16.154 في عهد أمشتمرو الثاني: «باع كل من بيلسو وعبدي ميلكو ولدا أخي ملكو حقل اميخيبي بمائة وثلاثين وزنة من الفضة». وفي الوثيقة PRRU.III.16.156: «باعت المرأة بات – رابي وأخوها شوبعمو وأطفال المرأة لايافا حقولاً إلى المرأة تالايو ابنة...». وفي الوثيقة PRU.III.16.261.+339+241 يلعب دور طرفي الصفقة المرأة لايا من جهة، وأولادها وادمشلام وخسليانو وعورينو وشوبعمو أبناء ساسيانو من جهة أخرى. وفي الوثيقة Ugaritica.y–9 نرى أن رابيسو يبيع قرية ريكدو وملكية مصادرة لدى ابنه ياكنو وابنة ... سابو، وقبل الصفقة كانت المرأتان تملكان هذه الأملاك سويّة، كما تُظهر هذه الوثيقة، الاستقلالية التي تمتعت بها المرأة الأوغاريتية في مجال الملكية والمجال الاجتماعي والقانوني[٣٢٩].

ونرى أن السبب في اكتساب المرأة الأوغاريتية، هذا القدر من الاستقلالية، يعود إلى المشاركة النشطة لملكات أوغاريت في حياة الدولة والمجتمع، مما انعكس على مكانة المرأة وأخذها حقوقاً هامة، يأتي على رأسها حق الملكية وحق البيع والشراء، إضافة إلى أهليتها للقيام بتحرير الصكوك والتوقيع عليها، وهذا ما خوَّلها للقيام ببعض الأعمال التجارية، واكتسابها أموالاً وأرباحاً أعطتها مكانة هامة في هذا المجتمع

---

[٣٢٨] – المصدر نفسه: ص ١٣١.

[٣٢٩] – المصدر نفسه: ص ١٢٥.

المنفتح على كل الاتجاهات، فقد قدمت لنا الكثير من الوثائق، ما يُثبت قيام المرأة الأوغاريتية بالأعمال التجارية، وهنا سنكتفي بذكر البعض مما توفر لدينا منها في بعض المصادر الخاصة، رغم معرفتنا بوجود الكثير مما لم نحصل عليه، وبقاء الكثير أيضاً، الذي لم ينل حظه بعد من الدراسة والترجمة، أو مازال تحت التراب.

فقد ذكرت الوثيقة PRU.III.15.86: «أن **الملكة بيزيتكي** لعبت دوراً رئيساً كطرف في صفقتي بيع وشراء» كما استطاعت إحدى النساء في أوغاريت من خلال عملها في التجارة، أن تحوز على ملكيةٍ كبيرة. فقد ذُكر أن امرأة تدعى أميحيبي، كانت من كبار مُلّاك الأراضي في أوغاريت، وقد عاشت في عهد أمشتمرو الثاني، وتؤكد الوثيقة PRU.III.15.154 إنها اشترت مجمعاً زراعياً من عبد يميلكو بن دينيو يقع في نهر (أيو) ويضم حقلاً وكرماً من العنب ومزرعة زيتون بمبلغ ٧٤٠ وزنة فضة.

كما أن استطاعت المرأة الأوغاريتية، أن تحصل على حقوقها عن طريق إقامة بعض الدعاوي، فقد ذكرت الوثيقة PRU.III.16.245 أن امرأة اسمها شانانتو كانت طرفاً في نزاعٍ، وربحت الدعوى.

لكن المرأة في أوغاريت – ومن جانب آخر – كانت تضطر إلى العمل في القصر الملكي بظروفٍ سيئة، فقد ذكرت الوثيقة PRU.III.15.168 أن ((تتلقى المرأة المدعوة كيريبيلو أجرها من الملك))، وفي الوثيقة PRU.III.15.89 تتلقى أخرى هي ((أخاتميلكو ابنة داليلو أجرها من الملك من الملك نقمد الثاني))[٣٣٠].

وهنا لا بد من التذكير ثانيةً، بأن نساء أوغاريت، لم يكنَّ على سوية واحدة، فهناك من كانت غنية تعيش برفاهية، وهناك من كانت تعاني من شظف العيش وقسوة الحياة، وهناك المرأة العالمة والمرأة العاملة في كافة المجالات، كما أن هناك نساء فاضلات. فقد ركَّز الأدب الأوغاريتي في أحد جوانبه على أخلاق المرأة

---

[٣٣٠] – المصدر نفسه: ص ١٢٥، ١٤٣.

وجمالها، وذلك من خلال بعض النصائح التي كانت توجَّهُ – خاصةً – للمرأة، والتي تُعبر عن بعض الرؤى المختلفة لبعض الحكماء في أوغاريت تجاه المرأة، ومنها:

- لا تتخذ للزواج فتاةً في عرس، إن الفتاة القبيحة تتدثر في الاحتفالات بالثوب الجميل. وهو بكل تأكيد لا يعني الجمال الخارجي فقط.
- لا تُطلِع زوجتك على ما في صرَّتك.

ومن المفاهيم الأخلاقية في أوغاريت أيضاً:

- لا تتكلم في شارع مطروق.
- لا تقل سوءاً عن الرجال.
- لا تسخر من إله لم تبتهل إليه.
- لا تقس نفسك بقوي.

ومن النصائح أيضاً ما يتحدث عن:

- إنصاف الأرملة والدفاع عنها...
- مصالحة الناس – إطعام اليتيم – إنقاذ المظلوم، وإعادة الحقوق إليه.

وتجدر الإشارة إلى نصٍّ يُعبر عن جزاء المؤذي، ويتضمن قصة فتاة خائبة تُسمّى لاماشو، التي كانت تقضي على كل مولود وأمه، وتحقد على الشباب، وتلحِقُ الأذى بالفتيات، فكانت من تعاستها كمن تجرع مياه الحزن والغم. وهناك نصٌّ هام أيضاً يذكر قصة كيرت، الذي كان يحلم بزوجة وثماني بنات وثمانية أولاد، مما يدل على فضيلة الزواج، وما يتضمنه من قيمة أخلاقية[٣٣١].

كما امتلكت المرأة في أوغاريت الجرأة على مخاطبة الرجل ومحاسبته مهما علا شأنه، فقد حظيت بمكانة عالية لدى زوجها وولدها، وقد أكد ذلك أيضاً ما وُجِد في رقيم مُكتشف في أوغاريت، يحوي خمس رسائل، ثلاث منها بحالةٍ جيدة، ومنها اثنتان صدرتا عن سيدتين. فقد كَتبت في إحداهما السيدة (أروشحبات) إلى محافظ المدينة –

---

[٣٣١] – زهدي، بشير: أوغاريت الفكر، مرجع سابق، ص ٢٠ – ٢١.

وهو ابنها – مُذكرة إياه بكل ما كان زوجها المرحوم قد فعله من أجله، فقالت: «لقد كنت خلال حياة زوجي تطلب كل ما يحلو لك، وكان يعطيك ما تسأل، وليس من سببٍ يدعو الآن إلى تغيير ذلك».

كما كتبت سيدة أخرى في الرسالة الثانية إلى سيدتها ملكة أوغاريت تُعلمها بأنها أرسلت لها بعض الهدايا وتسأل عن هدايا لها بالمقابل، ثم تضيف إلى ذلك قولها وعلى شكل اعتذار: «وها هم أولادي سيصبحون أصهار بيت» وذلك للدلالة على أن الزوج سيسكن في دار أهل العروس[٣٣٢].

إلى هنا نكون قد بيّنّا وضع المرأة الحرة في أوغاريت بكافة أوضاعها الاجتماعية، والتي نحسب أنها أوضاع جيدة، قياساً إلى الفترة الزمنية التي عاشتها، لكن الموضوعية في الكتابة والبحث، تقتضي منّا تسليط الضوء على كافة نساء أوغاريت ومنهن طبقة العبيد، مع اعترافنا بأنها لا تمثل الغالبية في هذا المجتمع، إضافة إلى تعدد مصادرها، خاصةً في مدينةٍ كأوغاريت، تقع، كبوابةٍ كبيرة ما بين الشرق والغرب، إضافة إلى مصادر العبيد الأخرى، وعلى رأسها الحروب، وهذا ما لم تستطع أيّة حضارة عبر التاريخ، أن تتخلص منه مهما بلغ رُقيُّها.

أما عن أوضاع العبيد في أوغاريت، فقد كانت سيئةً بالطبع، إلا أنها كانت في بعض الأحيان، تدعو إلى بعض السرور، وذلك بسبب قبول المجتمع الأوغاريتي فكرة إعطاء العبد حريته والعبدة حريتها، التي تستطيع من بعدها الزواج من رجلٍ حر. وفيما يلي نصٌّ عن عقد زواجٍ في أوغاريت، يقول النص: «في هذا اليوم وأمام الكاتب بالعدل والشهود، أعتق وكيل بيت المملكة جلبين عبدته، وأصبحت حرةً كالشمس وإلى الأبد، ومن جهة أخرى فإن بوربانو، قد اتخذها له امرأةً، وأعطى لجلبين عشرين شيقل من الفضة» وقد حُرِّرَ هذا العقد بالأوغاريتية بلغة أدبية فائقة.

---

[٣٣٢] – نوغايرول: نصوص جديدة من أوغاريت، مرجع سابق، ص ٣٣٢.

كما بينت لنا بعض الوثائق أن عملية تحرير العبيد، كانت منتشرة في أوغاريت فالوثيقة PRU.III.16.250 تفيدنا عن تقسيم أملاك إحدى العائلات، حيث يعطي عبدو بيته القائم في ماخسيسو وباقي أرزاقه إلى ولده إيليميلكو، ويفصله عن ولده الآخر عزيرو، أضف إلى ذلك أنه يُعلن عن تغيير الشخصية الاعتبارية لتابعته، والدة إيليميلكو، يقول النص: «ها هي هيافا زوجتي نقيّة من العبودية، وهي سيدة على بيت ولدها» أي أن هذه الأمة استردت حريتها بعد أن غدت زوجة لسيدها، مما يحميها من عبودية المالكين الجُدد لأملاك العائلة، ويعطيها إمكانية أن تغدو سيدة بيت إيليميلكو، فكان يكفي أن يُعلن السيد أن أمته، هي أمٌّ لولده، وهي زوجته التي أنجبت له هذا الولد، وهي حرة من العبودية، ويسجل هذا في وثيقة.

وفي الوثيقة (RS8.208(162.P.253.254 التي تتحدث عن حالةٍ معقدة، وهي منح غيلبينو مدبر شؤون منزل الملكة، الحريةَ إلى (إيليانو) أمته ويتزوج (نامو الملك)* هذه الأخيرة، بينما يتلقى غيلبينو عشرين وزنة من الفضة، أي نحن أمام حالة شراء حرية إحدى الإماء.

وفي الوثيقة Ugaritica.y-6 من أرشيف راشابو، نجد أن هذا الأخير وزوجته بيدا، اشتريا أربع أقات♣ حقل مع مزرعة زيتون وملاك العبيد العامل فيها والأشجار القائمة في منطقة ساعو من ياريمانو بن خزامو بمبلغ قدره ١٠٤ وزنة فضة، ففي هذه الوثيقة، نرى أن العبيد يُباعون مع الأراضي التي يعملون فيها، كما تُباع باقي محتويات الأرض.

أما الوثيقة PRU.II.6 فتذكر أن المدعو أفريكولي، كان قد اشترى العبيد: اغدانو بن نورغانورو وأخاه بعالانو وولده خاتشانو وابنته (بات – شايو) وكذلك عشتارماية ابنة عبديميلكو وساناتو الأوغاريتية بمبلغ ١٠٠ وزنة من الفضة، التي دفعها إلى كباير تايامو.

---

* – وهي إحدى الوظائف في قصر الملك.

♣ – وهو مقياس للمساحة.

وفي الوثيقة PR.16.267 التي تقول: ((من هذا اليوم أبرأ أمشتمرو الثاني بن نقميبا ملك أوغاريت شايا أمته من ربقة العبودية))، وتذكر أيضاً: «كما الشمس نقية شايا من العبودية، وهي خاضعة للملك، لقد عرّاها وطهرها كالشمس، وإذا توفيت شايا غداً أو بعد غدٍ، فيعود كل ما تملكه إلى زوجها شايتينو رابيسو زوجها، خاتم أمشتمرو بن نقميبا ملك أوغاريت».

وفي مثال آخر عن عبودية عادية، نقرأ في الوثيقة Ugaritica.y.48 التي جاءت على شكل رسالة: «تُسمّي المدعوة (خيبيتا زالي) نفسها، أمةً للملكة، وتطلبُ منها – أي تطلب من الملكة – أن تُرسِلَ إليها أنواعاً مختلفة من الأقمشة وأحد الأحجار الكريمة، وهي بدورها تُرسِلُ إلى الملكة منديلاً»[٣٣٣]، وهنا رأينا حالة من العبودية لأمةٍ تعيش بحالة جيدة، فهي تستطيع مخاطبة الملكة، وتتبادل معها الهدايا، ولربما لم تكن هذه الفتاة أمةً أو عبدةً، وإنما أرادت أن تُطلق على نفسها هذه التسمية لإعطاء عظمة للملكة.

وهكذا نرى، كيف كان وضع العبيد في أوغاريت يرزح في أسفل السلم الاجتماعي، مع الاعتراف بتفاوت السويات، التي يعيش فيها هؤلاء العبيد، بين مكان وآخر، فقد كان باستطاعة العبيد نيل حريتهم في بعض الأحيان، وأحياناً أخرى، يشتد عليهم الخناق، ليصل بهم الأمر إلى حدِّ القيام بانتفاضات كثيرة، كانت تشكل خطراً على المجتمع الأوغاريتي.

وفي الختام نقول: إن نساء أوغاريت، إضافةً إلى نساء إيبلا وماري، كُنَّ خير ممثلات للنساء السوريات في الألف الثاني قبل الميلاد. هذا العصر الذي استطاعت فيه المرأة وبشكلٍ كبير الحفاظ على مكانتها، التي بكل تأكيد سوف نشهدها في الألف الأول قبل الميلاد، تتراجع بعض الشيء، خاصةً مع دخول العناصر الأعجمية إلى بلادنا، وما نتج عنه من فرزٍ طبقي جديد، إضافة إلى الفرز الطبقي المعروف

---

[٣٣٣] – سيفمان: مجتمع أوغاريت، مرجع سابق، ص ١١٠ وما بعدها.

بالأصل، وخاصة في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد. لكننا، وقبل الانتقال إلى ذلك العصر، لا بد لنا من التذكير بوجود ممالك هامة أخرى في الألف الثاني قبل الميلاد، كانت ذات شأنٍ كمملكة قطنة (تل المشرفة قرب حمص) والتي عرفنا منها السيدة بيلتوم ابنة ملك قطنة إشخي أدو وزوجة يسمخ أدو الآشوري ملك ماري، ولكن وبسبب عدم وجود رُقم كتابية فيها، لا نستطيع معرفة وضع المرأة فيها بشكل جيد. وأما المملكة الأخرى التي سنتعرَّفُ على وضع نسائها، فهي مملكة إيمار، التي سنفرد لها دراسةً صغيرةً ومُبسَّطة تِبعاً لحجم المعلومات المتوفرة لدينا عنها.

المرأة العربية في مملكة إيمار

تقع مملكة إيمار على الضفة اليمنى لنهر الفرات، والتي اكتشفت عام ١٩٧٢م من قبل بعثة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، ضمن حملة الإنقاذ الدولية لحوض الفرات، وهي معروفة اليوم باسم مدينة مسكنة، التي شهدت فترة ازدهارها في عصر البرونز الحديث ١٦٠٠ – ١٢٠٠ ق. م.

ومن المعلوم أننا لم نعثر فيها على رقمٍ كتابية توضح وضع المرأة فيها بشكل وافٍ، لكننا نؤكد على أن المرأة في إيمار كانت لا تختلف عن شقيقاتها في ماري وأوغاريت، لأنها عاشت نفس الفكر الحضاري والأدبي والديني، فحافظت على وضعها الجيد، كما أننا نستطيع أن نسلّط الضوء على بعض أوضاع وحالات للمرأة في إيمار، من خلال بعض المعلومات البسيطة التي حصلنا عليها، ومنها:

تذكر وصية وُجِدت في أحد الرقم القليلة المُكتشفة في إيمار، وهي نموذج غريب بعض الشيء، كونها تنصُّ على إعطاء امرأة مكفوفة كافة الصلاحيات لتربية الأسرة، أي اعتبارها سيدة العائلة، والمرأة الآمرة الناهية، فهي تجبر الأولاد بالتعهد على الطاعة، يقول النص: ((إن مهرا – أهي بن أبي – راد ... سليم العقل والجسد ... وقّع أخوته على وصيته ... بإعطاء بيته لأولاده وزوجته ...)).

ويُعبر عن ذلك قائلاً: ((هذه ابنة كاغا، زوجتي ... هي أب وأم لمنزلي حتى مماتها ... ستسكن في البيت الرئيسي دون أن تُطالب هي وابنها (راشاب – كبر) بشيء)).

ويتابع النص: ((وفي حال لم يقم الأخير بإعالتها، وهي الأب والأم، سيفقد حقه في إرث البيت، وإذا أعال يرث نصف البيت، وفي حال عدم إعالته سيفقد حصته (أربع شهود) شهر آب من السنة التي قام الملك ببناء بوابة للمدينة على الضفة الثانية

من النهر))، نلاحظ أن هذه الوصية الموثَّقة، أعطت دوراً هاماً للمرأة المكفوفة[٣٣٤]، فما بالك بالمرأة السليمة، وهذا يدل على أن وضع المرأة في إيمار كان جيداً، فقد عُثر أيضاً في مسكنة (إيمار) على رقيمٍ مسماري مكتوب باللهجة الأكادية، يروي مراسم تنصيب كاهنة للإله بعل في مدينة إيمار، حيث يجتمع كبار السن في المدينة، ويختارون فتاة جميلة من معبد بعل، لتحُلَّ محل الكاهنة الكبيرة التي توفيت ((تخرج الفتاة المُختارة في موكبٍ مهيب مُرتديةً زي عروس يتبعها المغنون والمنشدون، وحينما تصل إلى باب المعبد تقدِّم القرابين إلى الإله بعل)). وتمتد طقوس الاحتفال سبعة أيام، يُبرز هذا النص دور المرأة في الحياة الكهنوتية كما في ماري وغيرها من المدن القديمة* [٣٣٥].

وفي إيمار أيضاً، كان بإمكان المرأة أن تقوم مقام الرجل بعد وفاته، فهي تقوم بمعظم الأعمال التي كان يقوم ففي نصٍّ من إيمار نقرأ: «كتب موزاز ابن شمانة المُعافى وصيته بخصوص بيته، قال ما يلي: الآن أقمت ابنتي – ألحاتي – امرأة ورجلاً – سيمكنها أن تناشد إلهتي وأمواتي، الآن بيتي وأموالي وممتلكاتي، كل ما هو لي، أعطيه إلى ابنتي ألحاتي». وفي نصٍّ آخر نقرأ: «هكذا في الوقت الحاضر ليس لدي ابن، جعلت من علنسوة ابنتي رجلاً وامرأة» أي قيام علنسوة مقام الرجل في كافة الأعمال. ونقرأ أيضاً في نصٍّ آخر تُحرره امرأة، ما يلي: «تبناني أبي قوردا كابن لأن أخوتي ماتوا وبقي البيت لي». وفي نص آخر أيضاً من إيمار ويعود لعام ١٣٠٠ ق.م نَسخ أحد الكهنة والمدعو (بعل – كاراد) الذي طلب أن يتقاسم أبناؤه الخمسة

[٣٣٤] – جاموس، بسام: مملكة إيمار في عصر البرونز الحديث ١٦٠٠ – ١٢٠٠ ق.م، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦م، ص ٤٩.

* – يعود هذا النص للألف الثاني قبل الميلاد، وموجود في متحف حلب.

[٣٣٥] – معرض المرأة السورية، مرجع سابق، ص ٦٧.

ثرواته كلها بعد موته ولم يترك شيئاً لبناته، لكنه أعطى حقَّ انتفاع ملكيته لزوجته كي يضمن لها وضعها حتى بعد وفاته[336].

أما على مستوى الحكم في إيمار، فقد ذكرت بعض الوثائق إمكانية حكم المرأة في إيمار نيابةً عن ابنها القاصر، فقد ذكرت وثائق إيبلا التي تعود إلى القرن ٢٤ ق.م والتي تضمنت شواهد نصيّة عن إيمار، وهي تربو عن ٢٠٠ شاهد، عن العلاقات بين إيبلا وإيمار، وذكر أسماء عددٍ من ملوك إيمار، ومنهم **الملكة تيشالم** ملكة إيمار، التي كانت تحكم بالوصاية عن ابنها القاصر. ويذكر النص ٢٣٩٦,٧٥ الملكة تيشالم عشرات المرات في وثائق إيبلا، فهي قد تكون من أصل إيبلاوي، وكذلك عن علاقة هذه الملكة بملوك إيبلا، كما أشارت بعض النصوص، إلى أنها أم الملك أو الوزير ايبريوم الإيبلائي، وقد أشارت نصوص أخرى، إلى أن قرىً إقطاعيات مُنحت للملكة من قِبل إركب دمو ملك إيبلا، ويبدو أن هذه الملكة كانت زوجة الملك إنزي دمو الذي ينتمي إلى نفس الأسرة المالكة في إيبلا[337]، مما يعني أن نساء إيمار كن على نفس سوية شقيقاتهن في المدن السورية الأخرى، وهذا يعني أيضاً وجود وحدة حضارية فكرية سلوكية تُرسِّخ العمق والفكر الحضاري والتاريخي لبلاد الشام، الذي أعطى للمرأة مكانةً رفيعةً، سواء داخل القصر الحاكم أو خارجه، وقد انتشر هذا الفكر (الجمعي) في هذه البلاد، طيلة القرون الثمانية الأولى من الألف الثاني ٢٠٠٠ – ١٢٠٠ ق.م عندما دخلت هذه المنطقة، وخاصة الساحل، ما يُسمى بعصر الظلمات، والذي استمر حوالي ٢٠٠ سنة، أي ما بين ١٢٠٠ – ١٠٠٠ ق.م، حيث تعرضت معظم مناطق بلاد الشام والساحل السوري لما يُسمّى بغزوات شعوب البحر المُدمرة، كما أنها كانت فترة سقوط دول وإمبراطوريات وقيام أخرى جديدة.

[336] – جريدة شرفات الشام، مقالة بعنوان: جنس بيولوجي وجنس اجتماعي في بلاد الرافدين، ت. محمد الدنيا، وزارة الثقافة، دمشق، العدد ٧٠، ٢٠١٠م، ص ٥٣.

[337] – جاموس، بسام: مملكة إيمار، مجلة عاديات حلب، العدد ٢، ٢٠٠٩م، ص ٤١.

الفصل التاسع

المرأة العربية في الألف الأول قبل الميلاد (بلاد الشّام)

لمحة تاريخية

نحو عام ١٢٠٠ ق.م أو بعد ذلك بقليل، دُمِّرت الأرشيفات السورية، التي كانت قد أوضحت لنا التاريخ السياسي لعصر البرونز المتأخر، وحتى الآن، لا توجد شواهد مكتوبة، يمكن مقارنتها من القرنين الأخيرين من الألف الثاني قبل الميلاد. وقد قادت ندرة المعلومات المكتوبة، إلى تسمية هذه الفترة، بالعصر المظلم ١٢٠٠ – ١٠٠٠ ق. م، وكان ذلك من جرّاء حركات الشعوب في شرق المتوسط، والتي سميت بشعوب البحر، التي تقدمت نحو السواحل الشرقية للمتوسط، فقضت على الإمبراطورية الحثية، ودمَّرت السواحل السورية إلى حدود مصر، حيث أوقفها رعمسيس الثالث في معركة زاهي ١١٩٠ – ١١٨٩ ق. م، وكان من أهم هذه الشعوب الغازية الآخائيون والليقيون والشردانيون والبلستيون، فكان أن دُمِّرت أوغاريت، ومعظم حواضر الساحل السوري.

وفي أعقاب شعوب البحر، تعرضت البلاد إلى فوضى واضطراب شاملين، مما مهَّد بعد ذلك إلى قيام الآراميين وهم قبائل الأخلامو = الأحلامو بتشكيل ممالكهم.

لقد شهدت بلاد الشام في الألف الأول قبل الميلاد، نشوءَ الممالك الآرامية، التي انتشرت على معظم أراضيه، والتي دخلت في صراعٍ كبير مع الإمبراطورية الآشورية الحديثة ٩١١ – ٦٠٩ ق. م، هذا الصراع الذي أدى إلى عدم قيام استقرار سياسي في بلاد الشام، ولم تنفع كل التحالفات السياسية، التي أقامها الآراميون في

وجه الغطرسة الآشورية، مما أدى إلى خراب معظم المدن السورية بشكل متقطع، فلم يستطع الآشوريون تحقيقَ نصرٍ حاسم خاصةً في أشهر معاركهم، التي قادها ملكهم شلمناصر الثالث ٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م ضد تحالف القوى الآرامية في معركة قرقر الأولى شمال حماه على العاصي ٨٥٣ ق. م.

أما في عهد تجلات بيليصر الثالث ٧٤٤. ٧٢٧ ق.م الذي أحدث تغييراً في العلاقات بين السلطة المركزية الآشورية، فقد استبدلت الآن الحملات الموسمية التي كانت تؤول إلى إخضاع حكام سوريا المحليين، بسياسةٍ أخرى، هي سياسة الفتح الكامل للمناطق، ودمجها في الإمبراطورية الآشورية كمقاطعات يحكمها موظفون آشوريون، فبدأت الممالك الآرامية تسقط الواحدةَ تلو الأخرى، أمام ضربات تجلات بيليصر الثالث والذي فرض الجزية على سكان هذه المناطق.

ففي عام ٧٣٢ ق.م سقطت دمشق والمناطق الساحلية التابعة لها أمام هذا القائد العظيم، فلم تعد مملكة آرام دمشق إلى الوجود ثانية، بل أصبحت عاصمة مقاطعةٍ آشورية.

أما في عهد شاروكين الثاني ٧٢٠ – ٧٠٥ ق.م الذي استطاع إسكات حركات التمرد في سوريا، فكانت معركة قرقر الثانية، فأخذ ملك حماه أسيراً مع أسرته إلى آشور، حيث سُلِخَ جلده حياً، ولتصبح حماه أيضاً مقاطعةً آشورية.

أما فيما يتعلق بالساحل السوري، فقد تم إخضاع مدينة صور، التي كانت تُعتبر الممثل الوحيد للتواجد الكنعاني الفينيقي على الساحل، وبذلك أصبح الساحل السوري كله أيضاً بيد الآشوريين. وكذلك أصبحت سوريا الداخلية أيضاً جزءاً من الإمبراطورية الآشورية يحكمها حكَّامٌ آشوريون، بينما بقيت بعض مدن الساحل إضافة إلى مملكة سمأل تحت حكم سلالات محلية تخضع لسلطة الآشوريين، لكن إلى حين.

وقد استمر حكم الآشوريون على سوريا خلال حكم سنحاريب وابنه أسرحدون، ومن ثمّ آشور بنيبال ٦٦٨ – ٦٢٧ ق.م الذي توسعت المملكة في عهده، حتى شملت مصر، إلى أن آن وقت سقوط الدولة الآشورية الحديثة على يد التحالف الميدي

البابلي بقيادة نابو بولاصار ٦٢٥ – ٦٠٥ ق.م مؤسس سلالة بابل الثانية (الكلدانية) والتي تُعتبر آرامية من حيث الانتماء القبلي. ومن جديد دخلت سوريا تحت الحكم البابلي الذي حلَّ محل الحكم الآشوري، وقد استمر الحكم البابلي في عهد القائد الكلداني نبوخذ نصر الثاني ٦٠٥ – ٥٦٢ ق.م أقوى ملوك بابل العظام.

وفي عام ٥٣٩ ق.م سقطت بابل على يد الملك الفارسي كورش الثاني، لتعاني بلاد الشام من سيطرة الحكم الأجنبي، وقد استمر الحكم الفارسي لسوريا حتى مجيء الاسكندر المقدوني في خريف عام ٣٣٣ ق.م بعد انتصاره على داريوس الثالث آخر الحكّام الفرس في معركة أيسوس التي فتحت الطريق أمام الاسكندر لدخول سوريا ومن ثم مصر، ثم الاتجاه نحو الشرق، ليقضي نهائياً على دولة الفرس الأخمينيين ولتصبح سوريا من جديد تحت حكم أجنبيٍّ آخر، وهو الحكم اليوناني المقدوني[٣٣٨]، الذي استمر عبر الدولة السلوقية* إلى أن دخل القائد الروماني بومبيوس إلى سوريا ٦٤ ق.م ليقضي على الحكم اليوناني السلوقي، ولتدخل سوريا من جديد أيضاً تحت حكم أجنبيٍّ آخر، وهو الحكم الروماني، ومن ثمّ بحلّته الجديدة الحكم البيزنطي، بعدما حلّ الإيمان بقلب قسطنطين ملك الرومان، ولتنتظر سوريا قدوم جحافل الفتح الإسلامي لبلاد الشام عام ٦٣٦ م، وهذا ما سنأتي على ذكرهِ، كُلٌّ في حينه.

---

[٣٣٨] – كلينغل: تاريخ سوريا السياسي، مرجع سابق، ص ٢١٠ حتى ٢٦٥.

* – نسبة لسلوقس الأول نيكاتور ٣٥٨ – ٢٨٠ ق. م.

الآراميون

لمحة تاريخية

الآراميون شعبٌ من شعوب الشرق العربي القديم، التي اصطلح على تسميتها خطأً «الشعوب السّامية» ومنها الأكاديون (البابليون والآشوريون) والأموريون والكنعانيون، وكلهم ينتمون إلى أرومة واحدة (العربية).

كان الآراميون قبائل بدوية متنقلة ذات بطون وأفخاذ (بيوت) وكانت أطراف البادية السورية العربية، ولا سيما المناطق القريبة من جبل بشري (بسر في النصوص القديمة) موطنها الأم، وقد كانت هذه المنطقة وما يتصل بها جغرافياً موطناً للقبائل الأمورية أيضاً، وذلك منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد حسب نصوص إيبلا، ويدل اسم آرام لغوياً على العلو والارتفاع والسمو، وقد ساد وطغى على أسماء القبائل المتفرقة.

الآراميون قبل تأسيس ممالكهم

تبدأ المصادر الكتابية المسمارية بذكر أخبار الـ (أخلامو) الذين يبدو أنهم كانوا يشكلون القسم الأكبر والأقوى بين القبائل الآرامية في مناطق الفرات الأوسط الممتدة من بلاد سوخي (مناطق عانا) حتى كركميش (جرابلس) بدءاً من القرن السابع عشر قبل الميلاد. كما تذكر رسالة من الرسائل المُكتشفة في تل العمارنة في مصر، وهي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، الأخلامو. وفي نصٍّ آخر من أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد، نقرأ أيضاً أن الملك الآشوري (أريك دن ابلي) ١٣١٧ – ١٣٠٦ ق.م حارب الأخلامو والسوتو.

وثمّة رسالة من منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد موجَّهة من الملك الحثي ختوشيلي الثالث إلى ملك بابل الكاشي كدشمان انليل الثانيو يذكر فيها أن

الأخلامو صاروا يشكلون خطراً على الطريق بين المملكتين، ثم نلحظ في النقوش التالية، اتصاف الاسم أخلامو بصفة الآراميين أي الأخلامو الآراميون، وبعدها تطغى الصفة ويختفي الاسم أخلامو، كما نلحظ فيها بدء تكوين قوى وكيانات آرامية متميزة، كانت تشكل خطراً على المملكة الآشورية، وتهدد حدودها الغربية، وتمنعها من تحقيق أطماعها في السيطرة التامة على مناطق الجزيرة العليا والفرات.

وعلى الرغم من التفاوت في المستوى الحضاري والعسكري بين الآشوريين والآراميين، فإنه لم يكن بمقدور الآشوريين إخضاعهم بسهولة، مما يدل على بأسهم وصلابتهم القتالية، فقد كان الآراميون يستفيدون من خبرتهم بأحوال البادية في القيام بغارات مفاجئة على الجيوش الآشورية المنظمة.

كما شكَّل الآراميون فيما بعد في سوريا، ممالك مرتبطة بمدينة مركزية تتبع لها أحيانا بعض المدن الصغيرة وعدد من القرى، وتقوم بالحكم فيها أسرة متميزة ذات شأن، يتولى وجهاؤها أو شيوخها الحكم وراثياً، ولذلك لُصِقت صفة بيت بمعظمها، وحملت أسماء منسوبة غالباً إلى مؤسسها، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث وحدات جغرافية متصلة هي:

١ – ممالك الجزيرة الفراتية: وتشمل إمارات تيمانا – بيت بخياني – بيت زماني – بيت عديني، إمارات الفرات الأوسط، وهي بيت خالوبي أو خالوفي – لاقي – خيندانو.

٢ – ممالك سوريا الشمالية: وتشمل بيت آجوشي – يأدي (شمأل).

٣ – ممالك سوريا الوسطى الجنوبية: وهي مملكة حماه ولعش، مملكة دمشق.

وقد شكَّل الآراميون أيضاً عدداً من الممالك في بلاد بابل، فقد اختلط الآراميون مع البابليين الأصليين، الذين كانوا يسكنون المدن غالباً، وقد كان الضغط الآرامي يدفع البابليين للهجرة إلى بلاد آشور أحياناً، وفي الجنوب البابلي ازدادت أعداد الآراميين وفاقوا السكان الأصليين، ويمكن تصنيفهم إلى ثلاث قبائل شكَّلت ثلاثة بيوت، هي:

- الكلدانيون (كلدو) التي استوطنت في وسط بابل، ومنهم بيت دكوري وبيت شألي وبيت يكيني.
- الفقوديون (فقودو) على ضفاف دجلة المتاخمة لمملكة عيلام.
- الجوراسيميون (جوراسيمو) شمال وشمال غرب مدينة أور[٣٣٩].

وقد دخل الآراميون في صراعٍ مع الآشوريينٍ، مما أدى إلى سقوط ممالكهم تِباعاً أمام الإمبراطورية الآشورية القوية، رُغم صمودهم الجبّار كما رأينا سابقاً، ولكنهم تركوا لنا إرثاً حضارياً كبيراً يُضاف إلى تراثهم العظيم.

---

[٣٣٩] – إسماعيل، فاروق: اللغة الآرامية القديمة، جامعة حلب، ٢٠٠١م، ص ٥، ٧، ١٠، ٣٤، ٣٥.

المرأة العربية الآرامية

إننا ومن خلال هذه الدراسة التاريخية المُبسَّطة لتاريخ الألف الأول قبل الميلاد، نلاحظ أمرين هامين: الأول، وهو حالة الفوضى التي حصلت مع نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد، والتي نتج عنها قيام عدة ممالك آرامية وانهيار عدة دول ومدن وحضارات هامة، كما حدث للإمبراطورية الحثية ولمدينة أوغاريت ومعظم مدن الساحل السوري الفينيقي، وقد أدى هذا الأمر، إلى حدوث تغيرات بنيوية في الفكر الجمعي لسكان هذه المناطق، وذلك بسبب دخول عناصر جديدة، خاصةً على الساحل السوري، بالإضافة إلى بداية الصراع ما بين المصريين والآشوريين، الذي كانت فيه سوريا هي ساحة الصراع، مما سينعكس وبكل تأكيد على وضع المجتمع والأسرة والمرأة بشكلٍ خاص. أما الأمر الثاني، فهو الصراع المستمر ما بين الآشوريين وممالك الآراميين، الذي جعل هذه الممالك تعيشُ حالةَ عدم استقرار، فهي في حالةِ ترقُّب مستمر لتحركات الجيوش الآشورية واتجاهاتها، مما سينعكس – وبكل تأكيد – على وضع المرأة. فقد تحوَّل المجتمع إلى مجتمعٍ حربيٍّ بامتياز، مما سيؤدي إلى تحول المرء نحو الرغبة في إنجاب الذكور، وبالتالي تحول المجتمع إلى مجتمعٍ بطريركي ذكوري بامتياز، سَيُصبحُ وضع المرأة فيه سيئاً، إذا ما قيس بوضعها في الألف الثاني قبل الميلاد، وهذا ما سنراه لاحقاً، عند دراسة العقائد عند الآراميين، حيث سنشاهد عدم وجود آلهة أنثى، بنفس العدد والمكانة والقوة والتواجد للآلهة الأنثى في الألف الثاني قبل الميلاد، وهذا يعني تراجع نظرة القداسة – شيئاً فشيئاً – للمرأة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن وضع المرأة لم يكن وضعاً ثابتاً، إذ سنرى أن هناك تفاوتاً في وضعها، قياساً لمستواها الاجتماعي والاقتصادي والفترة الزمنية التي تعيش فيها. لكن الوضع العام للأنثى في هذا العصر، قد تراجع عمّا كان عليه في الألف الثاني قبل الميلاد.

كما سنشاهد في أواخر الحكم الآشوري، الانتقال إلى السلطة البابلية، ومن ثم الدخول في السيطرة الأجنبية الفارسية، وبعدها اليونانية كما رأينا سابقاً، ودخول ثقافة، بل ثقافات جديدة إلى المنطقة، سيكون لها انعكاساتها الكبيرة على المرأة وعلى الوضع العام بشكل كبير، وقد استمر هذا التأثير لزمن طويل جداً.

ولدراسة وضع المرأة الآرامية، لا بد لنا من معرفة المجتمع الآرامي، الذي كان أسوةً بكل مجتمعات الشرق العربي القديم التي رأيناها سابقاً، يُعاني من تفاوتٍ طبقي نتيجة وجود عدة طبقات في المجتمع، وهذه السِّمة هي سمةٌ أساسية لكل مجتمعات الشرق، من أكادية – بابلية – آشورية – مصرية – وصولاً إلى إيبلا وماري وأوغاريت وغيرها.

ففي المجتمع السوري الآرامي، وفي مملكة شمأل (يأدي) كنموذجٍ للدراسة، هذه المملكة التي أسسها الآراميون، بعد أن نزحوا إلى حوض النهر الأسود عندما كانوا بدواً رحلاً.

نشاهد في مملكة شمأل وجودَ طبقتين رئيسيتين، هما: طبقة الموشكابيم، وطبقة البعرريم، وقد كان هناك خلافٌ كبير بينهما، وقد حاول الملك كيلامو حلَّهُ، وقد أفلح في ذلك.

- **طبقة الموشكابيم:** وهي فئة السكان الأصليين، الذين كانوا قبل الآراميين، وهي تشير أيضاً إلى طبقة الفلاحين والحرفيين عامة، وهي طبقة شعبية تُشير إلى عامة الشعب.
- **طبقة البعرريم:** وهي تُشير إلى طبقة الحكام من الآراميين البدو، أو إلى طبقة الغزاة الآراميين، وكانت تُعتبر طبقة من الأفظاظ.

وكذلك نلاحظ وجود طبقة أخرى، هي طبقة العبيد، وهي مُتَضَمَّنة في الطبقة الثانية (الموشكابيم)[٣٤٠]، وفيها عانت النساء كثيراً، فقد كانت تعيش في ظروفٍ سيئةٍ

---

[٣٤٠] – حمود، محمود: الممالك الآرامية السورية، دار روافد للثقافة والفنون، دمشق ٢٠٠٨م، ط ١، ص ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩.

جداً، كما أن النساء، خاصةً، في الطبقات الدنيا كُنَّ عُرضةً للسبي والنهب والبيع والشراء والوضع في السجن، ففي أحد النقوش♣ يتحدث الملك عن أبيه الذي جعله ملك آشور، ملكاً: «فجعله ملكاً على بيت أبيه، وأنهى حجر الدمار من بيت أبيه ... من خزائن (كنوز) بيوت بلاد يأدي من ... وفتح السجون وحرر سجناء – مسبيي – يأدي وقام أبي وحرر النساء» مما يدلُّ على وضعٍ سيءٍ للمرأة في هذه المملكة، وإن لفئةٍ مُحددة.

أما عن الديانة والعقائد في الممالك الآرامية: فإننا لا نعرف الشيء الكثير عن ديانة الآراميين الرُحَّل قبل استقرارهم في مناطق الهلال الخصيب، ولكنهم حينما استقروا في بلاد العمران، اتخذوا بشكل عام الآلهة التي كانت تُعبد في المناطق التي سكنوها، كآلهة بلاد الرافدين، والآلهة الكنعانية الفينيقية وآلهة الحثيين والحوريين وغيرهم. كما أن المعبد الآرامي الذي نعرفه أكثر من غيره وهو معبد هيرابوليس[*]، فالإله المعبود هنا هو (هدد) إله العاصفة، ويُسميه روسيان (زيوس أو زوس) وقد انتشرت عبادة هذا الإله في بلاد الرافدين قبل العصر الآرامي بكثير، ويظهر اسمه منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد في نصوص رأس شمرا (أوغاريت) وهو يمثل إله العاصفة، ويُماثل الإله الحوري تشوب والإله الكنعاني بعل، وقد كان له قرينة في هيرابوليس وهي الإلهة (عتار كاتيس) وهي إلهة الخصب الكبرى المماثلة لعشتار في بلاد الرافدين وعشتروت في بلاد الشام. أما لفظة عن كاتيس، فهي تشويه يوناني

♣ – وهو نقش (برراكب) الذي تم العثور عليه في زنجرلي، ويعود تاريخه لمطلع فترة حكم (برراكب) ٧٣٣ – ٧٢٧ ق.م.

[*] – هي منبج الحالية الواقعة، على بعد ٢٠ كم غربي الفرات إلى الجنوب من مدينة كركميش، وقد كان الآراميون قد احتلوها منذ عهد بعيد.

لكلمة (عتا) التي ليست سوى عناة الإلهة الكنعانية القديمة، وهناك في هيرابوليس عبادة الإله سيميوس، وهو يُكمِّل الثالوث المقدس[٣٤١].

وفي موقعي تل أحمر وأرسلان طاش، نعثر على صور وتماثيل (حدد – تيشوب) وفي حران الواقعة على نهر البليخ، نعثر على وثيقة آشورية يعود تاريخها إلى القرن ٧ ق.م تؤكد عبادة الربة آتارجاتيس (عتار كاتيس)، وفي زنجرلي كتابات آرامية تؤكد عبادة الإله (ريكوب إل) التي تعني عربة الإله إل، وأخيراً يرد في الترتيب الإله شمش، إله الشمس والعدالة المعروف.

والملفت للنظر، خلو مجمع الآلهة الآرامي من أسماء الربّات المعاصرات، فيما يُذكر هناك إلهٌ آخر، هو (بعل حمّان)، وفي منطقة النيرب انتشرت عبادة إله القمر، أما في السفيرة، فقد وردت قائمة من الآلهة، منها: مردوك، زارا بانيت، نيبو، تاشميت، نورجال، لات، شمش، وير، سن، نيكال، ناكا، كاديا، وحدد[٣٤٢].

ومع استمرارنا في دراسة الدين في الممالك الآرامية، نرى التفوق الكبير في عدد الآلهة المذكرة، في مقابل عدد ضئيل من الآلهة المؤنثة، مما يدلُّ – وكما قلنا سابقاً – على تراجع دور المرأة في مُخيلة الآراميين، ونحن نعلم، أن المرء – عادةً – عندما يرفع من مكانةِ شيء، يحاول أن يضعه مع معبوديه، ويجعله يقوم بأعمال، تشابه الأعمال التي يقوم بها الآلهة، وهذا ما شاهدناه في أوغاريت، لكننا هنا نلمس تراجعاً للإلهة الأنثى، باستثناء بسيط لعشتار، وما تُمثله من استمرارية في محيطٍ أوسع من محيط الفكر والعقيدة الآرامية.

---

[٣٤١] – سومر، دوبونت: الآراميون، ت. الآب البير أبونا، منشور في مجلة سومر عدد ١٩، دار الوراق للنشر المحدودة، بغداد، ٢٠٠٧م، ط ١، ص ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.

[٣٤٢] – سومر، دبون: الآراميون، تعريب ناظم الجندي، دار الأماني، طرطوس، سوريا، ١٩٨٨م، ط ١، ص ١٧٧ وما بعدها.

الأسرة الآرامية

لقد كانت العائلة وحدة اجتماعية، يوجدها على الأقل اثنان من شباب الجنسين يتعاونان اجتماعياً، ويقيمان علاقة جنسية تُثمر عن واحدٍ أو أكثر من الأبناء، كما يمكن أن تضم الأب والأم والجد والجدة، وأحياناً أبناء متبنين، وتتصف بمسكنٍ مشترك، واقتصاد وتعاون وإنتاج مشترك. وفي الأسرة الآرامية، كان على الرجال مغادرة المنزل دائماً في سبيل الحصول على الدخل المطلوب لإعالة أسرهم، بينما قامت النساء – كما في النظم الاجتماعية التي سادت في المجتمعات البدائية – بنشاطاتهن الأنثوية الأساسية المعهودة، التي تتمحور على العناية بالأطفال وجرش الحبوب وتحضير الخبز والطعام للأسرة، كما شاركن الرجل في أعمال الزراعة في الحقول والبساتين، هذا بالإضافة إلى ممارستهن لأعمال الحياكة والغزل وصنع الملابس وغيرها، وقد قدمت نقوش السفيرة وتل الفخيرة، الشكل التقليدي للمرأة العاملة في المنزل، ففي أحد نقوش السفيرة، يرد ذكر للمرأة المُرضعة على الشكل التالي: «سبع مرضعات يدهن على أثدائهن ويرضعن طفلاً فلا يشبع» بينما يقدم نقش الفخيرة المرأة والخبّازة، كما يلي: «ومئة امرأة لترضعن طفلاً ولا يُروى ... ومئة امرأة لتخبزن في تنور خبزاً، ولا تملأنه» كما يقدم أحد نصوص (قرة تيبه) امرأة، وهي تمشي وحيدة بمغزلها، في إشارةٍ إلى عمل النساء في الغزل والنسيج.

كما قامت بعض النسوة بالعمل بالتجارة، حيث نلاحظ قيام صفقات تجارية بين سيدات آشوريات ونساء ملكيات أخريات، ظهر من بينهن أسماء نساء آراميات، ويبدو أنهن من بيت زماني، مثل: أدائي، أخي تالي، بارسبيتو[٣٤٣].

ولزيادة معلوماتنا عن الأسرة الأرامية، نرجع إلى د. محمد حرب فرزات، الذي قدَّم معلوماتٍ هامة حول وثائق قانونية آرامية، عُثر عليها في مصر، تتعلق بالعلاقات الشخصية بين أفراد من أصول آرامية مُقيمة في مصر، وذلك في القرن الخامس قبل

---

[٣٤٣] – حمود: الممالك الآرامية، مرجع سابق، ص ٢٦٠ وما بعدها.

الميلاد، وقد تم نشر هذه الوثائق، التي تشمل ثماني رسائل لعائلة آرامية كانت تقيم في أسوان والأقصر، عُثر عليها في هرمو بوليس، ويمكن اعتبار طراز حياة هذه الأسرة اليومية وفي سماتها الأسرية على مثال الأسرات السورية المعاصرة لها في سوريا الشمالية، وبخاصة في مناطق جبل سمعان وحماه ووادي العاصي. وقد احتفظ المجتمع الآرامي في أسوان بمعتقداته التي حملها معه من وطنه الأصلي، فيما بين الرها وجبل سمعان وجبل بركات وكفر نبو. فقد أقاموا معابد ومزارات للأرباب (نبو بن مردوخ)، وبُنيت معابد (ربة الذرية والنبوة عشتار) ملكة شمين (عناة، عشتار) على مثال معابدهم، التي غادروها في بيت أجوشي (أرفاد) وفي حماه ومناطق مختلفة من وادي العاصي.

- لنقرأ مثلاً في إحدى الرسائل: رسالة من مكي بنيت إلى أخته: «حروص قلق على صحتهم ... الآن كل شيء هنا على ما يرام فيما يخص حروص ... لا تقلقي عليه ... أهتم به كما لو كنت أنت تهتمين به وتابيمون وأحت سن تعنيان به، أنت غاضبة لأن أحداً لا يسأل عن حروص، الآن أقول كما أعنى بحروص تعني بنيت بي، لأنه حقيقة حروص هو أخي».
- الأم مضطربة على ابنها، وأخوها يحاول أن يطمئنها، يشهد على صدق كلامه ونيته الربة (نيت عشتار)[٣٤٤].

فقد كانت المرأة تشكل مع الرجل مؤسسة اجتماعية واقتصادية في آن واحد، لذلك نراها تقوم بدورٍ تاريخي في تطور المجتمع وحضارته، لكن، لِقاء ثمنٍ باهظٍ من التعب والجهد والأرق والعرق. كما كان للمرأة في الأسرة، الكثير من الأعمال التي تختص بها، منها، إعداد الطعام والملبس.

[٣٤٤] – فرزات، محمد حرب: صور إنسانية من الحياة اليومية والأسرية في بلاد الشام خلال الألف الأول قبل الميلاد، مجلة التراث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦م العدد ٢٣ نيسان.

وفيما يلي، نذكر نموذجاً عن أسرةٍ أرامية مُقيمة في أسوان، حوالي أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، تستند هذه الدراسة إلى نصوصِ عددٍ من الرسائل، نشرها مراد كامل وادابر تشياني عام ١٩٦٦م ودرسها وترجمها إلى الإنكليزية ب. بورتن عام ١٩٦٨م وإلى الفرنسية ب. غردلو عام ١٩٧٢ م، أرسل هذه الرسائل شخصان هما: مكي بنيت (من كبنيت) وبنيت هي عشتار ربة الخصب والإنجاب والنبوة ونبو شذب (نبو شه = نبو يشذب) من ممفيس إلى أهلهما في أسوان. ولهذه الرسائل قيمة تاريخية كبيرة، فعدا عن محتواها وأسلوبها وخطها، ورد فيها ما يقرب من خمسين من أسماء الأعلام، ولهذه الأسماء أهمية كبيرة في الدلالة على المجتمع، الذي ينحدر منه أصحابها، فهناك أسماء آرامية مركَّبة مع اسم الربة عشتار، مثل: عثر آثار، كما تلفظ بلهجاتٍ مختلفة، مثلاً: أتا أدري = عشتار، عناة أزرى = أدد أدرى = أزرى.

ففي هذه النصوص، نجد أن الأسرة الآرامية التي نتحدث عنها، هي أسرة أبوية تخضع لسلطة الأب الكبير في الأسرة، وهو الجد بسامي ابن نبو نتن، وزوجته هي الجدة ماما، ويخاطب الجد والجدة في الرسالة بكل احترام: خادمك سيدي، وما يزال هذا الخطاب مرعياً في التربية الأسرية الشامية، أما مُرْسِلا الرسائل، فينتميان إلى أسرة واحدة.

- ويرد معنا أيضاً اسم زوجة مكي بنيت، وهي تاشاي (تع نت شي)، ونجد ناناي حم زوجة نبو شذب في أسوان.

وتتضمن هذه الرسائل، ما يمكن أن تواجهه أيّة أسرة في حياتها اليومية، ومن هذه الرسائل:

١ – رسالة مكي بنيت إلى بسامي، إشارةً إلى طلب جلود حيوانات لصنع معطف.

٢ – رسالة من نبو شذب إلى زوجة ناناي حم، تتضمن طلبات وتحيات إلى أفراد الأسرة.

٣ – الرسالة الأخيرة، من رجل إلى أمه، يوصيها برعاية أطفاله.

- نموذج نص رسالة: «سلام على بيت بنيت ... إلى أختي تاشاي، من أخيك مكي بنيت، ليباركك بتاح لأرى نبوشة بخير هنا لا تقلقي عليه، لن أبتعد عن ممفيس، سلامي إلى بسامي وباقي سلامي إلى ناناي حم».
- نص آخر: «سلام على بيت بنيت في أسوان ... إلى سيدي بسامي، خادمك مكي بنيت ... سلامي إلى أمي ممه (ماما) سلامي إلى أخي تباي، إلى زوجته وأولاده ... سلامي إلى رعية، لتكن مطمئنة من جهة حروص...»[٣٤٥].

من خلال هذه النصوص، نرى مدى الإلفة القائمة بين أفراد هذه الأسرة، ومدى مكانة المرأة العالية فيها، على الرغم من أن العائلة الأبوية، هي السائدة فيها، إلا أنها تحترم المرأة، هذه الأسرة، هي انعكاسٌ تام للأسرة الآرامية في سوريا المعاصرة لها والتي جاءت قبلها أيضاً. مما يدلُّ على أهمية المرأة في الأسرة الآرامية، وعلى أهمية المرأة بشكل عام في ذلك المجتمع، الذي يعاني – وبشكلٍ مستمر – من انعدام الأمن، بسبب الحروب المستمرة، وذلك بسبب غنى الآراميين، وطمع الآشوريين بهم، والذي جعلهم يتعرضون دائماً للمخاطر، خاصةً سياسة التهجير، اتبعها الآشوريون، وما لها من انعكاساتٍ خطيرةٍ على المرأة وفقدانها لذويها في كثير من الحالات، فغالباً ما كانت تتعرض للعبودية والأسر والقهر، وتُعامل كأنها تابعٌ للذكر، لا كشريك له.

وبالعودة إلى الحياة الآرامية في سوريا، خاصةً في حالات السلم، نرى أن الآراميين، قد أعطوا المرأة كثيراً من الحقوق، خاصةً فيما يخص الزواج والإرث والطلاق وحق التملك، فتكاد تصل في بعض الحالات لمرحلة المساواة مع الرجل، ويبدو ذلك جلياً من خلال بعض عقود الزواج. إذ لم تكن المرأة فيها مُجرَّد فتاة أمة، أو ابنة رجلٍ حرٍّ فقير، بل مارست دورها الكامل المُعطى لها في مثل هذه المناسبات، ويوجد في العديد من الوثائق الآرامية، خاصةً الآرامية المصرية منها، التي تعود إلى

---

[٣٤٥] – المصدر نفسه: ص ٥٠ حتى ٥٦.

الفترة الفارسية، الكثير من الأدلَّة، التي تُظهِرُ أن النساء عملن كشريكٍ مساو في العقود والاتفاقات، وكان لهن حقوق مستقلة بعد الزواج، ولكن لم يُكشف حتى الآن، عن أي عقد زواج آرامي، في فترةٍ سابقة.

وفيما يلي، نوردِ نموذجاً عن حالةِ زواج، ومتطلباته، وحقوق المُقدمين عليه، من الجنسين، من خلال وثيقتين آراميتين، مضمونهما عقد زواج، جاءتا من مصر:

الوثيقة الأولى

وفيها، كان اسم العريس أسخور، والعروس مبطحية، حيث يبدأ النص بتحديد تاريخ توقيع العقد وفق التقويمين الرافدي والمصري، ثم يذكر اسم العريس ومهنته، وهي البناء، ثم يطلب من والد العروس تزويجه ابنته، وكان والد العروس جندياً في الفرقة العسكرية المُرابطة في أسوان، فيطلب منه مقابل ابنته خمسة شواقل من الفضة، ليطيب قلبه، ثم يأتي العقد وما ستقدمه العروس لهذا الزواج من هدايا شخصية للعريس، وحاجيات لمنزل الزوجية، وهي: مبلغ من النقود الفضية وألبسة صوفية مزركشة، ومرآة وطاسة وكأسان وأبريق، وأدوات أخرى مصنوعة من النحاس وسرير من القصب مُرصَّع بالحجارة وزيت خروع وحذاءان، ثم يبدأ النص بعرض حقوق الطرفين في حال انتهاء الزواج، كما يتضمن النص عدة بنود، منها:

– الأول، ويتعلق بالوفاة، إذ يرث الطرف الذي بقي حياً الطرف المتوفى، ويكون هو الوارث الوحيد في حال عدم وجود أبناء للمتوفى.

– الثاني، ويتعلق بالطلاق وما يترتب عليه من التزامات، إذ يمتلك الطرفان حق طلب الطلاق.

– الثالث، ويتعلق بحماية حقوق الزوجة من أي مطالب مستقبلية قد يقوم بها أي فرد من بيت العريس، أو أن يظهر أمراً لم يخبرها به العريس عند عقد الزواج، إذ تستطيع العروس هنا أن تفرض على العريس أن لا يتزوج من غيرها، وإلاّ سوف يدفع غرامة كبيرة، ثم يكتب العقد بحضور شهود، ويذكر اسم كاتب العقد والشهود.

الوثيقة الثانية

هذه الوثيقة، هي التي تحدد إمكانية الزواج بين الفئات غير المتكافئة اجتماعياً، وقد جاءت على شكلِ وثيقةِ نصٍّ للزواج بين العريس واسمه (عنينة بن عزرية) وهو حرٌّ يعمل خادم الإله في حصن الفيلة، فيما كانت العروس (تموتا) أمة ليست حرة، وقد طلبها العريس من سيدها، لكن العريس في هذه الحالة، لا يُقدِّم أي مهر للعروس كونها أمة، في حين ستجلب هي ثوباً صوفياً وبعض النقود ومرآةً ووعاءً واحداً وزيتاً عطرياً وصينية واحدة. وفي الجزء الثاني من الوثيقة، يتبين لنا حقوق الطرفين في طلب الطلاق.

نستنتج من خلال النصين السابقين، أن كل شروط الزواج يجب أن تُكتب في العقد، ويجب الالتزام بها فيما بعد، فكان على الذي يرغب في الطلاق، أن يدفع مبلغاً مادياً إذا رغب في ذلك، مقابل دفعه لمبلغ مادي مُتفق عليه في العقد.

وإننا، حينما أوردنا في بداية هذا الفصل، على أن وضع المرأة، قد تراجع، فهذا يعني بالمقارنة مع أوضاعها في الألف الثاني قبل الميلاد، وفي حواضر زاهية كإيبلا وماري وأوغاريت، لكن، إذا ما أردنا تقييم وضعها في الألف الأول قبل الميلاد، أثناء حكم الآراميين، فيكون حكمنا عليه، بأنه وضعٌ جيدٌ جداً قياساً للعصر، وقياساً أيضاً لظروف المرأة الحالية المعاصرة لها، وما أدل على ذلك، سوى قراءة النص الأول السابق، الذي – ربما – تحلم به معظم نساء عصرنا، وكذلك بالمقارنة مع أوضاع المرأة لاحقاً، خاصةً في فترات الانحطاط الكبرى، في العصر الإسلامي.

وبالعودة إلى أوضاع الزواج عند الآراميين، فقد كان الزواج السياسي موجوداً لديهم، أسوةً بباقي الممالك الأخرى، فكان الملوك والأمراء الآراميون يتزوجون من نساء الممالك الأخرى ويعطونهم بناتهم، كما زوَّج الآشوريون المعاصرون لهم بناتهم من ملوك إقليميين (آراميين وغيرهم) بهدف فرض هيمنتهم على هؤلاء الملوك، أو بهدف كسب حلفاء لهم في أماكن متوترة، فقد زوَّج الملك الآشوري شاروكين الثاني ٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م ابنته الأميرة آخاتابيشا من ولي عهد طابال، الأمير أمباريس، الذي جلس

على العرش مكان والده خولي، كما تزوج الملوك الآشوريون من أميرات أجنبيات، كزواج شمشي حدد الخامس ٨٢٣ – ٨١٠ ق.م من الأميرة الآشورية (وربما البابلية) سمورامات، وزواج سنحاريب ٧٠٥ – ٦٨١ ق.م من زاكوتو (الطاهرة النقية) وهي من أصل آرامي[٣٤٦].

إن هذه الحقوق، التي أُعطيت للمرأة من خلال عقود الزواج وضمان حقوقها، يؤكد على أن وضع المرأة عندما قلنا بأنه تراجع، فإنه تراجع قياساً بالمراحل السابقة، وفي بعض الحالات، لأن موضوع المرأة ليس موضوعاً قياسياً رياضياً دقيقاً، يُحكم عليه بدقةٍ عالية، بل موضوع نسبي، فوضع المرأة بشكل عام في الفترة الآرامية، كان جيداً، ولكنه قياساً بالألف الثاني قبل الميلاد، قد تراجع نسبياً، فإننا لم نعد نعثر على تماثيل كثيرة للمرأة، ولم نعد نرى آلهة أنثوية بنفس السوية السابقة، وهنا قلنا أن وضع المرأة، قد تراجع، خاصةً على مستوى رفعة المرأة إلى مستوى الآلهة، كما كان يحدث سابقاً، إلا أن وضع المرأة الاجتماعي، مازال يُحافظ على بعض مكانته، وإنه في بعض الحالات – ربما – تفوَّق على السابق، فوضع المرأة الآرامية أفضل بكثير من وضع المرأة الآشورية في الألف الثاني قبل الميلاد مثلاً!!!.

وهنا، سنورد بعض الأمثلة، على أن المرأة الآرامية، كان لها الحق بالبيع والشراء والإرث والتملك، وذلك من خلال بعض النصوص، التي عثر عليها في أسوان في مصر، التي كما قلنا سابقاً، ما هي إلا انعكاسٌ لِما كان يحدث في بلاد الشام.

ففي وثيقةٍ تعود إلى عام ٤٠٢ ق.م، نجد أنها تتضمن: بيع بيت عائلي بيعاً نهائياً، بين طرفين، هما (عنان بن عزريا) وقرينته (تابيمون) وصهرها (عنانيا بن حجي) الذي اشترى منهما الجزء الباقي من البيت.

وفي وثيقةٍ أخرى، أقدم بحوالي ٣٥ سنة من الوثيقة السابقة، نرى كيف منح الأب العجوز نصفَ ما يملك من الدار لزوجته.

---

٣٤٦ – حمود: الممالك الآرامية، مرجع سابق، ص ٢٦٣ وما بعدها.

كما تمَّ العثور أيضاً نصٍّ حول عقد تمليك بيت، يقول: «ماحسيا يمنح ابنته مبتاحية بيتاً»[٣٤٧].

وقد كانت هذه العقود جميعها تُدوَّن وبأدق التفاصيل، التي تثبت أن للمرأة حقوقاً بالإرث والتملك والبيع والشراء، وهذا ما فقدته معظم نساء عصرنا بعد أكثر من ٢٥٠٠ سنة تقريباً.

لقد تفاوت وضع المرأة في المجتمع الآرامي أسوةً بباقي المجتمعات، فبينما نراها تعيش حياة الرغد والسعادة في القصور التي كانت عامرة دائماً بالولائم والمناسبات والأعياد، التي كان يُدعى إليها الكثير من الأعيان، والتي احتوت على ما لذَّ وطاب من الأطعمة والشراب، والتي كانت تشهد حضور المنشدين والموسيقيين من رجال ونساء، إضافة للراقصات، وقد عزف هؤلاء على آلات موسيقية مختلفة، صُوِّرَ البعض منها على الأعمال الفنية، حيث يُعدُّ موضوع الموسيقيين الذين يعزفون على آلات مختلفة شائعة في منحوتات سوريا الشمالية، وهي معروفة لنا في زنجرلي ومرعش وتل رفعت. ومن النماذج المعروفة: رجل يعزف على القيثارة، وامرأة ترتدي فستاناً طويلاً تعزف على الدف، وأخرى تعزف على آلة الفلوت، والرابعة لم يتم التعرف على نوع الآلة التي تعزف عليها بسبب فقدان جزء من المنحوتة.

وقد نرى المرأة إلى جانب هذه الحياة الرغيدة، قد تؤسر وتعاني من العبودية وتعيش حياة الفقر والذل والحرمان.

أما عن لباس المرأة، فقد كان للنساء الآراميات أثوابٌ متنوعةٌ، فتظهر من خلال الأعمال الفنية السابقة، وهي ترتدي ثوباً وعلى رأسها قبعة مزركشة، تزين بالحلي كالأطواق والأساور والخلاخيل، وقد صُوِّرت المرأة في عاجيات أرسلان طاش وقد بان شعرها الكثيف المُخصَّل، الذي يتدلى على جانبي الرأس خلف الأذنين حسب الطريقة المصرية، وهي تتزين بحلية فوق الجبهة، وبقرطين من الصنف الذي شاع استعماله

---

[٣٤٧] – فرزات، محمد حرب: الآراميون والملكية العقارية في المجتمع الآرامي في القرن الخامس قبل الميلاد من خلال وثائق آرامية، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان ٣٥ – ٣٦، عام ١٩٩٠م.

في القرن التاسع قبل الميلاد[٣٤٨]، وللنساء أيضاً أثوابٌ متنوعة من الكتان، منها ثوب يصنع من قطعتين أو أكثر ويغطي الكتفين، كان مكسَّراً أو مثنى ومزيناً بحواش، وتضع النساء القلانس الطويلة والمرتفعة وفوقها منديل طويل قد يُستخدم نِقاباً أو حجاباً، وانتشر لبس السراويل الواسعة في العصر الفارسي في كل ولايات الإمبراطورية الفارسية ومرزباناتها منذ القرن السادس قبل الميلاد.

إن الحالة الوحيدة التي استطعت العثور عليها، والتي تعطي المرأة الإلهة قوةً ومكانة، وتذكرنا بقوة ومكانة الإلهة عناة، التي مرَّت معنا في أوغاريت أو عشتار البابلية، فهي، الربة شبتي، التي اعتقد الآراميون أنها من الجن، والتي لها قوى سحرية رهيبة وتعود للقرن الثامن قبل الميلاد، فقد كانت تستطيع أن تُطلق اللعنات التي تحطم من ينقض العقود المعقودة بين (متع إل) ملك أرفاد الآرامي وبين برجاية ملك كتك، وجاء فيها:

لِتُلقح سبعة كباشٍ نعجةً فلا تحمل
ولتُرضع سبعُ مرضعاتٍ ولداً فلا تُشبِعنَهُ
ولتُرضع سبعُ أفراس مهراً فلا تشبعنه
ولترضع سبعُ بقراتٍ عجلاً فلا تشبعنه
ولترضع سبعُ نِعاج حملاً فلا تشبعنه
ولئن خانت أرفاد عهودها:
ليلتهم الجراد زرعها سبع سنين
وليأكل الدود ثمرها سبع سنين
وليعم فيها القحط، ولا نبت ولا عشب
ولا ظهرت على وجه أرضٍ ورقة خضراء[٣٤٩].

---

[٣٤٨] – حمود: الممالك الآرامية، مرجع سابق، ص ٢٧٤ وما بعدها.

[٣٤٩] – فرزات: صور إنسانية، مجلة التراث، مرجع سابق، ص ٤٤، ٤٩.

وهكذا نرى المرأة الإلهة قويةً تحطم من يخالف العهد، حريصة على الوفاء بالعهود والعقود، وهذه صفة إيجابية تضاف إلى المرأة الآرامية الأخرى.

المرأة الآرامية في الفن

إنك عندما تُنقب عن آثار الآراميين، فإنك سوف تجد أن المنحوتات التي تخصُّ الذكور تتفوق بكثيرٍ على المنحوتات الأنثوية، إن على صعيد الآلهة المذكرة مقابل الآلهة المؤنثة، أو على صعيد الناس العاديين، فتماثيل الذكور متفوِّقة في عددها على تماثيل الإناث، وذلك يتوافق مع طغيان المجتمع الذكوري وسيطرته على مقاليد الأمور، إن على صعيد السياسة أو على صعيد الاقتصاد والمجتمع، لكننا نلحظ بعض الاستثناءات القليلة، التي ربما تُعبِّر عن بعض التواجد الأنثوي المقاوم والجيد بمقاييسنا الحالية، ولكنه يُعبر عن تراجعٍ نسبي قياساً بما وجدناه في العصور السابقة.

ولعل التماثيل التي تُشكل واجهة أحد القصور في تل حلف، تُعتبر من أضخم التماثيل الآرامية التي تعود إلى نهاية القرن العاشر وبداية القرن التاسع قبل الميلاد، وهي تماثيل ارتفاعها ٢,٧٥ م، اثنان منها يمثلان رجلين أحدهما يقف على سبع وآخر يقف على ثور بينما الثالث يُمثل امرأة تقف على لبوة ويبلغ ارتفاع كل حيوان ١,٥٥م.

ولعل مقارنة بسيطة بين هذه المنحوتات، تكشف الخصائص المشتركة لها، والتي تتجلى في اعتمادها على الموضوعات الدينية، التي تُجسِّد الربة عشتار إلى جانب الملوك والرموز الحيوانية – بالمعتقدات الدينية – كالأسد والثور[٣٥٠]، وخاصة

---

[٣٥٠] – البني، طاهر: ذاكرة الفن التشكيلي في سوريا، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤م، ج ١، ص ٤٢.

عندما نرى تمثال المرأة وهي تقف على لبوةٍ، بما تُمثله – اللبوة – من قوة وعنفوان. وقد كانت هذه المرأة ترتدي ثوباً طويلاً يُبرِزُ الأرداف والثديان من تحته، فيبدو وكأنه رقيق، وتضع على رأسها قبعة مزركشة، تشبه لباس رأس دمية عاجية لامرأة من مجدّو، تتزين بالحلي كالأطواق والأساور والخلاخيل.

كذلك عثر في جوزانا على تمثالين، أحدهما لامرأة جالسة، والآخر لرجل جالس في مدفن قرب البوابة الجنوبية للحي الملكي، وعلى تمثال لرجل وامرأة جالسين بجانب بعضهما في حجرة عبادة قريبة من المدفن، ويبدو أن وجودهما في هذا المكان، له مغزى ديني، فقد كان من عادة الآراميين وضع صور في المدفن للأشخاص الكبار في القوم، تُمثلهم وهم يجلسون إلى المائدة مثلاً، وتفسير ذلك أن التمثال ينوب عن الجسد الفاني، وفيه – وبوساطته – يبقى الميت حياً.

وعثر أيضاً في تل حلف (جوزان) على تمثال كبير لكاهنة آرامية واقفة وهو يعود للقرن ٩ ق.م، وهي تضم إحدى يديها إلى صدرها وتمسك بالأخرى محفظة، ترتدي عباءةً وسروالاً، كما تضع على رأسها تاجاً مزيناً بوردة وزهرة اللوتس ضمن مستطيلات، وشعرها مُسرَّح طولانياً، وعيناها كبيرتان بيضاوان، وتُزين رقبتها بستةِ أطواق بشكل حبيبات، وعلى الجانب الأيسر من التمثال، كتابةٌ آرامية.

كذلك عثر في تل حلف (جوزان) على تمثال لامرأة آرامية يعود للقرن ٩ ق.م، وهي جالسةٌ على مقعد مزخرف، تحمل بيدها اليمنى كأساً، تسندها على الفخذ الأيمن، وتضع اليد اليسرى على الفخذ الأيسر، شعرها مصففٌ، يسترسل إلى الخلف، وتضع على رأسها عصابة، ويزين جيدها ثلاثة أطواق.

وعثر في تل حلف (جوزان) على تمثال جنائزي يعود للقرن ٩ ق.م لإحدى سيدات الأسرة الحاكمة في مملكة جوزان الآرامية، وهي جالسةٌ على كرسي ذي مسند خلفي عال، تضع قدميها فوق عارضة بارزة، شعرها مضفورٌ، تنسدل منه ضفيرتان على الصدر، وهي ترتدي ثوباً طويلاً فضفاضاً مزركشاً عند حاشيته، وتحمل بيدها اليمنى كأساً تسندها على الفخذ الأيمن، وتضع اليد اليسرى على الفخذ الأيسر.

كما عثر في تل برسيب على رقيّم مسماري، يُظهر دور السيدة (شاكنتو) التي كانت تدير شؤون القصر والتجارة، وفي نهاية هذه الوثيقة (الرقيم) نجدها تشتري عبداً بحضور شهود من مدنٍ بعيدة (تابال وحماه وساماريا) واللوحة مؤرخة ٦٣٦ ق.م ومكتوبة بالخط الآشوري الحديث.

كذلك عثر في تل أحمر (تل برسيب) على لوحة من الفخار تعود للقرن ٧ ق.م مُثِّل عليها امرأة مرفوعة الشعر، يتدلى من جانبها جديلتان على أكتافها، وتمسك في حذاء صدرها، وبيديها الاثنتين قرصاً اسطوانياً، وربما أُريد به الرق (الموسيقى)، كما ترتدي ثوباً طويلاً يغطي أرجلها، وهو مزركشٌ بأشكالٍ هندسية على شكل معين[٣٥١]. وفي مدينة شمأل، نجد في لوحات الباب الخارجي للحصن، والتي يزيد عددها عن الثلاثين، وقد رُسمت على سطوحها مشاهد متنوعة لا ترابط بينها، ومنها نرى مشهداً لامرأة ومرآتها بيدها، مما يدل على اهتمام المرأة بجمالها وحسنها. وفي عين دارا، عثر على لوحة بازلتية، نُقشت عليها صورة عشتار المحاربة، وتُعتبر هذه اللوحة من نفائس المنحوتات في عين دارا، ورغم أن الربة مُدججةٌ بالسلاح، تبدو بملابسها المتنوعة والمزركشة، كأنها عروس فاتنة.

وفي مجموعة خداتو (أرسلان طاش) صوِّرت المرأة على شكلٍ لم نألفه من قبل، فهي تُطل من نافذةٍ عميقة ذات أطر ثلاثة متتابعة، ولم يظهر منها سوى رأسها، شعرها وفير مُخصل، ويتدلى على جانبي الرأس خلف الأذنين حسب الطريقة المصرية، وتتزين بحلية فوق الجبهة وبقرطين من الصنف الذي شاع استعماله في القرن ٩ ق.م، وملامح وجهها ملامحُ وجه فتاة يُظن أنها الشيطانة كيليلو، التي توصف بأنها تراقب من النوافذ، وأنها الوصيفة الأولى لعشتار، وإلى جانب هذا النموذج صوِّرت المرأة مجنحة أو بدون جناح، ترتدي على رأسها التاج المصري المزدوج، وتمسك زنبقة بكل يد، وتشارك في مشهد ولادة رب الشمس حسب الطريقة

---

[٣٥١] – متحف حلب، معرض المرأة السورية، مرجع سابق، ص ٩١ وما بعدها.

المصرية، ويتألف المشهد من ربتين مُجنحتين تحيطان كدايتين بنبتة الزنبق التي يجلس على زهرتها رب الشمس اليافع، وهذا المشهد تعبيرٌ عن المعتقد المصري، أن رب الشمس يولد كل صباح من تفتح برعم زهرة الزنبق، والتأثير المصري لا يظهر في هذه القطع فحسب، بل أيضاً بالقطع المزوَّقة بأبي الهول[٣٥٢].

وكذلك تم العثور في تل حمصي غرب مدينة سلمية، على رأس تمثال لامرأة تضع على رأسها شالاً يُشبه ما يُسمى بالعصبة (السلمونية) نسبة إلى مدينة سلمية*.

نرى من خلال جميع هذه المنحوتات، أن المرأة الآرامية لعبت معظم أدوار المرأة في الشرق، فهي بقوة عشتار وعناة، وهي المربية الفاضلة والعاملة داخل المنزل وخارجه، راقصة وعازفة ومالكة ووارثة، وهي الجميلة التي ترتدي أفضل وأجمل الثياب، وبالمقابل فهي أسيرةٌ عبدةٌ مسلوبةَ الإرادة والحق، تُباع وتُشترى.

ويمكننا أن نعتبر المرأة الآرامية نموذجاً حيّاً للمرأة في الألف الأول ق.م، وإن التغيرات التي ستطرأ عليها في فترة التدخل الأجنبي شكليةٌ فقط، لأنها حافظت على تقاليدها ومظهرها، خاصةً في الريف، بعيداً عن الاختلاط بالنساء الأجنبيات، كما سنرى لاحقاً.

لكن وقبل نهاية هذا الفصل، والانتقال لدراسة أوضاع المرأة العربية في ظل السيطرة الأجنبية (الفارسية واليونانية والرومانية – البيزنطية) أجد أنه لا بد من الانتقال لدراسة أوضاع المرأة في قرطاجة، على الرغم من أنها تقع خارج مجال البحث (جغرافياً)، لكن، ولِما لها من أهمية، وعلى اعتبارها ابنة إحدى المدن الشامية (صور) فقد رأيت أن أُسلِّط الضوء، ولو قليلاً على شخصية هامة جداً فيها، ألا وهي شخصية الأميرة إليسّا الصّورية.

---

[٣٥٢] – أبو عساف، علي: الآراميون تاريخياً ولغة وفناً، دار الأماني للطباعة والنشر ط ١، طرطوس سوريا، ١٩٨٨ م.

* – هذه العصبة ما تزال مُستعملة حتى الآن في هذه المنطقة.

الملكة إليسّا وقرطاجة

تُعد إليسّا مؤسسة مدينة قرطاجة، التي بنيت شمال أفريقية*، وتقول القصة إن ملك صور عيَّن ابنه بغماليون وابنته إليسّا وريثين له. لكن الشعب أراد – على الرغم من ذلك – أن يُحكم من قِبل الأمير الشاب فقط؟ وذلك لعدم تقبُّله فكرة حكمه من قبل امرأة، لذلك فقد عملت إليسّا على استعادة شرعية حُكمها، بأن تزوجت من عمها أكيرباس، الذي كان كاهناً للإله هيركوليس (ملقارت) وكان يحظى بمكانةٍ عالية في المدينة، وكانت مكانته تأتي في المرتبة الثانية بعد الملك، لكن بغماليون قتله بسبب غِناه، وحاول القبض على إليسّا، التي استطاعت بذكائها الهروب عبر البحر برفقة بعض الرجال[٣٥٣] تبحث لها عن مكانٍ تقيم فيه. وقد كانت إليسّا ذات شخصية قيادية ذكية ولديها سرعة بديهة، وكان البعض يُطلق عليها اسم جونو، ومن هنا جاءت تسمية (كرت جونو) أو قرية جونو، والتي ستصبح فيما بعد تُعرف باسم قرطاجة، فيما كان البعض الآخر يُطلق عليها اسم (عليشة ديدو) والذي يعني – المقطع الأخير منه – (اللاجئة)، أما مقطعه ، فغير واضح الأصل والمعنى[٣٥٤]. وقد استطاعت إليسّا أو عليشة ديدو تأسيس مدينة قرطاجة عام ٨١٤ ق.م بمحاذاة الساحل التونسي، والتي أصبحت – أي إليسّا – إلهة المدينة الحارسة أو الشفيعة، والتي أصبحت مركزاً فينيقياً تنبعث منه مختلف التيارات الحضارية غرب المتوسط، كما نمت تجارتها واتسعت في القرن ٨ ق.م بحيث أصبحت المنافسة القوية لمدن البلاد الأم، التي شارفت في هذه

---

* – حالياً على الساحل التونسي.

[٣٥٣] – إلليغر، فينفريد: قرطاجة – مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ت. عيد مرعي، دار روافد للثقافة والفنون، دمشق، ٢٠٠٨م، ط ١، ص ٤٢.

[٣٥٤] – أحمد، علي: تاريخ المغرب العربي الإسلامي، دمشق، ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥م، ط ٥، ص ١٩.

الحقبة على الأفول والزوال[355] تاركةً لقرطاجة مهمّة إكمال مسيرة السيطرة التجارية الكاملة على المتوسط، وبذلك تكون إليسّا، قد أسست مدينة أصبحت عاصمة لإمبراطورية حضارية سيطرت فيما بعد على البحر بأكمله، وجعلته بحيرة قرطاجية، مما أدخلها في صراعٍ مرير مع اليونان، ومن ثم الرومان، فيما سُمِّيَ بالحروب البونية الثلاث، التي انتهت بزوال قرطاجة عن الوجود عام ١٤٦ ق.م على يد الآلة العسكرية الرومانية، التي نهجت منهج حضارة القوة، في صراعها مع قوة الحضارة القرطاجية، وبذلك تكون إليسّا قد قدمت أفضل النماذج للمرأة القائدة المؤسسة للمدن والدول، والتي شغلت فترة لا تقل عن حوالي ستة قرون، أعطت فيها العالم القديم أفضل النماذج للحضارة الإنسانية، عبر إعطاء المرأة فيها مكانة رفيعة، تجلَّت في شخصية مؤسستها إليسّا، وفي شخصية إليسّا أخرى، وهي آخر ملكة حكمت قرطاجة بعدما تخاذل زوجها عزربعل واستسلامه أمام الرومان، مُعطية للرومان درساً في الأخلاق، ففعلت كما فعلت جدتها إليسّا الأم، بأن قتلت نفسها، مُفضلةً ذلك على الوقوع بأيدي الرومان كأسيرة، وقد كانت إليسّا الأولى (الأم) قد قتلت نفسها مُفضلةً الموت أيضاً، على الزواج من ملك لا يستحقها.

كذلك تجلت مكانة المرأة في قرطاجة من خلال النقوش، ومنها الموجودة في قرطاج، والتي كانت تكريساً على شرف الشخصيتين الإلهيتين الكبيرتين، واسم المُكرَّس مع لقب عائلته، والتي تشير أحياناً إلى مهنته وتنتهي غالباً بصيغة تبريك، ومن هذه الأمثلة القادمة من (سالامبو) المدينة القرطاجية: «إلى الربة تانيت ... وجه بعل، وإلى السيد بعل حمّون، ما نذرته إيشا تبعل ابنة كركين، لأنه سمع صوتها وسيباركها».

فقد تحولت عشتار الشامية والرافدية إلى تانيت القرطاجية، فهي ربة الخصب والعطاء، التي تمثل بوجودها هناك المرأة بزهوتها ومكانتها العالية، وقد اضطلعت

[355] – الخطيب، محمد: الحضارة الفينيقية، دار علاء الدين، سوريا، دمشق ٢٠٠٦م، ط ١، ص ٧٧، ٧٨.

تانيت بالوظائف نفسها التي كانت لعشتار إلهة الخصب الكنعانية، كما أنها مساوية لهيرا، التي لعبت دوراً مشابهاً في إيطاليا الجنوبية (اليونان الكبرى)، كما أن الرومان طابقوها من جهة أخرى مع جونون كايليستيس سيدة مستوطنة قرطاجة الأيونية. ومما يؤكد على أن تانيت كانت تمثل في بادئ الأمر الأم التي توزع الخصب، وجود نصبٍ تذكاري في الحفرة الواقعة بالقرب من القسطنطينية، يقول النص: «إلى بعل، وإلى تانيت وجه بعل، وإلى ذريتيهما»، كما أن رمز تانيت المعروف* يُعبر عن الشخصية الإلهية الرفيعة لهذه الربة في علاقتها مع العالم.

لقد كانت المرأة في قرطاجة، تضطلع بكافة المناصب التي يشغلها الذكور عادة، ومنها المناصب الدينية، فقد دلَّت شواهد القبور والنذور في قرطاجة على وجود كاهنات، ففي بعض الحالات يحدد النقش شخصية الإله، الذي كان هذا الكاهن مُكرساً له، كأن يكونوا كهنةً لبعل شمين، أو كاهنات لربة. كما دلت الوثائق إلى أن الرتب الدينية العليا، أمثال رئيس الكهان أو الكاهن الكبير، يمكن أن تحمله امرأة[٣٥٦].

ولكي نؤكد على الشخصية الأدبية العالمة للأنثى القرطاجية، فيكفي أن نذكر، أنه عندما أُسِرَ سيفاكس النوميدي حليف عزر بعل القائد القرطاجي وزوج ابنته عام ٢٠٣ ق.م – وكانت صبيّة تتمتع بثقافةٍ أدبية موسيقية عالية – كانت قد توسلت إلى ماسينيسّا القائد النوميدي وحليف سكيبيون، لكي يتزوجها، كي لا تقع في الأسر، وقد تم الزواج، لكنها خشيت من تسليمها إلى الرومان، فآثرت على نفسها الموت، فقامت بشرب كأس السُّم الذي قدمه إليها ماسينيسّا.

وكذلك فقد ذُكر أنه، وبعد وفاة البطل حنا بعل عام ١٧٩ ق.م وبعد هزيمته بالحرب البونية الثانية في معركة زاما ٢٠٢ ق.م، جاء حفيده حنّا بعل بن يتني بعل،

---

* – رمز الإلهة تانيت.

٣٥٦ – دوكريه، فرانسوا: قرطاجة الحضارة والتاريخ، ت. يوسف شلب الشام، دار طلاس للطباعة والنشر، دمشق ١٩٩٤م، ط ١، ص ١١٥، ١١٦، ١١٨.

وقد كانت أمُّه، ملكةً ذات فضل وجاه، فقد ذكر د. بهجت القبيسي في كتابه الموسوم بـ (الكنعانيون والآراميون في الإمبراطورية الرومانية، ص ١٣٤) أن هناك نقشاً يُدعى نقش (مسنّ سنهم) والذي جاء بمثابة إعلان عملية تنصيب لحفيد حنّا بعل، ويذكر النقش أنه: «أن الملكة أم حنّا ابن يتني بعل بن حنا بعل، هي ملكةٌ ابنة ملوك، ملكة الجيوش (ربة مئات)...» وفي مكان آخر من النقش يذكر أن: ((الملكة ذات الخيرات والبناء)). وهذا دليل آخر على عظمة نساء قرطاجة وقيامهن بالحكم نيابة عن الذكور أحياناً.

وفي الختام، نذكر مرة أخرى أن الملكة إليسّا، وهي الأميرة الصورية وزوجة عزر بعل، أنها قامت عام ١٤٦ ق.م بمقاومة جيوش الرومان، بعدما تخاذل زوجها عزر بعل أمامهم، وعندما فقدت إليسّا الأمل، قررت الموت على أن تسلم نفسها للرومان، فقامت برمي ولديها إلى النار، ثم رمت بنفسها هي، بعد أن كانت قد تزينت بأحسن زينتها كأنها في يوم عيد[٣٥٧] ، وبذلك تكون قرطاجة، قد قدمت لنا الأمثولات الكثيرة عن النساء، اللواتي فضلن الموت عن حياة الذل والهوان، وهذا، إن دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على المنبت الأصيل لتلك النساء ورفعتهن.

---

٣٥٧ – المصدر نفسه: ص ١٨١، ١٩٣.

الشاعرة بيلتي

وهنا، وما دمنا نتحدث عن المنبت الأصيل على الساحل الشامي الكنعاني الفينيقي لنساء قرطاجة، وقبل ختام فصلنا، نستذكر شاعرة كنعانية فينيقية عاشت حياةً مليئةً بالأحداث، مثلتها في أشعارها الشجيّة، وهي **الشاعرة بيلتي،** ذات الاسم الفينيقي، وقد كانت بيلتي قد وُلدت في بداية القرن السادس قبل الميلاد في قرية جبلية تقع على أطراف نهر ميلاس شرقي بامفيليا، وهي منطقة غابات تُشرف على جبال طوروس، وكانت أمها فينيقية، ووالدها يوناني، لذا فقد حملت اسماً فينيقياً، بمعنى (سيدتي)، وقد عاشت بيلتي على هذه الأرض، حياةً هادئة مع أخواتها، حيث كان الرعاة يرعون قطعانهم على منحدرات طوروس المكتظة بالغابات، ثم رحلت بيلتي إلى مثلينا (لسبوس القديمة) في السادسة عشرة من عمرها، وصادفت فتاة جميلة من عمرها اسمها (منا سيديكا) ثم انتقلت إلى جزيرة قبرص، وبعد أن شاخت بدأت تغني لنفسها ذكريات طفولتها البعيدة، ولا نعلم في أي سنٍّ ماتت، وهنا سنورد بعض النماذج من شعرها:

مناجاة أم

تغسلني أمي في العتمة
وتُلبسني وضح النهار
وتسرحني في النور
وإذا ما خرجت تحت ضوء القمر
فإنها تشدُّ لي حزامي
وتعقده عقدةً مضاعفةً، وتقول لي
العبي مع العذارى وارقصي مع الأطفال الصغار
ولا تنظري من النافذة

ابتعدي عن حديث الشباب

ولا تثقي بالأرامل

وفي قصيدة بعنوان:

بيلتي

تتشح امرأة، بالصوف الأبيض وأخرى بالحرير والذهب

وثالثة تتغطى بالزهر...

بأوراق العنب الخضراء

وأنا لا أعرف أن أتمشى إلا عارية...

فخذني يا حبيبي كما أنا

بلا ثوبٍ، ولا حلي، ولا خفٍّ

فها هي بيلتي مجردة

شعري أسود بذاته

وشفتاي حمراوان بطبيعتهما

وجدائلي تتموج حولي طليقةً

دائرة كالريش

خذني كما خلقتني أمي في ليلةِ حبٍّ بعيداً

وإذا كنت أرضيك هكذا

فلا تنس أن تقول لي![٣٥٨].

---

[٣٥٨] – بشور، وديع: مبدعون سوريون في تاريخ الإنسانية، مكتبة بالميرا، اللاذقية، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ٢٨، ٣١، ٣٤.

الفصل العاشر

المرأة العربية في ظل السيطرة الأجنبية
(الفارسية – اليونانية – الرومانية – البيزنطية)

المرأة العربية في ظل السيطرة الفارسية

لقد استطاع الفرس دخول بلادنا بعدما قضوا على الدولة الكلدانية (البابلية الثانية) عام ٥٣٩ ق.م، ومن ثم اتجهوا إلى سوريا ومنها إلى مصر، التي احتلها قمبيز عام ٥٢٥ ق.م وبذلك أصبحت بلاد الشام والرافدين ومصر تحت سيطرة الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، التي أسسها الملك قورش الشهير.

لقد قُسمت هذه الدولة الكبيرة إلى عدة ولايات (ساترابات) يحكم كلّاً منها ساتراب أو والٍ، إلا أن الدولة الفارسية بقيادتها، اتبعت سياسة عدم التدخل في الشؤون الاجتماعية والدينية للسكان الأصليين، تاركةً لهم متابعة طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ودياناتهم، مقابل الاعتراف بالتبعية للفرس. لذلك فقد حافظت المرأة العربية على سلوكها، وبقيت عربية في حياتها وعقيدتها وكأن شيئا لم يحصل، وإن حصل بعض التأثير، فإنه كان تأثيراً بسيطاً جداً، تجلى فقط في المدن التي كانت على احتكاك مباشر مع الإدارة الفارسية، فتأثرت بها وأثرت فيها، لكن هذا التأثير بقي على نطاق محدود، وكاد ينعدم في الريف، لأن سكانه كانوا بعيدين نوعاً ما عن المؤثرات الجديدة، فبقيت المرأة الريفية على حالها كما سبق ورأينا في الفترات السابقة، خاصة وإن سكان الريف بقوا بعيدين عن الفرس، أصحاب السلطة والنفوذ.

المرأة العربية في ظل السيطرة اليونانية (المقدونية)

في عام ٣٣٣ ق.م انتصر الإسكندر المقدوني على داريوس الثالث آخر ملوك الفرس في معركة إيسوس، وبذلك فُتحت أمامه أبواب سوريا، ومن ثم مصر، وبالتالي استطاع القضاء على الإمبراطورية الفارسية، وذلك عندما اتجه شرقاً حتى وصل إلى الهند وقضى عليها نهائياً، ولكنه عندما عاد إلى بابل توفي فجأة فيها عام ٣٢٣ ق.م مما أدى إلى حدوث صراع بين قادته للحصول على السلطة، وقد انتهى هذا الصراع إلى تقسيم الإمبراطورية المقدونية عدة أقسام، فكانت سوريا من نصيب سلوقس الأول نيكاتور، وكانت مصر من نصيب بطليموس، وقد قام سلوقس ببناء العديد من المدن، منها: اللاذقية وأنطاكية وسلوقية وأفاميا وغيرها، مما أدى إلى انقسام السكان إلى فئتين، فئة تسكن المدن، خاصة التي بناها سلوقس، وكان فيها عدة طبقات من اليونانيين والمقدونيين ومن الفرس، وكذلك من السكان الأصليين الذين عاشوا في أحياء خاصة بهم. أما الفئة الثانية، فهي التي عاشت في الأرياف، وكان سكانها هم السكان الأصليون للبلاد، وقد بقوا بعيدين عن التأثيرات الإغريقية.

وتحدثنا بعض المصادر، ليس فقط عن ابتعاد هذه الطبقة الدنيا بوجه عام عن التأثيرات الإغريقية، بل أيضاً عن نمو تدريجي مطَّرد بعداء شديد بين هؤلاء المواطنين، وبخاصة الريفيين منهم، وبين إغريق المدن، ولما كان الدين أقوى عامل في حياة هؤلاء الوطنيين، وأبرز مظهر لقوميتهم، فإن بغضهم للأجانب، حفَّزهم على التمسك بديانتهم وطقوسهم وعاداتهم تمسكاً شديداً، وعلى محاربة الآلهة الأجنبية التي عبدت في المدن، حرباً لا هوادة فيها، وإن دل هذا على شيء، فإنه يدل – قطعاً – على التمسك بالطقوس اليومية والعادات والتقاليد بما فيها مكانة المرأة.

لكن، بقي هناك بعض الفئات الاجتماعية، ممن اضطروا للتعامل مع الإغريق والتأثر بهم، وهم أولئك التجار، الذين كانوا كثيري التعامل والاختلاط مع الإغريق، مما اقتضاهم تعلّم الإغريقية، وربما أدى بهم أيضاً إلى اقتباس بعض المظاهر

الإغريقية. وهناك فئة أخرى، هي أولئك الذين انخرطوا في سلك الدولة، أي في سلك الوظائف الحكومية، فتعلموا الإغريقية، التي أصبحت اللغة الرسمية للدولة والشرط الرئيسي لتولي الوظائف الحكومية.

أما الفئة الثالثة، فهي أولئك الذين رغبوا طوعاً في أن ينهلوا من موارد الثقافة الإغريقية، وإن كنّا نرجِّح أن هذه الفئة كانت قليلة العدد، فإننا نرجِّح أيضاً، أنها كانت أكثر من غيرها حظاً من الثقافة الإغريقية[٣٥٩]، وبالتالي تأثرت بهم وبعاداتهم وتقاليدهم، مما انعكس على سلوك المرأة ومكانتها لديهم، فبدأت تلبس وتفكر وتعامل، كما تلبس وتفكر وتعامل المرأة المقدونية، لكن عدد هؤلاء النساء، كما قلنا، بقي محدوداً إذا ما قيس بالعدد الأكبر من النساء اللواتي حافظن على قيمهن ومكانتهن وعقائدهن، فبقين عربيات الهوى والفكر والتفكير وغيره من مظاهر المرأة، فبقيت عشتار لديهم غير أفروديت وعناة غير هيرا (حيرا)، فقد بقي الإغريق يعيشون في جزرٍ معزولة في بحرٍ من السكان الأصليين أصحاب الأرض والعقيدة، وهنا أجد نفسي مُضطراً لتسليط الضوء على الحياة الاجتماعية عند السلوقيين، حكام سوريا لمدة لا تقل عن ٢٥٠ سنة، وهم خلفاء دولة الإسكندر المقدوني، وينسب اسمهم إلى مؤسس دولتهم سلوقس الأول، وهو أحد قادة الإسكندر.

عناصر السكان في الإمبراطورية السلوقية

تُعتبر الإمبراطورية السلوقية أكبر إمبراطورية في العصر الهلينستي، فهي تضم بين أرجائها عدداً كبيراً من الولايات، قُسِّمت إلى ثلاثة أقسام رئيسة، هي: آسيا الصغرى، سوريا، ولايات شرق الفرات، ونتيجة لاتساع الإمبراطورية، فقد ضمَّت بين ظهرانيها أعداداً غفيرة من السكان الذين تنوعت أجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتباين حظهم من متاع

---

[٣٥٩] – العابد، مفيد رائف: دراسات في تاريخ الإغريق، دمشق، ٢٠٠١ – ٢٠٠٢م، ج ٢، ط ٤، ص٣٥١ – ٣٥٢.

الدنيا، مما انعكس في تنوع نظمهم وتفاوت مستوى معيشتهم من الحياة الرغدة اللينة، إلى حياة البؤس والفاقة، وتباين حضارتهم، بين البدائية وأعلى درجات التقدم، فشكلوا تحت السيطرة المقدونية، خليطاً عجيباً من المجتمعات والوحدات السياسية، التي لا يربطها إلا رابطة الخضوع لحاكمٍ، كان أجنبياً في كل شيء.

ولقد تألفت عناصر السكان من الإغريق والمقدونيين والسوريين والبابليين والفرس والأهالي الوطنيين في آسيا الصغرى، إضافة إلى فئة صغيرة من اليهود.

- الإغريق والمقدونيون: وكانت حياتهم هانئة في المستعمرات التي أنشئت لأجلهم وكانوا فئتين، الأولى، عسكرية وأغلبها مقدونيون، والثانية، مدنية وأغلبها إغريق، ويبدو أن الجانب الأكبر من الفئة الأولى توطنوا في المستعمرات العسكرية، ومعظمهم مقدونيون مع أقليّة إغريق، أما الفئة الثانية، فقد استوطنوا في المدن القديمة والحديثة، وكان معظمهم إغريق مع أقلية مقدونية، وقد حاول السلوقيون نشر الهلينة أي نشر الثقافة الهلينية (اليونانية).

كما احتفظ الإغريق في مدنهم بعاداتهم وتقاليدهم الإغريقية الخالصة، وكأنهم يعيشون في وطنهم القديم، ولهذا نجد – ووفقاً للعرف الإغريقي – بأن المرأة لديهم تُعتبر قاصراً في نظر القانون، شأنها في ذلك، شأن المرأة الرومانية في نظر القانون الروماني، ولا أدل على تمسك الإغريق والمقدونيين بهذا العرف، من أنه حين ساوى البطالمة بين المرأة المصرية والمرأة الإغريقية، فإنهم لم يرفعوا الثانية إلى مستوى الأولى، من حيث جعلها حرة لا تتزوج إلا بمحض إرادتها ودون وصاية من أحد في التصرف في نفسها وفيما تملك، وإنما أنزلوا المرأة المصرية إلى مستوى المرأة الإغريقية، بأن أدخلوا على القانون المصري تعديلاً حظَّر على المرأة المصرية الزواج دون إذن وصي، والتعاقد مع طرف ثالث دون موافقة زوجها. ووفقاً للأعراف والقوانين الإغريقية، كان لا يجوز أن يكون للزوج أكثر من زوجة واحدة في وقت واحد، وهو ما كان يُعرف بـ monogamos وإن كان يجوز له طلاق زوجته في يُسرٍ وسهولة.

وكان قانون أثينا يعتبر زواج الأخ من أخته الشقيقة رجساً فاحشاً، لكنه كان يُبيح زواج الأخوة، إذا لم يكونوا من أم واحدة. وليس ثمَّة ما يدعو إلى الظن بأن الإغريق قد تخلوا في الإمبراطورية السلوقية عن كل هذه الأعراف والقوانين الخاصة بمركز المرأة في نظر القانون، وكذلك الخاصة بالزواج والطلاق، وقد يؤيد ما ذهبنا إليه أمران:

- أحدهما، أنه لم يكن لأي ملك سلوقي أكثر من زوجة واحدة في وقت واحد.
- والأمر الآخر، هو أنه برغم كافة وجوه التكريم التي كانت الملكات السلوقيات تحظى به، مثل إقامة التماثيل لهن، وقرن أسمائهن مع أسماء بعولهن في نقوش الإهداء، فإنه يندر جداً أن نجد صورهن مستقلة على النقود السلوقية، وقلما تلمس أثرهن في توجيه سياسة الإمبراطورية.

وهنا نصل إلى أن حتمية الاستيطان التي قام بها الإغريق، لا بد وأن تؤدي إلى التزاوج ما بين الإغريق والوطنيين، بسبب الجوار في المعيشة والاختلاط في المدن.

كما أن العناصر الوطنية، التي عاشت في المدن الإغريقية، أو المدن الوطنية، والتي استقرت فيها جاليات إغريقية، تأثروا بالإغريق وتعلم بعضهم اللغة الإغريقية وبعض العادات، بسبب اصطباغ هؤلاء بالصبغة الإغريقية، وذلك بسبب الاختلاط مع الإغريق في الأسواق والساحات العامة، وبسبب الاطلاع على مؤلفات الإغريق ومسرحياتهم وشعرهم ونظام تفكيرهم وفلسفاتهم، مما خلّفه هوميروس وسوفوكليس وأفلاطون وغيرهم.

وإذا ما اعتبرنا أن الإغريق والمقدونيين كانوا الطبقة الأولى، فقد شكَّل الأهالي الوطنيون الطبقة الثانية، التي بدورها قُسِّمت إلى ثلاث طبقات:

١ – العليا: وتتألف من كبار أرباب الأراضي في المجتمع الإقطاعي، ومن كبار الكهنة ومن أوسع التجار ثراء ومن رؤوس العشائر (وهي طبقة صغيرة).

٢ – الوسطى: من متوسطي الدخل والموظفين الحكوميين، وهؤلاء عاشوا كما عاش أجدادهم، وهم لم يتأثروا بالحضارة الإغريقية باستثناء فئات قليلة هي:

أ – التجار، بسبب تعاملهم مع الإغريق.

ب – فئة الذين توظفوا عند الإغريق، فأُجبروا على تعلم اللغة.

ج – فئة الراغبين في نهل الثقافة الإغريقية.

٣ – الطبقة الكادحة: وهي الأوسع انتشاراً من حيث العدد (فلاحون وصغار كسبة) وقد ابتعدت هذه الطبقة بوجه عام عن التأثيرات الإغريقية، بل كانت على عداءٍ معهم، وخاصة في الريف (أي عداء ما بين الوطنيين في الريف والإغريق في المدن) وقد حافظوا على قوميتهم وعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم وطقوسهم، وقد حاربوا الآلهة الأجنبية التي عُبدت في المدن، حرباً لا هوادة فيها، وحافظوا على أساليب حياتهم الاجتماعية[٣٦٠].

وكما حكم السلوقيون بلاد الشام، فقد حكم البطالمة أشقاؤهم في مصر، حيث يُنسب البطالمة إلى بطليموس أحد أكبر قادة الإسكندر أيضاً، وقد استمرت دولة البطالمة في مصر إلى أن سقطت على يد الرومان عام ٣١ ق.م على يد أغسطس (أوكتافيانوس) وكانت قبلها سوريا، قد دخلت أيضاً تحت السيطرة الرومانية، عندما دخلها القائد الروماني بومبيوس عام ٦٤ ق. م، وقد كان دخول أوكتافيانوس إلى مصر بمثابة القضاء على حكم سلسلة من الملكات اللواتي حملن نفس الاسم، وهو كليوباترا.

فقد قضى أوكتافيانوس هذا على قصة العشق الشهيرة التي كانت ما بين أنطونيوس الروماني وآخر ملكات مصر البطلميات، والذي انتحر بخنجره عندما سمع بموت كليوباترا، حيث حُمِلَ إليها ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها[٣٦١] ، لتدخل مصر

---

[٣٦٠] – العابد، مفيد رائف: سوريا في عصر السّلوقيين من الاسكندر إلى بومبيوس ٣٣٣ – ٦٤ ق.م – دراسة سياسية وحضارية، دار شمأل للطباعة والنشر، دمشق سوريا، ص ٢٧٩ وما بعدها.

[٣٦١] – محفل، محمد: دراسات في تاريخ الرومان، دمشق ٢٠٠٠ – ٢٠٠١م، ج ٢، ص ٢٧.

تحت الحكم الروماني، هنا، وقبل الانتقال لدراسة أوضاع المرأة تحت الحكم الروماني، لا بد من تسليط الضوء على وضع المرأة في مصر تحت حكم البطالمة.

لقد كان حكم البطالمة في مصر كحكم السلوقيين في سوريا، فقد عاشوا بعيدين عن الشعب في مدنهم وقصورهم، وقد عاشت نساؤهم بعادات وتقاليد تختلف عن عادات وتقاليد الشعب المصري الذي تمسك بماضيه العريق وقيمه الرفيعة، وخاصة في الريف، حيث استمرت النساء المصريات، وكما كن سابقاً، يعشن وفق قيم توارثنها عبر مئات السنين باستثناء طبقة بسيطة من الشعب، التي اضطرت للتعامل مع البطالمة اليونان، وذلك بحكم التعامل التجاري والوظائف في الدولة، كما حدث في سوريا، وبسبب قلّة مصادرنا عن نساء مصر في تلك الآونة، سوف أتحدث عن شخصية يونانية بطلمية، هي الملكة كليوباترا، التي ربما تشربت الكثير من عادات وثقافة السكان المصريين الأصليين.

الملكة كليوباترا

تلك المرأة العظيمة، التي ولدت في مصر، واكتسبت لون بشرتها السمراء من لون نساء مصر، ونهلت من ماء نهر النيل العظيم، وتعلمت من فيض حضارة المصريين الأوائل وثقافتهم، حتى إننا نستطيع اعتبارها خير ممثلة لنساء مصر العصريات. وقد حدثتنا كتب التاريخ عن أكثر من ملكة مصرية حملت هذا الاسم إبان الحكم البطلمي، وقد كانت ملكتنا هذه سابع وآخر ملكة تحمل هذا الاسم، ويبدو أن هؤلاء النساء السبع كُنَّ إما ملكات أو أميرات في القصر الملكي الحاكم، فهل كان هذا تأثراً من البطالمة بحضارة مصر العريقة، جاعلين من نسائهم ملكات أسوة بـ حتشبسوت ونفرتيتي وتاج ونفرتاري!!!؟.

أما عن آخر ملكات مصر، التي ذكرناها كعشيقة لانطونيوس وزوجة قيصر الروم سابقاً وأم ولده قيصرون، فقد ولدت في مصر ٦٩ ق.م وهي ابنة بطليموس

الثالث عشر أو ربما الحادي عشر آخر سلالة البطالمة في مصر، وقد تزوجت أخاها بطليموس ولها من العمر ١٣ سنة، فقد كان زواج الأخوة في ذلك العصر سائداً، وكان عمر أخيها عشر سنوات، لكنها كرهت أن يحكم أخوها معها، فنشبت بينهما حربٌ ساعدها فيها يوليوس قيصر، الذي قضى بجيشه على جيش أخيها عام ٤٨ ق.م وقد افتتن قيصر بجمالها وسحرها فتزوجها وجعلها ملكة مصر بعد أن تخلصت من أخيها، لكن قيصر اغتيل عام ٤٤ ق.م فانكسر حلم كليوباترا[٣٦٢] بأن يصبح ابنها من قيصر إمبراطوراً على روما، واستمر بها الحال إلى أن وقعت في حب مارك أنطونيوس، الذي كان في صراع على السلطة مع أوكتافيانوس، مما أدى إلى تحالف أنطونيوس مع كليوباترا ضده، لكن الصراع انتهى بموت كليوباترا وحبيبها أنطونيوس، ودخول مصر تحت السيطرة الرومانية.

لقد كانت كليوباترا أسطورة الزمان ولحنه الساحر، التي جعلت كل نساء الدنيا يطمحن إلى أن يصبحن صورةً عنها، وقد تهافتت كل نساء العالم، اللواتي احترفن التمثيل إلى محاولة تجديد دورها في المسرحيات والأفلام، ولكنهن جميعاً قصرت قاماتهن عن الوصول إلى ما وصلت إليه هذه الفاتنة من مجدٍ وعظمة.

---

[٣٦٢] – ديوان، عبد الحميد: موسوعة أشهر النساء في التاريخ القديم – منذ فجر التاريخ حتى العصر الجاهلي، دار كتابنا للنشر، لبنان. ط ١، ٢٠٠٩م ص ١٤٣ – ١٤٤ – ١٤٥.

المرأة العربية في ظل السيطرة الرومانية

كان من الطبيعي بعد أن ضعفت الأسرة السلوقية في سوريا بسبب الصراعات على السلطة، والتي أدت إلى اقتتال الأخوة وانقسام الجيش، بالإضافة إلى عدم وجود كلمة واحدة تجمع شمل القبائل المتوزعة في كافة أرجاء سوريا، التي كانت قد أسست مجموعة من الإمارات المتناثرة هنا وهناك، والتي لا تجمع بينها أي وحدة سياسية، كان من الطبيعي، أن تكون هذه الظروف مواتية لدولة فتية كالدولة الرومانية أن تحُطَّ رحالها وجيوشها على أرض هذه البلاد، مُستغلةً حالة الضعف التي تعاني منها.

فكان القائد الروماني بومبيوس يتوجه بجيوشه وأسطوله لكي يفرض السلطة الرومانية على بلادنا، والتي استمرت إلى أن دخل الإسلام فاتحاً هذه البلاد، مُعيداً إليها حكمها العربي، بعد أن عانت كثيراً من الهيمنة الأجنبية، التي استمرت أكثر من ١٠٠٠ عام تقريباً. فمن حكمٍ فارسيٍّ ٥٣٩ – ٣٣٣ ق.م إلى حكمٍ يوناني ٣٣٣ – ٦٤ ق.م إلى حكم روماني بين ٦٤ ق.م – ٣٩٥م وبشكله الآخر البيزنطي ٣٩٥ – ٦٣٦ م، فقد استمرت شعوبنا العربية ترزح تحت نيرها، وخاصةً المرأة. هذه السيطرة، وإن كانت عسكريةً، فقد كان لها جانب ثقافي حضاري، حاول أن يصهر أبناء المنطقة في بوتقةٍ غريبة عن ذاته وتاريخه، فمن سياسة العولمة اليونانية الهلنستية، إلى سياسة العالمية الرومانية، كاد أن ينجح هؤلاء الغرباء في صهر بلادنا في بوتقتهم الفكرية الثقافية، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقتلعوا هذا الإنسان العربي من جذوره وثقافته وحضارته!!!.

فقد حافظ سكان سوريا – خاصةً – والعرب عامةً، على عاداتهم وتقاليدهم رغم التزاوج الحضاري، الذي حصل وإن، بنسبٍ متفاوتة، ذلك أن هذه البلاد لم تخضع بشكل كامل للسيطرة الأجنبية، فقد حافظت على بعض هويتها من خلال وجود بعض الإمارات العربية كتدمر والأنباط وغيرها، إضافة إلى ابتعاد الريف عامة، وكما قلنا سابقاً عن المؤثرات الخارجية، فقد كان الوضع مباشرة بعد سنة ٦٣ ق.م وهي سنة

استقرار سلطة بومبيوس على الشكل التالي، حيث تواجدت عدة إمارات ومجموعات عربية، هي من الشمال إلى الجنوب:

١ – الأسرة الأسروينية* في أوديسا، بعد أن احتلتها وحكمتها الأسرة الأبجرية منذ القرن الثاني قبل الميلاد، واستمرت في حكمها حتى منتصف القرن الثالث الميلادي، وكانت من أهم المجموعات العربية التي نجحت في تأسيس الحضور العربي عبر الفرات ومنطقة أعالي بلاد الرافدين.

٢ – مجموعة عربية إلى الجنوب من سلسلة جبال طوروس في منطقة إنطاكية تحت حكم حاكم يدعى (عزيز) والذي لعب دوراً هاما في شؤون آخر عائلتين من سلالة السلوقيين.

٣ – وإلى الشرق، فقد حكم العرب في خلقيس (بالقرب من حلب).

٤ – وفي تدمر، فقد كان العنصر العربي مُسيطراً كما نعلم.

٥ – وفي حمص والرستن في وادي العاصي، وُجدت مجموعة أخرى من العرب تحت سلطة سيمبسي غيراموس، الذي تحالف مع جاره عزيز إلى الشمال للتدخل في شؤون السلوقيين.

٦ – الإتوريون: وهم من العرب القدماء المعروفين في المصادر الكلاسيكية.

٧ – وإلى الجنوب: بسط الأنباط نفوذهم في البتراء وعلى أراض شاسعةٍ، ضمَّت معظم أراضي الأردن وشبه جزيرة سيناء، وقد وصل نفوذهم أحياناً إلى دمشق نفسها، وذلك في القرن الأول قبل الميلاد.

٨ – كما سكن الأدوميون جنوب فلسطين إلى الغرب من البحر الميت، حيث دفعهم الأنباط باتجاه الغرب في القرن الرابع قبل الميلاد.

---

* – الأبجريون وهم الاسم المعروف جيداً، والذين حكموا أوديسا أي الرها، وعُرِف معظم ملوكها بأبجر وأبقر وأبغار.

٩ – أخيراً، كان العرب قد سكنوا مصر، وذلك قبل الأزمنة المسيحية بين النيل والبحر الأحمر في المنطقة البطلمية التي سُميت الولاية العربية فيما بعد، على طرف النيل في اسينواتيس (الفيوم) وفي طيبة الأقصر[٣٦٣].

إن جميع المجموعات التي وردت سابقاً، كانوا عرباً، علاوة على ذلك، فالحضور العربي الواسع الانتشار في المشرق كان معموراً، ففي بلاد الرافدين، كانت مملكة الحضر خيرَ ممثلٍ للعرب في وجه السيطرة الفرثية، ومن ثم الساسانية، إضافة إلى مملكة (حد ذاب) التي قامت ما بين نهر الزاب الأعلى ونهر الزاب الأدنى شرقي نهر دجلة وعاصمتها أربيل، إضافة إلى مملكة (ميسان) التي تقع ما بين بغداد وحتى البصرة اليوم وكانت عاصمتها جزيرة في دجلة بالقرب من الخليج أي شط العرب[٣٦٤]. وقد كان الفرس الساسانيون على اتصالٍ مباشر مع المناذرة خلفاء الحضر في التواجد العربي في العراق، فيما سيحلُّ الغساسنة في بلاد الشام، بعد اتباع روما سياسة القضاء على الإمارات العربية.

وهذا دليل على استمرارية التواجد العربي بشكل فعّال، مما يعني بقاء العادات والتقاليد العربية الموروثة من العهود السابقة رُغمَ التأثر المتفاوت في درجاته من قبل العرب، الذين تأثروا وأثروا في الثقافات الأخرى، فارسيةً كانت أم يونانية ورومانية، وإن وضع المرأة العربية بكل تأكيد، يشكلُ جزءاً من هذا التأثير والتأثر. ولكن وقبل معرفة هذه المؤثرات والتأثيرات، لا بد لنا من التعرف على شخصية أنثوية هامة كان وجودها هاماً ليعطي المرأة العربية دفقاً جديداً من المكانة والسمو والرفعة، ألا وهي السيدة العذراء.

---

[٣٦٣] – شهيد، عرفان: روما والعرب، ت. قاسم محمد سويدان، دار كيوان للطباعة والنشر، دمشق ٢٠٠٨م، ط ١، ص ٥٢.

[٣٦٤] – قبيسي، محمد بهجت: الكنعانيون والآراميون والعرب في الإمبراطورية الرومانية من القرن ١ ق.م وحتى القرن ٣ م – والأباطرة العرب الذين حكموا روما، دار شمأل، دار طلاس، ٢٠٠٩م، ط ٢، ص٢٢٠.

السَّيدة العذراء (مريم)

لقد وُلِدَ السيد المسيح في بيت لحم، وكانت البلاد خاضعة للحكم الروماني، حيث اعتُبر ميلاده بدايةً للتأريخ الميلادي الجديد، وكانت أمه مريم العذراء، تلك الطاهرة التي جعلها الله سراً من أسراره، وعظَّمها، بأن جعل منها أماً لأحد رسله، إنه السيد المسيح رسول المحبة، الذي جعل منه القرآن الكريم عظيماً، فكرَّمهُ بأن جعله يرجع إلى ربه دون أن يُصلب، وكرَّم أمه أيضاً، بأن جعلها واحدة من سيدات نساء العالمين، فجعلها تلد السيد المسيح دون أن يمسَّها بشرٌ، فقد حملت من الروح القدس، وبذلك تكون السيدة العذراء واحدة من النساء التي ارتبطت بحملها وولادتها ووجودها، بالإله الأعظم، الذي لا شريك له.

وفي نظر المسيحيين، كانت العذراء عظيمة، فهي في نظر البعض منهم، أم الرب الابن وزوجة الرّب الأب، وبذلك تدخل العذراء في حلقة الألوهية، لتجعل منها سبباً في خلق الآلهة، وهذا يذكرنا بالإلهة ننخرساج العظيمة، فالعذراء هي أم للإله وزوجة له، وبالتالي هي من الآلهة العظام، التي تساهم في خلق البشر وخلق الآلهة معاً، وبذلك ستكون العذراء كما سنرى لاحقاً، هي من أواخر تجليات الآلهة في هيئة أنثى، وبالتالي ستكون من أواخر صيحات الأنثى للبقاء في عالم الآلهة إلى جانب الذكر، الذي سيطر شيئاً فشيئاً على هذا العالم، وستبقى العذراء في نظر البعض آخر، ذكرى لامرأةٍ عظيمةٍ، فقد علَّمت الإنسان معنى العطاء والخصب، فكانت له أماً وخالقة وواهبة للحياة، كل ذلك، من خلال عملية الولادة والإرضاع، ويمكننا هنا أن نشبِّه ابنها السيد المسيح بالإله (تموز) الذي يهب نفسه من أجل الآخرين، فهو المُخلِّص والفادي، وكما تحول أبناء الأم الكبرى من آلهة قمح، يهبون جسدهم لدفع غائلة الجوع عن البشر، إلى آلهة خلاص يهبون نفس الجسد القديم لخلاص الروح، كذلك السيد المسيح، فجسده الذي وهبه من أجل البشر، هو قمح الحياة الأبدية، يقول: «أنا هو خبز الحياة، من يُقبل إليَّ، فلا يجوع، ومن يؤمن بي، فلا يعطش أبداً» وجسد

المسيح أيضاً هو ثمر الأرض الذي صار ثمر الخلاص، يقول: «أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام».

لكن أولى سمات التراجع في مكانة المرأة، كانت من خلال دور الأم مريم عبر حياة المسيح، فإننا لا نستطيع أن نتبين للسيدة مريم دوراً خاصاً فيها، وكذلك في المواقف التي تجمع يسوع بأمه، ولا نجد أصحاب الأناجيل، يُركِّزون أذهانهم على مريم، بل يبقى الابن يسوع في مركز الصورة وبؤرتها.

وقد بقيت أمومة مريم الإلهية، موضوع خلافِ المذاهب المسيحية الأولى، حتى انعقاد مجمع إفسوس، الذي انتصر فيه التيار الغالب المؤمن بالأمومة، وقد ترأس المجمع القدسي كيرلس الإسكندري، والذي قال: «إني أعجب من أولئك الذين يتساءلون، هل يجوز لهم أن يسمو القديسة العذراء أم الله أم لا؟؟ بما أن سيدنا يسوع المسيح هو الله، فكيف لا تكون والدته أم الله؟» وبعد عدة مداولات تم إطلاق اسم (أم الله) رسمياً على السيدة مريم[٣٦٥] وبالتالي إعادة بعض الاعتبار لها، ولكنها ستبقى من أواخر تجليات الإلهة الأنثى على الأرض، ومن هذه اللحظة سنتعامل مع الإله الذكر بشكل كبير، خاصةً مع انتشار المسيحية، ومن ثم الإسلام، الديانتان السماويتان اللتان قدّمتا نموذجاً للإله الذكر الأوحد، الذي لا شريك له، وخاصة الديانة الإسلامية التي كرَّست سيادة الذكورية على الأرض، مع أنها أعطت للمرأة كثيراً من الحقوق، التي كانت محرومة منها في السابق، وهذا ما سنراه لاحقاً.

وبولادة السيد المسيح، سنودع عصور ما قبل الميلاد، لنبدأ بالحديث عن المرأة في العصور الميلادية، التي حافظت مع بداياتها حتى مجيء الإسلام بذكر بعض الآلهة المؤنثة، وهذا ما سنراه أيضاً في الفصول القادمة.

ولأن السيد المسيح كان شخصيةً هامة في التاريخ، ومؤسساً لديانة كبيرة سماوية، فقد كان للمرأة في حياته دورٌ هامٌّ، فبعد والدته السيدة العذراء، وُجِدت عدة

---

٣٦٥ – السّواح: لغز عشتار، مرجع سابق، ص ٤٠١ ،٤١٢، ٤١٣.

نساء، كان لهن دور بارز في حياته، وقد ساعدنه في نشر تعاليمه في وسط محيط ذكوري كبير، فقد ذكر إنجيل لوقا: «وعلى إثر ذلك كان يسير في المدن والقرى يكرز ويبشر بملكوت الله، ومعه الاثني عشر تلميذاً، وبعض النساء اللواتي شفاهن من الأرواح الشريرة والأمراض، وهن مريم المعروفة بالمجدلية، التي أخرج منها سبعة شياطين، وحنة* امرأة خوزي وكيل هيرودوس، وسوسنة، وغيرهن كثيرات، كنّ يخدمنه من أموالهن» (لوقا 1:8. 3) هذا ما قدمه لنا الإنجيليون.

وحنة (ليونا) التي ربما كانت زوجة وكيل هيرودس انتيباس ملك الجليل، ولقد كانت هؤلاء النسوة من شرائح اجتماعية ميسورة، وقد دعمن المسيح بالمال، فعندما صُلب المسيح، تخلى عنه تلاميذه الإثنا عشر وبقية التلاميذ وخافوا، بينما صحبته النساء إلى موقع الصليب، وبينهن مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب، ويوسي، وأم ابني زبدي (متى 27. 55. 56) وابنا زبدي هما يعقوب ويوحنا.

وقد ركزت الأناجيل الأربعة على شخصية مريم المجدلية، وإن دلَّ هذا على شيء، فعلى أهميتها البالغة ومكانتها الخاصة لدى يسوع.

وكذلك يمكن الحديث عن مرثا وأختها مريم للمرة الأولى في إنجيل لوقا، فبعد أن شرع يسوع في رحلته إلى أورشليم، دخل قرية مجهولة، فأضافته في بيتها امرأة اسمها مرثا وأختها مريم ومعهما أخوهما لعازر، وربما في قرية تدعى بيت عنيا، وقد قام السيد المسيح فيما بعد، بإعادة أخيهما لعازر إلى الحياة بعد موته.

وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يعتبر أن مريم المجدلية، هي إحدى تلاميذ السيد المسيح الأوائل، فقد كانت مريم المجدلية امرأة ثريَّة من الجليل، تبعت السيد المسيح بعد أن شفاها من مرض عصبي مُعيَّن، لعله الصرع، وقد ورد اسمها على الدوام في قوائم أسماء التلميذات عند جميع الإنجيليين، مما يؤكد أنها كانت مُفضلةً عند السيد المسيح، وربما أن السيد المسيح، قد خصَّها ببعض التعاليم، التي

* – أو يونا في بعض الترجمات.

حجبها عن باقي التلاميذ الآخرين، مما أزعج بقيتهم. ويدل غياب دور النساء في معظم الأناجيل، إلى تنامي النزعة الذكورية، التي كانت تتقدم شيئاً فشيئاً[٣٦٦].

والجدير بالذكر، أن مريم المجدلية، كان لها إنجيل خاص، قد كتبته أسوة بسائر التلاميذ كتبة الأناجيل واسمه (إنجيل مريم المجدلية) الذي ترد فيه الكثير من الأقاويل التي تؤكد فكرة مطالبة يسوع بالمساواة بين الرجل والمرأة، مثال: «وعندما سألوا المسيح متى ندخل الملكوت؟ فقال لهم: عندما تجعلون من الكائنين كائناً واحداً ... وإذا جعلتم الذكر والأنثى شخصاً واحداً، حتى لا يبقى الذكر ذكراً ولا تبقى الأنثى أنثى» وهذا ما حاول البعض إخفاءه فيما بعد، فقد عُرِف الكثير عن كراهية بطرس الشديدة للمرأة. وقد ورد أيضاً في تصريحات اليهود: «شريعتنا لا تقبل شهادة امرأة»[٣٦٧] هذا وقد تحدى يسوع القسوة التي كان يبديها مجتمعه حيال المرأة، وهذا ما يظهر جلياً في حادثة الامرأة التي أُخذت في زنى (يوحنا ٨: ١ – ١١) فقد أتاه بها الكتبة والفريسيون فيما كان يُعلِّم في الهيكل والشعب مجتمع حوله. وأقاموها وسط الحلقة وقالوا له: «يا معلم، إن هذه المرأة في الزنى المشهود، وقد أوصانا موسى في الشريعة برجم أمثالها، فأنت ماذا تقول؟» (يوحنا ٨: ٤ – ٥) وقد كان رد يسوع عليهم أن قال: «من كان منكم بلا خطيئة، فليتقدم ويرجمها بحجر!» (يوحنا ٨: ٧) فغادر الجميع.

وهكذا نرى، كيف أعاد يسوع الإنجيل، إلى المرأة كرامتها، وملأ دورها الإنساني، كما أكَّد على الوحدة الكيانية العميقة بينها وبين الرجل، رغم كل الفواصل المصطنعة التي أقامها المجتمع جيلاً بعد جيل، ليرسخ سلطوية الرجال، ويحكم على

---

[٣٦٦] – السّواح، فراس: يسوع والنساء لغز مريم المجدلية، مجلة فكر العدد ١٠٧، عام ٢٠٠٩م، ص ٢٠ وما بعدها.

[٣٦٧] – شهرستان، ماري: أناجيل الظل – وإنجيل مريم المجدلية، مجلة فكر العدد ١٠٧، عام ٢٠٠٩م، ص ٣٤.

النساء بالدونية والاستلاب[٣٦٨]. فمن خلال كل ما سبق، نكون قد أصبحنا على بينة من أن أوضاع المرأة مع بداية العصور الميلادية، بدأت تسير نحو الأسوأ، نحو مجتمعٍ ذكوري بامتياز.

أما عن نظرة الديانة اليهودية للمرأة، وحسب ما وصلت إلينا، فإنها نظرة تحطُّ من مكانة المرأة، وهذا ما أكدته كتاباتهم الدينية (المشكوك فيها أصلاً)، فقد ذكر نصٌّ تلمودي ذهب فيه بعض الحاخامات اليهود إلى أنه من حق الرجل طلاق زوجته في حال عدم إعجابه بالطعام المطهو أو اللحم المشوي من قبلها، كما أباح حاخامات آخرون في تكملة النص، الطلاق في حال عثور الرجل على امرأة أجمل من زوجته، وفي نصٍّ آخر، نجد، أن الرجل اليهودي وفي كل صباح عند صلاته يقول: «أحمدك يا رب لأنك لم تخلقني امرأة» فيما تقول المرأة اليهودية المستسلمة لمشيئتها: «أحمدك يا رب لأنك خلقتني حسب مشيئتك وإرادتك».

وفي مسألة الزواج، فإن نظرتهم توضح مدى امتهانهم لهذه العلاقة واستهانتهم بها لدرجة يبيحون بها لأنفسهم طلاق زوجاتهم إذا رأوا من هنَّ أجمل منهن، الأمر الذي جعل ردَّ فعل النبي عيسى عليه السلام على هذه النظرة حديّاً، لدرجة منع الطلاق في العقيدة المسيحية، إلا بحدود ضيقة جداً، حيث قال: «إن موسى أذن لكم من أجل قساوة قلوبكم أن تطلّقوا نساءكم، وأما أنا فأقول لكم من طلق امرأته، إلا لسبب الزنى وتزوج بأخرى، يزني، والذي يتزوج بمطلقته يزني».

كذلك كان اليهود يعتبرون الإناث من إنتاج الخصية اليسرى، بينما الذكور من إنتاج الخصية اليمنى التي هي أقوى من اليسرى. كما كانوا يعتبرون المدة اللازمة لطهارة من تلد الأنثى، ضعف المدة لمن تلد الذكر، وقد حاول المنظرون من أحبار اليهود وضع المسوِّغات والمبررات لهذه الآراء، بما يتوافق مع الأفكار التي سادت خلال فترة وضعها، والتي رافقت التحول من النظام الأمومي إلى النظام الأبوي،

---

[٣٦٨] – بندلي، كوستي: المرأة في موقعها ومرتجاها، مجلس كنائس الشرق الأوسط، دار العالم الربي، ص ٧٣ – ٧٤ – ٧٥.

فأسندوا إلى الحيَّة مهمة إغواء المرأة، وإلى المرأة مهمة إغواء الرجل بالأكل من الثمرة المُحرمة من ثمار الجنة. وجعلوا الزحف عقاباً للحية، والحمل عقاباً للمرأة، والعمل عقاباً للرجل على هذه المخالفة، هذا ما جاء في سفر التكوين في التوراة (المشكوك فيه دائماً)[٣٦٩].

هكذا كانت أوضاع المرأة العربية في بداية التاريخ الميلادي، فكيف كانت أوضاعها من خلال بعض الإمارات العربية السابقة الذكر، حيث المجتمع هو أقرب ما يكون إلى مجتمعٍ تحكمه عادات وتقاليد عربية شبه خالصة.

لكن، وقبل معرفة وضع المرأة العربية في الإمارات العربية، لا بدَّ لنا من معرفة وضع المرأة الرومانية، ومدى تأثيرها وتأثرها بالمرأة العربية.

---

[٣٦٩] - الجابي، كمال راغب: المرأة بين الكافات الثلاث والحاءات الثلاث، مجلة المعرفة، العدد ٥٦٤، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٠ م.

المرأة الرومانية

لقد أدى تحول روما إلى قوة عسكرية فقط، وازدياد قوتها، خاصةً بعد قضائها على قرطاج وتدفق الثروات واليد العاملة المستعبَدة وتأثير هذه التغيرات على الحياة الاجتماعية وعلى المرأة الرومانية خاصة، والذي ترافق مع تهديم بعض المفاهيم الأخلاقية، وقد انحصر عمل المرأة في المنزل فقط، وهذا ما تحدث عنه المؤرخ تيتوس ليفيوس من خلال وصفه للمرأة الرومانية، فهي تعمل في غزل الصوف وحياكته، بينما تقضي كنّات الملك الوقت على مائدة الطعام، وهنَّ مستلقيات حولها كما يفعل الرجال.

إنها لا تُمدح لأنها تعمل في الصوف، ولكن هذا العمل يعصمها من أن تسقط في مهاوي السوء، التي تسقط فيها النساء اللواتي لا ينصرفن إلى عملٍ يشغلهن. فقد كان على الرجل أن يخرج للعمل خارج المنزل، فيما تنحصر مهمة المرأة في العمل في المنزل، فقد منحت الآلهة الرجل القدرة على احتمال الحرارة والبرودة والأسفار وأعمال السلام والحرب، أي أعمال الزراعة والجيش، وخصَّت المرأة بمسؤولية العناية بشؤون المنزل، بجعلها غير مؤهلة للقيام بأي عمل آخر. وقد كانت وظائف المرأة الرومانية تنقسم إلى ثلاثة أقسام، هي: الصيانة والتنظيف وطبخ الطعام، بالإضافة إلى دورها في إنجاب الأولاد، الذي يُعتبر من أهم أدوار المرأة عند الرومان، فقد كان العقم يُعد أكبر لعنة تصيب الزوجة، لأن الإنجاب هو وظيفة المرأة الأساسية. وقد كان الإجهاض ممنوعاً على المرأة بدون موافقة الزوج، فالولد ملكٌ لرب الأسرة، حيث لم يكن يُسمح بممارسة منع الحمل أو الإجهاض، إلا لنِساءٍ في الطبقة الارستقراطية.

يقول الشاعر جوفينال: «على سريرٍ مُذهَّبٍ لا يمكن أن نرى نساء يلدن مادامت الممارسات والأدوية التي تجعل النساء عقيمات ناجعة وقادرة على قتل الأجنة وهي في أرحام الأمهات بالثمن الغالي»، أما النساء الأخريات من عامة الناس، فإنهن

يقبلن أخطار الولادة وكل متاعب الإرضاع، وكان هذا لمدة طويلة من واجبات المرأة الرومانية، حيث كانوا يعتقدون أن حليب الأم كبذرة الأب، له خاصيته في خلق ملامح الشبه في الجسم والروح.

وإذا كان إنتاج الأولاد الأحرار وتربيتهم هو قَدَرُ المرأة الرومانية، فإن غزل الصوف هو شعارها ورمزها. ففي النقوش على الأحزمة في العصرين الجمهوري والإمبراطوري، كانت تُطلق صفة (الغزّالة) غزّالة الصوف على كل زوجة جيدة، فالعمل في الصوف هو رمز المرأة، كما أن العمل في السلاح هو رمز الرجل، ولكن على العكس، يُعتبر غزل الكتان حسب ما يذكر بلينوس عملاً مشرفاً للرجل.

لكن، وفي بعض الحالات خاصةً عند حالات الدعة والفراغ، فإن بعض النساء ينصرفن إلى الكماليات وإلى الفراغ، إلى حد أنهن لا يعملن في الصوف ويفضلن الملابس غالية الثمن، التي تُصنع خارج المنزل.

وهكذا فإن المرأة الرومانية، عندما كانت تعمل تحافظ على أخلاقية البيت، وعندما لا تعمل تُثبت غنى هذا البيت، ولكن في كلا الحالتين تُعلي قيمة المرأة كرامة الرجل وخيلاءه أي مكانته[٣٧٠].

لقد كان القانون الروماني شديد الوطأة على المرأة كثيراً، ففي هذا القانون كان يحق للأب أن يبيع ابنته كالرقيق، وله أيضاً الحق في قتلها، وبعد الزواج يحلُّ الزوج محل الأب في السيطرة على المرأة وامتلاكها[٣٧١] ، كما كان المجتمع الروماني مجتمعاً طبقياً بامتياز سواء في روما أو في المستعمرات الرومانية، وكان من الطبيعي في هكذا مجتمع أن تُضطهد المرأة حيناً، وتُرفع إلى الأعالي أحياناً، فقد حكمت الكثير من الرومانيات الإمبراطورية الرومانية وإن من وراء حجاب. وكان الكثير منهن يُسيّرن أمور الدولة والإمبراطورية كالخاتم في إصبعهن، وكثيراً ما وقع رجال الحكم في غرام

---

[٣٧٠] – فرزات، محمد حرب وتوفيق فهد: المرأة اليونانية والرومانية في شواهد من الأدب الكلاسيكي، مجلة التراث العربي، العدد ٤٧، ١٩٩٢م، ص ٥٢ – ٥٣ – ٥٤.

[٣٧١] – السعداوي: الأنثى هي الأصل، مرجع سابق، ص ١٧٥.

النبيلات والأميرات، مما انعكس على سياسة الدولة، كما كان يحدث في معظم العصور، عندما تسيطر النساء على القصر الحاكم.

لقد كان المجتمع السوري في فترة الحكم الروماني البيزنطي، شأنه شأن المجتمعات المعاصرة والمجاورة، يُقدر وظيفة المرأة من حيث أنها تقوم على إنماء المجتمع بتقديم الرفد البشري له، لإنجاز المهمات الاجتماعية والاقتصادية، وبخاصة، مهمات الحروب التي كانت لا تنقطع، وكان من طبيعة ذلك الزمن التمييز بين السيدة والأمة، كما كان مجتمع الرجال يُفرق بين الحر والعبد، وقد ظل هذا الوضع الاجتماعي قائماً إلى وقت قريبٍ بشكل أو بآخر.

كان المثل الأعلى عند النساء السوريات في هذا العصر، وحتى مجيء المسيحية، التأكيد على احترام الزوج، والحرص على تضامن الأسرة كوحدةٍ اجتماعية اقتصادية منتجة، وكان المنزل يُعتبر أفضل مكان لتربية الأولاد خاصةً الذكور الذين يُعدون للدخول في مجتمعات الكبار ليغدوا حكاماً أو محاربين، وكان التعصب للأسرة يوجب على الأم من حيث المبدأ أن تكون وهي الراعية للأولاد وليس الخدم والعبيد، ولكن هذه القاعدة لم تُراعَ دائماً، وبتأثير المذهب الرواقي، ومن ثم انتشار المسيحية، التي بدأت بشكل فعلي مع إصدار الإمبراطور قسطنطين الكبير في عام ٣١٣ م قانون حرية الأديان وفي عام ٣٢٥م أعلن المجمع المسكوني في نيقيا، أن المسيحية دين الدولة والذي تم تأييده في عام ٣٩٥م بأن أصبحت المسيحية دين الدولة الأوحد وبالتالي انتشار الكنائس والأديرة، مما سينعكس على وضع المرأة، من حيث زيادة الشدة في الحفاظ على العِفَّة التي أصبحت المثل الأعلى للمرأة المسيحية سواءً كانت عربية أم رومانية، لأن المسيحية دين العرب قبل الرومان، وبالتالي تأثر بها العرب قبلهم.

لذلك توجَّب على المرأة أن تتحلى بالفضيلة والحفاظ على الشرف، وهذا لا يعني أن لا تتزين، بل على العكس، فقد كانت المرأة لا تستغني عن التزين والظهور بأفضل الثياب والحلي، خاصةً في فترات الرَّخاء الذي تمر به البلاد السورية بين وقت وآخر

ومن منطقة لأخرى. وقد أكدت اللقى الأثرية الكثيرة، التي عُثر عليها لنساءِ ذلك العصر، هذا الأمر، فكن يبدين بأحسن حال وأجمل لباس، ويرتدين الحلي والملابس الجميلة، وكانت نساء تدمر خير ممثل لتلك النسوة، فكن نموذجاً للمرأة الجميلة الغنية، وقد تبدى هذا واضحاً في الزي والزينة والإفراط فيهما وفي تنوعهما، فقد كانت تدمر مدينة غنية بفضل تجارتها الرائجة، وقد شاركت نساء تدمر الرجال في التجارة، وهذا ما سنراه لاحقاً.

وفي المدن السورية الأخرى، كانت تُطبق – عادةً – على النسوة القوانين والأعراف السائدة في بلاد الرومان، وكانت النساء السوريات تتبع هناك مستحدثات الأزياء وأساليب تصفيف الشعر والتزين إجمالاً.

لكن مجتمعات الريف والبادية – خصوصاً – وكما قلنا سابقاً، بقيت بعيدةً عن هذه المؤثرات، حيث بقيت النساء الريفيات محافظات إلى حدٍّ كبير على تقاليدهن الخاصة في اللباس والزينة وعدم التبذل، وقد حافظت جلُّ نساء تدمر على هذه التقاليد التي تنتمي بالأساس إلى تقاليد العشائر العربية، التي كانت المكوِّن الأساسي لمجتمع تدمر.

أما في مجال العبادة، وخاصة في فترة تفاوت وتمازج الوثنية مع الديانة السماوية المسيحية، فقد استمرت عبادة الرَّبّات السوريات مندمجات مع الربات اليونانيات والرومانيات، إلى جانب الديانة المسيحية وتقديس السيدة العذراء والسيد المسيح، فقد اندمجت عشتار مع أفروديت وفينوس، كما اندمجت اللات مع أثينا ومناة مع نميسيس[٣٧٢]، هذا إلى جانب الصراعات الدينية المسيحية، من يعقوبية إلى نسطورية وأريوسية وغيرها، وكذلك انتشار أفكار المذهب الرواقي، وما لهذه الأفكار والاتجاهات من تأثير على المرأة وسلوكها، وخير دليلٍ على ذلك، هو تأثير المذهب الغنوصي، الذي يمكن اعتباره فلسفة من الفلسفات المشرقية أو ضرباً من ديانات

---

[٣٧٢] – معرض المرأة السورية، مرجع سابق، ص ١٠٣.

الأسرار التي كانت سائدة في المشرق خلال القرون القليلة التي سبقت وتلت ظهور المسيحية، وقد نظر البعض إلى الغنوصية على أنها نمطٌ من الثنائية التي سادت أكثر العقائد الفارسية القديمة، أو أنها محاولة لإدخال المسيحية في نطاق الفكر الهيليني، ولا نعدم من رأى فيها مدرسةً من مدارس الفلسفات والعقائد الباطنية الخفية التي تأثرت بالهرمسية.

ومن ضمن المفاهيم الغنوصية (الروحية – الفلسفية) نرى: مفهوم الأم العظمى، ومفهوم الروح القدس (روحاً قدوشا، في الأصل)، وأيضاً مفهوم (الإله – الإنسان) ومفهوم (الثالوث الغنوصي) و(الأم العظمى).

وكان عند أوائل الغنوصيين قوةً روحيةً كبرى وعظمى، تدعى الأم، وهي التي تقوم بدور أساسي في صنع العالم، هذه الأم صدرت عن الله، وتُسمى بأسماء مختلفة منها (إننويا)، وهي مفردةٌ مؤنثة، وتتناسب على نحوٍ أفضل مع مفردة الأم، وتدعى أيضاً بالروح، هذه الروح، هي أم كل الموجودات والكائنات، كما أنها كلية وكونية وأبدية، فيما قالت بعض النظم الغنوصية اللاحقة: إن هذه الأم، هي الروح القدس، وهي أحد أقانيم الثالوث المسيحي المؤلف من: الآب والابن والروح القدس.

وفي بعض النظم الغنوصية الأخرى – أيضاً – تحول اسم الأم إلى (صوفيا) أو الحكمة، ونظمٌ أخرى قالت: إن الله هو أب الإنسان، وإن صوفيا أو الروح القدس، هي أمه.

أما عن أفضل صورة لتمثيل هذه الأم العظمى، فهي الصورة التي نراها في كتابٍ غامضٍ وقديم يُدعى (كتاب الرعد) الذي يَرِدُ هذا النشيد على لسان كينونة أنثوية تتكلم عن نفسها، والذي نقتبس منه هذه المقاطع:

أنا الأولى والأخيرة

أنا المُكرَّمةُ والمُحتقرة

العاهرة والقدّيسة

والزوجة والبِكر

الأم والبنت

أنا العاقر، وكثيرون هم أولادي

أعراسي لا تُحصى، ولم أقترن ببعل

أنا العروس والعريس

زوجي ولدني

وأنا أم أبي، وأخت زوجي، وهو ابني

أنا المعرفة، أنا الجهل

أنا العار والخزي

أنا القوة، وأنا الخشية

أنا الحرب، وأنا السلام

أنا الصمت الذي لا يكنه

وفي مقطع آخر تقول:

أنا الحكمة (صوفيا)

وأنا المعرفة (غنوص)

أنا الأم العظمى، التي لا تسقط

وصوفيا الحكمة، التي سقطت

أنا العقل والكلمة، والصمت والصوت

أنا ذلك الذي وحده يوجد

ولا أحد يحكم عليّ[٣٧٣]

ليس هناك من رَفْعٍ لمكانة المرأة، أفضل من هذا الكلام، فهي تُذكرنا بالإلهة الأم الكبرى، التي كانت سيدة الآلهة وأُمهم، وكأننا – هنا – نسمع كلامً ننخورساج أو إيزيس المصرية أو عناة أو عشتار، وهذا بلا شك، يُمثل إعادة بعض الاعتبار إلى

---

[٣٧٣] – مقدسي، فايز: بحث في الغنوصية السورية ،مجلة المعرفة، سوريا، العدد ٥٤٢، ٢٠٠٨م، ص ١٠٥،١٢١، ١٢٢.

الأنثى، بجعلها تحظى بهذه المكانة، وهو بكل تأكيد، انعكاسٌ لمدى احترام أتباع هذا المذهب للمرأة، وما تمثله في الجنس البشري، وما هو دورها في عملية الخلق والإبداع، إنها رمز العطاء، كما إنها تعطي الحكمة والمعرفة، وهي العقل، كما أنها الحرب والسلام، والقوة والشرف والعار، وهي الخشية والخزي.

إن انتشار هذه الأفكار، وما لها من تأثير، لا بد وأن يعكس سمو ورفعة المرأة عند بعض السكان، خاصةً أتباع المذهب الغنوصي، ولا بدَّ من أن يتسع صداه كثيراً. هذا إلى جانب انتشار بعض الأفكار، التي كانت تجعل من المرأة عبدة وسلعة، خاصةً في مجتمعٍ يُعاني من صراعات عرقية (رومانية – عربية) ودينية (وثنية – ديانة سماوية) وسماوية – سماوية (مسيحية – يهودية) وحتى ضمن الدين الواحد (نسطورية – يعقوبية)، هذا بالإضافة إلى الصراع الطبقي والاستعمار البغيض، وإلى جانب الحروب المستمرة (رومان – يونان – فرس) والصراعات الداخلية بين طبقات المجتمع، ما بين فلاحين وحرفيين ونبلاء وأحرار وعبيد. كل ذلك سينعكس سلباً على المرأة ومكانتها في المجتمع، فهي غالباً من سيدفع الثمن، فهي العنصر الأضعف فيه.

أما عن مكانة المرأة العربية داخل الإمارات والممالك العربية، فسنكتفي هنا بدراسة بعض النماذج عنها، خاصةً في دولة الأنباط، وفي مملكة تدمر، والحضر، وعند الغساسنة والمناذرة، مع التعريج على نساءِ حمص الشهيرات، وغيرهن من نساء العرب، ممن نلِنَ الشهرة، قُبيل مجيء الإسلام.

المرأة العربية عند الأنباط

مملكة الأنباط، هي إحدى الممالك العربية الصغيرة، التي قامت في شمالي شبه الجزيرة العربية في المنطقة التي يشغل مكانها الآن المملكة الأردنية الهاشمية، وقد شملت مملكة الأنباط في أوج اتساعها منطقةً واسعة ضمَّت دمشق وسهل البقاع والأقسام الجنوبية من فلسطين وحوران وأدوم ومدين إلى ددن أو ددان وسواحل البحر الأحمر، وثبت أيضاً أن جماعةً منهم سكنت الأقسام الشرقية من دلتا النيل، وقد تركت لنا عدداً من الكتابات، كما ورد أول ذكرٍ للأنباط في التاريخ في قائمةٍ آشورية تُعدد أعداء الملك آشور بنيبال، لكن البتراء (عاصمة الأنباط) كانت في هذه الفترة، ما تزال بيد الأدوميين[٣٧٤] ، وقد ساعد تكاثر السكان حول البتراء عاصمتهم وبعض المدن، مثل: الحجر ومدائن صالح وتيماء العلا ويثرب ومكة، على تكوين دولة الأنباط، التي خلّفت آثاراً جليلة في النحت والري والزراعة والتجارة.

والرأي السائد اليوم بين العلماء، أن النبط عربٌ مثل سائر العرب، وإن استعملوا الآرامية في كتاباتهم، بدليل أن أسماءهم هي أسماء عربية خالصة، وأنهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الجاهلية، مثل (ذي الشرى) و(اللات) و(العزى) وأنهم رصّعوا كتاباتهم الآرامية بكثيرٍ من الألفاظ العربية، وبدليل إطلاق اليونان واللاتين والمؤرخ اليهودي يوسيفوس كلمة العرب على النبط، وإطلاق اسم Arabia petraea (البتراء العربية) أي العربية الحجرية على أرضهم، ولو لم يكن النبط عرباً، لما أطلق الكلاسيكيون كلمة العرب عليهم[٣٧٥]، ونحن بالأساس لا نرى فرقاً ما بين آرامي وعربي، لأن الآرامية والآراميين ما هما إلا لهجةٌ وفرعٌ من الدُّوحة العربية، لغةً وعرقاً.

---

[٣٧٤] – زكار، سهيل وشكران خربوطلي: تاريخ الوطن العربي القديم – الجزيرة العربية، دمشق ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣م، ص ١٠٥.

[٣٧٥] – علي: المفصل في تاريخ العرب، ج ٣، ط ٣، ١٩٨٠م، مرجع سابق، ص ٩.

تقع البتراء (قديماً سلع) عاصمة الأنباط في الجنوب الشرقي من البحر الأحمر في منطقة وادي موسى (في شرق الأردن حالياً) وبفضلهم عُرفت هذه المنطقة باسم العربية الصخرية في المؤلفات اليونانية والرومانية (الكلاسيكية).

وقد اشتهرت دولة الأنباط في العالم القديم بسمعتها التجارية، وقد بدأ المؤرخون اليونان والرومان يؤرخون لهذه الدولة، المعجزة الاقتصادية. فقد ذكرهم ديودوريوس الصقلي، بأنهم كانوا قبل الميلاد يخفرون طرق التجارة في البادية السورية وشمال الجزيرة العربية[٣٧٦]، وقد سبب لهم العمل في التجارة الغنى الكبير والعداء من قبل جيرانهم، خاصةً الرومان والبطالمة، وكذلك اليهود المكابيون في فلسطين.

وقد حكم الأنباط عددٌ كبير من الملوك وبأسماء عربية، مثل: عبادة الأول ومالك والحارثة ورب إيل، وكان أشهر ملوكهم الحارث الثالث ٨٧ – ٦٢ ق.م الذي بلغت المملكة في عهده أوج ازدهارها، وكذلك الحارث الرابع ٩ ق.م – ٤٠ م وكان عهده أيضاً من أزهى العهود التي شهدتها المملكة النبطية، حيث تميزت بنشاط عربي واسع، كما أنه خلَّف آثاراً فنية رائعة لا يزال بعضها في مدينة البتراء ومدائن صالح. وكان آخر ملوك الأنباط يُدعى رب إيل الثاني ٧١ – ١٠٦م وكان صغيراً حين تولى العرش، لهذا عُينت أمه وصية عليه، وفي عهده استولى الرومان على الأنباط عام ١٠٦ م، فهجرها أهلها إلى مواطن أخرى طلباً للرزق، هذا وكان الإمبراطور الروماني تراجان الذي استولى عليها قد سماها (الكورة العربية) وقد ألحقها بالولاية العربية الرومانية، ونقل مقر الحكم من البتراء إلى بصرى الشام.

أما عن ديانة الأنباط، فهي من النوع الوثني المنتشر آنذاك في الجزيرة العربية، ولا تختلف عمّا ألفه أشقاؤهم العرب من معتقدات، فكانوا يعرفون الإلهة مناة والعزى والإله هبل، ويقيمون لهم الطقوس الدينية الرسمية، ولا سيما الإله ذو الشرى، الذي كانوا يحجّون إلى معبده، ويقدمون له الذبائح، فهو يشبه زيوس وجوبيتر المعروفين،

---

[٣٧٦] – الحمد: حضارة طريق التوابل، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

وكانت اللات هي الإلهة التي تمثل على الأرجح الشمس، وهذا يتفق وقول استرابون: إن الأنباط يعبدون الشمس، وهي في معتقداتهم أم الأرباب، كما كان حالها لدى عرب الطائف وتيم اللات في المدينة، حيث كانت لفظة (الرَّبة) تكفي للدلالة عليها، وحين يتحدث إبيفانوس عن عيد سنوي يقيمه الأنباط في بترا لأم الرب النبطي الأكبر ذي الشرى، فالأرجح أن كلامه يعني اللات، وإن كان يسميها (كعبو) وهو شكل الصنم الذي يرمز إليها. وكان لدى الأنباط عقائد حول ازدواج العبادة (لمعبودين أحدهما ذكر ابن أو زوج، والآخر أنثى) وهي ظاهرة تتكرر في الحياة الدينية لدى الأنباط، وقد أقيمت للإلهة اللات معابد كثيرة في المواقع النبطية، قبل أن تتحول إلى أترعتا وبعد تحولها، ولكن اسمها قليل الورود في نقوش بترا، فهي ربة بصرى وصلخد، حيث كان عبّادها المخلصون من بني روحو.

ولا تحتل العزى (التي تماثل فينوس) ومناة دوراً بارزاً بين الأرباب النبطية، وخاصة بالنسبة لـ ذي الشرى الرب الأكبر، الذي حمل طبيعة بعض الآلهة القديمة، فأصبح يُناظر بعل وهدد وبعل شمين (رب السموات). وعندما ضاهى ذو الشرى زيوس وهدد، لم تعد قرينته هي اللات القديمة، بل أصبحت أترعتا (أتر – أتا = أتارجاتيس) ربّة الخصب السورية، أو ربة منبج (هيرابوليس) وإذا كان زوجها هدد ذا عرشٍ مجنح بالثيران، فإن عرشها هي مجنح بالأسود، وفي عسقلان كانت تبدو نصف امرأة ونصف سمكة، وبما أنها ربة خصبٍ، فقد وجد فيها اليونان نظيراً لأفروديت، وعلى العموم كانت تُعرف بالرَّبة السورية.

وليست أترعتا (أترغات = أتارجاتيس) الجالسة بين أسدين يحفّان بعرشها في معبد التنور وهي تلبس (شيتون) عالي البنيقة، مُجعَّداً تجعيداً خفيفاً حول جيدها، وفي أعلى الثوب طوقٌ ينتهي برأسي أسدين كالذي لزوجها، وتبدو في قسمات هذه الربة، نظرةٌ قوية جذابة، وشعرها مفروق في الوسط، يعلوه تاج مزهر أو كرات، والعينان بشكل لوزتين على جانبي أنف مسنون قصير، وليس هذا إلا وجهاً واحداً من وجوه أترعتا، لأنها في معبد التنور، تظهر في تسعة أدوار، فهي ربة الحياة النباتية، وربة

القمح، وربة الدلفين، وربة الحظ (تايكة)، وربة البروج، فهي واهبة خصب وحياة ... إلخ. ومن الآلهة النبطية التي تأتي في الصف الثاني نذكر أشر، وقوس، والكبتي (مؤنث أكبت).

وقد تم الكشف على معابد نبطية كثيرة، أهمها كما ذكرنا معبد خربة التنور، والمعبد في وادي رم، ويعد معبد التنور من أهم المعالم التي خلّفها الأنباط، وهو يقع على بعد حوالي ميل إلى الغرب من الطريق السلطاني الذاهب من دمشق إلى إيلة، وفي هذا المعبد وُجدت تماثيل أرباب كثيرة، مما تقدمت الإشارة إليه[٣٧٧] ، حيث كانت تظهر بأشكال ومعانٍ مختلفة.

إن هذا العدد الكبير من الآلهة المؤنثة في حياة الأنباط، ووجود ربة أم (اللات – أترعتا) بما تمثله من قوةٍ وسيادة ودورٍ كبير، فهي أم الآلهة وربة الخصب والعطاء، وهي زوجة سيد الآلهة ذي الشرى، الذي إن هو وقف على الثور، فإنها تقف على الأسد، هو دليلٌ واضحٌ على قوة وأهمية هذه الإلهة الأم، فهي تذكرنا بالإلهة الأم ننخرساج (ننماخ) المعروفة منذ عصور السومريين الأكاديين، إضافة إلى وجود الإلهة مناة وغيرها من الآلهة الأنثى العظام، اللواتي ربما فاق عددهن عن عدد الآلهة الذكرية، وهذا يمثل في حدِّ ذاته انتصاراً لمكانة المرأة، لأن المجتمع – وكما رأينا سابقاً – يعكسُ بتفكيرهِ وسلوكه ونظرته للمرأة، من خلال نوعية وصفات الآلهة التي يعبدها، إذ ليس من المعقول أن يتقبَّل الإنسان ربة أنثى له، تحمل في داخلها صفات الأنوثة المعروفة، وتسلك سلوك الأنثى، من حبٍ وغرام وغيرة وولادة وأحاسيس أنثوية وجمال وأناقة وإغراء وإثارة، فيما هو يعامل زوجته أو أخته أو أمه معاملةً سيئة، تنمُّ عن نظرة أبوية ذكورية فوقية مُتعالية عليها.

فالإنسان النبطي، ورغم سكنه في الصحراء وابتعاده عن الخضرة والماء، والتي من المفترض أن تجعل منه إنساناً قاسياً في سلوكه، يُقدِّس الذكر والقوة ويستقوي على

---

[٣٧٧] – عباس، إحسان: تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط ١، ١٩٨٧م، ص ١٢٧ وما بعدها.

الأنثى الضعيفةِ، كانعكاسٍ طبيعي لطبيعة الصحراء التي يحيا فيها، إلا أنه أظهر لنا، ومن خلال عبادته للآلهة الأنثى، عن فكرٍ وسلوكٍ حضاري تجاه الأنثى، فما هذا العدد الكبير من الآلهة المؤنثة، إلا دليلٌ على سمو مكانة المرأة في المجتمع النبطي إلى جانب الإله الذكر، الذي كان موجوداً أيضاً وبقوة في الفكر الجمعي للأنباط.

ومع الانتقال إلى العصور الميلادية، نشاهد بقاء الدور الرّيادي للمرأة إلى جانب الرجل، خاصةً في مجتمع صحراوي بعيد عن الرِّقة، ومُفترضٌ به أن يكون ذكوري النظرة في حياته وخاصة للمرأة، لكن الواقع غير ذلك، فالنبطي بقي غير مُتعالٍ على المرأة، بالرغم من سيادة العنصر الذكري في السياسة والمجتمع والعائلة، فقد حافظت المرأة النبطية على مكانةٍ مرموقة فيها.

إضافة إلى ذلك، فقد كان المجتمع النبطي شبيهاً بالمجتمعات الديمقراطية، فلا عبودية واضحة فيه، فالملوك لا يستخدمون أقاربهم في أعمالهم، فكانوا يخدمون بعضهم بعضاً على مآدب الطعام مثلاً، وقد أورد استرابون في ما يخصُّ ذلك، بقوله: «يمتاز الأنباط باعتدالهم وجدِّهم، حتى أنهم يفرضون عقوبة علنية على كل شخص تتناقص ثروته، وكلما زاد الشخص بثروته، زادت منزلته الاجتماعية، فالثروة مهمة للمكانة الاجتماعية»[٣٧٨].

وكانت العائلة هي الوحدة الاجتماعية في ذلك المجتمع النبطي، ويبدو أنها كانت أيضاً شديدة التماسك، وتقوم على روابط قوية بين أفرادها، ففيها حرصٌ على استمرار الروابط ما بين الجد وابنه وحفيده، كما كان للنسب مكانةٌ ورفعة، فكانوا يفضلون الزواج من بين أبناء جنسهم فقط، فلا يرغبون بالزواج من الغرباء، ولكن إذا ما نظرنا إلى رغبة (سلي) في الزواج من سالومة، ثم زواج أنتباتر الأيدومي من امرأة نبطية، وزواج أنتباس من ابنة حارثة الرابع ملك الأنباط، لحكمنا بجواز زواج النبطي من امرأةٍ غريبة، وزواج الغريب من امرأةٍ نبطية، ويمثل هذا التسامح أمراً مفارقاً إزاء

---

[٣٧٨] – الحمد: حضارة طريق، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

صيحة نحميا، منادياً: «بتحريم الزواج بين اليهود والغرباء عنهم» لكن هذه الأمثلة السالفة الذكر، تبقى في إطار الطبقة العليا، وقد لا تمثل عامة الشعب.

ويؤكد الباحثون على أن المرأة النبطية، كانت تتمتع بمنزلة مرموقة في المجتمع، وأنها كانت تُعامل باحترام، فهي مصونة الحقوق، ويستدلون على ذلك بما كان لربة الخصب (أترعتا) من مكانةٍ سامية بين الأرباب، وأنها كانت تفوق قرينيها زيوس وحدد في القوة والسيطرة، فقد ثبت من خلال النقوش حق المرأة النبطية في الوراثة والتملك والتصرف بأملاكها[٣٧٩]، كما نعثر عند الأنباط على العديد من المُغنين والمُغنيات والموسيقيين والموسيقيات، وعلى نساءٍ يحتللنَ مراتبَ عليا، ولهن شهرة واسعة، وقد استدلينا على ذلك من خلال بعض النقوش التي تخبرنا عن نساء بنين أضرحةً عالية التكاليف دون إذن من أزواجهن، لتكون مدافن لأفراد العائلة بما في ذلك الحفدة أبناء البنت. ومن هذه النقوش – أيضاً – نعثر على عددٍ كبيرٍ، منها ما يتحدث عن إنشاء المرأة أضرحةً لها ولأبنائها دون ذكرٍ لأبيهم، وقد كانت وراثة تلك القبور، تنتقل من الأم إلى بناتها دون ذكرٍ للأبناء، ومن الأمثلة على ذلك، نقرأ في نصبِ (nfs) ما يلي: «فلانة الذي بناه لها فلان زوجها» وهو موجود في السويداء، وكذلك نقرأ في نصبٍ آخر ما يلي: «فلان بن فلانة وفلانة زوجته، الذي بناه ابنهما» وهو موجود في منطقة أم الجمال. وكذلك التابوت الذي صنعه «فلان بن فلان لزوجته بنت فلان الإيباركوس» وقد جاء من بصرى.

وأحياناً يُكتب على القبور، من هو المُستفيد من المدفن، فغالباً ما نجد (المالك نفسه وأولاده وذريته) مذكورين، كما في هذا الترتيب الوارد في العبارة الشائعة ((متلوةً أحياناً – بالتعبير القانوني – أو به)) وبعبارةٍ تحدد أن المالك يُحدد في معظم الأحيان المستفيدين تحديداً، وهم وفقاً لنسبة ذكرهم في النقوش (الزوجة، فالأم، فالأخ، فالأب، فالأخوات وحدهن أو مع أولادهن، فالخالة، كما يُسمح بالدفن إضافةً إلى هؤلاء، لمن

---

[٣٧٩] – عباس: تاريخ دولة الأنباط، مرجع سابق، ص ١٢٢ – ١٢٣.

يُبرِزُ إذناً مكتوباً من المالك نفسه[٣٨٠]، فإن ذكر الزوجة ثم الأم من أوائل المستفيدين في الدفن، يُعدُّ تكريماً لهما، ولمرتبتهما، ولأهميتهما، أي تكريماً للأنثى ومكانتها الاجتماعية عامةً.

الملكة شقيلة وشقيقاتها

إن خير تكريمٍ للمرأة عند الأنباط، هو ما كانت تحظى به من تكريمٍ لها وثقة بها، بجعلها ملكةً تحكم إلى جانب الملك، وأحياناً حُكماً مباشراً بالنيابة عنه في حال غيابه، أو مرضه، أو كونه قاصراً، وخير دليل على ذلك، هو بروز الملكة (شقيلت) (شقيلة) ملكة النبط، التي ذُكر اسمها مع اسم الحارث، وقد دُوِّنت في السنة التاسعة والعشرين من حكم الملك، بما يعادل سنة عشرين بعد الميلاد، فإلى هذا الملك يرجع النص الموسوم بـ REP.EPIG54 ويرجع تأريخه إلى السنة الثالثة والأربعين من حكم الحارث، وقد دُعيَ فيه (مُحب شعبه) (رحم عمه) كما ذُكر فيه اسم زوجته شقيلة.

وإلى عهد الملك (رب إيل) نرى في الكتابة الموسومة بـ REP.EPIG1434 أن للملك شقيقتين، هما جميلت (جميلة) و (هجرو) أي هاجر، وقد نُعِتتا فيها بـ ملكتي النبط. ويظهر أن هنالك شقيقة ثالثة اسمها (فصائل) وربما كانت له شقيقة رابعة سقط اسمها من النص. وقد ذُكرت شقيلا أم الملك (رب إيل) الثاني مع ابنها في نقدٍ (النقود)، وذلك في أثناء عهد وصايتها عليه، فقد انتقل العرش إليه، حينما كان صغير السن. كما كان للملكة شقيلة شقيقٌ يساعدها في تحمُّل أعباء الحكم، أسمه (أنيشو)

---

[٣٨٠] – هزيم، رفعت: هل الكتابات النبطية في مدائن صالح دفنيّة، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٨٣ – ٨٤، ٢٠٠٣م، ص ٥٠، ٥٤.

لعله أنيس. ولما تزوج رب إيل من زوجه جميلة (جميلت) أمر بضرب اسمها مع اسمه على النقود[٣٨١].

كما أن الملك حارثة الذي نتكلم عنه، ما هو إلا الملك حارثة الرابع ٩ ق.م – ٤٠ م وهو أشهر من ضرب النقود النبطية، فقد أصدر نقداً تذكارياً لزواجه من شقيلة التي أصبحت ملكةً بعد وفاة زوجةٍ سابقةٍ له، اسمها خلدو (خليدة) حسب ما ورد في نقشٍ تاريخهُ السنة الخامسة ميلادية وُجِد في بيتولي في إيطاليا، وقد نُقِش على أحد وجهي ذلك النقد صورة نصفية لحارثة، وقد كُللَ رأسه بالغار، وكُسيَ بثوبٍ متدلٍ متجعد، وعلى الوجه الثاني صورة نصفية مزدوجة له ولـ شقيلة، وقد كُسيت أيضاً بثوبٍ متجعد، وعلى غطاء رأسها زينة. وقد كانت الملكة، أيّة ملكة من ملكات الأنباط، تُدعى أخت الملك، وهو زوجها، ولعل ذلك عرفٌ جرى على نسقِ تلقيب الوزير بأخي الملك.

لقد أصبحت شقيلة وصيةً على عرش ابنها رب إيل الثاني ٧٠ – ١٠٦م فهي تظهر على النقود الأولى من عهده، فلما شبَّ وتزوج جميلت، وأصبحت هي – أي جميلت – الملكة، صارت صورتها هي التي تظهر على ما يُصدِره من نقود، وقد استمر هذا الشيء منذ عام ٧٥ م حيث انتهت وصاية شقيلة على ابنها[٣٨٢].

وقد كان الملك يُدعى بالنبطية ملكو أو منكو، وزوجته تسمى ملكا، وقد يُخاطب أحياناً بـ مرنا* وهي لفظة تعني سيدنا أو ربنا.

وكانت بإمكان المرأة عند الأنباط، أن تزوج زواجاً سياسياً، كما حدث عند زواج هيرود أنتيباس صاحب الجليل وملحقاته عبر الأردن من ابنة الملك الحارثة، فقد قضى الزوجان معاً سنوات طويلة، ثم بدا لهيرود أنتيباس سنة سبع وعشرين، حين وقع في غرام هيروديا زوجة فيليب صاحب اللجاة وحوران والبثنية، وكانت في الوقت

---

[٣٨١] – علي: المفصل في تاريخ، ج ٣، ط ٣، مرجع سابق، ص ٤٢ ،٤٨.

[٣٨٢] – عباس: تاريخ دولة الأنباط، مرجع سابق، ص ٦١، ٦٢، ٦٧.

* – من كلمة (مر) وتعني السيد.

نفسه بحكم قرابتها من هيرود امرأة لا يحلُّ له الزواج بها، ويبدو أن زواجها كان مشروطاً بافتراقه عن زوجته ابنة الحارثة، أو بالتخلص منها بطريقة ما، فلما علمت الأميرة النبطية بما يُدبره زوجها، سرت بليلٍ إلى حدود منطقته وعادت إلى أهلها، مما أدى إلى حدوث حربٍ كبيرة بين هيرود أنتيباس ملك اليهود مع الأنباط، وذلك في عهد القيصر الروماني تيبريوس عام ٣٦م، كان سببها الرئيسي زواج هيرود أنتيباس من زوج أخيه على زوجته الأولى، والتي انتهت بانتصار الحارث على خصمه في جلعاد، وتشتيت جيشه[٣٨٣]، ولا شكَّ أن هذا النوع من الزواج، ما هو إلا زواج سياسي، حدث بغية تحقيق مصالح الطرفين.

إن عدم وجود طبقة من العبيد عند الأنباط، إلا ما ندر، يدلُّ على أن المجتمع النبطي، كانت تسود فيه نوعٌ من العدالة والمساواة الاجتماعية، مما يدلُّ على أن المرأة النبطية كانت امرأة تحظى بمكانة مرموقة، ذلك لأنها تعيش في مجتمعٍ أقرب إلى مجتمع الريف والبداوة، على الرغم من كون الأنباط، يعتمدون على التجارة في المقام الأول، إلا أن طبيعة حياتهم في الصحراء تجعلهم يميلون بطباعهم نحو الريف والبداوة، وهذا ما يُكسب المرأة قيمةً عالية بسبب دورها الاقتصادي الهام في المجتمع، خاصةً في اقتصاد المنزل المُعتمد على الغزل والنسيج وصناعة الملابس والرعي والزراعة وصناعة الألبان، والذي كانت المرأة تقوم فيه بالدور الأكبر، مما يُكسِبُها مكانةً عالية عند زوجها وعند المجتمع، ويجعلها سيدة في منزلها وخارجه.

وفي الختام لا بد من القول: أننا لا نريد أن نُصوِّرَ المجتمع النبطي، على أنه مجتمعٌ تخلو منه النساء المُضطهدات، فهذا منافٍ للحقيقة، فلا بد من وجود هذا النوع من النساء، لكن البحوث والنقوش والكتابات، تُثبت أن معظم النسوة كُنَّ يعشنَ بحالةٍ جيدة، قد تحسدهن عليها معظم نساء العصر الحالي.

---

٣٨٣ - علي: المفصل، ج ٣، مرجع سابق، ص ٤٣.

أميرة أفاميا

في هذا العصر، وفي بداية القرون الميلادية الأولى والمعاصرة لنهاية دولة الأنباط، كان للمرأة أحياناً شأن كبير، فقد ارتبطت بها أعظم الأساطير والأقاويل، التي تُعبِّر عن مكانتها وسمو عزتها، وخير دليلٍ نسوقه في هذا المجال، هو أميرة أفاميا* التي ارتبطت بها أسطورة بناء قناة العاشق، تلك القناة العظيمة الواصلة ما بين مدينة سلمية** وبين أفاميا، هذه القناة الموجودة حقيقة، والتي يبلغ طولها ١٥٢ كم وبذلك تُعدُّ من أطول وأعظم المشاريع المائية في القرون الميلادية الأولى، في العالم القديم، والتي أوصلت المياه العذبة من مدينة سلمية مدينة الأقنية***، إلى أفاميا.

ومفادُ هذه الأسطورة، أن حفر القناة كان بمثابة المهر الذي قدَّمه أمير سلمية العاشق♣ إلى محبوبته ابنة أمير أفاميا، ولذلك سُميت بقناة العاشق تيمناً بهذه الأسطورة، ويذكر السيد كامل شحادة في دراسةٍ له نُشرت في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد السابع، ج ١ + ٢، لعام ١٩٥٧م وفي الصفحة ١٥٥، ومن خلال دراسته لهذه القناة ميدانياً، وموجزاً لهذه الأسطورة، يقول: «إنه كان لملك أفاميا ابنة رائعة الجمال، تزاحم على خطبتها، أمير سلمية وأمير جلميدون♦ وكان هواها مع الثاني، ولا تستطيع رفض الأول، وحسماً لذلك، اشترطت، أن من يأتيها بالماء من بلدته لعاصمتها قبل الآخر، يكون صاحب الحظ الأوفر بالزواج منها، فقبلا هذا الشرط وباشر كلٌ منهما العمل فعلاً، باذلاً كلَ جهده لإيصال الماء قبل منافسه، على أن المسافة الكبيرة بين سلمية وأفاميا، لم تمنع أمير سلمية من التغلب على كل

---

* – الجار الشمالي للأنباط، وفي وسط سوريا اليوم.

** – جنوب شرق مدينة حماه، على بعد ٣٣ كم.

*** – حيث يوجد في سلمية حينذاك، وعلى حدِّ زعم معظم المؤرخين، حوالي ٣٦٥ قناة مائية.

♣ – أغلب الظن، أنه كان تابعاً لإمارة (سيمبسي غرام) في حمص.

♦ – هي من قضاء مصياف، تقع غربي بـ حماه ٤٥ كم.

الصِّعاب، فقد سبق مُزاحِمَه وأوشك على النهاية، بينما لاقى أمير جلميدون صعوبات جمّة أخَّرته رغم قرب المسافة بين مدينته وأفاميا، وشعرت الأميرة بتقصيره، فأوفدت من يقول له ((عليك بالخام والقير – القار – يا قليل التدبير)) وعبثاً باءت جميع محاولاته بالفشل، فنجح أمير سلمية بإيصال الماء، وراح يفتخر أمام الأميرة، قائلاً: ((ها أنا أوصلت الماء لمدينتك بقوة معبودي وعطفه)) فأجابته: ((إنك أوصلتها بفضل – هني – لا...)) فمُسِخت الأميرة وأصبحت حجراً»، وعلى الرغم من أن هذه القصة جاءت بمثابة أسطورة، إلا أنها تُثبت بين ثناياها، أن المرأة كانت تحظى بمكانة عالية، فقد كان باستطاعتها وضع الشروط على من يتقدم لخطبتها، مما يدل على ما كانت تتمتع به من حرية في اختيار الزوج المناسب.

المرأة العربية في مملكة الحضر

لقد شُيدت مدينة الحضر في حدود القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد على ما يُرجَّح، وظلت مزدهرة إلى منتصف القرن الثالث الميلادي، حيث دمَّرها الملك الساساني (شابور الأول) عام ٢٣٩م، وتقع بقايا مدينة الحضر في البادية الواسعة ما بين النهرين على نحو ٣ كم عن الضفة الغربية لوادي الثرثار وعلى بعد ١٤٠ كم جنوب غربي مدينة الموصل، ولعلها كانت مركزاً مقدساً للقبائل المنتشرة في المنطقة، شُيِّد فيه موضعٌ لعبادة بعض الآلهة حول مجموعةٍ من آبار المياه، ولا سيما عبادة الإله الشمس، ثم ازدهرت وحكمت فيها سلالةٌ عربية أصلُ ملوكها على ما يرجح من الكهنة ورجال الدين، ولعل أول ملوكها المُسمى سنطروق الذي لقب نفسه بملك العرب، وقد اشتهرت المدينة بمناعة أسوارها وشجاعة أهلها، فهي مدينة شبه مدورة ومحاطة بسورين، أحدهما خارجي واطئ من التراب أو الطين، والثاني داخلي من الحجارة، ويقوم في وسط المدينة المعبد الكبير، الذي خصص لعبادة الإله الشمس، كما شيدت عدة معابد أخرى للآلهة التي عبدها سكان الحضر[٣٨٤]، وقد لعبت مدينة الحضر دوراً بارزاً في بلاد الرافدين مع الفرس، شبيهٌ بالدور الذي لعبته تدمر في بلاد الشام مع الرومان، والذي سيلعبانه المناذرة والغساسنة فيما بعد. وقد كان سقوط الحضر على يد الفرس قريب من زمن سقوط تدمر على يد الرومان.

تُعرف مملكة الحضر باسم عربايا أي بلاد العرب، لأن سكانها من القبائل العربية التي اندفعت نحو الشمال وبلاد الرافدين، خاصة بعد سقوط نينوى عاصمة الآشوريين عام ٦١٢ ق.م بنحو قرنٍ من الزمن.

ولديانة الحضر طابعٌ خاص يُميزها، لذلك سنتعرف على أوضاع المرأة من خلال معرفة هذه الديانة، وذلك بسبب غياب النصوص التي تتناول الحياة الاجتماعية

---

[٣٨٤] – باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، منشورات مطبعة الحوادث، بغداد ١٩٧٣م، ط ١، ج ١، ص ٦٠٧ – ٦٠٨.

لدى سكان الحضر، فديانة الحضر تتألف من عدة آلهة شاركت فيها الأنثى بشكلٍ وافر، إلا أن الحضريين قد خصّوا الشمس بالمرتبة الأولى في عبادتهم، فكانت عندهم مذكراً تُعرف باسم شمش أو شمشا، ويُعدونها كبير الآلهة لديهم.

وكان لدى الحضريين – أيضاً – تثليثٌ يتردد ذكره بكثرةٍ في أدعيتهم وأقسامهم، هو (مرن ومرتين وبرمرين) أي الأب والأم والابن، وكان يقابله عند القدماء (شمش وسن وعشتار) أي الشمس والقمر والزهرة.

إن وضع الأنثى بين أهم ثالوث مقدس عند الحضريين، لا بد وأنه يَعكس مدى تقديسهم للآلهة الأنثى، مما سينعكس إيجابياً على وضع المرأة في الحياة الاجتماعية العامة. كما عبد الحضريون أيضاً الإله نرجول ومجموعة من سبعة آلهة تمثل الكواكب الخمسة إضافة إلى الشمس والقمر.

ومن خلال دراسة المعلومات البسيطة المتوفرة لدينا عن المجتمع الحضري وأصل السكان فيه، وما حملوه معهم من عقائد، نجد أن المرأة الحضرية كانت تحظى بمكانةٍ جيدة في المجتمع الحضري، وقد تجلى ذلك من خلال المراكز الدينية الهامة التي كانت تشغلها المرأة، إضافةً إلى وجودها بين آلهة في التثليث، وهم الثلاثة المقدسين (الأب والأم والابن). كما ذكرنا سابقاً.

إضافةً إلى ذلك، فقد وُجدت في الحضر مجموعة كبيرة من تماثيل النسوة، والتي تظهر المرأة فيها على أنها ذات مكانة عالية لدى المجتمع الحضري، فقد كان حجم التماثيل كبيراً جداً وقد زُينت بحلي كثيرة، أظهرت مبلغ الترف الذي كانت تعيشه المرأة الحضرية.

كما شاركت المرأة الحضرية الرجلَ في الحياة الدينية، من خلال حصولها على بعض المراتب الدينية، مثل كمرتا (الكاهنة)، والذي أكد على ذلك، وجود بعض التماثيل لنسوةٍ بدت عليهن مظاهر التعبد، والتي كانت موجودة في بعض المعابد الحضرية.

فقد وُجِد داخل معبد الإله نرجال تمثالٌ للإله (ذو الشرى)، إلى جانب تمثال للسيدة (قيمي) حيث وُجد اسمها على القاعدة، وكان قد وُضع في سنة (أيلول عام ١٣٨ م) وقيمي هذه، هي: «بنت عبد سميا المحمود، وزوجها بشر عقب الكاتب وأخته عبسة ليطيل الله حياتها وحياة كل صديق لهم».

كما وجد في معبد بعلشمين الحضري تمثال للسيدة (إيل بنت جلبو) أقامه لها زوجها أشا بن شمس لأنها ماتت في سن الثامنة عشرة، وقد كُتب على التمثال: «من يمسُّه بسوء لعنته الآلهة وسيدنا وسيدتنا وابن سيدنا بعلشمين وعشتار، وعلى من قتلها وشمت بقتلها».

وفي معبد سين (إله القمر الحراني) وُجد فيه تمثال للإله آشور بِزيّه العسكري وأمامه فتاة، هي حارسة الحضر، وعند قدميه نسران، وعلى صدره رمز إله الشمس، وعلى قفاه صورة ميدوسا الإلهة اليونانية، إضافة إلى ذلك، فقد وُجد في الحضر معبد بعنوان الإلهات الثلاث، عُثِر فيه على تماثيل الإلهة اللات والعزى ومناة، بما تمثلنه من قوة وعظمة.

وكان للمرأة الحضرية في القصر الملكي مكانة عالية، فقد حظيت بتقديم النذور للآلهة، دلالة على مكانتها ومرتبتها بين المتقدمين للآلهة من قبل رجال القصر. فقد عثر على تمثال للأميرة (دو شفري) ابنة الملك سنطروق، وتمثال آخر إلى ابنتها، وذلك في المعبد الخامس في الحضر. أما في معبد (الإلهات السبع) فقد وجد أيضاً تمثال لنفس الأميرة (دو شفري) ابنة سنطروق الملك السالف الذكر، التي ترتدي غلالة وتتزين بأجمل الحلي، وعلى رأسها عصابة يتدلى منها خمار، وقد صُنِعَ تمثال لها عام ١٣٨م وكتب على أسفله بالآرامية ((يا إلهي بل ارحمها)) وبجانبها وعلى قاعدة تمثالها دُوِّنَ ((سُميَّة، طفلة دو شفرى ابنة سنطروق الملك))، أما في معبد النبلاء، فقد كُشف عن تمثالٍ للإله أورفيوس، ورمزه المنجل المُعلق بحزامه، كما كشف عن تمثال إلهة الجمال أفروديت واقفة وماسكة بيمناها عصاً وقابضةً بيسراها على طرف ثوبها، ويُزيّن رأسها تاجٌ بهيئة هلال ذي أشعة، كما أنه ومن خلال دراسةٍ متأنية للتماثيل

الموجودة داخل المعبد، نستدل على تعدد الديانات والثقافات، بل، تعدد الجاليات التجارية، التي كانت توجد في الحضر، فهناك معبد الإلهات السبع، ومعبد هرقل، وتماثيلٌ لـِ أفروديت وأورفيوس وميدوسا وغيرها من الآلهة متعددة الجنسيات، والتي كان للإلهة الأنثى حضور كبير فيها.

ومما يدل أيضاً على رقي الحضريين، وجود مسرحٍ حجري مكشوف داخل المدينة، وهو إرثٌ متأصلٌ عند سكان بلاد الرافدين، ودلالة على معرفة سكان الحضر بالشعر والأدب والفلسفة اليونانية المعاصرة وغيرها، ولربما أنشدوا فيه أشعار الإلياذة والأوديسا[٣٨٥] ولا بد وأنه كان للمرأة دور كبير في هذا المجال.

إن هذا العدد الكبير من التماثيل الأنثوية وبكافة الأوضاع والأماكن وما تبدت عليه من صورة غنية مُترفة للمرأة، إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على مكانة عالية للمرأة عند الحضريين، الذي أغناه هذا التنوع الثقافي، ما بين يوناني وروماني وفارسي وعربي قديم. كما إن هذا الانفتاح الذي عاشته الحضر، والذي سبّبه لها موقعها التجاري الهام بين أعظم إمبراطورتين حينذاك (الفرس والروم) الذي انعكس إيجابياً على فئة كبيرة من نساء الحضر، ولا بد وأنه شكَّل طبقةً من العبيد، وذلك بسبب الحروب المستمرة وما نتج عنها من أسرى، إضافة إلى قدوم الكثير من العائلات الفقيرة من خارج الحضر للعمل فيها، مما يؤكد على وجود طبقة فقيرة عانت فيها النساء أيضاً من الفقر والحرمان والمعاملة السيئة.

إلا أن المرأة الحضرية الحرة، التي مثَّلت فئةَ كبيرة من نساء الحضر، قد عملت في كافة المجالات، فهي تحمل إرثاً إنثويّا عريقاً، فيكفي أنها كانت تحتل مراتب دينية وسياسية، كما ثبت لها دور كبير في سياسة الدولة.

إلا أن معلوماتنا عن المجتمع الحضري بتفصيلاته الداخلية قليلةٌ جداً، لكننا وبالمقارنة مع الشعوب والحضارات المجاورة لها، نستنتج أنه كان للحضر مجتمعٌ

[٣٨٥] – الحمد: حضارة طريق، مرجع سابق، ص ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨.

طبقيٌّ، فيه من الأحرار والمتوسطين والطبقة الدنيا، إضافة إلى طبقة العبيد، وهنا، لا بد من تفاوت وضع المرأة بين طبقة وأخرى، بما يتناسب مع حالتها الاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما يتوافق مع ما درسناه سابقاً من حضارات وممالك أخرى، لكننا في الحضر اعتمدنا على العدد الكبير من الآلهة الأنثى لإثبات مكانةٍ ساميّة لديهن، غير أن بعض الدارسين، حاولوا التشكيك بمكانة المرأة الحضرية، بجعلها مصدر شؤم وخراب، وهذا ما تجلى من خلال نسب أسباب سقوط المدينة على يد الفرس إلى المرأة، فقد أرجع البعض سببَ سقوط الحضر إلى خيانة أميرة اسمها النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر، وقد ذكروا أنها دلّت شابور الفارسي عن طريقةٍ لدخول المدينة، بيد أن اسمها واسم أبيها لا وجودَ لهما في كتابات الحضر، وليس من دليلٍ على أنهما شخصيتان تاريخيتان[٣٨٦].

---

[٣٨٦] – زكار: تاريخ الوطن العربي، مرجع سابق، ص ١٦٤، ٣٦٢.

نساء عربيّات حَكمْنَ روما

لا شك بأن دخول الرومان إلى بلادنا، وجعلها تحت سيطرتهم المباشرة، أدى إلى تغييرٍ كبير في الخارطة السياسية للمنطقة، وهذا أمر يحتاج إيضاحه إلى دراسة أخرى، لكن المؤكد أن الحياة الاجتماعية في بلادنا، حافظت وبمقدار وافرٍ على الكثير من العادات والتقاليد العربية الموروثة، وقد تجلى ذلك في الإمارات العربية التي بقيت تحكم في ظل السيطرة الرومانية، كما حدث عند الأنباط وفي تدمر وفي حمص، هذه المدينة التي قدمت أفضل الأمثلة عن المرأة العربية الحاكمة العالمة القادرة على قيادة الدول، إضافة إلى محافظة المرأة على مكانتها في الريف عامة.

لكننا، وقبل الدخول لمعرفة أوضاع النسوة الحمصيات اللائي تسنَّت لهن فرصة الوصول إلى السلطة في روما، نؤكد على أنهن لم يكنَّ أولى السيدات العربيات اللائي استطعن الوصول إلى السلطة في روما، وإلى ذروة المجد، فعلى سبيل المثال كانت والدة الإمبراطور الروماني تراجان كنعانيةً من إسبانية، وهذا ما يُفسر دخول تراجان إلى البتراء سِلماً وليس حرباً عام ١٠٦ م، فلا بد وأن كان لوالدتهِ العربية تأثير على ذلك، وأيضاً كانت والدة الإمبراطور هادريان كنعانيةً من قادس (إسبانيا) وتدعى سابينا، كما أن زوجة الإمبراطور أنطونيوس بيوس ١٣٩ – ١٦١م التي تدعى (فوزتينة) كانت إسبانية من أصل كنعاني، والدليل على ذلك أن اسمها مركب من كلمتين هما (فوز + تينة)، وتينة ما هي إلا الإلهة تانيت، وهي الإلهة المعبودة لدى الكنعانيين في قرطاجة. كما أن جدة الإمبراطور كومودوس ١٨٠ – ١٩٢م كانت إسبانية من أصل عربي كنعاني[٣٨٧]، مما يدلُّ على مكانة المرأة العربية، وقدرتها على الوصول إلى أعلى مراكز السلطة، ذلك لِما لها من تاريخٍ عريق في المكانة والحكمة والذكاء، وهذا ما قدَّره – بكل تأكيد – كلّ رجل ارتبط بواحدةٍ منهن.

---

[٣٨٧] – قبيسي: الكنعانيون والآراميون، مرجع سابق، ص ١٧٠ .١٨٧.

وبالعودة إلى حمص ونسائها الشهيرات، فقد ذكرنا سابقاً، أن التواجد العربي على مسرح الأحداث السياسية لم يغب طيلة فترة الحكم الهلنستي والروماني، وذلك بسبب تواجد بعض الإمارات العربية، ومنها: الأسرة العربية التي حكمت حمص والرستن، أي في وادي العاصي، تحت سلطة سيمبسي غيراموس، الذي كان قد تحالف مع جاره عزيز في الشمال بالتدخل في شؤون الأسرتين السلوقيتين الأخيرتين، وقد كانت جوليا دومنا تنتمي إلى هذه الأسرة العربية التي حكمت حمص، وكانت صاحبة الفضل في شهرة أخواتها الأخريات، لكنها بقيت صاحبة الشهرة الأوسع.

كانت حمص في ذلك الحين أي في القرن الأول والثاني للميلاد مشهورة بعبادة (إيلاغبال = إله الجبل) الذي كان إلهاً شمسياً يُرمَز إليه بحجرٍ أسود مخروطي الشكل، وقد أشرفت هذه الأسرة العربية على عبادة هذا الإله.

بدأت القصة عام ١٥٤م عندما وُلدت لكاهن معبد إيلاغبال الحمصي واسمه جوليوس باسيان ابنة هي دومنا، والتي لُقبت بـ جوليا دومنا، وشاءت الظروف أن تتزوج من القائد سبتيم سيفيروس، وهو من أصل ليبي، والذي سيصبح إمبراطور روما فيما بعد، وستصبح معه جوليا دومنا إمبراطورة روما الأولى، أما عن قصة زواجها فهي طويلة ويمكن الرجوع إليها من خلال بعض الكتب التي تناولت حياتها كـ كتاب (إمبراطورات سوريات) لمؤلفه جان بابليون، لكن المهم الآن، هو معرفة مقدار ما توصلت إليه هذه المرأة في روما من عظمة وسؤدد، فقد لُقِّبت بـ (أم الوطن) و (أم مجلس الشيوخ) و (أم الجيوش) و (أم القياصرة) وذلك لِكِبر نفوذها وتأثيرها في الحكم.

وإضافة إلى ألقابها السابقة، فقد أرادت أن تكون أيضاً أمُّ الآلهة نفسها، وهذا ما حصلت عليه فعلاً فيما بعد، كما ساعدت جوليا دومنا على انتشار النفوذ الثقافي السوري في روما، حيث أحاطت نفسها بعددٍ كبير من المفكرين والعلماء والأطباء السوريين.

كما شجعت جوليا دومنا العلم والأدب، وقد كان من أهم المتأدبين في صالونها الأدبي ومن أصدقائها (فلافيوس فيلوستراتوس) والذي اشتهر بعد تأليفه كتاباً عن حياة

أبوللونيوس وهو الذي عبَّرَ عن أفكار جوليا دومنا في الأخلاق والدين[٣٨٨]، كما لم يكن الأدب هو الاهتمام الوحيد الذي شغل جوليا دومنا، بل اهتمت كثيراً هي وأصدقاؤها بشكلٍ متساوٍ إن لم يكن زائداً في مسائل الفلسفة وعلوم الطبيعة، ولقد كانت جوليا دومنا تحكم إلى جانب زوجها في حال وجوده، وفي حال غيابه كإمبراطورة مستقلة، فقد حاول البعض تشبيههما بزوجين ملكيين، كما حكم فرديناند وإيزابيلا الإسبانيان الكاثوليكيان اللذان كان كل منهما نداً للآخر ومساوياً له في الحكم[٣٨٩] ، وقد أنجبت جوليا دومنا من سبتيم سيفيروس ولدين هما (جيتا) و (باسيان) المعروف باسم (مارك أوريل انطونيان) والذي اشتهر أيضاً باسم الإمبراطور (كاراكلا) (نسبة إلى ثوب الكاركال وهو رداء سوري يشبه العباءة)، والذي قُتِلَ غدراً، فبلغ جوليا دومنا خبره وهي في انطاكية فماتت حزناً وغماً عليه، وذلك بأن تركت نفسها تموت جوعاً عام ٢١٧م وحُمِلَ رماد جسدها ووضع في مدفن أوغست في روما[٣٩٠] ، وبذلك انتهت حياة امرأة من أعظم نساء التاريخ العربي تاركةً لنا إرثاً تمثَّل في سلالة من قريباتها اللواتي حكمن روما مدةً من الزمن بعدها، وإن من وراء أزواجهن.

فكانت جوليا ميسا، وهي أخت جوليا دومنا، والتي كان لها إسهام كبير في الحكم، حيث حصلت على لقب أوغستا الذي يحمله الأباطرة عادة، وقد ولدت ابنتين، الأولى جوليا سوميا، وهي أم الإمبراطور إيلاغبال، الذي كان كاهن معبد الشمس في حمص قبل توليه الإمبراطورية ولُقِّبَ بلقب فيتوس، والثانية هي جوليا ماميا أم الإمبراطور الإسكندر سيفيروس[٣٩١]، ولما ماتت جوليا سوميا وولدها الإمبراطور

---

[٣٨٨] – تورتون، جودفري: أميرات سوريات حكمن روما من ١٩٣ – ٢٣٥م، ت. خالد أسعد – أحمد غسان سبانو، دار الريم للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٨٧م، ص ٨٩، ٩٥.

[٣٨٩] – بابليون، جان: إمبراطورات سوريات، ت. يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م، ط ١، ص ١٣٥.

[٣٩٠] – القيّم: المرأة في، مرجع سابق، ص ١٨٢، ١٨٣.

[٣٩١] – معرض المرأة السورية، مرجع سابق، ص ١٠٤.

(فيتوس = إيلاغبال)، انتقل الحكم إلى ابن خالته الإسكندر سيفيروس، الذي رفع من شأن أمه جوليا ماميا وجدته جوليا ميسا[٣٩٢].

أما عن جوليا ماميا والدة الإمبراطور الإسكندر سيفيروس التي لُقبت بأم الجنس البشري كله، فكانت تحب السلطة وتدعو إلى نبذ البغض، وقد اعتنقت جوليا ماميا الديانة المسيحية بعكس جداتها، وشاءت بها الظروف أن تقابل أوريجين المسيحي*، وذلك حين ارتحاله إلى انطاكية، حيث كانت تقيم جوليا ماميا، وقد تأثر بها ابنها الإسكندر سيفيروس وأصبح مسيحياً[٣٩٣]، كما قامت جوليا ماميا أيضاً بإنشاء مؤسسة حملت اسمها (مؤسسة أولاد وبنات ماميا للرعاية الاجتماعية).

لقد دام حكم سيفيروس ١٣ سنة ٢٢٢ – ٢٣٥ م حيث تعرض بعدها للاغتيال مع والدته من قبل أحد قادته في خيمة بالقرب من نهر الراين عام ٢٣٥م وذلك أثناء حروبه مع الجرمان، مما أدى إلى زوال حكم الأسرة السورية عن روما.

إن العام ٢٣٥م هو العام الذي قُتلت فيه آخر الأميرات السوريات، فهو عام له أهمية بين الفترات الحاسمة في التاريخ، فقد كان بداية نهاية الإمبراطورية الرومانية، ونهاية تلك المنجزات السياسية التي قدَّمت السلم والنظام وكثيراً من الحرية إلى الأكثرية من سكانِ منطقةٍ تُعتبر هي العالم المتحضر بأسره، ففي أوائل ذلك القرن احتج الشاعر جوفينال على السيطرة السورية خاصةً، والشرقية عامةً، على الحكم في روما، جالبةً معها عاداتها وتقاليدها، والتي جعلت من روما تلميذة أمام عظمة معلماتها الشرقيات، وقد استعمل هذا الشاعر عبارةً طالما اقتبسها منه الأدباء، وهي: «لقد فاض نهر العاصي وغمر نهر التيبر» ففي أعالي نهر العاصي تقع مدينة حمص ومعبدها الشهير، معبد الإله إيلاغبال، وإن روما معذورة إذا حزنت وندبت

---

[٣٩٢] – القيّم: المرأة في، مرجع سابق، ص ١٨٤.

* – وهو الأب الإغريقي الذي قام بتوحيد الفلسفة بين المدرسة الاختيارية للأفلاطونية الجديدة والمعتقدات المسيحية.

[٣٩٣] – شهيد: روما والعرب، مرجع سابق، ص ٩٢.

حظها عندما انقطع فيضان نهر العاصي وانعدم اتصاله بنهر التيبر[٣٩٤]، وما سينتج عنه من تراجع في قوة روما وحضارتها.

لقد كان لتأثير هؤلاء النسوة على روما بعدٌ حضاريٌّ إنساني، جعل نساء روما ما قبل حكم الإمبراطورات السوريات، يختلفن عن نساء روما ما بعد حكمهن. فقد أخذت المرأة في عصر السبطيين (من سبتيموس) العرب في مجتمع روما دورها، فظهرت على مسرح الأحداث لتشارك الرجل في الشؤون العامة، وكان ذلك ممثلاً ببعض نساء الأباطرة، ولا سيما جوليا دومنا، فقد كان لها منتدى أدبيٌّ وفلسفي، وكانت تحب أن تُنادى بالفيلسوفة وغيرها من الألقاب الرفيعة.

كما كانت المرأة الرومانية قبل مجيء السبطيين، بعكس المرأة العربية، التي كانت تمثل الانفتاح المحدود مع الحشمة المتعارف عليها آنذاك، وكان موضوع الخيانة الزوجية أو الارتباط غير الشرعي شيئاً يرفضه المجتمعان العربي والروماني، وقد قدم الرجال ذوو الأصول العربية نموذجاً جلياً في احترام النساء والإخلاص لهن بعد مماتهن، فهذا سبتيم سيفير يُقيم تمثالاً لزوجته الأولى (باكسيا مار سانا) في قرتا الكنعانية (قسنطينة الجزائرية اليوم) إخلاصاً لها.

ولأول مرة في التاريخ الروماني، فقد أنشأت النساء في العصر السيفيري مجلساً للشيخات يعادل مجلس الشيوخ، وهو كاتحاد نسائي (إذا صح التعبير) برئاسة جوليا سوميا والدة الإمبراطور إيلاغبال، كانت مهمة هذا المجلس البحث في الملابس الخاصة بالنساء أثناء الاحتفالات الدينية في معبد جوبيتر، وعن ترتيب المشية والخطوة، وكذلك عن المرتبة التي تُخوِّل المرأة أن تسوقها عربة تجرها البغال أو عربة تجرها الثيران[٣٩٥].

إن مدينة أنجبت هكذا أميرات (إمبراطورات) حكمن العالم، لقادرة على أن تنجب الأخريات اللواتي يمكن أن يكنَّ نموذجا للمرأة العالمة المثقفة المتحررة. ففي ذلك

---

[٣٩٤] – تورتون: أميرات سوريات حكمن روما، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

[٣٩٥] – قبيسي: الكنعانيون والآراميون، مرجع سابق، ص ٣٠٩ وما بعدها.

الزمان، لا بد وأن نساء حمص والإمارة كافةً، كُنَّ على درجة عالية من الأهمية والمكانة والرِّفعة، وإلا، كيف تستطيع مدينة واحدة أن تنجب عدة أميرات يحكمن العالم؟؟؟، لو لم تكن تلك التربة وتلك المياه التي عِشْنَ عليها وشربنَ منها ونهلن من ثقافتها وتربيتها، التي تعطي للمرأة حقها، فتُكسِبُها ثقةً بنفسها، وتجعلها قادرةً على حكم العالم، وتحريك الأباطرة بأصابعها، كما تُحرَّكُ قطع الشطرنج. وهذا ما فعلته كل من جوليا دومنا، وجوليا ميسا، وجوليا سوميا، وجوليا ماميا حاكمات روما.

إن هؤلاء النسوة، ما هُنَّ إلا نموذجاً برز من مجموعةٍ كبيرةٍ من النساء العربيات اللواتي لو قُدِّرَ لهن – وجاءت الفرصة المناسبة – لحكمنَ العالم، وعلى أقل تقدير لأعطينَ العالم نماذج مختلفة في العطاء السياسي والفكري والثقافي والإنساني، فنساء حمص لم يكنَّ فقط حاكمات، بل رُسلاً ومبعوثين وسفراء حقيقيين للمرأة العربية في ذلك العصر، الذي كان الرومان فيه كبحرٍ هائجٍ يُحيط بجزرٍ عربية انتماءً وثقافة وعطاء.

فأين نساء العصر الحالي من نساء حمص والأنباط وتدمر* ؟!!! أم إننا نعتقد أن نساءنا المعاصرات قادرات على حكم الدول !!!؟، بعدما فشلن في ارتياد المراكز الثقافية، وعدم التمييز ما بين الثقافة والموضة.

---

* – كما سنرى لاحقاً، لكن مع فارق كبير في الزمن.

المرأة العربية في تدمر

عندما وصلتُ إلى الكتابةِ عن المرأة في تدمر، شعرت وكأنني أمام هامةٍ كبيرةٍ من العزة والرِّفعة، أمام شخصيةٍ ضنَّ بها التاريخ العربي، شخصيةٌ، ربما نفتقد الكثير من مواصفاتها بين نساء العصر الحالي، إنها المرأة التدمرية بغناها وسلوكها وعملها، وما تمثله في المجتمع التدمري خاصةً، والعربي عامةً، قبل دخول الإسلام، وبعده.

وعلى الرغم من قِلة المصادر الكتابية حول المرأة التدمرية قياساً لعمرها الزمني، فتدمر لم تُدمَّر إلا عام ٢٧٢م وهذا ليس بالعام البعيد، قياساً لعصور ما قبل الميلاد، لكننا، ومن خلال ما توفر لدينا من نصوصٍ ونقوش ورسومات وتماثيل، أمكننا معرفة ما لهذه المرأة من عظمةٍ ومكانةٍ عالية في قلب الصحراء العربية السورية.

لكنني، آثرت – وقبل الدخول للبحث عن جمال وعظمة المرأة العربية التدمرية – أن أُمهِّدَ لها، بالتوقف قليلاً عند المرأة المعاصرة لها في بلاد الشام عامةً، فقد قدمت لنا التنقيبات الأثرية في كافة المناطق السورية، العشرات من التماثيل واللقى التي تُعبر عن مكانةٍ عاليةٍ للمرأة، ففي كل المواقع، من أفاميا، ومروراً باللاذقية، وليس انتهاءً بِ دورا أوروبوس والمناطق الجنوبية، كُنّا نعثر دائماً على ما يؤكد عظمة هذه المرأة، رغم معرفتنا المُسبقة بوجود نماذج وتداخل ثقافي مع الثقافات الأخرى، اليونانية والرومانية وغيرها، خاصةً داخل المدن، ولكن هذا، وبكل تأكيد يُعطينا فكرة عن طبيعة المرأة في هذه المنطقة، بالرغم من وقوعها تحت سيطرةِ المستعمِر بما يحمله من ثقلٍ ثقافي وعرقي، فكانت تماثيل فينوس وأفروديت منتشرةً في كل مكان، لكنني سأكتفي في هذه العُجالة، بذكرِ ثلاثة نماذج تمثل المرأة بأحلى مظهر، وذلك قبل الدخول في عالم نساء تدمر المَهيب.

ففي منبج، عُثر على تمثال من الفخار الأجوف يمثل موسيقيتين، اليمنى تعزف على آلة موسيقية وترية، والثانية تقرع دفاً، كلتاهما ترتديان ثوباً طويلاً، شعرهما المفروق من المنتصف مزينٌ بإكليل، فهما تمثلان المرأة العازفة بأبهى حُلَّة، وهما

تعودان إلى القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد. وكذلك عثر في منبج على تمثالٍ يعود للقرن الثاني للميلاد ويُمثل سيدةً شابة تجلس على كرسي مزخرف الجوانب، ضمن محراب تعلوه صدفة بحرية، ترتدي ثوباً فضفاضاً، شعرها مُصفف للأعلى وتسند يدها اليمنى على فخذها، وتضع اليسرى على مسند الكرسي، كما تتزين بعقدٍ حول جيدها، وبسوارٍ بكل يد، وفي أسفل المحراب كتابةٌ يونانية، تشير إلى صاحبة التمثال واسمها (مارتاما) وبأعلاه نطاق تزييني.

وفي بانياس الجولان، فقد عُثر على تمثالٍ نصفي برونزي يعود للقرن الثاني الميلادي، يُمثل امرأةً جميلة، شعرها متموج ومضفور للخلف، وتزينهُ بعقدةٍ وإكليل. تُعبر ملامحها عن تفكيرٍ عميق، وقد تدثرت بثوب حريري رقيق ينحسر قليلاً عن كتفها الأيسر، وقد تكون – هذه المرأة – هي الربة (أفروديت) ويُحيط بالتمثال إطار مستدير[٣٩٦].

وهكذا نجدُ تداخُلاً، ما بين المرأة العربية، مع الإغريقية والرومانية، وذلك من حيث اللباس، وبعض التمازج الثقافي، لكنها في تدمر، سَتُحافظ أكثر على عروبتها، فتدمر مدينة القبائل العربية، بامتياز.

لمحة تاريخية عن تدمر

لن نخوض كثيراً في تاريخ تدمر، فهي غنيةٌ عن التعريف، لكننا سنكتفي بذكر أهم ملامح تاريخها البارزة للتذكير فقط، فهي إحدى أهم الممالك العربية، التي استمرت إبان الحكم السلوقي والروماني، فكانت عربية الهوى والثقافة، مع بعض التأثيرات من ثقافات اليونان والرومان والفرس.

تدمر واحةٌ وسط بادية الشام، تقوم حول نبع ماءٍ غزير، وتقع في منتصف المسافة – تقريباً – بين الفرات في الشرق ودمشق وحمص في الجنوب. ولقد ورد اسم

---

[٣٩٦] – معرض المرأة السورية، مرجع سابق، ص ١١١، ١٤٢، ١٦٦.

تدمر لأول مرة حوالي ١٨٠٠ ق.م في محفوظات ماري، ثم ورد في نصوص الملك الآشوري تجلات فلاصر الأول حوالي ١١١٧ – ١٠٧٧ ق.م وذلك في صيغة (تدمر أمورو) أي تدمر الأموريين[٣٩٧]، كما أن تدمر تُدعى بالآرامية (تدمرتو) وتعني الأعجوبة، وذكرت أيضاً في رُقيّم من إيمار (مسكنة) على الفرات في القرن ١٤ ق.م.

وكان أهل تدمر يتكلمون اللغة العربية باللهجة الشمالية، ويكتبون بالخط الآرامي، وفي العصر الروماني ذُكرت تدمر باسم (بالميرا) وكان حكام سوريا اليونان يدونون اسم تدمر باليونانية باسم بالميرا.

كما كانت تدمر من أهم المحطات على الطرق التجارية، خاصةً بعد سقوط دولة الأنباط وإلحاقها بالولاية العربية. وفي زمن الإمبراطور هادريان مُنحت تدمر الحرية الكاملة، وذلك عام ١٣٨م كما أُعفيتْ تجارتها من الضرائب، ودُعيَّت المدينة باسم هيدريانا بوليس مما زاد في تجارتها وغِناها، حيث وُضِع لها القانون المالي. وفي سنة ٢٥٨م أصبح شيخ تدمر أذينة بن أحيران حاكماً لولاية سوريا الفينيقية (حوران وقلمون وتدمر)، والذي لُقِب بـ (مقوّم الشرق كله) كما أصبح ملكاً يحمل لقب سبتيموس أذينه، كما أصبح قائداً للجيوش الرومانية، لكنه فيما بعد قُتِل بمؤامرة على يد ابن أخيه معن ومعه ابنه حيران، فتولّت قيادة الجيش زينب (زنوبيا) ٢٣٠ – ٢٧٣م باسم ولدها الأصغر وهب اللات عام ٢٦٨م إلى أن سقطت تدمر على يد الإمبراطور الروماني أورليان عام ٢٧٣م، الذي دمَّرَ تدمر وأنهى حضارتها[٣٩٨] وأسر الملكة زينب، وأخذها معه إلى روما.

---

[٣٩٧] – هبو، أحمد أرحيم: تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة تشرين ١٩٨٩ – ١٩٩٠م، ص ١٩٨.

[٣٩٨] – الحمد: حضارة طريق التوابل، مرجع سابق، ص ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢.

الحياة الدينية في تدمر

كان التدمريون يُدينون بالوثنية، وقد زاد عدد آلهتهم على الأربعين، أعظمهم ثلاثة هم: الإله بعل، وهو الإله الوطني لتدمر وعبادته معروفة قديماً، والإله بعلشمين أي سيد السماء، وهو حامي الزراعة، والإله يرحبول وهو إله الشمس، وكانت هذه الآلهة الثلاثة تُعبد معاً في معبدٍ واحدٍ، فيمثل بعل في الوسط وعلى يمينه بعلشمين، وعلى شماله يرحبول، وقد عَرِفَ التدمريون اللات والعزى ومناة، وهن آلهة مؤنثة.

كما عبد التدمريون أيضاً آلهةً أخرى، بابلية الأصل، وعبدوا الإله حدد والإلهة عشتروت وهما سوريان، وقد كان رجال الدين في تدمر أقوياء، يقيم بعضهم في المعابد الرئيسية وبعضهم يعيش في القبائل، وكانوا يشرفون على الطقوس الدينية التي تقام بمناسبة الأعياد، حيث تُشرَب فيها الخمور، وتُقدم الأطعمة على موائد خاصة، كما كان دفن الموتى يجري باحتفالاتٍ ذات طقوس خاصة، تُنصَبُ فيها الموائد[٣٩٩].

وقد آمن التدمريون بوجود آلهةٍ مؤنثة، كان من أعظمها اللات والعزى ومناة، واللات هنا كما اللات عند الأنباط، تمثل الإلهة الأم، ولها مكانة عظيمة لدى التدمريين، كما احترم التدمريون آلهةً مثل عشتار وفينوس وأفروديت وغيرها من الآلهة الأنثى، وهو استمرارٌ طبيعيٌ لموروثٍ ثقافيٍ دينيٍ قديم. فهم بالمجمل، عربٌ عاشوا في نفس المنطقة منذ آلاف السنين، وكأني أرى فيهم بابلياً وآشورياً وآرامياً وكنعانياً، وهذا ما يُفسِّرُ مدى أهمية المرأة في العقل الجمعي التدمري، لِما لها من أهميةٍ في ثقافة سكانها القدماء، يُضاف إلى ذلك، الغنى الاقتصادي، الذي عاشت فيه تدمر بسبب تجارتها الرائجة وموقعها التجاري الهام، وبسبب الانفتاح الكبير للتدمريين على كافة الشعوب والأمم، فهم بوابة فارس على روما، وبوابة الرومان على فارس، كما أنهم على طريق التجارة الهام بين الشمال والجنوب، مما أدى إلى تنوع الثقافة

---

[٣٩٩] – زكّار: تاريخ الوطن العربي القديم، مرجع سابق، ص١٤٢ – ١٤٣.

التدمرية، ووجود جالياتٍ مختلفةٍ فيها، إضافةً إلى وجود العديد من العبيد في أسفل السلم الاجتماعي، مما انعكس على وضع المرأة التدمرية إيجاباً، فكانت نموذجاً للمرأة الجميلة، العاملة، التاجرة، المُزارِعة، الملكة، الأميرة، الراهبة، الشاعرة، والفيلسوفة، وربما العبدة والأمة، وغير ذلك من الشخصيات الهامة التي لعبتها نساء تدمر.

المجتمع التدمري

لقد قام المجتمع التدمري التجاري على طبقتين:

طبقة الأشراف

قوامها العائلة المالكة، التي هي رأس المجتمع، ومن حولها مجلس الشيوخ المُكوَّن من النبلاء، وهم عربٌ وسريان، ويشكلون غالبية التجار والملاك الزراعيين. والنبلاء في تدمر، هم الذين يقومون بأعمال نبيلة من أجل تدمر، لذا لم تكن هذه الطبقة مُستقرة، بل كانت دائماً تُطَعَّم بعناصر جديدة. وكان الكهنة يحتلون مكانة رفيعة ومحترمة، ويُناط بهم خدمة المعبد وتقديم الذبائح، وكانت هذه الطبقة وراثية، وكان رجال العلم والثقافة يحتلون مكانةً عالية في المجتمع، إلى جانب القادة العسكريين، وكانت المرأة التدمرية بشكل عام، ذات مكانة مرموقة في المجتمع، فهي حرة وتعمل في الكهانة، وهي تاجرة وصاحبة قافلة تجارية، وقد تتولى الحكم أيضاً.

طبقة عامة

من التجار الصغار، ومن الفلاحين والصُنّاع والأطباء والكتّاب، أما العبيد، فهم أقلية، لأن العبد كان مُكْلِفاً، وكانوا يشتغلون خدماً في المنازل، ويعملون في حقول تدمر (زيتون – نخل) وكرعاةٍ ومرتزقة في حراسة القوافل.

وإن من أهم الوثائق التدمرية، التي تأتي على ذكر العبيد في تدمر، هي التعرفة الجمركية المشهورة، ففيها يكون العبيدُ، من ضمن مجال تجارة الترانزيت، فقد كان العبيد يُجلبون إلى داخل حدود تدمر، ثم يتم بيعهم في داخل المدينة، وفي ضواحيها،

وربما يتمُّ إخراجهم خارج تدمر، أي معاملتهم كسلعة تُباع وتُشترى، أي أنهم بمثابةِ ملكيةٍ خاصة، ففي إحدى النصوص الواردة في التعرفة الجمركية، وهو نصٌّ من السطر ٢ – ٦، وفي اليوناني ١ – ٨، نقرأ: «يأخذ الجابي ممن يُدخِلونَ العبيد إلى تدمر أو إلى إقليمها، عن كل عبدٍ ٢٢ ديناراً، وعن العبد الذي يُباع في المدينة، ولا يُصَدَّرُ منها ١٢ ديناراً، وعن العبد القديم ١٠ دنانير، وإذا صدَّرَ المشتري العبيد يدفع عن كل منها ١٢ ديناراً ... »[٤٠٠]، ولكن العبد، يمكن أن يتحرر – أحياناً – ويستعيد بعض حقوقه، فقد تطرَّقت بعض الوثائق في تدمر، إلى أولئك الذين تحرروا من العبودية، حيث أشارت إحداها، إلى أن أحد السادة حرَّرَ عبدته ليتزوجها.

كما وُجِدَ في تدمر فئة تُسمى بالمومسات، ويبدو أن عملهن كان مُرخَّصاً، مقابل دفع بعض الضرائب، بما يتناسب مع دخلهن من هذا العمل؟، فقد تبيَّن خلال بعض المواد المُدرَجة على لوائح مواد التعرفة الجمركية، ما يخصُّ عملهن، ففي المادة التي تحمل الرقم: (تدمري السطر ٤٨ – ٥٢، يوناني السطر ٧٥ – ٧٩) يرد ما يلي: «ويُجبى من المومسات اللواتي يتقاضين ديناراً أو أكثر، ديناراً واحداً من كل منهن، وممن تتقاضى ٨ آسات، وممن تتقاضى ٦ آسات يُجبى ٦ أسات ... »، ويبدو أنه الرسم الشهري، أي أن المرأة المومس تدفع رسماً شهرياً بمقدار ما يعادل ما يتقاضينه في المرة الواحدة.

كما ذكر القانون، وفي المادة ٢٥ منه: نساءً، تحت أسم "النساء العموميات"، وقد ورد اسمهن في النص اليوناني تحت اسم "خليلة". فتحت ما يُسمى بـ "الخليلات"، أوردت التعرفة الجمركية التدمرية قانوناً خاصاً بهن، يحمل الرقم: (تدمري ١٢٥ – ١٢٨، اليوناني مشوَّه) كما يلي: «يتناول الجابي رسماً قدره دينار من كل امرأة تتقاضى ديناراً أو أكثر، أما إذا كان هناك من يتقاضى أقل، فيتناول منها رسماً يعادل

[٤٠٠] – البني، عدنان: تدمر والتدمريون، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م، ص ٢٤١.

ما تتقاضى»[٤٠١]. وهذا ما يؤكد على أن المجتمع التدمري، كان مجتمعاً متنوعاً، مُنفتحاً، نجد فيه من كلِّ الألوان والأجناس.

لقد كان العنصر العربي، هو العنصر السائد في تدمر، فكانت هناك أربع عائلات، أو أربع عشائر أساسية في المجتمع التدمري، ولكن عند موت رأس العائلة، كانت، إمّا أن تنقسم إلى عدة عائلات مستقلة اقتصادياً عن بعضها البعض، أو كانت تحافظ على وحدتها وتنمو تحت سلطة أخ واحد أو عدة أخوة، وكان يتم تكريم الأب أو الابن، من خلال إقامة نصبٍ له، خاصةً إذا كان يقوم ببعض الأعمال الخيرة، وقد كان يحق للنساء إقامة نُصبٍ تذكارية، إذا كُن على الأرجح يتمتعن بملكية خاصة بهن.

وكان يُقام للزوجة نصب تذكاري أحياناً، فقد أقام أحد أعضاء بعض العشائر – ويدعى سريكو – نصباً تذكارياً لزوجته (مرتى)، يقول النص اليوناني: «تكريماً لذكرى مرتى ابنة اليكساندر المُلقب أيضاً بادي بن وهب اللات بن سمعون، أقامه سريكو بن خيران، في شهر دينستر عام ٤٩٠» أي ما يعادل ١٧٩ م.

ويقول نصٌّ آخر: «هذا النص لمرتى ابنة إيادي بن وهب اللات بن سمعون أقامه لها سريكو، زوجها بعد وفاتها تكريماً لها، وفي شهر آذار عام ٤٩٠» أي ١٧٩ م. وهذه العائلة من قبيلة الذبيدبوليين العربية[٤٠٢].

أما عن الأسرة التدمرية، فكانت مُكوَّنةً من الأب والأم والأولاد، وكان المنزل التدمري – عادةً – يضمُّ جناحين، واحدٌ خاص للأسرة، تقيم فيه المرأة مع زوجها وأولادها ولا يدخله غريب، وجناحٌ للرجال، وفيه المضافة، حيث يجلس الرجال وضيوفهم ويأكلون ويسمرون.

---

٤٠١ – المصدر نفسه: ص ٢٤٥، ٢٥٤.

٤٠٢ – شيفمان: المجتمع السوري القديم – القرن ١ – ٣ م، ت. حسان إسحق، منشورات مؤسسة الوحدة، دمشق ١٩٨٧، ص١١٥ وما بعدها.

وكان الوضع العام في الأسرة، مُفعمٌ بالاحترام والحب والتقدير المُتبادل، فكان الزوج ينادي زوجته باسمها مجرداً أو بكنيتها المنسوبة إلى ولدهما الأكبر، وقد يناديها كذلك بـ (ربة البيت أو ربة الخدر) وهي بالمقابل لا تناديه باسمه مجرداً إلا ما ندر، وإنما تطلق عليه احتراماً اسم (ابن العم) أو تكنيه بولده الأكبر، كما يفعل هو معها.

وقد كانت معظم نساء تدمر، عندما يخرجن من المنزل يضعنَ على رؤوسهن غطاء الرأس، وهو يختلف عن الحِجاب المعروف حالياً، ونلاحظه عادةً لدى المرأة في النقوش القائمة على قبور التدمريين[٤٠٣].

إن نظام الأسرة في تدمر، كما هو الحال في النظام العشائري العربي والروماني في ذلك العصر، كان يتركَّزُ على رب الأسرة بالمعنى الواسع، وهو حجر الزاوية في البيت، يزداد قدره بزيادة سِنِّهِ واتساع عدد أفراد أسرته وحرمه وعبيده، وهو السيد المطلق على أسرته، ولا رادَّ لمشيئته.

على أننا نستنتج مما لدينا من منحوتات وصكوك، أن الزوجة على الرغم من سيادة الرجل، كانت ترث وتورِّث، والأمر ظاهرٌ خاصةً من لوحات تأسيس المدافن واقتسامها، ومن ذلك مثلاً، ما ورد في لوحة تأسيس مدفن شلم اللات بن مالكو، من أن: «بيت الأبدية هذا، عَمِلَهُ شلم اللات بن مالكو بن دينيس ... ومن بعد موته شارك ابنه وزوجته مؤشتينا بنصف المدفن زبدعته بن حنبل بن دينيس ... »، ومن هنا، فهي وارثةٌ، ولها حق التصرف بالإرث.

ولم يكن الزواج باثنتين معروفاً، لكن حالةً واحدةً نعرفها من مدفن بولبرك، الذي تم التنقيب فيه عام ١٩٥٨م، نجد فيه، ومن خلال مشهد الوليمة الجنائزية، أنه وُجِدَ على سرير بولبرك، سيدتان، كُتِبَ بقرب كل منهما: «أتت بولبرك» أي زوجة بولبرك، ولكننا، لا ندري، إن كانت هاتان الزوجتان، قد تعايشتا معاً في كنف الزوج، أو حلَّت الثانية بعد موت الأولى؟!.

---

[٤٠٣] – صبّاغ: المرأة في التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٧٤، ١٩٠، ٢٥٨.

وعلى الرغم من حسن وضع المرأة، وتصويرها في المنحوتات، وذكرها وضمِّها في الأسرة، فإنها – على ما يظهر الآن – لم تكن تتولى في الحياة العامة[٤٠٤]، على ما يبدو أية مسؤولية، ما عدا الملكة زينب، وإذا كانت المرأة التدمرية ذات زيٍّ وقلائد وأقراط وأواق وذوائب ورصائع، خاصةً في القرن الأول ومطلع القرن الثاني، فإنها متمسكة بمغزلها، وتمْثُلُ دون استثناء عند قدمي الرجل المُضطجع في الوليمة، ولكن قد تتقدم على ابنها[٤٠٥]؟

وكثيراً ما نشاهد في النقوش التدمرية نصوصاً تتحدث عن تكريم المرأة، مما يدل على رفعة مكانتها في تدمر، وفي قبيلتها العربية، ففي أحد النصوص الذي يتكلم عن بني قمر، وهم إحدى القبائل العربية في تدمر، والنص يتكلم عن تكريم السيدة عتام، وهي زوجة بولوخ، وقد أقام هذا النصب عقليبول، والواضح أنه ابنها، ويعود هذا النقش إلى عام ٨٣ م ويبدو أن عائلة بولوخ وعتام نفسها قد لعبت دوراً هاماً في حياة بني قمر.

كما أن وجود القبائل العربية في تدمر، جعلها تحافظ على العادات والتقاليد العربية الأصيلة، والموروثة عن الأجداد في بابل وآشور وإيبلا وماري، ففي تدمر يوجد عدد كبير من القبائل العربية، التي شكلت جلّ المجتمع التدمري، نذكر منها: بني قمر، بني عذيبول، بني زيبدبول، وبني نبّت، وبني معزن، وبني متبول، وبني يديعبيل، وبني ختري، وبني ميث، وبني فيلا آل ماعزين، وبني زمر، وبني عغرود، وبني قنبت، وبني مجدت وغيرهم كثر، وكلهم قبائل عربية أصيلة[٤٠٦]. وبذلك يكون المجتمع التدمري، مجتمعاً عربياً في عاداته وتقاليده وموروثه، رغم وجود بعض الجاليات الرومانية واليونانية وربما الفارسية وغيرها، والتي لم تشكل سوى أقليات أمام الأكثرية العربية.

---

[٤٠٤] – الحياة العامة بمعنى الحياة السياسية، أي كمناصب سياسية.

[٤٠٥] – البني، عدنان: تدمر والتدمريون، مرجع سابق، ص ١٩٠، ١٩١.

[٤٠٦] – شيفمان: المجتمع السوري القديم، مرجع سابق، ص ١٧٨ وما بعدها.

لقد عاشت المرأة التدمرية حياة الرفاهية، فكانت لها حقوق كثيرة في الزواج والعمل خارج المنزل، كما عملت في كافة الأعمال، منها: في النسيج والصباغة والزراعة وبعض الحرف الأخرى، وكانت تستطيع العمل في التجارة، ولها الحق في التملك والبيع والشراء، وهذا ما أثبتته النصوص التدمرية، ففي أحد النصوص، الذي يثبت حق المرأة في الملكية، ويعود تاريخه إلى عام ١٧١م نقرأ: «في شهر أيار عام ٤٨٢ سلمى ابنة بولاخ بن بوروفا نيابة عن عقيل بن بوروفا، زوجها وموكلها يداي بن فايلاي، يُعلنون لمالك بن مقيم بن عوكي، أنها استلمت منه مئة وعشرين ديناراً من الفضة، أعطته مقابلها ونقلت إليه الحصة التي تملكها هي، وهي عبارة عن مقبرة مؤلفة من ثلاثة أقسام» وكما هو واضحٌ من هذه الوثيقة (وما هي إلا واحدة من العشرات) نستنتج أن للمرأة حق التملك والبيع والشراء والتوكيل عن الرجل، وكتابة العقود والمعاملات[٤٠٧].

المرأة التدمرية من خلال فنون النحت التدمري

يمكننا أن نميز في فنون النحت التدمري نوعين من التماثيل: الأول، وهو التماثيل الخاصة بالآلهة المؤنثة، والثاني، هو الخاص بالنساء العاديات أو الأميرات. إن غنى المرأة التدمرية وسِعة المجال لحركتها ونشاطها، إضافة إلى جمالها وأناقتها، تلفت النظر من قبل النحاتين والمثّالين، فهي المرأة الجميلة التي تهتم بنضارتها ولبسها وزينتها وحليها وجمال وجهها وعيونها وألق شفاهها ورشاقة بدنها وجمال ثوبها ورتابة غطاء رأسها وسمو علمها وثقافتها، فكانت جميلةً، سواء كانت ربة منزل أو صبية عادية أو أميرة أو ملكة أو راقصة في المسرح أو مغنية في ليالي الغناء والسمر، وما وجود مسرحٍ في تدمر، إلا دليل على أن للمرأة التدمرية دوراً كبيراً في

---

٤٠٧ – المصدر نفسه: ص ٦٨.

الغناء والرقص والتمثيل، بلباسها الأخاذ وجمالها الساحر، فما كان من هذا النحّات أو ذاك المثّال، إلا أن انبهر بجمالها وسحرها فبدأ يرسمها من خلال تماثيل رائعة معبرة عن تلك المرأة الساحرة.

وأنا لا أبالغ في ذلك، فما عليك إلا أن تنظر إلى ما تركه الفن التدمري من تماثيل لنسائه، لِتُدرك مدى جمال وسحر وأناقة وغنى المرأة التدمرية بزيها المحترم المحتشم الجميل، الذي يدل على أناقةٍ عالية، وغنىً فاحش، ونظرةٍ نبيلةٍ لامرأةٍ تعرف كيف تجذب قلب الرجل وعقله، بثقافتها وجمالها الفتّان.

ربّات تدمر في الفن

لقد احترم التدمريون وقدّسوا عدة أنواعٍ من الآلهة، سواء الذكرية أو الأنثوية، فكان أن صنعوا لهؤلاء الآلهة تماثيل عديدة، تعبر عن الشكل الذي تخيله التدمري لهذا الرب أو تلك الربة، وحيث كان المثالون التدمريون بارعين في النحت والتمثيل، فقد قاموا بنقل الصورة المتخيلة في عقول التدمريين عن رباتهم، فجاءت صورةً رائعةً، وخاصة للآلهة الربات الأنثويات، وهذا بكل تأكيد، ما يتوافق مع عظمة رؤية التدمري للأنثى سواءً كانت امرأة عادية أو أميرة أو إلهة. فكما كانت نساء تدمر جميلات وحسناوات، كانت آلهة تدمر المؤنثة جميلات يُعبرن عن حب التدمري وتقديسه لهن.

ولقد كثرت التماثيل التي تمثل ربات تدمر، ففي إحدى اللوحات نشاهد هرقل وإحدى الربات وعغلبول ويرحبول، وهي لوحةٌ تعود للقرن الأول قبل الميلاد[٤٠٨]. كما نشاهد تمثالاً للربة اللات على عرشها، وهي عبارة عن مذبح حجري، نُحت عليه الإلهة العربية اللات، جالسةً على عرشها، تُمسك بيدها اليسرى سعف نخيل، وإلى

---

[٤٠٨] – البني، عدنان: الفن التدمري، سلسلة تاريخ الفن في سوريا – ٣ – ص ٣٠.

جانبها سبعٌ جالس، دلالة على قوة اللات، حيث اعتُبر السبع رمز لها، وهو دلالة أيضاً على سمو ورفعة هذه الإلهة السورية الكبيرة.

وفي مكان آخر، نجد تمثالاً، هو عبارة عن رأس الربة اللات ويعود للقرن الثاني الميلادي (متحف تدمر) حيث تخفي الربة شعرها تحت خوذتها الحربية، وعلى الخوذة نشاهد فتحتين للعينين، تحت كلّ منهما رأس ثور، دلالة على القوة والخصب، وهي هنا تشارك الربة اليونانية أثينا في كونها ربة الحرب.

وفي لوحة أخرى، نرى الربة عشتار، وتيكة ربة المدينة، وقد كانت عشتار كربة جالسة على رأسها تاج وتمسك بيسراها إحدى ضفائر شعرها، ويبدو عند قدميها شخص يرفع يده اليمنى ويمسك بيده اليسرى إحدى قوائم كلب، وقربه بناء يعلوه برج، حيث يقف نسرٌ في فمه غصن نباتي، وإلى اليمين ربة ثانية تمسك بيدها غصناً نباتياً وبيسراها طرف ردائها، ويبدو على رأسها تاجٌ له مظهر أسوار مدينة، وفي أسفل اللوحة سطران غير كاملين من الكتابة التدمرية.

كما تم العثور على تمثال الربة (أثينا – اللات) التي ترتدي ثوباً شفافاً رائعاً، يشده حزام معقود فوق الخصر، له ثنيات تتلاءم مع الجسم لإبراز مفاتنه، وعلى صدرها درع مُحلّى برأس ميدوسا، وعلى رأسها خوذة مهشمة، يزين جانبيها بقايا تمثال أبو الهول المجنح، ويعود هذا التمثال للقرن الثالث الميلادي. وفي تمثال آخر، نرى ربة النصر المُجنَّحة واقفةً على كرة، وتمسك بيدها اليمنى سعفة نخيل، حيث تظهر في اللوحة بارعة الجمال والأناقة.

أما على صعيد الفن المدني، فقد قدمت تدمر مجموعة كبيرة من المنحوتات والتماثيل الساحرة لنساء تدمر، نذكر منها: رأس حسناء تدمرية، يعلوه منديل تزينه ثلاثة مشابك، يكشف قليلاً من شعرها المضفور إلى الوراء، وفي أذنيها فردتا قرط جميل، وينمُّ وجهها عن أجمل التعابير، أضف إلى ذلك لوحة حجرية نُحت عليها تمثال تدمريةٍ يطفح وجهها بمعاني الحزن، بدون دموع، والكآبة بصمت، مما يدل على

مدى اهتمام النحات التدمري بإبراز علائم التأثير الباطني، وترجمة الحالات النفسية، واضطراب الإنسان من مصيره ومأساته الأبدية.

وفي لوحة حجرية نُحت عليها تمثال نصفي لسيدة تدمرية تسند رأسها بأصابع يدها اليسرى، وتمسك بيمناها طرف ردائها، ويعلو رأسها خِمارٌ ينسدل على كتفها، وتبدو متدثرة بثوبٍ له أكمام طويلة وعريضة، أطرافه مطرزة بشريط عريض يتألف من أشكال مربعة تُحيط بها دوائر صغيرة لها شكل خرزات.

أما عن تمثال الحسناء التدمرية (سعادا) فنرى فيه جمال نساء تدمر وأناقتهن[٤٠٩]، وفي فسيفساء كاسيوبيا، نرى صورة امرأةٍ عارية الجسد، وفوقها كتابة تدمرية، ووقف حولها امرأتان وثلاثة أطفال مُجنَّحة، وفي جهة اليسار صورة إنسان بجسم حصان، إضافة إلى وجود امرأة مُجنحة وأمامها تيس وفوقها كتابة، وهي تعود للقرن الأول للميلاد وتظهر ميثولوجيا تدمرية تُعبر عن مكانة المرأة.

ومن التماثيل التي تعود للقرن الثاني للميلاد، نشاهد تمثالاً نصفياً لسيدة ترتدي الزي التدمري وتتجمل بأجمل الحلي والقلائد، ويظهر ثديها بوضوح، فهي تُرضع طفلها، الذي لم يبق منه سوى قسمه السفلي، ويُعتبر هذا التمثال من القطع النادرة في تدمر.

وفيما يتعلق بالترابط العائلي، فإننا نشاهد تمثالاً لأم وابنتيها، الأم ترتدي اللباس التقليدي في تدمر، وفي مكان آخر، نرى سيدة تدمرية مع طفلها الذي تحمله على صدرها في مشهدٍ يُظهر الأم التي تهتم بطفلها، كما تهتم بجمالها ورونقها. ونرى على شاهدةِ قبرٍ للفتاة حبيبا التدمرية، نراها ترتدي ثوباً ضيقاً بثنيات عرضانية وطولانية، وتنتعل صندلاً، وشعرها قصير ومُسبل إلى الأمام في طراز أو موضة جديدة لنساء تدمر، كما نشاهد الحلي بأذنيها وعنقها والأساور في يديها.

---

[٤٠٩] – زهدي، بشير: الفن الهلنستي والروماني في سوريا، سلسلة تاريخ الفن في سوريا – ١ – ص ٥٣ – ٥٤.

وفي مشهدٍ آخر، نرى أن الندَّابات المُرافقات لموكب بعل، ونرى الهودج وأمامه الطائفون والأضحية وخلفه الكاهنات، وقد كان هذا الاحتفال يتمُّ سنوياً في السادس من نيسان عادة.

على إن الجمال والأناقة التدمرية، لا يظهران حقيقةً، إلا عند الحسناء (أقما بنت حيدر) التي ترتدي على رأسها عباءة وعمرة وطاقية مطرزة ومزينة بقرطين على شكل عنقود العنب، وعند كتفها الأيمن كتابةٌ تدمرية نصُّها: «أقما بنت حيدر بن نير ... وا أسفاه».

وفي مشهدٍ آخر، نرى تمثالاً نصفياً لسيدة تدمرية وابنها الذي تحمله على كتفها الأيمن، وهو يحمل بيده عنقود عنب، ويظهر إلى جانب التمثال اسمها: «وا أسفاه ... عتام مالك أبناء شلم اللات بن مبارك».

أما الحسناء أقما بنت عطيلينا بن حجاج من أسرة مبارك بن أمريشا، فتتميز بتسريحة شعرها نحو الأعلى، وقد زينته بِحليَةٍ مُرصَّعةٍ، كما زينت عنقها بقلادة من حبات اللآلئ، وبطوق مضفور، لكنها ليست أكثر جمالاً من الأميرة التدمرية أقما بنت عطيل، التي ترتدي الزي التقليدي، وهو الثوب والعباءة، بالإضافة إلى الحلي المتنوعة. ومع أننا قلما نشاهد التدمريات حاسرات الرأس، فإننا أحياناً نشاهدهن وقد سرَّحنَ شعرهن بأجمل تسريحة، كما فعلت سيدةٌ تدمرية، شعرها مسبل ومفروق في الوسط ومُسرَّح على الجانبين بشكل خصلات، وتتزين بقرطين في أذنيها مؤلفين من ثلاثة قطع كروية.

وفي مشهد آخر، لسيدة تدمرية جالسة على مقعدٍ مزخرف ترتدي اللباس التدمري التقليدي، نشاهد على رأسها غطاءً للرأس يُشبه ما يسمى بالعصبة*.

ومن ضمن الأشياء التي تم العثور عليها في تدمر أيضاً، إطارُ مرآةٍ مستطيل الشكل من الرخام الأبيض، تعلوه زاوية هرمية، مزين بدوائر صغيرة وبسعفتي نخيل،

* – هذه العصبة كانت منتشرة في منطقة سلمية حتى وقتٍ متأخر من العصر الحالي.

وفي الوسط دوائر كبيرة لوضع المرآة فيها، وهو دليل على مدى اهتمام المرأة التدمرية بزينتها وجمالها[٤١٠].

هنا، وبعد هذا العرض الجميل لنساء تدمر، لا بد من ذكر سيدة نساء تدمر قاطبة، فهي سيدة الجمال والأناقة والذكاء والحكمة، التي جمعت ما بين العلم والذكاء والحنكة والقوة، وما بين الحسن والجمال، فكانت رائدة المرأة السورية قبل الإسلام بلا منازع، إنها: زينب ملكة تدمر.

زينب ملكة تدمر

فقد أثبتت الأحداث التي تلت موت زوجها أذينة، أنها كانت راجحة العقل، شديدة الطموح، واعيةً للوضع السياسي في روما والشرق، كما كانت شجاعة ذات جمال وشخصية آسرة.

فقد لعبت زينب، سواءً بالنسبة لتدمر أو للشرق أو لروما، دوراً، هو من الأهمية بمكان، أن جعلها تدخل التاريخ من أوسع أبوابه، وبوأها مركز الصدارة بين شهيرات نساء العالم، وجعل من حياتها وملكها أسطورة خلابة من المرويات الشرقية والغربية، ولم يكن حِسُّها السياسي أكثر من ثقافتها، فكانت متفتحة العقل تتكلم بطلاقة، التدمرية واليونانية والمصرية، فقد ضمَّت إلى بلاطها الفيلسوف اليوناني لونجين وأسقف أنطاكية بولس السميساطي، وكانت تحب علم التاريخ، ويصفها مؤرخو الرومان بأنها كانت سمراء لوَّحتْها الشمس، سوداء العينين، يشعُّ منها بريقٌ رائع أسنانها كاللآلئ، وتتكلم بصوت رنان، قوي، وتخطب بجنودها مُعتمرةً الخوذة، وكانت تركب العربة الحربية، وقلما تعتلي السرير المحمول، ولكنها تمتطي الجواد في أغلب الأحيان. وذكروا أنها، كثيراً ما كانت تمشي على قدميها ثلاثة أو أربعة أميال مع الجنود، كما

---

[٤١٠] – معرض المرأة السورية، مرجع سابق، ص ١٣١ وحتى ١٨٩.

كانت تحتمل الشمس والغبار وتصطاد مع أذينة في الأحراش والجبال، وأنها أنبل نساء الشرق وأكثرهن جمالاً[٤١١]، وهي – أي الملكة زينب – من أسرة آل أذينة، التي كان زعيمها أذينة من بني السميدع، فهو من أسرة قديمة ومعروفة ظهرت في القرن الثالث الميلادي، وكان قد أعلن نفسه ملكاً على تدمر عام ٢٥٠ م، فقتله الرومان، ثم انتقل الحكم إلى ابنه خيران ومن بعده إلى أذينة الثاني، ومن بعده إلى ابنه وهب اللات، ثم زينب أم وهب اللات وزوجة أذينة الثاني[٤١٢].

لقد حصلت زينب على لقب أوغستا، وتوسعت مملكتها كثيراً حتى وصلت مصر والأناضول، مما أرعب الرومان، فجهزوا لها الجيوش، حتى هُزمت على يد الإمبراطور أورليان عام ٢٧٢ م[٤١٣]، وانتهت بأسرها قصة الحضارة التدمرية، التي قدمت للعالم نموذجاً لقوة الحضارة، من خلال الفن والعمارة والتجارة والعلم وإنسانية الإنسان، في مواجهة حضارة القوة، التي اتبعها الرومان من خلال القسوة والبطش وسياسة التوسع رغبةً في السيطرة على العالم.

وهنا يجدر بنا أن ننوه للقارئ الكريم، إلى أنه يوجد خطأ تاريخي شائع، وهو عدم التمييز ما بين زينب ملكة تدمر الآنفة الذكر، وما بين **الملكة الزبّاء** ملكة مدينتي حلبية وزلبيا، هذا الخطأ الذي يقع فيه الجميع، حتى المختصون.

فهناك في التاريخ العربي قبل الإسلام شخصيتان نسائيتان كلاهما من بلاد الشام، الأولى زينب ملكة تدمر التي تعرفنا عليها سابقاً، والثانية هي الزبّاء واسمها نابلة على الأغلب (لأنها تجيد رمي النبال) أو نائلة، وقد أسس أبوها عمرو بن الظرب، الذي بسط سيادته على سائر الجزيرة الفراتية والشام الأدنى، وهو ابن حسان ابن أذينة العمليقي، ووالد الزبّاء، التي اشتهرت بِحُسنها وجمال شعرها المسبل الطويل،

---

٤١١ – البني، عدنان وخالد الأسعد: تدمر – أثرياً – تاريخياً – سياحياً، ص ٢٧.

٤١٢ – زكّار: تاريخ الوطن العربي القديم، مرجع سابق، ص ١٣٢.

٤١٣ – الكواكبي، سعد زغلول: زنوبيا والزباء، مجلة المعرفة السورية، العدد ٥٢٠، ٢٠٠٧م، ص ٢٤٨.

وقد اعتقد الكثيرون – خطأً – بأنها زينب ملكة تدمر، حتى أن الكثير من المثقفين لا يدركون ذلك.

لقد ارتبط اسم الزبّاء بحاضرتها المُشادة على شاطئ الفرات الشامي والجزري (من الجزيرة) واسم هذه الحاضرة مُرتبطٌ بمدينتي حلبيا وزلبيا، اللتين تقعان إلى الشرق من مدينة الرقة.

كما إن قصة الزبّاء مرتبطةٌ بجذيمة الأبرش (الوضاح بن مالك بن نصر)، الذي قتل والد الزبّاء[٤١٤]، فقامت الزبّاء بقتل جذيمة الأبرش بالحيلة، إلا أن عمرو بن عدي، وهو ابن أخت جذيمة، وكان في الحيرة، عزم على قتلها، وفعل ذلك. وعمرو ابن عدي هذا، هو مؤسس مملكة الحيرة من الأسرة اللخمية، وهو أبو امريء القيس صاحب نقش النمارة المعروف.

وقد اختلف الباحثون حول زمن حكم الزبّاء، بسبب قلة التنقيبات الأثرية، فكان الاعتماد على الشعر والأدب في الحصول على هذه المعلومات، والتي تُرجِّحُ أنها حكمت حوالي القرن الرابع، لكنها – أي الزبّاء – بكل تأكيد، شخصيةٌ أخرى مختلفة عن زينب ملكة تدمر، وهي بمكانتها، تُضيف إلى مكانة المرأة العربية رِفعةً وسموّاً.

إنها صفحة جديدة من صفحات مجد المرأة العربية، التي سطرتها نساء تدمر وملكتهم زينب، وحتى الزبّاء (حلبيا وزلبيا) كانت ملكة عربية حكمت في ظل حكم الرجال في كافة أصقاع الأرض، وهي إن نُسبت خطأً إلى تدمر، فهي لا تختلف كثيراً عن نساء تدمر وملكتهم زينب، فقد حكمت في قلب البادية السورية أسوةً بزينب، فكانت مدعاةَ فخرٍ لنساء بلاد الشام قاطبةً.

ورغم ادعاء البعض، أن المرأة العربية، غير قادرة على الحكم والسّياسة، إلا أن ما قدمناه حتى الآن – فقط – يُثبتُ عكس ذلك، فزينب والزبّاء، كانتا رمزاً لمكانة المرأة العربية وقدرتها على الحكم وقيادة الدولة، في عصرٍ لم نشاهد فيه أباطرة

---

[٤١٤] – المصدر نفسه.

رومانيين نساء، ولا كسروات فرس، وحتى النساء اللواتي حكمن روما، كُنَّ عربيات حمصيات شقيقات لـ زينب والزبّاء.

إن مملكةً يُجمِعُ أهلها على المثول بين يدي امرأة، وقبولها حاكمة عليهم، هي مملكةٌ تحمل في طياتها رجالاً عرفوا قيمة المرأة، فأعطوها حقها، وعلى الرغم من اعتبار مجتمع تدمر مجتمعاً ذكورياً، فأرباب تدمر الذكور، أكثر من الإناث، وتجار تدمر أكثر من التاجرات، وفلاحو تدمر أكثر من الفلاحات، وملوك تدمر أكثر من الملكات، وعلى الرغم من ذلك، تقبَّل ذكور تدمر حكم الأنثى عليهم، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على إرث حضاري عربي أعطى المرأة حقها، فإنه ما تبقى للمرأة من عصرٍ كانت فيه منبع العطاء، والإلهة الأم، الحاكمة، العالمة، وأم الآلهة، وسيدة المجتمع، فقد حافظ التدمريون – كإرث – في عقلهم الجمعي، على بعضٍ من هذه المكانة للنساء، فكانت نساء تدمر عظيمات.

كما أن نساء تدمر، هُنَّ نساء من نوعٍ آخر، فقد حافظن على شخصية وجمال ورقة وثقافة مختلفة. فالمرأة، لا يمكن أن تنال حقها من الرجل، حتى ولو كانت ملاكاً، ما لم تظهر – هي – بمظهر القادر على قيادة نفسها قبل قيادة الدولة والمجتمع، وهذا ما قامت به نساء تدمر، فقد حافظن على خصائل حميدة، منها العلم والثقافة والعمل والذكاء، إضافة إلى الغنى الاقتصادي، الذي كان له الدور الأكبر في مكانة المرأة التدمرية، مع اعترافنا مجدداً ودائماً، بوجود طبقةٍ كانت على الأغلب صغيرة في المجتمع (غير العبيد) ربما عانت فيها المرأة كثيراً من الظلم والقهر، فدفعت ثمن أنوثتها، اغتصاباً لها ولحقها ولكرامتها وإنسانيتها، فكانت تبذل في سبيل العيش أغلى الأثمان، من شقاءٍ وحرمان وكرامة ومهانة ومذلة، إضافة إلى وجود طبقة العبيد بمصادرها المختلفة والمعروفة وما تحتويه من نساءٍ، لا حاجة لذكر أوضاعهن في هكذا طبقة، لكنهن كنَّ يعشنَ في مدينةٍ جلُّ نسائها حرائر، فكانت أعدادهن قليلة بالنسبة للمجتمعات الأخرى، وهنا تكمن عظمة تدمر، وعظمة المرأة العربية فيها عبر التاريخ.

ماوية ملكة العرب

كُنّا قد أشرنا سابقاً كيف استطاع الرومان فرض سيطرتهم على بلاد الشام ومن ثمَّ مصر، وعرفنا كيف حافظ العرب على تواجدهم، من خلال إقامة بعض الإمارات والممالك العربية، كان للنساء – فيها – الدور الكبير في قيادة بعض إماراتها، ويكفي هنا أن نذكر منهم زينب ملكة تدمر والزباء ملكة (حلبيا وزلبيا) والآن، نحن معنيون هنا بملكة عربية أخرى لا تقل أهمية عن زينب، ألا وهي ماوية زعيمة العرب في القرن الرابع الميلادي، التي حاربت الروم البيزنطيين وكسرتهم في مواقع عدة، كما كان لها نصيب سابقتها زينب ملكة تدمر ملكة القرن الثالث الميلادي.

لقد كانت المناطق الشرقية بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية هي الأكثر إزعاجاً، ذلك أن الدولة الفارسية الساسانية التي قامت عام ٢٢٦ م، كانت في أوج قوتها ونشاطها وسيطرتها على التجارة الشرقية وعدوَّة روما اللدود. وإذا ما تذكرنا أن المنطقة الممتدة من الفرات إلى العقبة، هي منطقة سهوب تجاورها صحار، وإن سكان هاتين المنطقتين هم جماعات عربية بدوية متنقلة أو حضرية مستقرة في بقاعٍ متباعدة في هذه الرقعة، لأدركنا الصعوبة التي كان يلاقيها أولو الأمر في سبيل المحافظة على نوع من الأمن في تلك الدّيار.

هذه الجماعات العربية أُطلِقت عليها أسماء مختلفة، ومن ثم ضاع اسمها عامة في الفترة التي نحن بصددها. فقد استُعملت على مر تلك القرون تسميات متعددة، منها: (الساميون) والآراميون والسوريون، ثم أسماء الولايات التي قُسِّمت البلاد إليها عبر الفترة الرومانية الطويلة ٦٣ ق.م – ٣١٣م، ثم الأسماء الجغرافية التي تعود إلى الجغرافيين الكلاسيكيين، وهي العرب، والسراسين (الشرقيون)، واسكنتاي أي سكان الخيام. إلا أن المهم في ذلك، هو أن الناحية الإثنية لهذه الجماعات التي كانت تسكن المنطقة المعروفة بالشرق، كانت عربية وحافظت على هويتها.

إن المنطقة التي تهمُّنا بالنسبة إلى الملكة ماوية، هي تلك الممتدة من فينيقيا اللبنانية (الجبلية) عبر الولاية العربية وفلسطين الثالثة إلى سيناء، وهذه المنطقة تخترقها من البحر الأحمر إلى الفرات الحدود الرومانية، التي أقامها ديوقليتان ٢٨٤ – ٣٠٥م من البحر الأحمر إلى الفرات، عبر المنطقة التي هي الآن موضع اهتمامنا، ولنتذكَّر أيضاً: أن القبائل العربية التي كان يشملها تعبير (السراسين) أصبحت في القرن الرابع الميلادي، يُشار إليها بأسمائها، ولو أن ذلك لم يشمل جميع القبائل. ومن هذه القبائل، اللخميون الذين استقروا في المنطقة، وكان من ملوكها امرؤ القيس، الذي نُقِشَ اسمه على قبره (نقش النمارة)*، على الشكل التالي: (امرؤ القيس ملك كل العرب) وهو مؤرَّخ عام ٣٢٨ م.

إلى جانب هذا الملك، وبعض المعروفين بالاسم منهم، هناك ملك ثالث لا نعرف اسمه بالضبط، هو زوج الملكة ماوية، التي خلفته على العرش عند وفاته حوالي ٣٧٥م، الذي يمكن أن يكون قد حكم نحو عشرين سنة، وكان مرتبطاً بالقرابة إلى اللخميين أو التنوخيين، الذين حكمهم هؤلاء الملوك والشيوخ العرب، وكانوا جميعهم مُعاهدين للإمبراطور البيزنطي، أي مرتبطين معه بمعاهدات للقيام بواجبات معينة لقاء بدل مالي، ولم يكونوا يتلقون جراية، أي المكافأة العينية التي تغلب على العلاقات بين الإمبراطور وزعماء القبائل، الذين كانوا بمثابة الأعوان له.

فقد كان يتوجب على المعاهدين، أن يقاتلوا إلى جانب الإمبراطور البيزنطي ضد الدولة الساسانية، وأن يقوموا بحراسة الحدود وحماية النظام القائم ضد جيوب البدو المتنقلين والمقيمين من العرب، وبذلك كانوا يُعتبرون جزءاً من جيش الشرق الروماني. وقد كانت المسيحية في القرون الأولى، قد انتشرت في المدن، لكنها ظلّت

---

* – تقع منطقة النمارة إلى الجنوب الشرقي من دمشق.

بعيدة عن الريف. لكن، ومع دخولنا القرن الرابع الميلادي، أخذت المسيحية تنتشر بين القبائل العربية، وهنا ندخل للحديث عن الملكة ماوية [٤١٥].

كانت ماوية، ملكة قبيلة من العرب شبه البدو، كان أسلافهم قد انتقلوا إلى الصحراء وإلى مناطق جردية جنوبي سورية في القرن الثالث الميلادي، ومن هذا المكان شبه الدائم لمضاربهم المركزية المتنقلة، شنّوا حروباً وتوسعوا في المنطقة حتى شملت مساحات واسعة، ثم عقدوا مع الروم اتفاقاً إلى أن كان حكم ماوية زوجة شيخ القبيلة، التي تسلمت الحكم بعد وفاته باعتبار أنه لم يكن له أولاد، وقد استغلت ضعف الإمبراطورية البيزنطية وحربها مع القوط، فتوسعت شمالاً وجنوباً، ثم عقدت معهم معاهدة، وعند تنفيذ مطالبها، اشتركت بالدفاع عن العاصمة البيزنطية بكتيبة عربية وضعتها تحت تصرف قادة الإمبراطور، فاشتبكت مع العدو في معركة طويلة حُسِمَ أمرها لصالح الإمبراطور، حيث سارع القوط لرفع الحصار عن بيزنطة والرحيل إلى المناطق الشمالية في شبه جزيرة البلقان[٤١٦].

تُعَدُّ ماوية زعيمة القرن الرابع الميلادي، وكان زوجها يحمل لقب فيلارخوس*، وقد أثبتت بعض المصادر، أن ماوية كانت ملكة في حياة زوجها، وكان لها ابنة صبيّة تُجيد الفروسية، وكانت قد تزوجت من قائد فرسان الإمبراطورية البيزنطية ويدعى (الأستراتيلات) فكتور، وذلك بعد معاهدة الصلح التي عقدتها ماوية مع الرومان، تلك المعاهدة التي أملت ماوية شروطها كما رأينا. لكن، بعدما انتهى الرومان من قتال القوط بمساعدة ماوية – كما رأينا – ولأن الغدر من طِباعهم، فعندما تفرغوا من القوط، سعوا للقضاء على ماوية، وقد فعلوا ذلك.

---

[٤١٥] – زيادة، نقولا: ماوية ملكة عربية من القرن الرابع الميلادي، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، العدد ٥٣٨، ٢٠٠٣م، ص ٥٦ – ٦٠.

[٤١٦] – خربوطلي، شكران: ماوية ملكة العرب، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٨١ – ٨٢، ٢٠٠٣م، ص ٤٦.

* وهو تصنيف بيزنطي يعني: العامل لدى الرومان على عرب الشام.

أما ماوية في آخر أيامها، فيبدو أنها اعتزلت الحياة العامة، ولعلها انضمت إلى واحدة من المؤسسات المسيحية، فقضت حياة عبادة وخدمة للمجتمع، ومؤخراً تمَّ العثور على نقشٍ يوناني يعود إلى عام ٤٢٥ م عُثِرَ عليه على مقربةٍ من بلدة (خناصرة) في شمال سوريا، ورد فيه اسم ماوية، حيث عُزِيَ فيه إليها، أنها عملت على بناء صرح القديس توما، وليس ما يمنع أن تكون ماوية – هذه – هي نفسها الملكة السالفة الذكر، فلربما عمَّرت بحيث كانت حيَّة سنة ٤٢٥ م[٤١٧].

وبهذا نكون قد طوينا صفحة جديدة من صفحات نساء العرب العِظام، اللواتي حكمْن قبل الإسلام، واللواتي كُنَّ مثالاً للعطاء في الفكر والقيادة والحنكة السياسية. كما أن هذا العدد الكبير من النساء اللائي استطعن الوصول إلى سُدَّةِ الحكم، لخير دليلٍ على عظمة المرأة الشرقية حينذاك، في حين نرى نساء العرب المسلمات اليوم يُكافحن لنيل شرف حق الانتخاب للبرلمان، وحلم الوصول لمنصب الوزارة في أغلب الدول، وإن كُنّا قد أوردنا الأمثلة الكثيرة عن النساء الحاكمات، فلا غنى لنا من ذِكرِ بعض النساء العالمات، والتي تأتي في مقدمتهن هيباسيّا، الفيلسوفة وعالمة الرياضيات الشهيرة.

---

[٤١٧] – زيادة: ماوية ملكة عربية، مجلة العربي، مرجع سابق، ص ٦٣.

هيباسيّا

لو عُدنا إلى أمهات الكتب الفلسفية، لوجدنا أن عدد الرجال ممن اشتغلوا في مجال الرياضيات والفلسفة، كان أكثر بكثير من عدد النساء اللائي اشتغلن في نفس المجال، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك في تاريخ العرب عدد من النساء ممن اشتغلن في هذه المجالات، فقد وصل عدد النساء اللواتي أحصاهن جيل ميناج بين عامي ١٦١٢ – ١٦٩٢م وهو الباحث في الثقافة الكلاسيكية في العالم القديم، بلغ ٦٥ امرأة، ويُعدُّ أفلوطين ٢٠٥ – ٢٧٠م أول من شيَّد مدرسةً كانت تستقبل النساء في الفترة ما بين ٢٤٠ – ٢٧٠ م.

أما عن أهم شخصية، من بين النساء اللائي اشتغلن في مجال الفلسفة، فتبقى هيباسيّا، فيلسوفه الاسكندرية، المثال السّاطع على قدرة النِّساء على الرقي والجمال والمواجهة والفكر الحر المُنفتح، فهي أولُ شهيدةٍ للفكرِ في التاريخ الإنساني والفلسفي. وُلدت هيباسيّا سنة ٣٧٠م وهي ابنة أليوس ثيون أستاذ الرياضيات في متحف الإسكندرية، وهو من أواخر عظمائه، الذين سُجِلت أسماؤهم في سجل أساتذة متحف الإسكندرية، وقد كتب شرحاً لكتاب (المجسطي) لبطليموس أقرّ فيه بما كان لابنته هيباسيّا من نصيبٍ في تأليفه.

تتلمذت هيباسيّا على يد والدها في الرياضيات والفلك والفلسفة، كما درست الأفلاطونية الحديثة، إضافةً إلى دراستها لفلسفة أفلاطون وأرسطو، ثم عُينت أستاذة للفلسفة في المتحف، وقد قالت عنها دائرة المعارف البريطانية «إنها فيلسوفة مصرية وعالمة رياضيات، ولدت في الإسكندرية سنة ٣٧٠م وماتت في مارس عام ٤١٥ م، وكانت عالمة رياضيات، وعُينت معلمةً في المتحف في سن ٢٥ سنة من عمرها، واستلمت في مكتبة الإسكندرية كرسيَّ الفلسفة».

كانت هيباسيّا تُحاضر في طلاب العلوم الذين يأتون إليها من كل جهات الأرض، وهذا ما يؤكد مدى اتساع علمها وتفوقها. كما كانت جميلة، ولكنها لم تتزوج،

ويروي سويداس عنها، أنها تزوجت وظلت عذراء طوال حياتها. وبسبب عملها في الفلسفة، فقد قوبلت بعدائية كبيرة من رجال الدين، إضافة إلى كونها امرأة وصديقة لحاكم المدينة الوثني أورستيس. إلا إن هذه الحال، قد تغيرت عندما استلم كيرليس منصب واعظ الشعب خلفاً لعمه توفيليوس، والذي دعا إلى محاربة الهرطقة، التي شملت كل ما ليس مسيحياً، فقد سلَّط أتباعه ليهدموا المعابد، ويحرقوا الكتب، ويصادروا الممتلكات. لكن هيباسيّا ظلت تدعو إلى العقل والتسامح والحب بين الناس.

وفي أحد الأيام، وبتحريض من كيرليس وإيعازٍ منه، اعترض طريق عربة هيباسيّا مجموعة من الرُّهبان، يتقدمهم بطرس – قارئ الصلوات – فيقوم بذبحها كالشاة، ثم تم تقطيع جسدها إلى أجزاء، حيث أخذت كل مجموعة جزءاً من جسدها، وبدأت تنزع اللحم عن العظام بِمحّارات حادة. وفي شارع سينارون أوقدوا ناراً وقذفوا إلى اللهب بأعضاء جسدها وهي ترتعش بالحياة [٤١٨]، وقد قدَّم الروائي المعروف يوسف زيدان من خلال روايته الشهيرة (عزازيل) وصفاً مؤثِّراً عن الطريقة التي قُتلت فيها هيباسيّا، كما أورد تصوره لشخصيتها الجذّابة، من خلال إلقائها لمحاضراتها في الإسكندرية [٤١٩]. وبذلك تكون هيباسيّا، النموذج الحي، والمؤكد على قدرة المرأة العربية الدخول في كافة العلوم، وعلى رأسها أم العلوم (الفلسفة).

---

[٤١٨] – تقلا، لينا – وعلي الطه: هيباسيّا فيلسوفة الإسكندرية، مجلة فكر، العدد١٠٧، مرجع سابق، ص ٣٨ – ٣٩.

[٤١٩] – لمزيد من المعلومات انظر رواية (عزازيل) للروائي يوسف زيدان، ط ٥، ٢٠٠٩م، دار الشروق، القاهرة ، مصر.

المرأة العربية عند الغساسنة والمناذرة

كان للغساسنة والمناذرة فصل الختام في سيرة العرب تحت الحكم الأجنبي، الذي تجاوز الألف سنة، من ٥٣٩ ق.م عندما سقطت بابل على يد الفرس ومن ثم بلاد الشام ومصر، مروراً بالمقدونيين (اليونان) ومن ثمَّ الرومان البيزنطيين، حتى عام ٦٣٦م عندما دخل العرب المسلمون بلاد الشام والرافدين، فقضوا على دولة الفرس الساسانية، وأزاحوا البيزنطيين عن بلاد الشام وشمال أفريقيا.

وقد لعب الغساسنة والمناذرة دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبه الحضر في بلاد الرافدين، ومملكة تدمر في بلاد الشام، فكانت مدينة الحيرة وريثة الحضر في حضانة العرب وتجمعهم في مملكة عربية تحت السيادة الفارسية، فيما كان الغساسنة في مدن الجابية وبصرى الشام، قد ورثوا مملكة تدمر في القيام بدولة عربية تحت السيادة الرومانية البيزنطية.

وكما مرَّ معنا سابقاً، فقد حافظ العرب على عاداتهم وتقاليدهم منذ العصور القديمة، خاصةً في الأرياف التي لم يدخلها التأثير الروماني ولا الفارسي إلا قليلاً جداً، فيما زاد هذا التأثير في المدن الرئيسية – كما رأينا – سواء كانت هذه المدن بصبغة عربية عامة، أم أنها كانت يونانية أو بيزنطية بأقليات عربية.

وقد كان العرب يشعرون دائماً بأنهم غرباء عن أولئك المستعمرين، بثقافتهم وسلوكهم ودينهم وأعرافهم وقيمة المرأة لديهم، وكانوا دائماً يشعرون بأواصر القربى التي تجمعهم بأولاد عمومتهم في الجزيرة العربية، حيث كان التواصل مستمراً بينهم عبر التجارة والهجرة المستمرة، من الجنوب نحو الشمال، حيث الخير والأمطار الوفيرة والأرض الخصبة والأهل والعادات والتقاليد المشتركة، وهذا ما أكَّده التاريخ عندما فتح المسلمون بلاد الشام والرافدين، فإنهم لم يلقوا أيَّة مقاومة تذكر من قبل السكان الأصليين، خاصةً في الريف، وإنما انحصرت المقاومة في المدن الرئيسية التي تخضع للسيطرة الرومانية المباشرة، مما يدل على إدراك سكان بلاد الشام والرافدين

لمدى التقارب الذي يجمعهم مع قبائل شبه الجزيرة العربية، وهذا ما حصل تماماً في مصر عندما تم فتحها أيضاً مع بداية الفتوحات الإسلامية.

وقد اكدت الدراسات أن وضع المرأة في بلاد الشام والرافدين، ما هو إلا امتداد لما شاهدناه في شبه الجزيرة العربية، من حيث الأعراف والتقاليد، إلا أن المرأة في بلاد الشام والرافدين، كانت أكثر مدنيَّةً وتحضراً منها في شبه الجزيرة، وذلك بسبب البيئة المحيطة بها، وانضوائها تحت مظلة دولة كبيرة لها قيادتها ومؤسساتها وقوانينها، كدولة الغساسنة، التي تنضوي تحت السيادة الرومانية، ودولة المناذرة التي تنضوي تحت السيادة الفارسية، وقد انعكس هذا – إيجاباً – على وضع المرأة، خاصةً من ناحية السكن واللباس والتحضر والأمان، الذي تؤمِّنه الدولة، وبسبب انفتاحها أكثر على العالم الخارجي، ولانتشار الديانات السَّماوية (يهودية – مسيحية) في بلاد الشام والرافدين، أكثر من شبه الجزيرة العربية، لما تحمله هذه الديانات من قيَمٍ ومبادئ ساعدت أكثر على صون حقوق المرأة ومكانتها، خاصةً الديانة المسيحية وإن على المستوى النظري.

الغساسنة

وهم عربٌ أقحاح، وتؤكد المرويات التاريخية، أنه في حوالي نفس الفترة الزمنية التي كانت فيها الدولة التدمرية آخذة بالزوال، كانت إحدى القبائل العربية الجنوبية تشقُّ طريقها إلى حوران، هؤلاء هم بنو غسان، الذين يُنسب سبب رحيلهم عن اليمن، إلى تصدُّعٍ قديم في سد مأرب. وعند وصولهم إلى حوران، صادفوا سكاناً من العرب، كانوا قد أتوا قبلهم، وهم الضجاعم من قبيلة سليم، فحلوا مكانهم كحكامٍ في المنطقة في ظل السيادة الرومانية.

وقد تنصَّرَ الغساسنة خلال القرن الرابع الميلادي، وكان مؤسس سلالتهم، شخصٌ يدعى جفنة بن عمرو مزيقياء، الذي لا يُعرف تاريخه بوجه التأكيد. وفي الحقيقة إن تاريخ السلالة الجفنية بكامله غامض، وفي التواريخ العربية يختلف عدد

ملوكهم بين أحد عشر واثنين وثلاثين، وتهتم التواريخ البيزنطية بصورة رئيسية بعلاقاتهم مع القسطنطينية، ولا يُعرف بشكل كاف، سوى تاريخ الملوك الخمسة الأخيرين، الذي شمل حُكمهم القرن الذين سبق الإسلام[٤٢٠].

المناذرة

وهم عربٌ أقحاحٌ أيضاً، ويرجعون في تواجدهم، إلى مطلع القرن الثالث الميلادي، عندما حلَّت طائفةٌ من القبائل، التي سكنت غربي مجرى الفرات الأدنى إلى الأراضي الخصبة بين الأنبار والحيرة، مستغلةً ضعف الحكومات الأجنبية المهيمنة على تلك المنطقة، وإن أهم هذه القبائل هي (تنوخ والعباد والأحلاف) أما عن تنوخ أو عرب الضاحية، فهم قبائل طيء وتميم وأسد وصعاليك القبائل الأخرى، وقد عملوا في الرعي وتربية الحيوان، وعاشوا من موارده وسكنوا في بيوت الشعر. أما العباد، فقد سكنوا الحيرة، وهم متحضرون عملوا بالزراعة والتجارة والحرفة. فيما كان الأحلاف، عبارة عن قبائل عربية نزلت الحيرة، ولم تكن في الأصل لا من تنوخ الوبر، ولا من الحضر، الذين دانوا لأزدشير ملك الفرس، وقد حالفوا المناذرة واعترفوا بسيادتهم. وإلى جانب هذه المجموعات الثلاث من القبائل العربية، كان يقيم في الحيرة جماعة من النبط والكلدانيين والبابليين والسريان (الآراميين) وهم من السكان العرب القدماء، كما وُجِدت جماعات قليلة من الفرس واليهود. ثم قامت تنوخ ومن تحالفَ معها بتنظيم أمورها، ومن ثمَّ أخذت بالتحضر والانتقال إلى الحياة المدنية.

ولما قامت الإمبراطورية الفارسية الساسانية ٢٢٦م استمرت أوضاع تنوخ على حالها، بل واعترف بها الساسانيون، إمارةً عربيةً مستقلة. وإن من أشهر ملوك تنوخ، جذيمة الأبرش (الأبرص) وقيل له الوضّاح، وهو الذي حاول الزواج من الملكة الزبّاء

---

[٤٢٠] – حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج١، مرجع سابق، ص ٤٤٦ – ٤٤٧.

(ملكة حلبية وزلبيا)♣، التي قتلته ثأراً لأبيها، ومن بعده انتقل الحكم إلى ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي، الذي اتخذ من الحيرة عاصمةً لِمُلكِهِ، وانتقم من الزبّاء، وتحالف مع الفرس، لِذا يُعدُّ المؤسس الحقيقي لمملكة المناذرة، وأول الحكام من الأسرة اللخمية، فهو أول ملوكها من بني لخم، وقد خلفه في الحكم، ابنه امرؤ القيس صاحب نقش النمارة ما بين ٢٢٨ – ٣٢٨م، الذي بسط سلطانه على القبائل العربية المجاورة[٤٢١].

ديانة الغساسنة والمناذرة

لقد دان الغساسنة بالديانة المسيحية، وقد كان الحارث بن جبلة من المؤيدين للمذهب اليعقوبي*، وقد استطاع أن يُقنع البيزنطيين بتعيين يعقوب البرادعي وثيودورس، أساقفةً في المقاطعات السورية، فتوطدت بذلك دعائم المذهب اليعقوبي.

أما المناذرة، فقد عبد سكان الحيرة الأوائل الأصنام، ورويَ، أن جذيمة الأبرش قد تكهَّنَ، وكان له صنمان يُدعيان الضيزنين، وقد ظل هذان الصنمان حتى أيام المنذر بن ماء السماء، حيث نقلهما وأقامهما على باب الحيرة، وينحني لهما الداخلون إلى المدينة.

كما دان بعض المناذرة ببعضِ الأديان الفارسية، فقد حاول قباذ ملك الفرس نشر الديانة المزدكية، ولما حاول المنذر مقاومته، أقصاه عن الملك وأتى بالحارث الكندي مكانه كي يُساعده على نشرها، لكن كسرى أنوشروان – فيما بعد – اضطهد المزدكية، وأعاد المنذر إلى العرش.

♣ – وهي غير زينب ملكة تدمر، التي أسرها الرومان كما مرَّ معنا سابقاً.

[٤٢١] – زكّار: تاريخ الوطن العربي القديم، مرجع سابق، ص ١٨٧ وما بعدها.

* – وقد كان أصحاب المذهب اليعقوبي يقولون: أن للمسيح طبيعة واحدة أو أقنوماً واحداً، وقد أسسه يعقوب البرادعي المولود عام ٥٠٠ م.

على أن أهم الديانات التي انتشرت في الحيرة، هي المسيحية، التي بدأت بوادرها منذ القرن الأول الميلادي، ويدَّعي الطبري أن امرأ القيس، أول من تنصَّرَ من ملوك الحيرة. وقد كان انتماء المناذرة المسيحي، على المذهب النسطوري، الذي دخل المنافسة مع مذهب اليعاقبة، الذي اتبعه الغساسنة*، وكان من مظاهر انتشار المسيحية في الحيرة، كثرة الأديرة التي تجاوز عددها العشرين ديراً وأشهرها دير هند الكبرى[٤٢٢].

وقد امتاز كل من الغساسنة والمناذرة، بثقافتهم الراقية، إذ أقام الغساسنة حضارة نمت وترعرعت في سوريا بفضل العناصر الآرامية واليونانية والرومانية، فكانت مزيجاً من تأثيرات بيزنطية وساسانية وإرثٍ عربي عريق، بينما نرى أن المناذرة، قد تأثروا بالحضارة الفارسية واليونانية والسريانية، وكان لمعرفة أهل الحيرة اللغة الفارسية أثرٌ في نقل الآداب الفارسية، وقد تقدمت الحيرة في الطب أيام المناذرة واحتفظت بشهرتها فيه حتى بعد قيام الدولة العربية الإسلامية، كما حفلت بالمدارس ومعاهد العلم، وقد حاول ملوك المناذرة تقليد مظاهر أُبَّهة بلاط الساسانيين، فَلبِسوا التيجان واستعملوا الحُجّاب على أبوابهم.

أما بلاط الغساسنة، فقد حفل بكثيرٍ من الجواري الروميّات والمغنين من مكيين وبابليين ويونانيين، وبموسيقيين من كلا الجنسين، وقد حدثنا الشاعر حسان بن ثابت عن فخامة قصورهم ومجالسِ شرابهم وجواريهم وبذخهم وترفهم وإسرافهم في شرب الخمر ورعايتهم للشعراء[٤٢٣].

---

* – المذهب النسطوري هو المذهب الذي يعطي للمسيح طبيعتين أو أقنومين، أقنوم الناسوت وأقنوم اللاهوت وهو ينسب إلى نسطوريوس المتوفى سنة ٤٥٠ م.

[٤٢٢] – العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ج١، ط١، مرجع سابق، ص ٥٨، ٧٨، ٧٩، ٨٠.

[٤٢٣] – برّو: تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ص ١٧٩ – ١٨٠.

وقد بنى الغساسنة على السفوح الشرقية والجنوبية لحوران، عدداً من القصور والكنائس والأبراج والأديرة والقناطر، ومن قصورهم المعروفة قصر المشتى، ولهم في الرصافة كنيسة كبيرة.

أما عن المناذرة، فقد بنوا العديد من القصور والأديرة، منها قصر الخورنق، الذي بناه النعمان الأعور لكي يُقيم فيه بهرام جور، وكذلك قصر السدير، وهو المقرون دائماً بالخورنق، وإلى جانب هذين القصرين بنوا قصوراً أخرى، منها قصر سنداد، والقصر الأبيض، وقصر الفرس، وقصر الزوراء، الذي بناه النعمان بن المنذر، وقصر العدسيين، وهو أول ما فتحه المسلمين، وكذلك قصر بني بقيلة، هذا إلى جانب عددٍ كبير من الأديرة[٤٢٤].

إن هذا العدد الكبير من الأديرة والقصور عند الغساسنة والمناذرة، يوحي بحياة رغدة وموارد اقتصادية كبيرة، كانت تجنيها الدولتان، وذلك من خلال موقعهما التجاري الهام، وبالتالي سينعكس هذا الرخاء الاقتصادي على حياة السكان بشكل عام، وعلى المرأة بشكل خاص.

وقد ترك لنا الشعراء وصفاً حيّاً لحياة الأمراء الغساسنة في قصورهم، ومنهم النابغة الذبياني وحسان بن ثابت، الذي قال في وصف مجلسٍ للشراب في قصر جبلة بن الأيهم (قبل أن يُسلم): «لقد رأيت عشر قيان: خمساً روميّات يُغنين بالروميّة... وخمساً يُغنيين غناء أهل الحيرة، وكان يفد إليه من يُغنيه من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب، فُرِشَ تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضُرب له العنبر والمسك في صحافٍ من الفضة والذهب»[٤٢٥]. مما يوحي، على أن نساء القصر كن يعشن في سرور وبهجة، لكننا نفترض – بالتأكيد – وجود نوعين من النساء في هذا القصر.

---

[٤٢٤] – العلي: محاضرات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ص ٧٨.

[٤٢٥] – هبو: تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧٤ – ١٧٥.

النوع الأول، هنَّ زوجات الملوك وأمهاتهن وبناتهن، وهؤلاء كانت لهن وبكل تأكيد أهمية ومكانة كبيرة، التي ربما كانت لبعضهن سلطة على الملك، وربما ساهمت إحداهن في توجيه سياسة الإمارة.

النوع الثاني، فهن عبيد القصر والقيان والجواري، اللواتي كن يأتين إما عن طريق الأسر أو الشراء والإهداء، هؤلاء النسوة، كن فقط للمتعة الجسدية الخاصة بالملك والأسرة الحاكمة، فكن لا يختلفن عن الممتلكات الشخصية للملك أو الأمير، يأوي إليهن أو يغادرهن متى يشاء، وربما قطع رأس من يشاء منهن، أو يبيعها، أو يهديها كما تُباع وتُشترى الأغنام والجِمال. فليس لهؤلاء النسوة أيَّة حقوق، إنما عليهن الكثير من الواجبات، فكان يجب عليهن أن يُحيين ليالي الفرح والغناء والرقص، وفي آخر الليل، كُنَّ مصدراً للمتعة الجسدية فقط، فهن بلا كرامة ولا حقوق.

هذا داخل القصر، أما خارجه، فهو انعكاسٌ حقيقي لما يجري بداخله، فقد كان المجتمع مُنقسماً على نفسه ما بين أحرارٍ وعبيد، وكان العبيد حينذاك نوعين، إما عرب وإما أجانب، ومصدرهم الحرب بين القبائل والإمارات العربية، وقد كثرت ظاهرة شرب الخمر في المجتمع الغساني. وكانت طبقة العبيد والإماء تُعاني الكثير من فقدان حقوقها، فليس للمرأة العبدة أية حقوق سواء كانت بيضاء أو سوداء، فهي – فقط – للخدمة الجسدية والمنزلية والمُتع الجنسية.

أما الأحرار، فهم على نوعين، إما أحرار أغنياء عاشت نساؤهم حياة الرغد، وإما أحرار فقراء من الفلاحين والمعدومين، فكانت حياة المرأة عندهم أقرب إلى حياة العبيد والجواري، مع الاحتفاظ ببعض الحقوق، خاصةً فيما يخصُّ الشرف والكرامة، فهن لسن كالعبدات أو القيان. ولقد كانت آفة استباحة النساء والقمار وشرب الخمر من أكبر ما انتشر في ((العصر الجاهلي)) سواءً، عند عرب الجزيرة، أو عرب بلاد الشام والرافدين، حيث نجد الخمرة تجري على كل لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كؤوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها، الشعراء، وعرض لها كثيرٌ في أشعارهم مُفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم، وأكبر دلالة على شيوع هذه الآفة بينهم،

الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم فيما بعد، وما وضعه الإسلام لها من عقابٍ صارم، حتى يكفَّ العرب عنها، وقد شدد الإسلام في عقوبة استباحة النساء وشرب الخمر والميسر، من مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ سورة البقرة، آية (٢١٩)[٤٢٦].

ففي هكذا مجتمع، لا بد وأن تدفع المرأة الثمن الأكبر من كرامتها وحقوقها، فهو مجتمع ذكوري بكل المقاييس، فما عُدنا نسمع عن آلهةٍ مؤنثةٍ راعية لنساء الأرض، وأصبح الإله الأوحد هو الله، وهو إله ذكر يعكس ما يعكس من فكرٍ ينمُّ عن تفوق الذكر على المرأة، ففي الديانة المسيحية، ورغم القداسة التي أُحيطت بها شخصية العذراء، إلا أن حياة المسيح، كانت الأكثر اهتماماً لدى المسيحيين، حتى أن البعض منهم أصبح يعتبر المسيح المذكر هو الإله الأوحد، خاصةً أصحاب الطبيعة الواحدة، الذين يعتبرون أن المسيح أقنوم واحد هو اللاهوت.

وبذلك تراجع حظ المرأة كثيراً على المستوى الديني اللاهوتي، فلم نعد نسمع بعشتار ولا مناة ولا اللات، بما يُمثلنه من مكانة عالية للأنثى في الفكر الجمعي للإنسان، وما ينعكس ذلك على وضع المرأة الاجتماعي، من رِفعَةٍ ومكانة كما رأينا ذلك مسبقاً. هذا على الرغم من بعض الحقوق التي حصلت عليها المرأة في ظل الديانات السماوية كالمسيحية واليهودية، ومن ثم الإسلام فيما بعد، والذي زاد في حقوق المرأة وكرامتها قياساً بمقاييس ذلك العصر كما سنرى لاحقاً.

وكان من الأمور التي انعكست بشكلٍ سيء على النساء في ظل الغساسنة والمناذرة، هو كثرة الحروب بين هاتين الدولتين، وما نتج عنه من حدوثِ حالاتٍ كثيرة من السبي والأسر للنساء، ومن الطرفين، واللواتي كن يُحوَّلن من حياة الحرية إلى حياة الاستعباد والرق، فبعد أن تكون المرأة حرةً طاهرة، تصبح بعد الأسر عبدة عاهرة

---

[٤٢٦] – ضيف، شوقي: العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ص ٧٠، ٧٢.

تُباع وتُستبد، وربما بيعت إلى بلاد الروم والفرس، حيث تذوق هناك الأمرين، هذا إلى جانب الخراب والدمار، الذي عادةً ما ينتج عن الحرب، التي كانت دائماً تأخذ الكثير من الرجال، فقتل كل رجل من الطرفين، يعني أن أسرة قد حُرِمت من مُعيلها، ويعني أيضاً، أن أُمّاً أو زوجة أو بنتاً، سوف تصبح جارية أو خادمة، أو تذوق أسوأ أنواع العذاب، بسبب الفقر، الذي حلَّ بها بعد موت مُعيلها، وحرق أرضها، ودمار منزلها، وهذا دائماً ما كانت تفعله الحروب.

ولقد واصل ملوك الحيرة والغساسنة التنافس فيما بينهم، من أجل مدِّ سلطانهم، كُلٌّ على حساب الآخر، ولأجل كسب ودِّ حليفهم المباشر، فملوك الغساسنة يعملون في ظل الروم، بينما عمل ملوك المناذرة في ظل بني ساسان ملوك الفرس، وقد دامت هذه المنافسة وحروبها بين المملكتين أكثر من قرن، ولم تنته إلا مع الفتوح الإسلامية.

فقد انتصر الغساسنة غير مرةٍ على الحيرة، خاصة في يوم حليمة قرب قنسرين ٥٥٤ م، ويوم عين أباغ ٥٧٠م وقد أحرقوا الحيرة نفسها عام ٥٨٠ م[٤٢٧]، وكان المناذرة يردون على الغساسنة بحرق أراضيهم واجتياحها تاركين الخراب وراءهم، سابين من النساء الكثير، وجاعلين الأكثر أرامل، أو يتامى، أو ثكالى.

أما عن الزواج والطلاق والإرث، فقد كانت عادات العرب عند الغساسنة والمناذرة تُشبه إلى حدٍّ كبير، ما يحصل في شبه جزيرة العرب إبان ما يُسمى (بالفترة الجاهلية) والتي رأيناها سابقاً، مع إعطاء بعض الأفضلية لنساء الغساسنة والمناذرة لِما شاع عن حضارتهم قياساً بحياة عرب الجزيرة، إضافة للظروف الجغرافية والمُناخية من تأثيرات إيجابية على وضع المرأة، وبسبب الاندماج مع الروم والفرس، وتمازج بعض العادات معهم، والانفتاح على الثقافات الأخرى، إضافة إلى دخول الدين السّماوي (يهودي ومسيحي) حياة الناس في بلاد الشام والعراق، وبشكل أوسع من الجزيرة، ولربما كان لهذا انعكاسٌ إيجابي على النساء في حالاتٍ خاصة، منها مسألة

---

٤٢٧ - الفاخوري، حنا: تاريخ الأدب العربي، ص ١٢٥ - ١٢٦.

الوأد – رغم قلتها – في الجزيرة، إضافة إلى بعض مسائل الزواج، حيث حَرَّمت المسيحية الكثير من حالات الزواج البغيضة، التي شاعت (ولو بشكل محدود) عند نساء الجزيرة، كزواج المقت وغيرها.

إضافةً إلى أن المسيحية، قد رفضت الطلاق، وحضّت على العِفّةِ والأخلاق، وما لهذا من تأثيرٍ إيجابي – أيضاً – على حياة النساء في بلاد الشام والعراق، مع اعترافنا – الدائم – بأن حياة النساء في الأرياف، كانت أفضل من حياة النساء في المدن، وذلك لابتعادهن عن المؤثرات الخارجية السيئة، وحفاظهن على عاداتهن وتقاليدهن السابقة، إضافة إلى أن عمل المرأة في المنزل وخارجه خاصةً في الحقل وقيام المرأة بمساعدة الرجل في الزراعة وبعض الصناعات الغذائية (اللبن) وعملها في الغزل والنسيج، مما يعطي المرأة مكانةً اقتصادية كبيرة، خاصةً في اقتصاد المنزل، وما ينعكس عنه من زيادةٍ في مكانتها عند الرجل والأولاد، كما أن حياة الفقر عامة في الأرياف، كانت تمنع وجود ظاهرة الإماء والعبيد والجواري، فنساء الريف يعملن في كل شيء، من طبخ وتربية الأولاد وخدمة الرجل وزراعة الحقل ونسج الملابس وغزل الصوف، وهذا ما جعل الرجال يستغنون عن شراء العبيد والإماء. وخلاصة القول، كانت المرأة الريفية وما زالت وستظل تحظى بمكانةٍ عالية، لِما لها من ارتباطٍ في الدورة الاقتصادية لحياة الأسرة والمجتمع.

نساء شهيرات قبيل مجيء الإسلام

إذا كنا نعتقد بأن وضع النساء عامة إبان العصر الذي سبق الإسلام سيء، بسبب الظروف التي ذكرناها سابقاً، والتي جاء على رأسها اقتتال القبائل العربية وخضوعها للسيطرة الأجنبية وشيوع الفكر الذكوري الجمعي، إلا أن كتب التاريخ، حفظت لنا أسماء الكثير من النساء، اللواتي استطعن أن يحظين بمكانةٍ عالية، وحظٍّ كبير من الشهرة، بسبب وجودهن ضمن الأسر الحاكمة، اللواتي ربما يُعبِّرن عن فئةٍ ليست بالقليلة من نساءٍ نلن مكانةً اجتماعية متقدمة، نذكر منهن:

ماريا جدة الغساسنة الكبرى

والتي ينسبون إليها الغساسنة، والتي ورد اسمها في شعر حسان بن ثابت، الذي قال فيها:

أولادُ جفنةَ حولَ قبرِ أبيهم   قبرُ ابن ماريا الكريم المفضل

فقد جعلها المؤرخون حفيدةً لجفنة، الجد الأول للغساسنة، فهي بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، وقد كانت أمّاً للحارث بن جبلة الملقب بالحارث الأعرج أو الحارث بن أبي شمر[٤٢٨].

حليمة ابنة الحارث بن جبلة

الذي ورد ذكره سابقاً، والذي كان الروم قد عينوه ملكاً على عرب الشام، وأعطوه لقب فيلارخوس*، والذي دخل مع المنذر بن ماء السماء في معركة يوم حليمة، فالبعض ينسبون هذا الاسم إلى مرج حليمة حيث دارت المعركة، والبعض يُصرُّ على

---

[٤٢٨] – صبّاغ: المرأة في التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٣٢١ – ٣٢٢.

* – أي العامل لدى الرومان، كما مرَّ معنا سابقاً.

أنه نسبة إلى حليمة ابنة الحارث، التي نذرها أبوها زوجة لمن يقتل المنذر في المعركة، وكان هذا حافزاً كبيراً للشباب خاصة، فعندما رأى الحارث أن وضع جيشه في المعركة ليس جيداً، دعا ابنته حليمة، وكانت من أجمل النساء، فأعطاها طيباً وأمرها أن تُطيّب من مرَّ بها من جنده، فجعلوا يمرون بها وتطيبهم، ثم نادى: «يا فتيان غسان، من قتل ملك الحيرة، زوَّجْتُه ابنتي، فقال لبيد بن عمرو الغساني لأبيه: يا أبت أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة، ولست أرضى فرسي فأعطني فرسك، فأعطاه فرسه. فلما زحف الناس واقتتلوا ساعة، شدَّ لبيد على المنذر فضربه ضربة ثم ألقاه عن فرسه، وانهزم أصحاب المنذر من كل وجهٍ، ونزل لبيد واحتز رأسه، وأقبل الحارث وهو على فرسه ينظر إليهم فألقى الرأس بين يديه، فقال له الحارث: شأنك بابنة عمك، فقد زوجتكما، فقال: بل أنصرِفُ فأواسي أصحابي بنفسي، فإذا انصرف الناس انصرف»[٤٢٩].

ماوية ابنة عفرز

وهي أميرة الحيرة، وزوجة حاتم الطائي، التي اختارت بنفسها، زوجها (حاتم الطائي) من ضمنِ ثلاثةٍ من سادات العرب تقدموا لخطبتها من قبيلة طيء، بعد أن استمعت إلى وصف كل واحد منهم لنفسه، وقد وقع اختيارها على حاتم الطائي لأن الخاطب الثاني زيد الخيل وتَّرَ العرب بكثرة غزواته، فمقام المرأة معه قليل، إذ لا بد أن يؤخذ بالثأر منه يوماً، مما يدل على حكمتها وبعد نظرها. والبعض الآخر يقول عن ماوية: أنها من قيان الحيرة، وهذا غير منطقي، بينما وصفها كتاب الأغاني: أنها إحدى ملكات الحيرة، وعلى الأغلب، إنها أميرة، لأنه لم يكن هنالك ملكات في

[٤٢٩] – إبراهيم، محمد أبو الفضل، وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص ٥٤ – ٥٥.

الحيرة[٤٣٠]. كما أن اختيارها لحاتم الطائي، يُعطي دلالتين على مكانتها وإرادتها في الاختيار، ويدل على بعد نظرها، فحاتم الطائي كريم، وهو من أجواد وسادات العرب، وهذه خصلة تشدُّ النساء الحكيمات، وليس النساء العاديات.

ماء السماء

وهي أم المنذر بن امرئ القيس، وزوج هند الكبرى، وقد اشتهرت ماء السماء بجمالها وحسنها ونسبها، فهي ماريا بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة.

هند

أم ملك الحيرة الشهير (عمرو بن هند) وزوجة المنذر بن امريء القيس بن ماء السماء، وكانت أميرة مسيحية من غسان، وهي التي ثبَّتت مبادئ المسيحية في ابنها عمرو فنشأ نصرانياً، وقد اشتهرت بتحمسها لنصرانيتها، حتى إنها علَّمت دينها لابنها عمرو، وقد ابتنت أديرةً في الحيرة، منها دير هند الكبرى، وهي التي ترويها كتب الأدب في محاولتها تسخير (أم عمرو بن كلثوم) لخدمتها على طلب من ابنها (عمرو بن هند) والذي عُرِفَ في التاريخ بجبروته واستبداده.

وقد كانت هند ذات شخصية كبيرة لعبت دوراً أكثر فعاليّة، حتى نُسب إليها ابنها، ولعلَّ صمودها على المسيحية في وقتٍ أراد فيه كسرى فارس (قباذ) فرض المزدكية على زوجها ومن يتبعه عاملاً في بروز اسمها.

حرفة

ابنة النعمان بن المنذر ٥٨٣ – ٦٠٥م والملقب بأبي قابوس، واسمها على ما تذكر بعض المصادر هو هند أيضاً، وقد لُقِبت بـ هند الصغرى، والتي اشتهرت في

---

[٤٣٠] – صبّاغ: المرأة في، مرجع سابق، ص ١٦٣.

التاريخ بطلب كسرى أبرويز يدها للزواج منها، فرفض النعمان ذلك، لأعجمية كسرى أولاً، ولميوله العربية، ورغبته في الاستقلال عن فارس ثانياً، فغضب كسرى منه واعتقله، حيث مات في معتقله، وقد كان قتله سبباً في قيام معركة ذي قار الشهيرة عام ٦١٤ م[٤٣١]، كما كان لهند بنت النعمان دورٌ كبير في هذه المعركة، إذ أنها عندما علمت بمسير جموع كسرى، والعربُ وَجِلة خائفة، قالت:

ألا أبلغ بني بكر رسولا   فقد جدَّ النفيرُ بعنفقيرِ
فليت الجيش كلهم فداكم   ونفسي والسرير وذا السرير
كأني حين جدّ بهم إليكم   معلّقة الذوائب بالعبورِ
فلو أني أطقت لذاك دفعاً   إذاً لدفعته بدمي وزيري

فلما بلغ الخبر بكر بن وائل، سار هانئ بن مسعود، حتى انتهى إلى ذي قار[٤٣٢] التي انتهت بنصرِ العرب، وكانت هند – هذه – قد بنت ديراً، سُمِّيَ بدير هند الصغرى، وقد نَذرت على نفسِها التَّرهُّبَ فيه حتى الموت، إلا إذا أفرج كسرى عن أبيها، ولكنه – أي كسرى – لم يفعل، ففعلت هي ما نذرت، ولما فتح خالد بن الوليد الحيرة، سلَّمت عليه، ولكنها أبت الدخول في الإسلام والزواج من رجل شريف مسلم، وبقيت في ديرها[٤٣٣] حتى ماتت.

رُقاش

وهي التي ملَّكتْ بني لخم بطريقة غير مباشرة، مُلكَ الحيرة، عن طريق تزويجها نَفسَها لعدي بن نضر بن ربيعة، الذي يرجع نسبه إلى لخم، ورقاش – هذه – هي أم

---

[٤٣١] – المصدر نفسه: ص ١٤٦، ٣١٩، ٣٢٠.
[٤٣٢] – إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص ٢٧ – ٢٨.
[٤٣٣] – صبّاغ: المرأة في، مرجع سابق، ص ٣٢٠ – ٣٢١.

عمرو بن عدي مؤسس دولة المناذرة، إذ أن جذيمة الوضاح (الأبرش) أوصى لابن أخته – هذا – بالملك من بعده[٤٣٤].

ونظراً لوجود هذا العدد الكبير من هؤلاء النساء، في إمارتي الغساسنة والمناذرة، ربما نستطيع أن نحكم على أن المرأة لديهم، كانت تحظى بمكانة جيدة، خاصةً من كانت ذات صلة بالأسرة الحاكمة، وحينها تثبت مقدرتها على التميز والشهرة، ولربما استطاعت بعضهن الحكم بشكل غير مباشر، فقد كان للبعض منهن السبب في نصر العرب في معركة ذي قار، ومنهن من علَّمت ابنها المسيحية، وأخرى اعتُبرت السبب في تأسيس إمارةٍ جديدة، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على مقدرة المرأة العربية في التميز والعطاء، إن أُتيحت لها الفرصة، وقد أثبتت ذلك مِراراً وتكراراً في تاريخ العرب قبل الإسلام، وستثبته فيما بعد دخوله.

إن ما ذكرناه سابقاً، كان لنساءٍ كان لهن الحظ، باعتبارهن وُلِدنَ في أسرٍ ذات نسب وشرف، وسمحت لهن الظروف بأن يحظين بمكانة عالية، أما عن باقي نساء القصر، وكما ذكرنا سابقاً، فكن يُعاملن معاملة فيها الكثير من المهانة والمذلة، فهن فقط للخدمة والمتع الجنسية، ولربما لإرضاء الآخرين ذوي النفوذ عبر إهدائهن كهدايا ذات قيمة في النهار والليل.

هذا عن وضع المرأة داخل القصر، أما خارجه، فقد رأينا كيف كانت المرأة تعاني الكثير من ظروف الحرب والتشرد، وهيمنة المجتمع الذكوري، الذي ثبَّتَ أقدامه أكثر فأكثر، إبان انتشار الديانة المسيحية.

ويجب أن لا ننسى، أن العرب إبان حكم المناذرة والغساسنة، كانوا تحت السيطرة الرومانية والفارسية، المباشرة في أماكن، وغير المباشرة في أماكن أخرى، وما ينتج عن هذا الاحتلال لبلادنا من تأثيرٍ سلبي على المجتمع عامةً، والمرأة خاصة. فالتاريخ والآثار يتحدثان بإسهاب عن مدى التواجد الكبير للرومان البيزنطيين في

---

[٤٣٤] – المصدر نفسه: ص ٣٢١.

بلادنا، فهناك العديد من المدن التي ثبت أن غالبية سكانها كانوا من الرومان. وفي سوريا – الآن – نسمع الكثير – أيضاً – عن مئات من المواقع الأثرية كالمدن المنسيّة، التي اعتُبرت موطن استيطان البيزنطيين، وإن كان إلى جانبهم بعض التواجد العربي الخجول، الذي يأتي بالمنزلة الأدنى، خاصةً في المدن، وهذا يعني، أن بعض النساء العربيات كن أحيانا يُعاملن كجواري وسبايا عند الرومان، وفي هذا انحطاط كبير لِقَدرِ ومكانة المرأة العربية ذات الإرث العريق، الذي دام لقرونٍ عديدة. فقد كانت المرأة العربية تعمل في الحقل والمنزل كعبدةٍ، لا حقَّ لها ولا قيمة، وإنما كآلة بلا إحساس ولا كرامة.

هكذا كان وضع المرأة العربية قبل الإسلام، فنراها تارةً تصل حدَّ التأليه، وطوراً تنحدر إلى مهاوي العبودية، ترزح تحت أقدام الرجال، في مجتمعٍ ذكوري استعماري استبدادي غاصب، وستبقى هكذا حتى يحل الإسلام، كثورةٍ اجتماعية دينية قيميّة غيَّرت الكثير من مفاهيم العصر، إن على المستوى السياسي، أو على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والسلوكي والعرقي، وهذا ما سنراه لا حقاً.

الخاتمة

لا بد وأنها جولة متعمقةٌ في التاريخ، على متن أسطر جُمعت من هنا وهناك، صُوَرُها أخِذَتْ عبر كاميراتٍ أعملتها لكي تلتقط لي صوراً من هذا المصدر أو ذاك المرجع، وبعد معالجتها أعطتني صورة شبه واضحة عن أحوال المرأة عبر التاريخ، شابتها بعض النواقص، التي لم أستطع الحصول عليها، لعدم وجودها في المصادر، أو تقصيراً مني، فعذراً.

فبعد هذا السرد الطويل لتاريخ المرأة العربية عبر مراحل طويلة منه، نكون قد تعرَّفنا على أوضاع المرأة العربية خلال ٨٦٠٠ سنة، فمن عصر المرأة الأول، عصر الألوهية، هذا العصر الذي كانت فيه المرأة سيدة الجميع، فهي الإلهة الأولى والسيدة والخالقة والصانعة والأم الأولى، التي بيدها قيادة الرجل والأسرة والمجتمع، إلى عصرٍ بدأ فيه الرجل يُزاحم المرأة بالعطاء مُحاولاً إيجاد موطئ قدمٍ إلى جانبها.

وقد كان لِتَبَدُّل الظروف الإنتاجية والاقتصادية، وازدياد الاعتماد على القوة العضلية في الإنتاج، الفرصة المهمة، التي زادت من مكانة الرجل، وساعدت في تقدم مكانته إلى جانب المرأة، مع بقائها – أي مكانة المرأة – ساميةً، وقد تجلَّى هذا، من خلال زيادة عدد التماثيل الذكرية، إلى جانب التماثيل الأنثوية، التي كانت المُسيطرة فيما سبق ذلك.

ومع دخولنا العصور التاريخية، وازدياد التعقيد في العلاقات الإنتاجية والاقتصادية، وبدء تشكل ونشوء المدن الأولى، إضافة إلى تشكيل الدول والممالك والإمبراطوريات، وظهور النزعة العسكرية عند الجماعات البشرية من أجل السيطرة على خيرات الآخرين واستعبادهم، زادت أهمية القوة العضلية للرجل، لِتُزيد من مكانته على حسابِ تراجعٍ واضح لدور المرأة، فبدأ عدد الآلهة المُذكَّرة يساوي عدد الآلهة المؤنثة، بل ويتقدم عليه يوماً بعد يوم، لتصبح المرأة في الصف الثاني في المجتمع

بعد الذكر، كمرآة تعكسُ مكانتها عند الآلهة، وذلك لاعتبار أن الآلهة الأم (الأنثى) أصبحت في الصف الثاني بعد الإله الذكر الأول.

لم يكن هذا ليعني تراجعاً كاملاً لدور المرأة، فقد حافظت لها على مكانة جيدة، وخاصةً في الريف، هذا الريف، الذي كان وما يزال يعتمد على المرأة في الإنتاج، بسبب الظروف المعيشية وسهولة العلاقات الاقتصادية فيه. كما أن بقاء المرأة في البانثيون الإلهي – ولو في الصف الثاني – يؤكد على مكانة سامية لها، حتى ذلك الوقت.

أما عن انتشار ظاهرة البغاء، فتدلنا معظم المصادر العلمية، على أن البغاء، قد بدأ في العالم البشري، مع بدء الأسرة الأبوية، شأنه شأن الرق، الذي بدأ – أيضاً – مع بدء الأسرة الأبوية، فالإنسان البدئي – قبل نشوء الأسرة الأبوية – لم يعرف شيئاً اسمه البغاء، لأن الحرية الجنسية كانت ممنوحة للشباب من الجنسين، ولم تعرف المجتمعات الأمومية البغاء، لأن مكانة المرأة الاجتماعية، كانت سامية، ولها نفس حرية الرجل.

ومع دخولنا عصر الاستعمار الخارجي من فارسي إلى يوناني ومن ثم روماني بيزنطي، بدأ دور المرأة في التراجع شيئاً فشيئاً، متأثراً بالظروف السياسية تحت نير الاستعمار، وكذلك بسبب الاختلافات الثقافية بين المستعمِر والمستعمَر. فالمرأة عند الفرس واليونان والرومان، لم تكن بأفضل حالٍ من المرأة العربية، بل كانت دونها.

وقد حافظت المرأة العربية إبان هذا الاحتلال، وخاصةً في الريف (بسبب بُعد التأثيرات) على مكانةٍ مقبولة قياساً إلى وضع المرأة في المدينة، والتي كانت مُجبرةً على الاختلاط بالعناصر الأجنبية والخضوع لمعظم قوانينها، التي هي بالأساس قوانين جائرة بحق المرأة. وهنا لا بد من التذكير للدور الريادي للسيدة العذراء كواحدةٍ من أواخر التجلّيات الرفيعة المستوى للمرأة العربية، وذلك من خلال اعتبارها أمّاً للسيد المسيح عليه السلام.

ومع دخولنا العصر الجاهلي، الذي سبق الإسلام مباشرة، أثبتنا أن المرأة لم تكن على درجةٍ كبيرة من التراجع في المستوى الإنساني، كما حاول البعض الترويج له، سواءً بحسن نيَّة أم بغيرها، فقد حاول البعض إظهار المرأة في العصر الجاهلي على أنها لا تكاد ترتفع عن مستوى العبيد إلا قليلاً، فقد تبيَّن لنا، أن لها مكانة لا بأس بها، فقد كانت شاعرة وأديبة وحكيمة، وذات مكانة جيدة، وما ظاهرة الوأد السيئة الصّيت، إلا ظاهرة عابرة، حدثت في ظروف استثنائية من فقر وقحط، وعند بعض القبائل العربية الفقيرة والضعيفة لا غير.

وهنا لا بد من التذكر – دائماً – أن تقييم وضع المرأة في أيِّ مرحلةٍ من مراحل التاريخ، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار أمرين هامين، هما:

١ – نسبة أوضاع المرأة الجيدة، إلى نسبة أوضاع المرأة السيئة في نفس العصر، فنحن لا نتحدث بالمطلق إيجاباً أم سلباً.

٢ – المرحلة الزمنية، التي تعيش فيها المرأة، فالمرأة في القرن السابع قبل الميلاد، هي غير المرأة في القرن الخامس الميلادي.

فمن خلال هذا العرض، وبنظرة موضوعية، نخلص إلى بعض الاستنتاجات الهامة حول أوضاع المرأة عبر التاريخ:

١ – لقد عاشت المرأة العربية عبر مراحل التاريخ، عبر مخططٍ بياني، كان مرتفعاً جداً منذ ٨٠٠٠ ق. م، وبدأ بالانخفاض تدريجياً.

٢ – قدرة المرأة العربية على قيادة الدول، وإمكاناتها الكبيرة في تولي شؤون البلاد، إن سنحت لها الفرصة، فقد شهدنا الكثير من النساء العربيات اللواتي استطعن تولي مناصب قيادية، وصلت حتى المُلك.

٣ – قدرة المرأة العربية على مزاحمة الرجل في كافة المجالات، إن أتيحت لها الفرصة، سواء في القيادة والحكم، أم في العلم، أم في الشعر والأدب، وغير ذلك من معالم الحضارة الإنسانية.

٤ – إن البحث الجاد في التاريخ، يُظهر لنا الأيادي البيضاء للمرأة في بناء الحضارة الإنسانية، فهي لم تكن في يومٍ من الأيام عبئاً على الرجل، بل كانت سنداً له في الحكم، وبديلاً ممتازاً عنه في حال غيابه.

٥ – إذا ما أرادت المرأة العربية نيل حريتها، يجب عليها:

أ – امتلاك الإرادة لذلك، وعدم انتظار الرجل ليمنحها هذه الحرية، خاصة إذا كان هو بحاجةٍ لها، وبحاجة إلى تطوير نفسه فكرياً وثقافياً، فمسؤولية تحرر المرأة تقع على عاتقها – أولاً – ثم على عاتق الرجل، ثانياً.

ب – كما أنه يجب على المرأة أن تعتزَّ بأنها امرأة قبل كل شيء، وذلك من خلال قراءتها لتاريخها ومعرفة مكانتها، والدور الريادي لها في قيام واستمرار الحضارة الإنسانية.

ج – يجب على المرأة المعاصرة، أن تتذكر دائماً، أن فترة سيادتها وسموها على العالم وعلى الرجل، ما زالت هي الأطول زمنياً بالمقارنة مع فترة انحطاطها وعبوديتها.

٦ – كما أن حُكمَنا على المرأة عبر مراحل التاريخ، يجب أن يكون محكوماً بعدة قضايا، هي:

أ – الفترة الزمنية التي تعيش فيها المرأة.

ب – الظروف السياسية والاقتصادية التي تعاني منها المرأة.

ج – التيارات الفكرية والدينية التي عاصرتها المرأة، إضافة إلى وجودها في ظل ثقافات مختلفة، ناتجة عن وقوع بلادنا العربية لفترات طويلة جداً تحت نير الاستعمار الخارجي.

د – الوضع الفيزيولوجي والتشريحي للمرأة، الذي منعها من مقارعة الرجل عضلياً؟.

وأخيراً، لا يسعني إلا القول: إن هذه الدراسة المتواضعة ليست سوى لَبِنةٍ تُضاف إلى لَبِناتٍ أخرى، لِبِناءِ بُنيانٍ حضاري، يرسم صورةً مُشرقةً للمرأة العربية بكلِّ إشراقاتها وانتكاساتها، ويحدد خطوات سيرها نحو مستقبلٍ مُشرق ملؤه الحرية والتحرر للمرأة العربية، إن أرادت هي ذلك.

كما أودُّ أن أؤكِّد، بأنه ليس هناك عملٌ متكامل، فالخطأ والنقص موجودان دائماً، فإن أخطأت، فعن غير قصدٍ، ومنكم السَّماح، وإن أجدت، فهذا هو المبتغى، وأما النقص فأرجو منكم الإشارة إليه لتداركه في المستقبل.

كما أودُّ القول: أنه كلما كنت أعيد التفكير فيما كتبت، كنت أقول لو أنني قلت كذا، لكان أفضل، ولو أنني بحثت في كذا، كان الأمثل، لكنني أؤكد أنني بذلت قصارى جهدي للبحث عن الحقيقة، وتقديمها لكم بكل موضوعية وأمانة، محاولاً الحصول – فقط – على شرف المحاولة.

تمت

نزار مصطفى كحله

سلمية ٢٨ \ ٦ \ ٢٠١٠م

المراجع العربية

١. ابراهيم، محمد أبو الفضل وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت.

٢. أبو حرب، محمد خير: المعجم المدرسي، تدقيق ندوة النوري، وزارة التربية، سوريا.

٣. أبو عاصي، علم الدين: اقتصاد مملكة ماري – القرن الثامن عشر قبل الميلاد، سلسلة الدراسات التاريخية، منشورات دار الثقافة، دمشق ٢٠٠٢ م.

٤. أبو عسّاف، علي: الآراميون – تاريخاً ولغة وفناً، دار الأماني للطباعة والنشر، طرطوس، سوريا، ط ١، ١٩٨٨ م.

٥. أبو عسّاف، علي: آثار الممالك القديمة في سوريا ٨٥٠٠ – ٥٣٥ ق. م، دراسات ونصوص قديمة (١) منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨ م.

٦. أبو عسّاف، علي: نصوص أوغاريت – وزارة الثقافة، دراسات ونصوص قديمة ٣.

٧. أحمد، علي: تاريخ المغرب العربي الإسلامي، دمشق ط ٥، ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥ م.

٨. أحمد، محمود عبد الحميد، عيد مرعي، فيصل عبد الله: آثار الوطن العربي القديم – العراق – سوريا – مصر، جامعة دمشق، ط ٢، ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤ م.

٩. أحمد، محمود عبد الحميد: دراسات في تاريخ مصر الفرعونية، دمشق ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣ م.

١٠. اسماعيل، فاروق: اللغة الآرامية القديمة، جامعة حلب ٢٠٠١ م.

١١. الأسود، حكمت بشير: الرقم سبعة في حضارة بلاد الرافدين – الدلالات والرموز، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٧ م.

١٢. البني، عدنان: بين التراب والتراث، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٥ م.

١٣. البني، عدنان: الفن التدمري، سلسلة تاريخ الفن في سوريا (٣).

١٤. البني، عدنان: تدمر والتدمريون، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م.

١٥. البني، عدنان، وخالد الأسعد: تدمر – أثرياً – تاريخياً – سياحياً.

١٦. البني، طاهر: ذاكرة الفن التشكيلي في سوريا، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٤ م، ج١.

١٧. الحلو، عبد الله: صراع الممالك في التاريخ السوري القديم – ما بين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية، دار بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٩ م.

١٨. الحمد، محمد عبد الحميد: حضارة طريق التوابل، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٧ م.

١٩. الحموي، خضر: التفاعل القانوني في حوض البحر الأبيض المتوسط – دراسة مقارنة للقوانين منذ خمسة آلاف سنة، دار بيسان للنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.

٢٠. الخطيب، محمد: مصر أيام الفراعنة، دار علاء الدين، دمشق، ط ١، ٢٠٠١ م.

٢١. الخطيب، محمد: الخلود في حضارة مصر القديمة، دار طلاس للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٩١ م.

٢٢. الخطيب، محمد: الحضارة الفينيقية، دار علاء الدين، سوريا، دمشق، ط ١، ٢٠٠٦م.

٢٣. الدفتردار، هاشم، ومحمد علي الزغبي: المرأة في السياسة والاجتماع، دار الإنصاف، ط ١، ١٩٤٩ م.

٢٤. الدقاق، عمر: إيبلا منعطف التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩ م.

٢٥. الذنّون، عبد الحكيم: الذاكرة الأولى – التاريخ القديم لبلاد الشام، منشورات عبد الحكيم الذنّون، دمشق، ط١، ١٩٩٨ م.

٢٦. الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، المتوفى ٦٦٦ هـ: مختار الصحاح، مكتبة النوري، دمشق.

٢٧. الراهب، واحة: صورة المرأة في السينما السورية، وزارة الثقافة، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، ٢٠٠١ م.

٢٨. الرايس، حياة: جسد المرأة – من سلطة الإنس إلى سلطة الجان، دار سينا للنشر، ط١، ١٩٩٥ م.

٢٩. الرفاعي، محمد عبد القادر: المرأة في ماري، وزارة الثقافة، الهيئة العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ط ١، ٢٠١١م.

٣٠. السّاتر، لبيب عبد: كتاب الحضارات، دار المشرق، لبنان، بيروت، ط ٣، ١٩٨٦ م.

٣١. السعداوي، نوال: الأنثى هي الأصل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، منشورات وتوزيع مكتبة العالمية، بغداد.

٣٢. السعداوي، نوال، وهبة رؤوف عزت: المرأة والدين والأخلاق – حوارات لقرن جديد، دار الفكر سوريا، دمشق، ط١، ٢٠٠٠ م.

٣٣. الإنسان والحضارة والمجتمع، عدة مؤلفين. الناشر هاري ل. شابيرو، ت. عبد الكريم محفوض، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٨ م.

٣٤. السواح، فراس: لغز عشتار، سومر للدراسات والنشر، قبرص، ط ٢، الطبعة السورية، دار الغربال، دمشق ١٩٨٦ م.

٣٥. السواح، فراس: قراءة في ملحمة جلجامش، سومر للدراسات والنشر، قبرص، الطبعة السورية، دمشق، ط١، ١٩٨٧ م.

٣٦. السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى – دراسة في الأسطورة، دار الكلمة للنشر، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨١ م.

٣٧. الشمّاط، علي: تاريخ الفن، وزارة الثقافة، سوريا، المعهد العالي للموسيقا، دمشق، ١٩٩٧ م.

٣٨. الشوّاف، قاسم: مع الكلمة الصّافية، منشورات دار الأجيال، دمشق، ط ١، ١٩٦٩ م.

٣٩. العابد، مفيد رائف: دراسات في تاريخ الإغريق، منشورات جامعة دمشق، ط ٤، ٢٠٠١ – ٢٠٠٢ م، ج ٢.

٤٠. العابد، مفيد رائف: سوريا في عصر السلوقيين من الاسكندر إلى بومبيوس ٣٣٣ – ٦٤ ق.م – دراسة سياسية حضارية، دار شمأل للطباعة والنشر، دمشق، سوريا.

٤١. العلي، صالح أحمد: محاضرات في تاريخ العرب، ط ١، ١٩٦٠ م، ج ١.

٤٢. القيّم، علي: المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، دار الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، د. ت، ط ١.

٤٣. القيّم، علي: إمبراطورية إيبلا، دار الأبجدية للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٧٩ م.

٤٤. القيّم، علي: إضاءات من الذاكرة القديمة، وزارة الثقافة دمشق، ط ١، ١٩٨٦ م.

٤٥. اللآلئ – من النصوص الكنعانية – بقلم كبير كهنة أوغاريت – إيلي ميلكو – عن التوراة الكنعانية، دراسة . هـ. ي ديل ميديكو – ترجمه عنه مفيد عرنوق، منشورات مجلة الفكر، لبنان، ط ١، ١٩٨٠ م.
٤٦. المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٩٢٢ – ١٣٥٨ هـ / ١٥١٦ – ١٩٣٩م، جامعة دمشق، ج ١.
٤٧. الموسوعة العربية، سوريا، المجلد الثامن.
٤٨. الناطور، شحادة، وآخرون: مدخل إلى تاريخ الحضارة، دار الكندي، إربد، الأردن، ط ١، ١٩٨٩ م.
٤٩. باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، منشورات مطبعة الحوادث، بغداد، ط ١، ١٩٧٣ م، ج ١.
٥٠. برّو، توفيق: تاريخ العرب القديم، دار القلم العربي للنشر والتوزيع، حلب، ط ١، ١٩٧٣ م.
٥١. بشور، وديع: مبدعون سوريون في تاريخ الإنسانية، مكتبة بالميرا، اللاذقية، ط ١، ٢٠٠٦ م.
٥٢. بشور، وديع: الميثولوجيا السورية، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت.
٥٣. بندلي، كوستي: المرأة في موقعها ومرتجاها، مجلس كنائس الشرق الأوسط، دار العالم العربي للطباعة.
٥٤. بهنسي، عفيف: وثائق إيبلا، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق.
٥٥. بهنسي، عفيف، وآخرون: الآثار السورية، مجموعة أبحاث أثرية تاريخية، لعدد من الاختصاصيين بالآثار السورية، ت. د. نايف بللوز، دار فور فرتس للطباعة والنشر.
٥٦. تاريخ الحضارات العام، الشرق واليونان القديمة.
٥٧. جاموس، بسام: مملكة إيمار في عصر البرونز الحديث ١٦٠٠ – ١٢٠٠ ق.م، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق ٢٠٠٦ م.
٥٨. جبري، عبد المنعم: المرأة عبر التاريخ البشري – صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٩ م.

٥٩. حاطوم، نور الدين، وآخرون: موجز تاريخ الحضارة – حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، ١٩٦٥ م، ج ١.

٦٠. حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ت. جورج حداد، عبد الكريم رافق، وزارة الثقافة بيروت، ط ٢، ج ١.

٦١. حجار، عبد الله: إضاءات حلبية – تاريخ ومعالم وتراث، المطبعة الرقمية، جامعة حلب، ط ١، ٢٠٠٧ م.

٦٢. حداد، جورج، وراتب الحسامي: مختصر تاريخ الحضارة العربية، مطبعة دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٤٤ م.

٦٣. حميدان، زهير: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥ م، في ست مجلدات، المجلد الأول.

٦٤. حمود، محمود: الممالك الآرامية السورية، دار الروافد للثقافة والفنون، دمشق، ط ١، ٢٠٠٨ م.

٦٥. حنون، نائل: حينما في العلا – قصة الخليقة البابلية، دار الزمان للنشر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٦ م.

٦٦. حنون، نائل: الحياة والموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الخريف للنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ٢٠٠٥ م.

٦٧. حنون، نائل: حقيقة السومريين، دار الزمان للنشر والطباعة، دمشق، ط ١، ٢٠٠٧م.

٦٨. حنون، نائل: المدافن والمعابد في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الخريف للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٦ م، ج ١.

٦٩. حيدر، جمال حسن: أوغاريت التاريخ والآثار، دار المرساة للطباعة والنشر، سوريا، اللاذقية، ط ١، ٢٠٠٣ م.

٧٠. خليف، بشار: العبرانيون في تاريخ المشرق العربي القديم، دار الرائي للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٤ م.

٧١. خليف، بشار: مملكة ماري – وفق أحدث الكشوفات الأثرية – ما بين ٢٩٠٠ – ١٧٦٠ ق. م، دار الرائي للنشر، دمشق، سوريا، ط ١، ٢٠٠٥ م.

٧٢. خياطة، محمد وحيد: المرأة والألوهية – دراسة في حضارات الشرق القديم، دار الحوار للنشر، اللاذقية، ط ١، ١٩٨٤ م.
٧٣. داوود، أحمد: تاريخ سوريا القديم – تصحيح وتحرير، دار المستقبل، دمشق، ط ١، ١٩٨٦ م.
٧٤. دلو، برهان الدين: حضارة مصر والعراق، دار الفارابي، لبنان، بيروت، ط ١.
٧٥. دلو، برهان الدين: جزيرة العرب قبل الإسلام – التاريخ الاقتصادي – الاجتماعي – الثقافي – السياسي، دار الفارابي، لبنان، بيروت، ط ١، ١٩٨٩ م، ج ١.
٧٦. دلو، برهان الدين: جزيرة العرب قبل الإسلام – التاريخ الاقتصادي – الاجتماعي – الثقافي – السياسي، دار الفارابي، لبنان، بيروت، ط ١، ١٩٨٩ م، ج ٢.
٧٧. ديوان، عبد الحميد: موسوعة أشهر النساء في التاريخ القديم – منذ فجر التاريخ حتى العصر الجاهلي، دار كتابنا للنشر، لبنان، ط ١، ٢٠٠٩ م.
٧٨. زكّار، سهيل، وشكران خربوطلي: تاريخ الوطن العربي القديم – الجزيرة العربية، دمشق ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣ م.
٧٩. زكرى، أنطون: الأدب والدين عند قدماء المصريين، المتحف المصري، ١٩٩٢م.
٨٠. زهدي، بشير: الفن الهلنستي والروماني في سوريا، سلسلة تاريخ الفن في سوريا (١).
٨١. زيدان، يوسف: رواية عزازيل، رواية تاريخية، دار الشروق، مصر، القاهرة.
٨٢. سارة، خليل: تاريخ الإغريق، دمشق ٢٠٠٦ – ٢٠٠٧ م.
٨٣. سعادة، جبرائيل: أبحاث تاريخية وأثرية، ت. سلمان حرفوش، دار طلاس للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٧ م.
٨٤. سلسلة الأساطير السورية – ديانات الشرق الأوسط، ت. رنية لابات، نقلها للعربية مفيد عرنوق، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٠ م.
٨٥. سليمان، توفيق: دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق. م، دار دمشق للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨٥ م.
٨٦. شريعة حمورابي – وأصل التشريع في الشرق القديم، مجموعة مؤلفين، ت. أسامة سراس، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٥ م.

٨٧. شهيد، عرفان: روما والعرب، ت. قاسم محمد سويدان، دار كيوان للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٨ م.

٨٨. صبّاغ، ليلى: المرأة في التاريخ العربي – في تاريخ العرب قبل الإسلام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٥ م.

٨٩. ضيف، شوقي: العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر.

٩٠. عاقل، نبيه: تاريخ العرب القديم – وعصر الرسول، سلسلة تاريخ العرب والإسلام (١).

٩١. عبدالله، فيصل: تاريخ الوطن العربي – بلاد الشام – سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، دمشق، ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤ م.

٩٢. عبد الرحمن، عمار: مملكة آلالاخ – ألق التاريخ على العاصي، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٨ م.

٩٣. عباس، إحسان: تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٨٧ م.

٩٤. علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ط ٢، ١٩٧٦ م، ج ١، (٣).

٩٥. فرح، نعيم: التاريخ القديم وما قبله، مطبعة دار الكتاب، دمشق، ١٩٨٨ – ١٩٨٩م.

٩٦. فرح، نعيم: معالم حضارات العالم القديم، دار الفكر، ١٩٧٣ م.

٩٧. فرزات، محمد حرب: محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم – مصر القديمة وحضارتها، مطبعة ابن خلدون، دمشق ١٩٨١ – ١٩٨٢ م.

٩٨. قبيسي، محمد بهجت: الكنعانيون والآراميون والعرب في الإمبراطورية الرومانية من القرن ١ ق.م حتى القرن ٣م والأباطرة العرب الذين حكموا روما، دار شمأل – دار طلاس، ط ٢، ٢٠٠٩ م.

٩٩. كحالة، عمر رضا: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٢ م، ج ١.

١٠٠. كمال، ربحي: دروس في اللغة العبرية، دمشق، ط ٦، ٢٠٠٠ – ٢٠٠١ م.

١٠١. كنوز سوريا القديمة، اكتشاف مملكة قطنة، الناشر، متحف الولاية – فورتمبرغ، بالتعاون مع المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا ما بين ٢٠٠٩ ٢٠١٠. م.

١٠٢. محفل، محمد: دراسات في تاريخ الرومان، دمشق، ٢٠٠٠ – ٢٠٠١ م.

١٠٣. محيسن، سلطان: عصور ما قبل التاريخ، دمشق، ط ٩، ٢٠٠١ – ٢٠٠٢ م.

١٠٤. محيسن، سلطان: بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ – المزارعون الأوائل، دار الأبجدية للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٩٤ م.

١٠٥. مرعي، عيد، وفيصل عبدالله: تاريخ الوطن العربي القديم – بلاد الرافدين، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٢ م.

١٠٦. نعيسة، يوسف جميل: مجتمع مدينة دمشق ما بين ١٧٧٢ – ١٨٤٠ م، دار طلاس للنشر، ط ٢، ١٩٩٤ م، في جزأين، ج ١.

١٠٧. هبو، أحمد ارحيم: تاريخ وادي النيل من عصور ما قبل التاريخ إلى عام ٣٣٢ ق. م، حلب، ٢٠٠٣ م.

١٠٨. همّو، عبد المجيد: بلقيس بين الأسطورة والخيال، دمشق، ط ١، ١٩٩٢ م.

المراجع الأجنبية المترجمة للعربية

١. آرمسترونغ، كارين: موجز تاريخ الأسطورة، ت. أسامة اسبر، دار بدايات للطباعة والنشر، سوريا، جبلة، ط ١، ٢٠٠٧ م.

٢. إلليغر، فينفريد: قرطاجة – مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ت. عيد مرعي، دار روافد للثقافة والفنون، دمشق، ط ١، ٢٠٠٨ م.

٣. بابليون، جان: إمبراطورات سوريات، ت. يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٧ م.

٤. بارو، أندريه: ماري، ت. رباح نفاخ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٩ م.

٥. براندت، إيفلين كلينكل: رحلة إلى بابل القديمة، ت. زهدي الداوودي، دار الجيل للطباعة، دمشق، ط ١، ١٩٨٤ م.

٦. بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية – العرب والإمبراطورية العربية، ت. منير بعلبكي ونبيه أمين فارس، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٥٣ م.

٧. بليافسكي، ف. أ: أسرار بابل، ت. توفيق فائق نصّار، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٧ م.

٨. تورتون، جودفري: أميرات سوريات حكمن روما – ١٩٣ – ٢٣٥ م، ت. خالد أسعد عيسي وأحمد غسان سبانو، ط ١، ١٩٨٧ م.

٩. جاردنر، سير آلان: مصر الفراعنة، مطبعة كلارندون، ١٩٦٠ م.

١٠. دوكريه، فرانسوا: قرطاجة الحضارة والتاريخ، ت. يوسف شلب الشام، دار طلاس للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٩٤ م.

١١. ديورانت، ول وايريل: قصة الحضارة، تقديم د. محي الدين صابر، ت. زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت لبنان، ١٩٨٨م، المجلد الأول، ج ١.

١٢. ديورانت، ول وايريل: قصة الحضارة، ت. زكي نجيب محمود، بيروت، تونس – المجلد الأول، ج ١.

١٣. زودن، ف. فون: مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ت. فاروق اسماعيل، دار المدى للنشر والثقافة، دمشق، ط ١، ٢٠٠٣ م.

١٤. سازونوف، ماتفييف: حضارة ما بين النهرين العريقة، ت. حنا آدم، موسكو، ١٩٨٦ م، مطبعة دار المجد، دمشق ١٩٩١ م.

١٥. سومر، دوبونت: الآراميون، ت. الآب ألبير أبونا، منشور في مجلة سومر العدد ١٩، دار الورّاق للنشر المحدودة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٧ م.

١٦. سومر، دبون: الآراميون، ت. ناظم الجندي، دار الأماني، طرطوس، سوريا، ط ١، ١٩٨٨ م.

١٧. سيفمان: مجتمع أوغاريت، ت. حسان ميخائيل إسحق، دار الأبجدية للنشر،، دمشق، ط ١، ١٩٨٨ م.

١٨. سيفمان: المجتمع السوري القديم – القرن ١ – ٣ م، ت. حسان إسحق، منشورات مؤسسة الوحدة، دمشق، ١٩٨٧ م.

١٩. فيررللو، شارل: أساطير بابل وكنعان – ت. ماجد خير بك، مطبعة الكاتب العربي، دمشق ١٩٩٠ م.

٢٠. كريمر، س: إنانا ودموزي – طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ت. نهاد خياطة، دار الغربال، الطبعة السورية، ط ١، ١٩٨٢ م.

٢١. كلينغل، هورست: تاريخ سوريا السياسي ٣٠٠٠ – ٣٠٠ ق. م، ت. سيف الدين دياب، تدقيق عيد مرعي، دار المتنبي للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٨ م.

٢٢. كوتريل، ليونارد: زوجات الفراعنة، ت. فيليب عطا الله، دار الروائع الجديدة، بيروت ١٩٧٢ م.

٢٣. كوفان، جاك: الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد، ت. قاسم طوير، دمشق، ١٩٨٤ م.

٢٤. ماتفييف، وسازونوف: إيبلا بعد قرون من النسيان، ت. يوسف الجهماني، دار حوران للطباعة والنشر، سوريا، دمشق، ط ١، ٢٠٠١م.

٢٥. ماتفييف، وسازونوف: ماري – حضارة مطمورة في الرمال، ت. يوسف الجهماني، دار حوران للطباعة والنشر، سوريا، دمشق، ط ١، ٢٠٠١ م.

٢٦. ماتييه، باولو، ألفونسو أركي وآخرون: إيبلا – عبلاء – الصخرة البيضاء، دراسات أثرية ولغوية وتاريخية، ت. قاسم طوير، مطبعة سوريا، دمشق، ط ١، ١٩٨٤ م.

٢٧. مازيل، جان: تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ت. ربا الخش، دار الحوار للطباعة والنشر، اللاذقية، سوريا، ط ١، ١٩٨٨ م.

٢٨. مورتكات، أنطون: فنون سومر وأكاد، ت. محمد وحيد خياطة، دار العربي للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٨ م.
٢٩. مورتكات، أنطون: تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب توفيق سليمان – علي أبو عساف – قاسم طوير.
٣٠. موسكاتي، سباتينو: الحضارة الفينيقية، ت. نهاد خياطة، دار العربي للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٨ م.

الدوريّات

١. آفاق ثقافية، وزارة الثقافة، سوريا، الكتاب الشهري، ٤٧، ط ٤، ٢٠٠٧ م، محمد عبد المعيد خان: الأساطير والخرافات عند العرب.

٢. الباحثون، العدد ١٥.٠، دار الشرق للطباعة والنشر، دمشق ٢٠٠٨ م.

٣. التراث العربي، العدد ٢٣، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٦ م.

٤. التراث العربي، العدد ٤٧، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٢ م.

٥. التراث العربي، العد ٩٩ – ١٠٠، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٧ م.

٦. الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، المجلد ٧ (ج ١ – ٢)، ١٩٥٧ م.

٧. الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، المجلد العاشر، ١٩٦٠ م.

٨. الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، المجلد ١٤، ١٩٦٤ م.

٩. الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، المجلد ٢٩ – ٣٠، ١٩٧٩ – ١٩٨٠ م.

١٠. الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، المجلد ٤٣، ١٩٩٩ م.

١١. الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، المجلد ٤٥ – ٤٦، ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣ م.

١٢. العاديّات، الكتاب الأول ١٩٧٥ م، عاديّات حلب بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي ومع جامعة حلب.

١٣. العاديّات، الكتابان ٦ – ٧، ١٩٩٢ م، عاديّات حلب بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي ومع جامعة حلب.

١٤. العاديّات، الكتاب العاشر، ٢٠٠٣ م، عاديّات حلب بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي ومع جامعة حلب.

١٥. العاديّات، العدد الأول، ٢٠٠٤ م، جمعية عاديّات حلب.

١٦. العاديّات، العدد الثالث، نشرة غير دورية، جمعية العاديّات فرع سلمية.

١٧. العربي، العدد ٥٣٨، ٢٠٠٣ م، وزارة الإعلام، الكويت.

١٨. الفكر العربي، العددان ١٧ – ١٨، ١٩٨٠ م، طرابلس، ليبيا.

١٩. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٤٥٣، ٢٠٠١ م.

٢٠. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥٠٤، ٢٠٠٥ م.

٢١. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥٠٥، ٢٠٠٥ م.
٢٢. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥١٥، ٢٠٠٦ م.
٢٣. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥٢٠، ٢٠٠٧ م.
٢٤. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥٣٩، ٢٠٠٨ م.
٢٥. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥٤٠، ٢٠٠٨ م.
٢٦. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥٤٢، ٢٠٠٨ م.
٢٧. المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد ٥٦٤، ٢٠١٠ م.
٢٨. مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ٢٠٠٧ م.
٢٩. دراسات تاريخية، العدد ١، جامعة دمشق ١٩٨٠ م.
٣٠. دراسات تاريخية، العددان ٢٣ – ٢٤، جامعة دمشق ١٩٨٦ م.
٣١. دراسات تاريخية، العددان ٢٥ – ٢٦، جامعة دمشق ١٩٨٧ م.
٣٢. دراسات تاريخية، العددان ٢٧ – ٢٨، جامعة دمشق ١٩٨٧ م.
٣٣. دراسات تاريخية، العددان ٣٥ – ٣٦، جامعة دمشق ١٩٩٠ م.
٣٤. دراسات تاريخية، العددان ٣٧ – ٣٨، جامعة دمشق ١٩٩٠ م.
٣٥. دراسات تاريخية، العددان ٤٣ – ٤٤، جامعة دمشق ١٩٩٢ م.
٣٦. دراسات تاريخية، العددان ٤٥ – ٤٦، جامعة دمشق ١٩٩٣ م.
٣٧. دراسات تاريخية، العددان ٦٣ – ٦٤، جامعة دمشق ١٩٩٨ م.
٣٨. دراسات تاريخية، العددان ٧٩ – ٨٠، جامعة دمشق ٢٠٠٢ م.
٣٩. دراسات تاريخية، العددان ٨١ – ٨٢، جامعة دمشق ٢٠٠٣ م.
٤٠. دراسات تاريخية، العددان ٨٣ – ٨٤، جامعة دمشق ٢٠٠٣ م.
٤١. دراسات تاريخية، العددان ١٠٣ – ١٠٤، جامعة دمشق ٢٠٠٨ م.
٤٢. دراسات تاريخية، العددان ١٠٥ – ١٠٦، جامعة دمشق ٢٠٠٩ م.
٤٣. أوغاريت، آثار – رأس الشمرة، دليل سياحي.
٤٤. سلسلة عالم المعرفة، كافين رايلي: الغرب والعالم، ترجمة عبد الوهاب المسيري – هدى عبد السميع حجازي، مراجعة فؤاد زكريا، العدد ٩٠، ١٩٨٥ م، القسم الأول، الكويت.

٤٥. سلسلة عالم المعرفة، د. حسين مؤنس: الحضارة – دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، العدد ٢٣٧، ١٩٩٨ م، الكويت.
٤٦. فكر، العدد ١٠٨، ٢٠٠٩ م، الحزب السوري القومي الاجتماعي.
٤٧. مهد الحضارات، العدد الأول، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ٢٠٠٦ م.
٤٨. مهد الحضارات، العدد ٦ – ٧، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ٢٠٠٩ م.
٤٩. مهد الحضارات، العدد العشر، عدد خاص بالقدس، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ٢٠٠٩ م.

الموسوعات

١ – الموسوعة العربية، المجلد العاشر، ط ١، هيئة الموسوعة العربية، سوريا.
٢ – موسوعة دمشق، مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر – جريدة الثورة بالتعاون مع دار التواصل العربي.

الجرائد الرسمية

١ – شرفات الشام، العدد ٧٠، شباط ٢٠١٠ م، دمشق، سوريا.

البرامج الوثائقية

١ – الجزيرة الوثائقية، قناة الجزيرة، أسرار ملكات النيل، ٢٠٠٩/٣/١٢ م.
٢ – الجزيرة الوثائقية، قناة الجزيرة، مصر الذهبية.

الفهرس

الصفحة

.

المؤلف في سطور

نزار مصطفى كحله

- من مواليد سلمية ١٩٧٠م .
- معهد متوسط في العلوم الصحية / اختصاص تخدير وإنعاش / عام ١٩٩٢م.
- إجازة في الآداب / قسم التاريخ، من جامعة دمشق / ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦م.
- يعمل في مجال البحث في تاريخ الشرق العربي القديم.
- عضو في جمعية العاديّات / فرع سلمية /.

الكتب المطبوعة

- التخدير والإنعاش عبر التاريخ.
- ملكات عربيات عبر التاريخ.
- المدارس والتعليم في تاريخ الشرق العربي القديم – بلاد الشام والرافدين.
- غزوات شعوب البحر.
- قصة للأطفال بعنوان: رعيان العوجة.
- شارك في تأليف كتاب / سلمية المعاصرة /.
- شارك في تأليف كتاب / شخصيات من ذاكرة سلمية /.
- شارك في تأليف كتاب / الآثار والتراث في سلمية /.

الكتب غير المطبوعة

- المرأة في التاريخ ما بين التأليه والتوبيخ، القسم الثاني.
- إبداعات حضارية في تاريخ العرب قبل الإسلام.
- الأختام الأسطوانية.

- ألواح القدر (الـ (مِه) – الأقدار – المصير) كتاب بلاد الرافدين القديم المقدس.
- الحمّامات وأنظمة الصرف الصحي في بلاد الشام والرافدين القديم.
- بعض ملامح التعددية في الدولة الفاطمية.
- مجموعة قصصية بعنوان كوخ إيلي.
- مسرحية الطوفان.
- مسرحية أحيقار الحكيم.
- مسرحية قناديل العبور، ونصوص أخرى.

نشاطات ثقافية مختلفة

- مُحاضر في المراكز الثقافية، وبعض الجمعيات الأهلية.
- ينشر في مجلة المعرفة السورية، وبعض الدَّوريات الأخرى.
- له أبحاث منشورة في موسوعة الآثار السورية...



هذا الكتاب

لابدَّ وإنه تاريخٌ طويلٌ وحافلٌ بالأحداث، عاشته المرأة العربية خلال مسيرتها التاريخية، التي امتدت منذ 8000 سنة قبل الميلاد وحتى ظهور الإسلام عام 610 م، وفي منطقة جغرافية غاية في الأهمية.

فقد ارتقت المرأة خلال هذه المسيرة، مراتبَ ساميّة، بلغت حدَّ التأليه في عصرٍ آمن به الرجل بقدراتها ومكانتها، فقد كانت صاحبة الفضل الأول في اكتشاف الزراعة وغيرها من الإبداعات الأخرى، ومروراً بعصورٍ تساوت فيها مع الرجل، الذي بدأ يُزاحمها مكانتها السّامية، وقد ترافق ذلك، مع الكثير من التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ووصولاً إلى عصرٍ ساد فيه الرجل على المرأة، فأصبحت تقف في الصف الثاني خلفه، وأحياناً لا يُسمح لها -حتى - الوقوف خلفه، فأصبحت ترزح تحت نير العبودية .

يأتي هذا الكتاب - المهم - كدراسةٍ موسوعية، ليُبين أوضاع المرأة العربية خلال فترة زمنية طويلة جداً 8000 ق.م – 610 م، وفي العديد من الممالك والإمارات والدول التي قامت في بلاد الشام والرافدين ومصر وشبه الجزيرة العربية، إضافة إلى الكثير من الترجمات للعديد من النساء العربياتِ وغير العربيات، اللواتي وصلن إلى مراتب عُليا، فهو خير مَعينٍ لكلِّ باحثٍ عن تاريخ المرأة ومكانتها عبر التاريخ.

المؤلف